





موسى عزراک البصرة

محور التبرکات التبرکات

الحياة السیاسية

في البصرة

من (١٤هـ إلى ١٣٢هـ) / (٦٣٤م إلى ٧٤٩م)

تأليف

الدكتور علاء حسن اللاحي

مراجعة وتدقيق وضبط

مركز الدراسات والبحوث

فقه شيعون العراق الاسلامي والاسلامية



العتبة العباسية المقدسة
قسم شؤون المعارف الإسلامية والإنسانية
مركز تراث البصرة

البصرة-شارع بغداد-حيّ الغدير-مقابل مجلس القضاء الأعلى

هاتف: ٠٧٧٢٢١٣٧٧٣٣-٠٧٨٠٠٨١٦٥٧٩

البريد الإلكتروني: basrah@alkafeel.net

الموقع الإلكتروني: mk.iq

ص.ب/٣٢٣

اللامى، علاء حسن مردان، مؤلف.

الحياة السياسية في البصرة من (14 الى 132 هـ / 634 الى 749 م) / تأليف الدكتور علاء حسن اللامي ؛ مراجعة وتدقيق وضبط مركز تراث البصرة، قسم شؤون المعارف الإسلامية والإنسانية-الطبعة الأولى-البصرة، العراق : العتبة العباسية المقدسة، قسم شؤون المعارف الإسلامية والإنسانية، مركز تراث البصرة، 1441 هـ. = 2020. 728 صفحة ؛ 24 سم.- (موسوعة تراث البصرة : محور التراث التاريخي)

يتضمن ملاحق.

يتضمن ارجاعات ببليوجرافية : صفحة 679-726.

1. البصرة (العراق)--سياسة وحكومة--634-749. أ. العتبة العباسية المقدسة. قسم شؤون المعارف الإسلامية والإنسانية. مركز تراث البصرة، مصحح. ب. العنوان.

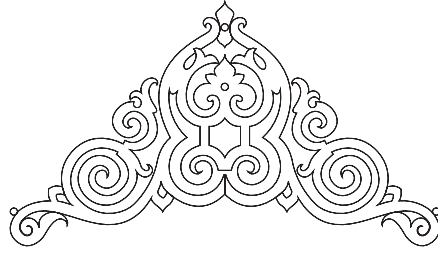
LCC : DS79.9.B3 L36 2020

مركز الفهرسة ونظم المعلومات التابع لمكتبة ودار مخطوطات العتبة العباسية المقدسة

-بطاقة الكتاب-

اسم الكتاب:.....الحياة السياسية في البصرة.
تأليف:.....الدكتور علاء حسن اللامي.
جهة الإصدار:.....العتبة العباسية المقدسة-قسم شؤون المعارف الإسلامية والإنسانية.
تحقيق ومراجعة وضبط:.....مركز تراث البصرة.
الطبعة:.....الأولى.
المطبعة:.....دار الكفيل للطباعة والنشر والتوزيع.
سنة الطبع:.....جمادى الأولى ١٤٤١هـ-كانون الثاني ٢٠٢٠م.
عدد النسخ:.....(١٠٠٠) نسخة.
رقم ISBN:

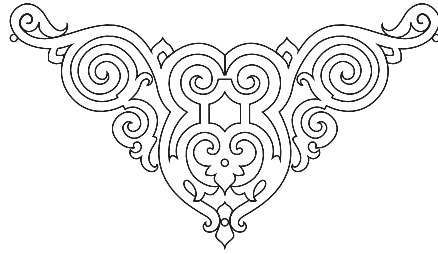
حقوق الطبع والنشر والتوزيع محفوظة على الناشر



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ
وَهُمْ رَاكِعُونَ﴾ وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ ﴿
صدق الله العليُّ العظيمُ

المائدة: الآيتان (٥٥-٥٦)





الأهداء

إلى والديَّ

أهدي هذا البحث الذي هو ثمرة من ثمار عطفها ورعايتها ونبع حنانها،
فقد زرعاً في قلبي الإيمان والطمع... وكلّلت حياتي بالخير والعطاء، لعلّي أوفيهما
بعضاً من شكر الوالدين، وقطرة من بحر دين، وخفضاً لجناح الزل من الرحمة...
وفاء لما تحمّله من الألم في سبيل الأخذ بيدي نحو النور والطريق القويم.



مقدمة المركز

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله الملك الحق المبين، وصلاته وسلامته على المبعوث رحمة للعالمين، وعلى آله حياة المؤمنين، ونور أبصار السالكين، وبصيرة المريدين، الطيبين الطاهرين. أما بعد:

فقد تباينت الآراء والنظريات في تناول التاريخ، وبيان علاقته بالتراث، وعلى الرغم من تنوعها إلا أنها جميعاً لم تختلف في أهميّة التراث ودراسته، ودراسة التاريخ واستنطاقه.

والتاريخ؛ هو ما يحكي عن النشاط البشري الذي حدث في الماضي، بمختلف أبعاده، السياسيّة والاجتماعيّة، والاقتصاديّة، والفكريّة، وغير ذلك، سواء أكان بعيداً أم قريباً. أمّا التراث، فهو ما يبقى ممثلاً عن حركة أمّة من الأمم عبر حقبة زمنيّة مختلفة، وما يبقى قد يكون مادياً، كالآثار والنقوش والتقاليد والعادات والملابس، وقد يكون فكرياً ونتاجاً للجهد العقليّ في مجالات شتى، وعادةً ما يبقى في ذات الإنسان، أو ما يدخل بوصفه جزءاً مكوّناً لهويّته، ويأتي التاريخ ليحكي وينقل مظاهر من هذا الجزء المخصوص، ومن هنا، يُمكن تأكيد القول: إنّ التراث هو حضور السلف في الخلف، وبقراءة التاريخ يقف الخلف على ما تحرّك فيه وأنتجه السلف.

وقد عرّف ابن خلدون التاريخ، بقوله: «إنّ للتاريخ معنيين: ظاهر وباطن، في

ظاهره لا يزيد على الأخبار عن الأيام والدُّول والسَّوابق من القرون الأوَّل، تنمو فيها الأقوال، وتُضرب فيها الأمثال...؛ وفي باطنه نظرٌ وتحقيقٌ، وتعليلٌ للكائنات ومبادئها دقيق، وعلم بكيفيات الوقائع وأسبابها عميق، فهو لذلك أصيلٌ في الحكمة عريق، وجديرٌ بأن يُعدَّ في علومها وخليق^(١).

وتكمن أهمِّيَّة التَّاريخ وخطورته، فيما إذا تمَّ فيه التدليس في نقل المعلومة، أو التَّلَاعب في نقل الآراء والأفكار والروايات، فإنَّ الأجيال اللاحقة ستأخذ ذلك الثَّراث على أنَّه من المُسلَّات؛ لأنَّه صدر في زمنٍ قد يكون بعيداً، ولا يمكن التَّأكَّد من دقَّة ذلك الثَّراث إلَّا من المتعمِّق المختصَّ في تمييز تلك الأخبار والروايات من مصادرها الأوَّليَّة، أمَّا عامَّة النَّاس، فمن الصُّعوبة عليها بمكانٍ أن تُميِّز الخطأ من الصَّواب. فالتَّاريخ عموماً كان قاسياً جدًّا، وظلوماً بشكلٍ كبيرٍ؛ بسبب ما تمَّ فيه من تلاعبٍ من السُّلطة، وأقلامها المأجورة، إذن؛ كيف يُمكننا أن نُسلِّم لذلك الثَّراث المليء بالتَّلَاعب والغشِّ والتدليس، مع أنَّه كُتِبَ بأقلام السُّلطة الجائرة؟ هل يُمكننا أن نتصوَّر أن بإمكان الظالم أن يتورَّع عن التدليس، أو وضع الأخبار والأحاديث المزيَّفة والكاذبة؟! بالتأكيد كلا؛ إذ إنَّ الظالمين فعلوا أشنع وأفظع من ذلك، وهو قتلهم عترة رسول الله ﷺ، وسبيهم ذريَّته، فكيف نأمن على تراثنا من تلاعبهم؟

من هنا؛ تقع علينا وعلى الأجيال القادمة مسؤوليَّة كبيرة في تمحيص وتدقيق ذلك الثَّراث الذي دخل فيه الشيء الكثير من الأهواء والتَّلَاعب؛ من أجل إخراج الدُّرر النفيسة من بين أكوام كثيرة وكبيرة من الطمس والتَّحريف، وتلك مهمَّة شاقَّة تحتاجُ إلى التَّكاتف والتَّعاون بين كلِّ مَنْ لَهُ حرصٌ على تراثه الإسلاميِّ الأصيل لإخراجه إلى العالم بصورته الجميلة بعد أن شوَّه، مع ملاحظة أنَّ هناك

مَنْ يسير على نهجهم وخطّهم وأفكارهم في تشويه الإسلام ومحاربة تراث أهل البيت عليه السلام، كالحركات المتطرّفة المنحرفة التي كَثُرَتْ عن أنبيائها مؤخّراً من داعش وأمثالها.

وإنَّ تاريخ البصرة وتراثها لجزءٌ من ذلك التُّراث الكبير الذي تعرّض إلى التدليس والتغيير، وقد جاءت هذه الدِّراسة - التي نضعها بين أيديكم الكريمة - لتشمل حقبةً زمنيّةً تُعدُّ من أعقَدِ الحقبِ التي مرّت على تاريخ البصرة، تعرّضت خلالها إلى اضطراباتٍ وهزاتٍ كبرى، أبرزها سيطرة بني أميّة على الحكم، وما أعقبها من جرائم ارتكبوها، فأسسوا للظلم أساسه، ورفعوا أتراسه.

لقد اتّسمت هذه الدِّراسة بإحاطتها بمادّةٍ تاريخيّةٍ كبيرةٍ تغطّي جلَّ الحوادث التي مرّت بتاريخ البصرة، ممّا ذكره المؤرّخون، وقد عمّد الباحث إلى تقديمها للدِّراسة، ليخرج بحصيلةٍ مهمّةٍ في دفع العديد من الشُّبهات التي بثّها التاريخ في جنباته عن هذه المدينة المعطاء، ولعلَّ أبرزها وأقساها سمةُ العثمانيّة الجائرة المسيّسة، والكذب الموهومة التي رفع عقيرتها السّاسة، فصدّقها مَنْ لاك أقوالهم، سواءً بحُسن نيّةٍ وسلامةٍ طويّةٍ، أم بإرادةٍ وقصدٍ. فالبصرة كانت حاضرةً في حوادث كبرى، أوّلها فتنة عثمان، مروراً بأحداث معركة الجمل، تلك المعركة التي فُرِضَتْ على أهل البصرة بحُكم التكريس الجغرافي، فمواقفُ نصرَةِ أمير المؤمنين عليه السلام فيها من أهلها كانت جليّة، ثمّ رَفَدَ صفّين مع أمير المؤمنين عليه السلام في مواجهة معاوية لعنه الله، ثمّ أحداثُ كربلاء الحسين عليه السلام الأليمة، مروراً بثورة التّوابين، ثمّ خروج المختار، فتورة زيد، فإبراهيم الحسني، إلى غير ذلك ممّا سيجوبُ قارئ هذا الكتاب في تفاصيله المثبّته بالنصوص التّاريخيّة، عسى أن يُعاد النّظر في جملةٍ من تلك الأحكام العابرة.

ونحنُ إذْ نُقدِّمُ كتابنا هذا، فإنّنا - كعادتنا - بُيِّنُ مراحل عملنا فيه إنصافاً

للجهد وحفظاً له، وقد كانت كما يأتي:

- مراجعة الكتاب مراجعةً علميَّةً فاحصة، وتتبع بعض الجوانب وتكملها بعد أخذ موافقة الباحث في ذلك.

- العمل على تدقيق مادَّة اللُّغويَّة مع ما يتعقَّبها من صياغة جملةٍ عديدةٍ من عباراته وفقراته بما يتناسب، وكان ذلك عبر مرحلتين: أوَّليَّة، وتفصيليَّة.

- انتزاع جملةٍ من العُنوانات الرئيِّسة الفرعيَّة للفصول والأبواب، أو للموضوعات الداخليَّة، بما يوجِّه الخارطة العامَّة لها.

- إخراج الكتاب إخراجاً فنيّاً مميّزاً، مع تصميمٍ غلافه تصميماً يروق لقراءه.

ونحنُ - إذ أفاصَ بنا المقال إلى هاهنا نقدّم شكرنا الجزيلَ للباحث الكريم (د. علاء حسن مردان) على ما قدّمه في هذا الكتاب من جهدٍ متميِّزٍ يخدمُ تاريخَ هذه المدينة الكريمة، ويدفعُ عنها الحيفَ، فنسأله تعالى أن يُوفِّقه في مسيرته ويحقِّقَ مبتغاه.

والشكر من قبل ذلك مقدّمٌ إلى المتولّي الشرعيّ للعتبة العباسيَّة المقدّسة ساحة السيّد أحمد الصّافي - دامت توفيقاته - الذي رعى - وما يزال يرقى - تراثَ أهل البيت عليهم السلام بصورةٍ عامّة، وتراثَ مدينة البصرة منه بصورةٍ خاصّة، فشكرّ له متواتراً.

ونأملُ - بعد ذلك - أن نكونَ قد وفّقنا فيما قصدنا إليه، من خدمةٍ تراثِ هذه المدينة الطيِّبة، ونبتهلُ إليه تعالى أن يُمنَّ على علمائنا الأعلام بالتسديد والتأييد، وأن يُطيلَ أعمارهم في صحّةٍ وعافيةٍ، لا سيّما مرجعنا المفدّى ساحة آية الله العظمى السيّد عليّ الحسينيّ السيستانيّ (دام ظلُّه الوارف) لديمومة تأدية رسالة أهل البيت عليهم السلام وتقديمها إلى الأجيالِ بيضاء ناصعةً، وآخرُ دعوانا أن الحمد لله ربّ العالمين.

البصرة الفيحاء / مركز تراث البصرة

١٤٤١هـ - ٢٠٢٠م

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

المقدمة وتحليل المصادر

الحمد لله الذي علّم الانسان ما لم يعلم، والصلاة والسلام على رسوله الصادق ﷺ، الناطق بعلم ربه ووحيه، وعلى آله الطيبين الطاهرين، الذين واصلوا طريق الحق، ونصروه بدمائهم من بعده، وعلى أصحابه الغر الميامين.

إنّ الحياة السياسيّة التي نقلها لنا التاريخ الإسلامي، إنّما هي محصّلة لتفاعلات متعدّدة ومتشابكة سياسياً واجتماعياً، إلّا أنّ العامل الأساس في صنع هذا التاريخ، مُتجسّد في الأحداث التي شهدتها فترة المسلمين الأوائل، عندما تمكّنوا من نشر الدعوة الإسلاميّة في شبه الجزيرة العربيّة، لبدأ حدّ التفاعل السياسيّ مع تقدّم الوقت، خصوصاً مع وفاة الرّسول الأكرم ﷺ، عندها وقع الاختلاف بين المسلمين في مَنْ يخلف الرّسول في القيادة وحكم الدّولة، ثمّ ظهرت الانشقاقات السياسيّة التي بقيت ضمن حيز محدود مثّلها الحجاز بوصفها مركزاً للدّولة.

ومع سير الأحداث وتقدّم الوقت، أصبحت دولة الإسلام بحاجة إلى الانفتاح على المناطق القريبة منها؛ لتتمكّن من تحقيق النجاح في كسب المزيد من أنصار الدعوة الإسلاميّة والقضاء على مناوئي الإسلام، والتفاعل مع تقدّم الوقت، الذي فرض نفسه على المسلمين وحكومتهم في كفيّة الانفتاح الخارجي، فوجدوا أنّ من الضروريّ إنشاء معسكرات خارج حدود شبه الجزيرة العربيّة، في المناطق

القريبة منها، التي لا تفصلها عنها فواصل طبيعيَّة يصعب التواصل بين المسلمين وحكومتهم في الحجاز بسببها، فوجد الفاتحون المسلمون الأوائل ضرورة إقامة معسكر لهم في جنوب العراق؛ بوصفه منطقة سياسيَّة مهمَّة، وهي التي تفصل بينهم وبين الفرس، الأكثر تسلُّطاً من غيرهم في تلك الفترة.

بناء على هذا، توجَّه المسلمون نحو أرض العراق، وعلى أساس الضوابط التي وضعها حاكمهم عمر بن الخطَّاب للذين كُلفوا بفتح أرض العراق، فتمكَّنوا من تمصير البصرة، ونزلوها، ثمَّ ازدادت أهميَّة هذه المنطقة بعد ذلك؛ بعدما تعرَّف المسلمون على جغرافيتها، وحدودها الطبيعيَّة.

وعليه، كانت تلك المرحلة هي البداية التأسيسِيَّة للمدن العربيَّة خارج حدود الجزيرة العربيَّة، البداية التي كانت في أوائل القرن الأوَّل الهجريّ - السَّابع الميلاديّ -، وكانت عبارة عن معسكرات ومناطق تجمع للمسلمين وانطلاقهم نحو العدو. كانت البصرة أوَّل مصر إسلاميٍّ أسَّسه المسلمون خارج الجزيرة العربيَّة، ثمَّ أُسِّست الكوفة بعد فترة قصيرة من تأسيس البصرة، عندما توجَّهت الجيوش الإسلاميَّة لتحرير العراق من السَّيطرة السَّاسانيَّة.

ومع النجاحات التي حقَّقتها جبهة البصرة العسكريَّة، زادت الحياة الاجتماعيَّة والسَّياسِيَّة أهميَّة بالنسبة إلى المنطقة بأسرها.

إنَّ الذين حكموا الدَّولة الإسلاميَّة كان لهم دور كبير في تحديد واقع المسلمين السَّياسيِّ؛ فهم لم يلتزموا بالطريقة التي سلكها رسول الله ﷺ في حكم الدولة وإدارة أجهزتها، وإنما أصبح هناك فارق كبير بين عهده ﷺ والعهود التي تلتها؛ فإذا كان عمر بن الخطَّاب قد نجح في تحجيم دور الأمصار العربيَّة في مركز الدَّولة وقراراتها، فهذا إنَّما كان لأنَّه لم يسمح للصَّحابة الأوائل بمغادرة الحجاز للانفتاح

على حياة الأمصار الأخرى، فكانت قراراته صارمة لم يتجرأ أحدٌ من المسلمين على تجاوزها؛ خشيةً من درّة عمر، التي كانت أهيب من سيف الحجاج^(١).

ولما مات عمر وتولّى عثمان بن عفّان الحكومة بعده، كان يسير بسيرة صاحبيه (أبي بكر وعمر) طول فترة السنين الأولى من حكمه، ليبدأ بعدها عهده بالتبدّل والتغيّر؛ نتيجة لما أوجده من الفوارق الطبيعيّة بين أهل الإسلام؛ فقد قرّب القريب، وتركّ البعيد، وسلّط أقاربه على حكم الدولة وإدارتها، فساد الاختلاف بين المسلمين في الحجاز أولاً، وفي الأمصار العربيّة خارج الحجاز بعد ذلك ثانياً، وكانت البصرة من ضمن تلك الأمصار التي وجدت أنّ بعض السنن قد بدّلت، وأنّ طرق الحكم وتسّلط الولاة قد اختلفت، وأصبح التناقض بين الحاكم والمحكوم عبارة عن مدى قبول المحكوم في تلك الفترة بقرارات الحاكم وعمّاله، الذين تولّوا مهام إدارة المدن الإسلاميّة.

عندها بدأت الحياة السياسيّة للمسلمين عموماً بالارتباك ارتباكاً واضحاً، الارتباك الذي عكسه الاختلاف الذي حصل نتيجة اختلاف أفكار وذهنيّة المسلمين بين مصر وآخر؛ إذ إنّ الخليفة يرغب بتحقيق شيء يصعب على الآخرين تقبّله، سيّما المسلمين خارج حدود شبه الجزيرة العربيّة، الذين كانوا المبادرين إلى الحدّ من تصرّفات الخليفة الشاذة عن فكر المسلمين، فجاء أهل الأمصار (البصرة، والكوفة، والفسطاط) ليعرضوا على عثمان بعض الشروط التي تحقّق لهم حياة أفضل وأكثر أمناً واستقراراً، لكنّها كانت عروضاً لا تناسب طموحه في الحكم، ولم يكن ليقبل بها؛ نتيجة لوجود بعض العقليّات التي أخذت تهيمن على تصرّفات

(١) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة: ٧٥ / ١٢؛ ابن خلّكان، وفيات الأعيان: ١٤ / ٣؛ المجلسي، بحار الأنوار: ٢٨ / ٣١.

وتبعده عن محيط المسلمين، وما عليه من اتخاذ القرارات اللازمة لواقعه، حتى انتهى عناده إلى مقتله في داره.

كانت تلك المرحلة بدايةً تعقُّد الحياة السِّياسِيَّة للمسلمين عموماً، وللبصرة خصوصاً؛ لأنَّها اشتركت في تغيير حاكم الدولة، إلَّا أنَّها فتحت الطريق أمام حاشية عثمان وغيرها للتوجُّه إليها وإعلان التمرد والعصيان؛ كونها تتمتع بكثرة مقاتليها، وابتعاد أهلها عن محيط الحجاز، وبقاء بعض ساكنيها على عقلِيَّة الخضوع الساذجة، التي ترجع بجذورها إلى الحياة البدويَّة الجاهليَّة، فما كاد الإمام عليّ بن أبي طالب (عليه السلام) يبدأ في حكم الدولة، حتَّى جاءها الناكثون بتحريض من معاوية، يرومون استغلال البصرة وأوضاعها الخاصَّة للثورة ضدَّ الحاكم الجديد، لتشهد أرضها أوَّل معركة تجري بين طرفين مسلمين.

انتهت المعركة بمأساة تركت أثراً بالغاً على مجرى الحياة السِّياسِيَّة في البصرة؛ إذ أدَّت إلى تكوين الاتجاهات السِّياسِيَّة والتيارات المختلفة، الاتجاهات التي عملت بعض الجهات في تلك الفترة المتقدِّمة من عمر الإسلام على استغلال الحزب الذي يؤيِّد وجودها؛ فمعاوية مثلاً حاول إيجاد صيغة معيَّنة من التأثير على المجتمع البصريّ من خلال حزبه المتواجد بين أفراد البصرة، بحيث تفضي إلى نقض بيعة الإمام عليّ (عليه السلام) ومبايعة معاوية، الخطوة التي لم تنجح أبداً بتأثير خضوع البصرة لسلطة الإمام وسيطرته المحكمة عليها، وموالاته أكثر أهلها له (عليه السلام)، فانتهت مساعي معاوية بمقتل رسوله داخل البصرة.

إلَّا أنَّ معاوية لم يكن لينتهي عند هذا الحدِّ من المحاولة الأولى لجذب أهل البصرة، وكسبهم أفراداً مطيعين في حزبه، بل واصل محاولاته بالطريقة نفسها عندما انتُخب الإمام الحسنُ خليفةً للمسلمين؛ فدسَّ أحد رجاله بين أهل البصرة

بههدف التجسس على أوضاعها وأوضاع أهلها واتجاهاتهم، ومحاولة بثّ الفرقة بينهم بما يؤدي إلى الثورة أو القلاقل على الأقلّ وتزلزل الأوضاع.

إلا أنّ هذه المحاولة لم تنجح أيضاً، بل لم تكن ذات تأثير يُذكر على الناس في البصرة، فتمكّن والي البصرة من قبل الإمام عليه السلام حينئذ (عبد الله بن عباس) من إلقاء القبض على رجل معاوية وقتله، فباعت جميع محاولات معاوية في جرّ البصرة إلى جانبه، وتأييده في مساعيه التي تهدف إلى الوصول إلى عرش الدولة وحكمها، بالفشل الذريع.

ومع بداية عهد معاوية في حكم الدولة بعد ما جرى من بيعه الإمام الحسن عليه السلام خليفة للمسلمين، وما قام به معاوية من حروب، وما وقع من خيانات من قبل قيادات جيش الإمام عليه السلام، بحيث أدّى كلّ ذلك إلى الصّلح، رفض أهل البصرة أن يكونوا ممن يدخل تحت نفوذ معاوية، والتزموا ببيعة الإمام الحسن عليه السلام، معارضةً كان من الطبيعيّ أنّها لن تروق لمعاوية وحزبه وطموحاته الكبيرة في السيطرة على العالم الإسلاميّ وغيره، وتسخيره لصالح دنياه، فما كان منه إلا أن وجّه قواته العسكرية إلى البصرة بهدف إخضاعها عسكرياً لأوامره؛ إذ لم يكن ليتّم أيّ شيء من تلك الطموحات بدون ذلك.

استغرق تواجد تلك القوّات في البصرة ستّة أشهر بكاملها، تمكّنت بعدها هذه القوّات من أن تفرض نفوذ الحاكم المستبدّ على أهل البصرة بالقوّة المفرطة، عندها أصبح قانون القوّة هو المنهج المتّبع لدى حكومة معاوية في التعامل مع الذين يرفضون الانصياع لأوامره.

أصبحت البصرة بعد معاوية في مهبّ التقلّبات السّياسيّة والأزمات الحقيقيّة المختلفة؛ من قيام حاكم (خليفة) بدل آخر، وتولية أمير بدل آخر، وتنصيب والٍ

بدل آخر، حتَّى أصبح السَّيفُ الحُلَّ الوحيدَ لبعض الحكَّام في السَّيطرة على واقع البصرة السَّياسيِّ.

أمَّا واقع البصرة السَّياسيِّ في فترات ضعف الدَّولة وانشقاقها، فكان يمرُّ بالاستقلال عن كيان الدَّولة وتشكيل ما هو أشبه بالإقليم المستقلِّ؛ فبعد وفاة يزيد بن معاوية مثلاً، نجد أهل البصرة يتفقون على انتخاب أحدهم لإدارة مصرهم، فوقع الاختيار على عبد الله بن الحارث بن نوفل الهاشميِّ المعروف باسم (ببَّة)، وهو من بني هاشم، خطوة تعكس مدى تصميم أهل البصرة وعزمهم على استغلال فترات الضعف والانحلال التي تدبُّ في جسد الدَّولة الأمويَّة، لتعبِّر عن إرادتها الحقيقيَّة، وعن موقفها الواضح في معاداة الأسرة الحاكمة في تلك الفترة ورفضها.

والذي يبدو، هو أنَّ هذه الأحداث السَّياسِيَّة، جاءت لتردَّ على بعض الاتهامات والتسميات التي لاحقت البصرة لتبعتها عن مسارها الحقيقيِّ الصحيح.

من الطَّبعيِّ أنَّ الحياة السَّياسِيَّة في البصرة كانت ترتبط ارتباطاً مباشراً بمدى استقرار الدَّولة العربيَّة الإسلاميَّة؛ ففي فترات الاستقرار نجد الدور الكبير للبصرة وأهلها في فتوحات الدَّولة وتوسُّعها، وفي صدِّ هجمات الجهات المعادية لها في تلك الفترة؛ إذ كانت تمثِّل القاعدة العسكريَّة للدَّولة وجيوشها وقوَّاتها، فكانت الدَّولة تستغلُّ قدرة أهل الأمصار القتاليَّة في توجيهها نحو الفتوح، ونشر الدِّين الإسلاميِّ.

وعلى هذا، كان لمدينة البصرة تأثيرٌ مهمٌّ خاصٌّ على مجريات التاريخ الإسلاميِّ، التأثير الذي استمرَّ في مردوداته إلى يومنا هذا؛ فهي من المدن التي أسهمت في تطوير حضارة الإسلام والمسلمين؛ فقد قدَّمت عطاءً شامخاً خلال قرون عديدة

بعد تأسيسها، وهي في الوقت الحاضر تمثل ميناء العراق الرئيس، الذي أدى دوراً كبيراً منذ أقدم الأزمنة التي مرّت بها المدينة، وهي ما تزال تؤدّي ذلك الدور المهم في تاريخ العراق الاقتصادي والاجتماعي والثقافي والسياسي.

بناء على جميع ما سبق وغيره مما يبرز الأهمية القصوى التي تتمتع بها مدينة البصرة، تبرز الحاجة إلى إجراء دراسة متكاملة عن جوانبها التاريخية المختلفة التي مرّت بها، فكانت هذه الدراسة التي تحاول البحث عن الحياة السياسية في البصرة بين عامي (١٤) و(١٣٢) للهجرة النبوية المباركة.

أمّا انتخاب هذه الفترة دون غيرها؛ فإنّها هو من جهة شدة أهميّتها، التي شملت عصر (الخلفاء) والعصر الأموي، الفترة التي لم تُعط حقّها في ما قدّم من دراسات عن البصرة إلى يومنا هذا؛ لتضاف هذه الدراسة إلى أخواتها التي سبقنا إليها المؤرّخون والباحثون.

خطة البحث

أمّا الدراسة التي نقدّمها هنا، فقد تألّفت من خمسة فصول:
فالفصل الأوّل، عبارة عن مدخل لدراسة الحياة السياسية، وعن صورة البصرة في عصورها الأولى.

وشمل هذا الفصل عدّة مباحث، منها: تسمية البصرة، وأسمائها التي كانت محطّة نقاش وجدل بين المؤرّخين الأوائل وأهل اللّغة، كلّ ذهب إلى سببٍ اشتقّ منه أصل تسمية البصرة.

وفي المبحث نفسه تناولنا وضع البصرة قبل الفتح الإسلاميّ، ومدى بروزها للوجود في الفترات التاريخية القديمة، التي ربما نُسب تواجدها إلى العهد السلوقيّ قبل الميلاد.

أمَّا المبحث الثاني، فدرس أهمِّيَّة البصرة في عهد عمر بن الخطَّاب وعثمان بن عفَّان، فحاولنا أن نبيِّن سبب تأسيس البصرة، وكيفيَّة تقدِّمها الحضاريِّ في الفترة الأولى من القرن الأوَّل الهجريِّ وما شملتها من إدارة، وما أُنيط بها من مهمَّات عسكريَّة، وفتوح إسلاميَّة.

وفي المبحث الثالث، نقف عند موقف أهل البصرة من مقتل عثمان. والمبحث الرابع شمل ميول أهل البصرة وتكوينها السكَّانيِّ، وما له من دور في تكوين المذاهب والاتجاهات الدِّينيَّة داخل البصرة، وانشقاق أهلها، كلُّ يتبع فئة معيَّنة، ومن ثمَّ، فإنَّ هذا التكوين السكَّانيِّ سوف يحقِّق لنا مدى حقيقة تسمية البصرة بالعثمانيَّة، وعلاقتها بالحياة السَّياسِيَّة فيها، وهل العثمانيَّة هي صفة أهل البصرة حقًّا؟ أم أنَّها جاءت لتحقيق رغبات وأهواء وأهداف بعض الذين عملوا على تحريف وتزوير الحقائق التاريخيَّة لمصلحة حزب من الأحزاب؟ وفي الفصل الثاني، تناولنا وضع البصرة في عهد الإمام عليٍّ عليه السلام، وقد قسَّمناه إلى خمسة مباحث.

ففي المبحث الأوَّل، تناولنا أمَّ المؤمنين عائشة وأهل البصرة ومعركة الجمل الصَّغرى، التي حدثت بينها وأتباعها من جهة، وأهل البصرة الذين رفضوا قدوم الناكثين إلى مدينتهم من جهةٍ أُخرى.

وفي المبحث الثاني، تكلمنا عن الصَّراع السَّياسيِّ بين الإمام عليٍّ عليه السلام وأهل الجمل داخل البصرة.

وفي المبحث الثالث، بيَّنا سياسة أمير المؤمنين عليٍّ عليه السلام مع أهل البصرة. أمَّا المبحث الرَّابع، فشمل وضع البصرة زمن ولاية عبد الله بن عبَّاس، وكيفيَّة إدارته لها، وما شهدته من فتنة ابن الحُضرميِّ التي أثارها معاوية بن أبي سفيان،

لنقف بعدها عند قضية أموال البصرة وعبد الله بن عباس، ومدى صحة ما اتهم به الرجل في هذا المجال.

وفي المبحث الخامس، تناولنا البصرة والإمام الحسن عليه السلام؛ بصفة أن عهده متمم لعهد أبيه.

أمّا الفصل الثالث، فقد تناولنا فيه البصرة والأمويين، أي: إنه شمل أوضاع البصرة السياسية في عهد الدولة الأموية.

وفي المبحث الأول من هذا الفصل، تناولنا وضع البصرة في العهد السفلياني، الذي ضمّ ثلاثة محاور أساسية، تمثل أولها بالكلام عن سياسة معاوية مع أهل البصرة، وثانيها بولاية معاوية على البصرة، وثالثها بموقف أهل البصرة من ولاية العهد ليزيد.

وفي المبحث الثاني، تناولنا أوضاع البصرة بعد هلاك يزيد بن معاوية، لتكون فترة اضطراب سياسيّ نقلت البصرة من السيطرة السفليانية إلى سلطة آل الزبير. أمّا المبحث الثالث، فشمل البحث في سيطرة عبد الله بن الزبير على البصرة، وقسمناه على عدّة مطالب، كان أولها في موقف البصرة من آل الزبير، وثانيها في المختار وأهل البصرة ومصعب بن الزبير.

أمّا المبحث الرابع، فقد تكلم عن البصرة في العهد المروانيّ، مروراً بزمان عبد الملك بن مروان والأحداث السياسية التي شهدتها البصرة في بداية حكمه، ثم تولية الحجاج بن يوسف الثقفيّ عاملاً على العراق، ليأخذ له دوراً مع أهل البصرة، بعدها نقف عند الأحداث السياسية التي مرّت بها البصرة من عام ٨٦هـ إلى ١٣٢هـ).

أمّا الفصل الرابع، فقد سمّيناه (البصرة والثورات المناهضة للحكومة

الأمويّة)، وشمل هذا الفصل عدّة مباحث، كان أوّلها في موقف أهل البصرة من نهضة الإمام الحسين عليه السلام، ومدى حضورهم في هذه النهضة المباركة. وأمّا ثانيها، فقد تكلم عن ثورة عبد الله بن الجارود، التي برهنت على قدرة أهل البصرة في مواجهة الحجاج وسلطته التعسّفيّة.

وأما ثالث المباحث هنا، فقد تناول البصرة وثورة عبد الرحمن بن محمّد بن الأشعث، التي كادت تطيح بحكومة الحجاج وإدارته للعراق. وأمّا رابع مباحث هذا الفصل وآخرها، فقد تناول البصرة وثورة يزيد بن المهلب.

أمّا الفصل الخامس، فقد خصّصناه بالبحث عن البصرة والخوارج، فتناول المبحث الأوّل خوارج البصرة زمن الإمام عليّ عليه السلام، فيما تناول المبحث الثاني خوارج البصرة زمن الدولة الأمويّة، ليتناول المبحث الثالث أهل البصرة والأزارقة، الذين هدّدوا المدينة لفترة طويلة من الزمن.

هذا وتضاف إلى ذلك الملاحق التي ألحقناها بآخر الكتاب.

مصادر البحث

أمّا المصادر التي استخدمناها في هذا البحث، فكانت عديدة ومتنوّعة؛ بسبب تنوّع الأحداث السَّيَاسِيَّة التي شهدتها تاريخ الدولة الإسلاميّة، فكانت من بين المصادر التي اعتمدنا عليها في مادّة البحث كتب تاريخ عامّة، وكتب طبقات وتراجم وسير وأنساب، وكتب الفتوح الإسلاميّة، وكتب أدبيّة ولغويّة، وبعض التفاسير، وكتب الفقه العامّة.

وكلّ هذه المصادر أسهمت في بناء المادّة المطلوبة لهذه الدّراسة، وكلّ ما يمكن

القيام به في هذه المقدمة هو الإشارة إلى الكتب المهمة التي تناولت البصرة؛ لأنها تشكل شمولية وأهمية أكبر من غيرها من المصادر.

إنَّ أقدم مَنْ ورد أنَّه صنَّف عن البصرة هو أبو عبيدة، معمر بن المثنى (ت ٢١٠هـ)؛ فقد ذكر ابن النديم من مؤلفاته الكثيرة (كتاب البصرة)، وكتاب (قضاة البصرة)^(١).

لكنَّ هذين الكتابين وكتباً أخرى لأبي عبيدة تُعدّ ضمن الكتب المفقودة التي لم تصل إلينا كاملة، وإنَّما جاءت ضمن كتب المؤرِّخين الذين كانوا قريبي العهد بأبي عبيدة، سيِّما الجاحظ والمبرِّد والبلاذري والطبري، فهؤلاء المؤرِّخون قاموا بنقل بعض الروايات التي جاءت عن هذين الكتابين المفقودين.

وذكر ابن النديم أنَّ عليَّ بن محمَّد المدائني (ت ٢٢٤هـ) له كتب عديدة قد صنَّفَت عن البصرة وأحداثها، وفي مقدِّمة تلك الكتب التي تحدَّثت عن الفتوح كتاب (خبر البصرة وفتوحها) يحتوي على: «دستُميسان، ولاية المغيرة بن شعبة، ولاية أبي موسى، خبر الأهواز، خبر مناذر، خبر نهر تيري، خبر السَّوس، خبر تستر، خبر القلعة، خبر الهرمزان، خبر حية بن محصن، خبر جُنْدَيْسابور، خبر مهترج قرية العبدِي، خبر سُرق، خبر مهر جانقذق، خبر ما سيدان، خبر قلعة سُرق، خبر رامهرمز، خبر السَّهال»^(٢).

وذكر ابن النديم للمدائني كتباً أخرى، منها: (كتاب قضاة أهل البصرة)، وكتاب (مفاخرات أهل البصرة وأهل الكوفة).

فهذه الكتب المفقودة لا بدَّ أنَّها كانت تحتوي على معلومات أخرى عن البصرة

(١) الفهرست، تحقيق: د. محمَّد عبد الرَّحمن المرعشي، ط ١، ٢٠١٦م: ص ١١٩.

(٢) الفهرست، المصدر السابق: ص ١٩٦.

وأهلها، والأحداث السَّياسِيَّة التي شهدتها، وعن الحوادث في خراسان والمشرق. وكذلك ذكر ابن النديم كتابين آخرين عن البصرة، نُسبا إلى عمر بن شبة (ت ٢٦٢هـ)، وهذان الكتابان هما: (كتاب البصرة)، و(كتاب أمراء البصرة)^(١). وقد وصف الطبريَّ كتاب البصرة، بقوله: «حدَّثني عمر مرّة في كتابه الذي سمّاه كتاب أخبار البصرة»^(٢).

وكذلك ذكر ابن النديم كتاباً آخر من الكتب المفقودة التي أُلِّفت عن البصرة؛ فقد نسب كتاب (قضاة الكوفة والبصرة)^(٣) للهيثم بن عديّ (ت ٢٠٧هـ). ونقل ياقوتُ الحمويُّ نصوصاً تاريخيّة عن كتاب (تاريخ البصرة) لأبي زكريّا السَّاجي (ت ٣٠٧هـ)^(٤). وهذا الكتاب لم يذكره ابن النديم في الفهرست.

ويذكر أحدُ الباحثين أن إشارة ياقوت الحمويِّ إلى السَّاجي والمعلومات التي أخذها من كتابه، تؤكِّد أنه وضع كتاباً، ولعلّه كُتِبَ عن أحوال البصرة، وبشكل خاصّ عن بعض خططها ومحلاتها^(٥).

ويبدو أنّ هذه الكتب المفقودة التي لم تصل إلى أيدينا مباشرةً، جاءت ضمن كتب التاريخ الأخرى؛ فخليفة بن خياط أخذ عن المدائنيّ في تاريخه وطبقاته؛ إذ ذكر بعض قُضاة البصرة ورجالها. وكذلك فعل الطبريُّ، الذي نقل الكثير من روايات المدائنيّ في أخبار البصرة، وعن عمر بن شبة.

(١) الفهرست: ص ١٢٥.

(٢) تاريخ الطبري: ٢٢١ / ٤.

(٣) الفهرست: ص ١١٢.

(٤) معجم البلدان: ٢٠٨ / ٥، وكذلك في موضع آخر من المصدر نفسه: ٤١ / ٣.

(٥) عبد الجبَّار ناجي، إسهامات مؤرّخي البصرة في الكتابة التاريخية: ص ٢٨١-٢٨٢.

وكذلك نقل عن هذه الكتب المفقودة محمد بن خلف بن حبان المعروف بوكيع في كتابه (أخبار القضاة)؛ إذ ذكر نصوصاً كثيرة عن قضاة البصرة، فهذه الكتب المفقودة، لا بدّ من أنّ فيها مادّة تاريخيّة غنيّة بأخبار البصرة وأهلها، ولكن لم يصلنا أيّ منها.

ومع التطوّرات الواسعة خلال القرنين الأوّلين من الهجرة، ازدهرت المعالم الحضاريّة في الدولة الإسلاميّة، لتشمل كلّ مراحل الحياة، بما في ذلك التراث الإسلاميّ والتاريخ؛ إذ ظهرت المصنّفات العامّة والموسوعات الشاملة، لتغطّي أحداث السنين الأولى، فكان للبصرة جزء من هذه الأحداث التي جاءت ضمن الكتب التي أوردت معلومات عن أهل البصرة، وعلاقتهم بالدولة الإسلاميّة، والأحداث السياسيّة التي جرت على أرضها، ونحن هنا نشير إلى بعض تلك المصادر، ونقتصر على الإشارة إلى الأهمّ من بينها.

إنّ أوّل الكتب التي وصلت إلينا عن أهل البصرة ورجالها هو كتاب (أخبار الوافدين من الرّجال من أهل البصرة والكوفة على معاوية بن أبي سفيان)، للعبّاس ابن بكار الضبيّ (ت ٢٢٢هـ)؛ إذ حُقّق الكتاب وطُبِع لأوّل مرّة عام (١٩٨٤م) في بيروت.

إنّ لهذا الكتاب أهميّة خاصّة؛ لأنّه عرّض الدور السياسيّ لرجال أهل البصرة أيّام الدولة الأمويّة، ومدى تعامل الدولة معهم أيّام معاوية بن أبي سفيان، الأمر الذي يرجعنا إلى معركة صفّين؛ إذ إنّ أخبار الوافدين على معاوية جاءت لتتحدّث عن أيّام تلك المعركة، وموقف رجال البصرة منها.

وقد أضاف محقّق الكتاب رواية الحافظ ابن عساكر الدمشقيّ من كتاب (تاريخ دمشق)؛ لبيّن الفرق بين رواية العبّاس بن بكار الضبيّ ورواية ابن عساكر، ومدى

تطابق الروايتين في نقل الأحداث السَّياسِيَّة، وما دار من حديث بين معاوية وبين رجال أهل البصرة والكوفة، فكان الكتاب مهماً لأخبار تلك الفترة، ولا يمكن الاستغناء عنه، لا سيَّما أنَّه يكشف الوجهَ الحقيقيَّ لسياسة معاوية مع أهل البصرة، وكيفيَّة تعامله معهم بسرِّيَّة وحذر.

أمَّا المصادر التي اعتمدت عليها في إعداد هذه الدراسة، تلك التي نقلت جانباً من أحداث البصرة، فكانت متنوّعة، وقد رتّبناها حسب أهمّيَّتها، منها:

أولاً: كتب التاريخ العام.

من أقدم كتب التاريخ العامّة التي استفدنا منها في توضيح أحداث البصرة بشكل كبير، كتاب التاريخ، لخليفة بن خيَّاط (ت ٢٤٠هـ / ٨٥٤م)، الذي يعدّ من أقدم مصادر التاريخ الإسلاميّ المرتبة على أساس الحوليَّات، فكان منهجه سهلاً، ولم يعتمد في رواياته على ذكر سندها، وكثيراً ما نقل عن أبي اليقظان وعن أبي عبيدة في فتوح أهل البصرة، وعن أبي الحسن المدائنيّ، ولم يكن خليفة يميلُ إلى التفاصيل في نقل الأحداث، بل يشير إلى سنة وقوع الحدث وسببه، مبتعداً عن المبالغة التاريخيّة في ذلك، وكذا نقل خليفة أسماء كبار موظّفي البصرة بصورة أكثر وضوحاً من غيره أيام الدولة الأمويّة.

أمَّا كتاب الأخبار الموفّقيَّات للزبير بن بكار (ت ٢٥٦هـ / ٨٦٩م)، فكان مجموعة أخبار تتناول موضوعات متعدّدة يتعلّق بعضها بالشعر والشّعراء، ولكن أكثرها شمل أخباراً تاريخيّة سياسيّة وإداريّة واجتماعيّة، وكلّ خبر يتعلّق بشخص مهمّ، مثل: الخلفاء والولاة والقادة والشّعراء. وقد أورد أخبار ولاية البصرة، فأضاف الكتابُ قيمةً تاريخيّةً للبحث.

وأما كتاب الإمامة والسياسة المنسوب لابن قتيبة الدينوري (ت ٢٧٦هـ / ٨٨٩م)، فيعدّ من أهمّ المصادر التي تناولت مسألة الخلافة والأحداث السياسيّة التي شهدتها الدولة العربيّة الإسلاميّة في تلك الفترة؛ إذ جاء الكتاب ليبيّن الصراعات السياسيّة في عهد كلّ خليفة، وعمّاله على الأمصار، فقدّم صورة عن واقع البصرة السياسيّ، لا سيّما معركة الجمل، فقد نقل أخباراً انفراداً بذكرها عن غيره من المؤرّخين، ولم يرد ذكرها في المصادر الأخرى، وكانت رواياته خالية من الأسناد. وأما كتاب الأخبار الطوال لأبي حنيفة الدينوري (ت ٢٨٢هـ / ٨٩٥م)، فقد اعتمدنا على بعض رواياته التاريخيّة، وعلى عموم البحث، لا سيّما في ثورة الإمام الحسين (عليه السلام)، وكانت رواياته تخلو من الأسناد أيضاً.

وفي تاريخ يعقوبيّ لأحمد بن أبي يعقوب (٢٩٢هـ / ٨٩٧م) مادّة تاريخيّة عن البصرة وواقعها السياسيّ، وكان منهج يعقوبيّ سهلاً؛ لأنّه لم يدمج رواياته ويجعلها متعدّدة في آنٍ واحدٍ، بل جاءت لتحدّث عن أحداث المسلمين، ولكن بصورة مختصرة، كإشارة أو توضيح، فهو لم يقدّم سرد الحدث التاريخيّ وتفصيله، بل ابتعد عن الإطالة في كتابه، وقد أفاد الدراسة في عدّة مواضيع، وجاء في روايته المنفردة لقضيّة ابن عباس وأموال البصرة؛ إذ روى أنّ ابن عباس أخذ من بيت مال البصرة عشرة آلاف درهم.

أما تاريخ الطبريّ لمحمّد بن جرير الطبريّ (ت ٣١٠هـ / ٩٢٣م)، فيعدّ من أهمّ مصادر التاريخ الإسلاميّ، ومصدراً أساسيّاً في دراستنا هذه؛ كونه قدّم لنا معلومات وافية وغنيّة عن الحياة السياسيّة في البصرة، وهذه المعلومات مأخوذة من رواة متعدّدين، ومؤلفات مفقودة عن البصرة، وكذا هو يروي الحدث بشيء من التفصيل، وما يميّز هذا الكتاب هو تعبيره عن الرواية التي لا تلقى استحسانه

بقوله: «يزعم»، وهو ما وجدناه في خبر تمصير البصرة عندما تحدّث عن سنة التمهير، وهذا يعني أنّ الطبريّ كان ينتقد بعض الروايات بأسلوبه الخاصّ. ولكنّ الطبريّ أحجم عن نقل بعض الأخبار السِّياسِيَّة المهمّة والحسّاسة التي تتعلّق بأهل البصرة، لا سيّما أخبار الثوّار الذين خرجوا ضدّ عثمان بن عفّان؛ فقد أحجم عن ذكرها.

ونتيجة لأهمّيّة هذا الكتاب، فقد أصبح مصدراً رئيساً للعديد من المؤرّخين المتأخّرين، كابن الأثير (ت ٦٣٠هـ / ١٢٣٣م) في الكامل في التاريخ، وابن كثير (ت ٧٧٤هـ / ١٣٧٢م) في البداية والنهاية، وابن خلدون (ت ٨٠٨هـ / ١٤٠٥م) في تاريخ ابن خلدون؛ إذ نقلوا أخبار البصرة السِّياسِيَّة عن هذا الكتاب، أعني: تاريخ الطبريّ، سيّما ما يتعلّق بمعركة الجمل، فكان المصدرُ خيرَ عونٍ لنا في مادّة هذه الدراسة.

أمّا كتاب مروج الذهب ومعادن الجوهر، لعليّ بن الحسين بن عليّ المسعوديّ (ت ٣٤٦هـ / ٩٥٧م)، فقد جاء فيه بعض الأحداث السِّياسِيَّة التي تتعلّق بأهل البصرة، وواقعهم السِّياسيّ.

ويُعدّ المسعوديّ من المؤرّخين الذين لم يأخذوا بمنهج الحوليّات في كتاباتهم، ولم يكن السّنَد حاضراً في أغلب رواياته، ولم يكن ينفرد في رواياته التي نقلها عن أخبار البصرة السِّياسِيَّة، التي تتعلّق بدراستنا هذه، وذكر في بعض رواياته أنّه اعتمد على شخصيّة بصرّيّة، وكان يوجز في نقل الأخبار السِّياسِيَّة، وفي بعض الأحيان يُشير إلى أنّها موجودة ضمن كتابيه (التنبيه والاشراف)، وكتابه (الأوسط) الذي يُعدّ من الكتب المفقودة.

ثانياً: كتب الفتوح الإسلامية

لقد قدّمت لنا كتب الفتوح معلومات قيّمة ومهمّة عن عدّة جوانب من هذه الدراسة، ومن أهمّ المصادر التي استفدنا منها:

كتاب فتوح البلدان، لأحمد بن يحيى البلاذريّ (ت ٢٧٩هـ / ٨٩٢م)، الذي يعدّ من المصادر النادرة والقيّمة، التي تناولت الفتوح الإسلاميّة، وما رافقها من التنظيمات الإداريّة في المناطق التي فتحها العرب المسلمون.

والكتاب مرّتب على الأقاليم، يتناول مؤلّفه أحوال كلّ إقليم، ونوع الفتح له، والشخص الذي وقع الفتح في زمنه، مع ذكر قائد الحملة، وكيفية إتمام الفتح. وقد أمّدنا هذا المصدر بمعلومات قيّمة عن البصرة وفتوحها وإدارتها، ولكنّه لم يخلُ من نقاط الضعف؛ إذ جاء فيه أنّ خالد بن الوليد هو من فتح الأُبُلّة، وهو من حارب الفرس على أرض البصرة، الأمر الذي يتعارض تمام التعارض مع ما جاء عن أهل السّير والتاريخ.

ولم يتحدّث البلاذريّ عن أحوال الولاية السّياسيّة، الذين أداروا فتوح أهل البصرة.

أمّا كتاب الفتوح، لأحمد بن أعثم الكوفيّ (ت ٣١٤هـ / ٩٢٦م)، فيُعدّ من المصادر المهمّة التي أوردت معلومات قيّمة عن حكم عثمان بن عفّان (٢٤ - ٣٥هـ)، انتهاءً بحركة بابك الخرمي زمن المعتصم العبّاسيّ (٢١٨ - ٢٢٧هـ)؛ إذ تناول الكتاب دور أهل البصرة في فتوح المشرق، واهتمّ ببعض الأحداث السّياسيّة التي شهدتها البصرة، كمعركة الجمل، وموقف أهل البصرة في معركة صفّين.

وقد اعتمد ابن أعثم في أخباره على رواة متعدّدين، مثل: محمّد بن شهاب الزّهريّ (ت ١٢٤هـ / ٧٤١م)، وأبي مخنف لوط بن يحيى (ت ١٥٧هـ / ٧٧٤م)،

وهشام بن الكلبي (ت ٢٠٤هـ / ٨٠٩م)، والواقدي (ت ٢٠٧هـ / ٨٢٣م).

ثالثاً: كتب الطبقات والأنساب والتراجم

نتيجة للدور الذي قام به رجال أهل البصرة في الأمور العسكرية والسِّياسِيَّة خلال القرنين الأوَّلين من الهجرة، اهتمَّت كتبُ الطبقات والأنساب والرِّجال بالبحث عن ذلك الدور، فخصَّصوا فصولاً خاصَّةً برجال البصرة وأنسابهم، والأحداث السِّياسِيَّة التي اختصَّت بهم، فكان أقدم الكتب التي اعتمدنا عليها هي كتب الطبقات؛ فقد اعتنت بدراسة رجال يتميِّزون بالاهتمام بأحد العلوم، كقراءة القرآن، والفقه، والنحو والأدب، والطبِّ، فهي ترتَّب مادَّتها تبعاً لزمان ظهور الرِّجال الذين تهتمُّ بهم، وغالباً ما تضاف بعض المعلومات إلى الشَّخص الواحد، كموطنه الأصلي، وكيفية استقراره في المصر الذي انتقل إليه.

ولما كانت البصرة من أهمِّ مراكز الدولة في الحركة الفكرية والعناية بالحديث والنَّحو في القرون الأولى من الهجرة، فقد خصَّصت بعض هذه الكتب فصولاً بأهل البصرة.

ومن أقدم وأوسع المؤلَّفات في الطبقات كتاب (الطبقات الكبرى)، لابن سعد (ت ٢٣٠هـ / ٨٤٤م)؛ فقد خصَّص الجزء السَّابع لرجال أهل البصرة، وذكر معلومات عمرانيَّة عنها، إلا أنَّه أغفل أن يترجم لرجال الحرب والسِّياسة، لكنَّه ذكر بعض الأخبار التي حدثت في البصرة أيَّام الدَّولة الأمويَّة؛ لذا، يُعدُّ كتابه من المصادر المهمَّة التي ينبغي للباحث الرجوع إليها والوقوف عندها.

ومن المصادر الأخرى التي ألَّفَتْ في هذا المجال كتاب (الطبقات)، لخليفة بن خيَّاط (٢٤٠هـ / ٨٥٤م)، وتُعدُّ طبقات خليفة من الكتب المهمَّة التي ذكرت أهل

البصرة، وكان خليفة قد أخذ علمه عن عددٍ من الشيوخ الذين كان تعدادهم في أهل البصرة، كيزيد بن زريع، الذي كان خليفة أُلصقَ طلابه به، ويزيد هذا من ثقات أهل البصرة، مع ميل عثمانيٍّ كما وصفه ابن سعد في طبقاته.

وذكر ابن النديم أنَّ لابن خيَّاط كتاب باسم (طبقات القراء)^(١)، وربَّما كان كتاب طبقات خليفة نفسه لا كتاباً آخر.

وذكر ابن خيَّاط العديد من الصحابة والتابعين من أهل البصرة، ومَنْ كانت له دار في البصرة، ثمَّ انتقل عنها إلى بلدٍ آخر، وكذا اهتمَّ بنسبة الرجال الذين ترجم لهم إلى وظائفهم في الدولة، وذكر مَنْ كان يملك وظيفة ما في طبقاته، كقضاة البصرة.

وكان منهج ابن خيَّاط يقوم على تقسيم الطبقات حسب القبائل، وهذا يقودنا إلى معرفة قبائل كلِّ مصر من الأمصار.

والغالب على ترجمة خليفة قيامه بذكر اسم المترجم له، واسم أبيه وأمه، وسنة وفاته، والمكان الذي توفِّي فيه، فكانت ترجمته تعداداً للأسماء دون ذكر الأحداث التاريخية التي تتعلق بمسيرة الفرد وتاريخه، لكنَّه في بعض الأحيان كان يشير إليها بشكل مقتضب، وهذه المعلومات التي قدَّمها الكتاب أصبح من المصادر الأساسية في دراسة تاريخ البصرة.

أمَّا كتب الأنساب، فقد كانت من المصادر المهمة في دراستنا؛ إذ اهتمَّت بأنساب الشخصيات البارزة، وكذا اهتمَّت بتدوين بعض الأخبار الخاصة بهم. ومن أهمَّ كتب الأنساب كتاب (أنساب الأشراف)، للبلاذري

(ت ٢٧٩هـ / ٨٩٢م)؛ فقد اهتمَّ مؤلِّفُه بتدوين الأخبار التاريخية عن الأشخاص في إطار أنسابهم، وما يزيد من أهمِّيَّة هذا الكتاب، أنَّه أعطى صورة عن اعتماد الأمويين على الأساس القبلي في تنظيم دولتهم، فأفادنا في نقل العديد من أخبار البصرة السَّياسِيَّة.

وقد اهتمَّ البلاذريُّ بمنهجه في إظهار الخبر من روايتين عن الحدث التاريخيِّ المهمِّ؛ محاولةً منه للوقوف على الأصحَّ من الأخبار التاريخية، وهو لا يهتمُّ في رواياته بذكر الأسناد.

لقد اعتمد البلاذريُّ في مادَّته التاريخية على الأخباريين الأوائل، كابن الكلبيِّ، وأبي مخنف، والمداينيِّ، فكان كتابه هذا من المصادر الأساسِيَّة في دراستنا هذه؛ كونه اهتمَّ بالأحداث السَّياسِيَّة الداخليَّة الخاصَّة ببعض الشخصيات، وبعض الأخبار الأخرى المرتبطة بها، فزوَّدنا بمعلومات قيِّمة ومنفردة عن الخوارج، وأوضاعهم السَّياسِيَّة أيام الدولة الأمويَّة، وهذا ما جعل فائدة الكتاب تكبر بحيث لا يمكن الاستغناء عنه في نقل الروايات التاريخية.

ومن الكتب المهمَّة في هذا المجال كتاب (جمهرة أنساب العرب)، لابن حزم الأندلسيِّ (ت ٤٥٦هـ / ١٠٦٣م)؛ إذ يُعدُّ هذا الكتاب واحداً من أوسع كتب النسب وأدقَّها مع الإيجاز، وهذه الدقَّة جاءت نتيجة لاطلاع ابن حزم على العديد من كتب الأنساب والرِّجال والتاريخ.

وامتاز هذا الكتاب بذكر الرِّجال من الصَّحابة والخلفاء وأبنائهم، والوجوه من أصحاب السُّلطان والولايات وأنسابهم، والأشراف من الناس، وأشار إلى بعض الأحداث التاريخيَّة والقبليَّة والأدبيَّة، وقد أعاننا على تراجع بعض أشخاص أهل البصرة، الذين لم يُذكروا في كتب التراجم والرِّجال، وكذلك على معرفة أنساب

بعض القبائل المتواجدة في البصرة وبطونها التي تنحدر منها.

وأما كتاب (الأنساب)، للسمعاني (ت ٥٦٢هـ / ١١٦٥م)، فقد احتوى على أنساب أهل البصرة، وبعض الأخبار السياسية بروايات مختلفة.

ومن كتب النسب المتأخرة كتاب (اللباب في تهذيب الأنساب)، لابن الأثير الجزري (ت ٦٣٠هـ / ١٢٥١م)، الذي كان اختصاراً لأنساب السمعياني.

أما كتب الرجال، فقد اهتم الأولون بأهل علم الحديث، وقد ألّف عنهم الكثير من الكتب التي تناولت الرجال، وكتبهم في الغالب مرتبة على أساس حروف المعجم، وفيها معلومات عن أسماء الرجال وقبائلهم، وإشارات إلى المدن التي ينتمون إليها، وبعض الأخبار السياسية التي تعلّقت ببعض رجال الإدارة والسياسة والحرب.

ومن أقدم هذه الكتب كتاب (التاريخ الكبير)، لمحمد بن إسماعيل البخاري (ت ٢٥٦هـ / ٨٦٩م)، الذي تدلّ تسميته بهذا الاسم على أن كتب الرجال كانت تسمّى بكتب التاريخ.

ومنها: كتاب (الاستيعاب في أسماء الأصحاب) لابن عبد البر (ت ٤٦٣هـ / ١٠٧١م)، وأبرز كتب الرجال المتأخرة كتاب (أسد الغابة في معرفة الصحابة)، لابن الأثير الجزري (ت ٦٣٠هـ / ١١٦٥م)، وكتاب (وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان)، لابن خلكان (ت ٦٨١هـ / ١٢٨٢م)، وأوسع كتب الرجال المتأخرة، كتاب (الإصابة في تمييز الصحابة)، لابن حجر العسقلاني (ت ٨٥٢هـ / ١٤٤٨م)، فقد ترجم لعدد كبير من الصحابة، الذين سكنوا البصرة أو انتقلوا عنها.

رابعاً: كتب الأدب.

وفي كتب الأدب العامّة جاءت بعض النصوص التاريخيّة التي لها علاقة بالحياة السِّياسِيَّة في البصرة، ومن أبرز هذه الكتب كتاب عمرو بن بحر الجاحظ (ت ٢٥٥هـ / ٨٦٨م) (البيان والتبيين)، الذي ذكر بعض الخطب السِّياسِيَّة التي ألّقاها الولاة الأمويّين على مسامع أهل البصرة، وكذا كتاب (رسائل الجاحظ)، وكذلك فعل ابن قتيبة الدِّينوريّ (ت ٢٧٦هـ / ٨٨٩م) في كتابه (عيون الأخبار)، فهذان الكتابان الأدبيان صوّرا لنا بعض المواقف السِّياسِيَّة التي شهدتها الحياة السِّياسِيَّة لأهل البصرة.

وقد تضمّن كتاب (المعارف) فضلاً عن أخبار البصرة السِّياسِيَّة ترجمةً لعدد من رجال أهل البصرة، وتعرّض لنشاطهم السِّياسِيّ في الدّولة الأمويّة. أمّا كتاب (الكامل في اللّغة والأدب)، للمبرّد (ت ٢٨٥هـ / ٨٩٨م)، ففيه بعض الأخبار التي تعلّقت بالحياة السِّياسِيَّة في البصرة، وأخبار الخوارج، وكيفيّة انشقاقهم عن البصرة، والأزارقة وحروبهم مع أهل البصرة، فكان من الكتب المهمّة التي ألزمتنا البحث بالرجوع إليه.

وفي كتاب (الاشتقاق)، لابن دريد (ت ٣٢١هـ / ٩٣٣م)، الذي رُتب حسب اشتقاق أسماء الرّجال والعشائر، معلوماتٌ قيّمة عن البصرة وعشائرها، ومَن له خطّة فيها.

ومن كتب الأدب الأخرى كتاب (الأغاني)، لأبي الفرج الأصفهانيّ (ت ٣٥٦هـ / ٩٧٦م)، فقد كان هذا الكتاب من الموسوعات الأدبيّة والتاريخيّة، وكانت قيمته الأدبيّة أكثر من قيمته التاريخيّة.

يحوي هذا الكتاب مقداراً جيّداً من الرّوايات التاريخيّة التي تحدّثت عن

البصرة، ولم يكن همّ أبي الفرج من تلك الروايات أن يكتب كتابة تاريخية، بل كان القصد إمتاع القلوب ومؤانستها وتشويقها نحو الأخبار التي جاءت مكتملة في كتابه هذا، وربما كانت رواياته صحيحة؛ لأنّه لم يهدف في وضعها إلى كتابة التاريخ بقدر ما كان يسعى إلى التنوّع بين فقرات كتابه وتجانسه.

خامساً: كتب التاريخ المحليّة.

وكان لابدّ لنا من الرجوع إلى بعض كتب التاريخ المحليّة؛ لما تحتويه من معلومات تاريخية عن بعض المدن والأحداث السياسيّة بصورة عامّة، فهي لم تختصّ بتاريخ منطقة ما، أو بتاريخ مدينة دون ذكر الجوانب الأخرى للدولة العربيّة الإسلاميّة.

ومن أبرز المصادر التاريخيّة المحليّة التي رجعنا إليها وأعانتنا في مادّة هذا البحث، كتاب (تاريخ مدينة دمشق)، للحافظ ابن عساكر (ت ٥٧١هـ / ١١٧٤م)، فقد ذكر العديد من الشخصيات البصريّة، وترجم لهم في كتابه، ينضاف إليه ذكره بعض النصوص التاريخيّة المهمّة عن البصرة، وقد رجعنا إليه في ترجمة بعض الشخصيات البصريّة التي لم تذكرها كتب الرجال.

وكذلك نقل لنا جانباً من أحداث البصرة السياسيّة أو القريبة منها، كلقاء معاوية بن أبي سفيان بوفود أهل البصرة، وما تبادل بين الطرفين من حديث. وتكمن أهميّة الكتاب التاريخيّة في كون مؤلّفه قد ذكر أكثر من خبر عن الشخص الواحد، وبأكثر من إسناد، نتيجة اطلاع ابن عساكر الواسع على مصادر أوّلية متعدّدة، فأصبحت أهمّيّته تُلزم الباحث بالرجوع إليه.

سادساً: كتب الفرق الإسلاميّة.

من المصادر المهمّة التي وقفنا عليها كتب الفرق الإسلاميّة؛ لأنّها تحدّثت عن تاريخ الفرق، والخوارج، والصّراعات السَّياسيّة مع الدّولة، سيّما مع الدّولة الأمويّة.

ومن أهمّ مصادر الفرق الإسلاميّة التي رجعنا إليها (كتاب الزينة في الكلمات الإسلاميّة العربيّة)، لأبي حاتم الرازي (ت ٣٢٢هـ / ٩٣٣م)؛ إذ يُعدُّ من الكتب المهمّة بما احتوى عليه في بدايته من بعض الألفاظ العربيّة وشرحها، ومن ثمّ ذكر ألقاب الفرق في الإسلام وأصولها.

أمّا مصادره الأوّليّة التي أخذ عنها مادّة كتابه، فقد ذكر أنّه أخذ عن بعض أهل العلم والمعرفة ولم يحدّدهم، ووجدت أنّه قد اعتمد على قول ابن قتيبة في بيان تسمية الرافضة، وهذا يعني أنّه درس كتب اللّغة التي ترجع لمن سبقه، وقد اعتمد على بعض مصادر الفرق الإسلاميّة التي كانت موجودة في أيّامه، فقد كان يذكر قوله: «زعم»، «قالوا»، «قالت»، «وغلوا في القول»، فكان للكتاب أهميّة في حفظ أقوال الفرق الإسلاميّة.

ومن الكتب الأخرى المهمّة التي تناولت الخوارج بالبصرة كتاب (الملل والنحل)، للشهرستاني (ت ٥٤٨هـ / ١١٥٣م)؛ إذ تضمّن تاريخ الفرق الإسلاميّة ومعتقداتهم، فأصبح من أهمّ المصادر التي تتحدّث عن ذلك.

وكذا كتاب (الخور العين)، لنشوان الحميري (ت ٥٧٣هـ / ١١٧٦م)، الذي استوفى ذكر الخوارج والفرق الإسلاميّة، وتوسّع في ذلك توسّعاً مفيداً.

سابعاً: كتب البلدان.

خصّصت كتب البلدان البصرة بذكرها والحديث عنها، ومن المصادر التي استخدمناها في دراستنا كتاب (البلدان)، للمؤرخ والجغرافي اليعقوبي (ت ٢٩٢هـ / ٩٠٤م)، فقد تحدّث عن البصرة، ورسم حدودها، وكذا كتاب (معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع)، للبكري (ت ٤٨٧هـ / ١٦٩٧م)، وكتاب (معجم البلدان)، لياقوت الحموي (ت ٦٢٦هـ / ١٢٥٨م)؛ فقد ذكر ياقوت بعض النصوص التاريخية عن البصرة، في معرض ذكر المواضع الجغرافية التابعة لها، وتحدّث عن بعض المعارك التي جرت على أرض البصرة، فلهذا كانت أهميّة الكتاب كبيرة.

وفضلاً عن المصادر التي تحدّثنا عنها، فهناك العديد من المصادر التي رجعنا إليها، ولكن معلوماتها مختصرة من الناحية التاريخية؛ إذ جاءت بعض الأحداث والأخبار التي أوجبت علينا الرجوع إلى مصادر مختلفة، ومن تلك المصادر كتب الصّحاح والمساند؛ إذ اعتمدنا عليها في تخريج الأحاديث النبوية، والأحداث القريبة منها، وكذلك رجعنا إلى كتب الفقه العامة؛ لتوضيح بعض الأحكام التي اقتضت على فترات ولاية البصرة، وكذلك استخدمنا بعض التفاسير، سيّما تلك التي تعلّقت بتسمية البصرة بالمؤتفكة، ورجعنا إلى بعض المعاجم اللغوية لتوضيح بعض المعاني والكلمات الغريبة.

ثامناً: الدّراسات الحديثة.

نتيجة لأهميّة البصرة وموقعها الاستراتيجي للعراق، اهتمّ الباحثون والكتاب وغيرهم بالكتابة عنها، فكانت الدّراسات الكثيرة في هذا المجال، وكان بعضها عامّاً يتكلّم عن أحوال العراق، ويتطرّق إلى الحديث عن البصرة في بضع

صفحات، بينما كان بعضها الآخر خاصاً بأحد جوانب الحياة في البصرة. ومن أبرز ما نُشر عن الحياة الاجتماعية والاقتصادية كتاب (التنظيمات الاجتماعية والاقتصادية في البصرة في القرن الأول الهجري)، للدكتور صالح أحمد العلي؛ إذ قدّم لنا دراسةً عامّةً عن أوضاع الحياة الاجتماعية والاقتصادية؛ فقد درس الباحث الجوانب الاجتماعية التي تأثرت بعملية الفتوح الإسلامية، وما نتج عن هذه الفتوح من استيطان البصرة من أقوام الأعاجم، ثم تطوّر الحياة الاقتصادية للمدينة.

وللمؤلف كذلك كتاب (خطط البصرة ومنطقتها)، وهو من المصادر المهمّة التي تحدّثت عن معالم البصرة الحضارية ومنطقتها، وما يتصل بذلك من المعالم الأرضيّة ومواقع الإسكان والمنشآت العمرانيّة إبّان العهود الإسلاميّة الأولى؛ فقد شمل توزيع سكّان البصرة على خططهم، مع ذكر المعالم العمرانيّة في كلّ خطّة في المدينة، وكذلك حدّد مواقع الأنهار، سيّما الواقعة على شطّ العرب في العهود الأولى، وألحق بها دراسة عامّة عن تطوّر مقدار جباية هذه المنطقة، فكان الكتاب مما أفادنا كثيراً في تحديد بعض المواقع العمرانيّة في البصرة.

ومن الكتب الحديثة الأخرى كتاب (شعر البصرة في العصر الأموي)، للدكتور عون الشريف قاسم؛ إذ قدّم دراسة تاريخيّة عن شعر البصرة في الفترة الأمويّة، وما ترتّب عليه من النهوض بواقع البصرة نحو التطوّر الثقافي والفكري والاجتماعي والسياسي؛ فقد اعتمد الباحث على شعر البصرة ليمثّل مواقف قائله بحقّ الحُكّام والولادة، أو قبول حقّ إمام على آخر، ويحدّد فترة آل الزبير على أنّها لم تزل الشعر الكثير داخل البصرة، فليس من شعر البصرة كثير يتصدّى للدّفاع عنهم أو لشرح دعوتهم.

وكذلك كتاب (إسهامات مؤرّخي البصرة في الكتابة التاريخية حتى نهاية القرن الرابع الهجري)، للدكتور عبد الجبار ناجي؛ إذ اهتم بمؤرّخي البصرة وعطائهم الفكري والثقافي للتاريخ الإسلامي، وتحدث عن منهجية كل مؤرّخ بصري، ولم يقتصر على نشاط المؤرّخين ضمن كتابة التاريخ والأخبار المحليّة والخاصّة بالبصرة، بل شمل إسهاماتهم في كتابة تاريخ الحروب والأحداث الأخرى على مستوى التاريخ العام.

وكذا كتاب (من مشاهير أعلام البصرة)، للدكتور عبد الحسين المبارك والدكتور عبد الجبار ناجي، فقد شمل الكتاب الشخصيات البصريّة البارزة في الجانب الفكري والثقافي، مع تقديم تعريف موجز للأعلام المترجم لهم، فكان الجانب الفكري والثقافي يطغيان على الكتاب، ولم يذكر رجال الحرب والسياسة من أهل البصرة عدا الذين تولّوا إدارة البصرة، كعتبة بن غزوان، وعبد الله بن عامر، ومجاشع بن مسعود، وزيد بن أبيه، والكتاب بصورة عامّة يمثل عطاء فكرياً وثقافياً بحدّ ذاته، بعيداً عن الجانب السياسي، ومواقف أهل البصرة من الأحداث السياسيّة.

ومن الكتب الحديثة والمهمّة التي تناولت البصرة كتاب (شطّ العرب وشطّ البصرة والتاريخ)، للدكتور محمد طارق الكاتب، الذي نقل في كتابه ما جاء في كتاب (فتوح البلدان)، للبلاذري، و(معجم البلدان)، لياقوت الحموي عن أنهار البصرة، مع إضافات قيّمة عن موقع نهر المعقل والأبلة.

ومن الكتب الأخرى التي نشرت عن البصرة، وتيسّر لنا الاطلاع عليها:

(١) البصرة في أدوارها التاريخية، للمؤلف عبد القادر باش أعيان العباسي.

(٢) الجاحظ في البصرة وبغداد وسامراء، للمؤلف شارل بللا.

(٣) البصرة القديمة وضواحيها لسنة (١٤هـ) وما بعدها، للمؤلف السيّد محمّد رؤوف السيّد طه الشيعليّ (ت ١٩٦٥م).

(٤) ولاية البصرة ومتسلّموها (١٤ إلى ١٣٣٣هـ)، للمؤلف ابن الغملاس.

(٥) صورة البصرة في بخلاء الجاحظ، للدكتور هاني العميد.

(٦) من أعلام البصرة، للسيّد محمّد السويج الخطيب.

(٧) النصر لشيعه البصرة، للمؤلف الدكتور نزار عبد المحسن المنصوريّ.

هذا فضلاً عن بعض الرّسائل الأكاديميّة التي درست البصرة من الناحية العسكريّة، والدّراسات والبحوث التي نشرت عن جوانب البصرة التاريخيّة المختلفة ضمن الدّوريّات والمراجع.

وهناك العديد من الدّراسات الحديثة التي تحدّثت بشكل عامّ عن تاريخ الدولة الإسلاميّة، وعن الفترة التي نحن بشأن دراستها، فجاء في دراساتهم بعض الجوانب والإشارات إلى الأحداث السّياسيّة التي تتعلّق بواقع البصرة، أو لها الصّلة بها على مرّ العصور.

والشّيء المهمّ الذي يلزم ذكره بشأن المراجع العامّة التي تناولت البصرة، هو أنّ بعضها لم تتحقّق من الرّوايات التي تعتمد عليها بشأن البصرة، وإنّما لتسدّ فراغاً أو جانباً ضمن الدّراسة التي تقدّمها، دون التدقيق والتأكّد ممّا يكتب بشأن البصرة، لذلك، وجدنا العديد من أخطائهم التي ليس من الصّحيح أن تنسب إلى هذه المدينة، أو تكون قريبة من واقعها السّياسي، بل على النقيض من ذلك، فقمنا بالردّ على تلك الدّراسات كلّاً في محلّه من البحث.

ومن الله التوفيق.

الباحث

الفصل الأول

البصرة قبل (٣٦هـ)

المبحث الأول: البصرة قبل الفتح الإسلامي

المبحث الثاني: البصرة في عهد عمر وعثمان

المبحث الثالث: موقف أهل البصرة من مقتل

عثمان

المبحث الرابع: ميول أهل البصرة

المبحث الأول

البصرة قبل الفتح الإسلامي

أولاً: تسمية البصرة وأسمائها

اختلف أهل اللغة ومن كتب عن البلدان في معنى اسم البصرة، وسبب تسميتها التي سُميت بها، وهل هي تسمية عربيّة أو فارسيّة، أو أنّها ترجع إلى أصلٍ آراميٍّ قديم.

جاء في المعاجم اللّغويّة أنّ معنى البصرة هو الأرض الغليظة ذات الحجارة الرّخوة التي فيها بياض، وبها سُميت البصرة^(١). وقال ذو الرّمة يصف إبلاً شربت من ماء:

تَدَاعَيْنِ بِاسْمِ الشَّيْبِ فِي مُتَشَلِّمٍ جَوَانِبُهُ مِنْ بَصْرَةٍ وَسِلَامٍ^(٢).

أمّا ياقوت الحمويّ، فقد ذكر أقوال الذين وصفوا البصرة وما هي عليه من المعنى: قال ابن الأنباريّ: البصرة في كلام العرب الأرض الغليظة. وقال قطرب: البصرة الأرض الغليظة. وقال غيره: إنّها تعني حجارة صلاب. وإنّما سُميت بصرة لغلظها وشدّتها، كما تقول: ثوب ذو بصر، وسقاء ذو بصر إذا كان شديداً جداً. وذكر الشرقيّ بن القطاميّ: أنّ المسلمين حين وافوا مكان البصرة للنزول

(١) الجوهريّ، الصّحاح: ٥٩١/٢؛ ابن منظور، لسان العرب: ٦٧/٤؛ الفيروز آبادي، القاموس المحيط: ٣٧٣/١.

(٢) ابن منظور، لسان العرب: ٦٧/٤.

بها نظروا إليها من بعيد، وأبصروا الحصى عليها، قالوا: إِنَّ هذه أَرْضُ بَصْرَةٍ، يعنون: حصبة، فسُمِّيتَ بذلك. وقال الأزهري: «البصرة: الحجارة التي تميل إلى البياض»^(١).

وذكر بعضهم أَنَّ البصرة: الطين العلك، وقيل: الأرض الطيبة الحمراء^(٢). ونسب بعضهم الاسم إلى الحجارة السوداء^(٣). وذكر خليفة بن خياط: أَنَّ عتبة بن غزوان مرَّ بموضع المبرد^(٤)، فوجد الكدَّان^(٥) الغليظ، فقال: «هذه البصرة، انزلوها بسم الله»^(٦).

فالملاحظ في هذه الأقوال أَنَّ معنى البصرة قد تردَّد بين الحجر الأبيض والأرض الغليظة، والحجارة الصُّلبة، أو الأرض الرُّخوة، والطين العلك، وغير ذلك من الأوصاف! وهذا يدلُّ على تشتَّت الرأي الواحد عن المعنى الصحيح للتسمية، ومن المرجَّح أَنَّ كلَّ مَنْ حاول أَن يُعطي معنىً لاسم البصرة قد رجع إلى طبيعة الأرض ومحيطها، وهذا ما يجعلنا نشكُّ في أصل التسمية؛ لأنَّ أرض

(١) معجم البلدان: ١ / ٤٣٠.

(٢) معجم البلدان: ١ / ٤٣٠.

(٣) كي لسترنج، بلدان الخلافة الشرقية: ص ٦٤؛ محمَّد رؤوف طه الشихلي، تاريخ البصرة القديمة وضواحيها: ص ٥.

(٤) المبرد: من أشهر محلات البصرة، وكان سوقاً للإبل، ثم أصبح محلَّة عظيمة يسكنها النَّاس، وبه كانت مفاخرات الشَّعراء ومجالس الخطباء. يبعد عن البصرة بنحو من ثلاثة أميال. ياقوت الحموي: معجم البلدان: ٥ / ٩٨.

(٥) الكدَّان: حجارة كأنَّها المدر فيها رخاوة، وربَّما كانت نخرة. ابن منظور: لسان العرب: ٣ / ٥٠٥.

(٦) تاريخ خليفة: ص ٨٦؛ الذهبي، تاريخ الإسلام: ٣ / ١٢٩.

بعض المناطق كأرض البصرة، فلم يُطلق عليها اسم البصرة^(١)! خصوصاً أنّ كلّ أرض قريبة من الماء والبحار ذات بياض ساطع، وهذا يقود إلى تسمية البصرة التي نُسبت إلى ذلك. ولكنّ إشارة خليفة بن خيّاط كافية لحسم الاختلاف؛ فعتبة بن غزوان، قال: «هذه البصرة»، وهذا دليل على أنّ سكّان الحجاز كانت لديهم معرفة سابقة بالمنطقة، وبتسمية البصرة، مع غُضّ النظر عن فترة وصولهم أو معرفتهم التاريخية قبل عتبة بن غزوان.

أمّا اختلاف اللّغويين وغيرهم^(٢)، فهذا شيء ناشئ عن مبررات هؤلاء في توضيح معنى الاسم لغوياً، ما قاد إلى تلك الاختلافات المتشعبة في حصر تسميتها بالبصرة، تبعاً لطبيعة الأرض.

وهناك إشارة إلى أنّ اسم البصرة معرّب من (بَسْ راه)، أي: كثير الطرق^(٣). وهذا الاحتمال يجعل التسمية ذات أصل فارسيّ، كما أشار أحدهم، فهي ليست الحجارة ولا غيرها، كما حاولوا تعليل الاسم به، بل هي مؤلّفة من (بَسْ) أي: كثير، ومن (راه)، أي: طريق، ويعني الاسم أنّها ذات طرق متشعبة كثيرة، تُفضي منها وإليها، فهي كالأسواق المفتوحة لعدّة جهات، ثمّ أصبحت مدينة لها كيائها

(١) هناك موضع بالشّام يسمّى (بصرى)، وتسميته لم تنشأ من الخصوصيّات الطبيعيّة للمنطقة كأرض البصرة. يُنظر: الجوهريّ، الصّحاح: ٥٩٢/٢. وكذلك هناك موضع آخر في بغداد يسمّى (بصرى). يُنظر: ياقوت الحمويّ، معجم البلدان: ١/ ٤٤١.

(٢) قيل: إنّ الاسم قد يكون مستمدّاً من الفعل الثلاثي (بصر)؛ باعتبار أنّ المخطط للمدينة كان مراقبة تحركات العدو العسكريّة. د. هاني العميد، صورة البصرة في بخلاء الجاحظ: ص ١٥-١٦.

(٣) الزبيديّ، تاج العروس: ٤٩/ ٣.

الخاص^(١).

في حين شكَّك أحد الباحثين في إرجاع اسم البصرة إلى أصل أعجميٍّ، ورجَّح عروبة اسمها^(٢)؛ لذلك فإنَّ إطلاق تسميه (بس راه) لا تختلف عن اختلاف أهل اللغة، ولا يمكن اعتمادها على أنَّها أساس تسمية المدينة العربيَّة، فلو كان المصطلح معروفاً وسائداً في تلك المدَّة، لأشار إليه المؤرِّخون والأخباريون الذين اكتفوا بإشارتهم إلى أرض الهند^(٣)، وهذا يجعل النطاق ضيقاً من الناحية المكانية والزمنية التي اكتسبت معلمها، واستقرَّت بها عجلة الزمان على اسم البصرة.

وهناك رأي يؤكِّد أنَّ سبب التسمية يعود إلى أصل آراميٍّ؛ إذ يرى أحد الباحثين احتمال اشتقاق اسم البصرة من الكلمة الآرامية (بصريا^(٤))؛ إذ جرَّأ هذه الكلمة إلى جزأين ليقف على مشتقاتها، فذكر أنَّ كلمة (بصريا) معناها: بصري، و(ثا) تعني: محلُّ الأكواخ، فكأنَّه جعل معناها أكواخ البصرة، أو البصريين، وهذا الأمر ليس بالبعيد عن منشأ التسمية. ثمَّ نقل نصّاً للمستشرق (لستر نج) من كتاب الجغرافيَّة لـ (أتن سراتيون)، جاء فيه: «فأما أنهار البصرة وصفة البطيحة، القطر هو زقاق قصب نابت، وبعده هور، والهور هو ماء كثير ليس فيه قصب، واسم هذا الهور (بحص)، وبعده زقاق قصب، ثمَّ الهور الثاني واسمه (بكمعي)، وبعده

(١) حسن الأمين، دائرة المعارف الإسلامية: ١٦٤ / ٥.

(٢) شارل بللا، الجاحظ: ص ٣١.

(٣) أحمد بن حنبل، المسند: ٩٠ / ٤؛ ابن سعد، الطبقات الكبرى: ٦ / ٧؛ خليفة بن خياط، تاريخ: ص ٧٧؛ ابن حبان، الثقات: ٢ / ٢١٢؛ ابن عساكر، تاريخ دمشق: ٣١٠ / ٤٠؛ الذهبي، سير أعلام النبلاء: ٣٠٥ / ١.

(٤) يعقوب سركيس، مباحث عراقية: ص ١١٧.

زقاق قصب، ثم الهور الرابع واسمه (المحمّديّة)، وفيه منارة حسان، وهو أعظم الأهوار. وبعده زقاق قصب، وهور مار إلى نهر أبي الأسد، ويمرّ بالحالة وقرية الكونين، ويصب إلى دجلة العوراء»، وأضاف قائلاً: «وليس من العجب أن تكون كلمة بصرة آراميّة»^(١).

فالرأي الذي أسلفناه أرجح أصل التسمية إلى الآراميّة، يعود إلى فترة زمنيّة سبقت فترة الميلاد، وهذا الأمر ليس بالبعيد، وهو أن تكون البصرة تكبيراً لاسم القرية الآراميّة التي نشأت في أهوار البصرة. وهناك إشارة تؤكّد تكوين تلك القرية، فقد قال قوم: «البصرة والبصرة الكذّان، وهي الحجارة التي ليست بصلبة، سُمّيت بها البصرة، وكانت ببقعتها عند اختطاطها واحدة بصرة وبصرة»^(٢).

فهذا النصّ حدّد لنا اسم مكان ما قبل اختطاط البصرة من قبل المسلمين، «وكانت ببقعتها واحدة بصرة»، علماً أنّ اللّغة الآراميّة كانت قبل الميلاد وفي القرون الأولى المسيحيّة تُعدّ لغة التجارة والسّياسة والتدوين في جميع البلاد الواقعة شمال جزيرة العرب، كالعراق وبلاد الشّام^(٣). وهذا ما يرجّح أنّ اسم البصرة قد أطلقه أولئك العرب المسلمون الأوائل الذين فتحوها، نقلاً عن الآراميّة التي كانت اللّغة المحليّة للمنطقة.

(١) يعقوب سركيس، مباحث عراقية: ص ١١٨.

(٢) ياقوت الحموي، معجم البلدان: ١ / ٤٣٠.

(٣) مصطفى عبّاس الموسوي، العوامل التاريخيّة لنشأة المدن وتطوّر المدن العربيّة الإسلاميّة:

أَسْمَاءُ البصرة:

أما أسماء البصرة، فقد تعدّد ما ذُكر لها من أسماء كانت تُعرف بها، مثل: تدمر^(١)، والمؤتفكة^(٢)، والخريبة^(٣)؛ فقد جاء في قول الإمام عليٍّ عليه السلام للمنذر بن الجارود^(٤): «يا منذر، إنّ للبصرة ثلاثة أسماء سوى البصرة في الزُّبر^(٥) الأوّل، لا يعلمها إلّا العلماء، منها: الخريبة، ومنها: تدمر، ومنها: المؤتفكة»^(٦). وكذلك عُرِفَت البصرة بحزام العرب^(٧)، وليس لدينا أدنى فكرة عن سبب هذه التسمية في كتب التاريخ، والرّاجح أنّ التسمية أُطلقت على البصرة في عهد الإسلام؛ وذلك لأهمّيّتها

(١) تدمر: مدينة بالبرّيّة، على طريق الشّام، بنّتها الجنُّ لنبيّ الله سليمان عليه السلام. وقيل: سمّيت باسم تدمر بنت حسان بن أذينة. البكريّ، معجم ما استعجم: ١ / ٣٦٠؛ ياقوت الحمويّ، معجم البلدان: ١٧ / ٢.

(٢) المؤتفكة: يقال: اتفكت البلدة بأهلها، أي: انقلبت. أمّا البصرة، فكناية عن الغرق؛ لأنّها غرقت بأهلها مرّتين. ابن منظور، لسان العرب: ١٠ / ٣٩١؛ ابن الأثير، النّهاية في غريب الحديث: ٥٨ / ١.

(٣) الخريبة: من أعمال البصرة المعروفة، سُمّيت بذلك؛ لأنّ المرزبان ابتناها قصرًا، ثمّ خرب، فبناها المسلمون، وسمّوها الخريبة. البكريّ، معجم ما استعجم: ٢ / ٤٩٥.

(٤) المنذر بن الجارود بن المعلّى: كان من رؤساء عبد القيس بالبصرة، مدحه الأعشى وغيره من الشّعراء، أمّه بنت النعمان، ولّاه عبيد الله بن زياد إمرة الهند زمن يزيد بن معاوية، فمات هناك سنة (٦١هـ). ابن حجر، الإصابة: ٦ / ٢٠٩.

(٥) الزُّبر: الكلام، والكتابة، والحجارة. الزبيديّ، تاج العروس: ٣ / ٢٣١.

(٦) المجلسي، بحار الأنوار: ٣٢ / ٢٥٥؛ عليّ النّمازيّ الشّاهروديّ، مستدرک سفينة البحار: ١ / ٣٦٤؛ عليّ الكورانيّ، معجم أحاديث الإمام المهديّ: ٢ / ١٣٢. وسيأتي بعض ما له علاقة بكلمة المؤتفكة لاحقاً.

(٧) زيد بن عليّ، المسند: ص ٣٦٠.

العسكرية والمهام التي شغلتها في تلك المدّة؛ باعتبار أنّها تقوم بفتوح الإسلام نحو المشرق، وما حقّقه من مكاسب على الصّعيد السّياسيّ والاقتصاديّ، ما جعلها ذات أهميّة كبيرة تشدّ أزر العرب والمسلمين.

وعُرفت البصرة بالبصرة^(١) أيضاً، وهذا الاسم يُشير إلى منطقة صغيرة كالقريّة، أو تصغير اسم البصرة. وقيل: الرّعاء اسمٌ من أسماء البصرة^(٢)، وفي ذلك يقول الفرزدق:

لولا ابنُ عتبةَ عمرو^(٣) والرّجاءُ له ما كانت البصرةُ الرّعاءُ لي وِطناً^(٤).
وكان سبب تسميتها بالرّعاء ما يكثر بها من مدّ البحر وعكيكه، والعكّة: شدّة الحرّ^(٥).

ويبدو من البيت الشعريّ أنّ الفرزدق كان يتقرّب إلى عمرو بن عتبة ويتودّد إليه، فلم يكن ليخلي سبيله في الانتقال عن البصرة والعيش في موطنٍ آخر، وهذا

(١) ياقوت الحمويّ، المصدر السّابق: ١/ ٤٣٠؛ ويُنظر: المقرئيّ، إمتاع الأسعاع: ١٢/ ٣٣٢.
(٢) ابن دريد، الاشتقاق: ٢/ ٥٢٥، ١٨٣؛ البكريّ، معجم ما استعجم: ١/ ٢٥٤؛ ابن منظور، لسان العرب: ١٣/ ١٨٣؛ ويُنظر: الراغب الأصفهانيّ، مفردات غريب القرآن: ص ١٩٨.
(٣) هو عمرو بن عتبة بن صخر بن حرب بن أميّة، كان من رجالات قريش، وقدم على معاوية، وعلى يزيد بن معاوية، فقال له: إني لست أستبطئك، ولكنيّ أستزيدك، ونحن في بلد يردع قرّه ويشدّ حرّه، وبنا حاجة إلى بادية ترفعنا منه وتقربنا إليه، فأقطعه الزاوية ونهر معقل.
ابن عساكر، تاريخ دمشق: ٤٦/ ٢٧٢.

(٤) البكريّ، م. ن: ١/ ٦٦٢؛ القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: ٢/ ٦٠؛ ابن منظور، م. ن: ١٣/ ١٨٣؛ وروى أنّ الفرزدق دخل على عمرو بن عتبة وهو في داره في الزاوية، فجعل يسלט العرق عن وجهه، وقال هذا الشّعر. ابن أبي الدّنيا، مكارم الأخلاق: ص ١٤٩. ولم نجد الشعر في ديوان الفرزدق.

(٥) ياقوت الحمويّ، معجم البلدان: ٣/ ٥٢.

يعني أنّ رجال بني أمّية كانوا يمارسون بعض الإجراءات التي لها أثر سياسي على استيطان البصرة وتحمل شدة جوّها.

وقال الجاحظ: «من عيوب البصرة اختلاف هوائها في يوم واحد؛ لأنّهم يلبسون القميص مرّة، والمبطّات مرّة، والجباب مرّة؛ لاختلاف جواهر السّاعات، ولذلك سُمّيت رعناء»^(١).

ويقال: إنّ الأرعن الجيش الكبير^(٢)، الذي مثل رعن الجبل^(٣).
وسُمّيت البصرة بأمّ خنور^(٤)، وهو اسم لكلّ من البصرة ومصر، ومعناها: الدّاهية، ويُطلق على الضبع أمّ خنور^(٥).

ولكنّ المعنى الصّحيح والقريب لطبيعة البصرة وعلاقتها بهذه التسمية، يرجع إلى كثرة أشجارها ونخيلها وخصب عيشها^(٦).
فهذه الأسماء التي سُمّيت بها البصرة جاءت للتعبير عن بعض المزايا التي عُرفت بها وطبيعتها.

(١) ياقوت الحمويّ، معجم البلدان: ٥٢ / ٣.
(٢) المسعوديّ، التنبيه والإشراف: ص ٢٤٤.
(٣) رعن الجبل: الرّعن: أنف الجبل النادر حتّى يستطيل في الأرض. ابن دريد، م. ن: ٥٢٥ / ٢؛ ويُنظر: ابن منظور، م. ن: ١٨٣ / ١٣.
(٤) الخنور: النعمة الظاهرة. ويقال: وقعوا في أمّ خنور إذا وقعوا في خصبٍ ولينٍ من العيش؛ ولذلك سُمّيت الدّنيا أمّ خنور. ياقوت الحمويّ، م. ن: ٢٥١ / ١؛ ابن منظور، م. ن: ٢٥٩ / ٤؛ الزبيديّ، تاج العروس: ١٩١ / ٣.
(٥) ياقوت الحمويّ، م. ن: ٢٥١ / ١.
(٦) الزبيديّ، م. ن: ١٩١ / ٣.

ثانياً: البصرة قبل الفتح الإسلامي

وردت الإشارات إلى تاريخ البصرة قبل الفتح الإسلامي بشكل غير واضح ومرتبك بعض الشيء؛ لأنّ المصادر التاريخية لم تقدّم ذلك العهد بحيث يمكن معرفته بشيء من التفصيل، فكانت أغلب المعلومات مقتصرة على فترة التمصير، وأمّا ما كان قبلها، فقد غفل عنه.

فبالنسبة إلى موقع المدينة، الظاهر أنّ موقع المدينة القديمة لم يكن كالبصرة الحديثة التي تقع على دجلة العوراء (شطّ العرب)، بل كان داخل الأراضي باتجاه بادية البصرة^(١)، التي نزلتها قبيلة بكر بن وائل قبل الفتح الإسلامي.

وأما مساحة المدينة، فحسب قول المقدسيّ كان طولها ممتدّ على النهر، ودورها في البرّ إلى البادية، ولها من هذا الوجه باب واحد، وهي من النهر إلى الباب نحو ثلاثة أميال^(٢).

وقد أكّد اليعقوبيّ هذا التقسيم لموقع البصرة، بقوله: «البصرة مدينة مستطيلة، تكون مساحتها على أصل الخطة التي اختطّت عليها في وقت افتتاحها ولاية عمر ابن الخطّاب سنة ١٧هـ / ٦٣٨م فرسخين^(٣) في فرسخين^(٤)».

فالموقع القديم لمدينة البصرة غير محدّد على وجه الدقّة، في حين أنّ الموقع المحدّد لها اعتمد على اختيار المسلمين الفاتحين لها، وقد التزموا بأن يكون الموقع الجغرافي

(١) المقدسيّ، أحسن التقاسيم: ص ١١٧.

(٢) م.ن: ص ١١٧. والميل يساوي أربعة آلاف ذراع. الزبيديّ، تاج العروس: ٧٠٨ / ١٥.

(٣) فرسخين: الفرسخ من مقاييس الطول (المسافة) يقدرّ باثني عشر ألف ذراع، أي: حدود ستّة كيلو مترات. الزبيديّ، تاج العروس: ٧٠٨ / ١٥.

(٤) اليعقوبيّ، البلدان: ص ٣٢٣.

والمناخي ملائماً، فكانوا يعرفون المنطقة جيّداً بحكم التردّد عليها قبل الإسلام^(١). وعليه؛ فقد بُنيت مدينة البصرة في منطقة مستوية خالية من العوارض والمرتفعات الطبيعيّة، فلم يُعرف من المرتفعات فيها غير جبل سنام^(٢) وسفوان^(٣)، اللّذين يبعدان عن موقع المدينة حدود خمسين ميلاً.

والمنطقة منخفضة لا يزيد ارتفاعها عن سطح البحر بأكثر من أربعة أمتار، فهي بطيئة الانحدار، غير أنّ الأراضي في أطرافها الغربيّة تزيد على ذلك ارتفاعاً^(٤).

لقد كانت البصرة واقعة تحت النفوذ السَّاسانيّ الذي سيطر على المنطقة، وهذا ما جعل تاريخ البصرة يغوص تحت أنقاض شطّ العرب؛ لأنّ أهمّيّتها كانت تجاريّة بالدرجة الأولى في تلك المدة الزمنيّة القديمة، والدليل على ذلك تسميتها بأرض الهند. ويبدو أنّ هذه التسمية قد انحدرت من تلك العلاقة التجاريّة.

أمّا أقدم الإشارات التاريخيّة إلى المدينة، فهي وجود ميناء (طريدون) الذي بناه (نبوخذ نصر) الثاني، بقصد تحويل التجارة إلى الشرق بدلاً من البحر الأبيض المتوسط، الذي كان يسيطر عليه الفينيقيّون، وميناءؤهم (صور)^(٥).

ويقال: إنّ هذا الاسم (تريدون) مدينة كلدانيّة كانت قائمة هناك بتلك المدة،

(١) شاكر مصطفى، المدن في الإسلام: ١/ ٣٢٣.

(٢) سنام: يقع أسفل الدّهناء من البصرة باتجاه مكّة. ياقوت الحمويّ، معجم البلدان: ١/ ١٩٠.

(٣) سفوان: ماء على قدر مرحلة من باب المربد بالبصرة. م. ن: ٣/ ٢٢٥.

(٤) صالح أحمد العلي، خطط البصرة: ص ٢٨.

(٥) يوسف ناصر العلي، تاريخ البصرة قبل الإسلام، بحث منشور في كراس مهرجان يوم الجامعة لعام ٢٠٠٥م: ص ٧.

وقيل: هي اسم آرامي كان يُطلق في العهد الكلداني على تلك المنطقة^(١).
إنَّ سبب التضارب بين المؤرّخين في الوقوف على تسميات مدن تلك الفترة هو ندرة ما يرجع إليه من مصادر ومعلومات؛ لعدم كفاية الأدلة التاريخية الخاصة بتلك المدّة، فضلاً عن عدم الاهتمام بتاريخ البصرة، وعدم الكشف عنها.
وهناك إشارة إلى تسمية (أبو لو كس) هي (ابولم) في الكتابات الأكديّة، وقد وردت في نصّ الملك (تجلات بلاسر) الثالث، اسم قبيلة (u - bu - lu) في جملة أسماء القبائل التي انتصر عليها (سرجون) الثاني^(٢).
وقيل: إنَّ أبو لو كس لو غس هي الأبلّة نفسها، وُصفت بأثما ميناء كبير، ومخزن للبضائع، وتمتعت بمركز مهمّ في التجارة العالميّة^(٣).
ويرى (كلاس) صلة بين (aploqus) وأبلّة، واسم هذه القبيلة التي يقع موطنها حسب رأيه في جنوب العراق^(٤).
فالعلاقة بين الاسمين واردة جدّاً بإرجاع مدينة الأبلّة إلى العهد الأكديّ، حيث كانت تحت الاحتلال الفرثيّ، وكانت تُتاجر مع الهند^(٥).

-
- (١) حسين الأمين، دائرة المعارف الإسلاميّة: ١٦ / ٥. ويُنظر: عبد القادر باش أعيان، البصرة في أدوارها التاريخية: ص ٢؛ د. عبد الجبار ناجي، دراسات في تاريخ المدن: ص ١٣٠.
(٢) د. محمّد طارق الكاتب، شطّ العرب وشطّ البصرة والتاريخ: ص ٢٠.
(٣) د. جواد عليّ، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام: ٩ / ٢١٥؛ د. سامي سعيد الأحمد، تاريخ الخليج العربيّ من أقدم الأزمنة: ص ٣٦٤.
(٤) يوسف ناصر العليّ، تاريخ البصرة قبل الإسلام، بحث منشور في كراس مهرجان يوم الجامعة لعام ٢٠٠٥م: ص ٨؛ ويُنظر: د. عبد الجبار ناجي، دراسات في تاريخ المدن: ص ١٣٠؛ عبد القادر باش أعيان، البصرة في أدوارها التاريخية: ص ٢.
(٥) د. سامي سعيد الأحمد، م. ن: ص ٣٦٦.

ولم تقتصر تلك المدّة على هذه المدينة أو بعض الموانئ التي شاركت بالتجارة، بل هناك مَنْ يذهب إلى قيام دولة ميسان وعاصمتها مملكة كرخ ميسان^(١)، وكان موقعها على نهر دجلة إلى الجنوب من المحمّرة^(٢)، فكان قيام هذه المملكة على جانب شطّ العرب، ويؤكد هذه الحقيقة البلاذريُّ، بقوله: «إنّ فرات ميسان كانت موجودةً على الجانب الأيسر لدجلة العوراء [شطّ العرب]»^(٣).

ويرى أحد الباحثين أنّ سبب اندثار مدينة فرات يعود جزئياً إلى قلّة أهميّة دجلة العوراء كمجرى نقل رئيس مع الشمال^(٤).

وهناك إشارة إلى ما يسمّى (باب سلامتي)، التي احتمل كونها البصرة القديمة. وقيل: إنّ هذه الكلمة مأخوذة من الأكديّة (شابلوم)، أي: البحر الأسفل، فيكون معناها (باب البحر الأسفل)، التي وردت في حملة الملك الآشوريّ (سنحاريب)^(٥) البحريّة، على بلاد عيلام في إيران؛ إذ عسكر فيها في حوليّاته عام (٦٩٥ ق.م)^(٦). فهذه الأدلّة عن تلك المدّة الزمنيّة المتأخّرة، التي لها صلة وثيقة بتاريخ البصرة،

(١) م. ن: ص ٣٦٦.

(٢) المحمّرة: من مقاطعة الأهواز المسماة اليوم خوزستان، تقع بين فارس والبصرة. يُنظر: ياقوت الحمويّ، معجم البلدان: ٢ / ٤٠٤.

(٣) فتوح البلدان: ٢ / ٣٤١؛ ويُنظر: صالح أحمد العلي، خطط البصرة: ص ٣١٦.

(٤) د. سامي سعيد الأحمد، م. ن: ص ٣٦٥.

(٥) سنحاريب: اسم أكديّ، معناه: الإله القمر زاد عدد الإخوة؛ وهو ملك آشور (٧٠٤ - ٦٨٢ ق.م)، وقد اعتلى العرش بعد وفاة والده سرجون. مجمع الكنائس الشرقيّة، قاموس الكتاب المقدّس: ص ٤٨٧.

(٦) د. محمّد طارق الكاتب، شطّ العرب وشطّ البصرة والتاريخ: ص ٢٠؛ عبد القادر باش أعيان، م. ن: ص ٢.

تقودنا إلى رسم صورة واضحة لتاريخها قبل الإسلام، وعن أحوالها العامة التي خضعت لسيطرة السُّلوقيين والفرثيين على منطقة الخليج العربيّ بالكامل، وجعلتها مناطق نفوذ خاصّة بها، ومن ثمّ أصبحت المحمّرة والأبلة وتدمر مدناً صغيرة تقوم بدور الوساطة التجاريّة بين الدّول الكبرى^(١). ومن ثمّ، فنحن لا نتفق مع ما ذهب إليه أحد الباحثين عندما قال: إنّ مدينة البصرة لم تكن موجودة إبّان الفترات التاريخيّة التي سبقت حركة التحرّر الإسلاميّة^(٢).

وكذلك يمكن أن يدرس تاريخ البصرة قبل الفتح الإسلاميّ من خلال إشارة أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب عليه السلام إلى ذلك؛ إذ ذكر الإمام في حديثه أنّ للبصرة ثلاثة أسماء، منها: الخريبة وتدمر والمؤتفكة، وجاء في أصول الكافي عن أبي بصير^(٣)، أنّه سئل الإمام الصادق عليه السلام عن قوله ﷺ: «وَالْمُؤْتَفَكَةُ أَهْوَى»^(٤)، فقال الإمام عليه السلام: هم أهل البصرة، هي المؤتفكة^(٥).

وقد ورد ذكر المؤتفكة في بعض تفاسير القرآن الكريم، فقد ذكر القميّ^(٦)

(١) يُنظر: سامي سعيد الأحمد، تاريخ الخليج العربيّ من أقدم الأزمنة: ص ٣٥٩.

(٢) عبد الجبار ناجي، دراسات في تاريخ المدن: ص ١٣٠.

(٣) أبو بصير: ليث بن البختريّ المراديّ، يُعدّ من أصحاب كلّ من الإمام الباقر والصادق والكاظم عليه السلام، يكنى أبا بصير، كوفيّ، وعده ابن النديم أحد مشايخ الشيعة الذين رووا الفقه عن الأئمة من أهل البيت عليه السلام. أنظر: ابن النديم، الفهرست: ص ٢٧٥؛ الطوسي، الفهرست: ص ٢٠٥؛ محمد تقي التستريّ، قاموس الرجال: ١٢/٤٢٣.

(٤) سورة النجم، آية (٥٤).

(٥) الكلينيّ: ٨/١٧٩؛ المازندرانيّ، شرح أصول الكافي: ١٢/٢٣٣.

(٦) تفسير القميّ: ٢/٣٣٩.

والحويزي^(١) الآية السابقة، وقالوا: المؤتفكة: البصرة، والدليل على ذلك قول أمير المؤمنين عليه السلام: يا أهل البصرة، ويا أهل المؤتفكة... وقد اتفكت بأهلها مرتين، وعلى الله تمام الثالثة في الرجعة.

وقيل في قوله تعالى: ﴿وَجَاءَ فِرْعَوْنُ وَمَنْ قَبْلَهُ وَالْمُؤْتَفِكَاتُ بِالْخَاطِئَةِ﴾^(٢): المؤتفكات: البصرة^(٣). فنسبة المؤتفكة إلى البصرة يُرجع المنطقة إلى فترة زمنية قديمة لا يعرف في أي عصر من العصور التاريخية الماضية كانت.

والشيء الوحيد الذي يجعلنا نقف عنده، هو أن حديث أمير المؤمنين عليه السلام جاء بعد نهاية معركة الجمل، وهذا يعطينا دليلاً على أن البصرة قد دارت الحرب على أرضها، وأن الحرب هي سبب اتفكاها بأهلها، وربما هذه الحرب حدثت في أزمنة متفاوتة «لا يعلمها إلا العلماء»^(٤).

وجاء في شرح مسلم أن البصرة اتفكت بأهلها في أول الدهر^(٥). وهذا الاتفكاك لم يكن بسبب معصية الله تعالى؛ لأن البصرة «لم يُعبد الصنم قطّ على أرضها»^(٦). وهذا الأمر به حاجة إلى المناقشة والتمحيص العلمي.

وجاء في غريب الحديث حديث أنس بن مالك: «البصرة إحدى المؤتفكات»^(٧).

(١) تفسير نور الثقلين: ٥ / ١٧٣؛ ويُنظر: ناصر مكارم الشيرازي، الأمثل: ١٧ / ٢٧٧.

(٢) سورة الحاقة، آية (٩).

(٣) القمي، التفسير: ٢ / ٣٣٩؛ شرف الدين الحسيني، تأويل الآيات: ٢ / ٧١٥.

(٤) المجلسي، بحار الأنوار: ٣٢ / ٢٥٥.

(٥) النووي: ١ / ١٥٣.

(٦) العظيم آبادي، عون المعبود: ١١ / ٢٨١؛ النووي، م. ن: ١ / ١٥٣.

(٧) الزمخشري، الفائق في غريب الحديث: ٣ / ٢٦٠؛ ابن الأثير، غريب الحديث: ١ / ٥٨؛

الطريحي، مجمع البحرين: ١ / ٨١؛ الزبيدي، تاج العروس: ١٣ / ٦٤٨.

أمّا تسمية البصرة (تدمر)، التي جاءت على لسان الإمام عليّ عليه السلام، فقد ذُكر أنّ هناك علاقة بين أهل (تدمر) إحدى مدن الشام والهند، قائمة على أساس التجارة، وكان الطريق التجاريّ لهم يمرّ عبر نهر الفرات، ومن ثمّ، قامت جالية تدمريّة في منطقة (كرخ ميسان)، التي سمّيت بالمصادر التدمريّة (كرك سباسيتو)، وأحياناً (كركا سباسينو)، وكان ذلك في حدود منتصف القرن الأوّل الميلاديّ^(١). وعليه، فإنّ قول الإمام عليّ عليه السلام لم يأت من فراغ، بل جاء ليعبر عن حقيقة البصرة، والأحداث التي شهدتها في ما سبق، ومع الأسف فالمعلومات عن تدمر البصرة نادرة جداً، لا يمكن الوقوف عليها بصورة أكثر وضوحاً مما ذكرناه.

وعلى هذا الأساس، يمكن أن تكون البصرة قد وجدت قبل الفتح الإسلاميّ، وبفترة زمنيّة طويلة، ولكنّ الاسم الذي عُرفت به غير محدّد بشكل تامّ، أي: أنّها قامت تحت تأثير الأقوى، وأصبحت البصرة نقطة ملتقى التجار، ولها دور تجاريّ، وكذلك هي تقوم بالوسيط التجاريّ بين الدول، وبقيت على تلك الحال حتّى العهد القريب من الإسلام، عندما تعرّضت إلى انقلابها الأخير عن طريق هجمات الساسانيّين للاستيلاء عليها، وجعلها معسكراً تابعاً لدولتهم، وهذا ما وجده عتبة بن غزوان عندما سار نحو البصرة، «ولم تكن هناك يومئذٍ إلّا الخريبة، وكانت منازل خربة، وبها مسالح كسرى، تمنع العرب من العبث في تلك الناحية»^(٢). لذلك، يذهب أحدهم إلى أنّ البصرة قد تعرّضت إلى هجمات الفرس المتتالية قبل الفتح الإسلاميّ، حتّى أصبحت تسمّى باللسان الفارسيّ (بس رآه)

(١) يُنظر تفاصيل ذلك: د. سامي سعيد الأحمد، تاريخ الخليج العربيّ من أقدم الأزمنة: ص ٣٦٣.

(٢) الدينوريّ، الأخبار الطوال: ص ١١٧.

أي: كثرة الطرق^(١)، في محاولة الفرس للسيطرة على البصرة من أجل التحكم بطرق التجارة، والقوافل المارّة بأرضها؛ لأهمّيّتها التجاريّة في تلك المدّة من جهة، ولصدّ هجمات القبائل العربيّة وتوغّلها في أراضي الإمبراطوريّة الفارسيّة من جهة أخرى، لذلك، نجد الفرس اختاروا أفضل منطقة في البصرة، وهي الأبلّة، نزلوها وجعلوا يركزون مساحهم داخلها؛ لحماية مركزهم التجاريّ الأبلّة، وهذا ما جعل البعض يذهب إلى أنّ الأبلّة أقدم من البصرة^(٢). صحيح أنّ الأبلّة قديمة التاريخ، لكنّ هذا القدم ناشئ عن شهرة المدينة التجاريّة، ومن ثمّ، لفتت نظر المؤرّخين والكتّاب نحوها، دون الاهتمام بأنحاء البصرة الأخرى.

وثمّة نصّ تاريخيّ يشير إلى تجمّع الفرس وتمركزهم حول الأبلّة؛ فعندما توجه خالد بن الوليد إلى البصرة بأمر أبي بكر، استقبله هناك قطبة بن قتادة السّدوسيّ^(٣)، وقال له: «أيّها الأمير، إنّ الأبلّة^(٤) مملوءة بالحشود، وفيهم شجاعة متهوّرة»^(٥). فكان الفرس قد سيطروا على المنطقة واحتكروا تجارتها.

وفي العهد القريب من الإسلام، هناك بعض الإشارات إلى نزول القبائل العربيّة أطراف البصرة، ثمّ أخذوا يتعمّقون في أراضيها مع مرور الزمن، مستغلّين

(١) حسن الأمين، دائرة المعارف الإسلاميّة: ٥ / ١٦٤.

(٢) السمعانيّ، الأنساب: ١ / ٧٥؛ د. عبد الجبّار ناجي، دراسات في تاريخ المدن: ص ١٤٥.

(٣) قطبة بن قتادة السّدوسيّ: الشيبانيّ من بكر بن وائل، أبو الحويصلة، شجاع من القادة، من أبناء بادية البصرة، أسلم بعد فتح مكّة، واستخلف خالد بن الوليد على الأبلّة سنة ١٢هـ. ابن حجر، الإصابة: ٥ / ٣٣٩.

(٤) روي أنّ سنان بن مالك أبا صهيب الروميّ الصحابيّ أو عمّه كان عاملاً لكسرى على الأبلّة. ابن عبد البرّ، الاستيعاب: ٢ / ٢٢٧.

(٥) ابن أعثم، الفتوح: ١ / ٧٢.

ضعف الفرس؛ إذ يُروى أنّ كسرى (هرمز بن أبرويز) استخدم قيس بن مسعود الشيباني^(١) على قبائل بكر بن وائل التي نزلت البصرة، وقد سمح كسرى لهذه القبائل أن تنزل طفً^(٢) البصرة على أن يراعوا وضع الفرس، وأن يتعهّد زعيمهم قيس بن مسعود بالنيابة عن قبيلته وبقية العرب المتواجدين في المنطقة بعدم التظاهر على عمال كسرى اللّذين سكنوا المسالحي، فقد روي أنّ «قيس بن مسعود الشيباني على طفّ الأبلّة من قبل كسرى»^(٣).

وكذلك ذكر ياقوت الحمويّ أنّ كسرى جعل طفّ البصرة لقيس بن مسعود^(٤). وقيل: إنّ كسرى أقطع سواد^(٥) البصرة القبائل العربيّة التي نزلت فيها، بعد تقويض الدّولة السّاسانيّة^(٦).

(١) قيس بن مسعود الشيبانيّ: قيس بن مسعود بن قيس بن خالد بن عبد الله ذي الجذّين، من بني ذهل بن شيبان، كان عامل كسرى هرمز بن أبرويز على طفّ العراقيّين. يُنظر الطبريّ، تاريخ: ١/ ٦٠٨؛ الزّرّكلي، الأعلام: ٥/ ٢٠٨.

(٢) الطّف: ما أشرف من أرض العرب على ريف العراق. ابن منظور، لسان العرب: ٩/ ٢٢١.

(٣) البلاذريّ، فتوح البلدان: ٢/ ٤٥٨.

(٤) معجم البلدان: ٥/ ٢٠٨.

(٥) السّواد: يطلق على جماعة النخل والشّجر لخضرته واسوداده، وقيل: إنّما ذلك؛ لأنّ الخضره تقارب السّواد، ولأنّ مجتمعه سواداً إذا رُوي من بعيد، والعرب تسمّي الأخضر أسود. أبو هلال العسكريّ، الفروق اللّغويّة: ص ٢٨٩؛ ويُنظر: أبو يوسف، الخراج: ص ٧٠؛ ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة: ١/ ١٧٤؛ ابن منظور، لسان العرب: ٣/ ٢٢٥؛ النوويّ، روضة الطالبين: ٧/ ٤٧٠.

(٦) كي لسترنج، بلدان الخلافة الشرقيّة: ص ٦٤.

ويذكر الطبري: «كان كسرى قد أطعمَ قيسَ بنَ مسعود الأبلَّة»^(١). وهذا النصّ يكشف عن اتفاقية أبرمت بين كسرى ملك الفرس وبين زعيم القبائل العربيّة التي نزلت أطراف البصرة^(٢).

ويبدو أنّ هذا الاتفاق كان عبارة عن تعهّد يلزم الزعيم العربيّ بحماية أتباع كسرى، وإيقاف الغارات العربيّة، والمحافظة على أمن المنطقة، مقابل إطعام قيس منطقة الأبلّة. فهذا يدلّ على تعاظم قوّة العرب في طفّ البصرة، وأصبح لهم من يمثلهم أمام الفرس، ولكن قيس بن مسعود لم يتمكّن من إيقاف أحداث بكر ابن وائل بأصحاب كسرى، فكتب إليه: «غررتني من قومك»^(٣)، فأخذه وحبسه بساباط^(٤)، وقيل: بحلوان^(٥) في العراق، وبقي في حبس كسرى إلى أن مات.

ولكنّ الطبريّ ينقل رواية عن قيس بن مسعود ومشاركته في معركة ذي قار؛ إذ يذكر: «وكتب كسرى إلى قيس بن مسعود بن ذي الجديّين، وكان استعمله على طفّ سفوان أن يوافوا إياساً، فإذا اجتمعوا، فإياس على الناس، وجاءت الفرس ومعها الجنود، والفيلة عليها الأساورة...، فلما دنت جيوش الفرس بمنّ معهم،

(١) تاريخ الطبري: ١/ ٦٠٨؛ ويُنظر: المقرئيّ، إمتاع الأسماع: ١٤/ ١٢٢.

(٢) يُنظر: الزركلي، الأعلام: ٥/ ٢٠٨؛ محمود عبد الله إبراهيم العبيديّ، بنو شيان ودورهم في التاريخ العربيّ والإسلاميّ: ص ١٩.

(٣) الزركلي، الأعلام: ٥/ ٢٠٨.

(٤) ساباط: موضع معروف بالمدائن، وكان فيه حجّام يحجمُ النَّاسَ، فإن لم يجبه أحد، حجّم أمّه، حتّى قتلها. ياقوت الحمويّ، معجم البلدان: ٣/ ١٦٦.

(٥) حلوان: مدينة كبيرة في سفح الجبل المطل على العراق، بينها وبين الجبال ستّة أميال، ولها نخل كثير، وليس بالعراق بعد البصرة والكوفة وواسط أعمر منها. الشريف الإدريسيّ، نزّهة المشتاق: ٢/ ٦٧٠.

انسَلَّ قيس بن مسعود ليلاً، فأَتى هانئاً، فقال له: أعط قومك سلاح النعمان^(١) فيَقووا، فإن هلكوا، كان تبعاً لأنفسهم»^(٢).

وإذا ما أخذنا بعين الاعتبار ما تقدم، نجد أن قيس بن مسعود قد خذل كسرى وانضم إلى جانب العرب، ولم يلتزم بما قطعه من العهود لملك الفرس، مما حمل الأخير على حبسه في سجنونه حتى موته، فهذه الأحداث التي شهدتها المنطقة دليل على أنها قد سكنت من قبل العرب الذين حاولوا تأسيس وطن يلم القبائل العربية، بجوار الإمبراطورية الفارسية.

ويبدو أن كسرى خشي من نزول القبائل العربية على أطراف دولته، فكان يأخذ العهود التي تلزم العرب بعدم استفزاز أتباعه ومضايقتهم، ففي بداية الدعوة الإسلامية أصاب قومَ حاجب بن زرارة^(٣) جذبٌ وقحطٌ شديدين؛ لأنَّ رسول الله ﷺ

(١) سلاح النعمان: كان النعمان بن المنذر بن امرئ القيس اللخمي آخر ملك من بني لخم على الحيرة، وكان يفد في كل سنة على كسرى، وكان يحتفظ بسلاح أعطاه إياه ملك الفرس كسرى أبرويز ضمن اتفاق مبرم بينهما، فلما وقع الخلاف بين الطرفين، واستدعى كسرى النعمان، خاف أن يُقتل، فذهب بقومه وسلاحه، وأنزلهم لدى قبيلة شيبان عند هانئ بن مسعود الشيباني، فلما علم كسرى أن النعمان وضع سلاحه لدى قبيلة بني شيبان، قدم جيشه ومرازبته وفيلته من أجل إبادة القبيلة بمن فيها، واسترجاع السلاح، لكنَّ هانئ بن مسعود الشيباني تمكن من أن يجمع القبائل العربية من حوله، وأقنعها بمشاركته في التصدي لجيش كسرى ومحاربه والانتصار عليه في معركة ذي قار المشهورة. للتفصيل يُنظر: الطبري، تاريخ: ١/ ٦١٠؛ محمود عبد الله إبراهيم العبيدي، بنو شيبان ودورهم في التاريخ العربي والإسلامي: ص ١٣٨.

(٢) الطبري، تاريخ: ١/ ٦٠٩؛ ويُنظر: محمود عبد الله إبراهيم العبيدي، م. ن: ص ١٤٣.

(٣) حاجب بن زرارة بن عديس التميمي: من سادات العرب في الجاهلية، كان رئيس تميم في عدة مواطن، وهو الذي رهن قوسه عند كسرى، وحضر حاجب يوم شعب جيلة من أيام

دعا عليهم، فأتى كسرى وسأله أن يأذن له ولقومه أن يصيروا إلى ناحية من نواحيه^(١)، وأن يأذن لهم فيكونوا في حدّ بلاده^(٢)، فقال كسرى: أنتم معشر العرب قوم غدرٍ حرصاء، فإن أذنتُ لكم، أفسدتم البلاد، وأغرتم على الرعيّة وآذيتموهم^(٣)، فقال حاجب: إني ضامن للملك ألا يفعلوا. ثم رهن حاجب قوسه لكسرى، فضحك مجلس كسرى على أمر الرهينة، لكنّ كسرى قبلها، وقال: «ما كان ليسلمها»^(٤)، وقبلها منه، وأذن لهم بأن يدخلوا الرّيف، فأصبح قوسُ حاجب يُضرب به المثل^(٥).

فهذه الأحداث التي شهدتها البصرة شاهد آخر على أنّ للبصرة امتداداً تاريخياً يصل إلى ما قبل الفتح الإسلاميّ، وكانت أوّل حرب بين العرب والعجم قد شدّ طرفها من أرض البصرة، وهذا يعكس أهميّة المنطقة من الناحية السَّياسيّة قبل الإسلام.

وثمة احتمال أنّ كسرى حاول سبق العرب المسلمين في الاستيلاء على منطقة البصرة لضرب العرب بالعرب، أي: إمّا أشبه بالقاعدة العسكريّة، ولكنه لم يتمكّن من استغلال المنطقة بالارتكاز على العنصر العربيّ، الذي يتعاطف مع العربيّ الآخر ضدّ الفرس، الأمر الذي أفشل مخطّط كسرى في استغلال المنطقة

العرب المعروفة، أدرك الإسلام وأسلم. ابن حجر، الإصابة: ١ / ٦٥٧.

(١) ابن قتيبة، المعارف: ص ٦٠٨؛ ابن الأثير، أسد الغابة: ٢ / ٩١.

(٢) البغداديّ، خزانة الأدب: ١ / ٣٤٥.

(٣) ابن قتيبة، المعارف: ص ٦٠٨؛ البغداديّ، خزانة الأدب: ١ / ٣٤٥.

(٤) ابن قتيبة، المعارف: ص ٦٠٨.

(٥) الميدانيّ، مجمع الأمثال: ٢ / ٣٦٢؛ د. أميل بديع يعقوب، موسوعة أمثال العرب: ٤ /

عسكرياً لمصلحته، ما دفعه إلى معاقبة الذين ينقضون العهود، كقيس بن مسعود. ومن الراجح أن هذا التطور الاجتماعي الذي شهدته المنطقة أسهم في إنعاش الحياة الاقتصادية في البصرة.

ويذهب أحد الباحثين إلى أن تلك المدّة المبكّرة من العصر الجاهليّ هي بداية قيام سوق المِربد^(١)، في حين يرى آخر أن سوق المِربد في البصرة قام بعد الإسلام، وكانت عكاظ المسلمين^(٢).

والذي نرجّحه، هو أن المِربد كان قبل الإسلام، وأن سوق المِربد كان يقع على طرف الصّحراء غربي البصرة^(٣)؛ وبسبب انتعاش المنطقة المجاورة للفرس، لم يسرّهم ذلك، بل حاولت السّلطة الفارسيّة الحدّ من ذلك الانتعاش، الذي قدّ يسبّب لها إرباكاً في المستقبل القريب؛ إذ يزداد الوافدون الجدد للسكن في المنطقة، وعليه؛ حاولت درء خطر هذا التزايد بالإضافة إلى المقيمين من العرب وإبعادهم عن الاتصال المباشر بالمنطقة المأهولة^(٤). وعلى هذا الأساس وافق الفرس على قيام سوق للعرب على أطراف الصّحراء، ثمّ عرفت المنطقة بباب البادية^(٥).

وكانت هذه البادية (بادية البصرة) قد نزلتها أقوام عربيّة^(٦)، وذكر ابن سعد

(١) مصطفى عبّاس الموسوي، العوامل التاريخيّة لنشأة وتطور المدن العربيّة الإسلاميّة: ص ٦٦.

(٢) عرفان محمّد حمور، أسواق العرب: ص ٥٤.

(٣) ياقوت الحموي، معجم البلدان: ١ / ٦٤١.

(٤) يُنظر: مصطفى عبّاس الموسوي، م. ن: ص ٦٦.

(٥) المقدسي، أحسن التقاسيم: ص ١١٧.

(٦) ابن سعد، الطبقات الكبرى: ٤ / ٢٧١؛ ابن حجر، الإصابة: ٣ / ٥١٣؛ ويُنظر: إبراهيم جدّوع، إمارة البطائح العربيّة: ص ٥٠.

أَنَّ عدد الذين نزلوا بادية البصرة كانوا تسعمائة، ورئيسهم العباس بن مرداس السَّلمِي^(١)، وقد شاركه هؤلاء في فتح مَكَّة أَيَّامَ الرَّسُولِ ﷺ^(٢).

وليس لدينا معلومات مفصَّلة عن هذا العدد المذكور، وعلاقتهم بالبصرة. والظاهر من أمرهم أَنَّهُم قوم العباس بن مرداس، الذي كان يغزو مع النَّبِيِّ ﷺ، ثُمَّ يرجع إلى بلاد قومه، وكان ينزل بوادي البصرة، وكان يأتي البصرة كثيراً، وروى عنه البصريُّون، وبقية ولده ببادية البصرة^(٣).

وعلى هذا الأساس، نجد أَنَّ سَكَّانَ بادية البصرة شاركوا في غزوات الرسول الأكرم ﷺ، وما إنْ تنتهي الغزوة، يرجعون إلى البصرة تحت لواء العباس بن مرداس، الذي كان من المؤلِّفة قلوبهم^(٤)، وكان رئيس قومه وفارسهم، وقد عاتب النَّبِيُّ ﷺ عندما أعطى المؤلِّفة قلوبهم، وساوى بينهم وبين العباس بن مرداس عندما أعطاه أربعة من الإبل؛ إذ قال شعراً عن تلك العطايا جاء فيه:

كَانَتْ نَهَايَا تَلَاقِيَتْهَا وَكَرَّيْ عَلَى الْقَوْمِ بِالْأَجْرِ

(١) العباس بن مرداس السَّلمِيّ: هو العباس بن أبي عامر بن حارثة بن عبس بن رفاعة بن الحارث بن حبي السَّلمِيّ، يكنى أبا الهيثم، أسلم قبل فتح مَكَّة بيسير، وكان مِمَّنْ حَرَّمَ الخمر في الجاهليَّة. ابن الأثير، أسد الغابة: ٣ / ١١٢.

(٢) ابن الأثير، أسد الغابة: ٤ / ٢٧.

(٣) م.ن: ٤ / ٢٧٣.

(٤) قال الشيخ الطوسي: أمَّا مؤلِّفة الإسلام، فعلى أربعة أصناف، وعدَّ العباس بن مرداس في الصَّنَف الثاني، وهم: قوم لهم شرف وطاعة أسلموا وفي نيَّاتهم ضعف، أعطاهم النَّبِيُّ ﷺ ليقوِّي نيَّاتهم، مثل: أبي سفيان بن حرب، أعطاه النَّبِيُّ ﷺ مائة من الإبل، وأعطى صفوان ابن المعطل مائة، والأقرع بن حابس مائة، وأعطى عتبة بن الحصين مائة، وأعطى العباس بن مرداس أقلَّ من مائة، فاستعتب، فتمَّ المائة. المبسوط: ١ / ٢٤٩.

وحشّي الجنودَ لكي يُدْجُوا إذا هجعَ القومُ لم أهْجِعْ
فأصبحَ نهبِي ونهبُ العبيدِ يدُ بينَ عُيَيْنَةٍ والأَقْرَعِ^(١)

فلما سمع الرسول ﷺ ذلك الشعر، أمر له بمثل ما أعطى الآخرين، فحصل على مائة من الإبل^(٢). ولهذا؛ فإن حركة العباس بن مرداس وفرسان قومه التسعمائة في بادية البصرة شاهد على تواجد العنصر العربي بالمنطقة بكثرة، وليس لدينا نصوص تاريخية تبين لنا عملية نزولهم البصرة، والفترة الزمنية التي نزلوا بها على وجه التحديد، ولكن الشيء الذي يهمنّا، هو أنّ تلك الأجواء من بادية البصرة أصبحت مأهولة بالسكان، وهذا الشيء لم يتطرق إليه بعض الباحثين الذين تناولوا تاريخ البصرة قبل الإسلام^(٣)، على الرغم من جهدهم المبذول في دراسة المدينة.

أمّا العمليّات العسكريّة التي قادها قطبة بن قتادة السدوسي، فما هي إلا امتداد لتلك الغارات المحليّة التي تشنّها قبائل بكر بن وائل على الفرس، وكان السبب في قيام هذه الحركات هو أنّ هذه القبائل بعد الاستقرار والمجاورة الطويلة لدولة الفرس، استطاعت معرفة نقاط الضعف في البلاد المجاورة لهم، ثمّ حاولوا أن يكسروا الاحتكار التجاريّ الفارسيّ لمنطقة الأبلّة، وهذا ما جعل قطبة يكرّر

(١) ابن سعد، الطبقات الكبرى: ٤/ ٢٧٢؛ ويُنظر: ابن دريد، الاشتقاق: ٢/ ٣١٠؛ المفيد، الإرشاد: ١١١-١١٢.

(٢) ابن سعد، م.ن: ٤/ ٢٧٢.

(٣) للمزيد من التفاصيل، راجع: عبد القادر باش أعيان، البصرة في أدوارها التاريخية: ص ٢ وما بعدها؛ مصطفى عباس الموسوي، العوامل التاريخية لنشأة وتطور المدن العربيّة الإسلاميّة: ص ٦٦، د. عبد الجبار ناجي، دراسات في تاريخ المدن: ص ١٤٠.

عمليات الإغارة والهجمات الخاطفة؛ من أجل توسيع رقعتهم التي نزلوها باتجاه الفرس، وكان هذا تابعاَ لطموح القبائل العربيّة في البصرة نحو التطلّعات الأفضل في المجال الاقتصاديّ، فكان قطبة يُغيّر بناحية الحُرّيّة من البصرة^(١)، ولم يكن همُّ قطبة بن قتادة تحقيق المكاسب المربحة من الغنائم، أو السَّيطرة على ميناء الأبلّة، بل تجاوز الأمر إلى أكثر من ذلك؛ إذ كتب إلى عمر بن الخطّاب «يُعلمه مكانه، وأنّه لو كان معه عدد يسير، ظفر بمن قبله من العجم»^(٢). فكانت كتابات قطبة بن قتادة هي أحد الأسباب التي دفعت عمر إلى أن يوجّه اهتمامه نحو البصرة؛ لأهميّتها العسكريّة.

وعليه؛ فقد مرّ الجهد العسكريّ لتحرير المنطقة بمرحلتين: كانت أولاهما المرحلة المحليّة التي مثلها قطبة بن قتادة السّدوسيّ، وأمّا المرحلة الثانية، فقد كانت مرحلة الجهد الحربيّ الإسلاميّ التي يُديرها جيش الدولة الإسلاميّة^(٣)، وعلى هذا الأساس، قيل: «إنّ قطبة بن قتادة أوّل من بصر البصرة وفتح الأبلّة»^(٤). وبسبب الأخير أصبحت الأنظار تتّجه نحو أراضي العراق والمشرق من أجل نشر الدّين الإسلاميّ، والتخلّص من أعداء الإسلام، وتطويق الخطر الفارسيّ الذي بدأ ينهار بسرعة مذهلة أمام قوّة الإسلام وأهله، وهذا ما جعل أبا بكر يرسل جيشاً إلى فتح تلك الأراضي برأي بعض الصّحابة والمسلمين^(٥).

(١) البلاذريّ، فتوح البلدان: ٢ / ٢٩٥؛ الطبريّ، تاريخ: ٣ / ٩١؛ ابن أعثم، الفتوح: ١ / ٧١.

(٢) الطبريّ، م.ن: ٣ / ٩١.

(٣) نخبة من الباحثين، حضارة العراق: ٥ / ١٣.

(٤) السّمعيّ، الأنساب: ١ / ٤٥؛ ويُنظر: العسكريّ، تصحيّفات المحدثين: ٢ / ٦٤٩.

(٥) ابن أعثم، م.ن: ١ / ٧٢.

وكان خالد بن الوليد على رأس القوة العسكرية التي توجهت لفتح العراق وتخليصه من السيطرة الفارسية ابتداء من الجنوب، وبذلك المرحلة بدأ تاريخ البصرة يأخذ مساراً آخر يختلف عما سبق من الأحداث المحلية، ليصبح تحت سلطة الدولة الإسلامية؛ ففي سنة (١٢هـ / ٦٣٣م) وجه أبو بكر خالد بن الوليد إلى أرض العراق^(١)، وهنا، بدأ الاختلاف والتضارب بين المؤرخين بالنسبة إلى خالد، فقائل يقول: كان يريد الكوفة فمرّ بأرض البصرة وفتح الأبلّة، ثم مضى إلى الكوفة^(٢)، وهناك من يقول: إنّ أبا بكر وجهه إلى أرض البصرة مباشرة^(٣)، وقال الواقدي: «اختلف في خالد، فقائل يقول: مضى من وجهه ذلك من اليمامة إلى العراق، وقائل يقول: رجع من اليمامة إلى المدينة، ثم سار إلى العراق من المدينة، فمرّ على طريق الكوفة حتى انتهى إلى الحيرة»^(٤).

ولكنّ الأحداث التاريخية التي جرت في المنطقة ومراحل الفتح نسبت إلى عتبة ابن غزوان عام (١٤هـ)، أيام عمر بن الخطّاب، فهو من فتح الأبلّة، وليس خالد ابن الوليد^(٥).

وهناك رواية تاريخية تنسب الفتح إلى خالد بن الوليد، وأنّه أجرى خطة عسكرية بالتنسيق مع قطبة بن قتادة في كيفية دحر التمرّكز الفارسيّ داخل الأبلّة، فيروى أنّ قطبة قال لخالد: «إنّ أهل الأبلّة قد أجمعوا لي، ولا أحسبهم امتنعوا مني

(١) ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ٢ / ٢٣٤.

(٢) البلاذري، فتوح البلدان: ٢ / ٤١٨.

(٣) خليفة بن خياط، تاريخ: ص ٧٧؛ الذهبي، تاريخ الإسلام: ٣ / ٧٧.

(٤) ابن كثير، البداية والنهاية: ٦ / ٣٧٧.

(٥) مرتضى العسكري، عبد الله بن سبأ: ١ / ٣٠١.

إِلَّا لِمَكَانِكَ، قَالَ خَالِدٌ: فَالرَّأْيُ أَنْ أُخْرَجَ مِنَ البَصْرَةِ نَهَارًا، وَأَعُودَ لَيْلًا، فَأَدْخَلَ عَسْكَرَكَ بِأَصْحَابِي، فَإِنْ صَبَّحْتُكَ، حَارِبْنَاهُمْ، فَفَعَلَ خَالِدٌ ذَلِكَ، وَتَوَجَّهَ نَحْوَ الْحِيرَةِ، فَلَمَّا جَنَّ اللَّيْلُ انْكَفَأَ رَاجِعًا حَتَّى صَارَ إِلَى عَسْكَرِ قُطْبَةَ بْنِ قَتَادَةَ، فَدَخَلَهُ بِأَصْحَابِهِ، وَأَصْبَحَ الْأَبْلِيُّونَ وَقَدْ بَلَغَهُمْ انْصِرَافُ خَالِدٍ عَنِ البَصْرَةِ، فَأَقْبَلُوا نَحْوَ قُطْبَةَ، فَلَمَّا رَأَوْا كَثْرَةَ مَنْ فِي عَسْكَرِهِ، سَقَطَ فِي أَيْدِيهِمْ وَانْكَسَرُوا، فَقَالَ خَالِدٌ: احْمِلُوا عَلَيْهِمْ، فَإِنِّي أَرَى هَيْئَةً قَوْمٍ قَدْ أَلْقَى اللَّهُ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ»^(١)، فَحَمَلُوا عَلَيْهِمْ، فَهَزَمُوهُمْ، وَقَتْلَ مِنْهُمْ بَشَرًا كَثِيرًا، وَغَرَقَتْ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ فِي دَجَلَةِ البَصْرَةِ^(٢).

وَإِذَا مَا أَخَذْنَا بِهِذِهِ الرِّوَايَةِ، فَإِنَّا نَجِدُهَا قَدْ أَنْهَتْ التَّوَاجِدَ الْفَارِسِيَّ فِي البَصْرَةِ، وَخَاصَّةً الْأَبْلَةَ، فَلَمَّا إِذَا نَجَدْنَا أَنَّ عَتْبَةَ بْنَ غَزْوَانَ وَأَتْبَاعَهُ قَدْ حَارَبُوا الْفَرَسَ فِي البَصْرَةِ، وَتَمَرَّكَزَهُمْ فِي الْأَبْلَةِ؟ فَحَمَلَةُ عَتْبَةَ تَنْفِي الْجَهْدَ الْعَسْكَرِيَّ الْمُنْسُوبَ لَخَالِدِ بْنِ الْوَلِيدِ فِي البَصْرَةِ، وَإِنَّ خَالِدًا رُبَّمَا مَرَّ بِالبَصْرَةِ، وَإِنَّ مَضْمُونِ الرِّوَايَةِ الَّتِي نَقَلْنَاهَا يَحْمِلُ فِي طَيَّاتِهِ جَانِبًا قِصَصِيًّا وَأَسْطُورِيًّا بَعِيدًا عَنِ الْحَقِيقَةِ!

وَمَعَ هَذَا التَّارِيخِ الْمُضْطَرِبِ الَّذِي حَمَلَ الرِّوَايَاتِ الْمَوْضُوعَةَ الَّتِي رُبَّمَا كَانَ لَهَا مَقْصِدٌ آخَرٌ مِنْ قَبْلِ وَاضْعِهَا، ارْتَبَكَ الْوَضْعَ الْعَامَّ لِتَارِيخِ البَصْرَةِ قَبْلَ التَّمْصِيرِ؛ إِذْ أَشَارَ أَحَدُ الْبَاحِثِينَ إِلَى أَنَّ خَالِدًا مَرَّ بِالبَصْرَةِ عَامَ (١٢هـ) وَهُوَ فِي طَرِيقِهِ إِلَى عَيْنِ تَمَرٍ^(٣) لِلْقَضَاءِ عَلَى الْمُرْتَدِّينَ، فَلَمْ تَكُنِ البَصْرَةُ آنَ ذَاكَ مَوْجُودَةً، بَلْ جَاءَ وَجُودُهَا بِفَضْلِ الْفَاتِحِينَ الْأَوَائِلِ عَتْبَةَ بْنَ غَزْوَانَ وَجَمَاعَتِهِ؛ إِذْ هُمْ مَنْ وَضَعَ اللَّبَنَاتِ الْأَسَاسِيَّةَ

(١) الْبِلَادِرِيُّ، فَتُوحُ الْبِلَادَانِ: ٢/ ٢٩٦.

(٢) م. ن: ٢/ ٢٩٦.

(٣) عَيْنُ التَّمَرِ: بَلَدَةٌ قَرْيَةٌ مِنَ الْأَنْبَارِ غَرْبِي الْكُوفَةِ. يَاقُوتُ الْحَمَوِيُّ، مَعْجَمُ الْبِلَادَانِ: ٤/

الأولى لبناء البصرة، وكان أول مَنْ قطنها وسكنها، ومن ثمّ ذاع اسمها^(١).
 إنّ هذا الرأي ينفي حتّى نزول القبائل العربيّة أطراف البصرة، بل إنّّه ينفي حتّى
 مسالّح الفرس؛ لأنّ عدم وجود العنصر العربيّ يعني أنّ المنطقة بأسرها كانت تحت
 السّيطرة الفارسيّة، فلا داعي لكلّ تلك الحراسة المشدّدة بأرض البصرة، ما دامت
 خالية من العنصر العربيّ، فليس هناك ما يثير حفيظة الفرس! وأعتقد أنّ هناك
 التباساً قد حدث بين تاريخ تمصير البصرة، وبين المدّة السّابقة لتاريخ التمصير،
 فأصبح التركيز على فترة التمصير والبناء متجاهلين المدّة السّابقة.

وعلى هذا، فالأحداث التي شهدتها البصرة قبل التمصير تدلّ على نزول
 العرب فيها حينذاك، وعلى تمكّنهم من إبراز الشخسيّة العربيّة، وإن كانت تحت
 النفوذ الفارسيّ، لكنهم سرعان ما حاولوا التخلّص من التبعيّة الفارسيّة عندما
 رفضوا الاستجابة لأوامر كسرى أبرويز في مشاركة قبائل بكر بن وائل إلى جانب
 الفرس ضدّ قبيلة بني شيبان، ومن ثمّ دبّ التغيّر في مجرى التاريخ عندما تمكّن
 العرب من الانتصار في معركة ذي قار، فكانت تلك الخطوة ذات أثر فعّال في
 التأثير على النفسيّة العربيّة، وتبديل نظرتها للدولة الفارسيّة، فتجرّأوا على شنّ
 الغارات المحليّة التي يمكن بوساطتها التأثير على العدوّ واختراق صفوفه. ثمّ
 دخلت البصرة تحت ظلّ اهتمام الدولة الإسلاميّة التي أخذت على عاتقها إدارتها،
 لتكون جزءاً لا يتجزّأ من كيان الأمّة الإسلاميّة.

إنّ شخسيّة البصرة السّياسيّة في فترة ما قبل البعثة النبويّة شخسيّة غامضة،
 فهي من جهة وقعت تحت نفوذ وسيطرة الدولة الفارسيّة، التي احتكرت المنطقة

(١) عبد الجبّار ناجي، إسهامات مؤرّخي البصرة في الكتابة التاريخيّة: ص ١٧.

لمصلحتها لمدة طويلة من الزمن، جعلها تهيمن على مقدّرات المنطقة الاقتصادية بقوّتها وسطوتها بوصفها القوّة التي لا تقهر، وفي مقابل ذلك، أصبحت القبائل العربيّة التي ترغب بالنزول على حدود دولة الفرس ملزمة بأن تقدّم احترامها وطاعتها لكسرى، كما فعل قيس بن مسعود الشيبانيّ وحاجب بن زرارة.

ولكن، من خلال ما ذكرناه في الصّفحات الماضية من قيام العلاقات بين كسرى والقبائل العربيّة، يتبيّن لنا أنّ القبائل التي سكنت طفّ البصرة وسواها أصبحت لها دور سياسيّ أمام النفوذ السّاسانيّ، فقد أبرزت مواقفها السّياسيّة الصّريحة تجاه كسرى ونفوذها في المنطقة بأسرها، لكنّها في الحقيقة لم تكن صادقة في نواياها السّياسيّة التي قطعتها مع كسرى، بل على العكس من ذلك، كما هو الحال في معركة ذي قار، وهذا يعني أنّ بيئة القبائل التي نزلت البصرة أصبحت أكثر فاعليّة من الناحية السّياسيّة بوجه الفرس، وهذا يوحي لنا بأنّ تلك المدّة هي التي مهّدت فيما بعد لظهور حركة الفتح الإسلاميّة لأراضي العراق والمشرق. وفي الوقت نفسه، كانت هي جذور الحياة السّياسيّة في البصرة فيما بعد.

لذا، فنحن نرجّح أنّ البصرة كان لها تاريخ حافل بالأحداث والصّراع مع الفرس قبل البعثة، على الرّغم من عدم تفصيل ذلك من قبل الأخباريين والمؤرّخين. والسّؤال الذي لا بدّ من أن يُثار هنا، هو: لماذا لم يتحدّث التاريخ عن البصرة في تلك الفترة على الرّغم من تلك الإشارات القويّة التي استعرضناها؟!

المبحث الثاني

البصرة في عهد حكومة عمر وعثمان

أولاً: تمصير البصرة وازدهارها الحضاري

اختلف المؤرخون في تحديد سنة تمصير البصرة؛ فهناك من ذهب إلى أنها مُصِّرت سنة (١٤هـ / ٦٣٤م)^(١)، والبعض جعلها سنة (١٧هـ / ٦٣٨م)^(٢)، وهناك رأي يذهب إلى أن البصرة مُصِّرت قبل الكوفة بسنة ونصف^(٣)، أي: في أواسط سنة (١٥هـ / ٦٣٥م).

وكذلك هناك بعض التناقض في الروايات حول القائد الفاتح، فالبعض يجعل الأخبار تؤكد أن فاتح المدينة كان تحت إمرة عمر بن الخطاب^(٤)، في حين أن الرأي الآخر جعل إمرة القائد تحت سعد بن أبي وقاص^(٥).

(١) خليفة بن خياط، تاريخ: ص ٨٥؛ الجاحظ، رسائل الجاحظ: ١ / ١٠٤؛ الطبري، تاريخ ٣ / ٨٩؛ الذهبي، العبر في خبر من غبر: ص ٢٢؛ ابن كثير، البداية والنهاية: ٧ / ٥٦؛ ابن خلدون، تاريخ: ٢ / ١٠٣؛ زامباور، معجم الأنساب والأسر الحاكمة في التاريخ الإسلامي: ص ٦٢.

(٢) اليعقوبي، البلدان: ص ٣٢٣؛ المسعودي، التنبيه والإشراف: ص ٣٠٩؛ كي لسترنج، بلدان الخلافة الشرقية: ص ٦٤؛ ماسينيون، خطط الكوفة: ص ١٣٩.

(٣) القزويني، آثار البلاد: ص ١٣٥.

(٤) الطبري، تاريخ: ٣ / ٩٠.

(٥) ابن حبان، الثقات: ٢ / ٢١٢؛ ابن خلدون، تاريخ: ٢ / ١٠٣.

إنَّ هذا التناقض جاء بلا شكَّ بسبب حدّة التنافس بين البصريين والكوفيين على سبق التمصير، أضف إلى ذلك أنَّ سعد بن أبي وقاص هو الذي أرسل عتبة ابن غزوان سنة (١٦هـ)^(١) لفتح البصرة، وهذا ما يجعل فترة التمصير مضطربة ومتفاوتة بعض الشيء في نقلها، لكنَّ الذي أكّده المصادر، هو أنَّ البصرة هي المصر^(٢) الذي مصّره عتبة بن غزوان بن جابر بن وهب بن نسيب، أحد بني مازن ابن منصور بن عكرمة بن خصفة، وهو حليف بني نوفل بن عبد مناف، وكان من المهاجرين الأوّلين، وكان ذلك بأمر عمر بن الخطّاب.

على أنَّ النصوص التاريخية تذكر أنَّ عمليّة فتح البصرة كانت من قبل عتبة ابن غزوان؛ فقد روي: «فلما بلغ عمر بن الخطّاب خبر قطبة بن قتادة وما يصنع بالبصرة، رأى أن يوليها رجلاً من قبله، فولّاها عتبة بن غزوان...، وقال له: إنّ الحيرة قد فُتحت، وقُتل عظيم من العجم...، ووطئت خيل المسلمين أرض بابل، فصر إلى ناحية البصرة، واشغل من هناك من أهل الأهواز^(٣) وفارس^(٤)

(١) ابن خلدون، تاريخ: ٩٠ / ٢.

(٢) المصر: كلّ بلد جامع يقام فيه الحدود، ويحلّه أمير، ويقوم بنفقته، هذا قول الفقهاء. وأهل اللّغة يقولون: كلّ بلد كبير جليل. أمّا المقدسيّ، فجعله كلّ بلد حلّه السّلطان الأعظم، وجمعت إليه الدواوين، وقُلدت منه الأعمال، وأضيفت إليه مدن الأقاليم. أحسن التقاسيم: ص ٤٧.

(٣) الأهواز: اسمها هرمز شهر، وهي الكورة العظيمة التي ينسب إليها سائر الكور، وقيل: سمّتها العرب سوق الأهواز، وقيل: أوّل من بناها أردشير، وهي كورة بين البصرة وفارس. ياقوت الحمويّ، معجم البلدان: ٢٨٥ / ١.

(٤) فارس: ولاية واسعة وإقليم فسيح، أوّل حدودها من جهة العراق أرجان، ومن جهة كرمان اليرجان، ومن جهة السّاحل بحر الهند، ومن جهة السّند مكران. ياقوت الحمويّ، معجم البلدان: ٢٢٦ / ٤؛ وينظر: الشّريف الإدريسيّ، نزهة المشتاق: ٤٠٤ / ١.

وميسان^(١)، عن إمداد إخوانهم على إخوانك^(٢).

ويُذكر أنّ عمر بن الخطّاب أراد أن يتّخذ للمسلمين مصرّاً، فمرّ عليه رجل من بني سدوس يقال له (ثابت)، فقال: «يا أمير المؤمنين، إنّني مررتُ بمكان دون دجلة فيه قصر، وفيه مسالح^(٣) للعجم، يقال له: (الخريبة)، -يعني: اسم المنطقة-، ويُسمّى أيضاً البُصرة، بينه وبين دجلة أربعة فراسخ، له خليج بحريّ فيه الماء إلى أجمة القصب، فأعجب ذلك عمر^(٤).

إنّ هذه النصوص التاريخيّة توحى لنا أنّ عمليّة التمهيد كانت عسكريّة محضة^(٥)؛ إذ إنّ العرب كانوا يتطلّعون إلى إنشاء مصر يُعتمد عليه في تموين مركز القيادة الإسلاميّة المتمثّل بالمدينة المنورة.

إضافة إلى ذلك سيطرة العرب على مفترق الطرق عندما يتمّ السيطرة على أرض البصرة، ومن ثمّ، إشغال أهل تلك الناحية، ومنعهم من إمداد أصحابهم بناحية السّواد على إخوانهم الذين هناك، «وقطع مادّة أهل فارس عن الذين بالمدائن ونواحيها»^(٦). فقد تحكّمت الضرورات العسكريّة السّياسيّة في تحديد المكان الذي ينبغي على العرب أن ينزلوه، ويتحكّموا بسيادة تلك المنطقة عندما تصبح خاضعة

(١) ميسان: كورة واسعة كثيرة القرى والنخيل بين البصرة وواسط، وهي إحدى مدن العراق المشهورة حالياً. ياقوت الحمويّ، معجم البلدان: ٥ / ٢٤٢.

(٢) البلاذريّ، فتوح البلدان: ٢ / ٤١٨ - ٤١٩.

(٣) مسالح: القوم الذين يحفظون الثغور من العدو، مهمّتهم مراقبة تحرّكات العدو لئلاّ يطرّقهم على غفلة. ابن الأثير، النهاية في غريب الحديث: ٢ / ٣٨٨.

(٤) ياقوت الحمويّ معجم البلدان: ١ / ٤٣٠.

(٥) يُنظر: رباب جبار طاهر السّودانيّ، جبهة البصرة: ص ٣١.

(٦) الطبريّ، تاريخ: ٣ / ٨٩؛ ابن كثير، البداية والنهاية: ٧ / ٥٦.

بالكامل لنفوذ الدولة الإسلاميَّة.

وعلى أثر تلك التطلَّعات الأوَّليَّة التي قام بها المسلمون، «بعث عمر بن الخطَّاب في سنة (١٤هـ) شريح بن عامر^(١) إلى البصرة، وقال له: كنْ رِداءً للمسلمين»^(٢)، فسار إلى الأهواز، فقتل هناك^(٣).

إنَّ هذا النصَّ يكشف العمليَّة الأولى التي قام بها العرب المسلمون بتوجيه عمر، بهدف كشف فحوى وضع المنطقة وقدراتها العسكريَّة، دون أن يكون هناك تأكيد يلزمهم بالاستقرار فيها.

بعد هذه الخطوات التي قام بها المسلمون، أصبحت هناك حاجة ملحَّة إلى بناء القواعد العسكريَّة خارج حدود شبه الجزيرة العربيَّة، وهكذا أقبل عتبة بن غزوان في ثلاثمائة وبضعة عشر رجلاً يزيدون قليلاً أو ينقصون^(٤)، وأقاموا في البصرة أشهراً لا يغزون ولا يلقون أحداً^(٥). وفي بداية أمرهم، نزل هؤلاء الأخبية والأقباب^(٦)، وبعد الاستقرار ومعرفة المنطقة والتعرُّف على طبيعة معاملها، تمكَّنوا

(١) شريح بن عامر: ابن قيس بن عامر بن عمير السَّعْدِيّ، من بني سعد بن بكر، له صحبة، ولَّاه عمر بن الخطَّاب البصرة، قُتِلَ بالأهواز سنة (١٣هـ). الصَّفديّ، الوافي بالوفيات: ١٦ / ٨٥؛ ابن حجر، الإصابة: ٣ / ٢٧٣.

(٢) خليفة بن خيَّاط، تاريخ: ص ٨٥.

(٣) يُنظر: العسكريّ، تصحيّفات المحدثين: ٢ / ٥٠٠؛ ابن عبد البرّ، الاستيعاب: ٢ / ٧٠٢؛ الذهبيّ، تاريخ الإسلام: ٣ / ١٢٩.

(٤) الطبريّ، تاريخ: ٣ / ٩٠؛ أمّا البلاذريّ، فذكر أنَّ عمر بن الخطَّاب وجَّه عتبة بنَ غزوان في ثمانمائة إلى البصرة. فتوح البلدان: ٢ / ٤٢٠.

(٥) الطبريّ، تاريخ: ٣ / ٩٠.

(٦) البلاذريّ، فتوح البلدان: ٢ / ٤١٨؛ الدَّينوريّ، الأخبار الطَّوال: ص ١٧.

من اختيار المكان الذي يتخذونه معسكراً مؤقتاً؛ إذ «مرّ عتبة بن غزوان بموضع المربد، فوجد الكدّان الغليظ [الحجارة الغليظة]، فقال: هذه البصرة، انزلوها بسم الله»^(١). فكانت هذه الخطوة التديريّة من أجل فتح الأبلّة التي كانت تخضع للنفوذ الفارسيّ حينذاك.

وكذلك من المرجّح أنّ عتبة وأتباعه خشوا من التعرّض لهجوم مباغت، ما جعلهم يخفون مكانهم في حالة غزواتهم، حيث أنّهم «إذا غزوا، نزعوا ذلك القصب وحزموه ووضعوه حتّى يرجعوا من الغزو»^(٢)، فهذا النصّ يعكس -كذلك- نوايا القوم في عدم الاستقرار بالبصرة.

وهناك رواية مضطربة ذكرها بعض المؤرّخين عن وقوع معركة بين عتبة بن غزوان وصاحب الفرات لم يذكروا اسمه؛ إذ جاء فيها: «فسار عتبة ومَن معه، حتّى إذا كانوا بالمربد، تقدّموا حتّى بلغوا حيال الجسر الصّغير»^(٣)، فنزلوا، فبلغ صاحب الفرات خبرهم، فأقبل في أربعة آلاف، فالتقوا، فقاتلهم عتبة بعد الزوال وكان في خمسمائة، فقتلهم أجمعين! ولم يبق إلّا صاحب الفرات»^(٤).

والملفت للنظر هنا هو عدد الطرفين غير المتقارب؛ إذ من الواضح أنّ الخمسمائة نفر وهم أصحاب عتبة بن غزوان يبعد جدّاً أن تكون لهم القوّة بأن يقفوا أمام

(١) خليفة بن خيّاط، المصدر السّابق: ص ٨٧؛ الذهبيّ، المصدر السّابق: ٣/ ١٢٩.

(٢) البلاذريّ، المصدر السّابق: ٢/ ٤٢٥؛ ياقوت الحمويّ، معجم البلدان: ١/ ٤٣٢.

(٣) الجسر الصّغير: أحد جسري البصرة، يمتدّ على نهر معقل، وكان يقع في الطرف الشرقيّ من مدينة الكلاء. صالح أحمد العلي، خطط البصرة: ص ١٥٨.

(٤) الطبريّ، تاريخ: ٣/ ٩٠؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ٢/ ٣١٧؛ ابن كثير، البداية والنهاية: ٧/ ٥٦؛ ابن خلدون، تاريخ: ق ٢، ٢/ ١٠٣.

الأربعة آلاف مقاتل؟ ما يقوِّي احتمال كون القوَّة المُقابِلة أربعمائة مقاتل لا أربعة آلاف، فوقع شيء من الخطأ في نقل النصِّ.

وكذلك فإنَّ المبالغة واضحة في عدد القتلى؛ إذ لم يبقَ إلَّا القائد حيًّا من تلك القوَّة الكبيرة، وأمَّا سائر جيشه، فقد قتلوا جميعاً!

وعليه، لا يمكن قبول هذه الرواية والقول بصحَّة ذلك العدد، حتَّى لو افترضنا الزيادة في عدد أصحاب عتبة بن غزوان، فليس هناك ما يدلُّ على كثرتهم^(١).

وعلاوة على جميع ما تقدَّم، فإنَّه لم يذكر عدد القتلى من أصحاب عتبة! بعد هذا النجاح الملفت للنظر الذي حقَّقه المسلمون مقابل الفرس في منطقة البصرة، توجَّهوا نحو الأبلَّة، فافتتحوها عنوة، وكتب ابن غزوان بذلك الفتح إلى عمر بن الخطَّاب: «أمَّا بعد، فإنَّ الله -وله الحمد- فتح علينا الأبلَّة، وهي مرقى سُفْن البحر من عُمان، والبحرين، وفارس، والهند، والصَّين، وأغنمنا ذهبهم وفصَّتهم وذرايرهم»^(٢).

وهذا الكتاب يعكس الامتيازات الاقتصادية للأبلَّة، التي كانت على اتصال بالمناطق المذكورة، إلَّا أن عمر لم يكن همه تلك الامتيازات بقدر ما كان يحاول أن ينتزع منطقة الأبلَّة من قبضة الفرس، وإخضاع المنطقة للنفوذ الإسلامي، وبعث

(١) ما يهتَمُّنا هو توضيح العدد الحقيقي لأتباع عتبة بن غزوان؛ لأنَّ العدد خمسمائة لا يكفي لدحر أربعة آلاف عادة، وهذا ما يجعلنا في شكٍّ إذا صحَّت الرواية في انضمام القبائل التي كانت تسكن البصرة إلى صفوف المسلمين من أتباع عتبة؛ لذا، فإنَّ عدم توافر نصٍّ يرفع ذلك الشكَّ جعلنا نكتفي بالإشارة إلى ذلك فحسب.

(٢) الدِّينوريّ، الأخبار الطَّوال: ص ١٧؛ ويُنظر: الطبريّ، تاريخ: ٣/ ٣٩.

الكتاب مع نافع بن الحارث بن كلدة الثقفي^(١)، فلما قدم على عمر بن الخطاب، تباشر المسلمون بذلك، فلما أراد الانصراف، قال لعمر: «يا أمير المؤمنين، إني قد افتليتُ فلاةً^(٢) بالبصرة، واتخذتُ بها تجارة»، فكتب عمر إلى عتبة بن غزوان أن يحسن جوار نافع بن الحارث، وأن يسمح له بأن يبنى داراً بالبصرة^(٣).

والظاهر من هذا الأمر، أن عمر حاول أن يلفت أنظار العرب المسلمين نحو البصرة، ويشجعهم على السكن والإقامة هناك، وعليه، فبداية البناء في البصرة له أسباب خاصة في بروز الحياة السياسية فيما بعد، فتشجيع عمر على نزول العنصر العربي في البصرة له منطلق قومي، أي: سوف يحلّ العنصر العربي محلّ العنصر الفارسي، وهذا سوف يرجّح كفة الحياة السياسية إلى مصلحة العرب مقابل الفرس، فباشر عتبة في تحديد خطة لنافع بن الحارث بناءً على أمر عمر بن الخطاب، فكان نافع أول من خطّ خطة بالبصرة^(٤).

ويبدو أن عتبة وأصحابه الذين قدموا معه إلى البصرة قد تفاجأوا بطبيعة المنطقة

(١) نافع بن الحارث بن كلدة الثقفي: أول من ابنتى داراً، واقتنى الخيل بالبصرة، كان من رقيق أهل الطائف، أمّه مولاة للحارث، واعترف الحارث أنّه ولده، فنسب إليه. أسلم وشهد الحروب، وكان مع عتبة بن غزوان حين وجّهه عمر بن الخطاب لفتح البصرة. ابن سعد، الطبقات الكبرى: ٧/ ٧٠؛ ويُنظر: الدينوري، الأخبار الطوال: ص ١١٧.

(٢) فلاة: الأرض المستوية التي ليس بها شيء، ويفتلون الفلاة: أي: يرعون كلاً البلد، ويردون الماء من تلك الجهة. ابن منظور، لسان العرب: ١٥/ ١٦٤.

(٣) الدينوري، م.ن: ص ١١٧؛ وذكر ابن سعد أنّ الكتاب كان في زمن أبي موسى الأشعري، الذي كتب إليه عمر بن الخطاب بأن يُقطع عشرة أجرة لنافع. الطبقات الكبرى: ٧/ ٧٠.

(٤) الدينوري، م.ن: ص ١١٧؛ صالح أحمد العلي، خطط البصرة: ص ٤٩؛ محمد رؤوف الشихلي، تاريخ البصرة القديمة وضواحيها: ص ٨.

الرَّيفِيَّةُ التي لم يعتادوا عليها؛ بوصفهم قوماً اعتادوا حياة الصَّحراء والبادية، فلم يجدوا شيئاً يقتاتونه، فأخذ عتبة يزهدُ أصحابه ويحثُّهم على الصبر^(١).

أمَّا عن البناء الذي اتخذهُ عتبة بن غزوان وأتباعه في البصرة، فقد اختلف فيه، وثمة رواياتٌ تحدَّثنا عن ذلك؛ عندما قدم عتبة البصرة فنزل الخريبة وليس بها إلاَّ سبع دساكر^(٢): بالزابوقة^(٣)، والخريبة، وموضع بني تميم، والأزد، فكتب عتبة إلى عمر بن الخطَّاب، ووصف له منزله، فكتب إليه عمر بأن يجمع للناس موضعاً واحداً ولا يفرِّقهم، فأقام عتبة أشهراً لا يغزو ولا يلقي أحداً^(٤).

ثم بلغ عمر أنَّ العرب الذين نزلوا البصرة قد غيَّرت ألوائهم، ورأى ذلك في وجوه وفودهم، فسألهم، فقالوا: وخومة^(٥) البلاد غيَّرتنا، فأذن عمرٌ للمسلمين باتِّخاذ البناء داخل البصرة^(٦).

ثم إنَّ أهل الكوفة استأذنوا في بِناء القصب، واستأذن فيه أهل البصرة، فقال

(١) أنظر خطبة عتبة بن غزوان: مسلم، الصَّحيح: ٨ / ٢١٥؛ الجاحظ، البيان والتبيين: ٢ / ٣٨.
(٢) دساكر: مفردها دسكرة، وهي مدينة صغيرة بها نخل وزرع، وبخارجها حصن من طين داخله فارغ، وهو مزرعة، يقال: إنَّ الملك كان يقيم به في بعض فصول السَّنة. الشريف الإدريسي، نزهة المشتاق: ٢ / ٦٧٠.

(٣) الزابوقة: وهو موضع قريب من البصرة كانت فيه وقعة الجمل أوَّل النهار، وهي مدينة المسامعة بنت ربيعة بالبصرة، ولعلَّ هذا الموضع قُلْع نبتة، فسُمِّي بذلك. ياقوت الحموي، معجم البلدان: ٣ / ١٢٥.

(٤) الطبري، تاريخ: ٣ / ٩٠؛ ياقوت الحموي، معجم البلدان: ١ / ٤٣٠.

(٥) وخومة: استوخوا المدينة: أي: استثقلوها، ولم يوافق هواؤها أبدانهم. ابن الأثير، النهاية في غريب الحديث: ٥ / ١٦٤.

(٦) الطبري، تاريخ: ٣ / ٩٠.

عمر: «العسكرُ أجْدُ لحربكم، وأذكى لكم، وما أحبُّ أن أخالفكم، وما القصب؟ قالوا: العكرش إذا روي فصار قصباً، فقال: شأنكم، فابتنى أهلُ المصرين بالقصب»^(١). وأمر عتبة محجن بن الأدرع^(٢)، فخطَّ مسجد البصرة الأعظم، وبناه بالقصب^(٣).

يقول البلاذري: «وكان محجنُ بنُ الأدرع اختطَّ مسجدَ البصرة ولم يبنه، فكان يصلي فيه من غير مبنى»^(٤)، أي: إنَّ التخطيط الأول كان مجرد تحديد المواقع لا غير. وهو ما يراه صالح أحمد العليّ منسجماً مع وضع المسلمين آنذاك، وقيامهم بحركات عسكرية مستمرة في تلك المنطقة^(٥).

وبعد هذا النجاح الذي حققه عتبة بن غزوان في تمصير مدينة البصرة، أراد الحجج، فاستخلف على البصرة أبا سبرة بن أبي رهم^(٦)، واجتمع بعمر بن الخطاب في موسم الحجج، وسأله أن يقيله، فلم يفعل.

(١) الطبري، تاريخ: ٣/ ١٤٧؛ البراقبي، تاريخ الكوفة: ص ١٤٤.

(٢) محجن بن الأدرع الأسلمي: يُنسب إلى بني سليم، أسلم في عهد الرسول ﷺ، وقد مرَّ عليه يوماً وكان مع قوم يرمون، فقال الرسول: أرموا وأنا مع ابن الأدرع. أسهم في تمصير البصرة، وقام بوضع خطة مسجدتها، ثم رجع من البصرة إلى المدينة، وبقي بها حتى وفاته. ابن سعد، الطبقات الكبرى: ١٢/ ٧.

(٣) خليفة بن خياط، تاريخ: ص ٨٧؛ ويُنظر عن مسجد البصرة: ابن إدريس الحلي، السرائر: ٤٢٢/ ١.

(٤) البلاذري، فتوح البلدان: ٢/ ٣٤٥.

(٥) خطط البصرة: ص ٦٥.

(٦) أبو سبرة بن أبي رهم: ابن عبد العزى، من بني عامر بن لؤي، أمّه برثة بنت عبد المطلب، استخلفه عتبة بن غزوان على البصرة عندما ذهب إلى الحجج، فأقره عمر بقیة سنة (١٥هـ) على البصرة. ابن قتيبة، المعارف: ص ١٢٨؛ ويُنظر: الطبري، تاريخ: ٣/ ١٧٩.

وهناك رواية تذكر أنَّ عتبة بن غزوان دعا على نفسه بالموت^(١)، فمات ببطن نخلة^(٢) وهو منصرف من الحجِّ؛ ونحن نشكُّك في صحَّة هذه الرِّواية، للمبالغة الواضحة في استجابة دعاء عتبة! فكانت البصرة أوَّل مدن الإسلام بناءً بعد مدينة الرِّسول ﷺ، ولذلك أخذت الكثير من الملامح الإسلاميَّة عن يثرب^(٣). وعلى هذا الأساس أصبحت كلمة (مصر) تُطلق على تلك المدن التي ما زالت حديثة العهد، أصبحت الكلمة تطلق بصورة خاصَّة على الأماكن التي اتخذها العرب قواعد عسكريَّة ثابتة^(٤).

لذا، يُمكن أن نرجِّح قيام مدينة البصرة وإنشاءها إلى عدَّة أسباب:

(أ) العامل السَّياسي: عدَّ المسلمون أنَّ المنطقة ذات تأثير سياسيٍّ خطير لكلِّ من سيطر عليها، وذلك أنَّ موقعها الجغرافيَّ يسيطر على مفترق الطرق التي تلتقي عند المدينة، وإنَّ كسب هذا العامل يؤدِّي إلى انتشار الإسلام بشكل أسرع في المنطقة، ومن ثَمَّ، زحزحة النفوذ الفارسيِّ الذي كان يمثِّل وجه التحديِّ للدولة الإسلاميَّة الفتية.

(ب) العامل الاجتماعيّ: إذ أصبحت البصرة بعد فتحها وتأسيس رقعتها مدينةً عربيَّة خالصة، بعدما طرد المسلمون الفرس من أراضيها، ومن ثَمَّ، فرض هذا الأمر على المسلمين أن يعيدوا حساباتهم في استغلال العامل البشريِّ في ملء ذلك

(١) ابن كثير، البداية والنهاية: ٢/ ٨٩؛ الخطيب البغداديّ، تاريخ بغداد: ١/ ١٦٨.

(٢) نخلة: موضع يقع على مسافة ليلة من مكَّة، وهي التي ينسب إليها بطن مكَّة. البكريّ، معجم ما استعجم: ٤/ ١٣٠٤.

(٣) شاكر مصطفى، المدن في الإسلام: ١/ ٣٣٨.

(٤) مجموعة من الأساتذة، بحوث ودراسات في تاريخ العرب: ص ٢٥.

الفراغ الذي برز على أثر طرد الفرس، ومن ثمَّ، يجب على المسلمين تغيير البنية الاجتماعية لمدينة البصرة عن طريق المسلمين أنفسهم، وهذا الأمر فتح المجال أمام القبائل العربية بالنزوح تجاه البصرة^(١).

(ج) العامل الاقتصادي: لم يكن هدف عمر بن الخطّاب من عملية التصير اقتصادياً بقدر ما كان عسكرياً، لكنَّ المسلمين تأثروا بالقدرات الاقتصادية التي تفاجأ بها الفاتحون؛ فقد حصلوا جرّاء عملية الفتح على الغنائم والأموال والذهب، وهذا الأمر يعكس غنى المنطقة، فكانت محطّ أنظار البعض في الانتقال والعيش هناك.

(د) العامل العسكري: وهو العامل الذي أنشئت بسببه مدينة البصرة، لتكون قاعدة عسكريّة، وكان الغرض من ذلك الحصول على دعم جديد وتموين لمركز الخلافة المتمثّل بالمدينة كسلطة عليا حينئذ، وبذلك كان للاستراتيجية العسكريّة الأثر البارز في اتخاذ البصرة قاعدة انطلاق نحو المشرق، فأطلق عليها عين العراق^(٢).

أمّا مراحل تطوّر البصرة وتوسّعها، فقد بدأ ذلك التطوّر من تغيير اسمها أولاً؛ إذ كانت أرضها تُعرف بأرض الهند^(٣)، ثمَّ أعقب تلك التسمية التغيير الجذريّ من قبل الفاتحين، الذين قالوا: «ما هذه البصرة؟»^(٤)، فأصبح الاسم الذي يطلق عليها

(١) يُنظر: الطبريّ، تاريخ: ١٧٢/٣.

(٢) قيل: «العراق عين الدّنيا، والبصرة عين العراق، والمربد عين البصرة». الجاحظ، الرّسائل السّياسيّة: ١/ ١٠٤؛ ابن قتيبة، عيون الأخبار: ص ١٥٦.

(٣) الطبريّ، تاريخ: ١٧٢/٣؛ ابن حبان، الثقات: ٢/ ٢١٢.

(٤) الطبريّ، تاريخ: ١٧٢/٣.

إلى اليوم.

ويبدو أنَّ المسلمين حاولوا إطلاق اسم البصرة نسبةً إلى طبيعة الأرض البيضاء^(١)، وكذلك الاسم الجديد يحمل مدلول العروبة، وخصوصاً أنَّ (أرض الهند) أصبحت أكثر معرفةً من ذي قبل، وتجاوزاً للإشارة التي قد تكون غريبة الأطوار، وتحمل أكثر من معنى للمقابل من الناحية السَّياسِيَّة.

هكذا، بدأت المدينة تحمل مقياس التغيّر والتحضر المدني، بعدما أصبحت معسكراً للمقاتلة العرب^(٢)، فكان القصب هو المادّة الأساس لعملية التطوّر في البناء^(٣)، وهذا بفعل طبيعة المنطقة الرّيفيّة، وتواجد القصب بكثرة، فضلاً عن أنَّ مادّة القصب كانت غريبة عن أولئك الذين اعتادوا العيش في الحجاز ذات النزعة البدويّة الصحراويّة، فكان بناؤهم بدويّاً^(٤) وفقاً للنظام القبليّ كمدن الجزيرة العربيّة^(٥).

كان التطوّر مقتصرّاً على المناطق التي نزلها المسلمون الأوائل؛ إذ بدأوا في بناء المسجد - كما ذكرنا سابقاً-؛ لأنّ المسلمين اعتادوا أن يباشروا ببناء الجامع أو المسجد في بداية الأمر، ثمّ يكون مركز التجمّع والانطلاق في حالات الفتح والجهد العسكريّ، وهذا ما حصل في البصرة؛ فقد أُسّس المسجد أولاً، وبجواره

(١) ابن منظور، لسان العرب: ٦٧ / ٤.

(٢) أحمد الشنتاوي، دائرة المعارف الإسلاميّة: ٦٦٩ / ٣؛ شارل بللا، الجاحظ: ص ٣١؛ د. هاني العميد، صورة البصرة: ص ١٦؛ نافع توفيق العبودي، المهلب بن أبي صفرة: ص ٣٠.

(٣) البلاذريّ، فتوح البلدان: ٤٢٠ / ٢.

(٤) شاكر مصطفى، المدن في الإسلام: ١ / ١٦٦.

(٥) د. عبد الجبار ناجي، دراسات في تاريخ المدن: ص ١٣٨.

دار الإمارة، وحوّلها خطط لكلّ قبيلة ومسجد ومقبرة^(١). ثمّ شجّع عمر بن الخطّاب على بناء الدور^(٢).

ويبدو أنّ البناء ظلّ مقتصرًا على القصب حتّى وقع حريق البصرة والكوفة، وكان أشدّهما حريق الكوفة^(٣). وهذه الرواية التي ذكرها الطبريّ عن مسألة الحريق سنة (١٧هـ / ٧٣٥م) مرتبكة، تحوي بعض الغموض في طيّاتها، فما هو سبب ذلك الحريق؟! ولماذا حدث في الوقت نفسه في كلتا المدينتين (البصرة والكوفة)؟! وما هو تأثيره على البصرة؟ وهل أحرّق كلّ البناء فيها؟ ثمّ لماذا حريق الكوفة أشدّ من حريق البصرة؟

يرى شارل بللا أنّ المنطقة المبنية من القصب تكون معرّضة دائماً للحريق^(٤). ولم يبيّن صاحب خطط البصرة أسباب ذلك الحريق عند ذكر الرواية، ولم يبيّن رأيه فيها^(٥). في حين أنّ هناك من أيّد هذه الرواية^(٦). وعليه؛ فنحن نقف موقف الشكّ والرّيب.

ويبدو أنّ هذا الخبر قد وضع من أجل أن يكون تمصير البصرة والكوفة في السّنة نفسها بدون أن تكون البصرة السّباقة في عمليّة التمصير والبناء. ثمّ أذن عمر بن الخطّاب للمسلمين في بناء اللّبن والطين، وألزمهم أن لا

(١) د. عبد الرزّاق عبّاس حسين، نشأة مدن العراق وتطوّرها: ص ١٠٢.

(٢) الدّينوريّ، الأخبار الطّوال: ص ١١٧.

(٣) الطبريّ، تاريخ: ١٤٨ / ٣.

(٤) الجاحظ: ص ٣٥.

(٥) صالح أحمد العلي: ص ٤٦.

(٦) رباب جبّار السوداني، جبهة البصرة: ص ٢٩.

يزيدوا في البناء، لذلك، عندما علم بأنَّ امرأة من أهل البصرة يقال لها (خضراء) نجّدت^(١) بيتها، أمر بهدمه، فذهب أبو موسى الأشعريّ بنفر معه حتّى دخلوا البيت، فقاموا في نواحيه، فقال لأتباعه: ليهتك كلّ امرئ ما يليه^(٢).

هذه الرواية تعكس لنا أنّ عمر بن الخطّاب كان ذا نظرة تقليديّة بدويّة، بواقع تأثّره بالبيئة التي سكنها، فهو يريد أن يكون البناء في المصر الجديد مقارباً لبناء مدن الحجاز، ومحافظته على بناء العرب دون تقليد الغير أو استخدام طرق جديدة في عمليّة البناء.

وكذلك هذا البناء له أثر سياسيّ في المنطقة؛ بوصفها خاضعة لنفوذ المسلمين العرب على عكس الأبنية الأخرى، ومن ثمّ، يكون البناء العربيّ أحد المظاهر التي تحكّمت في رسم سياسة عمر في البصرة تبعاً لما يراه مناسباً لنفوذه السَّياسيّ هناك. قال هشام بن الكلبيّ: أوّل دار بنيت في البصرة دار نافع بن الحارث، ثمّ دار معقل بن قيس المزنيّ، الذي يُنسب إليه نهر معقل^(٣)، ثمّ بدأت البصرة تزدهم بالبناء.

وقد ذكر لنا ابن سعد أسماء العديد ممّن نزل البصرة وابتنى فيها بيتاً^(٤). ومع مرور الزمن أخذ التطوّر يزداد شيئاً فشيئاً، حتّى ظهر بناء القصور، فكان هناك عدد من القصور العائدة لأصحابها في البصرة، منها: قصر أوس بن ثعلبة بن

(١) نجّدت: سترت أو زيّنت، ونجود البيت: ستورّه. الجوهريّ، الصّحاح: ٥٤٢ / ٢.

(٢) الصّنعانيّ، المصنّف: ٣١ / ١١.

(٣) البلاذريّ، فتوح البلدان: ٤٣١ / ٢؛ ياقوت الحمويّ، معجم البلدان: ٤٣٢ / ١.

(٤) الطبقات الكبرى: ٣٣-٤٠ / ٧؛ ويُنظر: ملحق رقم (٢) ص ٤٦٤.

رقى^(١)، وقصر أنس بن مالك^(٢)، وقصر النواحق، وهو قصر زياد بن أبيه، وقصر النعمان بن صهبان الراسبي، وقصر زربي^(٣)، نسب إلى زربي مولى عبد الله بن عامر ابن كريز، وقصر عطية الأنصاري^(٤).

وروي أنه لما قدم الحجاج البصرة ومعه زوجته هند بنت أبي صفرة، بنى قصره الذي دون المحدثه^(٥)، الذي يقال له (قصر الحجاج)، فقال لزوجته: هل رأيت أحسن من هذا القصر؟ قالت: ما أحسنه! فقال: أصدقيني، قالت: أمّا إذا أبيت، فوالله ما رأيت أحسن من القصر الأحمر- وكان فيه عبيد الله بن زياد، وكان دار الإمارة بالبصرة، وكان ابن زياد بناه بطين أحمر-، فطلق الحجاج هنداً غضباً لما قالته، وبعث إلى القصر فهدمه وبناه بلبن، ثم تعهد صالح بن عبد الرحمن في خلافة سليمان بن عبد الملك، فبناه بالآجر، ثم تهدم بعد ذلك، فأدخل في المسجد^(٦).

والظاهر أن عبيد الله بن زياد بنى القصر الأحمر ليكون مقرّ حكمه، أي: (دار الإمارة)، أمّا قصره الخاص به، فكان يسمّى بالقصر الأبيض^(٧)، بناه في البصرة،

(١) البلاذري، فتوح البلدان: ٢/ ٤٣٥.

(٢) البلاذري، فتوح البلدان: ٢/ ٤٣٥؛ صالح أحمد العلي، خطط البصرة: ص ١١٩.

(٣) يُنظر: ملحق رقم (٢) ص ٤٦٤.

(٤) البلاذري، فتوح البلدان: ٢/ ٤٣٥؛ ويروى أن عائشة لما قدمت البصرة نزلت في قصر زربي، الذي يقع في سكة المربد. خليفة بن خياط، تاريخ: ص ١٣٦.

(٥) المحدثه: لم يحدّدوا موضعها من البصرة، لكنّها حسب إشارة البكري تقع على مسافة من البصرة بجوار سفوان. معجم ما استعجم: ٣/ ٧٤٠.

(٦) أبو الفرج الأصفهاني، الأغاني: ٢/ ٤٦٠.

(٧) يُنظر: ملحق رقم (٢) ص ٤٦٤.

وكان عجبياً، وكان الناس يدخلونه ويتفرجون عليه^(١)، وقد صرف على بنائه مليون درهم، وزخرفته بأنواع النقوش والزخارف، ويقع هذا القصر في النصف بين الزاوية والفرضة^(٢).

ويبدو من هذه الأخبار أنَّ ولاية البصرة حاولوا تخليد ذكراهم عن طريق أعمالهم، ومن ثمَّ، أصبحت هذه الأعمال على درجة كبيرة من التنافس في آثارهم التي خلّفوها في البصرة؛ إذ كان كلّ أمير يطمح بالبروز في آثار ولايته.

ويبدو أنَّ البصرة كانت على درجة من الدقّة المتناهية في البناء والتطوّر الحضاريّ منذ تأسيسها، وقد جسّد تلك الحالة أمير المؤمنين الإمام عليّ عليه السلام في خطبة له يقول فيها: «ويلٌ لسككم العامرة، والدور المزخرفة، التي لها أجنحة كأجنحة النسور، وخراطيم الفيلة»^(٣)؛ إذ شبّه فيها امتدادات بيوت أهل البصرة بخراطيم الفيلة، وشرفاتهنّ بأجنحة النسور^(٤).

إنّ هذا الوصف يدلّ على تقدّم البصرة حضاريّاً؛ لما تحويه من الدقّة في الفنّ وتشكيلاته الزخرفيّة، وربّما كان هذا ناتجاً عن تأثير الفرس الذين سيطروا على المنطقة فترة من الزّمن، فقاموا بالبناء داخل البصرة.

ولم يقتصر التطوّر على القصور والبيوت، بل تجاوز ذلك إلى اتخاذ بعض الأبنية

(١) القزويني، آثار البلاد وأخبار العباد: ص ٣١٠.

(٢) صالح أحمد العلي، خطط البصرة: ص ١٢٠.

(٣) الشريف الرضي، نهج البلاغة: ٢ / ١٠؛ ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة: ٨ / ١٧٥؛ ابن ميثم البحراني، شرح مائة كلمة لأمر المؤمنين عليه السلام: ص ٢٤٣؛ المجلسي، بحار الأنوار: ٣٢ / ٢٥٠؛ محمد مهدي شمس الدين، دراسات في نهج البلاغة: ص ١٧٥؛ جورج جرداق، روائع نهج البلاغة: ص ١٣.

(٤) جورج جرداق، الإمام عليّ صوت العدالة الإنسانيّة: ص ٢٨٦.

لتقوم ببعض الوظائف التجارية، أو لراحة المسافرين؛ فقد روي أن الزبير ابن العوام ابنتى داراً^(١) أيام عثمان بن عفان (٢٤-٣٥هـ) بالبصرة سنة (٣٢هـ / ٦٥٢م)، وكان ينزلها التجار، وأرباب الأموال، وأصحاب الجهاز من البحرين، وغيرهم^(٢).

ولا نعرف بالضبط حسب هذا النص فيما إذا كان الذين ينزلون تلك الدار يدفعون الثمن مقابل إقامتهم، أو أنها بنيت لذلك الأمر وضيافة التجار وحسب؟ لكن الأقرب للواقع أنها كانت بمنزلة (فندق)؛ إذ إن نزولها يتطلب مقداراً من المال لسدّ خدماتها التي تقدّمها للناس.

ولم يقتصر البناء في تلك الفترة على العرب المسلمين فحسب، بل أصبح للموالي لفظة تطلق على ما يمتلكه المسلم من العبيد والأتباع، وهؤلاء يكونون مسلمين دوراً كبيراً في الحياة العامة في الدولة الإسلامية، وأصبحوا ينافسون العرب المسلمين في بعض مجالات الحياة^(٣)؛ ففي البصرة طلبوا أن يكون لهم بناء ودور للعبادة التي تُعرف بالبيعة بالنسبة إلى النصاري، فقد روي أن خالد بن عبد الله القسري^(٤) بنى بيعة بالكوفة لأمه وكانت نصرانية، فكتب نصارى البصرة إلى خالد القسري، يطلبون منه أن يبني لهم بيعة على غرار ما فعل بالكوفة، فكتب إلى

(١) يُنظر: ملحق رقم (٢) ص ٤٦٤.

(٢) المسعودي، مروج الذهب: ٣/ ٧٦.

(٣) د. جمال جودة، الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية للموالي: ص ١٦٤.

(٤) خالد بن عبد الله القسري: ابن يزيد بن أسد بن كريض البجلي، وكان يزيد بن أسيد جدّه وَفَدَ على النبي ﷺ، فأسلم ونزل الشام، ثم اشترى خالد بن عبد الله لما ولي العراق خطط الكوفة وابنتى بها، ولّاه هشام بن عبد الملك العراق، وبمرور الزمن ساءت العلاقة بينهما، فعزله هشام، قُتل خالد سنة ١٢٦هـ. ابن قتيبة، المعارف: ص ٣٩٨.

بلال بن أبي بردة^(١) أن يني لهم بالبصرة بيعة، فلم يوافق أهل البصرة على بناء تلك البيعات في مدينتهم، فكتب بلال بن أبي بردة إلى خالد القسري، قائلاً: «إنَّ أهل البصرة لا يقارّوني على ذلك»^(٢)، فكتب إليه خالد: «إبنها لهم، فلعنة الله عليهم إن كانوا شرّاً منهم ديناً»^(٣)، فبنى بيعته في اللّباديين^(٤)، فقال الفرزدق في ذلك:

بنى بيعةً فيها الصّليبُ لأُمّه وتهدّمت للبيعات فينا المساجدُ^(٥).

فالبناء الذي تطوّر في البصرة يعكس سياسيّة كلّ والٍ تولّى أمرها، فكان هذا الأمر ذا أثر واضح على مجرى الحياة السَّياسيّة، كلّ يعمل على شاكلته وما يرغب فيه دون أن يكون عمله في مصلحة أهل البصرة، ومن ثمّ، يكون هناك نوع من الإرباك السَّياسي داخل البصرة، كما هو الحال بالنسبة إلى بناء بيعة خالد.

فضلاً عما مرّ ذكره، هناك العديد من معالم البصرة العمرانيّة العامّة في الفترة محلّ البحث، فقد وُجدت الحِمّاماتُ والأسواقُ ودارُ الرزق والكلّاء^(٦)، وغيرها

(١) بلال بن أبي بردة: ابن عامر بن أبي موسى الأشعري، أمير البصرة وقاضيهما، كان راوية فصيحاً أديباً، ولّاه خالد القسريّ سنة ١٠٩هـ، فأقام إلى أن قدم يوسف بن عمر الثقفيّ سنة ١٢٥هـ، فعزله وحسبه حتّى مات سجيناً. ابن حجر، تهذيب التهذيب: ٤٣٩/١.

(٢) البلاذري، أنساب الأشراف: ٤٦٠/٢.

(٣) البلاذري، أنساب الأشراف: ٤٦٠/٢.

(٤) اللّباديين: نسبة إلى عمل اللّبود من الصّوف، وهو في موضعين: أحدهما: دمشق، والآخر في سمرقند، ولم يذكروا موضعاً آخر في البصرة. يُنظر: ياقوت الحموي، معجم البلدان: ١٠/٥.

(٥) الفرزدق، ديوان: ص ١٢٠؛ ابن خلّكان، وفيات الأعيان: ٢/٢٢٩؛ الصفدي، الوافي بالوفيات: ١٣/١٥٦.

(٦) يُنظر: صالح أحمد العلي، خطط البصرة: ص ١٢٧، وما بعدها. وكذا يُنظر: ملحق رقم (٢) ص ٤٦٤.

من مظاهر الحضارة والتطوّر الأخرى في البصرة.

ويبدو أنّ هذا التطوّر الذي شهدته البصرة كان بسبب طلب الأحنف بن قيس التميمي في بداية التمصير، عندما وفد على عمر بن الخطّاب؛ إذ طلب منه أن يزيد وظيفة أهل البصرة في عمليّة الفتوح الإسلاميّة^(١).

وكانت البصرة تعاني من مشكلة الملوحة؛ إذ «يخرج الرجل الضعيفُ فيستعذبُ الماءَ من فرسخين، وتخرجُ المرأةُ لذلك فتُربق ولدها»^(٢) كما يُربق العنز، يخاف العدو وأكل السبع»^(٣). فلما تقدّم الأهالي بطلبهم لعمر يشكون مسألة الماء، أمر أبا موسى الأشعريّ بحفر نهر لأهل البصرة^(٤)، وابتدأ الحفر من الأجانة^(٥)، وبطول ثلاثة فراسخ، حتّى بلغ به البصرة، فبلغ طول نهر الأبلّة أربعة فراسخ^(٦).

وقد بقي أهل البصرة يشكون من ملوحة الماء عند كلّ وال يتولّى إدارة البصرة^(٧). والظاهر أنّ سبب تلك الملوحة هو تعرّض البصرة للمدّ والجزر من ماء البحر، الذي يحمل كمّيّات كبيرة من الملح، ومن ثمّ تكوّنت البطائح الأهوار

(١) الطبريّ، تاريخ: ٣/ ١٧٣؛ ويُنظر: د. سلمى عبد الحميد الهاشمي، وفادة أبناء البصرة إلى بلاط الخلافة، مجلّة دىالى، العدد ٢٢ / لسنة ٢٠٠٢م: ص ٢٠٨.

(٢) أي: تحجزه في البيت.

(٣) البلاذريّ، فتوح البلدان: ٢/ ٤٣٧.

(٤) المصدر السابق.

(٥) الأجانة: كانت تسمّى في الجاهليّة بهذا الاسم، وتسمية العرب في الإسلام خزاز، وهو على مقدار ثلاثة فراسخ من البصرة، وهو المعروف بنهر الأجانة. ياقوت الحمويّ، معجم البلدان: ٥/ ٣١٦.

(٦) البلاذريّ، فتوح البلدان: ٢/ ٤٣٧.

(٧) يُنظر: صالح أحمد العلي، خطط البصرة: ص ١٤٠-١٤٣.

بسبب فيضانات دجلة والفرات سنوياً، وكانت متفاوتة في نسبة الفيضان بين سنة وأخرى^(١)، فاعتمد أهل البصرة على ماء البطائح؛ لتفاوتته^(٢).

ويبدو أنَّ مشكلة المياه العذبة في المنطقة أسفرت عن تعدّد أحياء المنطقة، التي قدّرت بعشرين حيّاً^(٣)، وهذا التعدّد يعطينا صورة واضحة عن انتشار الأهالي في جميع اتجاهات البصرة، سعياً للحصول على مياه عذبة، ومن ثَمَّ، أصبح الماء أحد الأسباب في توزيع الخطط، التي كانت غاية في الدقّة والتوزيع، الذي كان الهدف منه سهولة استدعاء أهل الخطّة في حالة الاستعداد العسكري والحربي^(٤).

فكان توزيع الخطط له دور كبير في التقلّبات السَّياسِيَّة التي تتعرّض لها البصرة، بل أصبح هناك تحالفات بين بعض الخطط ضدّ أخرى داخل هذه المدينة، وهذا يعني أنَّ الدولة كانت تهتمّ بخطط معيّنة دون أخرى، خاصّة القبائل التي توالي السّلطة القائمة، وهذا الأثر سوف نجده في أوضاع البصرة السَّياسِيَّة بعد وفاة يزيد بن معاوية، وكذلك في أيّام سلطة آل الزبير على البصرة، عندما حاول المختار كسب أهل البصرة إلى جانبه في قضيتّه للطلب بثأر الإمام الحسين عليه السلام.

ثانياً: إدارتها

- إدارة البصرة في عهد عمر

بدأت البصرة تأخذ نمط التغير الجذريّ نتيجة الأحداث التي شهدتها؛ من

(١) يُنظر: إبراهيم جدّوع، إمارة البطائح العربيّة: ص ٣٠، وما بعدها.

(٢) البلاذريّ، فتوح البلدان: ٣٦٩/٢.

(٣) ناصر خسرو، سفر نامه: ص ١٥٠.

(٤) يُنظر: صالح أحمد العلي، خطط البصرة: ص ٤٩.

تحرير وتمصير واتساع من خلال إضافة بعض المناطق إدارياً إليها، وكلّ هذه الفعاليّات جعلت المسؤوليّة أكبر على عاتق الولاة الذين أوكلوا مهمّات إدارة المصر الجديد وفق رؤيا الحاكم التي تتطابق مع أحداث تلك المناطق.

إنّ النصوص التاريخيّة لم تُشر بشكل مفصّل ودقيق إلى طريقة إدارة الأمصار الإسلاميّة في تلك الفترة المبكّرة، وكلّ ما بين أيدينا مجرّد ذكر أسماء العمال والولاة الذين وُكِّلوا إدارة المصر والمسؤوليّة الملقاة على عاتقهم في عمليّة الفتوح، للمناطق التي ما زالت غير خاضعة للسيطرة العربيّة الإسلاميّة.

ويبدو أنّ إدارة الأمصار الجديدة كانت مرتبطة بالإدارة المركزيّة للدولة، والمتمثّلة بمركز الخلافة في المدينة المنوّرة، ومن هناك أخذ الخلفاء يوجّهون الولاة من أجل أن تطبق أهدافهم على أرض الواقع، وهذا الأمر ناتج عن النظرة الخاصّة بالخليفة، فهو يحاول أن تكون الأقاليم المتعدّدة والمختلفة الأرجاء بإدارة مركزيّة، دون أن يكون هناك شيء من الإرباك في صفوف المسلمين الذين سكنوا تلك المناطق الخاضعة لسلطة الخليفة ونفوذ الدولة الإسلاميّة، ومن ثمّ سوف تسهل عمليّة إدارة المصر دون عناء يذكر.

وهذا ما لمسناه من النصوص المذكورة؛ إذ كانت أوّل محاولة لتلك الإدارة هي كفيّة توزيع العطاء بين صفوف المقاتلين الملقاة على عاتقهم عمليّة الفتح العسكريّ، فيورد الطبريّ خطّة عمر بن الخطّاب بشأن توزيع أعطيات الجند في البصرة والكوفة، فيقول: «وكتب عمر إلى سعد بن مالك، وإلى عُتْبَة بن غزوان، أن يتربّعاً بالنّاس في كلّ حين ربيعٍ في أطيب أرضهم، وأمر لهم بمعاونهم في الربيع من كلّ سنة، وبإعطائهم في المحرّم من كلّ سنة، وبفيئتهم عند طلوع الشّعرى في

كلَّ سنة، وذلك عند إدراك الغلات»^(١).

ويبدو أنَّ عمر اختار الأزمنة المناسبة للدفع، ثم اعتمد على المحاصيل الزراعيَّة في توفير أعطيات الجند^(٢)، والذي يقوم بعملية توزيع الأعطيات والأموال أشخاص معروفون، وهم العرفاء^(٣)، وأصحاب الرايات^(٤)، والنقباء^(٥)، والأمناء^(٦)، الذين يدفعون الأموال إلى أهلها وهم في دورهم^(٧). والظاهر أنَّ هذه الإدارة ظهرت زمن ولاية أبي موسى الأشعريَّ للبصرة سنة (١٦هـ / ٦٣٧م)، الذي أمر بمسحها ووضع الخراج عليها على قدر احتمالها^(٨). ثمَّ أمر عمر بن الخطَّاب أهل البصرة بأن يبعثوا إليه رجلاً من أخيرهم وأصلحهم، فبعثوا الحجاج بن علاط^(٩)، فاستعمله

(١) تاريخ الطبري: ١٤٧/٣؛ ويُنظر: صالح أحمد العلي، امتداد العرب في صدر الإسلام: ص ٢٧.

(٢) للتفصيل، راجع: صالح أحمد العلي، خطط البصرة: ص ٣٦؛ عبد الوهاب خضر إلياس، نظام العطاء الإسلامي: ص ٢٩.

(٣) العرفاء: هم أشخاص بمنزلة الأمراء فيما أقيموا له من أمرهم. يُنظر: أبو داود، السنن: ١٤/٢؛ البيهقي، السنن الكبرى: ٣٦٠/٦؛ ابن حجر، فتح الباري: ٤/٣٩٤.

(٤) أصحاب الرايات: وهم رؤساء القبائل وكبار الناس. يُنظر: الطبري، تاريخ: ١٤٧/٣.

(٥) النقباء: النقيب، كالعريف على القوم، المقدم عليهم، الذي يتعارف أخبارهم، وينقب عن أحوالهم. ابن الأثير، النهاية في غريب الحديث: ١٠١/٥.

(٦) الأمناء: وهم الذين يعرفون طرق أمورهم، وقيل: شهداء القوم وضمناؤهم. العيني، عمدة القارئ: ٣٣/١٧.

(٧) الطبري، تاريخ: ١٤٧/٣.

(٨) البلاذري، فتوح البلدان: ٤٢٤/٢.

(٩) الحجاج بن علاط: ابن خالد بن نويرة بن حنثر بن هلال بن عبيد بن ظفر السلمي، يكنى أبا كلاب، شهد مع الرسول ﷺ فتح خيبر، وقيل: إنَّ الحجاج بن علاط أهدى الرسول سيفه

على خراج أرض البصرة^(١).

فسلطة الدولة المركزية كان لها الأثر الواضح على إدارة البصرة، وهذه الإدارة لها الدور الأكبر في حجب دور أهل البصرة على الصعيد السياسي، فالحاكم في المدينة هو مَنْ يقومُ أمرهم، سواء بتعيين الولاية أم عمال الخراج، أم غيرهم، ومن ثمَّ كانت إدارته ناجحة.

وقد عزل عمر بن الخطَّاب أبا موسى الأشعريَّ من ولاية البصرة وردّه والياً عليها ثلاث مرَّات^(٢)، وهذا يعني أنَّ عمر يتمتّع بنفوذ رئيس ومركزي في إدارة الدولة الإسلامية الواسعة، وإنَّ ولايته على البصرة كغيرهم من ولاية المدن الأخرى، لم يكن ليتجرَّأوا على قراراته، وهذا الأمر أثر على الحياة السياسيَّة في البصرة، لتكون موالية لعمر بصورة شبه دائمة في عصره، دون أن نجد لها تحمل لواء المعارضة.

وكان يطلق على أمير مصر (أمير الحرب والصَّلاة)؛ لأنَّه كان يقود المسلمين في الحروب ويؤمِّهم في الصَّلاة^(٣)، وقد سبق أبا موسى بهذا المنصب كلاً من عتبة بن غزوان والمغيرة بن شعبة^(٤).

أمَّا إدارة أراضي البصرة وكيفيَّة التصرّف بملكيتها، فكانت بيد عمر، ولهذا، لم

ذا الفقار. ابن الأثير، أسد الغابة: ١ / ٣٨١؛ الطبراني، المعجم الكبير: ٣ / ٢٢٠.

(١) أبو يوسف، الخراج: ص ١٣٥؛ ابن حجر الإصباة: ٤ / ٥٣٠.

(٢) الطبري، تاريخ: ٣ / ١٨٢.

(٣) د. فاروق عمر فوزي، تاريخ العراق في عصر الخلافة العربيَّة الإسلاميَّة: ص ٢٢.

(٤) كان سبب عزل المغيرة بن شعبة عن إمارة البصرة حادثة الزنا مع أم جميل، للتفصيل

راجع: اليعقوبي، تاريخ: ٢ / ١٠٠؛ نجم الدين الشريف، أبو طالب حامي الرسول: ص ١٤٦.

ويُنظر ملحق رقم (١) ص ٤٥٧.

نجد استياء من قبل أهل البصرة جرّاء تلك الإدارة، أو ما يثير غضبهم، بل الفرد الذي يرغب بالحصول على أرض ما كان له الحقّ بتملّكها إذا لم يكن ذلك مضرّاً بمصلحة الآخرين، وهذا ما أكّده النصوص التاريخية؛ حتّى ذكر أنّه «خرج رجل من أهل البصرة يقال له (أبو عبد الله) إلى عمر، فقال: إنّ بأرض البصرة أرضاً لا تضرّ بأحد المسلمين، وليست من أرض الخراج، فإن شئت أن تُقَطِّعَنيها أُتَّخِذُها قصباً وزيتوناً ونخلًا في نخيلي، فافعل. فكان أوّل مَنْ أخذ الفلايا بأرض البصرة، فكتب عمر إلى أبي موسى الأشعريّ: إن كانت حمى، فأقطعها إيّاه»^(١). فكانت إدارة الأراضي راجعة لخليفة المسلمين، الذي يأذن في إحياء الأرض أو عدمه، وهذا ما كانت عليه البصرة أيام عمر بن الخطاب.

- إدارة البصرة في عهد عثمان

أمّا إدارة البصرة في عهد عثمان بن عفّان، فقد كانت سياسته في بادئ الأمر مشابهة لسياسة سابقه؛ فهو مَنْ يقطع الأراضي لعمّاله في البصرة، بل زاد عثمان في إقطاعها على حساب العامّة من أهل المصر^(٢).

أمّا ولاته، فقد عزل أبا موسى الأشعريّ سنة (٢٨هـ / ٦٤٨م) عن البصرة، وكان عامله عليها لسّ سنين، وولّاها عبد الله بن عامر بن كريز^(٣)، وهو ابن

(١) أحمد بن محمّد بن سلّمة، شرح معاني الآثار: ٣ / ٢٧٠؛ ويُنظر: البلاذريّ، فتوح البلدان: ٣ / ٤٣٠.

(٢) يُنظر: البلاذريّ، فتوح البلدان: ٣ / ٤٣٢، ٤٤٢.

(٣) عبد الله بن عامر بن كريز: ابن ربيعة بن حبيب بن عبد شمس القرشيّ، ابن خال عثمان بن عفّان، أمّه دجاجة بنت أسماء بن الصّلت، ولد على عهد الرسول ﷺ، افتتح خراسان، وقتل كسرى يزدرجرد آخر ملوك الفرس، مات سنة ٥٨هـ. ابن عبد البرّ، الاستيعاب: ٣ / ٩٣١؛ ابن

خمس وعشرين سنة^(١).

وهناك رواية تذكر سبب عزل أبي موسى الأشعري، تقول: إنه «خرج غيلان ابن خرشة الضبي^(٢) إلى عثمان بن عفان، فقال: أما لكم صغير فتشّبوه، فتولّوه البصرة؟! حتى متى يلي هذا الشيخ البصرة؟!»^(٣).

ولا نعلم مدى صحّة هذه الرواية، وما هي علاقة غيلان بن خرشة بأبي موسى الأشعري؟ وهل كانت العلاقة بين الرجلين متوتّرة في البصرة حتى يخرج غيلان إلى عثمان بن عفان، محاولاً الإيقاع بأبي موسى وعزله عن البصرة؟ فإذا ما قرّنا الرواية إلى جهود أبي موسى الأشعري في تطوير البصرة وتقديمها، خصوصاً وأنّه قد استمرّ في ولاية البصرة من عام (١٧ إلى ٢٩هـ / ٦٣٨ - ٦٥٠م) فهو أول من صرف الخطط لمن هناك من العرب، وجعل لكل قبيلة محلّة، ثم أمر الناس بالبناء^(٤)، إلى غير ذلك.

ومع مثل هذا التطور الواسع، كان الأجدر بأهل البصرة أن يتمسّكوا بأبي موسى، لا أن يلجأوا إلى عزله وتولية أحدهم، أو صغير سنٍّ حتى يكبر! فهذه الرواية مضطربة في مضمونها، ولا يمكن الاعتماد عليها في توجيه عزل أبي موسى الأشعري عن البصرة.

حجر، الإصابة: ١٤/٥.

(١) الطبري، تاريخ: ٣/٣١٩.

(٢) غيلان بن خرشة الضبي: ابن عمرو بن ضرار البصري، وفد على معاوية، ويبدو أنّه كان يميل إلى بني أمية. يُنظر: ابن عساكر، تاريخ دمشق: ٤٨/١٣١.

(٣) الطبري، تاريخ: ٣/٣١٩.

(٤) البلاذري، فتوح البلدان: ٢/٣٤٧-٣٤٨؛ ويُنظر: مصطفى عبّاس الموسوي، العوامل التاريخية لنشأة وتطور المدن العربيّة الإسلاميّة: ص ٧٣.

ومهما يكن من أمر، فإنَّ أبا موسى عَرَفَ أنَّه معزول عن إمارة البصرة لا محالة، فخطب بأهلها قائلاً: «قد جاءكم غلامٌ كثيرُ العَمَّاتِ والخالاتِ والجدَّاتِ في قریش»^(١).

ويُفهم من كلام أبي موسى الأشعريِّ هذا أنَّه حاول أن يُلفت انتباه أهل البصرة إلى قوَّة نسب الوالي الجديد، وهذا يعكس مدى التغيُّر الذي بدأ في أمور المسلمين في تلك الفترة بالذات، ابتداءً بالمناصب الإداريَّة لسائر الأمصار.

أمَّا عبد الله بن عامر وكيفيَّة إدارته البصرة، فقد كان حديث السنِّ، وليس لديه الخبرة في مجال إمارة الأمصار وإدارة أمور النَّاس؛ لذلك، استعان بأهل الرَّأي؛ إذ قال: «يا أهل البصرة، اُكتبوا إِلَيَّ مِنْ كُلِّ خَمْسٍ رجلاً من القراء، أُشاورهم في أمري، وأُستعين بهم على ما ولَّاني الله ﷻ»^(٢).

فهذه الإشارة توحى إلى أنَّ عبد الله بن عامر أراد كسب أصحاب الرَّأي والسَّيادة داخل البصرة، من أجل تلافي الأخطاء؛ خوفاً من ارتكابها، هذا من ناحية، وكذلك حاول إشراك أهل الدِّين في سلطته؛ باعتبار أنَّهم يملكون زمام السَّيطرة الدِّينيَّة ذات الأثر الفعَّال على مختلف النَّاس، ومن ثَمَّ، تقوية حكمه في البصرة استناداً إلى القراء، ولكنَّ القراء خذلوه، ولم يقبلوا الانضمام إلى سلطته، حتَّى مع العروض المغرية التي عرضها عليهم^(٣).

بعدما استقرَّ الأمر بعبد الله بن عامر في البصرة، عمل على استصلاح أراضي

(١) اليعقوبي، تاريخ: ٢/ ١١٥؛ أبو الصَّلاح الحلبي، تقريب المعارف: ص ٢٨٤؛ المجلسي، بحار الأنوار: ٣١/ ٢٩٢.

(٢) ابن عساكر، تاريخ دمشق: ٢٦/ ٢١.

(٣) المصدر السابق.

المدينة، وحفر الأنهر، واتخذ السّوق للنّاس؛ إذ اشترى دوراً فهدمها وجعلها سوقاً^(١). وهذا يدلّ على أنّ البصرة كانت تعتمد على سوقٍ موحدٍ للبيع والشّراء. ويرى صالح أحمد العلي أنّ هذه السّوق كانت مجرد ساحة خالية من الأبنية، وليست فيه محلات ثابتة للبائعين، وأنّها لم تقتصر على بيع نوعٍ خاصٍّ من السّلع، وإنّما تُباع فيها مختلف السّلع^(٢).

فضلاً عن هذا، قام عبد الله بن عامر بإصلاحات اقتصادية أخرى^(٣)؛ فكان النّاس يقولون: قال ابن عامر، وفعل ابن عامر^(٤). إلّا أنّه على الرّغم من هذا النجاح الذي حقّقه ابن عامر على المستوى الاقتصاديّ، فإنّه لم يحقّق النجاح نفسه على المستوى السّياسي في البصرة؛ إذ حدثت بعض الاضطرابات أيّام ولايته ما جعله يسعى إلى طرق غير شرعيّة، ولكنّها كفيلة بالقضاء على تلك الاضطرابات وتفريق النّاس؛ فقد ذكر الزّبير بن بكار، قوله: «أرتجّ على عبد الله بن عامر وهو على منبر البصرة في يوم أضحى، فقال: والله، لا أجمع عليكم عيًّا ولؤماً، من أخذ شاةً من السّوق فهي له، وثمرتها عليّ»^(٥)؛ فلم يكن همّ عبد الله بن عامر سوى كيفية إبعاد نفسه عن المآزق والخطورة المحدقة به! فأسلوبه في تفريق النّاس ومساندتهم على أفعالهم غير الشرعيّة يكشف عن ضعف الوالي، الذي أقرّ تلك

(١) ابن سعد، الطبقات الكبرى: ٤٧/٥.

(٢) خطط البصرة: ص ١٢٧.

(٣) للتفصيل، راجع: محمّد جاسم حمادي، إصلاحات عبد الله بن عامر الاقتصاديّة، مجلّة المؤرّخ العربيّ، العدد ٢٢/ لسنة ١٩٨٢م: ص ١٢٩.

(٤) ابن سعد، الطبقات الكبرى: ٤٧/٥؛ ابن عساكر، تاريخ دمشق: ٢٩/ ٢٦١.

(٥) الأخبار الموقّعات: ص ٢٠٥.

الأقاويل التي تؤدِّي إلى إرباك الوضع العام، وإشاعة الفوضى، وفقدان الأمن داخل المدينة، وكذا هو يتناقض مع مسؤوليته ووظيفته بوصفه والياً عليها! وربّما كان هذا القول في نهاية ولايته للبصرة، التي أصبحت تُعدّ العدة للثورة بوجه عثمان بن عفّان، وهو ما سنوضّحه لاحقاً في هذا الكتاب.

ثالثاً: مهام البصرة العسكريّة ودورها في الفتوحات الإسلاميّة

أصبحت البصرة في عهد عمر بن الخطّاب الرّكيزة الأساسيّة التي يعتمد عليها في حملات المسلمين، سواء بإسناد الحملات العسكريّة التي يقوم بها المسلمون، أو من خلال الدّفاع عن الأراضي الخاضعة للدولة العربيّة الإسلاميّة.

هذا الأمر جعل البصرة تأخذ شكلاً آخر يختلف عمّا كانت عليه فيما سبق، فهي معقل الجيش الإسلاميّ، وهذه الصّفة كانت للمدينة المنورة زمن الرسول الأكرم ﷺ وأبي بكر، ومن ثمّ، اكتسبت البصرة تلك الصّفة بالتدرّج إلى أن أصبحت الجبهة المسؤولّة عن تحرير أراضي العراق وفتوح أجزاء من بلاد فارس^(١).

ويبدو أنّ هذا التحوّل كان قد نتج عن شدّة مقاتلي البصرة، الذين مارسوا أسلوب القتال مع الفرس قبل عمليّة الفتح والتمصير، وهذا ما جعل الحكومة الإسلاميّة تسعى لتأسيس القواعد العسكريّة، التي بدأت بالبصرة، وكانت كلّ قاعدة عسكريّة تسمّى جنداً، فيقال: جند دمشق، وجند قنسرين، وجند الأردن^(٢). ومن ثمّ أصبحت المدينة مستوطنة عسكريّة، وظائفها الأساسيّة إيواء المقاتلين وعوائلهم، ومراكز إداريّة للمناطق التي سيطرت عليها جيوش تلك

(١) رباب جبار السودانيّ، جبهة البصرة: ص ١٨، وما بعدها.

(٢) حسين مؤنس، تاريخ التمدّن الإسلاميّ: ص ١١٤.

الأمصار^(١). وقد حتم هذا على المسلمين الأوائل الاعتماد على البصرة لتكون خطاً دفاعياً غايته إنقاذ الحملات العسكرية التي تتعرض إلى هجوم من العدو، ما جعل عمر يلجأ إليه، ففي حكومته تعرضت قوات العلاء بن الحضرمي^(٢) لانتكاسة على يد الفرس، عندما حاول عبور البحر من البحرين إلى فارس، فيذكر ابن الأثير: «ولما بلغ عمر صنيع العلاء، أرسل إلى عتبة بن غزوان، يأمره بإنفاذ جنده كثيف إلى المسلمين بفارس قبل أن يهلكوا... فأرسل عتبة جيشاً كثيفاً في اثني عشر ألف مقاتل»^(٣).

إن هذا النصّ يعكس مدى جاهزية أهل البصرة وتواجدهم في الحالات الطارئة، سيما أن هذا العدد المذكور من المقاتلين ليس بالأمر السهل تواجده وقت الحاجة. فهذه المهمات أوكلت لأهل البصرة بحكم الأحداث التي شهدتها المنطقة، وبفعل سياسة الدولة وأهميّة المنطقة.

وكذلك استنجد المسلمون بأهل البصرة في معركة القادسية سنة (١٦هـ / ٦٣٧م)؛ إذ كتب سعد بن أبي وقاص إلى عمر بن الخطاب أن يمدّه بالخيـل والرجال، فوجه إليه من البصرة ألف فارس^(٤)، وقيل: مدّهم أهل البصرة بألف وخمسمائة^(٥)، فكان العون العسكريّ للحملات التي يقودها العرب المسلمون

(١) د. عبد الرزاق عباس حسين، نشأة مدن العراق وتطورها: ص ٣٣.

(٢) العلاء بن الحضرمي: واسم الحضرمي عبد الله بن ضهاد من حضرموت من اليمن، كان حليفاً لبني أمية، وكان إسلام العلاء قديماً، وكان عاملاً لرسول الله ﷺ على البحرين، ومات بها سنة ١٢هـ. ابن سعد، الطبقات الكبرى: ٤ / ٣٥٩؛ السمعاني، الأنساب: ٢ / ٢٣٠.

(٣) الكامل في التاريخ: ٢ / ٣٦٢؛ ويُنظر: رباب جبار السوداني، المصدر السابق: ص ٤٤.

(٤) الدينوري، الأخبار الطوال: ص ١٢٠؛ الطبري، تاريخ: ٣ / ٢٠.

(٥) خليفة بن خياط، تاريخ، ص ٩٠.

يقدِّم من تلك القواعد العسكريَّة، التي لقيت استحسان سلطنة الدَّولة، فاعتمدت عليها في عمليَّة التمويل العسكريِّ.

ويبدو أنَّ مهمَّات البصرة العسكريَّة توسَّعت مع تزايد قدراتها القتاليَّة، القدرات التي بدت واضحة في سنة (٢١١هـ / ٦٤١م)، حين وقع القتال بين المسلمين والفرس في نهاوند^(١)، وكان يزدجرد الملك السَّاسانيُّ قد أعدَّ العدَّة، وكتب إلى أتباعه، فتجمَّعوا وتراسلوا، حتَّى كمل لهم من الجنود ما لم يجتمع لهم من قبل^(٢). فتعاهدوا وتعاقدوا على أن يقصدوا البصرة والكوفة، ثمَّ يشغلوا عمر بن الخطَّاب عن بلاده^(٣). ولما علم عمر بذلك، اجتمع بالمسلمين واستشارهم، وكان يرغب في أن يكون أهل البصرة وأهل الكوفة هم الذين يتولَّون حرب الأعاجم^(٤). فقال له الإمام عليٌّ عليه السلام: إنَّ أحببت ذلك، فاكتب إلى أهل البصرة أن يفترقوا على ثلاث فرق: فرقة تُقيم في ديارهم، فيكونون حرساً لهم يدفعون عن حريمهم، الفرقة الثانية يقيمون في المساجد يعمرونها بالأذان والصَّلاة؛ لكيلا تعطلَّ الصَّلاة، ويأخذوا الجزية من أهل العهد؛ لكيلا يستقضوا عليك، والفرقة الثالثة يسIRON إلى إخوانهم من أهل الكوفة^(٥).

إنَّ هذا التعداد لمهمَّات البصرة يعكس أهميَّتها في الإسناد الداخلي والخارجيِّ

(١) نهاوند: مدينة عظيمة في قبة همدان، بينهما ثلاثة أيَّام، يقال: إنَّها من بناء نوح عليه السلام، وسمَّيت بها الوقعة المشهورة بين العرب المسلمين والفرس أيَّام عمر بن الخطَّاب سنة ٢١هـ. ياقوت الحمويِّ، معجم البلدان: ٣١٣/٥.

(٢) ابن كثير، البداية والنهاية: ٩٨/٧.

(٣) ابن كثير، البداية والنهاية: ٩٨/٧.

(٤) ابن كثير، البداية والنهاية: ٩٨/٧.

(٥) ابن أعثم، الفتوح: ٢/٢٩٥.

في حالات الخطر الذي يهدد المسلمين وكيان الدولة، فكانت نظرة الإمام علي عليه السلام محاولة منه لإيجاد نوع من التوازن بين المقاتلين الذين كُلفوا بالمهمات الملقاة على عاتقهم، وهذا التدبير يعكس حكمة الإمام عليه السلام في مساندة الأحداث بطريقة خالية من التعرّج والالتواء، الذي قد يكون له آثار سلبية على الحاكم نفسه، فالإمام حاول إشراك جميع الأطراف العسكرية والمقاتلة في التصدي للعدو وخوض القتال؛ حتى يتساووا في أخذ الجزية دون اختلاف يذكر.

وفي سنة (٢٣هـ / ٦٤٣م) قام شهرک^(١) بخلع إمرة المسلمين عليه، فقدمت عليه أمداد أهل البصرة، وتمكّنت من قتله وتهدة الوضع هناك^(٢).

كانت هذه المهام العسكرية تساعد كثيراً في تطوير المدينة، فأصبحت البصرة تؤدّي دور القاعدة العسكرية شرقاً باتجاه بلاد فارس، لذلك ارتفع موقع المدينة في إدارة دفّة القتال في هذه الجبهة الواسعة^(٣).

وكانت النواة الأولى التي صنعت تلك القاعدة هي حركة قطبة بن قتادة السدوسي، الذي مارس القتال ضدّ الفرس دون أن يخشاهم أو يلحقوا به الأذى، فكانت تحرّكاته كفيلة بتحويل البصرة إلى مدينة ذات أهميّة عسكرية، وقاعدة ارتكاز أصبحت أكثر أهميّة من غيرها من الأمصار العربية بنظر الحكومات المركزية.

أمّا فتوح أهل البصرة، فقد تركّزت تلك العملية على المستوى المحليّ عندما

(١) شهرک: أحد القوّد الأعاجم، وهو من حرّض الفرس ضدّ المسلمين، وقتله سوار بن همام العبدي. يُنظر: ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ٤٢٠ / ٢.

(٢) ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ٤٢١ / ٢.

(٣) عبد الحسين المبارك، عبد الجبار ناجي، من مشاهير أعلام البصرة: ص ٢٥٣.

قدم المسلمون البصرة وتمكّنوا من فتح الأبلّة، ثمّ فتح دست ميسان^(١).
ثمّ شاركت البصرة في فتوح الجزيرة سنة (١٩هـ / ٦٣٩م)، وكان جيش البصرة بقيادة أبي موسى الأشعري^(٢). فكانت هذه الفتوح المحليّة بداية الدّور الذي جعل البصرة تشترك في فتح الإمبراطوريّة الفارسيّة، وبعد هذه العمليّة أصبحت البصرة قاعدة لفتوح فارس وجنوب إيران^(٣).

بدأت الفتوح الكبرى لأهل البصرة بقيادة حرقوص بن زهير السعدي^(٤)، الذي تمكّن من فتح سوق الأهواز، ونزل بها، وتمكّن من السيطرة على المناطق المجاورة للأهواز، حتّى وصل إلى تستر^(٥)، وفرض الجزية على أهلها، وكتب بالفتح إلى عمر بن الخطّاب^(٦)، وأرسل إليه الأخماس^(٧). فكان لهذه البداية دورٌ

(١) الطبري، تاريخ: ٩٣ / ٣.

(٢) الطبري، تاريخ: ١٥٥ / ٣.

(٣) عدنان كرموش الفراجي، الخلافة الأمويّة: ص ٩٩.

(٤) حرقوص بن زهير السعديّ: الملقّب بذي الخويرة التميمي، من بني تميم، خاصم الزبير بن العوّام، فأمر النبي ﷺ باستيفاء حقّه منه، وأمره عمر بن الخطّاب بقتال الهرمزان، واستولى على سوق الأهواز، ونزل بها، وشهد صفّين مع الإمام عليّ عليه السلام، ثمّ صار بعد أمر الحكّمين من أشدّ الخوارج، قُتل بالنهر وآن سنة (٣٧هـ). ابن الأثير، أسد الغابة: ١٤٠ / ٢؛ ابن حجر، الإصابة: ٤٤ / ٢.

(٥) تُستر: أعظم مدينة بخوزستان، سمّيت بذلك؛ لأنّ رجلاً من بني عجل يقال له (تستر بن نون) فتحها. ياقوت الحمويّ، معجم البلدان: ٢٩ / ٢.

(٦) ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ٣٦٦ / ٢؛ ابن كثير، البداية والنهاية: ٩٦ / ٧.

(٧) الأخماس: أموال الغنائم، منها: خمس الغنيمة، وخمس المعدن، واشتقاقه من عدن بالمكان، ومنها: نصيب المسلمين وما يؤخذ من أموال المسلمين وأهل الذمّة والحرب، ونصيب الإمام منها. يُنظر: ابن سلام، الأموال: ص ٤٢٤.

كبيرٌ في كسب بعض الأعاجم وتحولهم لصفوف المسلمين، فقد قدم عشرة من الأساورة^(١) إلى أبي موسى الأشعري، وشرطوا على المسلمين بعض الشروط لضمان حقوقهم مقابل أن يدخلوا في الإسلام، ويساعدوا المسلمين في عملية فتح بلاد فارس^(٢)، لمعرفة أحوال المنطقة وظروفها.

وقد أشار ابن النديم إلى أنّ أبي الحسن المدائني قد ألّف كتاباً عن البصرة وفتوحها، وهو من الكتب المفقودة^(٣)، فلو وصل إلى أيدينا، لكانت معلومات فتوح أهل البصرة أوفى تفصيلاً، باعتباره يتحدث عن ذلك.

ويبدو أنّ الأحنف بن قيس التميمي^(٤) كان له دورٌ كبيرٌ في توسيع فتوح أهل البصرة باتجاه المشرق؛ فقد أشار على عمر بن الخطاب بأن يتوسّع المسلمون بالفتوح في بلاد العجم، ويضيّقوا على كسرى يزدرج، فإنّه هو الذي يحثّ الفرس على قتال المسلمين^(٥). فهذه العملية تعطينا صورة تكاملية لمقاتلي أهل البصرة، الذين أصبحوا يقارعون كسرى ورجاله داخل معقله.

وبدأت تلك العملية في سنة (٢٢هـ/ ٦٤٢م) عندما سار الأحنف لغزو

(١) الأساورة: قوم من العجم خرجوا في الإسلام، فتفرّقوا في بلاد العرب، ومنهم من قام في البصرة، والأسوار: قائد الفرس بمنزلة الأمير في العرب، وقيل: هو الرامي الجيد بالسهم. الجوهري، الصحاح: ٥ / ١٩١٤؛ الزبيدي، تاج العروس: ٦ / ٥٥٤.

(٢) الطبري، تاريخ: ٣ / ١٨٦.

(٣) الفهرست: ص ١١٥.

(٤) يُنظر: محمود شيث خطاب، الأحنف بن قيس التميمي، مجلة المجمع العلمي العراقي، لعام ١٩٦٤م: ١١ / ٤٧.

(٥) ابن كثير، البداية والنهاية: ٧ / ١٤٣.

خراسان، وقيل: بل سار في سنة (٢١هـ / ٦٤١م)^(١).
ويبدو أنَّ اختلاف الروايات في المقام ناتجٌ عن كثرة الغارات والغزوات التي قام بها الأحنف بن قيس على بلاد فارس، فأصبح الالتباس واضحاً في نقل الأحداث وتحديد تواريخها على وجه الدقة.
وكذا يبدو أنَّ تحرَّك العرب المسلمين كان منظماً لخوض الحرب؛ إذ كان يقول: «فركب الأحنف في جيش كثيف إلى خراسان قاصداً حرب يزيدجرد، فدخل خراسان، فافتتح هراة^(٢) عنوة، واستخلف عليها صحار بن فلان العبدي^(٣)». ثم ولَّى عثمان بن عفَّان عبد الله بن عامر ولاية البصرة سنة (٢٩هـ / ٦٥٠م)، فوجَّه الحملات إلى نواحٍ مختلفة في وقت واحد^(٤)، فكان الأحنف بن قيس على راية خراسان، فحقَّق الفتوح السَّريَّة في تلك النواحي، حتَّى أصبحت الفتوح في عهد عبد الله بن عامر ميزة يمتاز بها في إدارته، حتَّى قيل له: «ما فتح لأحد ما فتح عليك»^(٥).

ويبدو أنَّ أهل البصرة كانوا غاية من الحذر في تلك النواحي من بلاد فارس؛ إذ كانوا يقومون بغارات استطلاعية تتكوَّن من أشخاص معدودين^(٦).

-
- (١) ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ٢ / ٤٩٦.
(٢) هراة: مدينة عظيمة مشهورة من أمَّهات مدن خراسان. ياقوت الحموي، معجم البلدان: ٣٩٦ / ٥.
(٣) اليعقوبي، تاريخ: ٢ / ١١٦؛ ابن كثير: البداية والنهاية: ٧ / ١٤٣. وصحار بن فلان العبدي: لم نعثر على ترجمة له.
(٤) اليعقوبي، تاريخ: ٢ / ١١٦.
(٥) ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ٢ / ٤٩٦.
(٦) يُنظر: ابن طيفور، بلاغات النساء: ص ٢٠٦.

ولم يزل أهل البصرة يغزون مَنْ لم يكن صالحاً من أهل خراسان، فإذا رجعوا، خلّفوا أربعة آلاف للعقبة، فكانوا على ذلك حتّى مقتل عثمان^(١).

أمّا الغنائم التي كانوا يحصلون عليها بعد الفتح، فكانت تقسم على مَنْ شهد الواقعة؛ لذا، عندما وقع الاختلاف بين أهل البصرة وأهل الكوفة في تقسيم الغنائم، كتبوا إلى عمر، فكتب لهم: «إنّ الغنيمة لمن شهد الواقعة»^(٢). وعليه، كان أهل البصرة يقولون: «لنا خراسان، وسجستان، والسند، والهند، افتتحناها بالبيض القواضب، حتّى أوثقت أعنة الخيل بأصول القنا بأرض الفلفل»^(٣)، والعراق عراقنا، والأرض أرضنا، وإنّا أهل الكوفة أضيافٌ علينا»^(٤).

وعلى هذا، كانت حركة الفتوح طريقة جديدة أثّرت على أهل البصرة الذين شعروا بمركزيّة مصرهم من الناحية العسكريّة، وبأنّ الفضل يعود إليهم في السيطرة على أراضي العراق وبلاد المشرق؛ لذلك، فإنّ هذه الحركة هي ظاهرة خاصّة في التاريخ، استطاعت أن تخلّف وراءها عاصفة من الجدل نتيجة السرعة المذهلة التي تمّ فيها للعرب تحطيم إمبراطوريّة وتحجيم أخرى، في نطاق الإمكانيات العسكريّة المتواضعة لديهم في ذلك الوقت^(٥)؛ لذلك، سلك الفاتحون اتجاهات مختلفة في سبيل السيطرة على المناطق التي فتحوها والتأقلم مع بيئتها، وهذا الشيء فرض عليهم عقد الاتفاقيّات مع زعماء تلك المناطق في حالة العصيان، وكثيراً ما

(١) الطبريّ، تاريخ: ٣ / ٣٦٠.

(٢) ابن الجعد، المسند: ص ١٠٠؛ أحمد بن محمّد بن سلمة، شرح معاني الآثار: ٣ / ٢٤٥؛ الذهبيّ، تاريخ الإسلام: ٢ / ٢٤٢.

(٣) أرض الفلفل: يراد بها أرض الهند. يُنظر: ياقوت الحمويّ، معجم البلدان: ١ / ٣٤٥.

(٤) الزبير بن بكار، الأخبار الموقّعات: ص ١٥٦.

(٥) د. إبراهيم بيضون، ملامح التيارات السياسيّة: ص ٣٧.

كانت تُعقد معاهدات صلح بمقتضاها يحتفظ كبار الفرس بمركزهم القديم في صورة مُعدّلة ومقيّدة بعض الشيء^(١).

ولم يقف أهل البصرة عند هذه الصورة لمصرهم، بل عملوا على استيطان القبائل المشاركة بعملية الفتح في خراسان، وهم من عرب الشمال^(٢).

فكانت هذه المهام العسكرية التي أنيطت بأهل البصرة وما حققوه من امتيازات في ظلهم العسكري، بداية الدور السِّياسي الذي أدته البصرة في آخر أيام الخلفاء، وطول عهد الدولة الأموية، وكان ذلك ناتجاً عن أهميّة البصرة في ذلك الوقت، وقد أحس أهلها بأهميّة المدينة، التي من خلالها يمكن أن يحدث خلل في ميزان القوة المسيطرة على الدولة الإسلامية.

وفي المقابل، أحسّ الحكّام والأمراء بذلك الشعور أيضاً، ما جعلهم يطوّقون أهل البصرة بالجُدر الحديدية، من خلال الولاة ذوي الخبرة والقيادة وقوة الشخصية، ونجد هذا واضحاً زمن الدولة الأموية، فقد جاء أوّل تحرّك سياسيّ ضدّ قيادة الدولة من قبل أهل البصرة، فكان ضدّ عثمان بن عفّان، لتكون هذه الخطوة بداية تعقّد الحياة السِّياسية في البصرة وأثرها على الدولة الإسلامية.

(١) فلهاوزن، تاريخ الدولة العربية: ص ٣٩٤.

(٢) يُنظر: د. محمد نصر مهنّا، الفتوحات الإسلامية والعلاقات السِّياسية في آسيا: ص ١٠٠.

المبحث الثالث

موقف أهل البصرة من مقتل عثمان

فيما سبق، وجدنا أن هناك تطوراً يتدرّج مع الزمن في الأمصار العربيّة التي أُسّست خارج حدود شبه الجزيرة العربيّة، وخاصّةً البصرة، وقد بلغ هذا التقدّم والتدرّج ذروته بموت عمر سنة (٢٣هـ / ٦٤٤م)؛ فقد بدأ الدافع القوي لتلك الأمصار يؤثّر في مركز الحكم بالمدينة المنورة، التي بدأت تفقد بعضاً من رجالها، حينما توجّهوا إلى تلك الأمصار والقواعد العسكريّة، ومن ثمّ، أصبح هناك فراغ في مجال قوّة مركز الخلافة، التي تستمدّ قوّتها من تلك الأمصار (البصرة الكوفة). وقد ازداد موقف المدينة ضعفاً باعتمادها المتزايد على تلك الأمصار في توفير الأموال التي تحتاجها الخلافة، الأمر الذي عزّز مركز الأمصار، وقلب ميزان القوّة لصالحها على حساب قوّة مركز الخلافة.

كانت العوامل المتقدّمة كفيلة في بروز أهل الأمصار ومشاركتهم في المجال السّياسيّ عندما تكون الظروف مناسبة لتغيير وضع ما يصعب على الخليفة نفسه أن يقوم به بنفسه، وهذا الأمر حدث مع عثمان بن عفّان، على الرّغم من أنّ المؤرّخين يذكرون أنّ السّنين الأولى من حكمه كانت جيّدة تتلاءم مع واقع المسلمين وإدارة الدّولة الإسلاميّة، ثمّ ما لبث أن قدّم آل أميّة على عموم المسلمين، وفضّلهم على سواهم في العطاء وحياسة الأرض، وبذلك فقد زمام السّيطرة على الدّولة وإدارة حكمها، فكان أهل البصرة أحد الأطراف التي أسهمت في مواجهة

التدهور الذي طغى على سلطان الحاكم في المركز، والتصدي لإصلاحه، الأمر الذي أثار ببعض إجراءاته سير التطور العام للأحداث في تلك الفترة من عمر الدولة الإسلامية.

كانت الإجراءات التي استخدمها عثمان بن عفان بداية الانحلال بين المسلمين، على حساب قرابته من آل أمية؛ إذ «استثمروا ما في نسيبهم الخليفة من لين في الجانب، فراحوا يعملون على أساس من العصبية العائلية والنفوذ الشخصي، والاستهتار بالمصالح العامة، واستخدام مرافق الدولة لمنافعهم في الرئاسة والمال»^(١)، والسعي لجعل أبناء الأمة أداة إنتاج لهم وموضوع استغلال، ولسان حالهم يقول: «السواد بستان قريش»^(٢).

ها هو عثمان بن عفان يُسلم خمس غنائم إفريقية كلها لصهره مروان بن الحكم؛ إذ تزوج ابنة عثمان^(٣)، فاستنكر الناس هذه البدعة، وقد عبّر عبد الرحمن بن حنبل^(٤) عن رأي العامة بذلك، فأشدد قائلاً:

أحلفُ بالله ربَّ الأنام ما تركَ اللهُ شيئاً سُدَى
ولكنْ خُلِقَتْ لنا فتنةٌ لكي نُبتلى بك أو نُبتلى

(١) جورج جرداق، الإمام عليّ صوت العدالة الإنسانية: ص ٤٨٤.

(٢) ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ٥١٢/٢؛ ويُنظر: سعيد أيوب، الانحرافات الكبرى: ص ٤٨٨.

(٣) العلامة الحلي، منهاج الكرامة: ص ١١٠؛ ويُنظر: ابن حجر، فتح الباري: ١٤١/٦؛ الأميني، الغدير: ١٧/٩.

(٤) عبد الرحمن بن حنبل: أخو كلدة بن حنبل، أخوا صفوان بن أمية لأمه صفية بنت معمر ابن حبيب، كان أبوهما قد نزع بهما من اليمن إلى مكة المكرمة. ابن عبد البر، الاستيعاب: ٢/٨٢٩.

وأعطيت مروانُ خُمُسَ البلاد ففهيها تَ سَعِيكَ مِّن سَعَى^(١).

ولم يكتف بذلك، بل أقطعه فدكاً^(٢)، ثمَّ أغدق في كرمه عليه، فأعطاه مائة ألف درهم من بيت مال المسلمين، فجاء زيد بن أرقم -وكان على بيت المال- بالمفاتيح وأعطاها لعثمان، وهو يبكي، فقال عثمان بن عفَّان: أتبكي أن وَصَلْتُ رَحْمِي؟! فقال زيد: والله، لو أعطيت مروان مائة درهم، لكان كثيراً، فقال عثمان: أَلْقِ المفاتيحَ، فإنَّا سنجد غيرك^(٣).

وطلب منه عبد الله بن خالد بن أُسيد صلةً، فأعطاه أربعمئة ألف درهم^(٤)، وحرص على أن تشمل هباته آل مروان، فأقطع الحارث بن الحكم شقيق مروان بن الحكم سوق مهزور، وهو سوق بالمدينة وَقَفَهَا النَّبِيُّ ﷺ على فقراء المسلمين^(٥). وكان عثمان قد أنكح الحارث بن الحكم ابنته عائشة، فأعطاه مائة ألف من بيت المال^(٦)، وكذلك فعل مع أزواج بناته الثلاث الأخريات، فدفع لهم أربعمئة ألف دينار^(٧)، وأعطى عبد الله بن أبي سرح^(٨) فيء إفريقيا كلّها من مصر إلى طنجة من

(١) ابن عبد البر، الاستيعاب: ١/ ٤٩٨؛ ابن الأثير، أسد الغابة: ٣/ ٣٣٤، (وقد أورد ترجمة عبد الرحمن بن حنبل، وبيتين من الشعر فقط، دون ذكر الرواية أعلاه)؛ ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة: ١/ ١٦٩. ورد الشعر بهذه المصادر باختلاف الألفاظ.

(٢) ابن أبي الحديد: شرح النهج: ١/ ١٦٩.

(٣) ابن أبي الحديد: شرح النهج: ١/ ١٦٩.

(٤) ابن قتيبة، المعارف: ص ١٩٥؛ ابن أبي الحديد: شرح النهج: ١/ ١٦٩.

(٥) ابن أبي الحديد: شرح النهج: ١/ ١٦٩.

(٦) ابن أبي الحديد: شرح النهج: ١/ ١٧٠.

(٧) العلامة الحلي، منهاج الكرامة: ص ١٠٨.

(٨) عبد الله بن أبي سرح بن الحارث بن حبيب بن جذيمة القرشي، أخو عثمان بن عفَّان من الرضاغة، أسلم قبل الفتح، وهاجر، ثمَّ ارتدَّ، فأمر رسول الله ﷺ بقتله، ففرَّ إلى أخيه عثمان،

غير أن يشرك فيه أحداً من المسلمين^(١)، وكان حول المدينة مراعى خضراء ترعى فيها مواشي المسلمين جميعاً، فانتزعها عثمان وحماها وجعلها وقفاً على بني أمية وحدهم^(٢)، فكان عثمان يقول: «لو أن بيدي مفاتيح الجنة، لأعطيها بني أمية حتى يدخلوها»^(٣).

أمّا سياسته الماليّة، فكانت مجحفة بحق أصحاب الحقّ الذين لهم حقّ العطاء والنفقة، ولم تكن تلك السّياسة إلّا امتداداً لسياسة عمر بن الخطّاب، فليس لعثمان منهج خاصّ في السّياسة الماليّة سوى الذي سنّه عمر؛ من إيجاد الطبقية، وتقديم بعض الناس على بعض في العطاء^(٤)، السّياسة التي لا تتسق مع أهداف الإسلام في توزيع مصادر العيش، حيث المساواة بين جميع الطبقات بما فيهم الفقير والصغير وعدم الحرمان، وليس من حقّ السّاسة الحاكمين توزيع تلك الأموال على خواصّهم من الحرس وأهل بيتهم حسب ما يمليه مركزه القياديّ في الدّولة، ومن ثمّ، ابتعد عن أهداف الدّين الإسلاميّ، وجعله ديناً هامشياً دون التطبيق وتحقيق العدل، ويقول الرسول الأكرم محمد ﷺ: «إنّ رجالاً يتخوّنون في مال الله بغير حقّ، فلهم النار يوم القيامة»^(٥).

فغيّبه عن الرسول ﷺ، وفي أيام عثمان ولّاه مصر سنة ٢٥هـ، وقيل: إنّه لم يبايع الإمام عليّاً عليه السلام، مات سنة ٣٧هـ. الصفديّ، الوافي بالوفيات: ١٧ / ١٠١.

(١) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة: ١ / ١٧٠.

(٢) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة: ١ / ١٧٠.

(٣) الذهبيّ، تاريخ الإسلام: ٢ / ٤٣٢.

(٤) باقر شريف القرشيّ، حياة الإمام الحسين: ١ / ٣٥٤.

(٥) البخاريّ، الصّحيح: ٤ / ٤٩؛ النووي، رياض الصالحين: ص ١٦٥؛ السيوطي، الجامع

الصغير: ١ / ٣٤٧؛ محمد بن إسماعيل الكحلانيّ، سبل السّلام: ٤ / ١٩٢.

وقد كتب الإمام عليّ عليه السلام كتاباً إلى قثم بن العباس^(١) عامله على مَكَّة، أوضح من خلاله السَّياسة الماليَّة التي أقرَّها الإسلام؛ إذ جاء في الكتاب: «أنظر إلى ما اجتمع عندك من مال الله فاصرفه إلى مَنْ قبلك من ذوي العيال والمجاعة، مصيباً به مواضع الفاقة والخلاّت الحاجات، وما فضل عن ذلك، فأحمله إلينا لنقسّمه في من قبّلنا»^(٢).

هذا هو نهج الإسلام في أموال الدولة، فوليّ الأمر مكلف أمام الله ﷻ في الحكم بالعدل بين الرعيّة التي يلي أمرها، دون تقديم أقلّيّة وحرمان أكثرّيّة، وهو ما فعله عثمان في إنفاق الأموال على بني أميّة وآل أبي معيط!

إنّ النصوص التاريخيّة التي بين أيدينا تدلّنا على مقدار الأموال العامّة التي بُذلت على وجه خاصّ، ومن دون الاهتمام بالرعيّة الذين يتمتّعون بالأحقّيّة، يشير اليعقوبيّ إلى ذلك قائلاً: «وزوّج عثمانُ ابنته من عبد الله بن خالد بن أُسيد، وأمر له بستمئة ألف درهم، وكتب إلى عبد الله بن عامر أن يدفعها إليه من بيت مال البصرة»^(٣). فأموال البصرة صرّفت لتغطية نفقة زواج ابنة الخليفة وحرمان الأكثرّيّة من أرزاقهم، إنّ هذه الإجراءات بحقّ أموال البصرة كفيّلة بإشعال فتيل الثورة. وكانت تلك الأحداث قد شدّت أهل البصرة مع غيرهم نحو تصحيح المسار الذي وجدوه يصبّ في مصالح فئة خاصّة دون سائر المسلمين.

كذلك عمل عثمان بن عفّان على الاستيلاء على الأراضي داخل البصرة عن

(١) قثم بن العباس: ابن عبد المطّلب بن هاشم القرشيّ، استشهد بسمرقند، وكان والياً للإمام عليّ على مَكَّة. ابن عبد البرّ، الاستيعاب: ٣/ ١٣٠٤؛ ابن حجر، الإصابة: ٥/ ٣٢٠.

(٢) الشريف الرضيّ، نهج البلاغة: ٣/ ١٢٧.

(٣) تاريخ اليعقوبيّ: ٢/ ١١٧.

طريق إقطاعها؛ فعن الشعبي، قال: «لم يُقطع أبو بكر ولا عمر، وأول من أقطع الأراضي عثمان»^(١).

ولم يكتفِ بإقطاع الأراضي، بل قام بتخصيص مبالغ مالية لأصحاب تلك الإقطاعات؛ يذكر البلاذريُّ بهذا الشأن: «أقطع عثمان بن عفان العباس بن ربيعة ابن الحارث»^(٢) داراً بالبصرة، وأعطاه مائة ألف درهم»^(٣).

ولم يكتفِ بتلك الأعمال أيضاً، بل بدأ بأسلوبٍ آخر مستغلاً هيمنته على سلطة الدولة؛ فشرع بالاستيلاء على دور الآخرين وأراضيهم المجاورة له بالمدينة، ثم يصرف أصحابها نحو أراضٍ جديدة حسب رغبته الشخصية، وهذا ما اتَّبِعَ في أرض البصرة؛ فقد «أخذ دار عثمان بن أبي العاص الثقفي»^(٤)، وكتب أن يُعطى أرضاً بالبصرة»^(٥).

فهذه السَّياسة المفرطة في المصلحة الشخصية وعدم المبالاة تجاه الرعيَّة، أوجدت نوعاً من التذمُّر عند سكَّان البصرة، بالمقارنة مع «ما كان من إدارة القطائع

(١) المتقي الهندي، كنز العمال: ٣ / ٩١٥.

(٢) العباس بن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب، من أصحاب الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام، شارك معه في معركة صفين، وهو المعروف بحديث أبي الأغر التميمي، وكانت تحته أم فراس بنت حسان بن ثابت. ابن قتيبة، المعارف: ص ١٢٨؛ ويُنظر: ابن أعثم الفتوح: ٣ / ١٤٢.

(٣) فتوح البلدان: ٢ / ٤٤٢.

(٤) عثمان بن أبي العاص الثقفي: أخو الحكم، له صحبة، قدم على رسول الله ﷺ في وفد ثقيف، قال الحسن البصري: ما رأيت أفضل منه. استعمله رسول الله ﷺ على الطائف، وعزله عمر بن الخطَّاب وولَّاه على عمان والبحرين، مات سنة ٥١هـ. الصفدي، الوافي بالوفيات: ٢٠ / ٢٤٠.

(٥) البلاذري، فتوح البلدان: ٢ / ٤٣٢.

والأرزاق والأعطيات على أقوام بالمدينة، ليست لهم صحبة من النبي ﷺ^(١).
ويبدو أنّ الوضع السياسي داخل البصرة أصبح يهدّد الخليفة ومركزه في حكم الدولة، فعمل على تصفية بعض الشخصيات وإبعادهم عن مدينتهم؛ فقد سعى قوم بعامر بن عبد القيس^(٢)، وارتكبوا عليه أمام عثمان بأنّه يعمل بالخفية^(٣)، فما كان من عثمان إلّا أن كتب إلى عبد الله بن عامر أن يلحقه بمعاوية بن أبي سفيان^(٤)، فلمّا نفوه إلى الشام^(٥)، وحضر عند معاوية، ودار الحديث بينهما، قال معاوية: «عرفت أن قد كُذِبَ عليك»^(٦).

إنّ هذه الأحداث تعكس التخطيط الذي اتّبعه بعض عمال عثمان في سبيل التخلص من الشخصيات البارزة! وهذا يعطينا نظرة جديدة للأحداث السياسية، وتصفية العناصر النشيطة في البصرة، وتحجيم أمرهم، وتفريقهم على الأمصار الأخرى.

(١) ابن قتيبة، الإمامة والسياسة: ١ / ٥٠. ومن بين الذين أقطعهم عثمان في المدينة المغيرة بن شعبة؛ فقد أقطعه داراً في البقيع، وأقطع ذا الكلاع، وحبيب بن سلمة، ويزيد بن حجية. ابن شبة، تاريخ المدينة: ١ / ١٢٦؛ عليّ الكوراني، جواهر التاريخ: ٣ / ٣٨.

(٢) هو عامر بن عبد الله بن عبد قيس، أبو عبد الله العنبري، التميمي، البصري، وهو أحد الزاهدين، ويعدّ في التابعين. البخاري، التاريخ الكبير: ٦ / ٤٤٧؛ الذهبي، ميزان الاعتدال: ٢٨٠ / ١.

(٣) الطبري، تاريخ: ٣ / ٣٦٧.

(٤) نجم الدين الطبري، النفي والتغريب: ص ٣٥.

(٥) ابن قتيبة، المعارف: ص ١٩٥؛ ويُنظر: ابن الأثير، أسد الغابة: ٣ / ١٩١؛ هاشم داخل، عقوبة النفي في الدولة العربية الإسلامية: ص ١٧٠.

(٦) الطبري، تاريخ: ٣ / ٣٦٨؛ ويُنظر: ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ٢ / ٥١٧.

وهذه الإجراءات تقودنا أيضاً إلى نتيجة حتمية، وهي أنَّ النَّاسَ في البصرة بدأوا يفكِّرون في كَيْفِيَّةِ إيقاف تلك السَّياسة التي اقتصرت على طبقة من النَّاس سلبتهم حقوقهم، لكنَّ عَمَّال الخليفة قلَّلوا من تلك الفاعليَّة، وحاولوا أن يسيطروا على المصر، وأن يضعوا حدًّا للانفلات السَّياسيِّ عن طريق النفي، فكان مَن نُفي من أهل البصرة ظلماً صارخاً، أخذ فيه بالظنَّة^(١). فكانت نتيجة هذه الأعمال المجحفة بحقَّ أهل البصرة التحريض ضدَّ عثمان، فيذكر ابن كثير: «وفي هذه السَّنة -يعني سنة ٣٣٣هـ/ ٦٥٣م- سيَّر عثمان بعض أهل البصرة منها إلى الشَّام، وإلى مصر، بأسباب مسوَّغة لما فعله، فكان هؤلاء مَن يؤلَّب عليه ويمالئ الأعداء في الخطِّ والكلام فيه»^(٢).

ويبدو أنَّ هذه الإجراءات جاءت متزامنة مع ما حصل للصحابيِّ الجليل أبي ذر الغفاريِّ، الذي اختار البصرة على الرِّبذة^(٣) عندما أراد عثمان أن ينفيه عن المدينة، وعدم السَّماح له بدخولها في أيَّامه، فقال له عثمان: «لا؛ لأنَّهم أهل شبهة وطمع على الأئمَّة»^(٤).

فهذا القول الذي صرَّح به عثمان أمام أبي ذر، يوحي لنا أنَّ عثمان كان على علم بموقف أهل البصرة السَّياسيِّ تجاهه، وأنَّهم ليسوا على شاكلته، بل ضده، وإذا تواجدت بينهم شخصيَّة مثل شخصيَّة أبي ذر، فسوف يزيد الطين بلَّه، فسيَّرَه

(١) طه حسين، الفتنة الكبرى/ عثمان: ص ١١٦.

(٢) البداية والنهاية: ١٨٦/٧.

(٣) الرِّبذة: إحدى القرى التابعة للمدينة، على مسافة منها من ذات عرق على طريق الحجاز. ياقوت الحمويِّ، معجم البلدان: ٢٤/٣.

(٤) يُنظر: اليعقوبيِّ، تاريخ: ١١٩-١٢٠.

إلى الرّبذة، فمات هناك رحمته الله (١)، وهو الذي قال بحقه رسول الله ﷺ: «ما أظلت الخضراء، وما أقلت الغبراء من ذي لهجة أصدق من أبي ذر» (٢).

كانت حركة أبي ذر الغفاري حملة تعبوية صارمة ضد طغيان الفتوية ومظاهر الترف والتخمة المحيطة بالخليفة (٣)؛ فقد ذكر بعض المؤرخين جملة من الأسباب التي حفزت المسلمين وأهل الأمصار نحو الثورة ضد عثمان؛ إذ أشار إلى ذلك اليعقوبي (٤) وابن قتيبة (٥)، وغيرهما من المؤرخين المتأخرين.

وأما الطبري، فقد اكتفى بهذا القول الذي نقلناه عنه؛ إذ قال: «قد ذكرنا كثيراً من الأسباب التي ذكر قاتلوه أنهم جعلوها ذريعة إلى قتله، فأعرضنا عن ذكر كثير منها لعل لعل دعت إلى الإعراض عنها» (٦).

إنّ الطبري أنموذج من المؤرخين الذين أعرضوا عن نقل بعض الأخبار التي بررت للثوار ثورتهم ضد عثمان، وقد أشار إلى أنّه أعرض عن ذكرها لعل حضرته حين كتابة تاريخه، وهذا شاهد يجزنا إلى أنّ التدوين في أيام الطبري وغيره كان يخضع لرقابة الدولة، وربما كانت الكتابة بإشرافها وتحت اهتمامها وتوجيهها.

هذا من جانب، ومن جانب آخر، تحدّث العلامة الأميني عن روايات الطبري بهذا الخصوص، بقوله: لماذا ترك الطبري تلکم الأمور الكثيرة؟! (٧)، ربما حاول

(١) أحمد بن حنبل، المسند: ٥ / ١٩٧؛ العلامة الحلي، منهاج الكرامة: ص ٤٧.

(٢) أحمد بن حنبل، المسند: ٢ / ٢٢٣؛ الترمذي، السنن: ٥ / ٣٣٤.

(٣) د. إبراهيم بيضون، الحجاز والدولة الإسلامية: ص ١٨٦.

(٤) تاريخ اليعقوبي: ٢ / ١٢١.

(٥) الإمامة والسياسة: ١ / ٥٠.

(٦) تاريخ الطبري: ٣ / ٣٩٩.

(٧) الغدير: ٨ / ٣٢٦.

الطبريَّ التستّر على بعض الحقائق التي لم ترق له!

ويرى البعض أنّ الطبريَّ أعرّض عن ذكر تلك الأخبار، واعتمد على رواية سيف بن عمر في ذلك تفصيلاً، وهذا العمل ناتج عن خوفه من ضغط العامة؛ إذ لا ينبغي له أن يترك ما رواه الثقات ويروي ما تبنّاه العاذرون^(١)، فهو يبرّر أفعاله تلك، بقوله: «فما يكن في كتابي هذا من خبرٍ ذكرناه عن بعض الماضين ممّا يستنكره قارئه، أو يستشنع سامعه؛ من أجل أنّه لم يعرف له وجهاً في الصّحّة، ولا معنى في الحقيقة، فليعلم أنّه لم يؤت في ذلك من قبلنا وإنّما أتى من قبل بعض ناقله إلينا، وإنّا إنّما أدّينا ذلك على نحو ما أدّى إلينا»^(٢).

أمّا عن كَيْفِيَّة اجتماع الثّوار من (البصرة، والكوفة، والفسطاط)، فقد كانت هناك إشارات عن اتفاقٍ سابقٍ مبرمٍ بين قادة الثّوار بخصوص سياسة عثمان، وما اختطّ لنفسه من منهج في حكم المسلمين، فقد «التقى أهل الأمصار الثلاثة: الكوفة، البصرة، ومصر في المسجد الحرام قبل قتل عثمان بعام، كان رئيس أهل الكوفة كعب بن عبدة النهديّ^(٣)، ورئيس أهل البصرة المثني بن مخزومة العبديّ^(٤)،

(١) سامي البدرى، المدخل إلى دراسة مصادر السيرة النبوية والتاريخ الإسلامي: ص ٢٠٢، ٢٠٣.

(٢) الطبري، تاريخ: ١٣/١.

(٣) كعب بن عبدة النهديّ: من خيار الصّالحين الذين نصّحوا عثمان بن عفّان وتكلّموا معه، فغضب عليه عثمان، وأمر أن يضرب عشرين سوطاً، وأن يحوّل ديوانه إلى الرّي، فعُبل به ذلك، ثمّ ندم عثمان، وكتب بإشخاصه. يُنظر: الأميني، الغدير: ٤٧/٩ - ٥٠؛ عليّ النّهازي الشاهروديّ، مستدركات علم رجال، الحديث: ٣٠٨/٦.

(٤) المثني بن مخزومة العبديّ: من أصحاب الإمام عليّ عليه السلام، وأحد الثّائرين ضدّ عثمان بن عفّان، وقد وقف ضدّ ابن الحضرميّ عندما قدم البصرة سنة ٣٨هـ داعياً لبيعة معاوية، كما

ورئيس أهل مصر كنانة بن بشر بن عتاب بن عوف السكوني^(١)، فتذاكروا سيرة عثمان وتبديله وتركه الوفاء بما أعطى من نفسه وعاهد الله عليه، وقالوا: لا يسعنا الرضا بهذا، فاجتمع رأيهم على أن يرجع كل واحد من هؤلاء الثلاثة إلى مصره، فيكون رسول من شهد مكة من أهل الخلاف على عثمان إلى مَنْ كان على رأيهم من أهل بلده، أن يوافوا عثمان في العام المقبل في داره، فيستعتبوه، فإن أعتب، وإلا، رأوا رأيهم فيه، ففعلوا ذلك»^(٢).

فكان رؤساء الأمصار الثلاثة قد اتفقوا على صيغة تمكّنهم من الضغط على عثمان، حتى يتمكنوا من تعديل سياسته أو تبديلها بالكامل، وإن امتنع من ذلك، فرأيهم أولى بحلّ المسألة.

وهناك مَنْ يرى أن أصحاب الرسول ﷺ هم مَنْ كتبوا الكتاب وتعاهدوا ليدفعوه إلى يد عثمان، وكان ممن حضر الكتاب عمار بن ياسر، والمقداد بن الأسود الكندي، وكانوا عشرة، ولما أخرجوا لعثمان الكتاب الذي كتبوه فيما بينهم، لم يبق إلاّ عمار بن ياسر، الذي على أثره تعرّض إلى الضرب، وصار به فتق في بطنه كاد يقتله^(٣).

ويذكر ابن الأثير أن أصحاب رسول الله ﷺ وغيرهم تكاتبوا بعضهم إلى

سيأتي بالتفصيل. والمثنى أحد الذين طالبوا بدم الإمام الحسين عليه السلام مع سليمان بن صرد الخزاعي، وانضمّ إلى صفوف المختار بن عبيدة الثقفي. يُنظر: خليفة بن خياط، تاريخ: ص ٣٢٤؛ المجلسي، بحار الأنوار: ٤٥/٣٥٦.

(١) كنانة بن بشر بن عتاب بن عوف السكوني: هو الذي ضرب عثمان بن عفان بعمود على رأسه، شهد فتح مصر، وقُتل بفلسطين سنة ٣٦هـ. ابن حجر، الإصابة: ٥/٤٨٦.

(٢) البلاذري، أنساب الأشراف: ٦/١٧٣-١٧٤.

(٣) ابن قتيبة، الإمامة والسياسة: ١/٥٠-٥١.

بعض أن اقدموا فإنَّ الجهاد عندنا^(١). ويبدو من هذه الروايات أنَّ بعض الصحابة الأَخيار أَرادوا كشف أخطاء عثمان، واختاروا عَمَّار بن ياسر لمكانته من رسول الله ﷺ من أجل حمل الكتاب إلى عثمان، وقراءته على مسامعه، وأمام حاشيته، يرجون منه تعديل سياسته التي انتهجها، ولم ينزل الله ﷻ بها من سلطان، وسببت إضعاف مركز حكمه للدولة، فضلاً عن وجود الصَّحابة المنافسين على زعامة الدولة، وهؤلاء كانوا يرون أحقيَّتهم بذلك، من خلال انضمامهم إلى قائمة المرشَّحين للخلافة، التي جعلها عمر بن الخطَّاب في ستَّة نفر من الصَّحابة^(٢).

فالمسألة كانت تعنيهم مباشرةً، وهم أولى الناس بالتحرك من هذا المنطلق، فضلاً عن ذلك، إنَّهم الأداة القادرة على حسم الوضع بالسَّريعة الممكنة^(٣)، فالوضع السَّياسيُّ داخل المدينة بدأ ينهار أمام تلك المتغيَّرات المتردِّية بالمدينة، التي أصبحت كفيلة بتزايد الوضع سوءاً أمام أصحاب عثمان، فهم لا يزالون يبذلون نهجاً بنهج وموقفاً بموقف، ويلبسون لكلِّ حالة لبوسها، حتَّى يستقيم لهم الأمر^(٤).

وعندما حلَّ وقت الاتفاق الذي عُقد بين رؤساء الأمصار الثلاثة، خرج أهل البصرة في أربع رايات مع حكيم بن جبلة العبدي^(٥)، وبشر بن سريج بن

(١) الكامل في التاريخ: ٢/ ٥٢٢؛ حسين الرِّجاء، دفاع من وحي الشريعة ضمن دائرة السَّنة والشيعة: ص ٦٩.

(٢) يُنظر: اليعقوبي، تاريخ: ١١١ / ٢.

(٣) د. إبراهيم بيضون، ملامح التيارات السَّياسِيَّة في القرن الأوَّل الهجري: ص ١١٢.

(٤) جورج جرداق، الإمام عليُّ صوت العدالة الإنسانيَّة: ص ٥٥١.

(٥) حكيم بن جبلة العبدي: هو حكيم بن حصين بن أسود بن كعب بن عبد القيس العبدي، أدرك النبي ﷺ، كان رجلاً صالحاً له دين، مطاع في قومه، وهو الذي بعثه عثمان بن عفَّان على السَّند، قُتل في معركة الجمل الأصغر وهو يُقاتل عائشة وأتباعها سنة ٣٦ هـ. ابن الأثير، أسد

ضبيعة القيسي^(١)، وذريح بن عباد العبدي^(٢)، وعليهم كلهم حرقوص بن زهير السعدي^(٣).

أما تعداد الثّوار الذين خرجوا على عثمان من البصرة، فهناك تضارب في تعدادهم؛ فذهب البعض إلى أنّهم كانوا في ألفين^(٤)، وقيل: كانوا ستمائة رجل^(٥)، والبعض الآخر جعل تعدادهم في مائتين وخمسين رجلاً^(٦)، وهناك من يجعلهم مائة وخمسون^(٧)، أمّا الطبري، فجعل أهل البصرة الذين خرجوا على عثمان بنفس بعدد أهل مصر نفسه^(٨).

إنّ هذا التضارب يدلّ على اشتراكهم بعدد كثير، وعلى كونهم ذوي فعالية سياسية عملت من أجل الضغط على الخليفة بهدف تبديل سياسته التي اتّبعها والتي أضرت بمصلحة المسلمين.

ثمّ يذكر المؤرّخون قدوم أهل البصرة، وأنّهم نزلوا ذا خشب^(٩)، ونزل أهل

الغابة: ٣٩ / ٢. وسيأتي الكلام عن الواقعة بالتفصيل.

(١) لم أعثر له على ترجمة.

(٢) ذريح بن عباد العبدي: أحد كبار أهل البصرة، وكان أحد الذين خرجوا لقتال عائشة وأتباعها سنة ٣٥هـ، فقتل في معركة الجمل الأصغر قبل وصول الإمام عليّ للبصرة. يُنظر: ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ٥٧٩ / ٢؛ محسن الأمين، أعيان الشيعة: ٤٣٠ / ٦.

(٣) ابن كثير، البداية والنهاية: ١٩٤ / ٧.

(٤) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة: ٣٥٥ / ٢.

(٥) المسعودي، مروج الذهب: ٨٧ - ٨٨ / ٣.

(٦) ابن أعثم، الفتوح: ٤٠٦ / ٢.

(٧) البلاذري، أنساب الأشراف: ١٧٤ / ٦.

(٨) تاريخ الطبري: ٣٨٢ / ٣.

(٩) ذا خشب: واد على مسير ليلة من المدينة. ياقوت الحموي، معجم البلدان: ٣٧٢ / ٢.

الكوفة الأعوص^(١)، وأهل مصر تركوا عامتهم بذي المروة^(٢)، وكانوا على حذر من دخول المدينة^(٣).

ويبدو أنَّ ثوار الأمصار الثلاثة كلَّ خرج من مدينته حتَّى قدموا المدينة، فنزلوا المواضع المذكورة، دون أن يجتمعوا في مكان واحد، وهذا يعكس نظرة الثوار إلى الخطر؛ خوفاً من أن يكون هناك كمين أو جيش يجهبض عليهم في آن واحد. ثم يقول الطبري: «فأما أهل مصر، فكانوا يشتهون علياً، وأما أهل البصرة، فإنَّهم كانوا يشتهون طلحة، وأما أهل الكوفة، فإنَّهم كانوا يشتهون الزبير»^(٤). ثم إنَّ كلَّ فرقة ترى الأمر لصاحبها دون الآخر، وأنَّ أمرهم سيَّتم^(٥).

إنَّ هذا الذي يذكره الطبري يتعارض مع الواقع المعروف في تلك الفترة تمام التعارض، لا سيَّما أنَّ أهل الكوفة أتباع أمير المؤمنين عليٍّ عليه السلام وشيعته، ولم يكن لهم ارتباط بالزبير بن العوام، ومثلهم مثل أهل البصرة، الذين وقفوا بوجه طلحة حين قدم عليهم بعائشة مع الزبير بن العوام قبل حدوث معركة الجمل سنة (٣٦هـ / ٦٥٦م)، فقالوا له: «كنت أمس تكتب إلينا تؤلِّبنا على قتل عثمان»^(٦)، فالمراسلة بين الجهتين تكشف عن أنَّ طلحة حرَّض أهل البصرة على قتل عثمان،

(١) الأعوص: موضع شرقي المدينة على بضعة عشر ميلاً منها. البكري، معجم ما استعجم: ١ / ١٧٣.

(٢) ذي المروة: من أعمال المدينة، وهي قرى واسعة تعود لجهينة، وأصل المروة: الفلاة البعيدة المستوية لا ماء بها. البكري، معجم ما استعجم: ٤ / ١٢١٨.

(٣) الطبري، تاريخ: ٣ / ٣٨٦؛ ابن خلدون، تاريخ: ١ / ١٤٥.

(٤) الطبري، تاريخ: ٣ / ٣٨٦.

(٥) الطبري، تاريخ: ٣ / ٣٨٦.

(٦) ابن قتيبة، الإمامة والسياسة: ١ / ٨٨.

دون أن يكون هم من بدأ بتلك الخطوة، وهذا يوضح لنا غنى أهل البصرة وبعدهم عن طلحة، وهذا ما يجعلنا نشكك في حقيقة ما قيل عن رغبة أهل البصرة وغيرهم كلٌ بصاحبه، فلو كان الأمر صحيحاً، لاتبّع كل فريق صاحبه بعد مقتل عثمان، وبايعوا له على أمر الخلافة دون غيره، وهم في النهاية سنده، وهذا ما يتعارض مع الأمر الواقع والاتجاه الصحيح.

وبعد نزول الثوّار بقرب المدينة، وعلم عثمان بنزولهم، بعث إلى الإمام عليّ بن أبي طالب عليه السلام للتفاوض معهم، وحمله إلى الثوّار أن عليّ بن أبي طالب يضمن لهم عن عثمان بن عفّان كل ما يريدون من العدل وحسن السيرة^(١).

وقيل: سأل عثمان الأشرّ النخعي، فقال: «ما يريد الناس مني؟ قال: ثلاث ليس من إحداهنّ بدّ. قال: ما هنّ؟ قال: يخبرونك بين أن تخلع لهم أمرهم، فتقول: هذا أمركم، فاختاروا له مَنْ شئتم، وبين أن تقتصّ من نفسك؛ فإنّ أبيت، فالقوم قاتلوك. قال عثمان: ما من إحداهنّ بدّ؟ قال الأشرّ: ما من إحداهنّ بدّ. قال: أمّا أن أخلع لهم أمرهم، فما كنت لأخلع سربالاً سربلنيه الله»^(٢).

وعلى هذا، كان الأمر بنظر الثوّار ليس أكثر من رغبتهم بتقويم الخليفة، وأمّا أن يكونوا قد عزموا على قتله، فلا.

وبعد محاصرة عثمان حسب زعم المؤرّخين أربعين يوماً قُتل في سنة (٣٥هـ/٦٥٥م)^(٣)، والعجب من عدم تدخّل معاوية في فضّ ذلك الحصار عن الخليفة رغم هذه الفترة الزمنية الطويلة نسبياً، فلماذا لم يتدخّل؟ ولماذا لم يقيم أقاربه

(١) المسعودي، مروج الذهب: ٣/ ٨٧.

(٢) خليفة بن خياط، تاريخ: ص ١٢٦.

(٣) اليعقوبي، تاريخ: ٢/ ١٢٢؛ ويُنظر: الشبلنجي، نور الأبصار: ١/ ٢٨١.

بنجدته من الأمصار الأخرى؟

إِنَّ هَذَا التَّسَاوُلَ يَجْعَلُنَا بَيْنَ اتِّجَاهَيْنِ فِي الْجَوَابِ، أَحَدُهُمَا صَحِيحٌ، فِيمَا أَنَّ الصَّحَابَةَ وَكِبَارَ الْمُسْلِمِينَ كَانُوا قَدْ قَبِلُوا بِحَصَارِ عَثْمَانَ وَمَقْتَلِهِ، وَكَانُوا عَاجِزِينَ عَنْ رَدِّعِ الثَّوَارِ، وَإِمَّا أَنْ لَا يَكُونُ لِلْحَصَارِ أَيُّ أُسَاسٍ مِنَ الصَّحَّةِ!

وَكَانَ أَحَدُ رِجَالِ البَصْرَةِ قَدْ اشْتَرَكَ فِي اقْتِحَامِ قَصْرِ عَثْمَانَ، فَأَصَابَ ثَوْبَهُ نَضْحٌ مِنَ الدَّمِ^(١)، وَيُقَالُ: إِنَّ الْخَلِيفَةَ الْمَقْتُولَ اسْتَجَدَّ بِعَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَامِرٍ^(٢) وَآلِيهِ عَلَى البَصْرَةِ، فَلَمْ يَكُنْ لِأَهْلِ البَصْرَةِ أَيُّ اسْتِعْدَادٍ لِنَصْرَةِ عَثْمَانَ^(٣)، لِذَلِكَ، عِنْدَمَا بَلَغَ أَهْلُ البَصْرَةِ قَتْلَ عَثْمَانَ، خَطَبَهُمْ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَامِرٍ، وَقَالَ: «إِنَّ خَلِيفَتَكُمْ قُتِلَ مَظْلُومًا، وَبِيعْتَهُ فِي أَعْنَاقِكُمْ، وَنَصَرْتَهُ مِيتًا كَنَصَرْتَهُ حَيًّا، وَالْيَوْمَ مَا كَانَ أَمْسٌ، وَقَدْ بَايَعَ النَّاسُ عَلِيًّا، وَنَحْنُ طَالِبُونَ بَدَمَ عَثْمَانَ، فَأَعِدُّوا لِلْحَرْبِ عِدَّتَهَا، فَقَالَ لَهُ جَارِيَةُ ابْنِ قِدَامَةَ^(٤): يَا بَنَ عَامِرٍ، إِنَّكَ لَمْ تَمْلِكْنَا عُنُوةً، وَقَدْ قُتِلَ عَثْمَانُ بِحَضْرَةِ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ، وَبَايَعَ النَّاسُ عَلِيًّا، فَإِنْ أَقْرَكَ، أَطْعَمْنَاكَ، وَإِنْ عَزَلَكَ، عَصَيْنَاكَ»^(٥).

إِنَّ مَوْقِفَ أَهْلِ البَصْرَةِ هَذَا يَعْكُسُ لَنَا نَظَرَتَهُمْ لِلْأَحْدَاثِ السَّيَاسِيَّةِ بِالْمَدِينَةِ،

(١) ابن شَبَّة، تاريخ المدينة: ٤ / ١٢٧٧.

(٢) يُنْظَرُ مَلْحَقَ رَقْمِ (١) ص ٤٥٧.

(٣) ابن حَبَّان، الثَّقَات: ٢ / ٢٧٤؛ مُحَمَّدُ الْمَوْسَوِيُّ الشَّيرَازِيُّ، الْفَرَقَةُ النَّاجِيَةُ: ١ / ٣١٠.

(٤) هُوَ جَارِيَةُ بْنُ قِدَامَةَ السَّعْدِيِّ بْنِ مَالِكِ بْنِ زَهَيْرِ بْنِ حَصْنِ بْنِ رِيَّاحِ بْنِ أَسْعَدِ بْنِ بَجِيرِ بْنِ رُبَيْعَةَ بْنِ كَعْبِ بْنِ سَعْدٍ، يَكْنَى أَبُو تَرَابٍ، وَهُوَ عَمُّ الْأَحْنَفِ بْنِ قَيْسٍ، رَوَى عَنْهُ أَهْلُ الْمَدِينَةِ وَأَهْلُ البَصْرَةِ، وَكَانَ مِنْ أَصْحَابِ الْإِمَامِ عَلِيِّ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَشَهِدَ مَعَهُ حُرُوبَهُ كُلَّهَا. مَاتَ فِي وَلايَةِ يَزِيدِ بْنِ مَعَاوِيَةَ. خَلِيفَةُ بْنُ خِيَّاطٍ، طَبَقَات: ص ٨٩؛ ابْنُ الْأَثِيرِ، أَسَدُ الْغَابَةِ: ١ / ٢٦٣؛ ابْنُ حَجَرٍ، الْإِصَابَةُ: ١ / ٥٥٥. وَيُنْظَرُ قِصَّتُهُ مَعَ مَعَاوِيَةَ: الْعَبَّاسُ بْنُ بَكَّارٍ، أَخْبَارُ الْوَفَائِدِ مِنْ الرِّجَالِ مِنَ أَهْلِ البَصْرَةِ وَالْكُوفَةِ: ص ٣٥.

(٥) ابن حَبَّان، الثَّقَات: ٢ / ٢٧٤.

وأنتهم يترقبون أفعال المهاجرين والأنصار، ثم ما يصدره الخليفة الجديد بشأن والي مصرهم، وهذا الأمر حمل ابن عامر أن يتخذ من الليل سترًا ويهرب إلى المدينة حاملاً أموال البصرة معه^(١).

وإن هذه الأحداث تعكس حالة أهل البصرة من عدم العجلة في اتخاذ المواقف، والتريث حتى يعلن خليفة المسلمين الجديد، الذي بدوره سوف يحدد مصير عمال الخليفة السابق.

(١) ابن حبان، الثقات: ٢ / ٢٧٤.

المبحث الرابع

ميول أهل البصرة

أولاً: التكوين السكاني

نتيجة لإنشاء البصرة بوصفها قاعدة عسكريّة واجبها فتح الأراضي والسّيطرة على النواحي المحاذية لأرضها باتجاه الشرق، أصبحت المدينة ذات ميزة خاصّة بنظر القبائل العربيّة. وبحكم التأسيس الإسلاميّ الجديد لها، امتزجت الجوانب المدنيّة من حياة البصرة بجوانبها العسكريّة، فأصبحت مستوطنة مدنيّة أكثر منها عسكريّة، وهذا ما جعل القبائل تتّجه إلى نزولها.

ثم إن أهل البصرة اشتركوا في الفتوحات الإسلاميّة التي حقّقوا من خلالها انتصارات كبيرة على الفرس، وهذا الأمر حتم وجود أسرى، فكان المسلمون يعرضون على أسراهم الذين يعتنقون الدين الإسلاميّ السّكن ضمن حدود الدّولة، وكان البعض يختار البصرة^(١)، وبذلك امتزج سكّان البصرة باتجاهات مختلفة، سواء أكانت عربيّة أم أعجميّة، فكان هذا الامتزاج كفيلاً بخلق مجتمع مختلف في أفكاره الدينيّة والسّياسيّة عن غيره من المجتمعات.

ومن المرجّح أنّ هذا الاختلاف في الجنس والدين والقيم والعادات الاجتماعيّة، قد اتجه بالمجتمع إلى الاختلاط والانفتاح على معالم ومعتقدات الآخرين من أبناء

(١) البلاذريّ، فتوح البلدان: ٣٤٣/٢.

المدينة، فزاد هذا الاختلاط في التمازج في فعاليتها الدينية والسياسية. أما التكوين العربي للبصرة، والمتمثل بالقبائل العربية، فإن المعلومات التي لدينا عن تلك القبائل وتحركاتها وفترة نزولها قليلة جداً؛ إذ لم يذكر أحد من المؤرخين كيفية تواجد تلك القبائل بالمنطقة بعد فتحها وتأسيسها؛ فالطبري يعطي صورة عن بداية النزول يفهم من إشاراته فيها أن القبائل العربية نزلت قبل الفتح، عندما اتفقوا مع كسرى أبرويز حول عملية سكن المنطقة، فسمح لقيس بن مسعود بالنزول بطف سفوان، وأطعمه الأبله^(١). فكانت تلك القبائل هي بكر بن وائل، التي كان قطبة بن قتادة ينتمي إليها.

ولم يذكر أحد الباحثين هذه الفترة المتقدمة من نزول بكر بن وائل، بل اكتفى بالإشارة إلى أنها ثالث أكبر قبائل البصرة التي نزلت إليها في أيام التأسيس^(٢). أما قبائل تميم، فنزلت بادية البصرة في عهد الرسول ﷺ^(٣). ويروى أن عددهم كان تسعمائة رجل، وأتمهم كانوا قد اشتركوا مع النبي في مغازيه، ثم يرجعون إلى مكان سكنهم^(٤)، وبذلك تكون تميم وصلت البصرة في زمن متقدم^(٥). وتعدّ تميم من أكبر القبائل هناك من حيث العدد والعدة والثروة، ومن بيوتهم

(١) تاريخ الطبري: ١ / ٦٠٨؛ ويُنظر: د. عون الشريف قاسم، شعر البصرة في العصر الأموي: ص ٨.

(٢) د. ناجي حسن، القبائل العربية في المشرق: ص ٩٩.

(٣) ابن سعد، الطبقات الكبرى: ٤ / ٢٧٣؛ ويُنظر: البخاري، التاريخ الكبير: ٥ / ٢٣-٨٢، ١١٢-٤٢٢.

(٤) ابن سعد، الطبقات الكبرى: ٤ / ٢٧٣.

(٥) ناجي حسن، القبائل العربية في المشرق: ص ٩٣.

المعروفة زيد مناة، أهل العدد والشرف، وعمر أصحاب البأس والنجدة^(١).
 أما قبيلة الأزد أزد عمان، فقد نزحوا إلى البصرة زمن عمر بن الخطاب^(٢)، وكان
 آخر مَنْ نزل منهم بالبصرة زمن معاوية بن أبي سفيان^(٣).
 ثم تَكُونَت أهل العالية، وهي عبارة عن مجموعة قبائل في منطقة البصرة،
 فشكّلوا اتحاداً من العشائر المتباينة^(٤)، ثم نزحت عبد القيس إلى البصرة، وفي فترة
 الأزد نفسها، ونزلتها قبيلة قيس وربيعه^(٥).

ونتيجة للتنظيم القبلي الذي أصبح عليه سكّان البصرة، وهم ينحدرون من
 عشائر مختلفة، قُسِّمَت البصرة إلى خطط، أي: أحياء، وفي كلّ خطة سكنت
 عشيرة، وقد سُمِّيت تلك الخطط باسم العشيرة التي سكنتها^(٦)، وقد ذكرت بعض
 المصادر أسماء بعض المجاميع الصّغيرة داخل البصرة، وكانت لهم خطة، كبنو
 عسل؛ إذ كان يبلغ عددهم ثمانمائة^(٧).

أمّا ظهور أهل البصرة بأعداد كبيرة ومنظمة، فقد ذكر بعض المؤرّخين الأعداد
 التي اشتركت في الفتوح والدعم العسكري، فكانت أوّل إشارة إلى تلك الأعداد

(١) ناجي حسن، القبائل العربيّة في المشرق: ص ٩٤؛ ويُنظر: فلهاوزن، تاريخ الدولة العربيّة: ص ٦٤.

(٢) ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ٣/ ١١٠.

(٣) الطبريّ، تاريخ: ٤/ ٣٩٧.

(٤) ناجي حسن، القبائل العربيّة في المشرق: ص ٩٩.

(٥) ناجي حسن، القبائل العربيّة في المشرق: ص ١٠٠-١٠١.

(٦) صالح أحمد العلي، خطط البصرة: ص ٤٩.

(٧) ابن دريد، الاشتقاق: ١/ ٢٩٢.

حين اشترك أهل البصرة في معركة القادسيّة؛ فقد قُدِّر عددُ فرسانهم بين ألف^(١) وألف وخمسمائة^(٢).

وذكر ابن الأثير أعداد الذين أسهموا في إنقاذ حملة العلاء بن الحضرمي زمن عمر بن الخطّاب، فكانوا اثني عشر ألف مقاتل^(٣).

وأما ابن سعد، فقد ذكر أسماء أشخاص ينتمون إلى قبائل مختلفة وعددهم أربعون ألفاً^(٤).

إنّ هذه الأرقام والأعداد كانت تشمل الذين اشتركوا في الحملات العسكريّة دون غيرهم، وهذا يعني أنّ أعداد العرب في البصرة كانت قد تزايدت بشكل كبير بالمقارنة مع أعداد من اشترك في القتال على ما ذكرناه.

ثمّ نجد الإشارة واضحة إلى سكّان أهل البصرة في عهد الإمام عليّ عليه السلام؛ فقد أشار الطبري إلى أنّ عددهم كان ستين ألفاً عدا أبنائهم ومواليهم وعبيدهم^(٥)، وهذا العدد يشمل المحاربين المسجّلين في ديوان العطاء دون الموالى والعبيد والنساء والأطفال، ما يعكس أهميّة المحاربين وتسجيل أسماء المتطوّعين من أجل القتال، وترك الذين لا يشاركون في العمليّات القتاليّة.

علاوة على ما تقدّم، فإنّ العدد كما ذكره الطبري لا يحصر جميع من كان قد نزل البصرة، فهناك العديد من القبائل نزلت أطرافها، كذلك البدو الذين استوطنوا

(١) الدّينوريّ، الأخبار الطّوال: ص ١٢٠.

(٢) خليفة بن خيّاط، تاريخ: ص ٩٠.

(٣) الكامل في التاريخ: ٢/ ٣٦٢.

(٤) الطبقات الكبرى: ٧/ ٣٣.

(٥) تاريخ الطبري: ٤/ ٥٨؛ صالح أحمد العلي، امتداد العرب في صدر الإسلام: ص ٢٦.

المنطقة، ما يجعل العدد قابلاً للزيادة فيما إذا تمَّ جرد الأسماء المتبقية. وكذا يجب أن لا ننسى أنَّ بعض البصريين قد قُتلوا في المعارك، وأنَّ عدداً منهم نُقل إلى جبهات أخرى من القتال، ما يزيد في صعوبة إعطاء أرقام دقيقة عن تطوُّر عدد سكَّان البصرة في تلك الأيام^(١).

لما سبق، نجد أنَّ القبائل العربيَّة التي نزلت البصرة إمَّا أن يكون سبب نزولها في هذه المنطقة حاجتها الاقتصادية؛ نتيجة لعملية الفتوح التي أغنت المنطقة بالغنائم، أو يكون السبب تعرُّضهم لضغط الخليفة جرَّاء دفع الصَّدقات وما يترتَّب عليها من أموال أخرى^(٢)، فضلاً عن أوامر الخليفة التي تقضي على بعض الأشخاص أو الولاة بعدم المغادرة من الأمصار التي تولَّوا أمرها^(٣)، فحتَّم هذا الأمر على أولئك أن ينقلوا عوائلهم، وربَّما صحب تلك العملية تحوُّل أقاربه أو عشيرته إلى مكان عمله، فكان هذا سبب آخر في تحوُّل العرب إلى البصرة.

وهناك عامل آخر عمل على تشتيت سكَّان البصرة أيام الدولة الأمويَّة؛ إذ فرضت السَّياسة الأمويَّة نفسها داخل البصرة بقوة السَّيف، وتعرَّض النَّاس إلى مجازر دمويَّة فيها جعلت الأهالي تستنفر العيش في المنطقة؛ فقد روى الطبري أنَّ سمرة بن جندب عندما استخلفه زياد بن أبيه على البصرة لفترة ستَّة أشهر زمن معاوية بن أبي سفيان حدود سنة (٤٥هـ / ٦٦٥م)، قتل ثمانية آلاف من النَّاس^(٤). ربَّما يكون هذا العدد ليس دقيقاً، لكنَّه يكشف عن قيام سمرة بقتل أعداد كبيرة

(١) صالح أحمد العلي، التنظيمات الاجتماعية والاقتصادية في البصرة: ص ٤٠.

(٢) يُنظر: ابن سعد، الطبقات الكبرى: ٧ / ١٠١؛ المزي، تهذيب الكمال: ٢٩ / ٩.

(٣) أبو الفرج الأصفهاني، الأغاني: ٢١ / ١١.

(٤) تاريخ الطبري: ٤ / ١٧٠.

من أهل البصرة، وكانت محاولته تلك باهظة الثمن^(١)، وهذا ما يجعل البعض يشعرون بصعوبة الاستمرار في الاستقرار داخل البصرة.

أمّا عن طبيعة العناصر الأخرى المؤثرة في السّكن في المدينة، فقد سكنت البصرة منذُ عصر مبكّر عناصر أجنبيّة جاءت من فارس والهند^(٢)، وحاولت أن تستند إلى القبائل القويّة داخل البصرة، فتحالف الأساورة مع بني تميم^(٣) مثلاً.

ويذكر المدائني أنّ نزول قسم من الأعاجم في البصرة كان قبل نزول الأزدي وعبد شمس فيها^(٤)، وكان بعضهم قد انضمّ إلى صفوف المسلمين زمن أبي موسى الأشعريّ، فأنزلهم البصرة^(٥).

كذلك سبى عبيد الله بن زياد زمن معاوية بن أبي سفيان ألفين من أهل بخارى فأسكنهم البصرة^(٦).

وقيل: «كان مع رستم قائد الفرس يوم القادسيّة أربعة آلاف يسمّون جند شاهنشاه، فاستأمنوا على أن ينزلوا حيث أحبّوا، ويُفرض لهم في العطاء، فأعطوا الذي سألوهم، وحالفوا زهرة بن جوية السعديّ^(٧) من بني تميم، وأنزلهم في بني

(١) د. عون الشريف قاسم، شعر البصرة في العصر الأمويّ: ص ٢٢.

(٢) يُنظر: صالح أحمد العلي، التنظيمات الاجتماعيّة والاقتصاديّة في البصرة، الفصل الخاصّ بالأعاجم.

(٣) البلاذريّ، فتوح البلدان: ٢ / ٤٦١؛ ياقوت الحمويّ، معجم البلدان: ٥ / ٣١٧.

(٤) البلاذريّ، فتوح البلدان: ٢ / ٤٦٠.

(٥) البلاذريّ، فتوح البلدان: ٢ / ٤٦١.

(٦) ياقوت الحمويّ، معجم البلدان: ٥ / ٣١٧.

(٧) هو زهرة بن جوية بن عبد الله بن قتادة، التميميّ، كان قد وفد على النبيّ ﷺ، وفدّه إليه ملكٌ هجر، وكان على مقدّمة الجيش في القادسيّة في قتال الفرس، وقيل: كان سعد بن أبي

سعد، حيث اختاروا، وفرض لهم ألف ألف، وكان لهم نقيب منهم يقال له: ديلم، فقيل: حمراء ديلم^(١)، فدخلوا في الأساورة^(٢).

فكان هؤلاء قد نزلوا الكوفة، ثم سَيرَ زياد بن أبيه في أيام ولايته للبصرة جماعة منهم، فدخلوا في الأساورة^(٣).

إنَّ هذا الاختلاط بين الأعاجم والعرب وسكَّان البصرة الأصليين، كان كفيلاً في أن يؤثِّر اختلاف ميولهم الديني والمذهبي، ومن ثمَّ أصبح سبب صراع فكريٍّ سياسيٍّ داخل البصرة، منذُ عهد الإمام عليٍّ عليه السلام سنة (٣٥هـ / ٦٥٥م)، إلى نهاية الدولة الأموية سنة (١٣٢هـ / ٧٤٩م)، فقد كانت البصرة في صراع مستمرٍّ سواء بين القبائل العربية نفسها، أو بين القبائل العربية والحكومة آنذاك، وسوف نتحدَّث عن ذلك بالتفصيل لاحقاً.

أمَّا بالنسبة إلى الأعاجم، فإنَّهم كانوا ينتمون إلى ديانات سابقة، حتَّى وإن اعتنقوا الإسلام، فكان ظاهريّاً أكثر من أن يكون ناتجاً عن عقيدة، ومن ثمَّ، فهناك نوع من الانفتاح الفكري في ما بين تلك الجماعات والطوائف التي نزلت البصرة، ولها تأثير بالغ على ثقافتها^(٤).

وقد أحسَّ عمر بن الخطَّاب بحاجة الأمصار إلى تعاليم الدين الإسلامي،

وقاص يرسله للغارة واتباع الفرس. ابن عبد البر، الاستيعاب: ٢ / ٥٦٥.

(١) حمراء ديلم: قوم من العجم نزلوا البصرة، والأحمر الذي لا سلاح معه. البلاذري، فتوح البلدان: ٢ / ٣٤٣؛ ابن منظور، لسان العرب: ٤ / ٢١٠.

(٢) البلاذري، فتوح البلدان: ٢ / ٣٤٣؛ البراقى، تاريخ الكوفة: ص ١٣٧.

(٣) البلاذري، فتوح البلدان: ٢ / ٣٤٣.

(٤) سعد أيوب، معالم الفتن: ٢ / ٣٧.

فأرسل المبلّغين إلى هناك ليعملوا على ترسيخ الدّين الإسلاميّ، وشرح كتاب الله ﷻ وتعليم النّاس معنى السّنة^(١).

وقال ابن حبان: «دخل البصرة جماعة من أجلة الصّحابة في الغزوات والتجارات والسعي في أمور المسلمين، والقصد فيه إصلاحهم»^(٢). فكان هؤلاء الصّحابة الذين دخلوا البصرة حاكمين، ومعلّمين، حراساً ومرابطين، قضاة ومفتين^(٣)، وكانت الأمصار متعطّشة إلى معرفة تعاليم الدّين الإسلاميّ، الذي بزغ نوره منذ فجر قريب، فأقبل أهل كلّ مصر على مَنْ نزل بهم من الصّحابة يغترفون من بحورهم، ويستفتونهم، ويتعلّمون منهم، واكتفى كلّ مصر بما عندهم من الفقهاء، ووثقوا بهم؛ لقلّة الاتصال، وصعوبة المواصلات^(٤). فكان عمر بن الخطاب يبعث الصّحابة ليُفقهوا النّاس^(٥)، ويوضّحوا تعاليم الدّين الإسلاميّ، وبيان أحكامه للناس، وكذلك ما يلتزم به أهل الذمّة تجاه المسلمين في البصرة والأمصار الأخرى^(٦). فكان للفقهاء الذين قدموا على أهل البصرة لتفقيهم أثر كبير في التأثير على أهواء المتواجدين هناك؛ لأنّهم كانوا ذوي تأثير على أذهانهم وأفكارهم الدّينيّة والسّياسيّة.

وعلى هذا الأساس، اكتسبت الشّخصيّة البصريّة مظاهر خاصّة، وصفها

(١) يُنظر: الدارميّ، السّنن: ١ / ١٣٩.

(٢) مشاهير علماء الأمصار: ص ٦٥.

(٣) ابن حجر، الإصابة: ١ / ٥٤.

(٤) المصدر نفسه.

(٥) يُنظر: ابن سعد، الطبقات الكبرى: ٧ / ٣٩.

(٦) يُنظر: ابن إدريس الحليّ، السرائر: ١ / ٤٧٥.

الإمام عليّ عليه السلام بقوله: «يا أهل البصرة، إنّ الله لم يجعل لأحدٍ من أمصار المسلمين خُطّةً شرف ولا كرم إلّا وقد جعل فيكم أفضل ذلك، وزادكم من فضله بمنّه ما ليس لهم، أنتم أقوم النَّاسِ قبلة، قبلتكم على المقام حيث يقوم الإمام بمكّة، وقارئكم أقرأ النَّاسِ، وزاهدكم أزهد النَّاسِ^(١)، وعابدكم أعبد النَّاسِ، وتاجركم أبحر النَّاسِ وأصدقهم في تجارته، ومتصدّقكم أكرم النَّاسِ صدقة، وغنيكم أشدُّ النَّاسِ بذلاً وتواضعاً، وشريفكم أحسنُ النَّاسِ خلقاً، وأنتم أكرم النَّاسِ جواراً، وأقلّهم تكلفاً لما لا يعينه، وأحرصهم على الصّلاة في جماعته. ثمرتكم أكثر الثّمار، وأموالكم أكثر الأموال، وصغاركم أكيس الأولاد، ونسائكم أقنع النساء وأحسنهنّ تبعلاً^(٢)».

وعليه، فالتكوين السَّكَّانِيّ لأهل البصرة ذو اتجاهات متنوّعة، وهذا ناتج عن اختلاف الذين استوطنوا البصرة من عرب وأجانب وغيرهم، وقد فرض عليهم محيطهم الاجتماعيّ أن يخضعوا إلى الاختلاط وتبادل الفكر الدينيّ والسَّيَاسِيّ، وهذا ما جعل طبيعة البصرة أكثر تلوّناً من الأمصار الأخرى، ومن ثَمَّ، ظهرت الطبقية الواضحة في هذه المدينة، وانقسمت إلى: طبقة العرب، وطبقة الأعاجم، وطبقة الرّقيق، فكانت المناصب الإداريّة والسَّيَاسِيّة محصورة في طبقة العرب، وبشكل خاصّ في القريشيين من تلك الطبقة، ما جعل هؤلاء طبقة غايتها تكديس الأموال على حساب الأعاجم والرّقيق، فقادت هذه الطبقة إلى تكوين ميل شخصيّ يتبع أصحاب الأموال، من أجل كسب مصادر الثروة، والتقييم الشخصي القائم على التبادل النفعيّ لأهل البصرة.

(١) يُنظر: أسماء الزهّاد في البصرة: الجاحظ، البيان والتبيين: ١ / ٢٩١.

(٢) المجلسي، بحار الأنوار: ٣٢ / ٢٥٦.

ثانياً: حقيقة تسمية البصرة بالعثمانية

(العثمانية) قوم يغالون في حبّ عثمان وينتقصون علياً^(١). وجاء في أحسن التقاسيم أنّ أهل البصرة منهم شيعة عثمان، ومن العثمانية من يفضلون عثمان على أبي بكر وعمر^(٢)، وهناك طائفة من العثمانية طعت في إيمان أمير المؤمنين عليه السلام لصغر سنّه عندما أسلم^(٣)، وقيل: العثمانية كانوا قوماً في سجستان يفضلون عثمان على الإمام علي عليه السلام^(٤).

ويرى البعض أنّ نسبة العثمانيّ تعني: «علاقته مع أسرة الخليفة عثمان، سواء عن طريق القرابة، أو الولاء، ويشتقّ معناها التاريخي من أنّها تدلّ عادة على الانتصار للخليفة المقتول»^(٥). ويضاف إلى هذه العلاقة كلّ شخص كان يُغض علياً وأهل بيته، ويعمل على تشييط الناس عنهم^(٦).

ويقال: تعني العثمانية: الغضب لمقتل عثمان^(٧).

وعليه؛ فالعثمانية تشمل كلّ من تعصّب للدّفاع عن عثمان، ولتصوير سيرته أمام الآخرين بالصورة التي يستحسنها أنصاره، ويدلّ على ذلك قول أحدهم

(١) ابن حجر، فتح الباري: ٧ / ١٤؛ المباركفوري، تحفة الأحوذى: ١٠ / ١٣٩.

(٢) المقدسي: ص ١٢٦.

(٣) المفيد، الفصول المختارة: ص ٢٥٤.

(٤) محمّد جواد مشكور، موسوعة الفرق الإسلامية: ص ٣٨٥-٣٨٦.

(٥) شارل بللا، الجاحظ: ص ٢٥.

(٦) عن عوانة، قال: «كان كثير شهاب بن الحصين بن ذي الغصّة الحارثي عثمانيّاً يقع في عليّ بن أبي طالب، ويثبّط الناس عن الحسين». البلاذري، فتوح البلدان: ٢ / ٣٧٨.

(٧) فاروق عمر فوزي، تاريخ العراق في عصر الخلافة العربية الإسلامية: ص ٢٨.

وهو يدافع عنه: «ولا نقول فيه إذ كنّا عثمانيّة»^(١).

وكذلك يذكر ابن النديم في أخبار الجهمي: «ووقعت بينه وبين قوم من العمرّيين والعثمانيين شرّاً، فذكر سلفهم بأقبح ذكر»^(٢).

وألف الجاحظ كتابه (العثمانيّة) للتحدّث فيه عن الموافقين والمخالفين، مع ميل للعثمانيّة.

أمّا علاقة تسمية العثمانيّة بأهل البصرة، فقد أصبحت اسماً يطلقه كلّ مَنْ يحاول أن يعطي صورة عن وضع أهل البصرة في العصور المبكّرة من القرن الأوّل الهجريّ/ السّابع الميلاديّ، وما بعدها، وهذا ما وجدناه لدى بعض المعاصرين من المؤرّخين والكتاب^(٣).

وكان اتهام البصرة بالعثمانيّة خالياً عن أيّة وثائق تاريخيّة توضّح نسبتها للبصرة. أمّا بالنسبة إلى المؤرّخين الأوّلين، فإنّهم لا يعطوننا صورة واضحة عن تلك الفترة المهمّة التي انبثقت منها التسمية! ونسبتها إلى البصرة. وعلى هذا الأساس، لا يمكن معرفة حقيقة التسمية إلا بالرجوع إلى الأحداث التاريخيّة ذات الميزة القريبة من التسمية بالعثمانيّة، من أجل كشف منطلق صفة العثمانيّة هذه.

كان أوّل منطلق سياسيّ واضح لأهل البصرة مشاركتهم الثّوار الذين انطلقوا نحو مركز الخلافة في الحجاز من أجل تصحيح مسار عثمان بن عفّان، وتحميله مسؤوليّة التّغيير الذي طرأ على سياسة الخليفة، وقد ذكرنا دورهم في ما سبق،

(١) الجاحظ، العثمانيّة: ص ٩٤.

(٢) الفهرست: ص ١٢٤.

(٣) ماسينيون، خطط الكوفة: ص ١٤١؛ طالب السنجري، الفتن الكبرى: ص ٢٦؛ ثابت إسماعيل الراوي، العراق في العصر الأمويّ: ص ٢٤-٢٥.

ثم بدأ والي عثمان على مدينة البصرة حينئذٍ عبد الله بن عامر بن كريز بتحريض أهل البصرة على الطلب بدم عثمان، فقال: «إن خليفكم قُتل مظلوماً، ويبيعه في أعناقكم، ونصرته ميتاً كنصرته حياً»^(١). فهذه أوّل مبادرة من والي البصرة لكسب ودّ الناس وتحريضهم من أجل نصرته، وتحقيق مآربه في قضية مقتل عثمان، والطلب بثأره.

وهنا، كان على أهل البصرة أن يظهروا على حقيقتهم، ويبدوا نظرتهم وميولهم تجاه عثمان بن عفّان، فكان ردّهم قد جاء على لسان جارية بن قدامة، فقال: «يا ابن عامر، إنك لم تملكنا عنوة، وقد قُتل عثمان بحضرة المهاجرين والأنصار، وبإيع الناس علينا، فإن أقرّك، أطعنك، وإن عزلك، عصيناك»^(٢).

وقد كان ردّهم هذا ذا أهميّة كبيرة؛ إذ يعكس لنا مدى حياديّة أهل البصرة، واتّباع أمر أهل القبلة، فلو كانوا عثمانيّة، لكان ردّهم يختلف عما ذكر تماماً! فسكوتهم يعني مسايرة الأحداث المترقّبة بشأن الخليفة الجديد، وهذا يعكس لنا أمرين:

أولهما: أنّهم كانوا ينظرون إلى رجالهم الذين اشتركوا في قضية مقتل الخليفة. وثانيهما: متابعتهم الخليفة الجديد بالنسبة إلى مصرهم وواليه، الذي ربّما يُطرد عن إدارة البصرة.

وهذا ما حدث، وأقرّ الناس أمر أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب عليه السلام بشأن عزل عبد الله بن عامر وتولية عثمان بن حنيف سنة (٣٥هـ / ٦٥٥م)، فهذا التغيير الذي طرأ على الخلافة ومركز والي البصرة لم يلقَ أدنى معارضة من أهل البصرة،

(١) ابن حبان، الثقات: ٢ / ٢٧٤.

(٢) المصدر نفسه.

ولم تكن لهم ردود فعل بشأن الخليفة المقتول، بل على النقيض من ذلك اشتركوا في مقتله، فأين دور العثمانيّة في تلك الفترة التي تحتاج موقفهم؟!

ثمّ تبدأ الفتنة الكبرى بين أبناء الدين الإسلاميّ الجديد حول مراكز الحكم والإمارة، ومصلحة بعض أهل الأموال، الذين أدّوا دوراً كبيراً في التمهيد لنقل الصراع السِّياسي إلى أرض البصرة، وحدوث معركة الجمل، التي فرّقت المسلمين وعلى رأسهم أهل البصرة، الذين تفرّقوا إلى طوائف، فالبعض اتّبع أمير المؤمنين عليّ (عليه السلام)، والبعض الآخر وقف إلى جانب عائشة وأتباعها، وفريق ثالث لم يجد لنفسه بداً، فأمر المؤمنين من جهة، وأمّ المؤمنين من جهة أخرى، فاختلفوا إلى أيّ جهة ينضمّون، فحملهم ذلك على اعتزال الجهتين، وكان على رأس المعتزلين الأحنف بن قيس التميمي وغيره، فكانت تلك الفترة بداية الانقسام الحقيقي لأهل البصرة، الذين أصبحوا بين معارض ومساند ومحايدين.

وما إن انتهت معركة الجمل، التي أسفرت عن انتصار أمير المؤمنين (عليه السلام)، حتّى برزت شخصيّة قويّة معارضة في بلاد الشام، تتمثّلة بمعاوية بن أبي سفيان، الذي نهض ليتمّم ما بدأت به عائشة وطلحة والزبير، وليحافظ على مركزيّته في حكم بلاد الشام والاستقلال بها، فأصبح معاوية نقطة تجمّع العثمانيّة في بلاد الشام؛ إذ بدت الأمور واضحة من خلال إرسال معاوية كتاباً إلى أهل البصرة يدعوهم فيه إلى المطالبة بدم عثمان ونكث بيعة الإمام عليّ (عليه السلام)، وقد أرسل الكتاب إلى زياد بن أبيه، الذي كان يلي أمر الخراج بالبصرة^(١)، ويناوب عبد الله بن عبّاس في حالة غيابه عنها^(٢)، ويقول سليم بن قيس الهلاليّ: «إنّ معاوية استنفر الناس ودعاهم

(١) الطبريّ، تاريخ: ٥٤٦/٣.

(٢) يُنظر: ملحق رقم (١).

إلى الطلب بدم عثمان، وكان فيما يحضهم به أن قال: إن علياً قتل عثمان وأوى قتلته، وإنه يطعن على أبي بكر وعمر، ويدعي أنه خليفة رسول الله، وأنه أحق بالأمر منها^(١).

كان أثر الكتاب أن حمل جماعة من أهل البصرة على الطلب بدم قتلاهم الذين قُتلوا في معركة الجمل، ومن ثمّ، توجهوا إلى معاوية من أجل ثأرهم، ومما يعزّز قولنا هذا، كتاب معاوية إلى عمرو بن العاص -مستشاره في أموره- الذي جاء فيه: «أما بعد، فقد كان من أمر عليّ وطلحة والزبير ما قد بلغك، وقد سقط إلينا مروان في جماعة من أهل البصرة ممن رفض علياً وأمره»^(٢).

إن هذا الكتاب يُعطينا أوّل إشارة إلى أهل البصرة في انتماهم للعثمانيّة. وبعد استقرار الأمور في البصرة بعد معركة الجمل، حاول معاوية أن يكسب ميول أهلها عن طريق عبد الله بن عمرو بن الحضرمي^(٣)، الذي أرسله إلى البصرة لإحداث الفوضى، وكان ابن عباس غائباً عن البصرة، وكان الذي ينوب عنه في عمله زياد ابن أبيه، الذي بدوره كتب إلى الإمام عليّ عليه السلام بذلك الحدث: «إن ابن الحضرمي نزل دار بني تميم، ونعى عثمان... فشيعة عثمان يختلفون إلى ابن الحضرمي»^(٤).

(١) كتاب سليم: ص ٤٣٦.

(٢) البلاذري، أنساب الأشراف: ٧٢ / ٣؛ اليعقوبي، تاريخ: ١٢٨ / ٢؛ محمد باقر المحمودي، نهج السعادة: ٤٣٥ / ١.

(٣) عبد الله بن عمرو الحضرمي: حليف بني أميّة، وهو ابن أخي العلاء بن الحضرمي، قتل أبوه في السنة الأولى من الهجرة النبويّة، ويقال: إن عمر عبد الله بن الحضرمي عند وفاة أبيه تسع سنين، ثمّ مال إلى معاوية بن أبي سفيان، وقُتل بأرض البصرة حرقاً سنة ٣٨هـ. ابن حجر، الإصابة: ١٦٣ / ٤.

(٤) الطبري، تاريخ: ٨٥ / ٤.

ولما علم الإمام عليّ عليه السلام بما يقوم به ابن الحضرميّ من جمع الناقمين والخارجين على حكومته، قرّر إرسال أعين بن ضبيعة المجاشعيّ ليفرّقهم، فلمّا عرف ابن الحضرميّ بتلك الخطوة التدبيريّة من أجل إنهاء أمر تواجدته في البصرة، قام بتدبير اغتيال المجاشعيّ، وقد نجح بمهمّته، وعندها، قرّر الإمام عليّ عليه السلام إرسال جارية ابن قدامة السعديّ للاقتصاص من ابن الحضرميّ وتفريق أتباعه، ففرّقوا عنه، وانتهى أمره^(١).

إنّ هذه إشارة إلى العثمانيّة المتواجدين في البصرة، ويبدو أنّهم كانوا ذوي تقلّبات في الميول والأهواء، يسيرون وراء المغريات المادّيّة، ويخشون السّلطان، فهم لم يثبتوا في نهاية الأمر حول ابن الحضرميّ، بل بقي في نفرٍ قليل، وسوف نتحدّث عن ذلك بشيء من التفصيل في الفصل الثاني.

ثمّ جاء معاوية بن أبي سفيان إلى العرش سنة (٤٠هـ / ٦٦٠م)، فعارضه أهل البصرة، ولم يرغبوا بإمرته للمسلمين، ولم ينجح ولايته في إدارة البصرة خلال السنين الأولى من حكمه، فولّى زياد بن أبيه سنة (٤٥هـ / ٦٦٥م)، الذي أحكم بدوره السيطرة على البصرة، فلم تكن هناك معارضة تُذكر باستثناء ثورات الخوارج، وعليه، يقول أحد الباحثين: «لهذا ندر الذين يصرّحون علناً بولائهم السّياسيّ للهاشميّين، ومعارضتهم للأُمويّين؛ لأنّ مثل هذا الفعل سيؤدّي حتماً إلى قتلهم»^(٢).

وكان أهل البصرة يتحيّنون الفرصة من أجل إظهار ولائهم للعلويّين وانتخابهم في ولاية أمر مدينتهم، فبعد وفاة يزيد بن معاوية سنة (٦٣هـ / ٦٨٢م)،

(١) يُنظر: الطبريّ، تاريخ: ٨٥ / ٤.

(٢) د. عليّ نجيب عطوي، الكميت بن زيد الأسديّ: ص ٢٠٨.

تنفّس أهلها الذين عملوا على التخلّي عن عبيد الله بن زياد، بل خرجوا يطلبونه للقتل، فلهق بالشّام، فاختار أهل البصرة عبد الله بن الحارث الهاشمي^(١)، الذي سيأتي الحديث عنه في سياق البحث لاحقاً.

لقد كان هذا الاختيار بإرادة أهل البصرة، دون أن يتّبّعوا رأي الخلافة بالشّام، فيكون أهل البصرة قد مالوا إلى العلويين، فضلاً عن ذلك، فإنّ البصرة أصبحت معقل أنظار الشيعة الكوفيّين الذين غادروا الكوفة جرّاء استشهاد الإمام الحسين عليه السلام على أرضهم، فكرهوا الإقامة بتلك الأرض، ومن بينهم أبو عثمان النهدي^(٢)، الذي قال: «لا أسكن بلداً قُتل فيه ابن بنت رسول الله ﷺ، فتحول إلى البصرة»^(٣).

وعندما استولى مصعب بن الزبير على البصرة، خرج لقتال المختار بن أبي عبيدة الثقفي، وترك عبيد الله بن عليّ بن أبي طالب^(٤) على ولاية البصرة، فجاءه بعض

(١) يُنظر: الطبري، تاريخ: ٣٩٤ / ٤؛ وسوف نتحدّث عن هذه الأحداث في الفصل الثالث من هذا الكتاب.

(٢) أبو عثمان النهديّ: عبد الرّحمن بن مل، من قضاة، أدرك النّبي ﷺ ولم يره، توفيّ أوّل ولاية الحجاج على العراق بالبصرة، وكان من ساكني الكوفة. ابن قتيبة، المعارف: ص ٤٢٦؛ ويُنظر: ابن سعد، الطبقات الكبرى: ٩٧ / ٧.

(٣) ابن قتيبة، المعارف: ص ٤٢٦.

(٤) هو عبيد الله بن عليّ بن أبي طالب بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصي، أمّه ليلي بنت مسعود بن خالد، وكان عبيد الله قدم من الحجاز على المختار بالكوفة، وسأله أن يعطيه، فحبسه أياماً بالكوفة، ثمّ خلّى سبيله، فخرج هارباً من المختار إلى مصعب بن الزبير بالبصرة، وأمر له مصعب بمائة ألف درهم، ثمّ أخرجه معه لحرب المختار، فقتل عبيد الله أثناء القتال سنة (٦٧هـ). ابن سعد، الطبقات الكبرى: ١١٧ / ٥ - ١٨؛ الذهبي، تاريخ الإسلام: ١٨١ / ٥. وقضية عبيد الله بن عليّ ما زالت غامضة بها حاجة إلى البحث والتحقيق.

بني تميم، ودعوه إلى محلَّتهم، فانتقل إلى هناك، فبايعوه بالخلافة وهو كاره، يقول: «لا تعجلوا»^(١).

إنَّ هذه المبادرة من بني تميم إلى بيعة علويّ، تنفي ما اتَّهم به أحدهم البصرة من كونها عثمانيَّة بشكل عام^(٢).

ويقول المقدسيّ: «وأكثر أهل البصرة قدريّة، وشيعّة، ثمّ حنابلة»^(٣).

وقال أحمد بن أبي خيثمة، سمعتُ ابن معين يقول: «كان عليّ بن المدينيّ إذا قدم علينا، أظهر السنّة، وإذا ذهب إلى البصرة، أظهر التشيع»^(٤). فهذا النصّ يكشف لنا مدى تحفّظ النّاس بتلك الفترة تجاه السّلطة الحاكمة؛ خوفاً من بطشها، فكانوا متحفّظين إزاء كلّ خطوة يخطونها، أو كلمة ينطقون بها!

وأما ما قيل من أنّ سبب خروج عائشة وأتباعها للبصرة هو كونها عثمانيَّة^(٥)، فإنّ هذا الادّعاء لا يتطابق أبداً مع أسباب الخروج والأهداف الحقيقيّة الكامنة وراءه؛ فأهل البصرة هم الذين طردوا عامل عثمان بن عفّان عن مدينتهم كما ذكرناه سابقاً، فعندما التحق ابن عامر بركب عائشة وأتباعها الذين اجتمعوا في مكّة للخروج ضدّ سلطة الخليفة الجديد، قالوا لابن عامر: «فهلّا أقمّت كما أقام معاوية، فنكتفي بك ونأتي الكوفة، فنسدّ على هؤلاء القوم المذاهب»^(٦).

(١) الطبقات الكبرى: ١١٧/٥.

(٢) ماسينيون، خطط الكوفة: ص ١٤١.

(٣) أحسن التقاسيم: ص ١٢٦.

(٤) الذهبيّ، سير أعلام النبلاء: ١١ / ٤٧؛ وللمؤلّف نفسه، ميزان الاعتدال: ٣ / ١٣٩.

(٥) طالب السنجري، الفتن الكبرى: ص ٢٦.

(٦) الطبريّ، تاريخ: ٣ / ٤٧٠؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ٢ / ٥١٧؛ المرعشيّ، شرح إحقاق الحقّ: ٣٧ / ٤٥٨.

إنّ قولهم هذا يحمل في طيّاته أنّهم لم يكن همّهم البصرة إلّا لأهمّيّتها العسكريّة والسياسيّة بالذات؛ لكثرة مقاتليها، ودورها الفعّال في إرباك الوضع الداخليّ للدولة، بل همّهم السّيطرة على البصرة وتأليب أهلها ضدّ سلطة الإمام عليّ عليه السلام؛ إذ كانت فكرتهم تنطوي على سدّ كلّ مجال يمكن أن يستغلّه الطرف الخصم، «فنسّد على هؤلاء القوم المذاهب»، أي: استخدام القواعد العسكريّة (البصرة والكوفة) للارتكاز في عمليّتهم التي تستهدف الإطاحة بالحكومة الجديدة، لكنّهم فشلوا في مخطّطهم نتيجة لاستراتيجيّة الإمام عليّ العسكريّة؛ إذ لم يرسل من ينوب عنه في قتالهم، بل توجّه بنفسه إليهم لوضع حدّ للتصرّفات المشينة التي أربكت الوضع السّياسي للدولة؛ لأنّ الناكثين استغلّوا ضعف حجّة الناس، فاستخدموا شعار المطالبة بدم عثمان والاقتصاص من قاتليه! فقتلوا من أمسكوا به، واحتّمى البعض بعشائريهم، ينتظرون من يخلّصهم من قبضة الناكثين.

ويرى أحد الباحثين أنّ أهل البصرة كان أكثرهم عثمانيّة همّهم مصلحتهم التجاريّة ولا يُعيرون النّاحية السّياسيّة كبير اهتمام^(١). وهذا لا يتناسب مع الأحداث التي جرت على أرض الواقع، سيّما وأنّ أهل البصرة أصبحوا متحفّظين من النّاحية السّياسيّة؛ فقد بقوا على طاعة الإمام عليّ عليه السلام وبيعته التي ألزمتهم انتظار أمره، دون أن يتحمّسوا إلى تأييد الناكثين والخضوع لسلطوتهم.

وبصورة عامّة كانت الشّخصيّة البصريّة غامضة بعض الشيء، فهي تتقلّب مع الأحداث السّياسيّة؛ فمن جهة نجدّها تعارض حاكماً وتساند آخر، ومن جهة أخرى، لو كانت البصرة عثمانيّة، سيضعها ذلك في الجانب الأمويّ، وهو ما لم

(١) ثابت إسماعيل الراوي، العراق في العصر الأمويّ: ص ٢٤-٢٥.

يتحقَّق في البصرة، التي كانت مواقفها غير وديَّة من الأمويِّين بصورة عامَّة^(١). وكذا لا يمكن أن نجعل أهل البصرة ذوي ميول علويَّة؛ لأنَّ دور العلويِّين قد حجبهُ الأمويُّون؛ وذلك من خلال القضاء على كلِّ من حاول مساندتهم، أو تأييدهم، ومن ثمَّ أصبح همُّ النَّاسِ الابتعاد عن أعين السُّلطة قدر المستطاع، والامتنال لأوامرهم وقت الحاجة.

أمَّا السَّبب الرئيس الذي أشاع نسبة العثمانيَّة إلى البصرة وألصقها بها، فهو ما ذكر بشأن الدَّعوة العبَّاسيَّة؛ فعندما أراد محمَّد بن عليّ بن عبد الله بن العبَّاس^(٢) توجيه رجال الدَّعوة العبَّاسيَّة، أراد أن يبيِّن لهم ميول كلِّ مصر من الأمصار المهمَّة، ونسبة نجاح الدَّعوة فيها، فقال: «... أمَّا البصرة، فعثمانيَّة، تدين بالكفِّ، وتقول: كُنْ عبدَ الله المقتولَ ولا تَكُنْ عبدَ الله القاتل»^(٣).

وذكر هذا القول من وجه آخر: «أمَّا البصرةُ وسوادها، فقد غلب عليها عثمانُ،

(١) إبراهيم بيضون، الحجاز والدولة الإسلاميَّة: ص ٢٢١.

(٢) محمَّد بن عليّ بن عبد الله بن العبَّاس: ابن عبد المطلب، زعيم الدَّعوة العبَّاسيَّة قبل ظهورها، كان يسكن الحميمة من أرض السَّراة قريبة من معان، وكانت بها منازل بني العبَّاس، توفِّي سنة ١٢٦هـ، فأوصى إلى ابنه إبراهيم المعروف بالإمام. ابن خلِّكان، وفيات الأعيان: ٤ / ١٨٦؛ ويُنظر: أبو الفرج الأصفهاني، مقاتل الطالبيِّين: ص ٨٥؛ مؤلَّف مجهول، أخبار الدَّعوة العبَّاسيَّة: ص ١٦٠.

(٣) ابن قتيبة، عيون الأخبار: ص ١٤٧؛ ودُكر القول مع بعض الاختلاف اليسير لدى: مؤلَّف مجهول، أخبار الدَّولة العبَّاسيَّة: ص ٢٠٦؛ ياقوت الحموي، معجم البلدان: ٢ / ٣٥٢؛ ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة: ١٥ / ٢٩٣؛ نبيلة عبد المنعم داود، نشأة الشَّيعة الإماميَّة: ص ١١٦؛ جعفر مرتضى العاملي، حياة الإمام الرِّضا (عليه السلام): ص ٣٦٩.

وصنائع عثمان، فليس بها من شيعتنا إلا القليل...»^(١). ويقول شارل بللا: «إن هذه الوثيقة هي دون ريب مزورة»^(٢). وهذا ما يبدو لنا؛ لأنها بعيدة عن واقع البصرة السياسي، وواقع علاقتها بعثمان. وهناك مَنْ يرى أن هذا الاصطلاح لا يعني بالضرورة أن تكون البصرة ميّالة للأُمويين، ولا أنها ضدّ العلويين^(٣)؛ إذ إن دور البصرة في التشيع لم يكن يضارع دور غيرها، لا روائياً ولا كلامياً^(٤). ومن الراجح أن زعيم الدّعوة العبّاسيّة كان قد أراد أن يحافظ على رجالات الدعوة من الاصطدام بالبلد الذي يعارض أيّة حكومة، فضلاً عن قوّة القبائل هناك، ثم إن أمر الدّعاة وتفرّقهم في البلدان أعلن، والبصرة كانت تعيش اضطراباً سياسياً، ووصفت بأنها فتنة^(٥). وهذا الاضطراب بدوره سوف يزيد حالة الدّعوة سوء، وربّما يُطيح بها فيما إذا بثّت نحلّتها وعقيدتها بأرض البصرة، وعليه، تجنّب محمّد بن عليّ البصرة واضطرابها فوصفها بالعثمانيّة، وهذا فيما إذا كانت الرواية خالية من التشويه، لكي تصبح البصرة عثمانيّة^(٦). ومن المحتمل أن التسمية كانت ناتجة عن ثورات الخوارج في البصرة، فزعماء

(١) الجاحظ، رسائل الجاحظ: ١ / ١٣٤.

(٢) الجاحظ في البصرة: ص ٨٦.

(٣) فاروق عمر فوزي، العبّاسيون الأوائل: ص ١٤٤.

(٤) جعفر مرتضى العاملي، حياة الإمام الرضا عليه السلام: ص ٣٦٩.

(٥) خليفة بن خياط، تاريخ: ص ٣٢٦.

(٦) يُنظر: نزار المنصوري، النصرة لشيعة البصرة: ص ٤١.

بعض الخوارج قد استخدموا دعاية الطلب بدم عثمان ضدَّ الحُكَّامِ الأُمويِّين شعاراً لثوراتهم؛ أسوةً بعائشة من أجل كسب الأنصار وإثارة الفوضى، فالخرّيت ابن راشد كان يقول سرّاً للعُثمانيَّة: «أنا والله على رأيكم، قد قُتل عثمان مظلوماً، فأرضى كلَّ صنف منهم»^(١).

ثمَّ أنَّ العُثمانيَّة ظهرت بعد استشهاد الإمام عليٍّ (عليه السلام)؛ فقد ذكر النوبختي: «فلما قُتل الإمام عليٌّ، التقت الفرقة التي كانت معه والفرقة التي كانت مع طلحة والزبير وعائشة، فصاروا فرقة واحدة مع معاوية بن أبي سفيان»^(٢). أي: اتفقت بقيَّة الناكثين والقاسطين وتبعة الدُّنيا، وكلَّ مَنْ نصر معاوية أصبح يرى رأيه في عثمان، متبنيّاً الأفكار التي نادى بها الناكثون في البصرة، ومن ثمَّ رفع شعارهم لمواصلة عداوته مع الإمام عليٍّ (عليه السلام).

والظاهر أنَّ نجاح الأُمويِّين في الوصول إلى السُّلطة كان السبب الحقيقيّ لظهور كلمة العُثمانيَّة، فكان كلَّ مَنْ نصر معاوية يُعدّ عُثمانيّاً.

ونحن لا نتفق مع ما ذهب إليه أحد الباحثين عندما اختار أنَّ العُثمانيَّة تعني الحياد لا مساندة الأُمويِّين مساندة فعلية^(٣)؛ لأنَّ هذا الحياد لا يمكن أن يخدم الأُمويِّين في قضيتهم السَّياسِيَّة، ومن ثمَّ لا ينطبق عليهم المبدأ المذكور. هذا فضلاً عن كون اللَّقب قد ظهر في فترة لاحقة من مقتل عثمان جنباً إلى جنبٍ مع تحريض بني أُميَّة للرأي العام الإسلاميِّ للمطالبة بدمه لتحقيق أهداف الغرض منها الوصول العودَة لحكم الدولة الإسلاميَّة.

(١) ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ٢ / ٧١٨.

(٢) فرق الشيعة: ص ٦.

(٣) فاروق عمر فوزي، تاريخ العراق في عصر الخلافة العربيَّة الإسلاميَّة: ص ٢٨.

وعلى هذا، فالبصرة كانت ذات سلوكٍ سياسيٍّ مزدوجٍ بشكلٍ عامٍّ؛ فهي تحاول أن تُرضي السُّلطة الحاكمة في بعض الأحيان خوفاً من بطشها، لذلك، استغلَّت فترات الضعف من أجل التعبير عن سخطها وعدم رضاها بالوضع القائم وتآليب الوضع العامِّ فيها، فنسبة العثمانيَّة للبصرة واردة على بعض الفئات المتواجدة هناك، وهم الذين ارتبطت مصالحهم بمصلحة السُّلطة الأمويَّة.

ولا ننسى دور السُّلطة في نشر الصفة العثمانيَّة داخل البصرة والترويج لها؛ من خلال بناء المساجد واتخاذ سياسة العمل على تثقيف المجتمع البصريّ بثقافة الحاكم؛ إذ يروي أبو غسان البصريّ^(١): «بنى عبيد الله بن زياد مساجد بالبصرة تقوم على بُغض عليٍّ عليه السلام والوقيعة فيه، مسجد بني عديٍّ، ومسجد بني مجاشع، ومسجد كان في العلافين على فرضة البصرة، ومسجد في الأزدي»^(٢)، وخاصةً أنَّ المساجد كانت أفضل مكان للإعلام بحكم مركزها الدينيِّ والتعليميِّ، ومكان اجتماع النَّاس، ثمَّ تثقيف النَّاس على مناهج محدَّدة، وفي إطار مغلق.

(١) لكنَّه بهذا العنوان غير مذكور في كتب الرِّجال؛ إذ ذُكر تحت هذا الاسم: يحيى بن كثير بن درهم العنبريِّ مولا هم البصريِّ، أبو غسان، ثقة من التاسعة، مات سنة ستٍّ ومائتين. وذكر بهذا الاسم البعض، نذكر منهم: مالك بن الخليل الأزديِّ، أبو غسان البصريِّ، صدوق من كبار الحادية عشرة، مات سنة خمسين ومائتين. ابن حجر، تقريب التهذيب: ١٥٣/٢. وكذلك خصَّ آخر، وهو مالك بن سعد القيسيِّ، أبو غسان البصريِّ، صدوق. ابن حجر، المصدر نفسه، وأيضاً: معاذ بن العلاء بن عمَّار المازنيِّ، أبو غسان البصريِّ، صدوق. ابن حجر، تقريب التهذيب: ١٩٣/٢. لهذا من الصَّعب تحديد هويَّة قائل النصِّ أعلاه.

(٢) الثَّقفي، الغارات: ٥٥٨/٢؛ ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة: ٩٥/٤؛ المجلسي، بحار الأنوار: ٢٩٣/٣٤؛ ويُنظر: محمَّد الريشهريِّ، موسوعة الإمام عليٍّ بن أبي طالب: ٣٠٥/١١.

الفصل الثاني

البصرة في عهد الإمام عليّ بن أبي

طالب عليه السلام

المبحث الأول: عائشة وأهل البصرة ومعركة
الجمال الأصغر

المبحث الثاني: الصراع السياسي بين الإمام
عليّ عليه السلام وأهل الجمل في البصرة

المبحث الثالث: البصرة زمن ولاية عبد الله
ابن عباس

المبحث الرابع: البصرة زمن الإمام
الحسن عليه السلام

المبحث الأول

عائشة وأهل البصرة ومعركة الجمل الأصغر

بعد مقتل عثمان بن عفّان، بايع المسلمون الإمام عليّ بن أبي طالب عليه السلام بالخلافة، وكان أوّل مَنْ بايع طلحة والزبير^(١)، فلما تمّ أمر البيعة، بعث الإمام علي عليه السلام عماله على الأمصار، فكان عثمان بن حنيف^(٢) على البصرة، وعمار بن شهاب على الكوفة^(٣). فكانت ولاية المصرين البصرة والكوفة من عوامل الفتنة؛ لأنّ طلحة طلب من الإمام علي عليه السلام أن يتولّى أمر البصرة، وكذلك الزبير طلب الكوفة^(٤).

لقد كان طموح طلحة أكثر من توليته أمر البصرة، فقد كان يرغب في الاستيلاء على الخلافة بالكامل في آخر أيام عثمان بن عفّان؛ إذ عمل على السيطرة على بيت المال وتوزيع أمواله على الناس، ليتبعوه ويؤيدوه فيما كان يصبو إليه، لكنّه لم ينجح

(١) الطبريّ، تاريخ: ٣ / ٤٥١؛ المفيد، الجمل: ص ٦٥؛ الشبلنجيّ، نور الأبصار: ١ / ٣٤٤.
(٢) هو عثمان بن حنيف بن وهب بن عكيم بن ثعلبة بن الحارث الأنصاريّ، من بني عمرو بن عوف بن مالك بن الأوس، يكنى أبا عمرو، ولّاه عمر بن الخطّاب مساحة الأرضين وجبايتها، وضرب الخراج والجزية على أهلها، ثمّ ولّاه الإمام عليّ بن أبي طالب على البصرة. ابن عبد البرّ، الاستيعاب: ٣ / ١٠٣٣.

(٣) الدينوريّ، الأخبار الطّوال: ص ١٤١؛ ابن حبّان، الثقات: ٢ / ٢٧٣.

(٤) الطبريّ، تاريخ: ٣ / ٤٥٩.

في مسعاه، فقال: «أردتُ أمراً، فحال الله بيني وبينه»^(١).

ويذكر ابن قتيبة الاختلاف بين طلحة والزبير والإمام عليٍّ من زاوية أخرى؛ إذ يقول: «وذكروا أنَّ الزبير وطلحة أتيا عليّاً بعد فراغ البيعة، فقالا: هل تدري على ما بايعناك يا أمير المؤمنين؟ قال عليٌّ: نعم، على السَّمع والطاعة، وعلى ما بايعتم عليه أبا بكر وعمر وعثمان، فقالا: لا، ولكنَّا بايعناك على إنَّا شريكاك في الأمر، فقال عليٌّ: لا، ولكنكما شريكان في القول والاستقامة والعون على العجز والأود»^(٢).

وعلى هذا، فقد كان الأمر بنظر طلحة والزبير الشراكة في الحكم، وربما تقسيم الخلافة فيما بينهم، فطلبوا حينئذٍ من الإمام عليٍّ عليه السلام أن يوليَّهما على البصرة والكوفة، فقال لهما: «تكونان عندي، فأتمجمل بكما، فإنِّي وحشٌ لفراقكما»^(٣). فلما استبان لهما الأمر، وأنَّهما لن يحصلَّا على ولاية المدينتين، استأذنا الإمام عليّاً بادعاء الخروج إلى العمرة، فقال: «والله، ما تريدان العمرة، وإنَّما تريدان البصرة»^(٤).

أمَّا موقف عائشة، فيروي المدائنيُّ أنَّه «لما قُتل عثمان، كانت عائشة بمكة، وبلغ

(١) ابن شُبَّة، تاريخ المدينة: ٤/ ١١٩٩؛ الطبري، تاريخ: ٣/ ٤٥٣؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ٣/ ١٦٧؛ ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة: ٢/ ١٤٨؛ ضامن بن شدقم المدني، الجمل: ص ١٧.

(٢) الإمامة والسياسة: ١/ ٧١.

(٣) البلاذري، أنساب الأشراف: ٣/ ١٨؛ الطبري، تاريخ: ٣/ ٤٥١.

(٤) الطبرسي، إعلام الوري: ١/ ٣٣٧؛ وفي رواية أخرى: «إنَّما تريدان الفتنة»، ابن شهر آشوب، مناقب آل أبي طالب: ٢/ ٩٨؛ وفي أخرى: «إنَّما يريدان الغدرة»، الطبرسي، الاحتجاج: ١٩٦/١.

قتله إليها وهي شراف^(١)، فلم تشك في أن طلحة هو صاحب الأمر، وقالت: بعداً لنعثل^(٢) -تقصد عثمان- وسحقاً! إيه ذا الإصبع! إيه يا بن عم -تقصد طلحة-، لكأنني أنظر إلى إصبعه وهو يبايع له حثو الإبل، ودعدوها^(٣).

ويذكر أبو مخنف: «فلما انتهت إلى شراف، استقبلها عبيد بن أبي سلمة الليثي^(٤)، فقالت له: ما عندك؟ قال: قُتل عثمان، قالت: ثم ماذا؟ قال: ثم حارت بهم الأمور إلى خير محارٍ، بايعوا علياً، فقالت: لوددت أن السماء انطبقت على الأرض إن تم هذا، ويحك! أنظر ما تقول! قال: هو ما قلت لك يا أم المؤمنين، فولّت، فقال لها: ما شأنك يا أم المؤمنين، والله، ما أعرف بين لابتيها أحداً أولى بها منه ولا أحق -يعني: الإمام علياً- ولا أرى له نظير في جميع حالاته، فلماذا تكرهين ولايته؟! قال: فما ردّت عليه جواباً^(٥).

كانت عائشة تحاول صرف الخلافة عن أمير المؤمنين علي (عليه السلام)؛ لأنّها كانت

(١) شراف: موضع من أعمال المدينة، وكانت فيه وقعة لطية على بني ذبيان. البكري، معجم ما استعجم: ٣ / ٧٨٨.

(٢) النعثل: الشيخ الأحمق، ويقال: فيه نعثة، أي: حق. ابن منظور، لسان العرب: ١١ / ٦٦٩.

(٣) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة: ٦ / ٣٢٠؛ الأميني، الغدير: ٩ / ٨٢؛ ويُنظر: إدريس الحسني المغربي، الخلافة المغتصبة: ص ١٧٨. ودعدوها: جمع دعدع، وهي الأرض الجرداء التي لا نبات بها. ابن الأثير، النهاية في غريب الحديث: ٢ / ١١٩.

(٤) عبيد بن أبي سلمة الليثي: وهو الذي يقال له (عبيد بن أمّ كلاب)، وكان علويّاً، وله إدراك ورواية. ابن سعد، الطبقات الكبرى: ٥ / ٨٨؛ ابن حجر، الإصابة: ٥ / ٩٠.

(٥) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة: ٦ / ٣٢٠. ونقل الرواية باختلاف قليل كلاً من: ابن سعد، الطبقات الكبرى: ٥ / ٨٨؛ ابن أعثم، الفتوح: ٢ / ٤٣٧؛ المفيد، الجمل: ص ٨٦؛ الشريف المرتضى، الشافي في الإمامة: ٤ / ٣٥٧؛ الرازي، المحصول: ٤ / ٣٤٣.

راغبة في أن تكون لطلحة ابن عمّها دون سواه! ومن ثَمَّ، اصطدمت بنبأ خلافة عليّاً، فلم يسرّها ذلك؛ بسبب كرهها له، فكانت شديدة تجاهه^(١)، فبقيت في مكّة، وكان طلحة والزبير قد أظهرّا خلاف ما أضمرا، فحاولا تأليب النّاس ضدّ الخليفة الذي كانت بيعته في عنقيهما^(٢).

ثمّ قدم عبد الله بن عامر بن كريز عامل عثمان بن عفّان على البصرة، هرباً منها حين بايع النّاس الإمام عليّاً هناك، وانصرف عن اليمن يعلى بن منبه^(٣) عامل عثمان هناك، الذي «أعطى عائشة وطلحة والزبير أربعمائة ألف درهم وكرعاً وسلاحاً»^(٤)، حملها معه من اليمن.

وبعد اجتماع هؤلاء الأشخاص الناكثين^(٥) لبيعة الإمام عليٍّ عليه السلام، بدأوا

(١) طه حسين، الفتنة الكبرى/ عليّ وبنوه: ص ٢٥.

(٢) عبد الرّضا الزبيديّ، الرّسائل السّياسيّة بين الإمام عليٍّ ومعاوية: ص ٢١٩.

(٣) يعلى بن منبه: ويقال يعلى بن منية نسبة إلى اسم أمّه التي ينسب إليها، وهي منية بنت الحارث بن جابر بن منصور، ومنية عمّة عتبة بن غزوان، واسم يعلى أميّة بن أبي عبيدة من بني زيد مالك بن حنظلة، يقال: إنّ يعلى كان أغنى النّاس مالاً؛ إذ أعطى أبا سفيان بن حرب عشرة آلاف درهم زمن عثمان بن عفّان، ولما كان يوم الجمل، كان مع عائشة، وجّهز سبعين رجلاً من ماله. ابن قتيبة، المعارف: ص ٢٧٥-٢٧٦.

(٤) المسعوديّ، مروج الذهب: ٣/ ١٠٢. والكرع: اسم الخيل إذا قيل: الكراع والسّلاح. الخليل الفراهيديّ، كتاب العين: ١/ ٢٠٠.

(٥) جاء في حديث رسول الله ﷺ مع عليٍّ عليه السلام بحضور أمّ سلمة، «... واشهدي هذا عليّ بن أبي طالب سيّد المسلمين، وإمام المتّقين، وقائد الغرّ المحجّلين، وقاتل الناكثين، والمارقين، والقاسطين، فقال الإمام عليّ: يا رسول الله، مَنْ الناكثون؟ قال: الذين يبايعونك بالمدينة وينكثون بالبصرة، ثمّ قال ﷺ: مَنْ القاسطون؟ فقال الرسول ﷺ: معاوية وأصحابه من أهل الشّام. ثمّ قال الإمام عليه السلام: مَنْ المارقون؟ فقال رسول الله ﷺ: أصحاب النهروان. الصدوق،

بالتخطيط لكيفية التحريض ضد الخلافة الجديدة، وإفشال أمرها في قيادة الدولة الإسلامية، فنشأ الاختلاف فيما بينهم حول نقطة انطلاقهم، وأي الأمصار لها القدرة على تموينهم بما يحتاجونه من المقاتلين، وأيها أصلح من غيرها لإعلان تمردهم.

ويبدو من المستندات التاريخية أنّ وجهة انطلاق الناكثين كانت الشام^(١)، في حين كان هناك كتاب سابق أرسله معاوية بن أبي سفيان إلى الزبير بن العوام جاء فيه: «لعبد الله الزبير أمير المؤمنين، من معاوية بن أبي سفيان، سلام عليكم، أمّا بعد، فإنّي قد بايعتُ لك أهل الشام، فأجابوا واستوسقوا كما يستوسق الجلب^(٢)، فدونك الكوفة والبصرة، لا يسبقك إليها ابن أبي طالب، فإنّه لا شيء بعد هذين المصرين، وقد بايعتُ لطلحة بن عبد الله من بعدك...»^(٣).

والظاهر من كتاب معاوية هذا أنّه لم يرغب بالتصادم مع طلحة والزبير، أصحاب النفوذ والأموال في تلك الفترة، فيضعف أمره على الشام، وربّما تحوّل الصراع إلى الشام، وهذا ليس لمصلحة معاوية، الذي عمل على إلفات نظر الناكثين إلى البصرة والكوفة أولاً، ومن ثمّ احتفاظه باستقلاله بولاية الشام ثانياً، ومن ثمّ زجّ الزبير وطلحة في اتجاه غير الشام.

وهذا الموقف يعطينا تصوّراً جديداً لإحداث الاختلاف بين نيّة الناكثين التي

معاني الأخبار: ص ٢٠٤؛ الطوسي، الأمالي: ص ٤٢٥.

(١) الطبري، تاريخ: ٣/٤٦٩.

(٢) الجلب: الذين يجلبون الإبل والغنم للبيع. الجوهري، الصحاح: ١/١٠١.

(٣) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة: ١/١٧٥؛ ويُنظر: د. محمّد بحر العلوم، لمحات من الصراع السياسي: ١/٦٩.

كانت تدور بين المدينة والبصرة والكوفة؛ فعائشة كانت ترغب بالمدينة^(١)، وهذه الرغبة ناتجة عن سوء تدبير في الشأن العسكري؛ لأنَّ المدينة كانت قد بايعت الإمام عليّاً عليه السلام بيعة عامّة، ومن ثمَّ لا يمكنهم نكث تلك البيعة، فضلاً عن أنَّ المدينة غير مناسبة لإعلان تمرد جديد بعد ذلك الذي أطاح بالخليفة السَّابق، ويقول الريشهرى: «وعندما عزم الناكثون على محاربة أمير المؤمنين عليه السلام، صاروا يبحثون عن مدينة عسكريّة، ولم تكن هناك مدينة تحمل هذه الخصوصيّة غير البصرة والكوفة»^(٢). فدعاهم عبد الله بن عامر بن كريز، إلى البصرة، وقال: «البصرة؛ فإنَّ لي بها صنائع، ولهم في طلحة هوى»^(٣). فقالوا له: «قَبَّحَكَ اللهُ! فوالله، ما كنت بالمسلم ولا المحارب، فهلاً أقمّت كما أقام معاوية، فنكتفي بك، ونأتي الكوفة فنسدّ على هؤلاء القوم المذاهب»^(٤). فقال سعيد بن العاص^(٥) لطلحة والزبير: «إنَّ عبد الله بن عامر كلمه إلى البصرة، وقد فرّ من أهلها فرار العبد الآبق وهم في طاعة عثمان، ويُريد أن يقاتل بهم عليّاً وهم في طاعة عليّ، وخرج من عندهم أميراً، ويعود إليهم طريداً، وقد وعدكم الرّجال والأموال، فأما الأموال فعنده،

(١) الطبريّ، تاريخ: ٣/ ٤٧٠.

(٢) موسوعة الإمام عليّ بن أبي طالب: ٥/ ٧٣.

(٣) الطبريّ، تاريخ: ٣/ ٣٦٩؛ ويُنظر: الذهبيّ، تاريخ الإسلام: ٤/ ٢٥٩.

(٤) الطبريّ، تاريخ: ٣/ ٤٧٠.

(٥) سعيد بن العاص بن سعيد بن العاص بن أميّة: ولد عام الهجرة، وقتل أبوه العاص يوم بدر، وكان كافراً، قتله الإمام عليّ عليه السلام، وكان سعيد هذا أحد أشرف قريش، وأحد الذين كتبوا المصحف لعثمان بن عفّان، وقد استعمله الأخير على الكوفة، وله ذكر في الفتوح، توفي سنة ٥٩هـ. ابن عبد البرّ، الاستيعاب: ٢/ ٦٢٢.

وأما الرجال، فلا رجل»^(١).

لقد كان سعيد بن العاص ينبّه الناكثين إلى أن رجال البصرة ليسوا معهم في قضيتهم، وإذا صمّموا على الخروج إلى البصرة، فعليهم أن يتدبّروا هذا الأمر، في سبيل التأثير على أهل البصرة، من أجل صياغة الأمور حسب مصلحتهم، وما يشتهونه من مظاهر التآليب، فلم يكن أحدٌ من المسلمين بتلك الفترة قادراً على التأثير وإضلال العقول سوى أمّ المؤمنين عائشة؛ بحكم قربتها من رسول الله ﷺ، وعلى هذا الأساس، توجّهت أنظار طلحة والزبير إلى عائشة، التي كانت متعاطفة معهم ضدّ عليّ! فقالا لها: «إن أطعنا، طلبنا بدم عثمان»، قالت: «ومنّ تطلبون دمه؟»، قالوا: «إنّهم قوم معروفون، وإنّهم بطانة عليّ ورؤساء أصحابه، فاخرجي معنا حتّى نأتي البصرة في من تبعنا من أهل الحجاز، وإنّ أهل البصرة لو قد رأوك، لكانوا جميعاً يداً واحدة معك»^(٢).

لقد حاول طلحة والزبير استغلال مكانة عائشة من الرسول ﷺ وحقّ أمومة المؤمنين، وهذه الخصال كافية لجذب الأنصار لدعوتهم، التي سوف تنطلق خارج الحجاز نحو أرض قادرة على إعلان العصيان والتمرد بحكم تكوينها العسكري، وإنّ أهل البصرة ربّما سيحتجّون على دعوة أهل الحجاز؛ إذ يذكر الطبريّ قول طلحة والزبير لعائشة: «اشخصي معنا إلى البصرة، فإنّا نأتي بلداً مضيعةً، وسيحتجّون علينا فيه ببيعة عليّ بن أبي طالب، فتنهضينهم كما أنهضت أهل مكّة»^(٣).

(١) ابن قتيبة، الإمامة والسياسة: ١/ ٧٨.

(٢) الدينوريّ، الأخبار الطوال: ص ١٤٤؛ المرعشي، شرح إحقاق الحقّ: ٣٢/ ٤٥٧.

(٣) الطبريّ، تاريخ: ٣/ ٤٧٠.

لقد كانت الاحتياطات من قبل الناكثين حاضرة في جميع العقبات التي قد تعترضهم داخل البصرة، فضلاً عن عقليتهم العسكرية؛ بحكم الفترة التي خاضوها في حروب الإسلام ضدّ المشركين. فكان طلحة والزبير من الداخلين في البيعة أولاً، والمتزمين بها، ثمّ من المحرّضين ثانياً على نكثها^(١)، فبعدما أعدّوا العدة للخروج، طلبوا لعائشة جماً يحمل هودجها، فجاءها يعلى بن منبّه ببعيره المسمّى عسكرياً^(٢)، وكان عظيم الخلق، شديداً، فلما رآته، أعجبها، فلما عرفت اسمه، استرجعت، وقالت: «ردّوه، لا حاجة لي فيه»^(٣). وأمرت أن يُطلب غيره، فلم يجدوا لها ما يشبهه، فغيّروا زيتته وما كان عليه، فرضيت به^(٤).

ثمّ سعت عائشة في أن تصطحب معها أزواج النّبّي إلى البصرة، فأعرضن جميعاً عن هذا الخروج، إلّا حفصة بنت عمر بن الخطّاب، التي مالت إلى مساورة عائشة لمحاربة الإمام عليّ والتحريض ضدّه في البصرة، فحال أخوها عبد الله بينها وبين عائشة، فاعتذرت حفصة إلى عائشة، بقولها: «إنّ عبد الله حال بيني وبين الخروج»^(٥). فخرج القوم في ثلاثة آلاف رجل، ويزيد على أربعمئة بعير^(٦)،

(١) الأربليّ، كشف الغمّة: ٢٣٩ / ١.

(٢) الطبرسيّ، الاحتجاج: ١٩٩ / ١؛ الشبلنجيّ، نور الأبصار: ٣٥١ / ١.

(٣) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة: ٦ / ٢٢٤؛ المجلسي، بحار الأنوار: ٣٢ / ١٣٨؛ ويُنظر: لمياء حمادة، أخيراً أشرق الروح: ص ٨٤. وكان سبب رفض أمّ المؤمنين عائشة ركوب الجمل المسمّى عسكرياً، هو أنّ رسول الله ﷺ ذكر لها هذا الاسم، ونهاها عن ركوبه. ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة: ٦ / ٢٢٦.

(٤) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة: ٦ / ٢٢٥.

(٥) الطبريّ، تاريخ: ٣ / ٤٧٠؛ ابن الصبّاغ، الفصول المهمّة: ١ / ٣٧٢.

(٦) البلاذريّ، أنساب الأشراف: ٣ / ٢١؛ الطبريّ، تاريخ: ٣ / ٤٧١.

قاصدين البصرة، فلما أصبحوا في ذات عرق^(١)، خلا سعيد بطلحة والزبير، فقال: «إن ظفرتما لمن تجعلان الأمر؟ أصدقاني، قالوا: لأحدنا، أينما اختاره الناس»^(٢). فكان طلحة والزبير يرغبان في إرجاع أمر الخلافة حالة انتصارهما على الإمام علي (عليه السلام) شورى بين المسلمين حسب زعمهما، وحسب قولهما الشورى سوف تنحصر بين شخصيهما، لا ثالث لهما!

والظاهر من أصحاب الجمل عند خروجهم من مكة أنهم لم يتفقوا على قائد حقيقي يرجعون إليه في قراراتهم العسكرية والسياسية، لكن وجود أم المؤمنين عائشة جعلهم يرجعون إليها بالدرجة الأولى؛ كونها السند الحقيقي لتلك الجماعة الناكثة، فما إن ابتعدوا عن مكة، حتى وقع الاختلاف بين الزعيمين طلحة والزبير في إمامة الصلاة، «فقال عبد الله بن الزبير: على أبي عبد الله، وقال محمد بن طلحة: على أبي طلحة»^(٣).

ويبدو أن التنافس السياسي كان قد بدأ يتصاعد بين الزعيمين المتنافسين طلحة والزبير؛ فكل منهما يحاول أن يصل إلى زعامة جمعهم الخارج نحو البصرة، وبصورة أدق: أن يكون قائد الجيش، فالخلاف وقع في عسكرهما على من يصلي بالناس،

(١) ذات عرق: فلاة على جادة البصرة إلى مكة، يقع بين الشبكية والجورة، يأوي إليها اللصوص. ياقوت الحموي، معجم البلدان: ٣/ ٣٠١؛ ويُنظر: ابن منظور، لسان العرب: ١٠/ ٢٤٩.

(٢) الطبري، تاريخ: ٣/ ٤٧٢؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ٣/ ٢٠٩؛ الأميني، الغدير: ٩/ ١٠٥.

(٣) الطبري، تاريخ: ٣/ ٤٧٣؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ٣/ ٢٠٩؛ ابن الصبّاح، الفصول المهمة: ١/ ٣٧٩؛ محسن الأمين، أعيان الشيعة: ١/ ٤٥٠.

ولولا سعي عائشة بين المختلفين، لافتراقا خصمين متنافسين^(١)، فالجيش الذي خرج إلى البصرة كان متناقضاً في ما بينه، وبالأخصّ بين زعمائه، وهذا راجع إلى طبيعة تكوينه على أساس المصالح الشخصية، لا سيما أنّ الذين انضمّوا إلى ذلك الجيش هم أمراء عثمان على الأمصار، وأصحاب الأموال والمصالح التجارية، وذوو الطموح بالخلافة، فهذا الاختلاف كفيلٌ في اضطراب أمر ذلك الجيش.

ثمّ إنّ مصالحهم اصطدمت بعدالة الإمام عليّ عليه السلام وسياسته الجديدة لإعادة التوازن الاقتصادي والاجتماعي بين المسلمين. ويذكر ابن قتيبة أنّ سعيد بن العاص أشرف على الناس ومعه المغيرة بن شعبة، فكلم عائشة، وقال لها: «أين تريدان؟ قالت: البصرة، قال: وما تصنعين بها؟ قالت: أطلب بدم عثمان. قال: فهؤلاء قتلة عثمان معك. ثمّ أقبل على مروان، فقال له: وأنت أين تريد أيضاً؟ قال: البصرة. قال: وما تصنع بها؟ قال: أطلب قتلة عثمان، قال: فهؤلاء قتلة عثمان معك، إنّ هذين الرّجلين قتلا عثمان طلحة والزبير وهما يريدان الأمر لأنفسهما، فلمّا غلبا عليه، قالوا: نغسل الدّم بالدّم! والحبوة^(٢) بالتوبة!»^(٣).

فكان بعض الذين خرجوا مع عائشة تراودهم الشكوك حول مسيرهم ونتائجه التي تترتّب عليهم، فيما إذا فشلوا في مساعيهم للتحريض ضدّ أمير المؤمنين عليّ عليه السلام، فأعذارهم كانت ضعيفة، وطلبهم كان من أجل رغباتهم دون الإصلاح والاتجاه الصّحيح.

ثمّ إنّ الناس الذين سينزلون عليهم في طاعة عليّ عليه السلام، وسيسألونهم عن سبب

(١) عبّاس محمود العقّاد، موسوعة العقّاد: ٩٥ / ٢.

(٢) الحبوة: الإثم، ويقال: حبت بكذا: أي: أثمت. الجوهري، الصّحاح: ١١٦ / ١.

(٣) الإمامة والسّياسة: ٨٢ / ١؛ الأميني، الغدير: ١٠٧ / ٩.

مقدمهم إلى مصرهم، ومن ثم سيكشف زيف الدّعاة بطلب الثّار، والإمام عليّ غير تاركهم وما يسعون إليه، وهذا ما حمل سعيد بن العاص على أن يلحق باليمن، والمغيرة بن شعبة بالطائف^(١).

ولما انتهى القوم إلى ماء الحوآب^(٢) في طريقهم ومعهم عائشة، نبحتها كلاب الحوآب، فقالت لمحمد بن طلحة: أيّ ماء هذا؟ قال: هذا ماء الحوآب، فقالت: ما أراني إلّا راجعة! قال: ولم؟ قالت: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول لنسائه: «كيف بإحداكنّ تنبح عليها كلاب الحوآب؟! وإياك أن تكوني أنتِ يا حُميراء»^(٣). فقال لها محمد بن طلحة: تقدّمي ودعي هذا القول، وأتى عبد الله بن الزبير، فحلف لها بالله لقد خلّفته أوّل الليل، وأناها بيّنة زور^(٤)، ويذكر المسعوديّ، أنّه جاء بخمسين رجلاً ممّن كان معهم، فشهدوا بذلك^(٥)، فقليل: إنّها أوّل شهادة زور شهد بها في الإسلام^(٦).

وقد يسأل سائل: هل كانت عائشة بحاجة إلى الشهود الخمسين ليؤدّوا يميناً

(١) الإمامة والسياسة: ٨٢ / ١.

(٢) الحوآب: ماء من مياه العرب على طريق البصرة، وهو منزل بين البصرة ومكة. ياقوت الحمويّ، معجم البلدان: ٣١٤ / ٢.

(٣) ابن حنبل، المسند: ٥٢ / ٦؛ ابن راهويه، المسند: ٣٢ / ٢؛ الحاكم النيسابوريّ، المستدرک ٣ / ١٢٠؛ ويُنظر: ابن كثير، البداية والنهاية: ٦ / ٢٣٦.

(٤) ابن قتيبة، الإمامة والسياسة: ٨٢ / ١؛ ويُنظر: محمد صادق النجميّ، أضواء على الصّحّاحين: ص ١٠٥.

(٥) مروج الذهب: ٣٩٥ / ٢؛ وفي رواية أخرى: «إنّ عددهم أربعون رجلاً». اليعقوبيّ، تاريخ: ١٢٥ / ٢.

(٦) ابن قتيبة، الإمامة والسياسة: ٨٢ / ١.

كاذباً أمامها حتّى تصدّق قولهم بأنّ هذه الكلاب ليست كلاب الحوَّاب، التي أخبرها عنها رسول الله ﷺ، ولكي تبرّر خروجها وقيادة الجيش لمحاربة أمير المؤمنين عليّ عليه السلام؟

إنّ عائشة كانت تعلم في قرارة نفسها علم اليقين أنّها خارجة على الإمام عليّ، وإنّما مخالفة بذلك الخروج لأمر الله ﷻ: «وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ»^(١)، ولأمر الرسول الأكرم ﷺ في الحديث الذي ذكرناه، ولكنّ المجيء بالشهود الزور من قبل عبد الله بن الزبير، وتصديق عائشة لتلك الشهادة الباطلة، ما هي في الحقيقة إلّا عمليّة تسويق وحيلة لتبرير خروجهم ليس إلّا، أو كما قيل: لذر الرّماد في العيون. ومن ثمّ، تركت أمّ المؤمنين حديث الرسول، وقدمت مع أتباعها حتّى وصلوا إلى فناء البصرة، فلقاهم عمير بن عبد الله التميميّ^(٢)، فقال: «يا أمّ المؤمنين، أنشدك بالله أن تقدمي اليوم على قوم تراسلي منهم أحداً فيكفيكم، فقلت: جئتني بالرأي، وأنت امرؤ صالح»^(٣).

ويبدو أنّ عميراً هذا فتح لعائشة وأتباعها طريقاً يمهّد لهم عمليّة الاتصال بأهل البصرة، ومعرفة ردود أفعالهم تجاه مقدمهم، فعملت على تعجيل هذا الأمر بدسّ عبد الله بن عامر لصنائه^(٤)، الذين يتوقّف عليهم مدى نجاح الناكثين في دخول البصرة، وكسب أهلها إلى جانبهم ضدّ أمير المؤمنين عليه السلام.

والمهمّ في هذا الحدث هو دخول ابن عامر بالخفاء والحذر دون أن يشاهده

(١) سورة الأحزاب، آية (٣٣).

(٢) عمير بن عبد الله التميميّ: لم أعثر على ترجمة له.

(٣) الضبّيّ، الفتنة ووقعة الجمل: ص ١٢١؛ الطبريّ، تاريخ: ٣/ ٤٧٩.

(٤) الطبريّ، تاريخ: ٣/ ٤٧٩.

الناس، وهذا واضح من خلال قول الطبري: «فاندس إلى البصرة»^(١). ما يعني أن ابن عامر كان قد أصبح منبوذاً ذلك الوقت، ولا نعلم ما إذا كانت هناك مراسلات بين ابن عامر وأتباع عائشة بالنسبة إلى أهل البصرة وردود أفعالهم عندما دخل المدينة، وبقي أتباع عائشة ينتظرون نتيجة دخوله؟ فابن قتيبة، يذكر أن الزبير سأل عبد الله بن عامر حول رجالات البصرة ومراكزهم^(٢).

إن عملية دخول ابن عامر كانت الخطوة الأولى، لتبدأ رُسل طلحة والزبير إلى رجال أهل البصرة بعدها، فيذكر أنهم كانوا ثلاثة كلهم سيّد مطاع، وهم: كعب بن سور^(٣) في قبائل اليمن، والمنذر بن ربيعة^(٤) في قبائل ربيعة، والأحنف بن قيس التميمي في مضر^(٥)، أما الطبري، فيذكر أنهم كتبوا إلى الأحنف وصبرة بن شيان^(٦)، وأمثالهما من الوجوه^(٧).

ولربما كانت الكتب قد شملت أكثر من هؤلاء المذكورين الذين تمت مراسلتهم

(١) تاريخ الطبري: ٤٧٩/٣؛ ابن خلدون، تاريخ: ٢، ٢ / ١٥٥.

(٢) الإمامة والسياسة: ٧٩ / ١.

(٣) هو كعب بن سور بن بكر بن ثعلبة بن سليم بن ذهل بن لقيط الأزدي، أدرك النبي ﷺ، وهو قاضي البصرة أيام عمر بن الخطاب، وروي له أحكام وأخبار، شارك في معركة الجمل مع عائشة، وقتل يومها. ابن الأثير، أسد الغابة: ٢٤٢ / ٤.

(٤) المنذر بن ربيعة: لم يذكروا له ترجمة، ولكن، يفهم من كتاب طلحة والزبير إليه أنه سيّد ربيعة في أيامه على أثر أبيه. يُنظر: ابن قتيبة، الإمامة والسياسة: ٤٨ / ١.

(٥) ابن قتيبة، الإمامة والسياسة: ٧٩ / ١.

(٦) صبرة بن شيان الأزدي: كبير الأزدي في أيامه، ويرجع نسبه إلى بني حذّان من أزد شنوءة، له ذكر في الفتوح، وكان زعيم الأزدي في معركة الجمل وقائدهم تحت لواء عائشة، وبقي حياً حتى أيام معاوية بن أبي سفيان. يُنظر: ابن حجر، الإصابة: ٣ / ٣١٤؛ الزركلي، الأعلام: ٣ / ٢٠٠.

(٧) الطبري، تاريخ: ٤٧٩ / ٣؛ ويُنظر: الضبي، الفتنة ووقعة الجمل: ص ١٢١.

أيضاً، والدافع وراء هذا الأمر، كسب المزيد من كبار أهل البصرة الذين يستطيعون التأثير المباشر على قبائلهم وتوجيههم إلى صفوف عائشة وأتباعها، فكتب طلحة والزبير إلى كبار أهل البصرة، فوجّه كتاباً إلى كعب بن سور قاضي البصرة آنذاك، جاء فيه: «أمّا بعد، فإنّك قاضي عمر بن الخطّاب، وشيخ أهل البصرة، وسيّد أهل اليمن، وقد كنت غضبت لعثمان من الأذى، فأغضب له من القتل. والسّلام»^(١). وكتبوا إلى الأحنف بن قيس: «أمّا بعد، فإنّك وافد عمر، وسيّد مضر، وحليم أهل العراق، وقد بلغك مصاب عثمان، ونحن قادمون عليك، والعيان أشفى لك من الخبر. والسّلام»^(٢).

وكتبوا إلى المنذر بن ربيعة: «أمّا بعد، فإنّ أباك كان رئيساً في الجاهليّة، وسيّداً في الإسلام، وإنّك من أبيك بمنزلة المصلّي من السّابق، يقال: كان أو لحق، وقد قتل عثمان من أنت خير منه، وغضب له من هو خير منك. والسّلام»^(٣).

إنّ الهدف من هذه الكتب كان تحقيق غاية طلحة والزبير في التحريض والنهوض للأمر الذي التزموا به، وتذكير رجال البصرة بأيّام الجاهليّة، ومراكزهم الاجتماعيّة في تلك الفترة، التي يجب أن يلتزموا بها تبعاً للعصبيّة القبليّة التي تعشش في عقول الناس، فعمل طلحة والزبير على إحيائها في نفوس أهل البصرة، وركّزوا على التأثير عن طريق المناصب والمنافع، وهذه السّياسة ربّما تؤثر على فكرهم الذي ما زال يخضع لأحكام الجاهليّة حينئذٍ.

(١) ابن قتيبة، الإمامة والسّياسة: ٨٠ / ١.

(٢) ابن قتيبة، الإمامة والسّياسة: ٨٠ / ١؛ ضامن بن شدقم المدني، الجمل: ص ٣٦؛ المرعشي، شرح إحقاق الحق: ٣٢ / ٤٥٨؛ عليّ الأحدي الميانجي، مواقف الشّيعه: ٣٧٣ / ٢.

(٣) ابن قتيبة، الإمامة والسّياسة: ٨٠ / ١؛ ضامن بن شدقم المدني، الجمل: ص ٣٦.

أما كتاب الأحنف بن قيس، فذكروا أنهم قادمون عليه، فربما حملهم ذلك التوجّه لقوّة تميم ودورها السّياسي في البصرة، وما تستطيع أن تفعله من أجلهم. ولما وصلت كتب طلحة والزبير إلى كبار أهل البصرة، رفضوا تلك الدّعوات، وتظاهروا بعدم الرّضا والانجرار وراء زعماء قريش وأمثالهم من المعارضين للخلافة الجديدة، فقالوا: «ما لنا وهذا الحيّ من قريش؟! أيريدون أن يخرجونا من الإسلام بعدما دخلنا فيه، ويدخلونا في الشّرك بعدما خرجنا منه؟! قتلوا عثمان، وبايعوا عليّاً، لهم ما لهم، وعلينا ما عليهم»^(١).

ولما أصبح موقف أهل البصرة الرّفص لتلك الدّعوات الباطلة التي قدمتهم عن طريق الكتب التي أرسلت إليهم، كتبوا جوابهم إلى عائشة وأتباعها الذين كانوا حينئذٍ متواجدين بالحفير^(٢) ينتظرون جواب كبار أهل البصرة^(٣). فكتب كعب بن سور إلى طلحة والزبير: «أما بعد، فإنّا غضبنا لعثمان من الأذى والغير باللسان، فجاء أمر الغير فيه بالسّيف، فإن يك عثمان قُتل ظالماً، فما لكم وله؟ وإن كان قُتل مظلوماً، فغير كما أولى به، وإن كان أمره أشكل على من شهده، فهو على من غاب عنه أشكل»^(٤).

وكتب الأحنف إليهم: «أما بعد، فإنّه لم يأتنا من قبلكم أمر لا نشكّ فيه إلّا قتل عثمان، وأنتم قادمون علينا، فإن يكن في العيان فضل، نظرنا فيه ونظرتم، وإلّا

(١) ابن قتيبة، الإمامة والسّياسة: ٨٠ / ١؛ المرعشي، شرح إحقاق الحقّ: ٤٥٨ / ٣٢.

(٢) الحفير: موضع بين مكّة والبصرة. ياقوت الحمويّ، معجم البلدان: ٢ / ٢٧٧.

(٣) الطبريّ، تاريخ: ٤٧٩ / ٣.

(٤) ابن قتيبة، الإمامة والسّياسة: ٨٠ / ١؛ ضامن بن شدقم المدنيّ، الجمل: ص ٣٨؛ المرعشي،

شرح إحقاق الحقّ: ٤٥٢ / ٣٢.

يكن فيه فضل، فليس في أيدينا ولا في أيديكم ثقة»^(١).

وكتب المنذر: «أما بعد، فإنَّه لم يلحقني بأهل الخير إلَّا أن أكون من أهل الشرِّ، وإنَّما أوجبَ حقَّ عثمان اليومَ حقُّه أمس، وقد كان بين أظهركم فخذلتموه، فمتى استنبطتم هذا العلم وبدا لكم هذا الرأي؟!»^(٢).

ذكرنا نصوص هذه الكتب لما لها من أهميَّة في كشف حقيقة تلك الدعوة التي تهدف للمطالبة بدم عثمان وإحقاق الحقِّ حسب زعم الناكثين، ثمَّ إنَّ ردود كبار أهل البصرة كانت تأمل في تعديل وجهة الناكثين وعدم قدومهم إلى البصرة ووقوع الفتنة بين أهلها، ومن ثمَّ يحدث ما يكرهه العامَّة، حتَّى أن ردَّ المنذر على كتاب طلحة والزبير كان يستبطن بعض السخريَّة للمقابل؛ فهو قد اتَّهمهم بأنَّهم من أهل الشرِّ، وهذا الشيء الوحيد الذي يفصله عن أن يصل إلى منصب أهل الجاه والنفوذ والأموال من أهل قریش زعماء التمرد مع عائشة، ثمَّ إنَّ المنذر يرى أنَّ طلحة والزبير قد عملا برأيهما دون أن يستنبطا أحكام الدِّين الإسلاميِّ من أصحابه، فسخرًا الرأي المناسب لخدمتهما، ثمَّ يحاولان أن يفرضاه على غيرهم من المسلمين حتَّى يقوى صفَّهم، دون أن يتمادوا بوجهة نظرهم، ومن يعارضهم يعدُّونه مخالفًا لنهجهم، فيُجهضوا عليه، الأثر الذي سنجده عند دخولهما البصرة. أمَّا بالنسبة إلى عائشة وأتباعها، فلم يغيِّر موقف كبار أهل البصرة من عزمهم شيئًا، بل تمسَّكوا برأيهم، وتوجَّهوا إلى البصرة دون خشية أهلها، الذين بقوا حتَّى تلك اللَّحظة بعيدين عن التعاطف مع الناكثين، فنزل أتباع عائشة حفرة

(١) ابن قتيبة، الإمامة والسياسة: ٨٠ / ١.

(٢) ابن قتيبة، الإمامة والسياسة: ٨٠ / ١.

أبي موسى^(١)، فوصل خبرهم إلى عثمان بن حنيف والي البصرة من قبل الإمام علي (عليه السلام)، وكان عنده حكيم بن جبلة العبدي^(٢)، الذي طلب من ابن حنيف أن يخرج إلى ملاقة الناكثين، وعدم السماح لهم بدخول البصرة، فقال له عثمان بن حنيف: «توقف عن ذلك حتى أراسلهم، فقال له حكيم: إنا لله، هلكت والله يا عثمان»^(٣).

ويبدو أن حكيم بن جبلة أراد أن يقطع السبيل أمام الناكثين، وعدم إعطائهم الوقت الكافي الذي هم بحاجة إليه من أجل تثبيت أقدامهم في البصرة، ليعملوا بعد ذلك على تحريض أهلها، لكن والي البصرة لم يسمح لحكيم بن جبلة بمناهضة الناكثين، بل طلب منه التريث حتى يرأسلهم ويرى أمرهم، فربما عدلوا ورجعوا إلى حيث كانوا مستقرين، فوجه إليهم عمران بن حصين^(٤)، وأبا الأسود الدؤلي،

(١) حفرة أبي موسى: موضع بالبصرة، بين فلج وفليج وهو على خمس مراحل من البصرة، وهو نهر ينسب إلى أبي موسى الأشعري. البكري، معجم ما استعجم: ٤٥٧/٢.

(٢) حكيم بن جبلة العبدي: من عبد القيس، أدرك النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) وكان رجلاً صالحاً له دين، مطاعاً في قومه، وهو الذي بعثه عثمان بن عفان إلى السند، فنزلها، وأخبر عثمان عن أحوالها عندما سأله عنها، ثم أصبح حكيم يعيب على عثمان بسبب توليته عبد الله بن عامر ولاية البصرة، ولما قدمت عائشة وأتباعها البصرة، لم يكن يسمح لهم بدخولها، فقاتلهم بسبعمائة فارس من أهل البصرة قبل وصول الإمام علي البصرة، فسميت تلك المعركة بمعركة الجمل الأصغر، وقد قُتل حكيم فيها. ابن عبد البر، الاستيعاب: ٣٦٦/١؛ ابن الأثير، أسد الغابة: ٣٩/٢؛ الخوئي، معجم رجال الحديث: ١٩٤/٧.

(٣) المفيد، الجمل: ص ١٤٧؛ الصفدي، الوافي بالوفيات: ٨٠/١٣.

(٤) عمران بن حصين: ينتهي نسبه إلى خزاعة، يكنى أبا نجيذ بابنه نجيذ بن عمران، روى عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) عدة أحاديث، أسلم عام خيبر، وغزا عدة غزوات، أرسله عمر بن الخطاب إلى البصرة ليفقه أهلها، مات سنة ٥٢ هـ. ابن عبد البر، الاستيعاب: ١٢٠٨/٣.

فخرجوا حتَّى دخلوا على عائشة^(١)، فقالوا لها: «ما حملك على المسير؟ فقالت: غضبتُ لكما من سوط عثمان وعصاه، ولا أغضب أن يُقتل؟! فقالوا لها: وما أنت من سوط عثمان وعصاه، وإنَّما أنتِ حبيس رسول الله ﷺ؟! وإنَّا نذكرك الله أن يراق الدِّماء في سبيلك، فقالت: وهل من أحد يقاتلني؟! فقال لها أبو الأسود الدؤلي: نعم، قتالاً أهونه شديد»^(٢).

أمَّا الطبري، فيذكر قولها: «ننهض في الإصلاح ممَّن أمر الله ﷻ وأمر رسول الله ﷺ الصَّغير والكبير، والذكر والأنثى، فهذا شأننا إلى معروف نأمركم به ونحضكم عليه، ومنكر ننهاكم عنه ونحثكم على تغييره»^(٣).

ويذكر الإسكافي ردّها على عمران بن حصين، بقولها: «إنَّما مصلحة، ألمُّ ولا أشعثُ»^(٤)، وأجمع ولا أفرق، فقال لها عمران بن حصين: إتَّقِ الله يا أمَّ المؤمنين؛ فإنَّ الله إنَّما عَظَّمَكَ وشَرَّفَكَ في أعين النَّاسِ ببني هاشم، فاتَّقِ الله واحفظي قرابة عليٍّ من رسول الله ﷺ، وحبّه إيَّاه»^(٥).

وفي حديث عائشة مع أبي الأسود الدؤلي دلالة واضحة على أنَّها لم تضع في الحسبان اعتراض المسلمين في البصرة على أمرها، ومقاومتها، فكانت ترى أنَّ الجميع سوف ينصاعون إلى أمرها، حتَّى فاجأها أبو الأسود بأنَّ أهل البصرة

(١) الطبري، تاريخ: ٣/ ٤٧٩؛ المقرئ، إمتاع الأسماع: ١٣/ ٢٣٢.

(٢) المفيد، الجمل: ص ١٤٧؛ ويُنظر: ابن قتيبة، الإمامة والسياسة: ١/ ٨٤؛ شرف الدِّين الموسوي، النص والاجتهاد: ص ٤٣٦.

(٣) تاريخ الطبري: ٣/ ٤٧٩.

(٤) أشعث: أي: أجمع ما تفرَّق من أموركم. الحربي، غريب الحديث: ٢/ ٥٨٨.

(٥) المعيار والموازنة: ص ٥٧.

سوف يقاتلونها «قتالاً أهونه شديد».

فكان أمر رسولي ابن حنيف هو محاجة الناكثين ومعرفة حقيقة أمرهم في القدوم إلى البصرة، وقد حاولا التأثير على عائشة قدر الإمكان، سواء عن طريق قرابة الإمام علي من رسول الله صلى الله عليه وآله، القرابة التي يجب عليها أن تلتزم بها، وهي التي شرفتها في أعين الناس بمنزلة الأمومة، وأنها ليست من طلب الدم وحضور القتال في شيء، فلم تتمكن أم المؤمنين عائشة من مواصلة الحديث مع رسولي ابن حنيف والردّ عليها، فقالت لهما: «إلقيا طلحة»^(١).

وعندما لقيا طلحة، قالوا له: «ما أقدمك؟ قال: الطلب بدم عثمان، قالوا: ألم تباع علياً؟ قال: بلى، واللجج^(٢) على عنقي، وما أستقيل علياً إن هو لم يُحل بيننا وبين قتلة عثمان»^(٣).

ثم ذهبوا إلى الزبير بن العوّام، فقال مثل قول طلحة، فرجعوا إلى أم المؤمنين، فودّعاها، فودّعت عمران بن الحصين، وقالت: يا أبا الأسود، إياك أن يقودك الهوى إلى النار، وتلت قوله تعالى: ﴿كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ﴾^(٤)، فسرحتها، ونادى منادياها بالرحيل^(٥).

انتهت مساعي عمران بن الحصين وأبي الأسود الدؤليّ دون جدوى تذكر، بل

(١) الإسكافي، المعيار والموازنة: ص ٥٨؛ ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة: ٣١٣/٩.

(٢) اللجج: السيف، تشبيهه بلج البحر. الجوهرى، الصحاح: ٣٣٨/١؛ ابن منظور، لسان العرب: ٣٥٤/٢.

(٣) الطبري، تاريخ: ٤٨٠/٣؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ٥٧٤/٢.

(٤) سورة المائدة، آية (٨).

(٥) الطبري، تاريخ: ٤٨٠/٣.

طلبت أم المؤمنين عائشة منهما أن ينضمّا إليها ضدّ الإمام عليٍّ عليه السلام، فما كان أمرهما إلّا أن رجعا إلى عثمان بن حنيف، فبادر أبو الأسود الدؤليّ، قائلاً:

يا ابنَ حُنيفٍ قد أُتيتَ فأنصر
وبادرِ القومَ وجالد وأصبر

وابرز لهم مستلثماً وشمّر^(١).

وبهذا، لم تُفلح طريقة أبي الأسود وعمران بن حصين مع عائشة وطلحة والزبير في ردّهم عن دخول البصرة، بل رجعا دون أن يتمكّنا من تغيير أمر الناكثين وتعديل رأيهم إلى الرجوع من حيث أتوا.

ويبدو من أبيات الشعر الماضية إشارة أبي الأسود إلى وقوع القتال لا محالة، وعلى عثمان بن حنيف أن يكون حاضراً للإجراءات اللازمة مع تطوّر الأحداث، وعليه أن يتخذ التدابير اللازمة بحكم منصبه في ولاية البصرة وإدارتها.

ثم إن موقف كبار أهل البصرة كان مرتبكاً، سيّما أنّ القادم عليهم قريبة رسول الله ﷺ، وبجانبها كبار الصّحابة، ولا يعلمون كيف يقاتلونهم؟^(٢).

ثم إنهم كانوا يعرفون نتيجة دخول الناكثين البصرة، فيقول عمران بن حصين لعثمان بن حنيف: «أي والله، لتعركنكم عراكاً طويلاً، ثم لا يساوي ما بقي منكم كثير شيء»^(٣)، فكأنّه وصف الحال قبل وقوعه، وما سيحلّ بأهل البصرة، وأن

(١) البلاذريّ، أنساب الأشراف: ٣/ ٢٤؛ الطبريّ، تاريخ: ٣/ ٤٨٠؛ ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة: ٩/ ٣١٣؛ ابن كثير، البداية والنهاية: ٧/ ٢٥٩؛ ابن معصوم، الدّرجات الرفيعة: ص ٣٨٣.

(٢) د. جواد كاظم النصر الله، شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد المعتزليّ/ رؤية اعتزاليّة عن الإمام عليٍّ عليه السلام: ص ٣٠٦.

(٣) الطبريّ، تاريخ: ٣/ ٤٨٠؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ٢/ ٥٧٤؛ ابن كثير، البداية والنهاية: ٧/ ٢٥٩؛ المقرئزيّ، إمتاع الأسماع: ١٣/ ٢٣٣.

عثمان بن حنيف سوف يفقد منصبه، وتزول أهميته بزوال منصبه، فترك عمران القوم ولزم بيته^(١)، فكانت هذه أوّل بادرة ضعف في موقف أهل البصرة، فتخاذل بعضهم في الوقوف إلى جانب واليهم؛ خشيةً من عائشة وأتباعها، فلم يجدوا الحلّ إلّا بالاعتزال وترك الأمور حتّى يأتي أمر الإمام علي عليه السلام^(٢).

أمّا ابن حنيف، فثبت في مكانه، ونادى في الناس، وأمرهم بالتهيؤ وحمل السلاح والاجتماع إلى المسجد الجامع، فأراد ابن حنيف أن يعرف أمر أهل البصرة وأنهم معه أو ضده، فأمر رجلاً يخطب بالناس، فقال: «إنّ هؤلاء القوم الذين جاؤوكم، إن كانوا جاؤوكم خائفين، فقد جاؤوا من المكان الذي يأمن فيه الطير، وإن كانوا جاؤوكم يطلبون بدم عثمان، فما نحن بقتلة عثمان، أطيعوني في هؤلاء القوم فردّوهم من حيث جاؤوا، فقام الأسود بن سريع السعدي^(٣)، فقال: «أو زعموا أنّا قتلنا عثمان، فإنّما فزعوا إلينا يستعينون بنا على قتلة عثمان منّا ومن غيرنا... فحصبه الناس، فعرف عثمان أنّ لهم بالبصرة ناصراً ممّن يقوم معهم، فكره ذلك»^(٤).

فهذا النصّ يعكس التطوّر السريع بين أهل البصرة إزاء تلك المسألة، التي أخذت منحنى التعصّب والتشنّج فيما بينهم، وكلّ قوم يرى رأيه، دون الرجوع

(١) الطبريّ، تاريخ: ٣/ ٤٨٠؛ ابن الأثير: الكامل في التاريخ: ٢/ ٥٧٤؛ ابن كثير، البداية والنهاية: ٧/ ٢٥٩.

(٢) الطبريّ، تاريخ: ٣/ ٤٨٠.

(٣) الأسود بن سريع السعدي: ابن حمير بن عبّاد بن النزال، المنقريّ، له صحبة، غزا مع رسول الله صلى الله عليه وآله أربع غزوات، ونزل البصرة، وكان شاعراً محسنًا قاصّاً، وهو أوّل من قصّ في مسجد البصرة. المزي، تهذيب الكمال: ٣/ ٢٢٢.

(٤) الطبريّ، تاريخ: ٣/ ٤٨١.

إلى مرجع واحد يتبعونه، فما كان من عثمان بن حنيف إلا أن قام فخطب بأهل البصرة، وذكّرهم ببيعتهم للإمام عليّ عليه السلام، ثم قال: «ما ترون أيها الناس؟»^(١)، فقام حكيم بن جبلة العبدّي، فقال له: «ما ترى، إن دخلا علينا، قاتلناهم، وإن وقفنا، تلقيناهم، والله، ما أبالي أن أقاتلهم وحدي، وإن كنت أحب الحياة، وما أخشى في طريق الحق وحشة ولا غيرة ولا غشاً ولا سوء منقلبٍ إلى بعث، وإنها لدعوة قتيلها شهيد، وحيثها فائز، والتعجيل إلى الله قبل الأجر خيرٌ من التأخير في الدّنيا، وهذه ربيعة معك»^(٢).

ويبدو أن اجتماع أهل البصرة وواليهم عثمان بن حنيف كان يدور حول تدارس الموقف، وما يلزمه من تدابير حازمة، فأخذ منحى الولاء والثبوت إلى جانب الوالي، على الرّغم من قوّة الوافد عليهم، فتلك الفترة بحدّها مثلت الصّراع النفسي والفكريّ لشخصيّة البصريّ، بين البقاء على بيعتهم للإمام عليّ عليه السلام، وبين أن يستقبلوا أمّ المؤمنين عائشة، وينضمّوا إلى حزبها، فتطوّر ذلك الصّراع إلى صراع فكريّ عقائديّ سياسيّ مع دخول أمّ المؤمنين وأتباعها البصرة.

ولما أقبلت عائشة وطلحة والزبير حتّى دخلوا المربد ممّا يلي بني سليم، جاء أهل البصرة مع واليهم عثمان بن حنيف ركباً ومشاة^(٣)، «وخرج إليهم من أهل البصرة من أراد أن يخرج إليها ويكون معها»^(٤)، فاجتمع الناس بالمربد «حتّى لو

(١) ابن قتيبة، الإمامة والسّياسة: ٨٣ / ١.

(٢) ابن قتيبة، الإمامة والسّياسة: ٨٣ / ١.

(٣) البلاذريّ، أنساب الأشراف: ٢٤ / ٣.

(٤) الطبريّ، تاريخ: ٤٨١ / ٣؛ ابن كثير، البداية والنّهاية: ٧ / ٢٥٩؛ المقرئيّ، إمتاع الأسماع:

رمي بحجر وقع على رأس إنسان»^(١). فتكلّم طلحة وهو في ميمنة المربد ومعه الزبير، وعثمان بن حنيف في ميسرته، وأخذ طلحة يذكر فضل الخليفة المقتول، وأنّه حدّ من حدود الله ﷻ، ويقول: «إنّكم إن فعلتم، أصبتم، وعاد إليكم، وإن تركتم، لم يقيم لكم سلطان، ولم يكن لكم نظام»^(٢).

إنّ قول طلحة هذا كان يهدف إلى إمعان أهل البصرة النظر في أمر السلطان وما يترتب عليه من عظيم شأن، وبالوقت نفسه، كان يهدف إلى تحذيرهم ممّا هو آتٍ عليهم بصورته الوهميّة، وبذلك، حاول أن يحرّض الناس على أمر آخر غير الطلب بدم عثمان.

ثمّ تكلّم الزبير، فقال أتباع طلحة والزبير صدقاً وبرّاً، أمّا أهل البصرة الذين كانوا برفقة عثمان بن حنيف، فقالوا: «فجراً وغدرًا»^(٣).

لقد كان طلحة والزبير يحاولان تبرير أعمالهما أمام الناس، ويحاولان كسب القضية لمصلحتهما في وقت مبكر، قبل وصول الإمام علي عليه السلام للبصرة؛ لأنّ وصوله يعني نهايتهما، فما كان من خطبهم تلك إلّا الاختلاف بين الناس بين مؤيّد ومعارض ومصدّق ومكذّب، «وتحاثى النّاس وتخاصبوا وأرهبوا»^(٤). فحاولت أمّ المؤمنين أن تُنهي تلك الخلافات والصّراعات النفسيّة، فصاحت بالنّاس: «صه

(١) خليفة بن خيّاط، تاريخ: ص ١٣٦.

(٢) الطبريّ، تاريخ: ٣/ ٤٨١.

(٣) البلاذريّ، أنساب الأشراف: ٣/ ٢٥؛ الطبريّ، تاريخ: ٣/ ٤٨١؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ٢/ ٥٧٥؛ المرعشيّ، شرح إحقاق الحقّ: ٣٢/ ٤٣٦؛ سعيد أيّوب، معالم الفتن: ٢/ ٩.

(٤) الطبريّ، تاريخ: ٣/ ٤٨١؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ٢/ ٥٧٥؛ محسن الأمين، أعيان الشيعة: ١/ ٤٥٢.

صه»^(١)، فأسكتتهم، فقالت: «إِنَّ عثمانَ خليفَتكم قُتِلَ مظلوماً بعد أن تابَ إلى ربِّه وخرجَ من ذنبه، والله، ما بلغَ من فعله ما يستحلُّ به دمه، فينبغي في الحقِّ أن يؤخذَ قتلُته فيقتلون به، ويُجْعَلَ الأمرُ شورى»^(٢).

وكانَ المقصودُ بهذا الكلام هو الإمام عليٌّ عليه السلام.

لقد كانت خطبة عائشة هذه قد أثَّرت في نفوس أصحاب ابن حنيف، فأصبحوا فرقتين، فقالت فرقة: «صدقْتُ الله وبرَّتُ، وجاءت والله بالمعروف»، وقال الآخرون: «كذبتُم، والله ما نعرف ما تقولون»^(٣).

وبذلك نجحت عائشة في زرع الفرقة والاختلاف بين أتباع ابن حنيف، وهو ما كانت تسعى إليه وتصبوا إلى تحقيقه، فما كان ذلك الاختلاف إلا ووقع الصِّراع بين أصحاب ابن حنيف، وهذا الأمر كان ذا أهمِّيَّة كبيرة بالنسبة إلى عائشة وأتباعها؛ فهو من جهةٍ عمل على زحزحة النفسِية البصريَّة عن طريق الحقِّ، بحيث لم تكن بعدها لتميِّز بين الحقِّ والباطل، ومن ثَمَّ، تنكسر شوكة المعارضة ضدَّ الناكثين، ومن جهةٍ أخرى، تقوية جيشهم عن طريق الذين تركوا معسكر ابن حنيف، وانضمُّوا إلى أمِّ المؤمنين.

ثمَّ إنَّ عائشة لم تتدخَّل في إنهاء الصِّراع الذي دار بين أصحاب ابن حنيف بحكم أُمومتها للمؤمنين، بل تركت أولادها المتخاصمين على حالهم؛ لأنَّ الصِّراع

(١) البلاذريّ، أنساب الأشراف: ٣/ ٢٥؛ المفيد، الجمل: ص ١٥٠؛ ويُنظر: ابن الدمشقيّ، جواهر المطالب: ٢/ ٩؛ محمَّد الريشهريّ، موسوعة الإمام عليّ بن أبي طالب: ٥/ ١٧٨.

(٢) البلاذريّ، أنساب الأشراف: ٣/ ٢٥؛ ويُنظر: المفيد، الجمل: ص ١٥٠.

(٣) الضبيّ، الفتنة ووقعة الجمل: ص ١٢٤؛ الطبريّ، تاريخ: ٣/ ٤٨٢.

كان يصبُّ لمصلحتها، واستقرَّت في موضع الدِّبَاغين^(١) بالمربد^(٢).

ثمَّ إنَّ النَّاسَ تمايزوا وصاروا فريقين، فريق مع عثمان بن حنيف، وفريق مع عائشة وأصحابها^(٣)، لكنَّ الأمور لم تكن تميل نحو الاستقرار، بل على النقيض من ذلك، فقد أصبح أهل البصرة مهتمِّين أكثر من ذي قبل بمعرفة حقيقة أمر عائشة وأتباعها، وعلاقتهم بالخليفة المقتول، وبتشخيص المسؤول عن مقتله، الذي على أثره تفاقم وضع أهل البصرة، فأقبل البصريُّون على عائشة وطلحة والزبير في الدِّبَاغين لمعرفة حقيقة الأمر، وجرت المناظرات للمرَّة الثانية عن سبب قدومهم، فكان ردُّهم هذه المرَّة: «بلغنا أنَّ بأرضكم هذه دنيا، فجئنا نطلبها!»^(٤).

إنَّ هذا التصريح الأخير على غاية كبيرة من الأهميَّة في الكشف عن حقيقة طلحة والزبير؛ فغايتهم لم تكن الطلب بدم عثمان، وإنَّما كان ذلك محض شعار يتسرَّان به لتبرير موقفهما من الخروج ضدَّ سلطة الإمام علي عليه السلام ومشاقته في أمره، وتفريق أتباعه، وتحقيق مآربهما التي صرَّحاً بها من طلب الدنيا، وكأتهما في عملهما هذا يردَّان على امتناع أمير المؤمنين عن توليته إياهما على البصرة والكوفة عندما طالبا بذلك.

لقد كانت نتيجة هذا الاعتراف الأخير أنَّ ولَّد ردود أفعال من قبل أهل

(١) الدِّبَاغين: وهي سكَّة تقع في مدخل سكَّة المربد، وعندها يقع قصر زربي مولى عبد الله بن عامر، وفيها عدد من بيوت رجالات أهل البصرة. صالح أحمد العلي، خطط البصرة: ص ١١٥.

(٢) الطبري، تاريخ: ٤٨٤/٣.

(٣) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة: ٣١٦/٩.

(٤) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة: ٣١٦/٩؛ وفي رواية أخرى: «حدَّثنا أنَّه هنا دراهم كثيرة فجئنا لنأخذ منها». ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة: ٣١٨/٩.

البصرة، الذين أصبحوا على بَيِّنَةٍ من أمر الناكثين؛ فقد خطب أحد أهل البصرة لم يذكرُوا اسمه، قائلاً: «أيُّهَا النَّاسُ، إِنَّهُ قد كَانَ وَآلَ هَذَا الأمرِ وقوامه المهاجرين والأنصار بالمدينة، ولم يكن لأحدٍ من أهل الأمصار أن ينتقصوا ما أبرموا ولا يُبرموا ما نقضوا، فكانوا إذا رأوا رأياً، كتبوا به إلى أهل الأمصار، فسمعوا لهم وأطاعوا، وإنَّ عائشة وطلحة والزبير كانوا أشدَّ النَّاسِ على عثمان حتَّى قُتِلَ، وباع النَّاسُ عليّاً، وباعه في جملتهم طلحة والزبير، فجاءنا نبأهما بيعتهما له، فبايعناه، فو الله، لا نخلع خليفتنا، ولا ننقض بيعتنا»^(١).

فبعض أهل البصرة، كانوا يعرفون نوايا طلحة والزبير، فكانت هذه الخطبة لأهل البصرة، تدلُّ على استفاقتهم في سبيل الحقِّ، ويبدو أنَّها كانت ذات أثر كبير في تغيير مسار الأحداث ضدَّ طلحة والزبير، الذين صاحوا بالرجل، «وأمرًا بقرض لحيته، فنتفوها، حتَّى لم يبق منها شيء»^(٢). فيكون هذا الشخص البصريُّ أوَّل مَنْ تُنْفَتَ لحيته في البصرة؛ بسبب وقوفه ضدَّ الناكثين، فعاقبوه على جرأته ضدَّهم!

أمَّا بالنسبة إلى طلحة والزبير، فلم يكونا ليرغبا بسماع ذلك الحديث الذي يؤثِّر في موقفهما، فطلحة ذو دهاء ومكر، وهو يحاول أن يضرب كلَّ مَنْ تكلم ضدَّ موقفهم، بطريقة الخاصَّة، الطريقة التي تمكَّنه من قطع لسان المتحدِّثين من أهل البصرة، بحيث لا يتجرَّأ أحدٌ أن يسلك مسلك أولئك الخطباء البصريِّين.

إلا أنَّ طريقة طلحة والزبير في فرض سيطرتها تلك لم تفلح؛ إذ سرعان ما غيَّر البصريُّون نهجهم في المحادثة، فكان الإنسان الذي يخطب ينتسب أمام النَّاسِ، ويقول: أنا فلان بن فلان، فاعرفوني، فكان يعلمهم أنَّ له عشيرة تمنعه، فلا يعجل

(١) المفيد، الجمل: ص ١٦٤؛ ويُنظر: محمَّد باقر المحمودي، نهج السَّعادة: ٢٣٠ / ٥.

(٢) المفيد، الجمل: ص ١٦٤.

عليه مَنْ لا يوافقُه كلامه^(١)، وهذا يعكس وجود النظام القبلي والقبيلة مصدر القوة، فضلاً عن ذلك، فإنّ طلحة والزبير اصطدما بأهل منطق وجدل، فلم تستطع عائشة ولا مَنْ معها أن يوهنوا منه بالبرهان^(٢).

أدّى ذلك إلى عدم تمكّنهم من حسم موقف الجدل المنطقي والعقلي مع أهل البصرة، فاتّبَعوا أسلوباً آخر قائماً على التنكيل بكلّ مَنْ يُحاول المحاججة، بل أنزلوا أشدّ العقوبات التي عكست ضجر وملل طلحة والزبير إزاء الرّدّ على المسائل المطروحة بشكل يُشبع رغبات النَّاس، وإنهاء الخصام بشكل منطقيّ، ولم يكتفوا بهذا، بل لا ذ طلحة والزبير بأُمّ المؤمنين عائشة، التي وجدوا فيها النجاح والتأثير على أهل البصرة، فما إن تظهر معارضة إلّا ونجد عائشة تخطب وتطلب بدم الخليفة عثمان^(٣)، وروي أنّها شجّعت الذين اعتزلوا عثمان بن حنيف والي البصرة وجماعته واختاروا عدم الانضمام إليه؛ إذ يُعدّ هذا بمثابة دعم وتأييد ونصر لها؛ إذ كانت تقول: «كفى بالاعتزال نصرة»^(٤).

وفي رواية أخرى تبين مكانة عائشة في قيادة الناكثين، عن أبي بكرة^(٥)، قال: «لما

(١) المفيد، الجمل: ص ١٦٤.

(٢) سعيد الأفغاني، عائشة والسياسة: ص ١٠٠.

(٣) يُنظر خطبة أمّ المؤمنين عائشة في: ابن طيفور، بلاغات النساء: ص ٥-٦.

(٤) المفيد، الجمل: ص ١٦٦.

(٥) أبو بكرة الثقفي: اسمه نفيح بن مسروح، وقيل: نفيح بن الحارث بن كلدة، وأمّ أبي بكرة سميّة، جارية الحارث بن كلدة، وهي أمّ زياد بن أبيه، وكان أبو بكرة، يقول: أنا مولى رسول الله، وبأبي أن ينتسب، وهو الذي شهد على المغيرة بن شعبة، فلم يقبل عمر بن الخطاب شهادته، فجلده، وقد لقّبَه رسول الله ﷺ بأبي بكرة؛ لأنّه تعلّق ببكرة من حصن الطائف، توفي سنة ٥٢ هـ. ابن عبد البر، الاستيعاب: ٤ / ١٦١٤.

قدم طلحة والزبير البصرة، تقلدْتُ سيفي، وأنا أريد نصرهما، فدخلتُ على عائشة، وإذا هي تأمر وتنهى، وإذا الأمر أمرها، فذكرتُ حديثاً كنت سمعته عن رسول الله ﷺ: (لن يفلح قوم أسندوا أمرهم إلى امرأة)^(١)، فانصرفت، واعتزلتهم^(٢).

إنَّ هذا النصَّ يعكس المنصب الذي تولَّته أمُّ المؤمنين في قيادة الناكثين، بل أصبحت قائد الجيش الذي دخل البصرة، وعمل طلحة والزبير تحت قيادتها^(٣).

ثمَّ حاول أهل البصرة أن يحولوا المناظرة إلى مركز القيادة للناكثين أمُّ المؤمنين، فأقبل جارية بن قدامة السعديّ، فقال: «يا أمُّ المؤمنين، والله لقتل عثمان بن عفَّان أهون من خروجك من بيتك على هذا الجمل الملعون عُرضة للسلاح، إنَّه كان لك من الله ستر وحرمة، فهتكتِ سترك، وأبحتِ حرمتك^(٤)، إنَّه من رأى قتالك، فإنَّه يرى قتلك، إن كنتِ أتيتنا طائعة، فارجعي إلى منزلك، وإن كنتِ أتيتنا متكِّرة، فاستعيني بالنَّاس»^(٥).

(١) أحمد بن حنبل، المسند: ٥/ ٤٧؛ البخاريّ، الصَّحيح: ٨/ ٩٧؛ الترمذيّ، السَّنن: ٣/ ٣٦٠.

(٢) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة: ٦/ ٢٢٧؛ المجلسيّ، بحار الأنوار: ٣٢/ ٢١٢؛ محمَّد الريشهريّ، ميزان الحكمة: ٤/ ٢٨٧٤؛ لمياء حمادة، أخيراً أشرقت الروح: ص ١٢٠.

(٣) محمَّد التيجاني السماويّ، لأكون مع الصَّادقين: ص ٢٠٧.

(٤) دخل ابن أمِّ مكتوم وهو أعمى على النبي ﷺ، فقال النبي لعائشة قبل دخوله: أدخلي الخباء يا عائشة، فاستتري به من هذا الرّجل، فقالت: يا رسول الله، إنَّه أعمى، ولن يراني، فقال ﷺ: إن لم يرك، فإنَّك تريه. فيقول الشيخ المفيد: فكيف هذا يوافق ما فعلته المرأة من مخالطتها للقوم، ومسافرتها معهم، وإطالة النجوى لهم... وإنَّ هذا لعجيب عند من فكَّر فيه، والحكم بالعصيان لله ﷻ. الجمل: ص ٨٠-٨١.

(٥) ابن قتيبة، الإمامة والسَّياسة: ١/ ٨٨؛ الطبريّ، تاريخ: ٣/ ٤٨٢؛ المقرئيّ، إمتاع الأسعاع: ١٣/ ٢٣٤؛ عبد الحسين شرف الدِّين، النصّ والاجتهاد: ص ٤٣٨؛ الأمينيّ،

ثم أقبل شاب من بني سعد على طلحة والزبير، وذكرهما بفضلهما مع رسول الله ﷺ، وقال لهما: «أرى أمكما معكما، فهل جئتما بنسائكما؟ قالوا: لا. قال: فما أنا منكما في شيء. واعتزل»، وقال الشاب:

صُتُّمُ حلائِلكُم وقُدُّمُ أُمَّكُم هذا لعمرُك قِلَّةُ الإنصافِ
أمرتُ بِجَرِّ ذِيولها في بيتها فَهَوْتُ تَشُقُّ البِيدَ بالإِجافِ^(١)
عَرَضاً يُقَاتِلُ دونها أبناءها بالنَّبلِ والخطيِّ والأسِيفِ
هتكتُ بطلحة والزبير ستورها هذا المخبرُ عنهم والكافي^(٢).

إن هذا يعكس مدى احتجاج أهل البصرة على طلحة والزبير في عدم صونها لحرم رسول الله ﷺ بإخراج عائشة معها، ولو كانا منصفين، لأخرجا نساءهما للقتال وتحريض الناس وتأليبهم.

وأقبل غلام من جهينة على محمد بن طلحة بن عبيد الله^(٣)، فقال له: «أخبرني عن قتلة عثمان؟ فقال محمد: نعم، دم عثمان ثلاثة أثلاث، ثلث على صاحبة الهودج -يعني: عائشة-، وثلث على صاحب الجمل الأحمر -يعني: طلحة-، وثلث على علي بن أبي طالب، وضحك الغلام، وقال: ألا أراني على ضلال، ولحق بعلي^(٤)».

الغدير: ٣٢٦/٩.

(١) الإيجاف: سرعة السير، ويقال: أوجف فأعجف. ابن منظور، لسان العرب: ٣٥٢/٩.

(٢) الطبري، تاريخ: ٤٨٢/٣؛ ابن شهر آشوب، مناقب آل أبي طالب: ٣٣٩/٢.

(٣) محمد بن طلحة بن عبيد الله: القرشي التيمي، حملة أبوه ساعة ولادته إلى الرسول ﷺ، فمسح على رأسه، وسماه محمداً، ونحله كنيته أبا القاسم، أمه همنة بنت جحش، أخت زينب بنت جحش زوجة النبي ﷺ، قُتل يوم الجمل مع أبيه. ابن عبد البر، الاستيعاب: ١٣٧١/٣؛ ابن الأثير، أسد الغابة: ٣٢٢/٤.

(٤) الطبري، تاريخ: ٤٨٢/٣؛ عبد الحسين شرف الدين، النص والاجتهاد: ص ٤٣٨؛

فبعض أهل البصرة حاولوا أن يعيدوا وجهة نظرهم بأمر الناكثين وما أقبلوا عليه من حرب في البصرة، وعلى أيِّ أساسٍ يقوم الانضمام إلى صفوفهم، وهل هم على حقٍّ في دعواهم من الثَّأْر؟ فما إن تبيَّن لهم طريق الحقِّ والصَّواب، سلوكه وتركوا أصحاب الرّأي الباطل، والدَّليل على هذا القول خروج الشابِّ السَّعديِّ من معسكر طلحة والزبير والتحاقه بمعسكر الإمام عليٍّ عليه السلام.

إنَّ هذه الأحداث كلّها تدلُّ على اضطراب الحياة السَّيَاسِيَّة مع كلّ يوم مرَّ على الناكثين في البصرة، لكنَّ أهل البصرة لم يكونوا ليتجرَّأوا على إعلان موقفهم بشكل صريح من أتباع عائشة، بل نجد فيه المماطلة والحذر، ويبدو أنَّ طبيعة سكَّان أهل البصرة كانت ذات تنوُّع واختلاف في وجهات النظر، فضلاً عن عدم تجاسر أهل البصرة إلَّا القلَّة القليلة على إبداء موقفهم من الناكثين ومخاطبتهم وجهاً لوجه، فالذي يصلُّ إلى الحقيقة المنشودة، وتنكشف أمامه غاية طلحة والزبير، يعتزل، أو يلزم بيته، أو يقول: «لا معك ولا عليك حتَّى يتبيَّن لنا الأمر»^(١).

ويبدو أنَّ هذا الاختلاف ناتجٌ عن القوَّة المعنويَّة للطرف المقابل عليهم؛ فأُمُّ المؤمنين هي زعيمة تلك الجموع، والنَّاس في تلك الفترة تنظر إليها بقرابة الرسول ﷺ وحقِّ الأمومة، فهي الحدُّ الفاصل بين جماعتها وأهل البصرة، ومن ثمَّ أصبحت نقطة نقاش كان من نتيجتها افتراق مجتمع البصرة، وتأزُّم الموقف^(٢). وما كان من عثمان بن حنيف إلَّا أن يحاول إحداث توازن في الفرقة وترشح

الأميني، الغدير: ٨٠ / ٩؛ الأحمدي الميانجي، مواقف الشَّيعة: ٣٣٥ / ٢؛ محمد الريشهري، موسوعة الإمام علي بن أبي طالب: ٢١٢ / ٥.

(١) المفيد، الجمل: ص ١٦٦.

(٢) أعلام الهداية (لجنة التَّأليف): ١٩٦ / ٢.

النفوس، فبعث حكيم بن جبلة العبدِيّ في عدد من رجاله؛ كونه صاحب الشرطة^(١)، لحلّ الأزمة عسكرياً؛ ولأنّه لم يجد بديلاً للحلّ إلاّ الثبات ومواجهة الناكثين قدر الإمكان.

أقبل حكيم وهو على الخيل، ونشب القتال، وحكيم يقول: «إنّها قریش، ليردّها جنبها والطيش»، فكان حكيم بن جبلة العبدِيّ يحثّ جماعته على ملاقاتهم، ويعمل على تشجيعهم وزيادة الحماس في نفوسهم، وتهوين جيش الناكثين، فاقتتلوا قتالاً شديداً، وأصبح أهل البصرة قسمين، كلّ جانب يدافع عن أتباعه^(٢).

كانت هذه المعركة لصالح حكيم، فأمرت عائشة أتباعها، فنزلوا عند مقبرة بني مازن^(٣)، فوقفوا بها ملياً^(٤)، وثار الناس، فحجز الليل بينهم، فرجع كلّ إلى مقرّه^(٥).

وجاء أبو الجرباء^(٦) إلى عائشة وطلحة والزبير، فأشار عليهم بأمثل من

(١) ابن الأثير، أسد الغابة: ٢/ ٤٠؛ ابن خلّكان، وفيات الأعيان: ٧/ ٥٩؛ ويُنظر: خليفة بن خياط، تاريخ: ص ١٣٧؛ الذهبي، سير أعلام النبلاء: ٢/ ٣٢٢؛ ابن كثير، البداية والنهاية: ٧/ ٢٦٠؛ عبد الحسين شرف الدين، النصّ والاجتهاد: ص ٤٤٥.

(٢) البلاذري، أنساب الأشراف: ٣/ ٢٥.

(٣) مقبرة بني مازن: تقع في سكة المربد. صالح أحمد العلي، خطط البصرة: ص ٨٨.

(٤) الطبري، تاريخ: ٣/ ٤٨٣؛ ابن كثير، البداية والنهاية: ٧/ ٢٦٠.

(٥) الطبري، تاريخ: ٣/ ٤٨٣.

(٦) أبو الجرباء: عاصم بن الدلف بن مالك بن عمرو بن تميم، كان على تنزيل البصرة أيام بنائها زمن عمر بن الخطاب، وقد انضمّ إلى الناكثين عندما قدموا البصرة، وشارك في معركة الجمل، وأخذ بخطامه، فقتل يومها، وهو الذي يقول:

أنا أبو الجرباء واسمي عاصمُ
اليوم قتلٌ وغداً مآثمُ.

يُنظر: الطبري، تاريخ: ٣/ ٩١؛ ابن أعثم، الفتوح: ٢/ ٤٧٥؛ الزبيدي، تاج العروس:

مكانهم، فأخذوا بنصيحتته، وتابعوا رأيهم، فساروا من مقبرة بني مازن حتّى انتهوا إلى الزابوقة^(١)، ثمّ غيَّروا وجهة نظرهم، فغيَّروا مكانهم حتّى نزلوا مقبرة بني حصن، وهي متنحّية إلى مدينة الرّزق^(٢)، فباتوا يتأهّبون، وبات بعض النّاس من أهل البصرة يسيرون إلى عائشة من أجل الانضمام إلى معسكرها^(٣).

فربّما لم تتصوّر عائشة أنّ الأمور سوف تصير إلى ما آلت إليه، ولم تتوقّع أنّ أهل البصرة سيبادرونها وجماعتها القتال وحمل السّلاح.

ثمّ إنَّها والذين معها لم يستقرّوا بعد بالبصرة، ولم يأتَمِنُوا على أنفسهم، فعملوا بتوجيهات أبي الجرباء، الذي وضع الخارطة لتحركهم في اتجاه أكثر أماناً من مقبرة بني مازن، وأن يتخذوا من اللّيل سترًا لتحركهم، وكسب الأنصار من أهل البصرة؛ إذ بات النّاس يسيرون إليهم^(٤).

أصبح حكيم بن جبلة رئيس الشرطة^(٥) الوحيد الذي لم يتبدّل موقفه من الناكثين؛ إذ يروى أنّه كان يردّد قولاً لم يثبت الطبريّ ولا غيره من المؤرّخين بحقّ أمّ المؤمنين عائشة، واكتفى الطبريّ برواية الخبر دون ذكر تفاصيله، فيقول: إنّ

(١) الزابوقة: موضع قريب من البصرة كانت به وقعة الجمل أوّل النهار، وهو مدينة المسامعة بنت ربيعة بالبصرة. ياقوت الحمويّ، معجم البلدان: ١٢٥ / ٣.

(٢) مدينة الرّزق أو دار الرّزق: كانت كبيرة، وتسمّى أحياناً بقرية الرّزق، وسعتها ضروريّة لاستيعاب ما يودع فيها من حبوب لتوزّع على النّاس في بداية كلّ شهر، وتقع دار الرّزق في الزابوقة. صالح أحمد العلي، خطط البصرة: ص ١٥٤.

(٣) الطبريّ، تاريخ: ٤٨٣ / ٣.

(٤) الطبريّ، تاريخ: ٤٨٣ / ٣.

(٥) ابن خلّكان، وفيات الأعيان: ٥٩ / ٧.

حكيماً كان: «يُبْرِئُ ويده الرُّمَحُ، فقال له رجل من عبد القيس: مَنْ هذا الذي تسبُّ وتقول له ما أسمع؟! قال: عائشة، قال [الرجل القيسي]: يا بن الخبيثة، ألامُّ المؤمنينَ تقولُ هذا؟! فوضع حكيم السَّنان بين ثدييه، فقتله»^(١).

إنَّ ردَّ الرَّجل على حكيم بن جبلة يعكس مدى اهتمام النَّاس بأُمِّ المؤمنين عائشة بغض النظر عن وجهتها الأساسيَّة، وبعيداً عن كونها محبَّة في ادِّعائها أم لم تكن كذلك، وهذا يعني أنَّ بعض النَّاس لم يكن يضع الأمور في موضعها الصحيح؛ ولم يبذل أيَّ جهد في سبيل التحقيق في الإشكالات التي نشبت على أرض البصرة، بمجرد أن رأى أمُّ المؤمنين تقود طرف الخصام، انضمَّ إليها، وعدَّ الذي يخالفها مخطئاً يجب الردُّ عليه، فالناس في تلك الفترة ينظرون إليها على أساس قرابتها من النبي ﷺ، وعلى أنَّها بهذه المنزلة الكريمة ممَّن يجب أن لا يعارضه أحدٌ من المسلمين كافة.

وبعد انتهاء حكيم بن جبلة من الرَّجل القيسيِّ وما دار بينهما، سار نحو أتباع عائشة، واجتمعوا بدار الرِّزق، فاقتتلوا قتالاً شديداً، وقد كثرت القتلى فيما بينهم، وبالذات جماعة حكيم بن جبلة، وفشت الجراحات في الفريقين^(٢).

ويبدو أنَّ الطرفين لم يكونا متكافئين في القتال؛ فجماعة ابن حنيف قليلون بالمقارنة بأتباع عائشة، وهذا واضح من خلال مسار القتال، فما إن وقع القتلى من أصحاب ابن حنيف بقيادة حكيم بن جبلة العبدِيِّ، فقدوا قدرتهم على مواصلة القتال ضدَّ جيش الناكثين، فطلبوا منهم عقد الصِّلح بين الطرفين، فأجابوهم إلى

(١) الطبري، تاريخ: ٣/ ٤٨٣؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ٢/ ٥٧٦؛ المقرئ، إمتاع الأسماع: ٢٣٤/ ١٣.

(٢) الطبري، تاريخ: ٣/ ٤٨٣؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ٢/ ٥٧٦.

ذلك، وكتبوا كتاب الصَّلح بين الطرفين، على أن يبعثوا رسولا إلى المدينة المنورة يسأل أهلها عن أمر طلحة والزبير، وبيعتهما لأمر المؤمنين عليٍّ عليه السلام، فإن كانا قد أكرها علىبيعة الإمام عليٍّ، فإنَّ عثمان بن حنيف سوف يخلي لهما البصرة ويخرج عنها، وإن لم يكونا أكرها، خرج طلحة والزبير عن البصرة^(١)، وإنهم لا يُحدثون حدثاً إلى قدوم الإمام عليٍّ، وإنَّ كلَّ فريقٍ منهم آمنٌ من صاحبه^(٢).

أما نصُّ الكتاب، فهو: «بسم الله الرَّحْمَن الرَّحِيم، هذا ما اصطَلح عليه طلحة والزبير ومَن معهما من المؤمنين والمسلمين، وعثمان بن حنيف ومَن معه من المؤمنين والمسلمين: أنَّ عثمان يُقيم حيث أدركه الصَّلح على ما في يده، وأنَّ طلحة والزبير يقيمان حيث أدركهما الصَّلح على ما في أيديهما، حتَّى يرجع أمينُ الفريقين ورسولُهُم كعب بن سور من المدينة، ولا يضارَّ واحد من الفريقين الآخر في مسجد، ولا في سوق، ولا في طريق، ولا فرصة بينهم، عيبة مفتوحة، حتَّى يرجع كعبٌ بالخبر، فإن رجع بأنَّ القوم أكرهوا طلحة والزبير، فالأمر أمرهما، وإن شاء عثمان خرج حتَّى يلحق بطيئته، وإن شاء دخل معها، وإن رجع بأنَّهما لم يُكرها، فالأمر أمر عثمان، فإن شاء طلحة والزبير أقاما على طاعة عليٍّ، وإن شاء، خرجا حتَّى يلحقا بطيئتهما، والمؤمنون أعوان الفالح منهما»^(٣).

فالكتاب إذا صحَّ عبارة عن هدنة مؤقتة بين الطرفين، من أجل إيقاف نزيف الدِّم على أرض البصرة، وحدد الكتاب صلاحيَّات عثمان بن حنيف، على أن

(١) الطبري، تاريخ: ٤٨٣/٣.

(٢) البيهقي، تاريخ: ١٢٦/٢.

(٣) الطبري، تاريخ: ٤٨٤/٣؛ ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة: ٣١٩/٩؛ ضامن بن شذقم

المدني، الجمل: ص ٤٠.

له الحق بالتصرّف والسيطرة على ما تحت يده، وشمل: دار الإمارة، والرحبة، والمسجد، وبيت المال، والمنبر، وأنّ طلحة والزبير لهما الحق في أن ينزلا أيّ جزء رغبا فيه من البصرة^(١).

إنّ قيام والي البصرة عثمان بن حنيف بعقد صلح مع عائشة وأتباعها يُثير تساؤلات، منها:

- أ- هل يحقّ لعثمان بن حنيف عقد الصلح، أو كان من صلاحياته ذلك؟
ب- هل كان عقد الصلح عاملاً إيجابياً أم سلبياً بالنسبة إلى موقف عثمان بن حنيف من عائشة وأتباعها؟

يلاحظ أنّ ممّا يؤاخذ به عثمان بن حنيف هو عدم مراجعة إمامه في شروط الصلح حين كان أصحاب عائشة هم المطالبون بعقد الصلح، ويرى البعض أنّ هذه الإجراءات من قبل ابن حنيف خطّة شائنة، وكان عليه ألا يرجع إلى أهل المدينة، وهم ليسوا بالمرجع بعد أن كان مرجعه إمامه لا غيره، وهذه الهفوة تحمّله التّبعة في إضعاف أمر عليّ في العراق تلك الفترة^(٢).

إنّ هذا الرأي مضطرب بعض الشيء؛ لأنّه مقارنة بالأحداث وسيرها على أرض الواقع والأمور الاضطراريّة التي حلّت بوالي البصرة، ينافي القول المذكور بعدم مراجعة ابن حنيف الإمام عليّاً (عليه السلام)، لا شكّ في أنّ والي البصرة حاول جاهداً قدر الإمكان الإمساك عن شهر السلاح وسفك الدّماء، واعتمد أسلوب المحاججة مع عائشة وأتباعها، كما ذكرنا ذلك سابقاً، أضف إلى ذلك أنّ الإمام أمير المؤمنين (عليه السلام) كان ذو نظرة شاملة للأحداث، ومن ثمّ، وضع برنامجاً يستند

(١) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة: ٣١٩/٩.

(٢) سعيد الأفغاني، عائشة والسياسة: ص ١١٤.

عليه واليه في البصرة في كَيْفِيَّةٍ تعامله مع الناكثين إلى حين حضوره بنفسه ومسكه زمام الأمور مباشرة.

يذكر ابن أبي الحديد تلك الخطوة التي بدأها عليٌّ عليه السلام، فيذكر: «وكتب عليٌّ إلى عثمان بن حنيف: أمّا بعد، فإنّ البغاة عاهدوا الله أشدّ بأساً، وأشدّ تنكيلاً، فإذا قدموا عليك، فادعهم إلى الطاعة، والرّجوع إلى الوفاء بالعهد والميثاق الذي فارقونا عليه، فإن أجابوا، فأحسن جوارهم ما داموا عندك، وإن أبوا إلّا التمسّك بحبل النكث والخلاف، فناجزهم القتال حتّى يحكم الله بينك وبينهم، وهو خير الحاكمين. وكتبْتُ كتابي هذا إليك من الرّبذة، وأنا معجّلُ المسير إليك إن شاء الله»^(١)، وكتب الكتاب عبيد الله بن أبي رافع^(٢).

إنّ كتاب الإمام عليٍّ عليه السلام إلى عامله على البصرة واضح، والأوضح هو خطوات العمل التي حدّدها الإمام لابن حنيف تجاه الناكثين، وهذا بلا شكّ تصريح عام من قبل الإمام إلى ابن حنيف في كَيْفِيَّةِ إدارة أوضاع البصرة، وإنهاء الأزمة حسب ما تقتضي، سواء عن طريق عدول الناكثين والرجوع إلى أمرهم الأوّل وهو الالتزام ببيعة أمير المؤمنين عليٍّ عليه السلام، أم مناجزتهم في القتال، وهو آخر حلّ مع

(١) شرح نهج البلاغة: ٩/ ٣١٢؛ ابن معصوم، الدّرجات الرّفيعة: ص ٣٨٢؛ الميرجهاني، مصباح البلاغة: ٤/ ١٣٨؛ محمّد باقر المحموديّ، نهج السّعادة: ٤/ ٤٢؛ محسن الأمين، أعيان الشّيعّة: ٨/ ١٤٠؛ محمّد الريشهريّ، موسوعة الإمام عليّ بن أبي طالب عليه السلام: ٥/ ١٤٢؛ حسين الشاكري، الأعلام من الصحابة والتابعين: ١٠/ ٥٩.

(٢) عبيد الله بن أبي رافع: المدنيّ، مولى رسول الله صلى الله عليه وآله، واسم أبي رافع أسلم، وقيل: ثابت، وكان كاتب الإمام عليٍّ، توفّي حدود سنة ٥٠هـ. المزيّ، تهذيب الكمال: ١٩/ ٣٤؛ الصّفديّ، الوافي بالوفيات: ١٩/ ٢٤٤.

الناكثين، حتى يقضي الله (عز وجل) الأمر.

إنّ ما سبق يعكس نظرة الإمام علي (عليه السلام) إلى ابن حنيف ومسألة الفتنة، فالإمام حاول أن يزرع روح الثقة لدى ابن حنيف، خاصّة وأنّ القادم عليه كان يتمتّع بمنزلة مرموقة في الإسلام، وليس بالشئ الهين على ابن حنيف وأهل البصرة التصديّ لهم ومقاتلتهم في تلك الفترة. هذا من ناحية.

ومن ناحية أخرى، أراد الإمام (عليه السلام) أن يبيّن لابن حنيف أنّه والي البصرة وسيدها، وهو فيهم مطاع، وعليه أن يبادرهم في مسائل الخلاف والنكث وسبب مقدمهم البصرة، وهو السّابق إلى مبادرتهم قبل أن يبدأوا بذلك، حتّى يكون في النّاس أطوع، ومن ثمّ، يكسب هذه الخطوة قبل أن يسبقه الناكثون إليها، وتصبح لهم كلمة مسموعة داخل البصرة، وهذا ما يخشاه الإمام.

وعلى هذا، فمراجعة ابن حنيف لإمامه كانت مسبقة بذلك الكتاب الذي ذكرناه في ما تقدّم، وبناء على هذا، فالأمر واضح لا لبس فيه، وليس هناك داع جديد يستدعي ابن حنيف إلى مراسلة إمامه ومراجعته في تلك الظروف الطارئة. أمّا شروط الصّلاح، فقد كانت لمصلحة ابن حنيف؛ فمركز الثقل والتأثير على المجتمع البصريّ كانت تحت سيطرته، وهذا ما قوى مركزه أفضل من ذي قبل؛ بحكم التنافس مع الناكثين حول السّيطرة على البصرة.

ولهذا، فالذي نراه، هو أنّ سبب نكث أمر الصّلاح من قبل طلحة والزبير هو السّيطرة على ما كان تابعاً لابن حنيف حسب ما ذكر في شروط الهدنة التي سوف نذكرها لاحقاً.

ثمّ إنّ رجوع ابن حنيف إلى أهل المدينة كان بهدف محدّد يسعى إلى تحقيقه، ألا

وهو كشف زيف دعاوى الناكثين ومماطلتهم، ولا يتحقّق هذا إلّا بالذهاب إلى مكان الواقعة ومناشدة الذين شهدوا الحدث للوقوف على حقيقة الأمر، فذهابه إلى المدينة لم يكن على أساس كونها مرجعاً له على حساب إمامه، بل على أساس ما ألزم به من شروط الهدنة، فلو تأخّر في قبول شرط مراجعته أهل المدينة، لأدانه الناكثون، ولخسر القضية.

ثم إنّ مراسلته للمدينة ربّما كانت رغبة منه في كسب الوقت لكي يتسنى للإمام عليّ عليه السلام أن يصل البصرة ويدخلها، ليكون له الأمر المباشر في القضية حينها، فيكون ابن حنيف قد حقّق إرادة إمامه بذلك المسار.

خرج كعب بن سور باعتباره رسول الفريقين إلى المدينة المنوّرة، واجتمع النّاس لمقدمه، فقال: «يا أهل المدينة، إنّني رسول أهل البصرة إليكم، أأكره هؤلاء القوم هذين الرجلين على بيعة عليّ أم أتياها طائعين؟»^(١).

ويُروى أنّ أحداً من أهل المدينة لم يتكلّم، بل التزم الجميع السّكوت إلّا أسامة ابن زيد، فإنّه قال: «اللّهم، إنهم لم يبايعا إلّا وهما كارهان»^(٢)، ولم يرض أهل المدينة عن قول أسامة، ووثب النّاس عليه يريدون قتله!^(٣).

هذا كان حال رسول الفريقين إلى أهل المدينة، أمّا نشاط عائشة وطلحة والزبير بالبصرة أثناء الهدنة وتواجد كعب بن سور في المدينة، فقد كرّست الجهود في كسب الأنصار عن طريق مراسلة القبائل واستمالة الرّجال؛ فأرسلوا إلى وجوه النّاس، وأهل الرّئاسة والشرف، فبايعهم على ذلك الأزد وضبةٌ وقيسُ بنُ عيلان

(١) الطبريّ، تاريخ: ٤٨٤ / ٣؛ ابن كثير، البداية والنهاية: ٧ / ٢٦٠.

(٢) الطبريّ، تاريخ: ٤٨٤ / ٣.

(٣) الطبريّ، تاريخ: ٤٨٤ / ٣.

كلُّها إلَّا الرّجل والرّجلين من القبيلة، كرهوا أمرهم فتواروا عنهم^(١). ولم يكتفوا بذلك، بل توجّهوا إلى دعوة بعض الأشخاص الذين تواروا عنهم، والذين لم يكونوا يرغبون في الانضمام إلى معسكرهم، «وأرسلوا إلى هلال بن وكيع^(٢)، فلم يأتيهم، فجاءه طلحة والزبير إلى داره، فتوارى عنهما، فقالت له أمّه: ما رأيت مثلك! أتاك شيخا قريش، فتواريت عنهما! فلم تزل به حتّى ظهر لهما وبايعهما، ومعه بنو عمر، وبنو تميم كلّها، وبنو حنظلة، إلّا بني يربوع؛ فإنّ عامتهم كانوا شيعة لعليّ عليه السلام، وبايعهم بنو دارم كلّهم إلّا نفرًا من بني مجاشع ذوي دين وفضل»^(٣).

لقد عمل الناكثون على كسب المزيد من الأنصار عن طريق المبايعات والتحوّل إلى صفوفهم وتأييدهم ضدّ ابن حنيف، ومن رفض ذلك، لم يُترك وشأنه، بل استخدموا معه أساليب أخرى أكثر تأثيراً لجّره إلى صفّهم، كما نلاحظ ذلك مع هلال بن وكيع؛ الذي استعملوا معه ضغط أمّه، وهذا يدلّ على دهاء طلحة والزبير اللّذين عملا في الخفاء لتفريق الناس عن عثمان بن حنيف.

لقد كانت هذه الطريقة التي اتخذوها مخالفة لشروط الهدنة المعقودة بين الطرفين، فقد جاء في أحد بنودها: «ولا يضارّ واحد من الفريقين الآخر في مسجد، ولا سوق، ولا طريق، ولا فرصة بينهم، عيبة مفتوحة، حتّى يرجع كعب

(١) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة: ٩ / ٣٢٠؛ ابن معصوم، الدّرجات الرفيعة: ص ٣٨٧.

(٢) هو هلال بن وكيع بن بشير بن عمرو بن عدس بن دارم، قيل: إنّ عداده في الصّحابة، ولكنّه لم ير النبيّ صلى الله عليه وآله، قُتل يوم الجمل مع عائشة. ابن حجر، الإصابة: ٦ / ٤٥٠.

(٣) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة: ٩ / ٣٢٠؛ ويُنظر: مرتضى العسكري، أحاديث أمّ المؤمنين عائشة: ١ / ٢٠٨.

بالخبر»^(١). وعلى الرَّغم من هذه المخالفة، لم نجد معارضة تُذكر من قبل ابن حنيف على إجراءات الناكثين في البصرة، الإجراءات التي تُعدُّ خرقاً صارخاً لبنود اتفائيّة الصّلح المبرمة بين الطرفين.

عاد رسولُ أهل البصرة يحمل ما وقع أمامه من ادّعاء أسامة بن زيد بأنّ طلحة والزبير بايعا مكرهين ومخالفة أهل المدينة لرأي أسامة^(٢)، ويرى أحد الباحثين أنّ أسامة بن زيد أراد بقوله: إنّ طلحة بايع وهو كاره، الكراهية التي موطنها القلب، وما يكون كامناً في داخله^(٣)، لا الكراهية الظاهرية الصّريحة أمام المسلمين.

ولما بلغ أمير المؤمنين عليّاً عليه السلام خبرُ كعب، كتب إلى ابن حنيف يُخبره الحقّ، وجاء في كتابه: «والله، ما أكرها على فرقة، ولقد أكرها على جماعة وفضل، فإن كانا يريدان الخلع، فلا عذر لهما، وإن كانا يريدان غير ذلك، نظرنا ونظرا»^(٤).

ثم يروي المؤرّخون أنّ كعباً قدم على الناكثين بالأمر، فأرسلوا إلى عثمان بن حنيف أن اخرج عنّا، فاحتجّ عثمان بالكتاب الذي أرسله إليه أمير المؤمنين، وقال: «هذا أمر غير ما كنّا فيه»^(٥).

وهنا، يبدأ التّضارب في نقل الحدث التاريخي؛ فمن جهة، نجد أنّ عائشة وطلحة والزبير طالبوا بحقّهم حسب شروط الهدنة، وهو ما جاء فيه من قولهم:

(١) الطبري، تاريخ: ٣ / ٤٨٤؛ ضامن بن شدقم المدني، الجمل: ص ٤١.

(٢) أعلام الهداية (لجنة التّأليف): ٢ / ١٩٦.

(٣) حسن فرحان المالكي، نحو انتقاد التاريخ الإسلامي: ص ١٥٤.

(٤) الطبري، تاريخ: ٣ / ٤٨٥؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ٢ / ٥٧٧؛ ابن خلدون، تاريخ:

ج ٢ ق ٢ ص ١٥٦؛ محسن الأمين، أعيان الشّيعّة: ١ / ٤٥٢.

(٥) الطبري، تاريخ: ٣ / ٤٨٥.

«فإن رجع [كعب] بأن القوم أكرهوا طلحة والزبير، فالأمر أمرهم»^(١)، فيجب على ابن حنيف أن يخرج من البصرة، أو ينزل على حكمهما، وهنا يأتي السؤال، بعد ما جاء عن أمير المؤمنين من أنهما بايعا بإرادتهما دون إكراه حسب كتابه عليه السلام لابن حنيف، فكيف سلّم لهم الأمر؟

صحيح أن الكتاب له تأثير، لكنّ هذا التأثير فقط على ابن حنيف وعسكره دون باقي أهل البصرة، الذين التزموا الوقوف بجانب المحقّ في دعوته حسب ما ذكروا في كتاب الصّلاح، ومن ثمّ، على ابن حنيف أن يلتزم بشروط الصّلاح وأن يتنازل عن ولاية مصر لمصلحة الناكثين، وهو مدان لهم بذلك، وإن كان الأمر كما سلف، فلماذا اختاروا الليل وغفلة المسلمين ليُخرجوا ابن حنيف عن قصر الإمارة بعد قتل حراسه؟! فقد قتلوا أربعين من حرس بيت المال^(٢)، على الرّغم من أنّ الأمر يصبّ لمصلحتهم حسب الهدنة وشروطها؟!

أما كان الأجدر بهم حسب هذه الرواية إخراج ابن حنيف في وضح النّهار وأمام أعين النّاس جميعاً تحقيقاً للاتفاق المبرم؟! ثمّ إنّ الطبريّ يذكر أنّهم كتبوا الكتاب وخرج كعب بن سور، «فلم يلبث إلّا يومين حتّى وثبوا عليه وقتلوه»^(٣).

إنّ هذا النصّ يجعلنا في شكّ من احتمال أن الناكثين قد نقضوا العهد وهجموا على عثمان بن حنيف قبل وصول رسول الطرفين إلى البصرة، وما يقوّي هذا الاحتمال ويرجّحه، هو المناظرة التي جرت بين طلحة والزبير حسب ما نقله

(١) الطبريّ، تاريخ: ٣/ ٤٨٥.

(٢) ابن عبد البر، الاستيعاب: ١/ ٣٦٨.

(٣) الطبريّ، تاريخ: ٣/ ٤٨٦؛ ويُنظر: الإسكافي، المعيار والموازنة: ص ٦٠.

البلاذريّ، من أنّه «تناظر طلحة والزبير، فقال طلحة: والله، لئن قدم عليّ ليأخذنّ بأعناقنا، فعزما على تبييت ابن حنيف وهو لا يشعر، وواطئاً أصحابهما على ذلك، حتّى إذا كانت ليلة ريح وظلمة، جاءوا إلى ابن حنيف وهو يصليّ بالنّاس العشاء الآخر، فأخذوه وأمروا به»^(١).

وعلى هذا، فلم يكتف هؤلاء القوم بنكث البيعة التي أعطوها الإمام عليّاً عليه السلام، بل أضافوا إليها نكث الهدنة التي اصطلحوا عليها مع عثمان بن حنيف^(٢).

ولما أخذوا عثمان بن حنيف، أرسلوا أبان بن عثمان إلى عائشة يستشيرونها في أمره؟ فكان أمرها أن يرجع أبان إلى طلحة والزبير، ويعلمهما بالاكْتفاء بحبس ابن حنيف، وأن لا يُقتل، قال أبان: لو علمت أنّك تدعينني لهذا، لم أرجع، فقال لهم مجاشع بن مسعود: إضربوه وانتفوا شعر لحيته، فضربوه أربعين سوطاً، ومنتفوا شعر لحيته ورأسه وحاجبيه وأشفار عينيه، وحبسوه^(٣). وبهذا، كان ثاني رجل بالبصرة يتعرّض إلى هذه العقوبة من قبل الناكثين بعد ذلك الرجل القيسيّ.

ويبدو أنّ هذه العقوبة كانت من مستحدثات الناكثين! فهّموا بالاستيلاء على بيت المال، فمنعهم الخزّان والموكلون به، من السيّابجة، وهم قوم يجيدون الرمي بالرّماح من الفرس، استُخدموا لغرض الحراسة، فقتل منهم سبعون رجلاً غير من جُرد^(٤)، وخمسون من السبعين ضربت أعناقهم صبراً بعد الأسر، فهؤلاء أوّل

(١) أنساب الأشراف: ٣ / ٢٦؛ الطبريّ، تاريخ: ٣ / ٤٨٥.

(٢) طه حسين، الفتنة الكبرى / عليّ وبنوه: ص ٣٧.

(٣) الطبريّ، تاريخ: ٣ / ٤٨٥.

(٤) جُرد: جرد الجلد يجرّد جراً، نزع عنه الشعر. ابن منظور، لسان العرب: ٣ / ١١٥.

مَنْ قُتِلَ فِي الْإِسْلَامِ ظُلْمًا وَصَبْرًا^(١).

وبهذا، كان مصير كل مَنْ يعارض الناكثين داخل البصرة، التعرّض إلى أشدّ أنواع العقوبات التي يقشعر لها البدن، ممّا له تأثير كبير على النفسيّة البصريّة وجرّها إلى اعتزال الأمر، وملازمة البيوت.

ويبدو من هذا الغدر، أنّ طلحة والزبير كانا يرغبان بالسيطرة على المسجد ودار الإمارة وبيت المال، فهذه المواضع الثلاثة هي أساس الحكم في تلك الفترة، والذي يسيطر عليهنّ سوف يتحكّم بإدارة المصّر، وكسب النزاع السّيّاسيّ لمصلحته، لاسيّما أنّ المسجد مكان تجمّع النّاس، سواء في وقت السّلم أو الحرب، وكذلك كونه نقطة انطلاق الدعاية لكسب الرّأي العامّ، لمكانة الجامع في إدارة أمور المصّر في تلك الفترة، أمّا دار الإمارة، فمركز الإدارة، وأمّا بيت المال، فأعطيات النّاس وما يحتاج إليه النّاكثون من أموال تعتمد عليه، فضلاً عن إمكان استعمال المال في كسب المزيد من الأنصار وتقوية صفوفهم من أجل الاستعداد للمواجهة الكبرى التي تنتظرهم.

ويرى أحد الباحثين أنّ سبب مهاجمة عائشة لأهل البصرة كثرة أنصار الإمام عليّ فيها^(٢)، فهذه الأسباب جعلت طلحة والزبير، يسارعان في الاستيلاء عليها مع غصّ النظر عن شروط الهدنة، التي استغلّوها في تخدير جماعة ابن حنيف، وإعادة تنظيم جماعتهم من جديد في البصرة، بعد القتال الذي شهدوه في بداية دخولهم؛ لذلك عندما تمكّنوا من تحقيق مآربهم، نكثوا شروط الصّلح، وغدروا

(١) المسعوديّ، مروج الذهب: ٣/١٠٣؛ ويُنظر: البلاذريّ، فتوح البلدان: ٢/٤٦٢.

(٢) عبد المنعم ماجد، التاريخ السّيّاسيّ للدولة العربيّة: ص ٢٦٣.

بعثمان بن حنيف، وكان أوَّل غدر في الإسلام^(١).

أصبح الوضع السَّيَاسِيّ في البصرة لصالح الناكثين، لكنَّ قادتَهُم اختلفوا في إمامة الصلاة؛ فَإِنَّهُمَا إِنَّمَا نَكثَا ببيعة الإمام عليٍّ عليه السلام؛ طمعاً بالحكم، وسعيّاً وراء المصالح المادِّيَّة، فلمَّا حضرت الصَّلَاة، «تنازع طلحة والزبير، وجذب كلُّ واحد منهما صاحبه حتَّى فات وقتُ الصَّلَاة، وصاح النَّاس: الصَّلَاة الصَّلَاة يا أصحاب محمَّد! فقالت عائشة: يصليَّ محمَّد بن طلحة يوماً، وعبد الله بن الزبير يوماً، فاصطلحوا على ذلك»^(٢).

وما يلاحظ هنا، هو أنَّ كلَّ واحدٍ منهُ الشَّيْخَيْن الناكثين يحاول أن يقدم نفسه على صاحبه في إمامة الصَّلَاة؛ لأنَّ مَنْ يُوِّمَّ المسلمين في الصَّلَاة يُعَدُّ المرجع والسَّيِّد والقائد في تلك الفترة المتقدِّمة، فغاية طلحة والزبير هو الحكم والسُّلْطَان، وهما في بداية الطريق، فلو كتب لهم النجاح في القضاء على حكم أمير المؤمنين عليٍّ عليه السلام، لفتح أحدهما على الآخر باب الحرب للاستقلال بزمام الحكم، وبسط النفوذ السَّيَاسِيّ على جميع المسلمين دون استثناء.

وكذا نلاحظ قدرة أم المؤمنين عائشة على حسم مواطن النزاع بين أتباعها، وقد أشرنا آنفاً إلى أنَّها حسمت مثل هذا الاختلاف عندما تحرَّكوا من مكَّة المكرمة قاصدين البصرة، ثمَّ استولت على البصرة، وواجهت المشكلة نفسها، وتمكَّنت من إنهاؤها، وعلى هذا، فهي ليست بأميرة جيش الجمل، وإنَّما هي أميرة المؤمنين، تستخلف على المسلمين مَنْ تشاء، وتحكم لمن تشاء، وعلى مَنْ تشاء^(٣).

(١) مرتضى العسكري، أحاديث أم المؤمنين عائشة: ٢٠٨ / ١.

(٢) اليعقوبي، تاريخ: ١٢٦ / ٢.

(٣) مرتضى العسكري، أحاديث أم المؤمنين عائشة: ٢٥٨ / ١؛ ويُنظر: نزار المنصوري، النصر

وعندما بلغ حكيم بن جبلة العبدِيّ ما صنع القوم بعثمان بن حنيف، وقتل حرّاس بيت المال، نادى في قومه: «يا قوم، انفروا إلى هؤلاء الضالّين الظالمين، الذين سفكوا الدّم الحرام، وفعلوا بالعبد الصّالح، واستحلّوا ما حرّم الله ﷻ». فأجابه سبعمائة رجل من عبد القيس، وأتوا المسجد، واجتمع النّاس إلى حكيم ابن جبلة^(١).

وذكر ابن أبي الحديد أنّه خرج في ثلاثمائة من عبد القيس^(٢)، بينما اكتفى الطبريّ بالإشارة إلى خروجه في جماعة من عبد القيس وبكر بن وائل، وأكثرهم من عبد القيس^(٣).

ولما اجتمعوا في المسجد، رفع حكيم يديه إلى السّماء، وقال: «اللّهمّ إنّ طلحة والزبير لم يريدَا بما عملا القربة منك، وما أرادَا إلّا الدّنيا، اللّهمّ اقتلها بمن قتلَا، ولا تعطهما ما أملا»^(٤). ثمّ توجه نحو دار الرّزق، وهو يقول: «لست أخاه -يعني عثمان بن حنيف- إن لم أنصره»^(٥)، وجعل يشتم عائشة...، فسمعت امرأة من قومه، فقالت: يا ابن الخبيثة، أنت أولى بذلك، فطعنها، فقتلها، فغضبت عبد القيس، إلّا مَنْ كان اغتمر^(٦) منهم، فقالوا: فعلت بالأمس، وعدت لمثل ذلك

لشيعة البصرة: ص ٧٧.

(١) المفيد، الجمل: ص ١٥٢.

(٢) شرح نهج البلاغة: ٩ / ٣٢٢؛ ويُنظر: ابن معصوم، الدّرجات الرّفيعة: ص ٣٩١.

(٣) شرح نهج البلاغة ٩ / ٣٢٢؛ ويُنظر: ابن معصوم، الدّرجات الرّفيعة: ص ٣٩١.

(٤) المفيد، الجمل: ص ١٥٢.

(٥) الطبري، تاريخ: ٣ / ٤٨٧.

(٦) اغتمر: تجاهل الشّيء، وغمراتُ الحرب: شدائدُها، قال الشاعر:

وفارسٌ في غمراتِ الموتِ منغمسٌ إذا تألّى على مكروهةٍ صدقا

اليوم^(١)، والله لندعَنَّكَ حتَّى يقيدَكَ اللهُ، فرجعوا وتركوه^(٢).

ولو سلَّمنا صحَّحة هذه الرواية، فإنَّ تضارب المؤرِّخين حول العدد الحقيقي الذي خرج به ابن جبلة لقتال عائشة وأتباعها، الذي تراوح بين السَّبعِمائة والثلاثِمائة كما ذكرناه، دلالة واضحة على افتراق جماعة كبيرة من عبد القيس نتيجة لما فعله حكيم ابن جبلة في طريقه، وقتل المرأة التي اعترضت على حديثه وردَّت عليه.

وعندما أقبل حكيم بجماعته نحو دار الرِّزْق، والتقى أصحاب عائشة، قالت لجيشها: «لا تقتلوا إلَّا مَنْ قاتلكم، ونادوا مَنْ لم يكن من قتلة عثمان فليكف عنا، فإنَّا لا نريد إلَّا قتلة عثمان، ولا نبداً أحداً^(٣).

إلَّا أنَّ حديث أمِّ المؤمنين في هذا المسار من الأحداث التي جرت على أرض الواقع له خصوصيَّة ومُدلول خاص، فقولها: «لا نبداً أحداً» متضارب أشدَّ التضارب مع أحداثهم التي أحدثوها بالبصرة؛ إذ هم مَنْ بدأ الهجوم على ابن حنيف، وهم مَنْ قتل حراس بيت المال، وبعد هذا كلُّه تُحاول أن تنفي كلَّ تلك الأحداث في ليلة وضحاها؟!!

والظاهر من حديثها أنَّها كانت تحاول بتبرير أفعالها قطع شكِّ الذين كانت تراودهم الشكوك ممَّن هم في صفوفها، بالمقارنة مع ما ارتكبه من مجزرة دمويَّة بشعة، ولم يكن من شأن هذه الأحداث التي أحدثها الناكثون في البصرة إلَّا وغر

الزبيديّ، تاج العروس: ٧ / ٣١٩-٣٢١.

(١) كان حكيم بن جبلة قد قتل أحدهم عندما اعترض عليه في سبِّ عائشة في أوَّل دخول الناكثين البصرة، وتكرَّرت الحادثة مرَّة أخرى هنا، فاحتجَّ عليه بعض أتباعه. وهذه رواية سيف بن عمر. يُنظر ص ١١٩ من هذا الفصل.

(٢) الطبريّ، تاريخ: ٣ / ٤٨٧.

(٣) الطبريّ، تاريخ: ٣ / ٤٨٧.

صدر الإمام علي وأصحابه، وزيادة التشّت والفرقة بين أهل البصرة^(١)؛ لذلك، فإنّ أمّ المؤمنين عائشة حاولت أن تُظهر خلاف ما تُضمّر، وأنها لم ترد إلا قتلة عثمان لتقتصّ منهم دون البقيّة الذين لم يشتركوا في حادثة الاغتيال! ثمّ إنّها حاولت -أيضاً- أن تُضعف موقف حكيم بن جبلة بتفريق أصحابه وإبعادهم عن مواجهة جيشها، ومن ثمّ، تحقيق نصف النصر عليه قبل الاشتباك وتطاعن الطرفين.

ثمّ إنّ المؤرّخين ذكروا أنّه «خرج إليهم حكيم بن جبلة وحملوا عائشة على جمل، فسُمّي ذلك اليوم يوم الجمل الأصغر، ويوم علي عليه السلام يوم الجمل الأكبر»^(٢). ثمّ بدأ حكيم بن جبلة بقتال الناكثين، فقال طلحة والزبير: «الحمد لله الذي جمع لنا ثأرنا من أهل البصرة، اللهم لا تُبق منهم أحداً، وأقِد منهم اليوم فأقتلهم»^(٣)، بعدها، نظم حكيم بن جبلة صفوف جماعته وقوّاده لمواجهة جيش الناكثين، الذين يفوقونهم في العدد والعدّة، وتجالد الفريقان بالسّيف، وكان حكيم ثابت الشكيمة لا يهتمّ لأمر الناكثين، بل بقي على إصراره منهم:

أَضْرِبُهُم بِالْيَاسِ ضَرَبَ غَلامَ عَابِسٍ
مِنَ الحَيَاةِ آيَسُ فِي الغُرُفَاتِ نَافِسُ^(٤).

(١) طه حسين، الفتنة الكبرى/ عليّ وبنوه: ص ٣٧.

(٢) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة: ٩/ ٣٢٢؛ ابن معصوم، الدّرجات الرّفيعة: ص ٣٩١؛ ويُنظر ورود تسمية الجمل الصّغرى: خليفة بن خيّاط، طبقات: ص ٩٩؛ حسن الأمين، أعيان الشّيعة: ٦/ ٢١٤؛ عليّ الكوراني، جواهر التاريخ: ١/ ٢٢١.

(٣) الطبريّ، تاريخ: ٣/ ٤٨٧؛ ابن خلدون، تاريخ: ج ١، ق ٢/ ١٥٧.

(٤) الطبريّ، تاريخ: ٣/ ٤٨٧؛ ابن عساكر، تاريخ دمشق: ٣٩/ ٤٣٨؛ الزبيديّ، تاج العروس: ٩/ ٥١؛ الأُمينيّ، الغدير: ٩/ ٢٣٢؛ المرعشيّ، شرح إحقاق الحقّ: ٣٢/ ٤٧٠.

فموقف حكيم بن جبلة من الناكثين يكشف عن بعض المزايا التي يتمتع بها بعض أهل البصرة^(١)، فهو لم ينجّر وراء المغريات الدنيويّة، ولم يكن مزدوج الشخصية يميل مع الأقوى، بل جسّد تحدّيه جمع الناكثين حقيقة المبدأ لدى الشخصية البصريّة، وهذا يعني أنّه بقي مصمّماً على قضيتّه السَّياسيّة تجاه الناكثين، الأمر الذي يعكس صورة عن الوضع السَّياسي في البصرة أيام تواجد الناكثين، وهي أنّ أهل البصرة لم يتخاذلوا أبداً عن نصره الإمام عليّ عليه السلام.

وقُتل حكيم، وقُتل أخوته الثلاثة الذين كانوا معه في جهاد الناكثين^(٢)، فكانت المعركة غير متكافئة بين الطرفين، فحكيم بن جبلة كان في ثلاثمائة ممّن قاتل إلى جانبه، في حين كان عدد الناكثين بالآلاف.

وبعد انتهاء هذه المعركة، أصبحت عائشة وأتباعها في سيطرة تامّة على البصرة، ثمّ دخلوا بيت المال، فلمّا رأوا ما فيه من الأموال، قال الزبير: ﴿وَعَدَكُمُ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَذِهِ﴾^(٣)، ثمّ قال: «فنحن أحقّ بها من أهل البصرة»^(٤).

وعلى هذا الأساس، يكون الزبير أوّل من أعلن عن حقيقة أمر تواجدهم في البصرة، فهم لم يكونوا يقصدون طلب الثأر الذي خرجوا من أجله حسب ما زعموا، بل على النقيض من ذلك، فلو كانوا صادقين في ما ادّعوا، لتلى الزبير آية

(١) ابن الأثير، أسد الغابة: ٢/ ٤٠؛ ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة: ٩/ ٣٢٢؛ المرعشي، شرح إحقاق الحق: ٣٢/ ٤٧٠.

(٢) الطبري، تاريخ: ٣/ ٤٨٧؛ الذهبي، تاريخ الإسلام: ٣/ ٤٩٥؛ ابن كثير، البداية والنهاية: ٧/ ٢٦٠؛ محسن الأمين، أعيان الشّيعه: ١/ ٤٥٣؛ طه حسين، الفتنة الكبرى/ عليّ وبنوه: ص ٣٦.

(٣) سورة الفتح، آية (٢٠).

(٤) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة: ٩/ ٢١٢.

تدلّ على القصاص، لا آية تدلّ على فتح للمسلمين على حساب الكافرين^(١).
ثم إنَّ الطريقة التي اختارها للتعامل مع أموال أهل البصرة تدلّ على مدى اهتمامه بالحصول على الثروات الطائلة؛ فقد ذكر أنَّ الزبير لما مات، خلف من المال خمسين ألفاً ومائتا ألف لم تحدّد بالدرهم أم بالدينار، وأتته خلف أحد عشر داراً بالمدينة، ودارين بالبصرة، وداراً في الكوفة، وداراً بمصر^(٢)، وخلف ألف فرس، وألف عبد، وألف أمة، وخططاً^(٣).

وعلى هذا، فقد كان الزبير يعشق اكتناز الذهب والفضّة، ولا يسدّ جشع ذلك كلّ ما لديه من أملاك، بل كان يطلب المزيد في المال والسّلطة^(٤)، والراجح أنَّ نكث الزبير بيعة الإمام عليّ عليه السلام إنّما جاءت لخوفه على أمواله التي يعرفها أمير المؤمنين عليّ حقّ المعرفة^(٥)، ومن ثمّ، سوف يصادرها إلى بيت مال المسلمين، أو يوزّعها على الفقراء والمساكين، وهذا التصرف لم يكن ليُرضي الزبير، فوجد أنَّ نكث البيعة أفضل طريقة له لحفظ أمواله من جهة، وللوصول إلى السّلطة وتحقيق رغباته الشخصية من جهة أخرى.

ويبدو أنَّ أهل البصرة لم يستطيعوا الوقوف بوجه الزبير، الذي نهب أموالهم؛

(١) يُنظر: الطبريّ، جامع البيان: ١١٥/٢٦؛ الطبرسيّ، مجمع البيان: ٩/١٩٤.

(٢) البخاري، الصحيح: ٥٢/٤؛ البيهقيّ، السنن الكبرى: ٦/٢٨٧؛ النووي، رياض الصّالحين: ص ١٥٨.

(٣) المسعوديّ، مروج الذهب: ١/٤٣٤؛ ويُنظر: جواد جعفر الخليلي، محاكمات الخلفاء وأتباعهم: ص ٢٨٨.

(٤) جواد جعفر الخليلي، شرح القصيدة الرائيّة: ص ٣٢٧.

(٥) جواد جعفر الخليلي، محاكمات الخلفاء وأتباعهم: ص ٢٨٨؛ ويُنظر: محمّد التيجاني السماوي، لأكون مع الصّادقين: ص ١٨٩.

لأنَّ انتصار الناكثين كان نقطة تحوُّل لصالحهم في السَّيطرة على البصرة؛ إذ بعد مقتل حكيم بن جبلة احتجَّ أهل البصرة على قتلاهم، وما ارتكبه الناكثون من خطأ بحقِّهم، حيث احتجَّوا بالكتب التي أرسلها طلحة إليهم يطلب منهم القدوم إلى المدينة لقتل الخليفة عثمان، «فقال النَّاسُ لطلحة، يا أبا محمَّد، قد كانت كتبك تأتينا بغير هذا»^(١).

ويبدو أنَّ أهل البصرة كانوا قد تأخَّروا كثيراً بهذا الاحتجاج الذي بات لا يغني عنهم شيئاً بعد مقتل قادتهم وفرسانهم وتشتت جمعهم، لكنَّه يكشف عن التباس الأمر لدى البصريِّين في سير الأحداث بمدَّيتهم؛ إذ إنَّ الانتهاكات التي قام بها الناكثون لم تكن ترضي النَّاسَ، لا سيَّما الذين فقدوا رجالهم، أي: إنَّ النَّاسَ باتت تشكُّك في قضِيَّة الناكثين.

في حينها تبرَّأ الزبير من تلك المراسلة، ثمَّ ذكر مقتل عثمان، وأظهر عيب الإمام عليٍّ عليه السلام أمام النَّاسِ، فقام إليه رجل من عبد القيس، فقال: «أيُّها الرجل، أنصت حتَّى نتكلَّم، فقال عبد الله بن الزبير: ومالك وللکلام؟! فقال العبدیّ: «يا معشر المهاجرين، أنتم أوَّل مَنْ أجاب رسول الله ﷺ، فكان لكم بذلك فضل، ثمَّ دخل النَّاسُ في الإسلام كما دخلتم، فلمَّا توفِّي رسول الله ﷺ، بايعتم رجلاً منكم، والله ما استأمرتمونا في شيء من ذلك، فرضينا واتبعناكم، فجعل الله ﷻ للمسلمين في إمارته بركة، ثمَّ مات واستخلف عليكم رجلاً منكم، فلم تشاورونا في ذلك، فرضينا وسلَّمنا، فلمَّا توفِّي الأمير، جعل الأمر إلى ستَّة نفر، فاخترتم عثمان وبايعتموه عن غير مشورةٍ منَّا، ثمَّ أنكرتم من ذلك الرجل شيئاً، فقتلتموه عن

غير مشورة منا، ثم بايعتم علياً عن غير مشورة منا، فما الذي نقمتم عليه فنقاتله؟! هل استأثر بفيء، أو عمل بغير الحق، أو عمل شيئاً تنكرونه فنكون معكم عليه؟! وإلا، فما هذا؟!»^(١).

كان هذا الردّ من أهل البصرة ينبع عن رؤية سياسيّة لأحداث الخلافة وما آلت إليه أمور المسلمين في الحجاز، دون أن يكون لأهل البصرة في تلك الفترة حضور، أو يعرض عليهم أمر الخلافة والسّلطة في الحجاز، فلماذا هذه المرّة بالذات يأتي أهل الحجاز إلى البصرة يطلبون من أهلها أن يكونوا لهم عوناً ضدّ من اختاروه لينوب الخلافة بعد مقتل الخليفة عثمان؟!

فالراجح أنّ الناكثين رغبوا بالحصول على بيعة أهل البصرة بالكامل، لكنّهم اصطدّموا بأشخاص ذوي حكمة ومنطق وقوّة برهان، فكان هذا الأمر ما أفسد على الناكثين ما خطّطوا له، لا سيّما ذلك الرجل الذي ذكرهم بأفعالهم، فهمّوا بقتله، فكانت عشيرته حاضرة، فمنعتهم^(٢).

ويبدو أنّ الناكثين كان باستطاعتهم قتل هذا الشخص بدون خشية من عشيرته، لكنّهم لم يرغبوا بذلك؛ لأنّهم خرجوا من معركة مع البصريّين للتو، والدخول معهم في معركة جديدة يفرّق شملهم ويضعف حجّتهم، وربّما يؤدّي ذلك إلى انقسام جيشهم، مثل ما هو عليه عندما دخلوا البصرة وفتنوا جيش ابن حنيف وشقّوه إلى قسمين، فبيّتوا الأمر إلى فرصة مناسبة، فما كان الغد إلّا وقد

(١) الطبريّ، تاريخ: ٤٨٦/٣؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ٥٧٨/٢؛ ويُنظر: مرتضى العسكري، أحاديث أم المؤمنين عائشة: ١/١٨٩؛ محمّد الريشهري، موسوعة الإمام علي بن أبي طالب: ١٨٧/٥.

(٢) الطبريّ، تاريخ: ٤٨٦/٣.

وثبوا عليه وعلى عشيرته، فغدروا بهم وقتلوا عدداً من أتباعه^(١)، فالغدر كان شيمة الناكثين مع أهل البصرة، لتكون هذه المجزرة الثالثة بعدما قتلوا حراس بيت المال الأربعين، وبعدها قتلوا ابن جبلة وأتباعه في المجزرة الثانية، فكانت هذه الإجراءات من أجل إسكات صوت البصريين، لكنّها على العكس من ذلك كانت سبباً في تدمير أهل البصرة الذين أبوا أن يسالموا الناكثين، أو يبايعوهم، فقد قال لهم يزيد بن الحارث الشكري^(٢): «إتقيا الله، إنّ أولكم قادنا إلى الجنّة، فلا يقودنا آخركم إلى النّار، فلا تكلفونا أن نصدّق المدّعي ونقضي على الغائب، أمّا يميني، فشغلّها عليّ بن أبي طالب بيعتي إيّاه، وهذه شمالي فارغة، فخذها إن شئت، فخنق حتّى مات»^(٣).

فالناكثون كانوا يتصرّفون على أساس أنّهم أسياد البصرة، وعلى أهلها الطاعة وعدم المعصية، ثمّ في تلك الفترة لا مجال للمناقشة والجدل الذي لا يقدّم شيئاً لطلحة والزبير سوى تصغير شأنهما، فلم يكن مصير البصريين الذين رفضوا نكث بيعة الإمام عليّ عليه السلام من أجل البيعة للناكثين إلّا القتل والتعذيب والنفي من البصرة^(٤).

(١) الطبريّ، تاريخ: ٣/ ٤٨٦؛ ويُنظر: محمّد باقر المحموديّ، نهج السّعادة: ٥/ ٢٣٤.

(٢) يزيد بن الحارث الشكريّ: لم أعثر على ترجمة له.

(٣) ابن طاووس، كشف المحجّة: ص ١٨٢؛ المجلسيّ، بحار الأنوار: ٣/ ١٨؛ محمّد باقر المحموديّ، نهج السّعادة: ٥/ ٢٣٢؛ الميرجهاني، مصباح البلاغة: ٤/ ٨٣؛ عليّ النمازي الشاهروديّ، مستدركات علم رجال الحديث: ٨/ ٢٤٨؛ محمّد تقي التستري، قاموس الرجال: ١١/ ٩٦؛ عليّ الكورانيّ، جواهر التاريخ: ١/ ٤١٦.

(٤) كان الإمام عليّ عليه السلام يحدّث جماعته، فيقول: «أتوا البصرة -يعني: الناكثين-، وأهلّها مجتمعون على بيعتي وطاعتي، وبها شيعتي خزان بيت مال الله ومال المسلمين، فدعوا الناس

بل لم يُكتف بذلك، بل حرم المعارضون من أهل البصرة من أرزاقهم، وقَدَّم مَنْ وقف إلى جانب الناكثين في العطاء^(١)، وهذا ما حمل البصريين الذين رفضوا البيعة للناكثين على المبادرة إلى بيت المال من أجل الحصول على أرزاقهم، ثم خرجوا حتّى نزلوا على طريق أمير المؤمنين عليّ عليه السلام للانضمام إليه^(٢).

فلما انتهى طلحة والزبير من المعارضين في البصرة، أطلقوا لنفسيهما العنان في تصفية الذين اشتركوا في مقتل عثمان بن عفّان، فنادى مناديهـم: «مَنْ كَانَ فِيهِمْ أَحَدٌ مِّنْ غَزَا الْمَدِينَةَ، فليأتنا بهـم، فجيء بهـم كما يُجاء بالكلاب، فقتلوا»^(٣)، ولم يُفلت منهم إلّا حُرْقوص بن زهير السعديّ؛ فإنّ بني سعد منعوه، واعتزلوا الأمر^(٤)، وغضبت عبد القيس حين غضبت سعدٌ لمن قُتل منهم، فخرجوا عن البصرة^(٥).

بعد الأحداث هذه التي قام بها الناكثون في البصرة، والقضاء على كلّ مناوئهم، وفرض سيطرتهم على المدينة، أرادوا أن يشنّوا الهجوم على الإمام عليّ في ذي قار، فقال الزبير لأهل البصرة: «إنّ عدوّكم قد أضلّكم، والله، لئن ظفر بكم، لا ترك بكم عيناً تطرف، فانفضوا إليه حتّى نكبّ عليه قبل أن تلحقه أنصاره»^(٦).

وفي رواية أخرى: «ألا ألف فارس أسير بهـم إلى عليّ، أقتله بيّاتاً أو صباحاً قبل

إلى معصيتي، وإلى نقض بيعتي وطاعتي، فمن أطاعهم، أكفروه، ومن عصاهم، قتلوه». ابن طاووس، كشف المحجّة: ص ١٨٢.

(١) ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ٢ / ٥٨١.

(٢) الطبريّ، تاريخ: ٣ / ٤٨٦؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ٢ / ٥٨١.

(٣) الطبريّ، تاريخ: ٣ / ٤٨٦.

(٤) الطبريّ، تاريخ: ٣ / ٤٨٦؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ٢ / ٥٨١.

(٥) الطبريّ، تاريخ: ٣ / ٤٨٦.

(٦) المفيد، الجمل: ص ١٥٤.

أَنْ يَصِلَ إِلَيْنَا؟ فَلَمْ يُجِبْهُ أَحَدٌ»^(١).

إِنَّ هَذِهِ الصُّورَةَ تَعْطِينَا وَجْهًا سِيَاسِيًّا لِأَهْلِ البَصْرَةِ، يَقُومُ عَلَى أَتَمِّهِمْ لَمْ يَكُونُوا فِي طَاعَةِ النَّاكثِينَ، وَلَمْ يَكُونُوا مُؤَيِّدِينَ لَهُمْ فِي حَرْبِ الْإِمَامِ عَلِيِّ عَلَيْهِ السَّلَام.
وَيَبْدُو أَنَّ الزَّبِيرَ حَاوَلَ أَنْ يَضِلَّلَ النَّاسَ وَيُرْسِمَ لَهُمْ صُورَةَ وَهْمِيَّةٍ عَنْ شَخْصِ الْإِمَامِ عَلِيِّ عَلَيْهِ السَّلَام، وَأَنَّهُ سَوْفَ يَقْتُلُهُمْ جَمِيعًا، لَكِنَّ أَهْلَ البَصْرَةِ الَّذِينَ كَانُوا تَحْتَ لُؤَاءِ طَلْحَةَ وَالزَّبِيرِ لَمْ يُوَافِقُوا الزَّبِيرَ، فَحَاوَلَ أَنْ يَكْسِبَ النَّاسَ مِنْ جَدِيدٍ، وَيَحْثِّثَهُمْ عَلَى الْخُرُوجِ مَعَهُ، فَقَالَ لَهُمْ: «أَمْضُوا، فَخَذُوا أَعْطَايَتَكُمْ»^(٢).

إِلَّا إِنَّ هَذَا التَّصَرُّفَ مِنَ الزَّبِيرِ لَمْ يَرْقُ أَصْحَابَهُ، وَعَلَى رَأْسِهِمْ ابْنُهُ عَبْدُ اللَّهِ، الَّذِي قَالَ لِأَبِيهِ: «أَمَرْتُ النَّاسَ أَنْ يَأْخُذُوا أَعْطَايَتَهُمْ لِيَتَفَرَّقُوا بِالْمَالِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَ عَلِيٌّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ فَتَضْعَفَ، بَشَسَ الرَّأْيَ الَّذِي رَأَيْتُ!»^(٣)، وَكَانَ طَلْحَةُ وَعَائِشَةُ عَلَى رَأْيِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الزَّبِيرِ، فَقَالَ لَهُمُ الزَّبِيرُ: «وَاللَّهِ، لَتَدْعُونِي أَوْ أَلْحَقَ بِمَعَاوِيَةَ؛ فَقَدْ بَايَعَ فِي الشَّامِ النَّاسَ، فَأَمْسَكُوا عَنْهُ»^(٤).

وَعَلَى هَذَا، كَانَ الْخِلَافُ قَدْ اتَّسَعَ هَذِهِ الْمَرَّةَ لِيَشْمَلَ جَمِيعَ زُعَمَاءِ النَّاكثِينَ، وَهَذَا يَعْكُسُ مَدَى التَّنَافُسِ الَّذِي بَدَأَ يَتَصَاعَدُ بَيْنَ زُعَمَاءِ جَيْشِ عَائِشَةَ حَوْلَ اسْتِلَامِ زَمَامِ الْأُمُورِ^(٥) وَتَوَجُّيْهِهَا حَسَبَ رَغْبَةِ الْفَرْدِ مِنْهُمْ، وَيَبْدُو أَنَّ الدَّائِرَةَ هَذِهِ الْمَرَّةَ دَارَتْ

(١) الطَّبْرِيُّ، تَارِيخُ: ٤٩١ / ٣؛ ابْنُ الْأَثِيرِ، الْكَامِلُ فِي التَّارِيخِ: ٥٨١ / ٢؛ وَيُنْظَرُ: ابْنُ الصَّبَّاحِ، الْفُصُولُ الْمَهْمَةُ: ٣٨٢ / ١.

(٢) الْمَفِيدُ، الْجَمَلُ: ص ١٥٥.

(٣) الْمَفِيدُ، الْجَمَلُ: ص ١٥٥.

(٤) الْمَفِيدُ، الْجَمَلُ: ص ١٥٥.

(٥) مِنْ خُطْبِ الْإِمَامِ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ بِشَأْنِ طَلْحَةَ وَالزَّبِيرِ حِينَ خَرَجَا إِلَى البَصْرَةِ: «كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا يَرْجُو الْأَمْرَ لَهُ وَيَعْطِفُهُ عَلَيْهِ دُونَ صَاحِبِهِ، لَا يَمْتَنُّ إِلَى اللَّهِ بِحَبْلِ، وَلَا يَمْدَانُ إِلَيْهِ

على الزبير بن العوام، الذي هدّد جماعته بتركهم إن لم يتركوه يحقق رغباته، وهذا يعكس مدى الضغط النفسي الذي يتعرّض له الزبير بالمقارنة مع البقية. ثم إن عائشة رغبت في أن تكون دعوتها عامّة لا مقتصرة على البصرة فقط، فربّما كانت تحاول كسب الأنصار، وتحريض بعض المدن الإسلامية الأخرى ضدّ الإمام علي (عليه السلام) بهدف إضعاف سلطته بفتح جبهات جديدة، فكتبت إلى الأمصار العربية والمسلمين تبين موقفها من عثمان بن حنيف، وأهل البصرة، وما كانت تسعى إليه، فكتبت إلى أهل المدينة، وإلى أهل اليمامة^(١)، وكتبت إلى حفصة بنت عمر بن الخطاب^(٢): «أمّا بعد، فلما نزلنا البصرة، ونزل عليّ بذي قار، والله داق عنقه كدقّ البيضة على الصّفا، إنّه بمنزلة الأشقر^(٣)، إن تقدّم، نُحر، وإن تأخّر، عُقر^(٤)».

فلما وصل الكتاب إلى حفصة، استبشرت بذلك، ودعت صبياناً من بني تميم

بسبب، كلّ واحدٍ منهما حاملٌ ضبّ (حقّد) لصاحبه، وعمّا قليل يكشف قناعه به، والله، لئن أصابوا الذي يريدون، يتنزّ عن هذا نفس هذا، وليأتينّ هذا على هذا». الشريف الرضي، نهج البلاغة: ٣٢ / ٢ - ٣٣.

(١) الطبريّ، تاريخ: ٣ / ٤٨٩؛ المفيد، الجمل: ص ١٦١.

(٢) حفصة بنت عمر بن الخطّاب: زوجة النبي (صلى الله عليه وآله)، وأخت عبد الله بن عمر، أمّها زينب بنت مظعون بن حبيب، كانت حفصة من المهاجرات، وكانت قبل الرسول تحت خنيس بن حذافة، ثم تزوّجها رسول الله (صلى الله عليه وآله) سنة ٣هـ، توفيت حفصة سنة ٤٥هـ. ابن عبد البر، الاستيعاب: ٤ / ١٨١١.

(٣) الأشقر: البعير. الجوهريّ، الصّحاح: ٢ / ٧٠١.

(٤) المفيد، الجمل: ص ١٤٩؛ المفيد، الكافّة في إبطال توبة الخاطئة: ص ١٦؛ الطوسي، الثاقب في المناقب: ص ٣١٨.

وعدي، وأعطت جواريتها دفوفاً، وأمرتهم بالضرب بالدِّفوف وقول: «ما الخبر؟ ما الخبر؟ عليّ كالأشقر بذِي قار، إن تقدّم، نُحر، وإن تأخّر، عُقر»^(١).

فبلغ أمّ سلمة زوجة رسول الله ﷺ اجتماعُ النسوة على ما اجتمعنَ عليه، من سبِّ أمير المؤمنين، والمسرّة بالكتاب الوارد عليهنّ من عائشة، فبكت، وقالت: «أعطوني ثيابي حتّى أخرج إليهنّ وأوقع بهنّ»^(٢).

وكتبت عائشة إلى زيد بن صوحان^(٣)، «أمّا بعد، فإذا أتاك كتابي هذا، فاقدم فانصرنا على أمرنا هذا، فإن لم تفعل، فخذلّ النَّاسَ عن عليٍّ»، فكتب إليها: «من زيد بن صوحان إلى عائشة ابنة أبي بكر، حبيسة رسول الله ﷺ. أمّا بعد، فأنا ابنك الخالص، إن اعتزلتِ هذا الأمر ورجعتِ إلى بيتك، وإلّا، فأنا أوّل مَنْ نابَذَكَ، قال زيد بن صوحان: رحم الله أمّ المؤمنين، أُمّرت أن تلزم بيتها وأُمرنا أن نقاتل، فتركت ما أُمّرت به، وأمرتنا به، وصنعت ما أُمّرنا به، ونهتنا عنه»^(٤).

إنّ هذه الكتب تكشف لنا عن حاجة أمّ المؤمنين عائشة إلى الأنصار، يدعمون حركتها داخل البصرة، وأتمّها كانت تحاول أن تكسب الرأي العام لمصلحتها ضدّ

(١) المفيد، الجمل: ص ١٤٩؛ ضامن بن شدقم المدني، الجمل: ص ٣٢؛ المجلسي، بحار الأنوار: ٤٣ / ٣٣٥.

(٢) المفيد، الجمل: ص ١٤٩.

(٣) هو زيد بن صوحان بن حجر بن الحارث بن الهجرس العبديّ، أخو صعصعة وسيحان، أسلم على عهد النبي ﷺ، قُتل يوم الجمل وهو يقاتل في صفّ الإمام عليٍّ عليه السلام. ابن عبد البر، الاستيعاب: ٢ / ٥٥٥؛ ابن الأثير، أسد الغابة: ٢ / ٢٣٣؛ الذهبي، سير أعلام النبلاء: ٣ / ٥٢٥.

(٤) الطبري، تاريخ: ٣ / ٤٩٢؛ المقرئ، إمتاع الأسماع: ١٣ / ٢٣٥؛ سعيد أيوب، معالم الفتن: ٢ / ١٢.

الإمام عليّ.

ولا يمكننا أن ننكر هذه الحقيقة تبعاً لعاطفتنا تجاهها، بل إنّها حاولت أن تكسب الصراع السّياسي لمصلحتها، مع غصّ النظر عن أمر الدعوة الإسلاميّة التي ما زالت فتية، فهي تحاول أن تجذب كلّ إنسان إلى دعوتها، وتقوّي جيشها، وأرادت أن تعوّض عمّا خسرته أصحابها من القبائل التي ذهبت عنها إلى الإمام عليّ مغاضبة^(١)، فأصبحت البصرة مركز تجمع القوّة المعارضة، وذوي الطموح، والمحتكرين، وكلّ من يرغب في إشباع احتياجاته المادّيّة والمعنويّة، كلّ ذلك على حساب أهل البصرة، الذين خرجوا عن مصرهم ريثما يأتي منقذهم من هذه الفوضى التي عمّت مدينتهم، ويسترجع حقّهم المسلوب، ويخلصهم من الفتنة التي فرقتهم إلى أشياع مختلفة.

(١) سعيد الأفغاني، عائشة والسّياسة: ص ١٢٢.

المبحث الثاني

الصِّراع السياسي بين الإمام عليٍّ عليه السلام وأهل الجمل في البصرة

حين بويع أمير المؤمنين عليٍّ عليه السلام بالخلافة، حاول أن يسوِّي الأمور بين المسلمين بغية استقرار الأوضاع التي سادت على أثر مقتل عثمان. ولم تكن الأمور حسب ما يشتهي أمير المؤمنين؛ فقد واجهته عقبة عدم استقرار الأمن، وعدم سيطرة الحكومة الشرعيَّة على الدولة ومفاصلها، نتيجة لإعلان معاوية بن أبي سفيان تمرّده على الخلافة، وانشقاقه عن وحدة المسلمين، وعدم الانصياع لأوامر الإمام عليٍّ عليه السلام.

عندها شرع بالاستعداد العسكري والسياسي لإيقاف التمرّق الحاصل في كيان الأمة، ومنع سفك دماء المسلمين^(١). فبينما هو يتجهّز من أجل إيقاف معاوية عند حدّه، أتاه الخبر عن طلحة والزبير وعائشة من مكّة بما عزموا عليه^(٢)، فخطب أمير المؤمنين بالناس، وحثّهم على المسير إلى أولئك لمنعهم من دخول البصرة إن أمكن،

(١) أعلام الهداية (لجنة التأليف): ٩٧ / ٢.

(٢) المفيد، الجمل: ص ١٢٨؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ٥٨٢ / ٢. ويذكر أن أم الفضل بنت الحارث أخت ميمونة زوج النبي ﷺ، كتبت إلى الإمام عليٍّ بخرج الناكثين إلى البصرة. الطبري، تاريخ: ٤٧٠ / ٣؛ ابن عبد البر، الاستيعاب: ٤٩٧ / ٢؛ ابن الأثير، أسد الغابة: ١٧٩ / ٢. ويقال: كتب للإمام بذلك أخوه عقيل بن أبي طالب. ابن قتيبة، الإمامة والسياسة: ٧٤ / ١.

أو يقوم أمرهم إن كانوا قد دخلوها^(١)، فقال: «إن هؤلاء القوم قد خرجوا يؤمّون البصرة لما يرونه بينهم، فسيروا بنا على أثرهم لعلنا نلحقهم قبل موافاتهم، فإنهم لو قد وافوهم، لمال معهم جميع أهلها»^(٢).

لقد كان الإمام أعرف الناس بأمور دولته، فهو يكشف لأصحابه الأثر السياسي لنوايا الناكثين داخل البصرة كغيرهم من المسلمين، لا يعرفون الهدف الحقيقي من مقدمهم، وهذه الضباية سوف تترك الحياة السياسية بمجرد دخول الناكثين البصرة، وعلى هذا الأساس قال لأصحابه: «قد سارت عائشة وطلحة والزبير، كل واحدٍ منهما يدعي الخلافة دون صاحبه، فلا يدعي طلحة الخلافة إلا أنه ابن عم عائشة، ولا يدعيها الزبير إلا أنه صهر أبيها، والله، لئن ظفرا بما يريدان، ليضربنّ الزبير عنق طلحة، وليضربنّ طلحة عنق الزبير، ينزع هذا على الملك هذا»^(٣).

ولم يكن كلام أمير المؤمنين هذا يأتي من فراغ، بل كان نتيجة استقراءه الصحيح للأمر، الأمر الناتج من معرفته التامة بالرجلين: طلحة والزبير؛ إذ كلّ منهما يحاول أن يسدّ الفراغ السياسي الظاهر في جيشهما من حيث القائد الحقيقي، الذي انحصر فيما بعد بشخصية أم المؤمنين عائشة.

فالإمام علي (عليه السلام) كان على بصيرة من أمره، ويعرف أنه على الحق، فلما حث أهل المدينة على النهوض معه لملاقاة الناكثين، قال الشعبي: «ما نهض معه في هذا الأمر

(١) ابن كثير، البداية والنهاية: ٧ / ٢٦١.

(٢) الدينوري، الأخبار الطوال: ص ١٤٤.

(٣) المفيد، الإرشاد: ص ١٨٩؛ المجلسي، بحار الأنوار: ٣٢ / ١١٣.

غير ستّة نفر من البدريّين ما لهم سابع»^(١).
وقال أبو قتادة الأنصاريّ: «يا أمير المؤمنين، إنّ رسول الله ﷺ قلّدي هذا السّيف، وقد أغمدته زماناً، وقد حان تجريده على هؤلاء القوم الظالمين الذين لا يألون^(٢) الأمّة غشّاً، وقد أحببت أن تقدّمني»^(٣).

وقالت أمّ المؤمنين أمّ سلمة رضي الله عنها: «يا أمير المؤمنين، لولا أن أعصي الله وأنك لا تقبله منّي، لخرجت معك»^(٤)، وهذا ابن عمّي، وهو والله أعزّ عليّ من نفسي يخرج معك، ويشهد مشاهدك»^(٥)، فخرج معه.

ويبدو أنّ الذين اشتركوا بمقتل عثمان من أهل البصرة ومنّ تواجد منهم في تلك الفترة هناك قد انضمّوا إلى جيش الإمام عليّ عليه السلام، ويذكر ابن الأثير في هذا

(١) ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ٢ / ٥٨٢؛ ابن كثير، البداية والنهاية: ٧ / ٢٦١.

(٢) لا يألون: أي: لا يقصّرون في إفساد الأمّة. ابن منظور، لسان العرب: ١٤ / ٤٠؛ وجاء في الحديث النبويّ: «ما من بطانة وآل إلا وله بطانتان: بطانة تأمره بالمعروف وتنهيه عن المنكر، وبطانة لا تألوه خبالاً [أي: لا تقصّر في إفساد حاله]». أحمد بن حنبل، المسند: ٢ / ٢٣٧؛ البخاري، الصّحيح: ٨ / ١٢١؛ الترمذي، السنن: ٤ / ١٤؛ النسائي، السنن: ٧ / ١٥٨.

(٣) الطبريّ، تاريخ: ٣ / ٤٧٠.

(٤) لما اجتمع أصحاب أمير المؤمنين عليه السلام، استشارهم في الأمر، فقام ابن عبّاس، وتحدّث برأيه، ثمّ قال: وتكتب إلى أمّ سلمة فتخرج معك، فإنّها لك قوّة، فردّ عليه أمير المؤمنين...: أمّا أمّ سلمة، فإنّي لا أرى إخراجها من بيتها كما رأى الرّجلان إخراج عائشة». المفيد، الجمل: ص ١٢٨.

(٥) ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ٢ / ٥٨٢؛ المقرئ، إمتاع الأسعاف: ١٣ / ٢٣٦. وزاد الإسكافيّ في الكتاب: «ولكنني باعثة معك سمعي وبصري: عمر بن أبي سلمة، ربيب رسول الله ﷺ، وهو ابن أخيك، فاغذه بالعلم، ورشّحه بالمروءة، واحفظ منه ما تحفظ من ابنيّ: الحسن والحسين». المعيار والموازنة: ص ٣٠.

المجال: «خرج معه نشط من الكوفيّين والبصريّين متخفّفين في تسعمائة»^(١).
في حين أنّ هناك رواية أخرى تذكر أنّهم كانوا سبعمائة فقط^(٢).
ويبدو على هذه الروايات شيء من المحاكمة للإمام علي عليه السلام؛ إذ لم تتعامل معه على أنّه حاكم الدولة الإسلاميّة الشرعيّ، بل جعلته كأنّه شخص خائف لا يعلم بمصيره وبمصير من معه، بل كان يخشى حتّى في توجّهه نحو العراق، ومن ثمّ، هناك فكرة مقصودة، فيها محاولة لخلق صورة مربكة تجاه حقيقة الأمر، وما حدث في المدينة من مقتل عثمان بن عفّان وخروج من خرج من أنصاره ضدّ الإمام علي عليه السلام.

أمّا بالنسبة إلى عدد أنصاره حسب تصريح الروايات، فالعدد القليل ناتج عن عدم مقدرة المدينة في إمداد الإمام عليّ بالقوّة العسكريّة اللازمة من أجل القضاء على تلك الحركة الناكثة للبيعة، وهذا ما جعل الإمام يُعيدُ النظر في الأمر، وإلى التعامل مع المستجدّات بنظرة واقعيّة، فكان خروجه -آنذاك- اعترافاً منه بعجز الحجاز عن الاستمرار مركزاً للسلطة، وبضرورة البحث عن بديل لها؛ لتفادي انقسام الدولة^(٣).

ويبدو أنّ أهل الحجاز كانوا على معرفة بنتيجة الخروج عنهم؛ إذ قالوا للإمام علي عليه السلام: «لا تخرج منها، فوالله إنّ خرجت منها، لا يعود إليها سلطان المسلمين أبداً»^(٤).

(١) الكامل في التاريخ: ٥٨٣/٢.

(٢) الطبريّ، تاريخ: ٤٧٤/٣.

(٣) د. إبراهيم بيضون، الحجاز والدولة الإسلاميّة: ص ٩.

(٤) ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ٥٨٣/٢.

فلَمَّا تَهَيَّأَ الإمام وجيشه للخروج، قام الحَجَّاج بن غزِيَّة الأنصاري^(١)، وقال:
 دِرَاكَهَا دِرَاكَهَا قَبْلَ الْفُوتِ وَأَنْفُرْنَا وَأَسْمُ بِنَا نَحْوَ الصَّوْتِ
 لَا وَأَلْتَ نَفْسِي إِنْ هَبْتُ الْمَوْتَ^(٢).

فلَمَّا نَزَلَ أمير المؤمنين الثَّعلبيَّة^(٣)، أَتَاهُ خبر عثمان بن حنيف، ولَمَّا انْتَهَى إِلَى
 الْأَسَاوِد^(٤)، أَتَاهُ خبر مَا لَقِيَ حَكِيم بن جَبَلَة^(٥)، وَهَذَا يَعْنِي أَنَّ الْإِمَامَ عَلِيَّ كَانَ عَلَى
 اتِّصَالٍ وَثِيقٍ بِأَخْبَارِ أَهْلِ الْبَصْرَةِ وَمَا يَجْرِي دَاخِلَ مِصْرِهِمْ.

وَفِي ذِي قَارٍ انْتَهَى إِلَيْهِ عُثْمَانُ بْنُ حَنِيفٍ، وَلَيْسَ فِي وَجْهِهِ شَعْرٌ، فَلَمَّا رَأَاهُ
 عَلِيٌّ عليه السلام، نَظَرَ إِلَى أَصْحَابِهِ، فَقَالَ: «انْطَلِقْ هَذَا مِنْ عِنْدِنَا وَهُوَ شَيْخٌ، فَارْجِعْ إِلَيْنَا
 وَهُوَ شَابٌّ»^(٦)، ثُمَّ عَلِمَ بِحَالِ رِبِيعَةَ وَخُرُوجِ عَبْدِ الْقَيْسِ عَنِ الْبَصْرَةِ، وَنَزُولِهِمْ
 بِالطَّرِيقِ الَّذِي سَيَقْدُمُ مِنْهُ الْإِمَامُ عَلِيٌّ إِلَى الْبَصْرَةِ، فَقَالَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ: «عَبْدُ الْقَيْسِ
 خَيْرُ رِبِيعَةَ فِي كُلِّ رِبِيعَةَ خَيْرٍ»، ثُمَّ قَالَ:

(١) هُوَ الْحَجَّاجُ بْنُ عَمْرِو بْنِ غَزِيَّةَ بْنِ ثَعْلَبَةَ بْنِ خَنْسَاءَ بْنِ جَنْدُولَ بْنِ غَنْمِ بْنِ مَازَنْ بْنِ النَّجَّارِ،
 الْأَنْصَارِيُّ، الْخَزْرَجِيُّ، رَوَى لَهُ أَصْحَابُ السَّنَنِ حَدِيثًا سَمِعَهُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، شَهِدَ صَفَيْنَ
 مَعَ الْإِمَامِ عَلِيٍّ، وَهُوَ الَّذِي ضَرَبَ مَرْوَانَ بْنِ الْحَكَمِ يَوْمَ الدَّارِ حَتَّى سَقَطَ. ابْنُ حَجَرٍ، الْإِصَابَةُ:
 ٣٠ / ٢؛ وَيُنْظَرُ: الْمَزِّي، تَهْذِيبُ الْكَمَالِ: ٥ / ٤٤٥.

(٢) الطَّبْرِيُّ، تَارِيخُ: ٣ / ٤٩٥؛ ابْنُ الْأَثِيرِ، أُسْدُ الْغَابَةِ: ٢ / ١٢٩.

(٣) الثَّعْلَبِيَّةُ: مَنْسُوبَةٌ إِلَى ثَعْلَبِ بْنِ مَالِكِ بْنِ دُودَانَ بْنِ أَسَدٍ، هُوَ أَوَّلُ مَنْ احْتَفَرَهَا، وَهِيَ مِنْ
 أَعْمَالِ الْمَدِينَةِ، وَكَانَتْ مَاءُ لَبْنِي أَسَدٍ. الْبَكْرِيُّ، مَعْجَمُ مَا اسْتَعْجَمَ: ١ / ٣٤١.

(٤) الْأَسَاوِدُ: اسْمُ مَاءٍ عَلَى يَسَارِ الطَّرِيقِ لِلْقَاصِدِ إِلَى مَكَّةَ مِنَ الْكُوفَةِ. يَاقُوتُ الْحَمَوِيُّ، مَعْجَمُ
 الْبُلْدَانِ: ١ / ١٧١.

(٥) الطَّبْرِيُّ، تَارِيخُ: ٣ / ٤٩٦؛ وَيُنْظَرُ: الضَّبِّيُّ، الْفِتْنَةُ وَوَقْعَةُ الْجَمَلِ: ص ١٣٨.

(٦) الطَّبْرِيُّ، تَارِيخُ: ٣ / ٤٩٦.

يَا هُفَ نَفْسِي عَلَى رِبِيعَةٍ رِبِيعَةِ السَّامِعَةِ الْمُطِيعَةِ
قَدْ سَبَقْتَنِي فِيهِمُ الْوَقِيعَةُ دَعَا عَلِيٌّ دَعْوَةً سَمِيعَةً
حُلُّوا بِهَا الْمُنْزَلَةَ الرَّفِيعَةَ^(١).

فشعرُ الإمام عليٍّ (عليه السلام) بالنسبة إلى ربيعة له مدلول سياسي، يوحي لنا بأن هذه القبيلة بالذات كانت تسمع وتطيع لأمر الإمام، وهي أقرب من غيرها من القبائل البصريّة الأخرى التزاماً بعهداها وبيعتهَا لِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ، ويبدو أنَّ الناكثين قد تضايقوا من رجال ربيعة، ومن موقفهم السَّيَاسِيِّ الَّذِي فَاقَ تصوّرهم عن أهل البصرة.

ثم كتب الإمام عليٌّ (عليه السلام) إلى الأمصار العربيّة يوضّح لها الأمر، لكي يصبح الناس على بينة من أمرهم، ويكشف الزيف الذي يدور في أذهان المسلمين، فأرسل إلى الكوفة محمّد بن أبي بكر ومحمّد بن جعفر^(٢)، فرفض أبو موسى الأشعريّ الذي كان والياً على الكوفة الاستجابة للإمام عليٍّ! بل عمل على تشييط النَّاسِ عن أمير المؤمنين، وكان يأمرهم بالقعدة وعدم نصرته^(٣).

وعلى أثر ذلك أرسل عبد الله بن العباس ومالك الأشتر، فلم يتمكّنا من إقناع أبي موسى بالانصياع والكفّ عن تشييط الناس عن نصرته الإمام عليٍّ، فأرسل

(١) الطبريّ، تاريخ: ٤٩٦/٣؛ المسعوديّ، مروج الذهب: ١١٥/٣؛ المجلسيّ، بحار الأنوار: ٢٤/٣٤.

(٢) محمّد بن جعفر بن أبي طالب: وُلِدَ على عهد النبيّ (صلى الله عليه وآله) أمّه أسماء بنت عميس، خلق رسول الله رأسه ورؤوس أخوته حين جاء نعي أبيه جعفر سنة ٨هـ، ودعا لهم، وقال: أنا وليّهم في الدّنيا والآخرة. شهد صفّين مع الإمام عليٍّ، وقيل: استشهد بتستر. ابن عبد البرّ، الاستيعاب: ١٣٦٧/٣؛ الصّفدي، الوافي بالوفيات: ٢/٢١٥؛ الزّركلي، الأعلام: ٦٩/٦.

(٣) الطبريّ، تاريخ: ٥٠٠/٣؛ المفيد، الجمل: ص ١٣١.

ولده الحسن وعمّار بن ياسر، فعزلوا أبا موسى عن الكوفة، وخرجت الناس ملبية الدعوة للإمام عليّ، وعلى رأسهم كبار أهل الكوفة وزعمائهم^(١).

بعد ذكر هذه الأحداث ومسير الإمام عليّ عليه السلام، وما اتّبع من تدابير لازمة تمكّنه من القضاء على ذلك التمرد، وقبل الخوض بمراسلته الناكثين الذين بسطوا سيطرتهم على البصرة، هناك رأي يقول: «لعلّ أكثر ما خشيه عليّ قيام اتصال بين البصرة والشام، وما يرافقه من حصار اقتصاديٍّ للخلافة التي تستمدّ مصادرها من الإقليم خصوصاً العراق»^(٢).

ولكن، من خلال النصوص التاريخية ومتابعة الأحداث التي شهدتها المنطقة، ومع أخذ حال المسلمين في الأمصار العربيّة سيّما البصرة بنظر الاعتبار، لا نجد لهذه الفكرة أيّ مجال للقبول في المصادر التاريخية؛ فمركز الخلافة ما يزال الحجاز، الذي يتمتّع بالمكانة المرموقة لمكة المكرمة، التي كُرّمت ببيت الله الحرام، وهذا ما جعل المسلمين يتقدّمون في كلّ عام إلى تلك الناحية، ويحضرون هناك، فردود الأفعال تكون كبيرة بشأن الحصار إذا ما فرض.

ثمّ ليس هناك أية وثائق تاريخيّة تكشف عن تلك التحضيرات من الإمام عليّ عليه السلام، فلو كانت موجودة، لكان الإمام ذكرها في رسائله السَّياسيّة التي بعثها إلى الأمصار الإسلاميّة.

وهناك -أيضاً- حقيقة هي أنّ أهل البصرة لم يكونوا ذوي ارتباط مرغوب به ببلاد الشّام، بل كانوا ذوي معرفة وفطنة بمعاوية ومناوئيه، وهناك نصّ يكشف

(١) الطبريّ، تاريخ: ٣/ ٥٠١؛ ويُنظر: محمّد الريشهري، موسوعة الإمام عليّ بن أبي

طالب عليه السلام: ١٥٠/ ٥.

(٢) المصدران السّابقان.

نظرة أهل البصرة هذه؛ فقد رُوي أنَّ الأحنف بن قيس التميمي في حديثه مع الإمام علي (عليه السلام) في نهضة أهل البصرة يوم صفين، قال: «وعجبوا اليوم ممَّنْ خذلك؛ لأنَّهم شكَّوا في طلحة والزبير ولم يشكَّوا في عمرو ومعاوية»^(١)، حتَّى لو أنَّ عائشة وأتباعها فكَّروا في ذلك الحصار، لما تمكَّنوا من تطبيقه؛ إذ لو كانوا فعلوا، لشكَّ أهل البصرة في أمرهم وغاياتهم؛ فالزبير رغب في قيادة الذين انضمَّوا إليهم لقتال الإمام علي (عليه السلام)، فلم يستجيبوا إليه، بل لم يتجرَّأ أحد على النهضة معه^(٢). فهُمَّ الناكثين كان ينصبُّ على تحريض الناس ضدَّ الخليفة الجديد، عسى أن يؤثِّروا عليه بذلك؛ بغية إفشال سلطته الجديدة، ومن ثَمَّ، زحزحته شيئاً فشيئاً.

أمَّا بالنسبة إلى نظرة الإمام علي (عليه السلام) للظروف والتطورات السياسيَّة في البصرة، فقد انعكست من خلال مبادرته للسلام؛ عسى أن يتمكَّن من إيقاض شعور الناكثين بضرورة المحافظة على وحدة المسلمين، وعدم إراقة المزيد من دمائهم، فما إنَّ أقبل الكوفيُّون ورؤساؤهم لنصرة الإمام علي، واجتمعوا معه في ذي قار، حتَّى أرسل صعصعة بن صوحان بكتاب إلى طلحة والزبير وعائشة، يعظِّم عليهم فيه حرمة الإسلام، ويخوِّفهم من فضاة ما صنعوه، وقبيح ما ارتكبوه، من قتل من المسلمين في البصرة، قال صعصعة: «فقدمتُ عليهم، فبدأتُ بطلحة، وأعطيتُه الكتاب، وأدَّيت الرِّسالة، فقال: الآن حين عصَّت ابن أبي طالب الحربُ ترفق لنا؟! ثمَّ جئت إلى الزبير، فوجدته ألين من طلحة، ثمَّ جئت إلى عائشة، فوجدتها أسرع النَّاس إلى الشرِّ»^(٣).

(١) إبراهيم بيضون، الحجاز والدولة الإسلاميَّة: ص ٢٠٩.

(٢) ابن قتيبة، الإمامة والسياسة: ١/ ١٠٦؛ ويُنظر: نصر بن مزاحم، وقعة صفين: ص ٢٤.

(٣) المفيد، الجمل: ص ١٦٧.

ويبدو من هذا النصّ أنّ الإمامَ عليه السلام لم يكن يتسرّع في الأمور المهمّة التي لها أثر عظيم حال حدوثها، فهذا هو يعمل من أجل إصلاح ما يمكن إصلاحه من حال الناكثين، في حين نجد الطرف الآخر قد نظر إلى كتاب أمير المؤمنين باعتبارها شخصيّة بعيدة كلّ البعد عن كونها تنطلق من مصلحة المجتمع الإسلاميّ؛ كلّ ذلك اعتقاداً من هؤلاء بالتباس الأمر على عليّ، الذي ربّما يحقق لهم رغباتهم عند الإصرار على مقاطعته ومحاربته، وهذا راجع إلى قلة التدبير في صفوف جيش الناكثين، مع استمرارهم على عداوة عليّ بن أبي طالب عليه السلام.

وعلى أية حال، لم تفلح محاولة الإمام الحيلولة دون مزيد من إراقة دم المسلمين وتشتّت جمعهم، إلّا أنّه لم يثن عن مبادراته ومحاولاته في هذا الشأن؛ فأرسل عبد الله بن العبّاس، وقال له: «إنطلق إليهم، فناشدهم، وذكرهم العهد الذي لي في رقابهم»^(١).

فخرج ابن عبّاس إليهم، وتحدّث معهم، فكانت مساعيه كمن سبقه، بل تجرّأ الناكثون على إعلان بعض المطالب التي تهدف إلى تقوية شأنهم^(٢)، وهذا ناتج عن تأثرهم بالسلطة والحكم الذي سعوا للحصول عليه، فقد كان طلبهم حسب ما ذكره الشّيخ المفيد قول طلحة والزبير لابن عبّاس: «فقل لابن عمّك: إن كان يريد حقن الدّماء وإصلاح أمر الأمّة، فليمكنّا من قتلة عثمان، فهم معه، ويخلع نفسه، ويردّ الأمر ليكون شورى بين المسلمين، فيولّوا من شاؤوا، فإنّا عليّ رجل

(١) المفيد، الجمل: ص ١٦٧؛ ويُنظر: محمّد باقر المحموديّ، نهج السّعادة: ٦٨/٤؛ محمّد الريشهريّ، موسوعة الإمام عليّ بن أبي طالب: ٢٠٣/٥.

(٢) المفيد، الجمل: ص ١٦٨.

كأحدنا، وإن أبي، أعطيناه السيف، فما له عندنا غير هذا»^(١).
ويبدو أن هذه المفاوضات جرت وأمر المؤمنين على مشارف البصرة تاركاً ذي قار، فابن عباس يقول: «فخرجتُ إلى عليٍّ، وقد دخل بيوت البصرة»^(٢).
أما بالنسبة إلى سيف بن عمر، فقد سُلِّل أحداث الصلح بطريقة أخرى تختلف عن الذي ذكرناه، وأورد لنا بعض الشخصيات الوهميّة، ومنها: ما ذكره بشأن القعقاع بن عمرو التميمي؛ إذ يذكر أنه هو الذي اختاره الإمام عليّ ليقوم بعرض الصلح على عائشة وطلحة والزبير^(٣). والشيء الملفت للنظر، هو أن الإمام عليّاً عليه السلام يقول للقعقاع: «أنت لها!»^(٤)، فخرج ليلتقي بعائشة وأتباعها في البصرة، ثم يطلب من عائشة أن تستدعي طلحة والزبير حتى تسمع كلامه وكلامهما، فلما اجتمع بهم، عرض عليهم وجهة الإصلاح، فاعترض طلحة والزبير عليه بقتلة عثمان، فنجده يردّ على القوم بحزم وثبات، حتى تمكّن من إقناعهم، وقبول الصلح بين الطرفين. إلا أن شخصيّة القعقاع لا يكون لها أيّ حضور في الأحداث بعد ذلك؛ إذ تختفي عن الأنظار والأسماع عندما وقع القتال بين الطرفين.
لقد كان الأجدر هنا أن يحتجّ على أولئك الذين بثوا الصّراع، ومن ثمّ، نسفوا جهده الذي قام به من أجل الصلح، وعليه، لم يتمكّن سيف بن عمر من إبراز

(١) المفيد، الجمل: ص ١٦٨.

(٢) المفيد، الجمل: ص ١٦٨.

(٣) الضبيّ، الفتنة ووقعة الجمل: ص ١٤٥؛ الطبريّ، تاريخ: ٣/ ٥٠٢.

(٤) الطبريّ، تاريخ: ٣/ ٥٠٢. أمّا سند الرواية، فجاء: «عن شعيب عن سيف عن محمّد وطلحة بإسنادهما...». وهذا السند ضعيف وفق قواعد الجرح والتعديل؛ لأنّه ناقص، ويحتاج سلسلة الرواة الآخرين لتتمّة الرواية، فهو من المرسل حسب اصطلاح علماء الحديث.

موقفه بالنسبة إلى أولئك الغوغاء، الذين ثاروا أثناء الليل بين معسكر الإمام عليٍّ ومعسكر الناكثين، وكانت الحرب بسببهم.

ثم تبرز شخصية القعقاع في نهاية المعركة مرّة أخرى ليكون له الفضل في نهايتها ووضع أوزارها، فهو مَنْ عَقَرَ الْجَمَلَ، ثم حَمَلَ هودجَ أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ عائشة فوضعه جانباً^(١).

أمّا ما يخصّ ترجمة القعقاع بن عمرو، فقد ذكره ابن حجر مستنداً في ذلك على أقوال سيف بن عمر فيه، دون أن يذكر ولو قولاً واحداً للأخباريين والرواة الآخرين المعروفين لدينا^(٢). حتّى أنّ الطبراني عندما ذكره في مَنْ يُحْمَلُ تسمية القعقاع، اكتفى بالقعقاع بن عمرو دون ترجمة للشخصية^(٣).

أمّا ابن عبد البرّ، فقد ذكر ترجمة عاصم بن عمرو التميمي، وقال: إنّ أخو القعقاع بن عمرو، ثمّ أضاف: «لا يصحّ لهما عند أهل الحديث صحبة ولا لقاء ولا رواية»^(٤).

وعلى هذا الأساس، فروايته وردت لدى سيف بن عمر فقط، دون سائر الأخباريين ممّن سبقه، فلو كانوا قد ذكروه قبل ذلك، لكان ذلك كافياً لإثبات وجود هذه الشخصية الخياليّة المختلقة.

يقول بعض الباحثين: «إنّ القعقاع بن عمرو التميمي من مختلقات سيف بن عمر، بل إنّك تجزم مع البحث أنّه من مختلقاته، وليس له وجود أصلاً. أو أنّه على

(١) الطبريّ، تاريخ: ٣/ ٥٣٤؛ والمشهور أنّ محمّد بن أبي بكر أخاها هو مَنْ فعل ذلك.

(٢) الإصابة: ٥/ ٣٤٢.

(٣) المعجم الكبير: ١٩/ ٤٠.

(٤) الاستيعاب: ٢/ ٧٨٤.

أبعد حدّ هو رجل بسيط بالغ فيه سيف بن عمر حتّى أوصله إلى مصافّ خالد بن الوليد»^(١).

وحقيقة أمر القعقاع بن عمرو التميمي، هي أنّه من أساطير سيف الموضوعه في حرب الجمل، وقد قام السيّد مرتضى العسكري بإعداد دراسة مستوفية عنه ضمن كتابه (خمسون ومائة صحابي مخلوق)^(٢).

ويبدو أنّ ظهور هذه الشخصية، كان بسبب انتشار أحاديث سيف من تاريخ الطبري إلى كتب التاريخ الأخرى؛ فابن الأثير نقل حدث معركة الجمل من تاريخ الطبري برواية سيف، وكذلك نقلها ابن كثير؛ ففي نهاية حديثه عن أحداث الجمل وما جرى بالبصرة، يقول: «هذا ملخص ما ذكره ابن جرير الطبري عن أئمة هذا الشأن»^(٣).

وعلى هذا، فرواية سيف بن عمر من تاريخ الطبري أوثق عندهم؛ لأنّها أبعد عن المطاعن والشبهة في كبار الأئمة من الصحابة والتابعين في تلك الفترة، وعلى هذا، لا يمكننا اعتبار القعقاع طرفاً آخر في مساعي الصّالح بين الناكثين والإمام عليّ في معركة الجمل، فلو كان هذا الوهم حقيقيّ في مسألة الصّالح، لكان كفيلاً باستمراره حتّى مع دخول أمير المؤمنين البصرة؛ لأنّ دخوله كان مصحوباً بتراضي الطرفين، ومن ثمّ، لا يتمكّن الغوغاء من إحداث أيّ استفزاز لكلا المعسكرين،

(١) حسن فرحان المالكيّ، نحو إنقاذ التاريخ الإسلامي: ص ٧٣.

(٢) يُنظر: ١/ ٥٩-١٨٧؛ ويُنظر للمؤلّف كتابه: أحاديث أمّ المؤمنين عائشة: ١/ ٢٦٢؛ عبد الله بن سبأ: ٢/ ١٥٦؛ ويُنظر: سامي البدري، المدخل إلى دراسة مصادر السيرة النبويّة والتاريخ الإسلامي: ص ٦٠٧.

(٣) البداية والنهاية: ٧/ ٢٧٥.

سواء أفي اللَّيْلِ أم في النَّهَارِ.

وبعدما توجَّه أمير المؤمنين عليه السلام من ذي قار قاصداً البصرة، خرج إليه شيعته من أهلها من ربعة، وهم ثلاثة آلاف^(١)، وفي رواية أخرى: ألف رجل^(٢)، ويبدو أنَّ هؤلاء البصريين هم من حُرِّموا مِنْ أرزاقهم، بل لم يجدوا لهم مكاناً آمناً في مدينتهم بعد مقتل حكيم بن جبلة، فكان منقذهم الوحيد أمير المؤمنين عليه السلام، الذي لم يخذلهم عندما تمسَّكوا ببيعته ولم يبايعوا الناكثين، فمجيء الإمام علي عليه السلام إلى البصرة لم يكن مقتصرًا على القضاء على تمرُّد الناكثين وإرجاعهم إلى رشدهم، بل كان من جملة أهدافه تخليص أهل البصرة من أولئك الذين أفسدوهم.

ثم تقدَّم أمير المؤمنين ونزل الزاوية^(٣)، وأقام ثلاثة أيَّام يبعث رسله إلى أهل البصرة^(٤)، فكانت نتيجة هذه المراسلات قدوم الأحنف بن قيس على الإمام عليه السلام، الشخصية التي كان لها دور كبير في الأحداث السَّيَاسِيَّة، والأثر الفعَّال في بني تميم؛ بوصفه سيِّدهم في تلك الفترة.

وكان الأحنف أكثر أهل البصرة معرفةً بحقيقة ادِّعاء الناكثين وهدف مقدمهم البصرة، فهو يقول: «لم أباع عليًّا حتَّى لقيت طلحة والزبير وعائشة بالمدينة، وأنا أريد الحجَّ، وعثمان محصور، فقلت لكلِّ منهم: إنَّ الرجل مقتول، فمن تأمروني

(١) ابن شهر آشوب، مناقب آل أبي طالب: ٢ / ٣٣٨.

(٢) المفيد، الجمل: ص ١٥٨.

(٣) الزاوية: موضع قرب البصرة، وكانت به الوقعة المشهورة بين الحجاج بن يوسف الثقفي، وعبد الرحمن بن محمد بن الأشعث، وذلك سنة ٨٣هـ. ياقوت الحموي، معجم البلدان:

١٢٨ / ٣.

(٤) الدِّينوري، الأخبار الطَّوال: ص ١٤٧.

أبايع؟ فكلّهم قال: بايع عليّاً. فقلت أترضونه لي؟ فقالوا: نعم. فلما قضيت حجّتي، ورجعت إلى المدينة، رأيت عثمان قُتل، فبايعتُ عليّاً، ورجعت إلى أهلي، ورأيت الأمر قد استقام، فبينما أنا كذلك إذ أتاني آتٍ، فقال: هذه عائشة وطلحة والزبير بالخريبة يدعونك، فقلت: ما جاء بهم؟ قال: يستنصرونك على قتال عليّ في دم عثمان، فأتاني أفضع أمر! (١).

إنّ هذا النصّ يكشف عن الحقيقة التي وقف عليها الأحنف، وكذا يكشف عن مدى رجحان عقله في حفظ شخصيته من الاتهام؛ فهو قد استعرض آراء الصحابة في من يبايع لأمر الخلافة، وكان على قناعة تامّة بمبايعة الإمام عليّ (عليه السلام)؛ لذلك لم يتأثر بقدوم الناكثين، بل حاججهم بحقيقة أمرهم، وما أبدوه من رأي حين سألهم عن الخليفة الذي ينبغي له أن يبايعه بعد عثمان بن عفّان، وهذا ما جعلهم يكفون أمره، ولا يتعرّضون إليه بسوء.

فلما نزل أمير المؤمنين الزاوية، بعث إليه الأحنف: «إنيّ مقيم على طاعتك في قومي، فإن شئت، حبست عنك أربعة آلاف سيف من بني سعد» (٢). فبعث إليه أمير المؤمنين: «كفّ بما أعطيت أصحابك من الاعتزال. قال: إنّ من الوفاء لله (ﷻ) قتالهم، فأرسل: كفّ من قدرت على كفّه» (٣). فكان اعتزال الأحنف من أجل

(١) الطبريّ، تاريخ: ٣/ ٥١١؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ٢/ ٥٩٦.

(٢) المفيد، الجمل: ص ١٥٨؛ ويُنظر: ابن قتيبة، الإمامة والسياسة: ١/ ٩١؛ وفي رواية أخرى، إنّ الأحنف قال للإمام عليّ (عليه السلام): «أكفّ عنك عشرة آلاف سيف». الطبريّ، تاريخ: ٣/ ٥١٠. وهذا عدد كبير لا يتناسب مع عدد أهل البصرة حينئذٍ.

(٣) الطبريّ، تاريخ: ٣/ ٥١٣؛ ويُنظر: محمود شيث خطّاب، الأحنف بن قيس التميميّ، مجلّة المجمع العلميّ العراقيّ، مج ١١، لعام ١٩٦٤م، ص ٤٨.

حفظ دماء قومه من أن تراق في ساحة القتال؛ إذ كان يقول لهم: «كفّوا عن هذه الفتنة، واقعدوا في بيوتكم، فإن ظهر أهل البصرة، فهم إخوانكم لم يهيجوكم، وإن ظهر عليّ، سلّمتم»^(١).

فلما علم طلحة والزبيرُ بخبر الأحنف واعتزاله، بعثا إليه يستميلانه ويرغبانه في الدخول تحت طاعتها^(٢)، بل حاولا أن يثنياه عن أمره ويبيّجاه لصالحهما، فكانا يقولان له: «أفّ لك، إنّما أنت فريسةٌ آكل، وتابّع غالب»^(٣).

ويبدو أنّ الأحنف تعرّض للضغط من قبل طلحة والزبير، وهذا ناتج عن قوله لهما: «اختاروا منّي إحدى ثلاث خصال: إمّا أن ألحق بعليّ بن أبي طالب، وإمّا إن أتى الأهواز فأقيم بها، فقالا: ننظر في ذلك»^(٤).

والشيء الغريب أنّ الأحنف طلب منهم أن يختاروا واحدة من ثلاث خصال بينما لم يذكر المصدر إلاّ خصلتين دون الثالثة، ولم يذكر تلك الثالثة لا الطبريّ ولا سائر المصادر.

لقد كان دهاء الأحنف يكمن في هذا الردّ المذكور؛ فمن جهة، خيّرهم بأن ينضمّ إلى جيش الإمام عليّ، وهذا ما لا يمكن أن يوافقوا عليه؛ لأنّه سوف ينضمّ إلى خصمهم المباشر، أو يخرج إلى الأهواز، فيكون قد فتح ثغرة على جماعة طلحة والزبير في تفرّق الناس عنهم، لا سيّما الذين يشكّون في أمرهم، ومن ثمّ يضعف أمرهم.

(١) المفيد، الجمل: ص ١٥٨.

(٢) المفيد الجمل: ص ١٥٩.

(٣) البلاذريّ، أنساب الأشراف: ٤٣١ / ٩.

(٤) المفيد، الجمل: ص ١٥٩؛ ويُنظر: الطبريّ، تاريخ: ٥١١ / ٣.

وعلى هذا الأساس، فكروا في أن يكون قريباً منهم بإشارة بعض أتباعهم، «فإن تحرّك، وطأتماه على صماخه»^(١). فأمروه بالقيود وعدم إثارة بني قومه ضدّهم، فكان الإمام علي (عليه السلام) يقول بحقّ الأحنف: «أدهى العرب، وخيرهم لقومه»^(٢). ويذكر البعض أنّ الأحنف بن قيس اعتزل في خاصّة قومه لا على التديّن بالاعتزال، أي: حفظ دينه ودين قومه، لكن على طلب السّلامة من القتل وذهاب المال، وقال لقومه: «اعتزلوا الفتنة أصلح لكم»^(٣).

من الصحيح أنّ اعتزاله لم يكن على حفظ الدّين، لكنّه عرض ذلك على أمير المؤمنين، فطلب منه (عليه السلام) الاعتزال؛ لأنّ في اعتزاله نصرة للإمام علي (عليه السلام) عندما يتمكّن من كفّ أربعة آلاف سيف، الأمر الذي يبدو أنّه قد راق لأمر المؤمنين؛ لأنّه سوف يحفظ دماء بعض المسلمين من أن تسفك في ساحة القتال؛ لذلك، لم يقل له: تعال إليّ وأعني^(٤)، بل أمره بالاعتزال، وهذا يعكس لنا نظرة أمير المؤمنين إلى جبهة الخصم، التي سوف ترتبك وتهتزّ باعتزال بني سعد التميميّين، وهذا الاعتزال قد يجذب العديد من البصريّين إلى تلك الخطوة التي خطاها الأحنف وعشيرته.

ثمّ إنّ أمير المؤمنين (عليه السلام) لم يكن يرغب في وجود عناصر مشكّكة في صفوف جيشه، وهذا الشكّ راجع إلى عدم معرفة الغالبية العظمى من هذا الجيش بحقّ

(١) المفيد، الجمل: ص ١٥٩؛ ويُنظر: الصنعاني، المصنّف: ٧ / ٢٦٥.

(٢) المفيد، الجمل: ص ١٥٩.

(٣) النوبختي، فرق الشّيعية: ص ٥.

(٤) سعيد أيّوب، معالم الفتنة: ٢ / ٢٨.

الإمامة التي ميّزته عليه السلام عن غيره^(١)، وبذلك يقول الإمام محمد بن عليّ الجواد عليه السلام: «كان عليّ بن أبي طالب عندكم بالعراق يقاتل عدوّه ومعه أصحابه، وما كان فيهم خمسون رجلاً يعرفونه حقَّ معرفته، وحقَّ معرفته إمامته»^(٢).

فاعتزل الأحنف بالجلحاء^(٣) من البصرة^(٤)، وقيل: في وادي السَّباع^(٥). وكان ممَّنْ اعتزل الحرب أبو بكر الثَّقفيّ مولى رسول الله ﷺ، فقد قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لا يُفلح قوم تلي أمرهم امرأة»^(٦).

وقال أبو مخنف وغيره: «أرسل عمران بن حصين إلى بني عديّ يأمرهم بالقعود عن الفريقين، وقال: لئن أَرعى غنماً عفراً^(٧) في جبل حضن^(٨)، أحبَّ إليّ من أن أرمي في الفريقين بسهم»^(٩).

ويبدو أنَّ هؤلاء الذين اعتزلوا حرب الجمل لم يتأثروا بأقوال رسول الله ﷺ بشأن حرب الإمام عليّ، سواء أضدّه أم معه؛ إذ كان الرّسول الأكرم ﷺ يقول

(١) شكري ناصر عبد المحسن الميّاخي، الإمام عليّ بن أبي طالب: دراسة في فكره العسكريّ: ص ١١١.

(٢) الكشيّ، الرّجال: ص ٦.

(٣) الكشيّ، الرّجال: ص ٦.

(٤) الجلحاء: الأرض التي لا نبات فيها. الطريحيّ، مجمع البحرين: ١ / ٣٨٥.

(٥) البلاذريّ، أنساب الأشراف: ٣ / ٣٤؛ الطبريّ، تاريخ: ٣ / ٥١٦؛ المفيد، الجمل: ص ١٥٩.

(٦) المفيد، الجمل: ص ١٦٠.

(٧) عفراً: العفر: التراب. الجوهريّ، الصّحاح: ٢ / ٧٥١.

(٨) حضن الجبل: ناحيته. ابن منظور، لسان العرب: ١٣ / ١٢٢.

(٩) ابن سعد، الطبقات: ٤ / ٢٨٨.

بحق الإمام علي عليه السلام: «حربك حربي، وسلمك سلمي»^(١).

إننا إذا ما وقفنا عند هذا الحديث النبوي الشريف، وجدنا أن حروب أمير المؤمنين إنما هي امتداد لحروب رسول الله ﷺ، ومن ثم، فاعتزال أولئك الذين ذكرناهم ربما جاء حسب رغباتهم دون النظر بعين الاعتبار والمسؤولية للدين الإسلامي وما يترتب عليهم بشأنه، أما الذين شككوا بأحقية الإمام علي وخوضه الحرب ضد أصحاب الجمل، فقد قال رسول الله ﷺ: «علي مع الحق، والحق مع علي، يدور حيثما دار»^(٢).

والظاهر من الأمر أن الناس في تلك الفترة لم يهتموا بالأمر الحق بقدر ما رغبوا بالابتعاد عن القتال؛ لأنه وقع لأول مرة بين طرفين مسلمين، وحتى الذين اعتزلوا لم يكن الناكثون يتركونهم؛ فكعب بن سور قاضي البصرة أيام عمر بن الخطاب، وهو سيد الأزد وأهل اليمن في البصرة أيام دخول الناكثين، لم يتركوه في ما رغب إليه من الاعتزال، بل أرسلوا إليه يسألونه النصر لهما والقتال معهما، فأبى عليهما، وقال: «أنا أعتزل الفريقين»^(٣)، فقالوا: لا، لئن قعد عنا كعب، خذلنا الأزد بأسرها، ولا غنى لنا عنه^(٤)، فرغب طلحة والزبير بكسبه إلى جانبهما، وأن

(١) الصدوق، الأمالي: ص ١٥٦؛ الطبري الإمامي، المسترشد: ص ٦٣٤؛ الطوسي، الأمالي: ص ٣٦٤؛ الخوارزمي، المناقب: ص ١٢٩؛ ابن شهر آشوب، مناقب آل أبي طالب: ٣/ ١٨؛ ابن البطريق، العمدة: ص ٢١٤.

(٢) الإسكافي، المعيار والموازنة: ص ٣٥؛ الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد: ١٤/ ٣٢٢؛ ابن شهر آشوب، مناقب آل أبي طالب: ٢/ ٢٦٠؛ ابن عساكر، تاريخ دمشق: ٤٢/ ٤٤٩؛ ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة: ٢/ ٢٩٧.

(٣) المفيد، الجمل: ص ١٧٢.

(٤) المفيد، الجمل: ص ١٧٢.

يعدل عن رأيه، فلم يكن لهم ذلك، فتوجهوا إلى أم المؤمنين عائشة؛ لأنها أفضل مَنْ يستطيع إقناعه، فأبت أول الأمر الخروج إليه، فقال طلحة والزبير: «يا أم، إن قعد عنا كعب، قعدت عنا الأزد كلُّها، وهي حيّ البصرة، فاركبي إليه؛ فإنك إن فعلت، لم يخالفك، وانقاد لرأيك»^(١).

والظاهر أن اعتزال الأحنف بن قيس قد أثر في نفوس البصريين، الذين أحسوا بالخطأ الذي يرتكبونه في حالة اشتراكهم في القتال، فلم يكن طلحة والزبير قادرين على تعديل وجهة نظر أولئك الأشخاص الذين مالوا إلى العزلة^(٢)، فتوجهوا عائشة نحو تلك المهمة، وهي بدورها قادرة على تغيير النفوس، فما إن استعبرت باكية، حتى رَقَّ لها كعب بن سور، وأجابها، وعلّق المصحف في عنقه، وخرج معها^(٣).

ولم يكتفِ طلحة والزبير بتحويل الناس إلى جانبهما، بل سعيًا إلى قلب معطيات الأمور ضدَّ الإمام عليٍّ عليه السلام؛ وذلك من خلال بثِّ الإشاعات المغرضة بين أهل البصرة، الإشاعات التي لقيت رواجاً كبيراً في صفوف الناكثين، وحققت نسبة كبيرة ممَّا وضعت له؛ فالمدائني والواقدي، يقولان: «إنَّ طلحة والزبير قاما في الناس، فقالا: إنَّ عليّاً إن يظفر، فهو فناؤكم يا أهل البصرة، فاحموا حقيقتكم، فإنَّه لا يُبقي حرمة إلا انتهكها، ولا حريماً إلا هتكه، ولا ذرية إلا قتلها، ولا ذوات خدرٍ إلا سباهنَّ، فقاتلوا مقاتلةً مَنْ يحمي عن حريمه، ويختار الموت على الفضيحة

(١) المفيد، الجمل: ص ١٧٣.

(٢) يُنظر لحديث كعب بن سور مع صبرة بن شيان رأس الأزد يومئذٍ: ابن الصَّبَّاح، الفصول المهمة في معرفة الأئمة: ١ / ٤٠٣.

(٣) المفيد، الجمل: ص ١٧٣.

يرأها في أهله»^(١).

ويعقب ابن أبي الحديد على هذه الرواية، ويقول: إن أراجيز أهل البصرة تؤكد صدق هذه الرواية؛ فقد جاء فيها قولهم:

يا أيُّها الجُنْدُ الصَّليْبُ الإيْمَانُ قُومُوا قِيَاماً واستغيثوا الرَّحْمَنُ
إِنِّي أَنَا نِي خَبَرٌ ذُو أَلْوَانٍ إِنَّ عَلِيّاً قَتَلَ ابْنَ عَفَّانَ
يَقْتُلُهُمْ بِقُوَّةٍ وَسُلْطَانٍ^(٢).

فما كان من بعض أهل البصرة إلا التصديق بقول طلحة والزبير، والاستعداد من أجل الدفاع عن عائشة، بل عدّوها جزءاً من دينهم، وبالمقابل، فعائشة لم تبدِ أيّة مبادرة من أجل حفظ أولادها الذين نصرّوها ولزموا طاعتها، بل زجّت بهم في ساحة الوغى، ولم تَسْعَ إلى الصّلح أو تلتمس أيّة طريقة أخرى في سبيل المنع من القتال، وحفظ الدّماء، ولم يحنّ قلبُ الأمّ على أولادها، بل ازدادت قسوةً مع اقتراب الحرب والحسم بين الطرفين داخل البصرة، لذلك يقول الشّاعر:

جاءت مع الأشقيّين في هَوْدَجٍ تُزجي إلى البصرة أجنادها
كأنّها في فعلها هَرَّةٌ تريد أن تأكّل أولادها^(٣).

فهذا ما قدّمته عائشة لأتباعها وأولادها من البصريّين، وإصرارها على خلاف

(١) ابن أعثم، الفتوح: ٤٦٣/٢، ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة: ١/١٩١؛ ويُنظر: مرتضى العسكري، أحاديث أم المؤمنين عائشة: ١/٢٣٦.

(٢) شرح نهج البلاغة: ١/٢٥٤.

(٣) ابن شهر آشوب، مناقب آل أبي طالب: ٢/٣٣٨؛ العاملي، الصّراط المستقيم: ٣/١٦٣؛ الأميني، الغدير: ٢/٢٦؛ النقديّ، الأنوار العلويّة: ص ٢٠٨؛ ويُنظر: عليّ الحسينيّ الميلانيّ، نفحات الأزهار: ٦/٢٨٢.

أمير المؤمنين عليٍّ عليه السلام، وإقامتها على نكث بيعته، والعمل على حربه واستحلال دماء أتباعه.

أمّا بالنسبة إلى الإمام عليٍّ عليه السلام، فكان ينتظر ردّ عائشة وطلحة والزبير بشأن الصّلاح وإنهاء الفتنة وحفظ دماء المسلمين، وكان رسوله عبد الله بن عباس كما ذكرنا ذلك سابقاً، فلمّا رجع ابن عباس إلى أمير المؤمنين وأخبره أنّ القوم لا يتّعضون بواعظ، ولا ينتهون عن الفساد، حينها، جهّز الإمام عليٌّ كتابه، ورَتَّبَ العسكرَ، وفرَّقَ الرايات^(١).

ولما بلغ خبرُ تجهيز أمير المؤمنين عسكره طلحة والزبير، عملاً على الاستعداد من أجل خوض الحرب في البصرة.

ولما اجتمع الطرفان في البصرة للحرب، بدأ عبد الله بن الزبير يحرّض جماعتهم على القتال، وهو يقول: «ألا تمنعون حريمكم المباح؟! ألا تتّقون الله في أعطيتكم من أنفسكم؟! أترضون أن يتورّدكم أهل الكوفة في بلادكم؟! اغضبوا فقد غوَضبتهم، وقاتلوا فقد قوتلتهم، إنّ عليّاً لا يرى أنّ معه في هذا الأمر أحد سواه، والله، لئن ظفر بكم، ليُهْلِكَنَّ دينكم ودنياكم»^(٢).

ويبدو من قول ابن الزبير هذا أنّ بعض أهل البصرة قد خذلوهم حين اشتدّ الأمر وبدأ الجدد، وربّما ترك البعض معسكر الناكثين، لذلك، نجده يحاول أن يثير حماس أهل البصرة ومعنوياتهم؛ لأنّ قتالهم عليّاً إنّما هو من أجل حقوقهم الشرعيّة بادّعاء ابن الزبير، ثمّ إنّ الكوفيّين سوف يملكون أعناقهم؛ فابن الزبير لوّح لأهل

(١) المفيد، الجمل: ص ١٧١.

(٢) المفيد، الجمل: ص ١٧٤؛ ويُنظر: مرتضى العسكري، أحاديث أمّ المؤمنين عائشة:

البصرة بالتنافس السياسي بين أهل المصريين، ذلك التنافس الذي ظهر منذ حكومة عمر بن الخطاب من أجل فتوح البلدان، سيما بلاد المشرق.

ثم إنَّ عبد الله بن الزبير لم يجعل أمام أهل البصرة خياراً إلاَّ خوض الحرب؛ لأنَّها السبيل الوحيد أمامهم من أجل حماية بلادهم وحفظ حريمهم حسب زعمه، ثمَّ يؤكد لهم أنَّ الإمام علياً وجيشه غضب عليهم قبل أن يغضبوا عليه، وهذا كاف في التأثير على الفكر البصري والتشتيت العقلي لهم دون التمييز بين الاتجاه الصحيح الذي يجب عليهم أن يسلكوه، فكانت هذه الخطبة التي ألقاها عبد الله بن الزبير ذات أثر فعَّال، وصيغتها عنيفة، وعلى أثرها قام الإمام الحسن (عليه السلام) وخطب أمام الناس، فلما سمع الناس له ومدحه المادح، نهض طلحة وخطب في أصحابه^(١)، وبعد انتهاء طلحة من خطبته، قام إليه رجل يقال له: خيران بن عبد الله^(٢)، واتهمه ببثِّ الفرقة بين النَّاس، وأنَّه والزبير سبب ما أصاب البصريين، «فهمَّ القومُ به، فمنعهم بنو أسد، فخرج منهم ولحق بمنزل ابن صهبان^(٣) مستخفياً؛ إشفافاً على دمه منهم»^(٤).

وهذا النصّ يعكس حالة أهل البصرة، الذين أصبحوا بين نارين؛ فمن جهة، هم لا يستطيعون أن يعارضوا طلحة والزبير أو أن يردّوا عليهم؛ لأنَّ ذلك سيقودهم إلى التهلكة واستباحة الدم دون ريب، ومن جهة أخرى، هم لا يريدون أن يكونوا

(١) يُنظر: خطبة الإمام الحسن، المفيد، الجمل: ص ١٧٥. وأيضاً خطبة طلحة: ص ١٧٦.

(٢) خيران بن عبد الله: لم نثر على ترجمته له.

(٣) هو النعمان بن صهبان، الذي قال فيه أمير المؤمنين (عليه السلام) يوم الجمل: «مَن دخل دار ابن صهبان، فهو آمن». الطوسي، الرجال: ص ٨٤.

(٤) المفيد، الجمل: ص ١٧٦.

تابعين لأهل الكوفة الذين ساندوا عليّاً في قضيّته ضدّ الناكثين، تلك الإشاعة التي استغلّها عبد الله بن الزبير، فأصبحت الشخصية البصريّة تعيش أشدّ اضطراب سياسيّ، فكان لا بدّ من أن يقف البصريّون في صفّ عائشة وطلحة والزبير إذا ما أرادوا حفظ بلادهم وقناعتهم التي توصّلوا إليها عن طريق التأثير، وتحريك المشاعر، واكتساح الخطر المحدق بهم، عن طريق حمل السيف وضرب الرقاب! لذلك، أحسّ أمير المؤمنين عليّ بنتيجة التأثير الذي أصبح عليه أهل البصرة، فنهج منهج السّلم والصّلاح؛ رغبةً منه في تعديل ما آلت إليه أمور المسلمين من الفتنة. أمّا سيف بن عمر التميميّ، فيكمل روايته التي رسمها حول شخصيّة القعقاع بن عمرو الذي ذكرناه سابقاً، ويقول: إنّ القتال نشب أثناء الليل؛ إذ قام به قتلة عثمان بن عفّان الذين لم يرغبوا بالصّلاح، فوضعوا السّلاح في أتباع طلحة والزبير، وثار أهل البصرة، ونهض الطرفان، وكلّ منهما يدين الآخر بعدم الارعواء حتّى يسفك الدماء، وكلّ طائفة لا شكّ ترى أنّ الأخرى هي التي بدأت القتال، واختلط الأمر اختلاطاً لم يقدر أحد فيه على شيء سوى الدفاع عن نفسه من قتلة عثمان^(١).

ويكون سيف قد انفرد بهذه الرواية التي لقيت رواجاً في كتب المؤرّخين المعروفين، كالطبريّ، وابن الأثير، وابن كثير، وابن خلدون، دون أن يذكرها الأخباريون والمؤرّخون الأوائل، الذين سبقوا سيفاً في نقل الأحداث والوقائع، فكانت هذه الرواية من صنع خيالات سيف بن عمر ووساوسه التي صنّعت بهدف طمس حقيقة بداية القتال في البصرة في تلك الواقعة الخطيرة في الإسلام.

(١) الطبريّ، تاريخ: ٣/ ٥١٨؛ ابن حزم، الفصل في الملل: ٤/ ١٥٨؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ٢/ ٥٥٩؛ ابن كثير، البداية والنهاية: ٧/ ٢٦٧.

وبزعم سيف أنّ أهل البصرة هم الذين حملوا المسلمين على الاقتتال وإراقة الدماء؛ فقتلة عثمان هم سبب القتال، وهؤلاء تواجدوا في صفوف الإمام عليّ، منذ أن اشتركوا في قتله، وقدموا معه إلى البصرة، وحسب قصّة سيف، «أنّهم بشر ليلة باتوها قطّ، قد أشرّفوا على الهلكة»^(١)، وكأنّ الإمام عليّاً عليه السلام سوف يقدّمهم إلى طلحة والزبير من أجل الاقتصاص لدم عثمان والثأر لقتله، ومن ثمّ، رجّح سيف في روايته كفة طلحة والزبير على كفة الإمام عليّ وأهل البصرة، فهؤلاء أصحاب الحقّ لا هؤلاء، وكادوا أن يحققوا ثأرهم حسب الرواية الموضوعة، لولا ثورة أولئك الغوغاء أثناء الليل!

ثمّ إنّ رواية سيف لو كانت صحيحة، لوجدنا أولئك الثائرين قد افتخروا بنصرهم الذي حققوه على حساب الناكثين، أو لعرفنا أسماء زعمائهم الذين دبّروا الخطط لإفشال مساعي الصّالح في البصرة.

أمّا أمر القتال بين الطرفين، فبعد نهاية مساعي ابن عبّاس وعودته إلى أمير المؤمنين عليه السلام وإخباره خبرهم وما ينطق به لسانهم، أعذر إليهم أمير المؤمنين المصحف، يدعوهم إليه مع غلام حدث السنّ من عبد القيس، يقال له: مسلم، فأقبل الغلام حتّى وقف بإزاء الصفوف، ونشر المصحف، وقال: «هذا كتاب الله، وأمير المؤمنين يدعوكم إلى ما فيه»^(٢). فكان ردّ القوم عليه الرّماح، فرمى من كلّ جانب حتّى قُتل، وبذلك تقول أمّه:

ياربّ إنّ مسلماً دعاهم	يتلو كتاب الله لا يخشاهم
فخضّبوا من دمه قناهم	وأُمّهم قائمةٌ تراهم

(١) الطبريّ، التاريخ: ٥١٨/٣.

(٢) الطبريّ، تاريخ: ٥٢٢/٣؛ المفيد، الجمل: ص ١٨١.

تَأْمُرُهُمْ بِالْقَتْلِ لَا تَنْهَاهُمْ^(١).

بعد ذلك، أمر الإمام عليّ عليه السلام أصحابه أن يصفّوهم ولا يبدؤوهم بقتال، ولا يرموهم بسهم، ولا يضربوهم بسيف، ولا يطعنوهم برمح، حتّى جاء عبد الله بن بديل^(٢) من الميمنة بأخٍ له مقتول، وجاء قوم من الميسرة برجل قد رُمي بسهم فقتل، فقال الإمام عليّ عليه السلام: «اللّهُمَّ اشْهَدْ»^(٣)، ودعا ابنه محمّد بن الحنفية، وأعطاه الراية، وهي راية رسول الله صلى الله عليه وآله، وقال له: «يا بني، هذه راية لا تُردُّ قطّ، ولا تُردُّ أبداً»^(٤)، وأمره الإمام أن يقف حتّى يأتيه أمره^(٥).

وهكذا وقف أمير المؤمنين مستعدّاً للحرب وهو على ظهر بغلة رسول الله صلى الله عليه وآله الشهباء^(٦)، وجعل ابنه الحسن في الميمنة والحسين في الميسرة^(٧). وصف أصحابُ

(١) المفيد، الجمل: ص ١٨٢.

(٢) عبد الله بن بديل بن ورقاء الخزاعي: أسلم وكان مع أبيه قبل الفتح، وشهد حنيناً والطائف، وكان سيّد خزاعة، وله قدر وجلالة، قُتل هو وأخوه عبد الرحمن بن بديل بصفين، وكان حينها على رجالة أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب، وهو من وجوه الصحابة. ابن عبد البر، الاستيعاب: ٣/ ٨٧٢؛ ابن حجر، الإصابة: ٤/ ١٨؛ ويُنظر: الرازي، الجرح والتعديل: ١٤/ ٥.

(٣) خليفة بن خياط، تاريخ: ص ١٣٨؛ المفيد، الجمل: ص ١٨٢؛ الفضل بن شاذان، الإيضاح: ص ٥٥٦.

(٤) خليفة بن خياط، تاريخ: ص ١٣٨؛ المفيد، الجمل: ص ١٨٣.

(٥) المفيد، الجمل: ص ١٨٢.

(٦) الشهباء: بغلة رسول الله صلى الله عليه وآله التي أهداها له النجاشي. يُنظر لمعناها: ابن منظور، لسان العرب: ١/ ٥٠٨.

(٧) خليفة بن خياط، تاريخ: ص ١٣٨؛ المفيد، الجمل: ص ١٨٢؛ الفضل بن شاذان، الإيضاح: ص ٥٥٦.

عائشة صفوفهم، وجاؤوا بالجمال وعليه الهودج، وفيه عائشة، وخطامه في يد كعب بن سور، وقد تقلد بالمصحف، والأزد وبنو ضبة قد أحاطوا بالجمال، وعبد الله بن الزبير بين يدي عائشة، ومروان بن الحكم عن يمينها، والزبير يُدير العسكر، وطلحة على الفرسان، ومحمد بن طلحة على الرجالة^(١).

أما بالنسبة إلى أهل البصرة، فقد انقسموا على ثلاث فرق: فرقة مع طلحة والزبير، وفرقة مع الإمام علي، وفرقة اعتزلت لا ترى القتال، ومنهم الأحنف بن قيس في بني سعد كما تقدّم، وعمران بن الحصين، وغيرهما، وعلى هذا الأساس، انقسمت سائر القبائل بين هذه الفرق الثلاثة.

ثم إنّ الناس كانت تلتزم رأي كبيرها، وهذا ناتج عن تأثرهم بالعادات والتقاليد الاجتماعية السائدة، والعصبية القبلية التي تفرض عليهم حماية رئيس القبيلة في الحرب، وهذا ليس بالضرورة ما التزم به معظم البصريين، بل هناك من شدّ عن هذه القاعدة، فالأزد -وهي من أشدّ القبائل نصرة لعائشة- كان فيها من مال إلى الاعتزال، وترك رئيسهم صبرة بن شيان جيش الناكثين^(٢).

أما البصريون الذين انضموا إلى معسكر الإمام علي، فنجدهم قد تأثروا بقيم ومفاهيم الإمام عليه السلام، من المحافظة على مبادئ الإسلام والإصلاح ما أمكن، فلم يخرجوا عن خطّ الإمام عليه السلام وأسلوبه في القتال، فاختفوا تحت تلك السياسة المتبعة^(٣).

وأما الذين انضموا إلى معسكر طلحة والزبير، فكانوا أكثر فعالية وقدرة على

(١) خليفة بن خياط، تاريخ: ص ١٣٨؛ المفيد، الجمل: ص ١٨٣.

(٢) سعيد الأفغاني، عائشة والسياسة: ص ١٤٨.

(٣) يُنظر: المفيد، الجمل: ص ١٨٢.

القتال، بل هم مَنْ أحاط بالجمل الذي يحمل عائشة، وكان هذا ناتجاً عن تأثرهم بادّعاءات طلحة والزبير وأمّ المؤمنين وأكاذيبهم، فكانوا تحت الضغط في سبيل النجاة من المواجهة بين الطرفين.

وقبل وقوع القتال، خرج الإمام عليّ عليه السلام إلى طلحة والزبير يذكرهما بعهدهما ويوعظهما، «فأجابه طلحة جواباً غليظاً، ورقّ له الزبير»^(١). بعدها رجع إلى أصحابه، وأعلمهم خبر طلحة والزبير، ثمّ خرج على بغلة الرسول ﷺ بين الصّفيّين، ونادى الزبير، فخرج إليه، وذكره بحديث رسول الله: «أما إنّك ستخرج عليه وتقاتله وأنت له ظالم»^(٢). فقال الزبير: «نسيته»^(٣).

ولقد كان لقاء أمير المؤمنين بالزبير بداية اعتزال الزبير للحرب وترك جماعته، وعيّر ابنه عبد الله بالجبن والخوف من سيوف بني هاشم، فقال له: «ويلك! ومثلي يُعيّر بالجبن؟! هلم إليّ الرّمح، وحمل على أصحاب عليّ، فقال عليّ: أفرجوا للشّيوخ؛ إنّهم محرج، فشقّ الميمنة والميسرة والقلب، ثمّ رجع، فقال لابنه: لا أمّ لك، أيفعل هذا جبان؟! وانصرف»^(٤).

وعلى الرّغم من تحفّظنا على هذه الرواية، إلّا أنّها تعكس أسباب انصراف الزبير عن القتال بين الطرفين في البصرة. لكن هناك أسباب أخرى ربّما أكرهت الزبير على متابعة أمر الناكثين الآخرين، ومن هذه الأسباب:

(١) ابن قتيبة، الإمامة والسياسة: ٩١ / ١.

(٢) الحاكم النيسابوري، المستدرک: ٣ / ٣٦٦؛ الطبريّ الإماميّ، المسترشد: ص ٤٢١؛ المتقي الهندي، كنز العمال: ١١ / ٣٤٠.

(٣) ابن قتيبة، الإمامة والسياسة: ٩١ / ١.

(٤) اليعقوبيّ، تاريخ: ٢ / ١٢٧؛ القميّ، الكنى والألقاب: ١ / ٢٤٠.

أ) حدة التنافس السياسي بين طلحة والزبير، فكلّ منهما يرغب في الحصول على السلطة دون الآخر، فكان معاذ بن عبيد الله^(١)، يقول: «والله، لو ظفرنا لافتتنا، ما خلّى الزبير بين طلحة والأمر، ولا خلّى طلحة بين الزبير والأمر»^(٢). فكان حدّ التنافس بينهما لا يطاق.

ب) تجدد الصراع بعدما سيطروا على البصرة حول إمامة الصلاة، وكان الزبير يأمل في إمامة جموعهم، لكن رغبته لم تتحقّق، فجعلت عائشة ابنه عبد الله يؤمّ المسلمين على حساب أبيه، الذي وجد نفسه بلا سيادة تذكر، كذلك أراد الزبير أن يقود بعض الفرسان ومهاجمة معسكر الإمام عليّ عندما كان متوجّهاً إلى البصرة، فلم يُنفذ أمره، بل اختلط عليه الأمر، أعلى حقّ هو أم باطل^(٣).

ج) وبعد انتهاء معركة الجمل الصغرى التي أسفرت عن مقتل حكيم بن جبلة العبديّ وقومه من أهل البصرة، تجدد الصراع بين الناكثين حول إمامة الصلاة، ثمّ أمرت عائشة الزبير أن يستنفر الناس إليه عن طريق الأموال لكسب الأنصار، فعمل الزبير بتلك الخطوة، وأنفق الأموال دون أن يترك درهماً واحداً من بيت مال البصرة في هذا السبيل، فلامته عائشة على ذلك، ووافقها الرأي كلّ من طلحة وعبد الله بن الزبير، فوجد الزبير نفسه في مأزق لا يستطيع الخروج منه إلّا عن

(١) معاذ بن عبيد الله بن معمر، التميميّ، القرشيّ: يعدّ في أهل المدينة، سمع من عثمان بن عفّان وعائشة، وروى عنه عبد الله بن أبي مليكة. البخاريّ، التاريخ الكبير: ٣٦١ / ٧؛ ابن حبان، الثقات: ٤٢٢ / ٥.

(٢) الطبريّ، تاريخ: ٣ / ٤٧٢؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ٣ / ٢٠٩.

(٣) المفيد، الجمل: ص ١٥٥.

طريق التهديد بترك معسكرهم واللحاق بالشام كما تقدّم^(١).

(د) عندما جهّزت عائشةُ جيشها لملاقاة جيش الإمام عليّ في البصرة، أوكلت إمرة الجيش إلى الزبير، وقالت: «لا تبايعوا الزبير على الخلافة، ولكن على الإمرة في القتل، فإن ظفرتهم، رأيتم رأيكم»^(٢). فكانت قرارات أمّ المؤمنين عائشة تأتي كلّها خلاف مصلحة الزبير وما يتطلّع إليه من المناصب، فأثر ذلك على نفسيّته، ثم جاء التقاؤه بالإمام عليّ عليه السلام وما جرى بينهما من حديث، وعرف أنّ الأمور تجري ضده، حتّى ابنه وقف بعض الأحيان في صفّ منافسيه ضده، ولما أراد الانصراف، اعترضه ابنه، واتّهمه بالجن، فكان عبد الله بن الزبير ذا أثر بليغ على نفسيّة أبيه، الذي قال الإمام عليّ عليه السلام بحقه: «ما زال الزبير منّا أهل البيت حتّى نشأ ابنه عبد الله، فأفسده»^(٣).

وعلى هذا، كان الزبير يرى أنّ الظروف لا تسير حسب ما يشتهي، بل على العكس من ذلك، ومن ثمّ، كان عليه أن يتّخذ موقفاً حاسماً قبل أن تفلت زمام الأمور من يديه، لذلك، اعتزل الطرفين، وانصرف راجعاً إلى المدينة، فقتله ابن جرموز في وادي السّباع^(٤).

أمّا بالنسبة إلى طلحة، لما علم بانصراف الزبير، همّ أن ينصرف، «فلم يتركه

(١) المفيد، الجمل: ص ١٥٥.

(٢) البلاذريّ، أنساب الأشراف: ٥٧ / ٣.

(٣) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة: ٢٩٣ / ٤؛ ويُنظر: جعفر السبحاني، الزيدية في موكب التاريخ: ص ٢٤٣.

(٤) ابن قتيبة، الإمامة والسّياسة: ٩٤ / ١؛ يعقوبيّ، تاريخ: ١٢٧ / ٢؛ وقيل: «قتل بسفوان من ناحية البصرة». خليفة بن خيّاط، طبقات: ص ٤٣؛ ويُنظر: الحاكم النيسابوريّ، المستدرک: ٣ / ٣٦٠؛ المزي، تهذيب الكمال: ٣٢٦ / ٩؛ ابن كثير، البداية والنهاية: ٢٧٧ / ٧.

مروان بن الحكم إلى ما يريد، فرماه بسهم فوق في ركبته فنزف حتى مات^(١). وبعد التحام الحرب، كانت عائشة تقود المعركة وهي في هودجها على الجمل، وكان شعار أصحابها: (يالثرات عثمان)، وشعار أصحاب الإمام علي عليه السلام (يا محمد)، وكانت المعركة تدور حول الجمل^(٢)، وكانت بعض قبائل أهل البصرة هي من تحمي الجمل، وعلى رأسهم بنو ضبة، الذين طوقوه من كل جانب وهم يقولون:

نحن بنو ضبة أصحاب الجمل ننازع الموت إذا الموت نزل
والموت أشهى عندنا من العسل ننعي ابن عفان بأطراف الأسل
ردوا علينا شيخنا ثم بجل^(٣).

فموقف بني ضبة يحمل معطياتٍ سياسية لها أثرٌ فعال في معركة الجمل، فهم الوحيدون الذين صارعوا الموت من أجل دم الخليفة عثمان، وهذا يعني أنهم كانوا متأثرين بادعاء الناكثين داخل البصرة، وقد وصفتهم عائشة بقولها: «ما زال جملي معتدلاً حتى فقدت أصوات بني ضبة»^(٤).

وعن الشعبي، قال: «حملت ميمنة أمير المؤمنين على ميسرة أهل البصرة، فاقتتلوا، ولاذ الناس بعائشة، أكثرهم بنو ضبة، والأزد، وكان قتالهم من ارتفاع

(١) الدينوري، الأخبار الطوال: ص ١٤٧.

(٢) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة: ١/ ١٩٦.

(٣) الضبي، الفتنة ووقعة الجمل: ص ١٦٣؛ الطبري، تاريخ: ٣/ ٥٢٧؛ المسعودي، مروج الذهب: ٣/ ١١١.

(٤) الصنعاني، المصنّف: ٥/ ٤٥٧؛ الطبري، تاريخ: ٣/ ٥٢٧؛ المسعودي، مروج الذهب: ٣/ ١١١.

النهار إلى قريب من العصر، ويقال: إلى إن زالت الشمس، ثم انهزموا، فنأدى رجل من الأزد: كرّوا، فضربه محمد بن عليّ ابن الحنفية، فقطع يده، فنأدى: يا معشر الأزد، فرّوا، واستحرّ القتل بالأزد، فنأدوا: نحن على دين عليّ بن أبي طالب»^(١).

فرواية الشعبيّ تعطينا صورة متقلّبة الألوان، وضعف العقيدة في القتال لدى الرّجال الذين اشتركوا في الحرب بجانب أمّ المؤمنين عائشة، وهذا الضعف ناتج عن عدم استيعاب الناس لحقيقة الخصام الذي أعلنه الناكثون ضدّ الإمام عليّ، ونكث بيعته، ثمّ إنّ قتالهم كان مرهوناً بمطالب طلحة والزبير من الطلب بدم عثمان، لكن هؤلاء قد غادروا ساحة المعركة، وتركوا الجيش وحده.

لقد كانت هذه المنعطفات التي غيّرت مجرى الأحداث أثناء القتال، من انصراف الزبير وطلحة، وانكسار الجيش، جعلتهم يلوذون بأمر المؤمنين، خشيةً من سيوف جماعته، وطمعاً برأفة الإمام عليّ، الذي اتّبع الدين الإسلاميّ فكراً ومنهجاً في علاج أتباع الناكثين.

يروى أنّ أوّل الناس الذين برزوا للقتال في اليوم الثالث من المعركة هو عبد الله بن الزبير، ودعا إلى المبارزة، فبرز إليه مالك الأشتر، ولما علمت عائشة بذلك، خشيت على ابن أختها، وقالت: «واثكل أسماء»^(٢). فضرب كلّ منهما صاحبه فجرّحه، ثمّ اعتنقا، فصرع الأشتر عبد الله، وقعد على صدره، ثمّ أنقذهم القوم،

(١) الطبريّ، تاريخ: ٣/ ٥٢٢؛ محمد بن سليمان الكوفيّ، مناقب الإمام أمير المؤمنين: ٢/ ٣٣٨.

(٢) ابن أبي شيبة الكوفيّ، المصنّف: ٧/ ٢٦٠؛ الطبريّ، تاريخ: ٣/ ٥٢٠؛ ابن أعمش، الفتوح:

٢/ ٤٦٩؛ المفيد، الجمل: ص ١٨٧؛ ابن خلّكان، وفيات الأعيان: ٣/ ١٨؛ ضامن بن شدقم

المدنيّ، الجمل: ص ٥٠.

كل فريق أخذ صاحبه، وكان الأشتر طاوياً^(١) ثلاثة أيام، وهذه عادته في الحرب، وفي ذلك قال الأشتر شعراً يصف حاله أمام عبد الله بن الزبير^(٢).

وقد وصف ابن قتيبة أيام حرب الجمل، فقال: «وأقبل عليّ وعمار والأشتر والأنصار معهم يريدون الجمل، فاقتتل القوم حوله حتى حال الليل، وكانوا كذلك يروحون ويغدون على القتال سبعة أيام، وإن عليّاً خرج إليهم بعد سبعة أيام، فهزمهم»^(٣).

ولما سقط الجمل ووقع الهودج الذي كانت فيه أم المؤمنين عائشة، جاءها محمد بن أبي بكر أخوها، فأدخل يده، فقالت: مَنْ أنت؟ فقال: «أقرب الناس منك قرابة، وأبغضهم إليك، أنا محمد أخوك»^(٤).

ثم جاء أمير المؤمنين علي (عليه السلام) حتى وقف عليها وضرب الهودج بقضيب، وقال: «يا حميراء، أرسول الله ﷺ أمرك بهذا؟! ألم يأمرك أن تقرّي في بيتك؟! والله

(١) طاوياً: صائماً، وأصل المطوي صفة للضبي عندما يشبع فيطوي عنقه وينام. ابن منظور، لسان العرب: ١٥ / ١٨.

(٢) ابن قتيبة، الإمامة والسياسة: ١ / ٩٦؛ ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة: ١ / ١٩٧؛ علي الكوراني، جواهر التاريخ: ١ / ٢٣٤. أمّا أبيات الشعر، فهي:

أَعَايَشُ لَوْلَا أَنَّنِي كُنْتُ طَاوِيًّا ثَلَاثًا لَأَلْفَيْتُ ابْنَ أُخْتِكَ هَالِكَا
غَدَاةً يُنَادِي وَالرَّمَا حُ تَنَوُّشُهُ كَوَقْعِ الضَّيَاحِي: اقْتُلُونِي وَمَالِكَا
فَنَجَّاهُ مَتًى أَكَلَهُ وَشَبَابُهُ وَأَنِّي شَيْخٌ لَمْ أَكُنْ مُتَمَاسِكَا.

ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة: ١ / ٢٦٣؛ ضامن بن شدقم المدني، الجمل: ص ١٤٤.

(٣) الإمامة والسياسة: ٢ / ٩٧.

(٤) المسعودي، مروج الذهب: ٣ / ١١١؛ ويُنظر: محمد باقر المحمودي، نهج السعادة:

١ / ٣٢٠؛ مرتضى العسكري، أحاديث أم المؤمنين عائشة: ١ / ٢٤٣.

ما أنصفك الذين أخرجوك؛ إذ صانوا حلائلهم وأبرزوك»^(١).
بعد ذلك أمر أمير المؤمنين أخاها محمدًا بأن يهتمَّ بها، فأنزها دارَ صفية بنت الحارث بن طلحة^(٢)، وقيل: نزلت عائشة بالقصر المعروف بقصر بني خلف^(٣).

– أخلاقُ أمير المؤمنين ﷺ

ولما عُقِرَ الجملُ، وانكسر أصحابه الذين كانوا يتبعونه أثناء القتال، نادى أمير المؤمنين عليٌّ ﷺ في أصحابه: «لا تَتَّبِعُوا مَوْلِيًّا، وَلَا تُجْهِزُوا عَلَى جَرِيحٍ، وَلَا تَنْتَهَبُوا مَالًا، وَمَنْ أَلْقَى سِلَاحَهُ، فَهُوَ آمِنٌ، وَمَنْ أَغْلَقَ بَابَهُ، فَهُوَ آمِنٌ»^(٤).
ثم قيل لأمر المؤمنين: أقتل هؤلاء الأسرى، فقال: «لا أقتل أسير أهل القبلة إذا رجع ونزع»^(٥).

ثم إنَّ أمير المؤمنين لم يجوز لهم سبي النساء، فقال رجل: «يا أمير المؤمنين، كيف تحلُّ لنا أموالهم ولا تحلُّ لنا نساؤهم ولا أبناؤهم؟! فقال: لا يحلُّ ذلك لكم. فلمَّا أكثروا عليه في ذلك، قال: اقترعوا، هاتوا بسهامكم، ثم قال: أيُّكم يأخذُ أمَّكم عائشة في سهمه؟ فقالوا: نستغفر الله. فقال: وأنا أستغفر الله»^(٦).

كان أمير المؤمنين عليٌّ ﷺ ينظر إلى بلاد الإسلام على أساس التوحيد، الذي لا

(١) المسعودي، مروج الذهب: ١١١/٣؛ محمد مهدي الحائري، شجرة طوبى: ٣٢٤/٢؛ سعيد أيوب، معالم الفتن: ٣٥/٢.

(٢) الطبري، تاريخ: ٥٣٩/٣؛ المسعودي، مروج الذهب: ١١١/٣.

(٣) أبو الفرج الأصفهاني، الأغاني: ٤٤٨/٢٢؛ الطوسي، الأمالي: ص ١٤٣.

(٤) الدينوري، الأخبار الطوال: ص ١٥١؛ اليعقوبي، تاريخ: ١٢٧/٢.

(٥) ابن قتيبة، الإمامة والسياسة: ٩٧/١.

(٦) ابن قتيبة، الإمامة والسياسة: ٩٧/١.

يجوز لهم السبي، تبعاً لأحكام الإسلام^(١)، فسار الإمام بأهل البصرة بسيرة الرجل الكريم، الذي يقدر فيعفو، ويملك فيسجح، وقد جعل يستصلح الناس، فيعفو عنهم، ويعطيهم الرضا، ويؤمن الخائف منهم، ويتجاهل مكان العدو^(٢).
ويبدو أن أمير المؤمنين في تعامله مع أصحاب الناكثين كان يعتمد السماح والعفو من أجل تهدئة الخواطر، وتسكين القلوب، وامتصاص النقمة التي نشأت بسبب الحرب التي خربت البصرة، وفرقت أهلها.

- قتلى معركة الجمل

أما بشأن عدد القتلى في معركة الجمل، فقد اختلفت الروايات فيه؛ فقال البعض إنها بلغت عشرة آلاف، نصفهم من أصحاب الإمام علي عليه السلام، ونصفهم الآخر من أصحاب عائشة^(٣).

وقيل: بلغ قتلى معركة الجمل ثلاثة عشر ألفاً^(٤).

وهناك من ذهب إلى جعل القتلى عشرين ألفاً^(٥).

وجاء في إحدى خطب الإمام علي عليه السلام يصف جيش عائشة، بقوله: «يُقتل ثلثهم، ويُهزم ثلثهم، ويتوب ثلثهم»^(٦).

(١) الدينوري، الأخبار الطوال: ص ١٥١؛ محمد باقر المحمودي، نهج السعادة: ١/ ٣١٥؛ علي الكوراني، جواهر التاريخ: ١/ ٢٣٧.

(٢) طه حسين، الفتنة الكبرى/ علي وبنوه: ص ٥٤.

(٣) الطبري، تاريخ: ٣/ ٥٤٣.

(٤) المسعودي، مروج الذهب: ٣/ ٩٥؛ العظيم آبادي، عون المعبود: ١٢/ ٢٧٥.

(٥) خليفة بن خياط، تاريخ: ص ١٣٩؛ البلاذري، أنساب الأشراف: ٣/ ٥٩.

(٦) الإسكافي، المعيار والموازنة: ص ٥٣؛ المفيد، الكافّة: ص ٢٠؛ المجلسي، بحار الأنوار:

وعلى هذا، لم تتفق الروايات التاريخية على عددٍ محدّدٍ بشأن قتلى معركة الجمل، ولعلّ العدد أكثر من ذلك؛ لكثرة مَنْ تجمّع مع الناكثين في البصرة؛ لذلك قيل لأبي لبيد البصري^(١): «أتحبّ عليّاً؟ قال: كيف أحبُّ رجلاً قتل من قومي حين كانت الشمس من هاهنا إلى أن صارت هاهنا ألفين وخمسمائة؟!»^(٢).

ثم إنَّ أمير المؤمنين عليه السلام طاف في القتلى من كلا الطرفين وهو غاية في الحزن والأسى على ذلك، وكان من بين القتلى طلحة، ويقول أحد الباحثين: «إننا لا نستبعد موقف الإمام من طلحة؛ فتأسيه وتألمه لهذه العاقبة مسألة طبيعية، كيف وهو زميله في درب الجهاد منذ أن كان الإسلام... إنَّ ذلك قطعاً يُثير الشجون لدى الإمام علي عليه السلام، وهو الذي تألم لأشقى الآخرين ابن ملجم، كيف لا يتألم لأحد أبرز الصحابة؟!»^(٣).

لقد كان أمير المؤمنين عليه السلام يتألم على أصحابه وغيرهم من المسلمين الذين قُتلوا، أسى عليهم لما لا قوه من الفتنة التي لم يميّزوا طريقهم فيها، أعلى صوابٍ هم أم على خطأ، فضلاً عن ذلك، إنَّ ذوي القتلى من كلا الطرفين سوف يكون الكره لبعضهم البعض من أجل قتلهم، الأمر الذي لا يصبّ في مصلحة الدّين الإسلاميّ أبداً؛ لأنّه يقود إلى الفرقة، وعلى هذا الأساس، كانت نظرة أمير المؤمنين

١١٣/٣٢.

(١) أبو لبيد البصريّ: لماز بن زياد الأزديّ، ذكر في الطبقة الثانية من أهل البصرة، وقيل: إنّه سمع من الإمام عليّ. المزيّ، تهذيب الكمال: ٢٤/٢٥١؛ وقيل: كان ناصبياً ينال من عليّ ويمدح يزيد. الذهبيّ، ميزان الاعتدال: ٤٩٩/٣.

(٢) خليفة بن خياط، تاريخ: ص ١٤٠.

(٣) جواد كاظم النصر الله، شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد المعتزليّ: رؤية اعتزاليّة عن الإمام عليّ: ص ٣٠٨.

إلى رعيته بعين شخص يشعر بتمام المسؤولية الملقاة على عاتقه في حفظها، لكن الأهواء والميول حالت دون أن يتمكن من ذلك.

وجاء في تأويل قوله تعالى: ﴿وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَىٰ فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ فَإِنَّ فَاتًا فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾^(١) أنه يوم الجمل، وهم أهل هذه الآية، وهم الذين بغوا على أمير المؤمنين (عليه السلام)، فكان الواجب عليه فيما أنزل الله ﷻ أن لا يرفع السيف عنهم حتى يفيئوا ويرجعوا عن رأيهم، فكان الواجب على أمير المؤمنين (عليه السلام) أن يعدل فيهم بعد أن ظفر بهم كما عدل رسول الله ﷺ في أهل مكة عندما منّ عليهم وعفا عنهم^(٢).

وكذلك قيل: إن قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾^(٣) نزل في أهل الجمل، نقل ذلك عن الإمام الصادق (عليه السلام)، وعن أمير المؤمنين عليّ أنه قال يوم الجمل: «والله، ما قوتل أهل هذه الآية حتى اليوم، وتلا هذه الآية»^(٤).

بعدما تمكّن الإمام عليّ (عليه السلام) من إصلاح ما بدأ به الناكثون في البصرة، وفرّق جموعهم، دخل البصرة، فأتى مسجدها الأعظم، واجتمع الناس إليه، فصعد المنبر وخطب، فحمد الله وصلى على النبي ﷺ، ثم قال: «كنتم جند المرأة، وأتباع

(١) سورة الزخرف، الآيات (٧٩-٨٠).

(٢) الكليني، الكافي: ٨ / ١٨٠؛ الصدوق، علل الشرائع: ١ / ١٥٤.

(٣) سورة المائدة، آية (٥٤).

(٤) الطريحي، مجمع البحرين: ١ / ٤٣٩.

البهيمة، رغا^(١)، فأجبتُم، وعُقر، فهربتُم، أخلاقُكم دِقاق^(٢)، وعهدُكم شِقاق،
ودينُكم نِفاق، وماؤُكم زُعاق^(٣)...^(٤). ثمَّ قال: «يا أهل البصرة، قد عفوتُ
عنكم، فإيّاكم والفتنة، فإنّكم أوّل الرّعيّة في نكثِ البيعة وشقّ عصا الأُمّة»، ثمَّ
جلس، وبايعه الناس^(٥).

- أمير المؤمنين عليه السلام وعائشة بعد الجمل

بعد ذلك، تفرّغ أمير المؤمنين لأمر أمّ المؤمنين عائشة، فقال لأخيها محمّد بن
أبي بكر: «سر مع أختك توصلها إلى المدينة»^(٦). وفي رواية أخرى: «وأتاها عليّ
وهي في دار عبد الله بن خلف الخزاعيّ، وابنه المعروف بطلحة الطّلاحات، فقال:
إيه يا حميراء، ألم تنته عن هذا المسير؟! فقالت: يابن أبي طالب، قدرت فاسجح^(٧)،
فقال: أخرجني إلى المدينة، وارجعي إلى بيتك الذي أمرك رسول الله أن تقرّي فيه،
قالت: أفعل»^(٨).

(١) رغا: الرُّغاء: صوت ذوات الخفّ، ورغا البعير، أي: صاح. الجوهريّ، الصّحاح: ٦/ ٢٣٦.

(٢) دِقاق: دناءة الأخلاق، أي: يصفهم باللّوم. ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة: ١/ ٢٥٢.

(٣) زُعاق: ماء مرّ غليظ. الفراهيديّ، العين: ١/ ١٣٣.

(٤) الشريف الرضيّ، نهج البلاغة: ١/ ٤٤؛ ويُنظر: الدّينوريّ، الأخبار الطّوال: ص ١٥١؛
الخوارزميّ، المواقف: ص ١٩٨.

(٥) المفيد، الجمل: ص ٢١٨؛ المفيد، الإرشاد: ص ٢٥٧.

(٦) الدّينوريّ، الأخبار الطّوال: ص ١٥١.

(٧) فأسجح: الإسجاح: حسنُ العفو. الجوهريّ، الصّحاح: ١/ ٢٧٢؛ الصّدوق، معاني
الأخبار: ص ٣٠٤.

(٨) اليعقوبيّ، تاريخ: ٢/ ١٢٧؛ الطبريّ، تاريخ: ٣/ ٥٢٠.

وهناك إشارة إلى أن أم المؤمنين أبت الرجوع إلى المدينة، فروي أن ابن عباس قال لأمير المؤمنين علي (عليه السلام) حين أبت عائشة الرجوع: «دعها في البصرة ولا ترحلها. فقال علي (عليه السلام): إنما لا تألو شراً، ولكني أردتها إلى بيتها»^(١).

فنظرة الإمام علي إلى أم المؤمنين عائشة، نظرة ملؤها الاحترام والتجليل من أجل أمومتها للمؤمنين، وصوناً لها من ألسن الحاقدين على الدين الإسلامي، الذين قد يغتنمون الفرصة من أجل انتهاك حرمة رسول الله (صلى الله عليه وآله) والتنقيص من شأنها، فكانت التفاتة أمير المؤمنين إلى إصلاح ما أفسده الآخرون بين صفوف المسلمين.

ولما أرادت الخروج من البصرة، بعث إليها الإمام علي بكل ما ينبغي من مركب وزاد ومتاع وغير ذلك^(٢)، ثم أوكل مهمة حراسة موكبها إلى نساء من أهل البصرة ذوات شرف، وقد اختلف في عدد تلك النسوة اللاتي خرجن مع أم المؤمنين، فقليل: إنه وجه «معها سبعين امرأة من عبد القيس في ثياب الرجال»^(٣)، وقيل: «أربعين امرأة»^(٤)، وهناك من جعل عددهن عشرين امرأة وثلاثين رجلاً^(٥). وقيل: عشرون امرأة من عبد القيس^(٦). أما الزهري، فقد اكتفى بقوله: «أرسل

(١) الطبرسي، الاحتجاج: ١/ ٢٠٠.

(٢) ابن كثير، البداية والنهاية: ٧/ ٢٧٤.

(٣) اليعقوبي، تاريخ: ٢/ ١٢٧.

(٤) ابن قتيبة، الإمامة والسياسة: ١/ ٩٨؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ٢/ ٦١٤؛ ابن كثير، البداية والنهاية: ٧/ ٢٧٤؛ ابن خلدون، تاريخ: ج ٢، ق ٢/ ١٦٥؛ المقريزي، إمتاع الأسعاع: ٤٩/ ١٣.

(٥) المسعودي، مروج الذهب: ٣/ ١١٦.

(٦) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة: ١/ ٢٣.

معها جماعة من الرِّجال والنساء، وجَهَّزها، وأمر لها باثني عشر ألفاً من المال»^(١).
ثمَّ إنَّ أمير المؤمنين أمر تلك النِّسوة بأن يتزيَّينَ بزِيِّ الرِّجال، وأن يضعنَ عليهنَّ
العمائم، وقلدهنَّ السيوف^(٢)، فكان همُّ أمير المؤمنين المحافظة على حرمة أمِّ المؤمنين
عائشة أثناء عودتها إلى الحجاز، وهذا يدلُّ على المكانة المهمَّة لأُمَّهات المؤمنين لدى
المسلمين كافَّة، وعلى رأسهم الإمام عليٍّ عليه السلام، فاهتمامه بأمِّ المؤمنين يعكس صفاته
الأخلاقيَّة، ومحافظته على حرمة النساء وعدم هتك سترهنَّ، بل عمل على حفظها؛
إجلالاً وإكراماً لرسول الله صلى الله عليه وآله، وفي المقابل، فإنَّ أمَّ المؤمنين عائشة لم تكن تعرف
مَن يحيطها من الناس، فقالت: «هتك ستري برجاله وجنده الذين وكلَّهم بي»^(٣)،
فلما وصلت إلى المدينة، ألقينَ عمائمهنَّ، وقلنَ لعائشة: «إنَّما نحن نسوة»^(٤). فلما
وصلت أمَّ المؤمنين عائشة إلى المدينة، رجعت تلك النِّسوة اللَّاتي لا نعرف عنهنَّ
شيئاً سوى هذه المرافقة لأمِّ المؤمنين عائشة، إلَّا أنَّ الذي يبدو، هو أنَّهنَّ كنَّ يُجِدْنَ
القتالَ وركوبَ الخيل، الأمرُ الذي يعكس شيئاً من شخصيَّة المرأة البصريَّة في تلك
الفترة، وهي أنَّها كانت على قدر كبير من الأهميَّة والشخصيَّة والظهور بمظهر
الرِّجال الفرسان، وهذا ناتج عن تلك البيئة العسكريَّة التي عُرفت بها البصرة كما
تقدِّم بالتفصيل.

(١) الطبري، تاريخ: ٣/ ٥٢٠.

(٢) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة: ١/ ٢٣.

(٣) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة: ١/ ٢٣.

(٤) ابن أعثم، الفتوح: ٢/ ٤٨٧؛ ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة: ١/ ٢٧؛ ويُنظر: المجلسي، بحار الأنوار: ٤١/ ١٤٥؛ المرعشي، شرح إحقاق الحق: ٨/ ٦٥٦؛ محمد الريشهري، موسوعة الإمام عليٍّ بن أبي طالب: ٩/ ١٥٢.

- من نتائج معركة الجمل

لقد أنتجت معركة الجمل نتائج تركت بصمات واضحة على العقلية البصرية بشكل خاص، والإسلامية بشكل عام، ومن هذه النتائج:

أ) تمهيد الطريق أمام أهل البصرة نحو البروز في المجال السياسي على صعيد الدولة الإسلامية، وأن تصبح لهم آراء متنوعة وصوت مسموع لدى حكام المسلمين، بالنسبة إلى مدينتهم التي احتضنت أول صراع سياسي بين المسلمين وحكومتهم.

ب) تمهيد السبيل أمام معاوية لمناجزة الإمام علي عليه السلام والتصميم على قتاله، فقد تبني شعار المعركة، وهو الطلب بدم عثمان، ولولا حرب الجمل، لما استطاع معاوية أن يعلن العصيان والتمرد على حكم الإمام علي عليه السلام.

ت) إشاعة روح الفرقة والاختلاف بين المسلمين، وتفريق شمل بعض القبائل العربية، خصوصاً تلك التي وقفت إلى جنب الناكثين.

ث) إسقاط هبة أهل الحجاز في نظر الأمصار الإسلامية الأخرى، التي كانت تنظر إلى تلك الناحية من الدولة الإسلامية على أساس التفضيل، وأنهم أصحاب الدين الإسلامي الذي انبثق من صحرائهم، فلا يمكن لبقية المسلمين محاربتهم أو الاعتراض على رأيهم حتى في حالة الضرورة، لكن، بعد قيام معركة الجمل، أصبحت الأمور تختلف عما سبق.

ج) زحزحة ثقل الخلافة الإسلامية من مكانها في مدينة الرسول صلى الله عليه وآله، بأنها غير قادرة على إدارة الدولة، بل عاجزة عن التصدي للتمرد والحركات المنشقة عن كيان الدولة.

خ) التأثير على جسد المجتمع البصريّ؛ فقد انقسم على اتجاهات ثلاث مختلفة الميول، فالبعض أصبح يميل إلى العثمانيّة؛ نتيجة لتأثرهم لقتلاهم الذين قُتلوا في معركة الجمل، فأصبح أمر تأثرهم أن انضمّوا إلى معاوية بن أبي سفيان بوصفه قدّ تبنّى العثمانيّة واحتضنها.

واتجاه أصبح ميّلاً إلى العلويّين، الذين بقوا على ولائهم لأمر المؤمنين في حياته، ولأبنائه بعد استشهاده عليه السلام.

وأما الاتجاه الثالث الأخير، فيمثله مَنْ أصبح ميّلاً نحو الحياض بين الطرفين دون أن يرجّح كفة أحدهما، وإن كان يميل نحو الأقوى في فترات الاضطرابات السَّياسيّة التي شهدتها البصرة.

أما سلبيّات هذه المعركة، فقد تمثّلت بالاتهام الذي ألصق بالبصرة من أنّها (عثمانيّة) حاربت الإمام عليّاً^(١)، وقد وظّف أصحاب الأقلام المأجورة للحكام حرب الجمل وقيامها على أساس محبة أهل البصرة لعثمان وكرههم لأمر المؤمنين عليّ بن أبي طالب، فلقيت أعلامهم التصديق ببركة التعظيم الإعلاميّ الذي سعى لتغيير حقائق التاريخ لمصلحة حزبٍ من الأحزاب التي حكمت الدّولة العربيّة الإسلاميّة، التي عكسها لنا بعض المعاصرين من الكتّاب، فبعضهم جعل البصرة ذات نزعة عثمانيّة^(٢)، متأثراً بمعركة الجمل، كأنّ الذي أحدث المعركة وأشعل فتيلها هم أهل البصرة، لا غيرهم ممّن وفد عليها، وابتليت بهم وبتضليلهم.

(١) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة: ١/ ٢٣.

(٢) طالب السنجريّ، الفتن الكبرى: ص ٢٦.

المبحث الثالث

البصرة زمن ولاية عبد الله بن عباس

أولاً: سياسة ابن عباس في البصرة

بعدما تمكّن الإمام علي (عليه السلام) من إنهاء الفتنة في البصرة، وبايعه أهلها على الطاعة، أراد (عليه السلام) أن يوّلّي البصرة شخصاً ذا مقدرة على إدارتها، وذا معرفة بأهلها وأحوالها.

وتذكر الروايات الواردة في هذا المجال أنّه كان راغباً في تولية أبي بكر، فاعتذر إليه قائلاً: «رجلٌ من أهل بيتك يسكن إليه الناس؛ فإنّه أجدر أن يطمئنوا أو ينقادوا، وسأكفيكه وأشير عليه»^(١).

كانت البصرة حينئذٍ لا تزال تعيش أجواء معركة الجمل الفظيعة، التي قتلت الرّجال، وخرّبت البلاد، فخشى أبو بكر من عدم انقيادهم إليه، واطمئنّان قلوبهم نحوه، وهذا ما عكسه قوله المتقدّم الذّكر، فاتّفقاً على عبد الله بن العباس، فولّاه أمير المؤمنين البصرة، ووّلّى زياداً الخراج وبيت المال، وأمر ابن عباس أن يسمع له^(٢).

وروي أنّ أمير المؤمنين لما أراد الخروج من البصرة، أوصى ابن عباس، ومّا جاء

(١) الطبري، تاريخ: ٥٤٦/٣؛ ابن عساكر، تاريخ دمشق: ١٧١/١٩.

(٢) الطبري، تاريخ: ٥٤٦/٣.

في وصيَّته: «يا ابن عبَّاس، عليك بتقوى الله والعدل بمن وُلِّيت عليه، وأن تبسط للنَّاس وجهك، وتوسَّع مجلسك، وتسعهم بحلمك. وإياك والغضب؛ فإنَّه طِيْرَةُ الشَّيْطَان، وإياك والهوى، فإنَّه يصدِّك عن سبيل الله، واعلم أنَّ ما قَرَّبَكَ من الله، فهو مَبَاعِدُكَ من النَّار، وما بَاعَدَكَ من الله، فمَقَرَّبُكَ من النَّار، واذكُرُ الله كثيراً، ولا تكنُ من الغافلين»^(١).

وفي روايةٍ أخرى، قيل: لما استعمل أمير المؤمنين عبدَ الله بن عبَّاس على البصرة، خطب النَّاس، فحمد الله، وأثنى عليه، وصَلَّى على النَّبيِّ، وقال: «معاشر النَّاس، قد استخلفتُ عليكم عبدَ الله بن العبَّاس، فاسمعوا له وأطيعوا أمره ما أطاع الله ورسوله، فإنَّ أحدث فيكم أو زاغ عن الحقِّ، فاعلموا أنَّي أعزله عنكم، فإنِّي أرجو أنَّ أجده عفيفاً، تقيّاً، ورعاً، وإنِّي لم أوله عليكم إلَّا وأنا أظنُّ ذلك به، غفر الله لنا ولكم»^(٢).

فالإمام عليٌّ عليه السلام أراد أن يجعل أهل البصرة على بينه من أمر تلميذه ابن عبَّاس، وأنَّ يشدَّ أهل البصرة نحوه دون أن يختلفوا عليه، أو يضجروا ولايته عليهم، وهذه المبادرة ناتجة عن أهميَّة المصر وضرورة المحافظة على الأمن والاستقرار فيه، بعدما دبَّ إليه القلق والاضطراب، ممَّا لمسناه في معركة الجمل^(٣).

ثمَّ إنَّ أهل العراق ذوو معرفة وبعْد نظر في أمر الأمراء وطاعتهم، وكثيراً ما عارضوهم في بعض الأمور، وتمرّدوا ضدَّهم، وبذلك يقول الجاحظ: «إنَّ أهل

(١) ابن قتيبة، الإمامة والسِّياسة: ١/ ١٠٥؛ الشريف الرضي، نهج البلاغة: ٣/ ١٣٦؛ المفيد، الجمل: ص ٢٢٤.

(٢) المفيد، الجمل: ص ٢٢٤.

(٣) يُنظر: محمّد تقي الحكيم، عبد الله بن عبَّاس: ١/ ٣١٥.

العراق أهل نظر، وذوو فطنة ثاقبة، ومع الفطنة والنظر يكون التنقيب والبحث، ومع التنقيب والبحث يكون الطعن والقذح، والترجيح بين الرجال، والتمييز بين الرؤساء، وإظهار عيوب الأمراء»^(١).

وقد كان الإمام علي عليه السلام عارفاً بهذه الأمور التي عُرف بها أهل العراق كلّها، لذلك، استعرض أمر ولاية ابن عباس على البصريين من أجل تلافي الأخطاء والحيلولة دون تكرار الوقوع فيها، وكشف ما للأمراء من حق في سبيل طاعة الله، وسياسة الرعية بشكل لا يتعارض مع أهداف الإسلام، وعدم الزيغ عن جادة الصواب، «فإن أحدث فيكم، أو زاع عن الحق، فاعلموا أنني أعزله عنكم»^(٢).

ويُستفاد من هذا التوضيح أنّ الأمراء الذين تولّوا البصرة في العهود الأولى من فترة الخلفاء، ربّما لم ينالوا رضا أهل البصرة بسبب سياسة الوالي نفسه؛ لذا، نجد أنّ أمير المؤمنين يكشف عن مسؤوليّة واليه على البصرة أمام أهلها، ووضع بعض الشروط التي يجب أن يلتزم بها أمام المجتمع البصري؛ رغبةً منه عليه السلام في التقريب بين الوالي الجديد للبصرة وأهلها، وللحيلولة دون انجرارهم وراء المغفلين من بعض الناس الذين يحاولون التقرب إلى الولاية بطرقهم الخاصة، التي يبتغون من ورائها الجشع والمطامع الماديّة الدنيويّة.

وكان على ابن عباس أنّ يثبت شخصيّة وعنصره بين أهل البصرة، وأن يسوسهم حسب وصيّة سيّده، وهذا ما جعله يشجّع على تعليم أهلها الفقه والتفسير، من أجل توسيع فكر البصريين، وإخراجهم من الأوهام التي عاشوها

(١) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة: ٢٥١-٢٥٢.

(٢) المفيد، الجمل: ص ٢٢٤؛ محمد باقر المحمودي، نهج السعادة: ١/ ٤٠٩؛ محمد الريشهري، موسوعة الإمام علي بن أبي طالب: ٥/ ٢٧٣.

أيَّام الناكثين، ليزدادوا بصيرة في سبيل الحقِّ، فلا يبقى أيُّ ريب في بلوغ العلم من الإمام إلى أهل البصرة^(١)، لذلك قيل: «كان عبد الله بن عباس أوَّل مَنْ عَرَفَ بالبصرة، وصعد المنبر، فقرأ البقرة وآل عمران، ففسَّرهما حرفاً حرفاً، وكان والله مثجاً^(٢)، يسيل غرباً، وكان يسمَّى: البحر، وحبر قريش^(٣)». والظاهر من هذه الرواية أنَّ ابن عباس أخذ يحدث أهل البصرة من على منبر المسجد أياماً؛ لأنَّ السورتين المذكورتين، يحتاج تفسيرهما إلى وقت طويل، ربَّما أكثر من يوم لإتمام تلاوتهنَّ وتفسيرهنَّ بشكل واضح وسلس للمتلقِّي من عامَّة النَّاس.

وعن المدائني، عن أبي بكرة الثقفي، قال: «قدم ابن عباس علينا البصرة، وما في العرب مثله جسماً وعلماً وبياناً وجمالاً وكمالاً^(٤)، وكان يفقه النَّاس في شهر رمضان، فلا ينقضي الشَّهر حتَّى يفقههم^(٥)».

وعلى أثر هذا النشاط المبارك في ما يفيد أهل البصرة ويرفع من واقعهم الدينيِّ والثقافيِّ، كان على قلوب هؤلاء أن تغبط نفسها بوجوده ونشاطه، ما دام توافرت لديهم كلُّ هذه الصِّفات؛ لذلك، كانت سياسة ابن عباس، ناجحة مع أهل البصرة، ما نتج عن ذلك اجتماع البصريِّين حول واليهم، حتَّى لم يذكر لنا

(١) عليّ الحسيني الميلاني، دراسات في منهاج السنَّة: ص ٢٣٧، ويُنظر للمؤلِّف نفسه: نفحات الأزهار: ص ٥٢.

(٢) مثجاً: من الثَّج، وهو السَّيلان، ومنه قوله تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ الْمَعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجاً﴾، يريد به أنَّه يصبُّ الكلام صَبّاً، وشُبَّه بغزارة علمه. ابن قتيبة، غريب الحديث: ١٠٤ / ٢؛ الزبيدي، تاج العروس: ٢ / ٢٧٥.

(٣) الجاحظ، البيان والتبيين: ١ / ٢٦٨.

(٤) الذهبي، تذكرة الحفاظ: ١ / ٤١؛ ابن حجر، الإصابة: ٤ / ١٢٢.

(٥) مؤلِّف مجهول، أخبار الدَّولة العبَّاسيَّة: ص ٣٤.

التاريخ أي معارضة لسياسة ابن عباس أو تأمر ضده في البصرة، مع أنه تولاها منذ فترة وجيزة جداً، وهذا النجاح عائد بالدرجة الأساس إلى ما اختطه له أستاذه وإلى المسلمين وخليفتهم عليه السلام؛ إذ كتب إليه: «فانظر ما اجتمع عندك من غلات المسلمين وفيهم فاقسمه على من قبلك حتى تغنيهم، وابعث إلينا بما فضل نفسك في من قبلنا»^(١). فكان أهل البصرة متعلقين به، يعلم جاهلهم، ويعظ مجرمهم، ويعطي فقيرهم^(٢).

فالإمام علي هو المقوم لسياسة عبد الله بن عباس في أهل البصرة، فما كان من ابن عباس إلا أن يتأثر بأستاذه، وينهج منهجه الذي اتبعه في البصرة بعد معركة الجمل.

وعلى الرغم من هذا النجاح الذي حققه عبد الله بن عباس الذي تولى أمر البصرة، وأثبت ذاته، يتهمه أحد المستشرقين بقوله: «أما عبد الله بن عباس، الذي ولاه علي على البصرة، فقد أثبت أنه وال غير أهل للولاية، وأنه لا يعول عليه»^(٣). ونحن لا نتفق معه في ذلك أبداً؛ فمن خلال دراستنا لسياسته والإجراءات التي اتخذها في البصرة، وجدناه على النقيض من ذلك، كان خير من التزم بتعاليم إمامه في تدبير أمور الرعية، فهو لم يستقل بإمرته على البصرة حسب نظرتة الخاصة، بل كلما اختلط عليه الأمر، وتظاهر عليه الزمان بالبصرة، نجده يكتب إلى الإمام علي عليه السلام بذلك، فيرد عليه أمير المؤمنين بالحلول المناسبة التي يتبعها من أجل حل العُقد وتسكين القلوب؛ فقد روي أن ابن عباس كتب إلى علي بن أبي طالب من

(١) نصر بن مزاحم، وقعة صفين: ص ١٠٦.

(٢) ابن كثير، البداية والنهاية: ٨ / ٣٣٤.

(٣) فلهاوزن، تاريخ الدولة العربية: ص ٩٥.

البصرة في سبعة أخوة اختلفوا في مسألة تقسيم إرثهم، فكتب إليه عليه السلام: «إقسم المال بينهم سواء، وامحُ كتابي ولا تخلِّده»^(١).

وعلى هذا، لم نجد ابن عباس ممَّن يتفرد برأيه ويذهب بعيداً عن استشارة غيره، مع أنَّ له الرأي في ذلك أحياناً بوصفه الحاكم للمدينة التي تحتاج الحزم والقاطعية في كثير من الأحيان التي تعيشها المدينة، التي لم تخرج من الحرب إلا قبل مدة قصيرة جداً.

وقد أوضح صعصعة بن صوحان سياسة ابن عباس في البصرة عندما سأله الإمام علي عليه السلام عن ذلك؛ إذ قال: «يا أمير المؤمنين، إنَّه أخذ بثلاث وتارك لثلاث، أخذ بقلوب الرِّجال إذا حدَّث، ويحسن الاستماع إذا حدَّث، وبأيسر الأمرين إذا خولف، وترك المراء، ومقارنة اللِّثيم، وما يُعتذر منه»^(٢).

حتَّى إنَّ عتيبة بن مرداس^(٣) المعروف بابن فسوة كان يأتي أمراء البصرة فيمدحهم، فيعطونه خوفاً من لسانه، «فلما دخل على ابن عباس، قال له: ما جاء بك إليَّ يا بن فسوة؟ فقال له: وهل عنك مقصراً ووراءك معدِّي؟! جئتكَ لتعيني على مروءتي، وتصل قرابتي، فقال له ابن عباس: وما مروءة من يعصي الرِّحمن، ويقول البهتان، ويقطع ما أمر الله به أن يوصل، والله، لئن أعطيتكَ، لأعيننكَ على

(١) ابن حزم، المحلَّى: ٢٨٤/٩؛ المتقي الهندي، كنز العمال: ٥٠/١١؛ ويُنظر: عن بعض الكتب الأخرى: ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة: ١٢٧/٣؛ محمد تقي الحكيم، عبد الله بن عباس: ٣١٦-٣١٧.

(٢) ابن كثير، البداية والنهاية: ٣٣١/٨.

(٣) عتيبة بن مرداس: أحد بني كعب بن عمرو بن تميم، يقال له (ابن فسوة)، ويقال: إنَّه شاعر مقلٌّ غير معدود في الفحول من الشعراء، مخضرمٌ ممَّن أدرك الجاهليَّة والإسلام. الصنفدي، الوافي بالوفيات: ٢٩٤/١٩.

الكفر والعصيان، انطلق، فأنا أقسم بالله لئن بلغني أنك هجوت أحداً من العرب، لأقطعنّ لسانك»^(١).

وما نلاحظه هنا، هو أنّ ابن عباس لم يكن يداهن في أمر ولايته لغاية يترجّأها أو شهرة يتلقّاها، بل سياسته اتباع الحقّ، وتحقيق العدالة، وعدم معصية الله، فكان في سياسته إلى الاستقامة أقرب، شأنه في ذلك شأن أمير المؤمنين عليه السلام، بل الراجح تأثره بسياسة سيّده في أهل البصرة.

- موقف أهل البصرة من حرب صفّين

أمّا بالنسبة إلى موقف أهل البصرة ومشاركتهم في حرب صفّين تحت قيادة ابن عباس سنة (٣٧هـ / ٦٥٧م)، فلم يخرج الإمام إلى حرب معاوية دون أن يكتب إلى أهل البصرة ويحملهم على المشاركة إلى جانبه وتحت لوائه، ويبدو من رواية نصر ابن مزاحم أنّ كبار أهل البصرة كانوا قد قدموا على الإمام عليّ في الكوفة، وهم الذين رغبوا في الوقوف إلى جانب أمير المؤمنين، بمنّ فيهم الذين لم ينصروه في معركة الجمل؛ إذ كانوا ندموا على ذلك الموقف منهم، فتكلّم الأحنف بن قيس، فقال: «يا أمير المؤمنين، إنّك إن تكّ سعد لم تنصرك يوم الجمل، فإنّها لم تنصرك عليك، وقد عجبوا أمس ممّن نصرك، وعجبوا اليوم ممّن خذلك! لأنّهم شكّوا في طلحة والزبير، ولم يشكّوا في معاوية، وعشيرتنا في البصرة، فلو بعثنا إليهم فقدموا إلينا فقاتلنا بهم العدو، وانتصفنا بهم، وأدركوا اليوم ما فاتهم أمس»^(٢).

فما كان من أمير المؤمنين إلّا استشارة جارية بن قدامة رجل تميم بعد الأحنف،

(١) الأغاني: ٢٢ / ٤٢٥.

(٢) وقعة صفّين: ص ٢٤-٢٥؛ ويُنظر: ابن قتيبة، الإمامة والسياسة: ١ / ١٠٦.

فقال جارية: «أقول: هذا جمعٌ حشره الله لك بالتقوى، ولم تستكره فيه شاخصاً، ولم نُشخص فيه مقيماً، والله لولا ما حضرك فيه من الله، لغمك سياسته، وليس كل من معك نافعك. وربّ مقيمٍ خيرٌ من شاخص، ومصراك خيرٌ لك، وأنت أعلم»^(١).
فالإمام عليّ عليه السلام أراد بسؤاله كبار بني تميم أن يرى مدى توافقه معهم في مسألة حرب معاوية؛ لأنهم لم ينصروه في معركة الجمل، بل التزموا موقفاً محايداً آنذاك كما تقدّم بالتفصيل، ومدى تأثيرهم بتلك المعركة، وكيفية استيعابها بعد نهايتها، ومدى ثباتهم إلى جانب الإمام هذه المرة.

ويبدو أنّ أمير المؤمنين كان يهتم لأهل البصرة واشتراكهم في حربه القادمة؛ لأنّ مهمّة إدخالهم في حرب جديدة كانت صعبة عليهم باعتبار أنّهم قد خرجوا للتوّ من معركة ذات أثر عميق على النفس البصريّة، ومن ثمّ، لربّما يكون إدخالهم في حرب جديدة ممّا يثير حفيظتهم.

ولم يكتف أمير المؤمنين بسؤاله هذين الرجلين (الأحنف بن قيس، وجارية ابن قدامة) عن البصرة وأهلها، بل سأل ثالثاً من رجال البصرة، وهو حارثة بن بدر^(٢)، فقال: «لوددت أنّ أمواتنا رجعوا إلينا، فاستعنا بهم على عدوك»^(٣).

(١) نصر بن مزاحم، وقعة صفّين: ص ٢٥.

(٢) هو حارثة بن بدر بن حصين بن قطن بن مالك، الذي ينتهي نسبه إلى تميم الغداني، أدرك النبي ﷺ، وله أخبار في الفتوح، وقصة مع عمر، ومع الإمام عليّ بن أبي طالب، وقصص مع زياد بن أبيه في دولة معاوية، وكان حارثة قد تولّى حرب الخوارج زمن عبد الله بن الحارث الملقّب بببّة على البصرة، أيام عبد الله بن الزبير، حيث غرق حارثة في نهر تيري من ناحية الأهواز، وهو يقاتل الخوارج سنة ٦٤هـ. يُنظر: ابن حجر، الإصابة: ٢ / ١٣٨. وسيأتي مزيد تفصيل لهذه الحوادث.

(٣) نصر بن مزاحم، وقعة صفّين: ص ٢٥.

إنّ تكرار سؤال أمير المؤمنين عليه السلام عن حمل أهل البصرة للاشتراك في قتال معاوية، كان ناتجاً عن نظرته للبصريين، الذين كانوا لا يزالون يعيشون آثار حرب الجمل من ناحية، ومقتل فرسانهم وفرار البعض إلى الشام والتحاقهم بمعاوية من ناحية أخرى، فلم يكن عليه السلام ينوي تمزيق أهل البصرة، وإكراههم على الاشتراك في حرب مقبلة، لكنّ رؤوس البصريين كانوا عازمين على خوض زمام الحرب إلى جنب الإمام، ومن ثمّ، أمر أمير المؤمنين الرؤساء بأن يكتبوا إلى قومهم في البصرة، حتّى يكونوا على بينة من الأمر، ويكون قد قطع الطريق أمام عدوّه في مراسلة البصريين ودعوتهم للوقوف بجانبه، وهذا ما جعل معاوية بعيداً عن الإقدام على دعوة أهل البصرة وكسب تأييدهم؛ لأنّه كان عارفاً بموقفهم تجاهه، فلو كان غير ذلك، لوجدنا كتب معاوية إلى أهل البصرة لاستغلال نفوذهم إلى جانبه.

ثمّ إنّ الإمام عليّاً عليه السلام أمر الأحنف بن قيس بأن يكتب إلى قومه من بني تميم بالبصرة، فكتب الأحنف كتاباً إلى بني سعد^(١)، ثمّ كتب أمير المؤمنين كتاباً إلى ابن عبّاس وأهل البصرة، يأمرهم فيه بالقدوم عليه إلى الكوفة والانضمام إلى معسكره، فقام ابن عبّاس خطيباً في الناس، وأمرهم بالاستعداد للسير إلى أمير المؤمنين عليه السلام، فكان ردّ أهل البصرة السمع والطاعة والاستجابة التامّة، فقال الأحنف بن قيس: «نعم، والله لنجيبنك، ولنخرجنّ معك على العسر واليسر»^(٢).

(١) نصر بن مزاحم، وقعة صفين: ص ٢٥؛ ابن قتيبة، الإمامة والسياسة: ١٠٦/١.

(٢) نصر بن مزاحم، وقعة صفين: ص ١١٦؛ ويُنظر: ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة:

وقام إليه خالد بن معمر السدوسي^(١)، فقال: «سمعنا وأطعنا»^(٢)، وقام عمرو ابن مرجوم العبدي^(٣) فقال: «وَفَقَّ اللهُ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ»^(٤).

إنَّ استجابة أهل البصرة هذه كانت ناتجة بلا شك عن معرفتهم بشخصية الإمام عليٍّ عليه السلام بعد معركة الجمل؛ فتعلّقوا به إكراماً لما أبداه تجاههم، ثم إنهم كانوا يعرفون الطرف الآخر في هذه المقابلة، وهو معاوية بن أبي سفيان، وهو ليس كطلحة والزبير وأمّ المؤمنين، ولولا هذا الأمر، ربّما لم نجدهم يشاركون في هذه الحرب؛ بحكم ما تعرّضوا إليه في معركة الجمل من قتل رجالهم، فأصبح بعض أهل البصرة يكتنون الغيظ لعليٍّ عليه السلام، فضلاً عن ذلك، إنَّ النوائج لا تزال قائمة في البصرة جرّاء تلك المعركة.

- عدد مَنْ خرج من أهل البصرة مع أمير المؤمنين في صفّين

ثم تبرز الروايات المختلفة التي ذكرت عدد مَنْ خرج من أهل البصرة، فقد تفاوتت الروايات وتردّدت بين الثلاثة آلاف والسبعة آلاف! فرواية الطبري تحدّدهم بثلاثة آلاف ومائتي رجل^(٥)، في حين أنّ الدّينوريّ، يقول: «فقدّم عليه

(١) خالد بن معمر السدوسيّ: كان رئيس بكر بن وائل في عهد عمر بن الخطّاب، وكان مع عليّ يوم الجمل وصفّين، ومن أمرائه، وكانت الناس بايعته يوم صفّين على الموت. ابن حجر، الإصابة: ٢ / ٢٩٩.

(٢) نصر بن مزاحم، وقعة صفّين: ص ١١٧.

(٣) عمرو بن مرجوم العبديّ: كان سيّداً شريفاً في الإسلام، وسار يوم الجمل في أربعة آلاف فصار مع عليٍّ عليه السلام. ابن مأكولا، إكمال الكمال: ٧ / ٢٣٧؛ ابن حجر، الإصابة: ٤ / ٥٦٣.

(٤) نصر بن مزاحم، وقعة صفّين: ص ١١٧.

(٥) تاريخ الطبري: ٤ / ٥٨-٥٩؛ أمّا البلاذريّ، فيذكر: «أتاه الأحنف بن قيس في ألف وخمسمائة، وأتاه جارية بن قدامة في ثلاثة آلاف، ويقال: في خمسة آلاف، ويقال: أكثر من

عبد الله بن عباس في فرسان البصرة، وكانوا زهاء سبعة آلاف رجل»^(١).
ويقول السيّد محمد تقي الحكيم بشأن رواية الطبريّ: «وهو عدد قليل جداً
يبعد أن يرضى عنه ابن عباس بعد صدور ذلك التهديد منه، والأنسب فيما أخال
أن نأخذ برواية الدّينوري»^(٢).

ثم إنَّ عدد أهل البصرة كان كبيراً حسب ما أشار إليه خليفة بن خياط في تنظيم
جيش الإمام علي (عليه السلام)، فهو يذكر ويقول: «كان قلبُ الجيش مضرَ البصرة، وعلى
بكرِ البصرة حصينُ بنُ المنذر، وعلى تميمِ البصرة الأحنفُ بن قيس، وعلى عمرو
وحنظلة البصرة أعينُ بن ضبيعة المجاشعي، وعلى لهازم^(٣) البصرة حريثُ بن جابر
الحنفي، وعلى عبد القيس البصرة عمرو بن جبلة أخو حكيم بن جبلة، وعلى
قريش البصرة الحارثُ بن نوفل الهاشمي، وعلى قيسِ البصرة قبيصةُ بن شداد
الهلالي»^(٤).

إنَّ هذا الوصف يعكس لنا اشتراك أغلب قبائل البصرة، فلا يمكن أن تقاس
كلُّ هذه القبائل بثلاثة آلاف ومائتي رجل، بل لا بدَّ أن تكون أكثر من ذلك بكثير،
حتَّى أنَّ الأحنف بن قيس سار بجميع بني سعد حتَّى نزلوا الكوفة^(٥)، وبني سعد

ذلك». أنساب الأشراف: ٣ / ١٤١.

(١) الأخبار الطوال: ص ٢٠٦.

(٢) عبد الله بن عباس: ١ / ٣٦٤.

(٣) لهازم: كان لقباً يُطلق على بني تيم الله بن ثعلبة، ويقال: لهازم القبيلة، أي: أوساطها لا
أشرفها، استُعيرت من اللهازم، التي هي أصول الحنكين من الوجه. الفيروز آبادي، القاموس
المحيط: ٤ / ١٧٩؛ الزبيدي، تاج العروس: ١٧ / ٦٧٢.

(٤) تاريخ خليفة: ص ١٤٦-١٤٧.

(٥) ابن قتيبة، الإمامة والسياسة: ١ / ١٠٧.

اعتزلت حرب الجمل، وحسب رواية الطبري، حُدِّد عددهم في «ستة آلاف»^(١). فالاضطراب واضح حول تحديد العدد الحقيقي لأهل البصرة الذين اشتركوا في معركة صفين، ويبدو أنَّ الاقلام المأجورة كانت تُخفي العدد الحقيقي لأهل البصرة؛ لأنهم جعلوها عثمانية، فعليها أن تتعد عن نصره الإمام عليٍّ عليه السلام، بل عليها الوقوف ضده وعدم تأييده! لما لها من دور سياسيٍّ فعَّال في تلك الأحداث والمشاحنات بين المسلمين حينئذٍ التي سبَّها بعض المتمردين في وجه السلطة الحاكمة. فربَّما الكتمان على الحقيقة، وتشويه صورة أهل البصرة من قبل بعض المؤرخين، كانت ناجمة عن التأييد لما قاله معاوية لعمر بن العاص، عندما استشاره في مسير الإمام عليٍّ عليه السلام بأهل العراق، وما كان من أمرهم، فيقول معاوية: «إنَّ أهل العراق قد فرَّقوا جمعهم، ووهنوا شوكتهم، وفلَّو حدَّهم، وأهلُ البصرة مخالفون لعليٍّ بمن قتل منهم»^(٢).

ولم يتجرَّأ أحدٌ من المؤرخين على ضرب هذه المقولة وتفنيدها، بل عملوا على تصديقها، على الرَّغم من أنَّها كانت دعاية معاوية من أجل تقوية صفوف جيشه ورفع همهم القتالية، بالإضافة إلى ذلك، كان معاوية يمني نفسه وقادته بعدم اشتراك أهل البصرة ضدَّ جيش الشام.

- أهل البصرة وقضية التحكيم بعد صفين

ولما انتهى القتال، ومال القوم إلى قبول التحكيم، كان لأهل البصرة موقف من الإمام عليٍّ عليه السلام تمثَّل بالأحنف بن قيس التميمي، الذي رغب في أن يبعثه الإمام

(١) تاريخ الطبري: ٥١١/٣.

(٢) ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ٦٣١/٢.

ليحضر أمر التحكيم، وكان الأحنف يقول لأmir المؤمنين (عليه السلام): «إن أبا موسى رجل يمانى، وقومه مع معاوية، فابعثني معه، فوالله لا يحلُّ لك عقدة إلا عقدت لك أشدَّ منها»^(١).

لقد كان الأحنف مدركاً دهاء عمرو بن العاص، وهذا ما جعله يأخذ بيد أبي موسى ويوصيه بمسؤوليته إزاء المهمة التي حمل ثقلها، وأن يعرف خطب الأمر بوضوح دون أن يغفل عن خطط ابن العاص.

وجاء في قول الأحنف لأبي موسى: «يا أبا موسى، إعرف خطب هذا الأمر، واعلم أن له ما بعده، وأنت إن ضيَّعت العراق، فلا عراق لك، فاتَّق الله؛ فإنَّك تجمع بذلك دنيا وأخرى، وإذا لقيتَ عمراً غداً، فلا تبادره بالسَّلام، فليس من أهله، ولا تُعطه يدك، فإنَّها أمانة، وإياك أن يُقعدك على صدر الفراش، فإنَّها خُدعة، ولا تلقه إلا وحده، وإياك أن يكلمك في بيتٍ فيه مخدع يخبئ لك فيه رجلاً، وإن لم يستقم لك عمرو على الرضا بعليٍّ، فخيرُه أن يختار أهل العراق من قريش، وأهل الشَّام مَنْ شاءوا، فإنَّهم إن يولَّوا الخيار، يختاروا مَنْ يريدون، فإن أباي، فلتختر أهل الشَّام من قريش، وأهل العراق مَنْ شاءوا، فإن فعلوا، كان الأمر بيننا»^(٢).

فالأحنف بن قيس أوقف أبا موسى الأشعري على حقيقة الأمر الذي خطَّط له أهل الشَّام بقيادة معاوية، رغبةً منهم في تجريد العراق من السَّيادة السلطويَّة للدولة الإسلاميَّة؛ لأنَّ أهل العراق لم يكونوا يرغبون في أن يكونوا محكومين من قبل أهل الشَّام، أو تابعين لهم.

وعلى هذا الأساس، نجد أنَّ أهل البصرة كانوا على قدر كبير من المسؤوليَّة،

(١) ابن قتيبة، الإمامة والسَّياسة: ١/ ١٥١.

(٢) ابن قتيبة، الإمامة والسَّياسة: ١/ ١٥١.

وأنتهم قد اشتركوا في جميع الأحداث السَّياسِيَّة التي شهدتها الدَّولة زمن الإمام عليٍّ عليه السلام. وكان هذا ناتجاً عن الحياة السَّياسِيَّة لأهل البصرة في تلك الفترة بالذَّات؛ فمعركة الجمل مهَّدت الطريق للبصرة على أن تبرز في المحافل السَّياسِيَّة التي كان لها أثر كبير في تبلور معطيات فكريَّة وتغيَّرات جذريَّة على حكم الدولة وعدم استقرارها؛ نتيجة الطريق الجديد الذي سلكه معاوية في مواصلة ما بدأ به الناكثون في البصرة.

ثانياً: فتنة ابن الحضرمي في البصرة

لما قُتل محمَّد بن أبي بكر بمصر، خرج عبد الله بن العباس والي البصرة يومئذٍ إلى الكوفة ليعزِّي الإمام عليّاً عليه السلام بمقتله، وكان قد استخلف زياد بن أبيه على البصرة ريثما يعود^(١).

أمَّا بالنسبة إلى معاوية، فقد قويت شوكته بعد أمر الحكمين، فدبَّر مقتل محمَّد ابن أبي بكر من أجل الاستيلاء على مصر، وقد تمكَّن من ذلك رغبةً منه في توسيع نفوذه إلى تلك الرِّقعة من الدَّولة الإسلاميَّة، ولم يكتف بذلك، بل عمل على توجيه رجاله من أجل السَّيطرة على البصرة، مستغلاً ظروف أمير المؤمنين، وما أحاط به من بلاء معاوية الذي أنزله بالمسلمين.

وكان معاوية يحاول استغلال غياب ابن عباس عن ولاية البصرة، لكي يتمكَّن من التأثير على النَّاس هناك، خاصَّة الذين يرون رأي عثمان، فكلف عبد الله بن عامر الحضرمي بالذهاب إلى البصرة والتودُّد إلى أهلها، من أجل الحصول على ولائهم لمعاوية، وقيل: إنَّ الذي كان قد سدَّد لمعاوية رأي إرسال ابن الحضرمي

(١) الطبري، تاريخ: ٤ / ٨٤؛ المسعودي، التنبيه والإشراف: ص ١٧٦.

كتابٌ كتبه إليه صحرار بن عباس العبدِيّ^(١)، وهو ممن كان يرى رأي عثمان، ويخالف قومه في حبهم علياً عليه السلام ونصرتهم إيّاه، فكتب إلى معاوية كتاباً جاء فيه: «... رأيت أن تبعث إلينا أميراً طيباً زكياً ذا عفاف ودين، يدعو إلى الطلب بدم عثمان، فإن فعلت، فإنّي لا أخال الناس إلّا مجمعين عليك؛ فإن ابن عباس غائب عن الناس. والسلام»^(٢).

أمّا البلاذريّ، فيذكر: «إن جماعة من العثمانية كتبوا إلى معاوية يهتّونه بفتح مصر، وقتل محمد بن أبي بكر، ويسألونه أن يوجّه إلى البصرة رجلاً يطلب بدم عثمان، ليسمعوا له ويطيعوا»^(٣).

ولربّما كان صحرار العبدِيّ على رأسه هذه الجماعة، وهو الذي أبدى تلك المبادرة، والشيء الذي يُثير الاهتمام في المقام، هو ما مدى العلاقة بين صحرار العبدِيّ ومعاوية بن أبي سفيان والإمام عليّ؛ فهوى صحرار لم يكن أبداً مع الإمام عليّ عليه السلام. وفي ذلك يقول ابن النديم: «صحرار العبدِيّ: وكان خارجياً، وهو صحرار بن العباس أحد النسّابين والخطباء في أيام معاوية بن أبي سفيان، وله مع

(١) هو صحرار بن صخر، ويقال: صحرار بن عباس بن شرحبيل العبدِيّ من عبد القيس، يكنى أبا عبد الرحمن، له صحبة ورواية، يُعدّ في أهل البصرة، وكان بليغ اللسان، مطبوع البلاغة مشهوراً بذلك، وهو الذي قال له معاوية: يا أزرق، فردّ عليه: البازيُّ أزرق، وقال له: يا أحمر، فردّ عليه: الذّهبُ أحمر، وهو القائل لمعاوية إذ سأله عن البلاغة: لا تخطئ، ولا تبطئ. ابن عبد البر، الاستيعاب: ٧٣٦/٢.

(٢) الثّقفيّ، الغارات: ٣٨٥/٢؛ ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة: ٤٠/٤؛ محسن الأمين، أعيان الشيعة: ٧٣/٢.

(٣) أنساب الأشراف: ١٨٧/٣.

دَغْفَل أَخْبَارٌ، وَكَانَ صَحَارَ عِثَانِيًّا مِنْ عَبْدِ الْقَيْسِ ..»^(١).

وَجَاءَ فِي رَوَايَةٍ أُخْرَى، «كَانَ عِثَانِيًّا، وَكَانَتْ عَبْدِ الْقَيْسِ تَشْبِيعُ فَخَالْفَهَا»^(٢).
وَعَلَى هَذَا الْأَسَاسِ، يَكُونُ صَحَارَ هَذَا قَدْ خَالَفَ قَوْمَهُ فِي كُلِّ شَيْءٍ، وَالرَّاجِحُ أَنَّهُ خَالَفَهُمْ فِي وَلايَةِ ابْنِ عَبَّاسٍ عَلَى الْبَصْرَةِ أَيْضًا، وَلَمْ يَعِدْ يَرْغَبُ بِهِ؛ كَوْنَهُ عَامِلًا لِعَلِيٍّ، وَبِذَلِكَ، رَغِبَ فِي أَنْ يَسْتَعِينَ بِتَحْقِيقِ مَا يَطْمَحُ إِلَيْهِ بِالطَّرْفِ الَّذِي يَسَانِدُ كُلَّ مَنْ يَقِفُ مَوْقِفًا مُعَادِيًّا لِعَلِيٍّ عَلَيْهِ السَّلَامُ.

بِالإِضَافَةِ إِلَى هَذَا، نَجِدُ أَنَّ صِفَةَ الْعِثَانِيَّةِ قَدْ طُغِتْ عَلَيْهِ بِحَيْثُ يُعْرَفُ بِهَا، فَأَصْبَحَ يَجْرُضُ النَّاسُ عَلَى أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ، فَهَذَا السَّبَبُ رَبَّمَا كَانَ مِنْ بَيْنِ الْأَسْبَابِ الَّتِي رَبَطَتْهُ بِعِلَاقَةٍ مَعَ مُعَاوِيَةَ، وَلَا شَكَّ فِي أَنَّ كَرَاهِيَةَهُ لِلْإِمَامِ عَلِيٍّ كَانَ نَاتِجًا عَنْ مَعْرَكَةِ الْجَمَلِ، فَرَبَّمَا تَأَثَّرَ بِقِتْلِهِ أَثْنَاءَ تِلْكَ الْمَعْرَكَةِ، فَعَمِلَ جَاهِدًا عَلَى التَّحْرِيزِ وَالبَحْثِ عَنْ حُلُولِ تَوْصِلِهِ إِلَى الطَّلَبِ بِثَأْرِهِ وَالْإِنْتِقَامِ مِنْ خُصُومِهِ.

أَمَّا بِالنِّسْبَةِ إِلَى مَا إِذَا كَانَ هُنَاكَ مُصَالِحٌ مُشْتَرَكٌ بَيْنَ صَحَارَ وَمُعَاوِيَةَ قَدْ عَمِلَتْ عَلَى تَقْرِيبِ الطَّرْفَيْنِ إِلَى ضَالَّتَيْهِمَا الْمُنْشُودَةِ، فَهَذَا أَمْرٌ لَمْ يَذْكُرْهُ لَنَا الْمُؤَرِّخُونَ كَيْ يَتَسَنَّى لَنَا الْوُقُوفُ عَلَيْهِ، فَكَانَتْ الْعِلَاقَةُ بَيْنَهُمَا قَائِمَةً عَلَى الْهُوَى وَتَقَارُبِ وَجْهَةِ النِّظَرِ فِيهَا بَيْنَهُمَا.

ثُمَّ إِنَّ مُعَاوِيَةَ وَجَدَ فِي صَحَارَ رَجُلَهُ الْمُنَاسِبَ فِي الْبَصْرَةِ لِيُوَاجِهَ بِهِ أَهْلَهَا، وَهَذَا مَا جَعَلَ صَحَارَ الْعَبْدِيَّ يَتَرَقَّى لِيَصْبِحَ مِنْ خُطَبَاءِ مُعَاوِيَةَ فِي أَيَّامِهِ^(٣).

أَمَّا بِالنِّسْبَةِ إِلَى عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَامِرِ الْحَضْرَمِيِّ، فَاسْمُهُ: عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمَّارِ بْنِ سَلَمَى

(١) الْفَهْرَسْتُ: ص ١٠٢؛ عُمَرُ كَحَّالَةٌ، مَعْجَمُ الْمُؤَلِّفِينَ: ١٧/٥.

(٢) ابْنُ قَتَيْبَةَ، الْمَعَارِفُ: ص ٣٤٠.

(٣) ابْنُ النَّدِيمِ، الْفَهْرَسْتُ: ص ١٠٢.

ابن أكبر، وأمه اسمها: أرنب بنت كرز^(١)، وكان قد حالف بني أمية في الجاهلية^(٢). فابن الحضرمي كان مقرباً إلى معاوية، ويبدو أن الأخير كان يثق به؛ كونه حليف الأمويين؛ لذلك، عندما أرسل معاوية كتاباً إلى عمرو بن العاص يرى رأيه في ابن الحضرمي، كان ردّ ابن العاص: «إنّه لم يكن منك منذ نهضنا في هذه الحرب وانتضبنا لها، ونابذنا أهلها، رأيي هو أضرّ لعدوك وأسرّ لوليّك، من رأيك هذا الذي ألهمته، ووفقت له، فأمضه يا أمير المؤمنين مسدداً، فإنّك توجه الصليب الأريب النصيح غير الظنين»^(٣).

ولما قرأ معاوية كتاب ابن العاص، سرح ابن الحضرمي إلى البصرة، وكتب معه كتاباً يقرأه على أهل البصرة عند دخوله مدينتهم، وقال له: «إنّ جلّ أهلها يرون رأينا في عثمان، وقد قتلوا في الطلب بدمه، فهم يودّون أن يأتيهم من يجمعهم وينظّم أمرهم، وينهض بهم في الطلب بثأرهم، ودم إمامهم، فتودّد الأزد؛ فإنّ الأزد كلّها سلمك، ودع ربيعة، فلن ينحرف عنك أحد سواهم؛ لأنّهم ترابية»^(٤) كلّهم^(٥). فقال له عبد الله بن عامر الحضرمي: «أنا سهمك في كنانتك، وأنا من قد

(١) ابن عساكر، تاريخ دمشق: ٢٩ / ٢٤٤.

(٢) ابن حجر، فتح الباري: ١٣ / ٢٣.

(٣) البلاذري، أنساب الأشراف: ٣ / ١٨٦؛ ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة: ٤ / ٢٦٤.

(٤) قوله: ترابية كلّهم: أي: إنهم موالون للإمام علي بن أبي طالب (عليه السلام)؛ لأنّ رسول الله (صلى الله عليه وآله) لقّبه بأبي تراب، وكان من أحبّ الألقاب إلى نفسه. راجع: البخاري، الصحيح: ٧ / ١٩؛ الترمذي، السنن: ٥ / ٢٩٦؛ ابن حبان، الصحيح: ١٥ / ٣٦٨؛ الطبراني، المعجم الكبير: ٦ / ٢٥٢؛ البيهقي، السنن الكبرى: ٦ / ٢٥٢.

(٥) البلاذري، أنساب الأشراف: ٣ / ١٨٥؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ٢ / ٧١١.

جَرَّبَتْ، وعدُّو أهلَ حربك، وظهَّيرُك على قتلةِ عثمان»^(١).

ويبدو أنَّ معاويةَ أراد من ابنِ الحُضْرَمِيِّ الحذرَ التامَّ من أهلِ البصرة؛ فهم ذوو رأيٍ وأمر، وليس بالأمر السَّهل على ابنِ الحُضْرَمِيِّ كسب تأييدهم فيما يسعى إليه من تحريضهم ضدَّ عليٍّ، وأنَّ ينضمُّوا إلى ناحية معاوية.

كان هدف معاوية من إرسال ابنِ الحُضْرَمِيِّ إلى البصرة هو أنَّ يعمل على تحريض أهلها ضدَّ الإمامِ عليٍّ وسلطته، ومبايعة معاوية وتأييده في جهوده الرامية إلى الحصول على السَّطوة وانتزاعها من الخليفة الشرعيِّ للمسلمين أمير المؤمنين عليِّ بن أبي طالبٍ عليه السلام، فقدمها، ونزل في بني تميم، فلما سمع أهل البصرة بأمره، جاءه كلُّ مَنْ يرى رأي عثمان، وانضمُّوا إليه^(٢).

ثمَّ خطب ابنِ الحُضْرَمِيِّ بالنَّاس، قائلاً: «أيُّها النَّاس، فإنَّ عثمانَ إمامكم لِإمامِ الهدى، قتله عليُّ بن أبي طالب ظلماً، فطلبتم بدمه، وقاتلتم مَنْ قتله، فجزاكم الله من أهل مصر خيراً، وقد أُصيبَ منكم المَلَأُ الأَخْيَارُ، وقد جاءكم الله بِإخوانٍ لكم، لهم بأسٌ شديدٌ يُتَّقَى، وعدُّ لا يُحصى، فالفقوا عدوَّكم»^(٣).

إنَّ هذه الخطبة تعكس خطَّة معاوية وابنِ الحُضْرَمِيِّ في التأثير على أهل البصرة، وهي إتيانهم من حيث الطلب بدم عثمان إحياء لحرب الجمل، وتذكيراً بقتلهم حينئذٍ، ثمَّ إنَّه يعدُّهم بالرجال الأشدَّاء، والعدد الكبير الذي يساندتهم في قضية ثأرهم، «تذكروا ثأركم، تشفوا صدوركم من عدوَّكم»^(٤).

(١) الثَّقَفِيُّ، الغارات: ٣٧٤/٢.

(٢) الثَّقَفِيُّ، الغارات: ٣٧٨/٢؛ البلاذريُّ، أنساب الأشراف: ١٨٦/٣.

(٣) الثَّقَفِيُّ، الغارات: ٣٧٨/٢؛ ويُنظر: المسعوديُّ، التنبيه والإشراف: ص ١٧٦.

(٤) الثَّقَفِيُّ، الغارات: ٣٧٨/٢.

وعلى هذا، فدعوة ابن الحضرمي استندت إلى الثأر وتحريك مشاعر كل من فقد قريبه في معركة الجمل.

ولما انتهى ابن الحضرمي من خطبته التي ألقاها على مسامع الناس الذين تجمعوا حوله من أهل البصرة، وذوي النزعة العثمانية، قام الضحّاك بن قيس الهلالي^(١)، وكان على شرطة ابن عباس في البصرة، فقال: «بَحَّ الله ما جئتنا به وما تدعوننا إليه! أتيتنا والله بمثل ما أتانا به طلحة والزبير، أتينا وقد بايعنا علياً واستقامت أمورنا، فحملنا على الفرقة حتى شرب بعضنا بعضاً، ونحن الآن مجتمعون على بيعته، وقد أقال العثرة، وعفا عن المسيء، أفأتمرنا أن نتضي أسيفنا ويضرب بعضنا بعضاً ليكون معاوية أميراً؟ والله، ليوم من أيام علي خير من معاوية وآل معاوية»^(٢).

ومن خلال هذا النص يتبين لنا أن أهل البصرة قد وعوا الأمور عن كثب، وأخذوا العبرة من معركة الجمل، التي خربت مدينتهم، وكشفت الرؤية أمامهم، وكيفية التعامل مع الأحداث السياسية التي تمسهم وتفرق شملهم، لكن البصرة ذات مجتمع خليط من عناصر مختلفة، وذوي أهواء متضاربة، وكل يرغب في أن تكون الأمور على ما يهوى، الرغبة التي جعلت البعض يؤيد ابن الحضرمي، فيما جعلت بعضاً آخر يرفض التعامل معه، حتى صاحب الشرطة عندما تحدّث إلى ابن الحضرمي واكتشف حقيقة أمره، عارضه البعض، ومنعوه من الحديث عن

(١) لم أعر على ترجمة له، وربما هو أحد أحوال عبد الله بن عباس حسب ما ذكره الطبري في أحداث سنة أربعين. يُنظر: تاريخ الطبري: ١٠٨/٤.

(٢) البلاذري، أنساب الأشراف: ١٨٦/٣؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ٧١١/٢؛ ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة: ٢٦٥/٤.

القضايا والأُمُور التي تهمُّ العامَّة، فقال له أحدهم: «أُسْكُت، فلستَ بأهلٍ أَنْ تتكلَّم في أُمُور العامَّة»^(١).

وبهذا، أصبح أهل البصرة أمام منعطف آخر من منعطفات السَّياسة، وهي بطبيعة الحال بذرة التفرقة التي زرعت بين أهل البصرة، فانقسم أهلها فيما بينهم مرَّةً أخرى، واضطربت أحوالها السَّياسِيَّة، فأنصار معاوية أيَّدوه ورخَّبوا به، ودعوه إلى النصرة وتحقيق ما جاء من أجله، والبقية وهم الأكثرية من أهل البصرة عارضوه، فأصبح الجدل ظاهريًّا، أدَّى في نهاية الأمر إلى التشاتم^(٢).

ولكنَّ هذه الأُمُور التي آلت بأهل البصرة إلى التفرقة والتنافر مرَّةً أخرى، لم تكن غاية ابن الحضرمي؛ لأنَّه يحاول التهذئة والتمهيد لدعوته هناك، ومن ثمَّ يتحرَّك لكسب الأنصار، لتحقيق مهمَّته التعبويَّة ضدَّ الإمام عليٍّ بأحسن حال، فطلب من أهل البصرة أن يهدأوا ويسمعوا إلى كتاب معاوية الذي حمَّله إليهم، إذ جاء فيه: «أمَّا بعد، فإنَّ سفك الدِّماء بغير حلِّها، وقتل النفوس التي حرَّم الله قتلها هلاكٌ موبق، وحزنٌ مبين، لا يقبل الله ممَّنْ سفكها حرفاً، ولا عدلاً، وقد رأيتُم رحمكم الله آثار ابن عفَّان وسيرته، وحبَّه للعافية، ومعدلته، وسدَّه للشُّغور، وإعطائه في الحقوق، وإنصافه للمظلوم، وحبَّه للضعيف، حتَّى توثَّبَ عليه المتوثِّبون... وإنَّما ندعوكم أيُّها المسلمون إلى الطلب بدم عثمان، وإلى قتال مَنْ قتلته، فإنَّا وإياكم على أمر هدى واضح، وسبيل مستقيم، إنَّكم إن جامعتمونا طفئت النَّارُ، واجتمعت الكلمة، واستقام أمر هذه الأُمَّة، وأقرَّ الظالمون المتوثِّبون الذين قتلوا إمامهم بغير الحقِّ، فأخذوا بجرائرهم، وما قدَّمت أيديهم، إنَّ لكم أن تعمل فيكم بالكتاب،

(١) البلاذري، أنساب الأشراف: ٣/ ١٨٦؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ٢/ ٧١١.

(٢) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة: ٤/ ٢٦٥.

وأن أعطيكم في السنة عطاءين، ولا أحتمل فضلاً من فيئكم عنكم أبداً، فسارعوا إلى ما تدعون إليه يرحمكم الله.

وقد بعثت إليكم رجلاً من الصّالحين، كان من أمناء خليفتم المظلوم ابن عفّان وعمّاله وأعوّانه على الهدى والحقّ. جعلنا الله وإيّاكم ممّن يُجيب إلى الحقّ، ويُنكر الباطل ويحجّده. والسّلام»^(١).

فمعاوية حاول أن يشوّش فكر أهل البصرة عن طريق خلط الأمور عليهم بعدما تحسّنت أوضاعهم، ومالت إلى الهدوء والاستقرار، والشّيء الذي ركّز عليه في كتابه هذا هو مسألة الأموال، فهو يعدّ أهل البصرة بإطلاق العطاء، وعدم مطالبته بشيء من الفيء العائد لهم جرّاء الفتوح التي يقومون بها أو ما شابه ذلك، فأطمعهم بشيء من الوعود التي سوف ينفّذها لهم حالة نصره وإسناد أمره. وفي مقابل ذلك، ليس عليهم إلّا أن ينقضوا عهدهم الذي عاهدوا الإمام عليّاً (عليه السلام) عليه كخليفة لهم.

فلما فرغ ابن الحضرميّ من قراءة الكتاب، يقال: إنّ الأحنف بن قيس، قال: «لا ناقتي في هذا ولا جملي، واعتزل القوم»^(٢)، إلّا أنّ هذا القول المنسوب إلى الأحنف لا يتناسب مع موقفه في حرب الجمل، ولا في حرب صفّين، ففي الحرب الأخيرة أكّد للإمام عليّ (عليه السلام) أنّه لا يرى إلّا قتال أهل الشّام؛ لأنّهم ليسوا على حقّ، فحمل بني سعد عامّتهم وهم رهطه ونزل الكوفة^(٣)، فكيف يصبح متخاذلاً عن نصره

(١) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة: ٢٦٦/٤.

(٢) البلاذريّ، أنساب الأشراف: ١٨٧/٣؛ ويُنظر: الثّقفيّ، الغارات: ٣٨٧/٢؛ ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة: ٢٦٦/٤.

(٣) قارن بين ما قاله الأحنف بن قيس للإمام عليّ في معركة صفّين، وبين ما تُنسب إليه من أمر

أمير المؤمنين عليٍّ عليه السلام على الرَّغْمِ ممَّا قَدَّمَهُ فِي سَبِيلِهِ وَنَصْرِهِ، فَهَلْ أَصْبَحَتْ صِفَةُ
الاعتزال تلاحقه بعد أن اعتزل معركة الجمل؟!!

إنَّه لَا حَتَمَالٌ قَوِيٌّ جَدًّا أَنْ يَكُونَ الْقَوْلُ السَّابِقُ مَدْسُوسًا مَوْضُوعًا افْتِرَاءً عَلَى
الرَّجُلِ لِتَشْوِيهِهِ صُورَةَ شَخْصٍ التَّزَمَ نَصْرَةَ الْإِمَامِ عَلِيٍّ فِي حَرْبِ صَفِّينَ، وَبِذَلِكَ
مَا يَمْلِكُ مِنْ نَفْسِهِ وَأَهْلِهِ فِي سَبِيلِ الْحَقِّ وَقَتْلِ الْبَاطِلِ.

وَقَامَ عَمْرُو بْنُ مَرْجُومِ الْعَبْدِيِّ، فَقَالَ: «أَيُّهَا النَّاسُ، إِلْزَمُوا طَاعَتَكُمْ وَجَمَاعَتَكُمْ،
وَلَا تَنْكُثُوا بَيْعَتَكُمْ، فَتَقَعَ بِكُمْ وَاقِعَةٌ، وَتَصِيبُكُمْ قَارِعَةٌ»^(١).

إِنَّ هَذَا الْقَوْلَ يُوحِي بِأَنَّ الَّذِينَ انْضَمُّوا إِلَى ابْنِ الْحَضْرَمِيِّ وَنَصَرُوهُ كَانُوا
قَلِيلِينَ؛ لِأَنَّهُ أَكَّدَ فِي حَدِيثِهِ عَلَى أَنَّ يَبْقُوا فِي جَمَاعَةِ الْمُسْلِمِينَ فِي الْبَصْرَةِ، وَأَنَّ لَا
يَنْشَقُّوا عَنْهَا، فَيَصِيبُهُمْ مَا لَمْ يَحْسُبُوهُ وَاقِعًا؟

وَقَالَ الْمُثَنَّى بْنُ مَخْرَمَةَ -أَوْ مَخْرَبَةَ- الْعَبْدِيُّ^(٢) لِابْنِ الْحَضْرَمِيِّ: «لَا وَالَّذِي لَا إِلَهَ
إِلَّا هُوَ، لَنْ لَمْ تَرْجِعْ إِلَى مَكَانِكَ الَّذِي أَقْبَلْتَ مِنْهُ، لِنَأْخُذَنَّ بِأَسْيَافِنَا وَأَيْدِينَا وَنَبَالِنَا
وَأَسَنَّةَ رِمَاحِنَا، أَنْحَنَ نَدَعَ ابْنَ عَمِّ نَبِيِّنَا وَسَيِّدِ الْمُسْلِمِينَ، وَنَدْخُلَ فِي طَاعَةِ حَزْبٍ
مِنَ الْأَحْزَابِ طَاغٍ؟! وَاللَّهِ لَا يَكُونُ ذَلِكَ أَبَدًا حَتَّى نَسِيرَ كَتِيبَةً إِلَى كَتِيبَةٍ، وَنَفْلُقَ

الاعتزال: نصر بن مزاحم، وقعة صفين: ص ٢٥-٢٦.

(١) الثَّقَفِيُّ، الْغَارَاتُ: ٢/ ٣٨٤.

(٢) الْمُثَنَّى بْنُ مَخْرَمَةَ الْعَبْدِيُّ: مِنْ أَشْرَافِ الْبَصْرَةِ وَشَجْعَانِهَا، كَانَ مِنْ رِجَالِ عَلِيٍّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ،
وَلَمَّا قَامَ سُلَيْمَانُ بْنُ صَرْدِ الْخَزَاعِيِّ بِالْكُوفَةِ دَاعِيًا إِلَى ثَارِ الْحُسَيْنِ عليه السلام، كَتَبَ إِلَى الْمُثَنَّى هَذَا يُخْبِرُهُ
بِقِيَامِ دَعْوَتِهِ، فَتَجَهَّزَ الْمُثَنَّى، وَخَرَجَ مِنَ الْبَصْرَةِ فِي ثَلَاثِائَةٍ مِنْ أَهْلِهَا، ثُمَّ حَاوَلَ أَنْ يَسْتَوِلِيَ عَلَى
الْبَصْرَةِ وَيَضُمَّهَا إِلَى الْمَخْتَارِ أَيَّامَ قِيَامِ حَرَكَتِهِ فِي الْكُوفَةِ، فَلَمْ يَتِمَّكَنْ مِنْ ذَلِكَ؛ لِسَيْطَرَةِ عَبْدِ اللَّهِ
بْنِ الزُّبَيْرِ عَلَى الْبَصْرَةِ. ابْنُ حَجَرٍ، الْإِصَابَةُ: ٥/ ٥٨٠؛ الزُّرْكَلِيُّ، الْأَعْلَامُ: ٥/ ٧٦.

الهام بالسّيوف»^(١).

فأصبحت الجماعة التي اجتمعت وسمعت الرسالة حول ابن الحضرمي في بني تميم، بين مؤيّد ومعارض، ومساند ومناهض، ولكنّ تهديد مخرمة العبدّي الأخير كان له أثر فعّال في هزّ كيان ابن الحضرمي، الذي ذهب إلى صبرة بن شيان الأزديّ يطلب منه النصرة والإجارة، خشيةً من أهل البصرة، الذين أبوا أن يضعوا أيديهم في يديه، فعارضوا دعوته، فاستند إلى كبير جماعة، وناب من أنياب العرب، فكان ردّ صبرة على ابن الحضرمي: «لو نزلت في داري، لنصرتك»^(٢).

أمّا زياد بن أبيه خليفة ابن عباس على البصرة، فقد كان يراقب تطوّر الأحداث عن كثب، ثمّ أرسل إلى الحصين بن المنذر^(٣) ومالك بن مسمع^(٤)، فقال: «أنتم يا معشر بكر بن وائل من أنصار أمير المؤمنين وثقاته، وقد نزل ابن الحضرمي حيث ترون، وأتاه من أتاه، فامنعوني حتّى يأتيني رأي أمير المؤمنين، فقال حصين: نعم، وقال مالك - وكان رأيّه مائلاً إلى بني أميّة، وكان مروان بن الحكم قد لجأ إليه يوم الجمل - : هذا أمر لي فيه شركاء، أستشير وأنظر»^(٥).

ولما رأى زياد تناقل مالك، خاف على نفسه أن تختلف ربيعة ضده، فاستشار

(١) الثقفّي، الغارات: ٢ / ٣٨٧.

(٢) البلاذريّ، أنساب الأشراف: ٣ / ١٨٨.

(٣) الحصين بن المنذر: يكنى أبا ساسان الرقاشي، كان رئيس بكر بن وائل في أيام الإمام عليّ ابن أبي طالب عليه السلام، وكان صاحبه ومن الأصفياء له. الطوسي، اختيار معرفة الرجال: ١ / ٣٥.

(٤) مالك بن مسمع بن شيان بن شهاب بن علقمة بن عمرو، أبو غسان الرافعي، له إدراك وُلد على عهد النبي صلى الله عليه وآله، وكان سيّد ربيعة في زمانه، مقدّماً رئيساً، مات سنة ٧٣ أو ٧٤ هـ. ابن

حجر، الإصابة: ٦ / ٢١٧؛ الزركلي، الأعلام: ٥ / ٢٦٥.

(٥) الطبري، تاريخ: ٤ / ٨٤.

بعض أصحابه لمعرفة أصحاب النفوذ والجاه الذين يمكن أن يكون في حمايتهم، فاختار صبرة بن شيان، فأرسل إليه زياد بن أبيه يطلب الإجارة والحماية، فوافق صبرة على طلب زياد بشرط أن ينزل بيته، ففعل ذلك، وحَوَّلَ بيتَ المال والمنبر، فوضعه في مسجد الحُدَّان^(١).

ويبدو أنَّ خوف ابن زياد على نفسه كان ذا أثر سلبيٍّ في البصرة؛ لأنَّه لم يقيم بدور الوالي الحازم وما يترتب عليه من إجراءات وتدابير كانت تلزمه، بل كلَّ ما فكَّر به هو إيجاد مَنْ يحتمي به، تحسُّباً لأُمُور قد تكون في النهاية ليست في مصلحته! خاصَّةً بعد تخلُّل بعض القبائل البصريَّة جرَّاء عرض ابن الحضرميِّ بخصوص الأموال التي وعدهم بها من خلال كتاب معاوية الذي قرأه عليهم، فكانت نتيجة هذه العروض الترحيب من قبل بعض أهل البصرة، فأصبحت الحياة السَّيَاسِيَّة في المدينة تعمَّها الفوضى، وأصبح هناك اختلاف في الأهواء، نتج عنه اتجاهاً سياسيّان، أصبح كلٌّ منهما يروِّج لصاحبه باعتباره صاحب الحقِّ.

وبعد استقرار زياد بن أبيه في مسجد الحُدَّان، أصبح يصليُّ هناك ويُطعم الطعام، ثمَّ عمل على استفزاز بعض كبار أهل البصرة، وذلك عن طريق استخدام العصبيَّة القبليَّة لتحقيق بعض المآرب السَّيَاسِيَّة في تلك الأيام، ليُثير حماس الأزد لنصرته على بني تميم التي لجأ إليها ابن الحضرميِّ، فأخذ يضرب على هذا الوتر الحساس ويُثير في نفوس مجيريه حميَّة الجاهليَّة^(٢).

(١) حدان: إحدى محالِّ البصرة القديمة، يقال لها (بنو حدان) باسم قبيلة حدان بن شمس بن عمرو بن غنم، وسكنها جماعة من أهل العلم، وإليها نُسبوا. ياقوت الحموي، معجم البلدان: ٢/ ٢٢٧؛ ويُنظر: البلاذري، أنساب الأشراف: ٣/ ١٨٧.

(٢) رمزيَّة عبد الوهَّاب، إدارة العراق في عهد زياد: ص ٤٧.

ويبدو أنّ ثقة زياد بن أبيه بمجبريه كانت هشة للغاية، بل كان القلق يداهمه بشأن حمايته، فكان يقول لجابر بن وهب^(١): «لا أدري ما عند أصحابك، فامرهم، وانظر ما عندهم»^(٢). وكأنّه أراد بذلك أن يكون على بينة من أمره، وما يترتب عليه من إجراءات لازمة فيما إذا ازداد الأمر سوءاً.

ولما صلّى زياد، جلس في مسجد الحدّان، واجتمع إليه النّاس، فقال جابر بن وهب: «يا معشر الأزد، تميم تزعم أنّهم هم النّاس، وأنّهم أصبر منكم عند البأس، وقد بلغني أنّهم يريدون أن يسيروا إليكم، حتّى يأخذوا جاركم، ويخرجوه من المصر قسراً»^(٣). فما كان من الأزد إلّا شدّ الهمة والاستعداد للدّفاع عن نزيلهم، وأنّهم ندّبوا لبنّي تميم، وقادرون على حمل السّلاح ضدّهم^(٤). وهذا يعني أنّ الأجواء السّياسيّة في البصرة بدأت تتوتّر بعض الشيء، فلمّا رأت بنو تميم أنّ الأزد قد شدّوا العزم من أجل حماية زياد، بعثوا إليهم: «أخرجوا صاحبكم، ونحن نخرج صاحبنا، فأَيّ الأميرين غلب: عليّ أو معاوية، دخلنا في طاعته، ولا نهلك عامّتنا، فبعث إليهم أبو صبرة: إنّما كان هذا يُرجى عندنا قبل أن نجيره، ولعمري ما قتل زياد وإخراجه إلّا سواء، وإنّكم لتعلمون أنّا لم نجره إلّا تكرّماً، فاهلوا عن هذا»^(٥). ويبدو أنّ هذه المبادرة كانت من صنع ابن الحضرميّ، الذي سلك ما سلكه ابن

(١) جابر بن وهب الراسبيّ، لم أعثر على ترجمة له، ولكن، يُستفاد من حديث الطبريّ أنّه كان سيّداً من سادة الأزد في أيّامه. الطبريّ، تاريخ: ٨٤ / ٤.

(٢) الطبريّ، تاريخ: ٨٤ / ٤؛ محمّد الريشهري، موسوعة الإمام عليّ بن أبي طالب: ١١٢ / ٧.

(٣) الطبريّ، تاريخ: ٨٤ / ٤.

(٤) الطبريّ، تاريخ: ٨٤ / ٤.

(٥) الثّقفيّ، الغارات: ٣٩٣ / ٢.

العاص عندما سأل أبا موسى الأشعري أن يخلع صاحبه علي بن أبي طالب، ثم يخلع ابن العاص صاحبه معاوية بن أبي سفيان، فكان منه الغدر والخيانة، وعدم التزامه بما قال عن أمره بشأن التحكيم بعد حرب صفين.

وبذلك انطوت ألأعيب ابن الحضرمي على الأزد من أهل البصرة، وكادوا يتأثرون لولا مبادرة بني تميم، فبقي كل طرف يلتزم صاحبه.

ثم إن بعض العثمانيَّة أشار على ابن الحضرمي بنزول دار الإمارة حين خلاها زياد، فلمَّا تهيأ لذلك ودعا أصحابه لنزولها، ركبت الأزد، وقالوا: والله لا ينزلها، وركب الأحنف بن قيس، فقال لأصحاب ابن الحضرمي: لستم والله أحقَّ بالقصر من القوم، فأمسكوا عن دخول دار الإمارة^(١).

وهذا يعني أن قبائل البصرة قد انقسمت فيما بينها، وكلُّ يرغبُ بنصرة صاحبه، فأصبح التنافس واضحاً على إمكان اتِّباع ابن الحضرمي في السَّيطرة على دار الإمارة وعدمها، فإذا سيطروا عليه، فسوف يحققون تقدماً جيِّداً في السَّيطرة على البصرة، لكنَّهم اصطدموا بقيَّة القبائل المعارضة لهم، وعلى رأسهم تميم بقيادة الأحنف، فهم لم يُعلنوا إلى ذلك الوقت موقفهم النهائي من ابن الحضرمي، لكنَّ تهديد الأحنف الأخير جعلهم ينكمشون على أنفسهم؛ نتيجة لقلَّتْهم مقارنةً بالعامَّة من أهل البصرة الذين رفضوا التعامل مع ابن الحضرمي، وما يسعى إليه من شأن.

فكتب زياد بن أبيه إلى أمير المؤمنين عليٍّ (عليه السلام)^(٢) يُعلمه بأمر ابن الحضرمي، وما

(١) الثَّقَفِي، الغارات: ٣٩٤/٢؛ ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة: ٤٤٤/٤؛ حسن الأمين، أعيان الشَّيْعة: ٧٥/٢.

(٢) خليفة بن خيَّاط، تاريخ: ص ١٤٨؛ البلاذري، أنساب الأشراف: ١٨٩/٣؛ الطبري، تاريخ: ٨٥/٤؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ٧١٣/٢؛ ابن حجر، فتح الباري: ٢٣/١٣.

كان من أمر زياد ونزوله على صبرة بن شيان، فلما وصل الكتابُ إلى أمير المؤمنين، دعا أعينَ بنَ ضبيعة المجاشعي^(١)، وقال له: «يا أعين، ما بلغك أن قومك وثبوا على عاملي مع ابن الحضرميَّ بالبصرة يدعون إلى فراقي وشقاقي ويساعدون الضُّلالَ الفاسقين عليّ؟! فقال: لا تستأ يا أمير المؤمنين، ولا يكن ما تكره، إبعثني إليهم، فأنا لك زعيم بطاعتهم، وتفريق جماعتهم، ونفي ابن الحضرميَّ من البصرة أو قتله»^(٢).

فخرج أعين من الكوفة إلى البصرة ليفرّق قومه عن ابن الحضرميَّ، وقد زوّده أمير المؤمنين بكتاب جاء فيه: «بسم الله الرحمن الرحيم، من عبد الله عليّ بن أبي طالب أمير المؤمنين إلى زياد بن عبيد، سلامٌ عليك. أمّا بعدُ، فإنّي قد بعثتُ أعين ابن ضبيعة ليفرّق قومه عن ابن الحضرميَّ، فارقب ما يكون منه، فإن فعل وبلغ من ذلك ما يظنّ به، وكان في ذلك تفريق تلك الأوباش^(٣)، فهو ما نحبُّ، وإن ترامت الأمور بالقوم إلى الشقاق والعصيان، فانهض بمن أطاعك إلى من عصاك فجاهدهم، فإن ظفرت، فهو ما ظننتُ، وإلا، فطاوَلهم وماطلهم، ثم تسمع بهم

وَيُنظر: رمزيّة عبد الوهاب، إدارة العراق في عهد زياد: ص ٤٨.

(١) أعين بن ضبيعة المجاشعيّ: ابن عقّال بن محمّد بن سفيان بن مجاشع التميميّ، وهو الذي عقر الجمل الذي كانت عليه أمّ المؤمنين عائشة، وهو ابن الأقرع بن حابس، وابن عمّ صعصعة ابن ناجية، ويُعدّ في الصحابة (رضي الله عنه)، وعندما بعثه الإمام عليّ إلى قومه الذين اجتمعوا على ابن الحضرميَّ، قتلوه غدراً، وهو نائم على فراشه في بيته سنة ٣٨ هـ. ابن الأثير، أسد الغابة: ١/١٠٣؛ الصفديّ، الوافي بالوفيات: ٩/١٧٣.

(٢) الثقفنيّ، الغارات: ٢/٣٩٦؛ الطبريّ، تاريخ: ٤/٨٥.

(٣) الأوباش: وهم الأخلاط والسّفلة من الناس المتفرّقين، واحدهم: وبش، ووبش وأوباش من الشجر والنبات، وهي الضروب المتفرّقة. الزبيديّ، تاج العروس: ٤/٣٦١.

وأبصر، فكأنَّ كتائب المسلمين قد أَظَلَّتْ عليك، فقتَلَ اللهُ المفسدينَ الظالمينَ، ونصرَ المؤمنينَ المحقِّينَ. والسَّلام»^(١).

وبعد وصول أعين إلى البصرة، توجَّه إلى ابن الحضرميَّ ليفرِّق النَّاسَ عنه، فخرجت عشيرته مع ابن الحضرميَّ، فوقفوا عامَّة يومهم يتناظرون حول ما أقدم عليه ابن الحضرميَّ، ثمَّ ناشد ابن ضبيعة قومه، وذكَرَهم ببيعتهُم لِأَمير المؤمنين، وأنَّ عليهم ألاَّ يخالفوه بعد ما نكثوا بيعته وانضمَّوا إلى الناكثين في معركة الجمل، ولاقوا ما لاقوه جراء تلك الأحداث الماضية، «فقد رأيتم وجربتم كيف صنَعَ اللهُ بكم عند نكثكم بيعتكم وخلافكم، فكفَّوا عنه»^(٢).

إنَّ الروايات التاريخية تنتهي بنا إلى أنَّ أهل البصرة كانوا يتعرَّضون إلى ضغوطات نفسيَّة وفكريَّة عقائديَّة سياسيَّة في آن واحد، وأنَّ أمير المؤمنين عليّاً عليه السلام كان قد أحسَّ بذلك الضغط الذي أخذ يعمل على توجيه بعض أهل البصرة نحو مسار مخالف لحكمه، فاختار أعين بن ضبيعة كونه سيِّدهم، وله القدرة على التأثير عليهم، وتعديل فكرهم الخاطي بالذهاب إليهم وعدلهم عن غيِّهم، فكان اجتماع ابن ضبيعة بقومه في البصرة قد نحا نحواً من التوتُّر الذي كان مصحوباً بالشتائم فيما بينهم، دون أن يكون هناك قتال، خصوصاً أنَّ بعض جماعته أخذوا يدافعون عن ابن الحضرميَّ، وكاد أعين أن ينجح في مهمَّته^(٣)، لكنَّه لم يتمكَّن من كسب الوقت الكافي لتحقيق ذلك النجاح، والتقدُّم في إنهاء الأزمة، فجاءت نهايته عن طريق القتل غدرًا؟

(١) الثَّقَفِيُّ، الغارات: ٣٩٧/٢؛ ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة: ٤٦/٤.

(٢) الثَّقَفِيُّ، الغارات: ٤٠٠/٢؛ ويُنظر: محمَّد باقر المحمودي، نهج السَّعادة: ١٦١/٥.

(٣) محمَّد تقي الحكيم، عبد الله بن عبَّاس: ٣٨٠/١.

ويبدو أنّ الروايات متضاربة بعض الشيء في نهايته على فراشه؛ فثمة من يقول: إنّ خارجة من الناس دخلوا عليه وهو نائم في بيته فقتلوه^(١)، في حين أنّ هناك من يذهب إلى أنّ ابن الحزرمي كان وراء تلك الخطة بتكليفه رجالاً لمقتل أعين بن ضبيعة^(٢).

ويبدو أنّ ابن الحزرمي هو الذي سعى إلى الاحتفاظ بجماعة الناس عليه، وعدم تفرّقهم، فعندما تحدّث أعين مع قومه وجعلهم على بيّنة من أمرهم، وحذّرهم من الوقوف بجانب ابن الحزرمي، «وإنّ أبيّتم، فهو - والله - استئصالكم وبواركم»، قالوا: «بل نسمع ونطيع»^(٣).

فهذا القول من السمع والطاعة جعلت ابن الحزرمي يدبّر صيغة أخرى تُفشل تلك الالتزامات وتنهى جهود أعين، ومن ثمّ، يحافظ على أتباعه من الفرقة والتشتّت وتركه دون ناصر ولا معين، فكان مقتل أعين بن ضبيعة هو الحلّ الأنسب لدى ابن الحزرمي في التخلص من ثقل أعين وإنهاء جهوده في حفظ قومه من الانصراف عن طاعة الإمام عليّ والدّخول في طاعة معاوية.

وعلى هذا الأساس، فنحن نرجّح قيام ابن الحزرمي بتدبير عملية اغتيال أعين والتخلّص منه، بعد أن شعر بشدّة خطر تواجهه بين صفوف قومه وعشيرته، وعظيم شأنه، وأنّه كاد أن يفتّت ما أبرمه من المكاييد والدسائس، وتفرّق الناس عن أمير المؤمنين عليّ عليه السلام.

وبعد مقتل أعين، أراد زياد بن أبيه أن يقاتل ابن الحزرمي، فأرسلت تميم إلى

(١) البلاذري، أنساب الأشراف: ٣/ ١٩٠؛ الطبري، تاريخ: ٤/ ٨٥.

(٢) ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ٢/ ٧١٢.

(٣) الثقيفي، الغارات: ٢/ ٣٩٨؛ ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة: ٤/ ٤٧.

الأزد: إِنَّا وَاللَّهِ مَا أَرَدْنَا بِجَارِكُمْ مَكْرُوهاً، فَعَلَامَ تَرِيدُونَ الْمَكْرُوهُ بِجَارِنَا؟!»^(١).
فَكَفُّوا وَأَمْسَكُوا عَنْ خَوْضِ الْقِتَالِ الَّذِي لَيْسَ فِي مَصْلَحَةِ الطَّرْفَيْنِ^(٢)، وَاتَّخَذُوا
مَوْقِفاً دَفَاعِيّاً فِي حَالَةِ هَجُومِ تَمِيمٍ عَلَيْهِمْ، فَقَالُوا: «إِنْ عَرَضُوا لْجَارِنَا، مَنَعْنَاهُ»^(٣).

فَكَانَتِ السَّيْطَرَةُ عَلَى زِمَامِ الْأُمُورِ بِيَدِ الْقَبَائِلِ بِالْبَصْرَةِ، فَهِيَ صَاحِبَةُ الْكَلِمَةِ
وَالْأَمْرَةِ، عَمِلَتْ عَلَى تَسْوِيَةِ الْخِلَافِ فِيهَا بَيْنَهَا دُونَ الرَّجُوعِ إِلَى زِيَادِ بْنِ أَبِيهِ أَوْ ابْنِ
الْحَضْرَمِيِّ، بِيَدِ أَنَّ هَذِهِ الدَّعْوَةَ رَاقَتْ لِلْقِيَادَاتِ الْقَبِيلِيَّةِ دَاخِلَ الْبَصْرَةِ، وَكَانَ الْفَرَاغُ
السَّيَاسِيَّ فِي السَّلْطَةِ يُنْذِرُ بِأَسْوَأِ النَّتَائِجِ عَلَى الْمَجْتَمَعِ الْبَصْرِيِّ، الَّذِي أَصْبَحَ ذَا
تَيَّارَاتٍ سِيَاسِيَّةٍ مُخْتَلِفَةٍ، تَتَخَلَّلُهُ الْأَهْوَاءُ وَالْعَصَبِيَّةُ الْقَبِيلِيَّةُ، فَكَانَتِ الْبَصْرَةُ بِحَاجَةِ
مَاسَّةٍ إِلَى شَخْصِيَّةٍ قَوِيَّةٍ تَتَمَتَّعُ بِتَأْيِيدِ الْأَغْلَبِيَّةِ، خُصُوصاً بَعْضَ بَطُونِ بَنِي تَمِيمٍ
كُونَهُمُ التَّيَّارُ الْمَعَارِضُ، وَالْمُدَافِعُ عَنْ ابْنِ الْحَضْرَمِيِّ، بِوَصْفِهِ مُسْتَجِيراً بِهِمْ.

فَكَانَتِ هَذِهِ الصِّفَاتُ مَنَحْصَرَةً فِي شَخْصِيَّةٍ جَارِيَةٍ بِنِ قَدَامَةِ السَّعْدِيِّ، فَعِنْدَمَا
أَرْسَلَ زِيَادُ بْنُ أَبِيهِ كِتَاباً إِلَى أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ فِيهِ خَبَرُ أَعْيُنٍ وَمَا جَرَى عَلَيْهِ^(٤)، دَعَا
جَارِيَةَ بِنِ قَدَامَةَ، فَوَجَّهَهُ فِي خَمْسِينَ رَجُلًا مِنْ بَنِي تَمِيمٍ، وَبَعَثَ مَعَهُ شَرِيكَ بِنِ
الْأَعُورِ^(٥)، وَيُقَالُ: بَعَثَ جَارِيَةَ فِي خَمْسَمِائَةِ رَجُلٍ^(٦).

وَكُتِبَ الْإِمَامُ عَلِيٌّ عَلَيْهِ السَّلَامُ كِتَاباً إِلَى زِيَادٍ أَرْسَلَهُ مَعَ جَارِيَةَ، يُلْزِمُ زِيَاداً بِأَنْ يَمُدَّ يَدَ

(١) الْبَلَاذِرِيُّ، أَنْسَابُ الْأَشْرَافِ: ٣/ ١٩٠؛ الطَّبْرِيُّ، تَارِيخُ: ٤/ ٨٥.

(٢) الثَّقَفِيُّ، الْغَارَاتُ: ٢/ ٤٠٠.

(٣) الطَّبْرِيُّ، تَارِيخُ: ٤/ ٨٥؛ وَيُنْظَرُ: مُحَمَّدُ الرِّيشَهْرِيُّ، مَوْسُوعَةُ الْإِمَامِ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ:
١١٣/ ٧.

(٤) يُنْظَرُ نَصُّ الْكِتَابِ عِنْدَ: الثَّقَفِيِّ، الْغَارَاتُ: ٢/ ٤٠٠.

(٥) عَنْ شَرِيكَ بِنِ الْأَعُورِ، يُنْظَرُ الْفَصْلُ الرَّابِعُ مِنْ هَذِهِ الدِّرَاسَةِ.

(٦) الطَّبْرِيُّ، تَارِيخُ: ٤/ ٨٥؛ ابْنُ الْأَثِيرِ، الْكَامِلُ فِي التَّارِيخِ: ٢/ ٧١٣.

العون لجارية، وأن يسمع له ويُطيع^(١). فلما قدم جارية البصرة، بدأ بزياد، فسلم عليه، فرحب به زياد، وأجلسه إلى جانبه، وتحدثا بشأن الوضع السياسي داخل البصرة، ثم خرج، فكان أفضل ما أوصاه به زياد بن أبيه أن قال: «إحذر على نفسك، واتق أن تلقى ما لقي صاحبك القادم قبلك»^(٢). فخرج جارية، وقال للأزد: «عرفتم الحق إذ جهله غيركم، وحفظتموه إذ ضيعوه»^(٣).

ثم إن أمير المؤمنين كان قد زود جارية بكتاب يقرأه على مسامع أهل البصرة، جاء فيه: «من عبد الله عليّ أمير المؤمنين إلى من قرئ عليه كتابي هذا من ساكني البصرة من المؤمنين والمسلمين. سلامٌ عليكم. أما بعد، فإن الله حليم ذو أناة لا يعجل بالعقوبة قبل البيّنة، ولا يأخذ المذنب عند أول وهلة، ولكنه يقبل التوبة، ويستديم الأناة، ويرضى بالإنابة؛ ليكون أعظم للحجة، وأبلغ في المَعذرة، وقد كان من شقاق جلكم أيها الناس ما استحققتم أن تعاقبوا عليه، فَعَفَوْتُ عن مجرمكم، ورفعتُ السيف عن مدبركم، وقبلت من مُقبِلِكُم، وأخذتُ ببيعَتكم، فإن تفوا ببيعتي، وتقبلوا نصيحتي، وتستقيموا على طاعتي، أعمل فيكم بالكتاب وقصد الحق، وأقم فيكم سبيل الهدى، فوالله ما أعلم أن ولياً بعد محمد ﷺ أعلم بذلك منّي. أقول قولي هذا صادقاً غير ذام لمن مضى، ولا منتقصاً لأعمالهم، فإن خطت بكم الأهواء المردية، وسفه الرأي الجائر، إلى منابذتي، تريدون خلافي، فهذا أنا ذا قرّبتُ جيادي، ورحلتُ ركابي، وأيم الله، لئن أُلجأتوني إلى المسير إليكم، لأوقعن بكم وقعة لا يكون يوم الجمل عندها إلّا كلعقة لاعق، وإنّي لظان أن لا تجعلوا - إن

(١) الطبري، تاريخ: ٨٥ / ٤.

(٢) الثقفى، الغارات: ٤٠٢ / ٢؛ ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة: ٤٩ / ٤.

(٣) البلاذري، أنساب الأشراف: ١٩١ / ٣.

شاء الله - على أنفسكم سبيلاً. وقد قَدِّمْتُ هذا الكتابَ حِجَّةً عليكم، ولن أكتبَ إليكم بعده كتاباً إن أنتم استفسشتم نصيحتي، وناذتُم رسولي، حتَّى أكون أنا الشَّاخصُ نحوكم - إن شاء الله - . والسَّلام»^(١).

وكان صبرة بن شيَّان حاضراً ساعة قراءة الكتاب، فقال: «سمعاً وطاعةً، نحن لمن حارب أمير المؤمنين حربٌ، ولمن سالم سلمٌ»^(٢).

إنَّ أمير المؤمنين عليه السلام في كتابه هذا يوضِّح لأهل البصرة، أنَّ أخطاءهم لا يمكن أن يعاقبوا عليها منذ أوَّل وهلة، بل على الإنسان أن يراجع أخطاءه، ويصحِّح مساره عند كلِّ حال، وبذلك كان أمير المؤمنين يذكِّر أهل البصرة بعفوه ومنه عندما ظفر بهم في معركة الجمل، وكان البصريُّون حينئذٍ قد ارتكبوا الذَّنْب، لكن بشكل غامض، فهم لم يكونوا يدركون الخطأ الذي اقترفوه، ولم يكونوا يدركون ما يفعلون في وقوفهم إلى جنب الناكثين، ثمَّ تمكَّنوا من تعديل وجهة نظرهم، وبايعوا الإمام عليّاً بعد نهاية معركة الجمل، وبعد بيعتهم تلك، أصبحوا ملزمين بأن يفوا بها، خاصَّةً أنَّها كانت عامَّة في مسجد البصرة، ولم تقتصر على جماعة دون أخرى، ثمَّ إنَّ بيعتهم كانت بإرادتهم دون أن يُحمَلوا عليها بالقوَّة، والذين لم يرغبوا بالبيعة لأمر المؤمنين تركوا البصرة والتحقوا بمعاوية في الشَّام، ليواصلوا معارضتهم للإمام عليٍّ من هناك، على الرَّغم من أنَّه عليه السلام لم يتعرَّض لأحد منهم، أو يتَّخذ إجراءات صارمة ضدهم.

لذلك، كانت غاية أمير المؤمنين حمل أهل البصرة ما استطاع على طريق الحقِّ،

(١) الشريف الرضي، نهج البلاغة: ٣/ ٣٦؛ ويُنظر: الثَّقَفِي، الغارات: ٢/ ٤٠٣؛ الميرجهاني، مصباح البلاغة: ٤/ ١٣٣؛ محمَّد باقر المحمودي، نهج السَّعادة: ٥/ ١٦٤.

(٢) البلاذري، أنساب الأشراف: ٣/ ١٩١؛ محسن الأمين، أعيان الشَّيعة: ٤/ ٦٠.

وإنهاء الفتن داخل مدينتهم، والحفاظ على وحدتهم وتماسكهم في ظلّ الدّين الإسلاميّ، وبرعاية الدّولة، لكنّ بعض أهل البصرة لم يلتزموا ببيعتهم لأمر المؤمنين، بل سرعان ما تأثروا ببعض المغريات المادّيّة التي أبداهم رسول معاوية، فرغبوا في الانضمام إليه طمعاً بالوعود التي عرضها عليهم ابن الحضرميّ، وفي الوقت نفسه، تناسوا التزاماتهم إزاء أمير المؤمنين بشأن بيعتهم، إضافة إلى سياسته القائمة على المنّ والعفو، كأنّ هؤلاء الذين انضمّوا إلى ابن الحضرميّ قد أعلنوا تمرّداً ضدّ تلك السّياسة التي اتّبعها أمير المؤمنين معهم، فكان ردّ الإمام عليه السلام يحمل صيغة الشّدّة، وأنّه لن يتركهم يتصرّفون كيفما يحلوا لهم بسفهم.

ثمّ إنّ عليه السلام لم يكن يرغب في أن يجعل لأهل البصرة على أنفسهم حجة تلزمه بأن يتقدّم بعساكره نحوهم ليصلح ما أفسدوه من أمرهم وأمر مدينتهم؛ لأنّ قدومه مرّة أخرى سيلزمه بطريقة أخرى غير التي اتّبعها معهم بعد نهاية معركة الجمل؛ إذ هذه المرّة لا تحتاج الأمور إلى بينة أو ما شابه ذلك ليتّبعه أهل البصرة، بل الأمور أكثر وضوحاً ممّا سبق، بالإضافة إلى أنّ أهل البصرة لم يقفوا عامتهم إلى جانب ابن الحضرميّ، بل شذّمة من النّاس كانت تميل إلى بني أميّة، وهذا ما جعل الإمام عليه السلام يتساهل في أمرهم، فاكتفى برسله إليهم ليصلحوا شأنهم دون التعامل معهم بطريقة أكثر حزم وشدّة.

لقد كان أمير المؤمنين عطوفاً برعيّته مع أنّهم كانوا دائماً ما يخطئون بحقه، وكان يسعى إلى إصلاح ما أفسدوه، فهو أكثر منهم إدراكاً لما يدور في الأذهان والقلوب، ويحاول أن يُبعدهم عمّا يُفسدهم في دينهم ودنياهم. فإذا كان أمير المؤمنين عليه السلام قد تعامل مع أهل البصرة بعد وقعة الجمل بالحسنى والتسامح والعطف على الرّغم من خطئهم حينئذٍ، فإنّما كان ذلك لظروف البصرة الاستثنائيّة التي مرّت بها في

تلك الفترة، وأمّا هذه المرّة، فعليهم أن يتداركوا حالهم بأنفسهم، وأن لا يُسيئوا لإمامهم دون أيّ ذنب، فإذا أصرّوا على تلك الإساءة، سيقدم عليهم الإمام للمرّة الثانية، ولكن، هذه المرّة سوف تكون بالمقارنة مع معركة الجمل سريعة في الحسم كلعقة لاقق.

ولما سمع أهل البصرة كتاب أمير المؤمنين، أصبح هناك ردود أفعال من كبار القوم بدأها زياد بن أبيه لم نجد لزياد دوراً يُذكر في إنهاء هذه المشاكل التي حدثت بالبصرة، على الرّغم من أنّه خليفة ابن عبّاس عليها، وله صلاحية تصحيح أخطاء أهل البصرة، نسبة إلى وظيفته التي أوكلت إليه، بل كان جلّ همّه الحفاظ على نفسه من الأمور التي ليست بالحسبان بخطبته في الأزدي، وتعقّبه أبو صفرة^(١)، ثم قال صبرة بن شيان: «إنّا والله نخاف من حرب عليّ في الآخرة، أعظم ممّا نخاف من حرب معاوية في الدّنيا»^(٢). فلما أصبحوا، سارت الأزدي زياد بن أبيه، وسار جارية ابن قدامة بمنّ معه، ومنّ سارع بالانضمام إليه من بني تميم، الذين أجابوه عندما قرأ عليهم كتاب أمير المؤمنين^(٣).

لقد ضعفت هذه التطوّرات الأخيرة موقف ابن الحضرميّ أشدّ ضعفة، ما دعا إلى تفرّق أتباعه من بني تميم والتحاقهم بجارية، لذلك، ما إن استعدّ أهل

(١) أبو صفرة: ظالم بن سارق بن صبح بن كند بن عمرو بن عدي، الأزديّ، والد المهلب الأمير المشهور، وقد تعرّض للسبي مع الأزدي في عمان أيام أبي بكر لعدم دفع الصّدقات، وفيهم أبو صفرة غلام لم يبلغ الحلم، ثمّ حرّروهم، فنزلوا البصرة، فكان أبو صفرة أوّل من تكلم بالنحو بالبصرة. ابن حجر، الإصابة: ٧ / ١٨٥.

(٢) البلاذريّ، أنساب الأشراف: ٣ / ١٩١.

(٣) ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ٢ / ٧١٣.

البصرة لمحاربة هؤلاء الذين انضموا إلى ابن الحضرمي، حتى وجدنا الأخير قد مال بهم للتحصن في قصر سنبل^(١)، الذي كان تابعاً لرجل من بني تميم^(٢)، فحصرهم فيه، وقيل: كان مع ابن الحضرمي عبد الله بن خازم^(٣)، وسبعون رجلاً، ويقال: أربعون^(٤)، فجاءت أم عبد الله بن خازم - وكان اسمها عجلي - وكانت حبشية، فنادته، فأشرف عليها من أعالي القصر يكلمها، فأخرجت ثديها، وقالت: «أسألك بدرّيهما لما نزلت، فأبى، فقالت: والله لتنزلن أو لأتعرّين، فأهوت بيديها إلى ثيابها، فلما رآها، نزل، فمضت به إلى منزلها»^(٥).

ثم أحاط جارية بن قدامة القصر بالخطب والنار، فأحرق ابن الحضرمي والسبعين الذين كانوا معه، فسُمّي جارية محرّقة^(٦).

(١) قصر سنبل: قيل: كان قصراً قديماً للفرس في الجاهلية، ثم حوّله سنبل السعديّ قصراً، وكان يقع في بني تميم. يُنظر: ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ٧١٣/٢؛ صالح أحمد العلي، خطط البصرة: ص ٨٩.

(٢) ابن سعد، الطبقات الكبرى: ٥٦/٧.

(٣) عبد الله بن خازم: ابن أسماء بن الصلت بن حبيب، أبو صالح، الأمير المشهور، له صحبة، وهو أحد الذين نزلوا خراسان، وتولّوها لمدة عشر سنين، وفي زمن عبد الله بن الزبير انضم إليه وأيده، فكتب له ابن الزبير بولاية خراسان، فلما قُتل مصعب بن الزبير، بعث عبد الملك ابن مروان برأس مصعب إلى ابن خازم، فصلّى عليه بخراسان. ابن حجر، الإصابة: ٦١/٤.

(٤) الطبري، تاريخ: ٨٥/٤.

(٥) البلاذري، أنساب الأشراف: ١٩٢/٣؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ٧١٣/٢.

(٦) الثقفى، الغارات: ٤٠٨/٢؛ البلاذري، أنساب الأشراف: ١٩٢/٣؛ أمّا اليعقوبي، فقد أورد رواية أخرى نسبت تلك التسمية لجارية، يقول فيها: «إن جارية بن قدامة بعدما وجّهه الإمام عليّ لقتال بسر بن أرطاة، قال: وحدث أبو الكنود أنّ جارية مرّ في طلب بسر، وحرّق تحريقاً، فسُمّي محرّقة». تاريخ: ١٣٩/٢.

فلَمَّا هلك ابن الحضرميِّ، أُنْهِيَ الْأَزْدُ حَقَّ الْإِجَارَةِ لِزِيَادِ بْنِ أَبِيهِ، وَقَالُوا لَهُ: «بَرئْنَا مِنْ جَوَارِكٍ؟ فَقَالَ: نَعَمْ»^(١)، فَاسْتَقَامَ لَهُ الْأَمْرُ، وَنَزَلَ قَصْرَ الْإِمَارَةِ، وَحَوَّلَ إِلَيْهِ بَيْتَ الْمَالِ، ثُمَّ كَتَبَ إِلَى أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِاسْتِقْرَارِ الْوَضْعِ، وَبَدُورِ جَارِيَةِ الْمَهْمِ وَالْفَعَّالِ فِي إِنْهَاءِ الْفِتْنَةِ^(٢). فَاسْتَقَامَتِ الْأُمُورُ دَاخِلَ الْبَصْرَةِ، وَانْتَهَتْ الْأَضْطِرَابَاتُ بِقِيَّةِ عَهْدِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَيْهِ السَّلَامُ.

وكان لفتنة ابن الحضرميِّ ذِيُولُ أُخْرَى ظَهَرَتْ فِي بِلَادِ فَارَسٍ؛ إِذْ «اختلف النَّاسُ عَلَى طَمَعِ أَهْلِ فَارَسٍ وَأَهْلِ كَرْمَانَ فِي كَسْرِ الْخَرَجِ، فَغَلَبَ أَهْلُ كُلِّ نَاحِيَةٍ عَلَى مَا يَلِيهِمْ، وَأَخْرَجُوا عَمَّا هُمْ»^(٣). وَلَكِنْ هَذَا التَّمَرُّدُ مِنْ قَبْلِ أَهْلِ فَارَسٍ يَشُوبُهُ الْغَمُوضُ؛ فَهَلْ كَانَ تَمَرُّدَهُمْ، وَكَسْرُ الْخَرَجِ، بِإِيْعَازٍ مِنْ مَعَاوِيَةَ، أَمْ كَانَ نَتِيجَةَ لَفِتْنَةِ ابْنِ الْحَضْرَمِيِّ دَاخِلَ الْبَصْرَةِ، بِوصفها مركزاً إدارياً لتلك المناطق؟
ليس لدينا نصوص كافية بهذا الشأن تكشف أسباب ذلك الانشقاق، وتوجيه

ولقب محرق كان معروفاً عند العرب قبل الإسلام؛ فقد أطلق العرب على الحارث بن عمرو بن عدي محرق ملك الغساسنة لقب محرق؛ لآته أول من حرق العرب في ديارهم، فهم يدعون آل محرق، وهو الحارث الأكبر، ويكنى أبا شمر. وقيل: إنَّ امرأ القيس الأول بن عمرو بن عدي مالك الحيرة لقب محرقاً؛ لأنَّ هذا كان اسماً لأحد أصنام العرب. ومن المحتمل أن تكون ثمة علاقة بين امرئ القيس وبين هذا الصنم؛ كأن يكون قد اتخذ من باب التيمن والتبرك للملك الذي عرف بالمحرق، أو آته قدم قرباناً لهذا الإله أحرق على مذبحه بالنار، وكان يكثر من حرق القرابين للآلهة، وتلك عادة معروفة. ابن قتيبة، المعارف: ص ٦٤٢؛ جواد علي، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام: ١٨٨/٣.

(١) البلاذري، أنساب الأشراف: ١٩٢/٣.

(٢) البلاذري، أنساب الأشراف: ١٩٣/٣.

(٣) الطبري، تاريخ: ١٠٥/٤؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ٧٣٠/٢.

ارتباك الأوضاع العامّة هناك. فربّما كان لأوضاع البصرة، وتآزم الحياة السّياسيّة فيها، أثر واضح على مجرى الأحداث في بلاد فارس. وهذا يكشف عن تفكّك السّلطة الإداريّة على بلاد فارس حينئذٍ.

عندها، استشار أمير المؤمنين أتباعه في مَنْ يوجّهه إلى تلك النّاحية من بلاد المسلمين ليعمل على إعادة المياه إلى مجاريها، فأشار عليه جارية بن قدامة بزياد ابن أبيه، فوجّهه إليها بأربعة آلاف مقاتل، فدوّخ تلك البلاد حتّى استقام أهلها، ورضخوا لأمر المسلمين العرب^(١).

والظاهر أنّ جارية قد عرّف شخصيّة زياد أثناء تواجده معه في البصرة في فتنة ابن الحضرميّ. ويروى أنّ ابن عبّاس كان قد اتخذ موقفاً مشدّداً من بني تميم في عودته الأخيرة إلى البصرة؛ بسبب انضمامهم إلى ابن الحضرميّ، فكتب له الإمام عليّ يوصيه بهم خيراً^(٢).

ثالثاً: قضيّة أموال البصرة وعبد الله بن عبّاس

في الفترة الأخيرة من خلافة أمير المؤمنين عليّ عليه السلام سنة (٤٠هـ / ٦٧٠م)، أشارت بعض الروايات إلى ما عُرِف بقضيّة أموال البصرة التي أخذها عبد الله ابن العبّاس من بيت مال المسلمين، وحملها وانطلق بها إلى مكّة تاركاً عمله لأمر المؤمنين في إدارة البصرة.

لقد كانت هذه المسألة نقطة مثيرة للجدل عن سبب أخذ ابن عبّاس تلك

(١) الطبريّ، تاريخ: ١٠٥ / ٤.

(٢) يُنظر: الشريف الرضي، نهج البلاغة: ١٨ / ٣؛ محمّد تقي الحكيم، عبد الله بن عبّاس:

الأموال دون أن يطلبها من أمير المؤمنين، أو حتّى ولو بعد الإشارة إلى ذلك، لربّما احتاج مبلغاً معيّناً من المال يسدّ به حاجةً ألحّت عليه تلك الفترة.

وقد أصبحت المسألة ذات جدل وحوار ابتدأه أبو الأسود الدؤليّ عن طريق كتابه لأmir المؤمنين عليّ يُعلمه بخبر ابن عبّاس، وما أخذ من المال، فكتاب أبي الأسود أثار المسألة التي ذكرها بعض المؤرّخين، ولكنّ البلاذريّ والطبريّ ذكراها بشيء من التفصيل، فلننقل ما جاء لدى الطبريّ الذي لا يختلف بنصّه عن البلاذريّ، قال: «مرّ عبد الله بن العبّاس على أبي الأسود الدؤليّ، فقال: لو كنت من البهائم، كنت جملاً، ولو كنت راعياً، ما بلغت المرعى، ولا أحسنت مهنته في المشي»^(١).

فما كان من أبي الأسود الدؤليّ إلّا أن يكتب إلى الإمام عليّ يُعلمه الخبر، وما بدر من ابن عبّاس بهذا الشأن. فكانت هذه الرواية هي بداية تلك القضية التي أرجع بعضهم سببها إلى تأويل ابن عبّاس^(٢) لقوله ﷺ: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى﴾^(٣).

وما يُثير التساؤل حول مسألة الأموال وابن عبّاس وتأويله، هو أنّه: لماذا لم يتأوّل بحقوق الآخرين إلى جانب حقّه في المعارك التي خاضها مع الإمام عليّ ﷺ كالجمل وصفين والنهروان؟! هل كان ارتباطه بأمر المؤمنين هو ما حال دون ذلك، إلى أن جاءت الفرصة عندما استقلّ بولاية البصرة، فأراد أن يجعل له بصمة

(١) تاريخ الطبريّ: ١٠٨/٤؛ ويُنظر: البلاذريّ، أنساب الأشراف: ٣٩٦/٢؛ ابن الدمشقيّ، جواهر المطالب: ٧٩/٢؛ محمد باقر المحموديّ، نهج السعادة: ٣٢٣/٥.

(٢) ابن الدمشقيّ، جواهر المطالب: ٧٩/٢.

(٣) سورة الأنفال، آية (٤١).

في حقوق الآخرين؟!

إن رواية أبي يوسف كفيّلة بتوضيح هذه الإشارات المثيرة للجدل؛ فقد جاء فيها: «كتب نجدة بن عامر إلى ابن عباس، يسأله عن سهم ذي القربى، فأجابه: كتبت إليّ تسألني عن سهم ذوي القربى لمن هو؟ وهو لنا، وإن عمر بن الخطاب دعانا إلى أن ننكح منه أيّمنّا، ونقضي به عن مغرمنا، ونخدم منه عائلنا، فأبينّا إلّا أن يسلمّه، وأبى ذلك علينا»^(١).

لربّما كان السبب عند البعض في تحميل ابن عباس على التأويل وخشية عمر بن الخطاب من ذلك، وعدم تولية عمر لابن عباس ولغيره من بني هاشم المناصب، نابعاً عن ستر فضائل بعض أقارب النبي صلى الله عليه وآله من أجل إبراز فضائل الآخرين في الخلافة^(٢). إلّا أنّ هذا الأمر لا يتم إلّا إذا كان هناك مسائل خلافية بين أقرباء الرسول صلى الله عليه وآله، حتّى يتمكّن ذوو النحل والأهواء من استخدامه بشكل ملفتٍ للنظر، يجعل جُلّ الآخرين يركّزون بصورة أقوى على هذه المشكلة، لتبرز صورة جديدة ذات جذبٍ وتأثيرٍ، تعمل على إعادة صياغة نظرية جديدة تحقّق مصالح البعض.

ثمّ تستعرض بعض الروايات تطوّر القضية بين الإمام علي عليه السلام وابن عباس، وأخذها شكل المراسلات بينهما لحلّ الأزمة المتصاعدة^(٣)، فما إن يكتب أمير

(١) الخراج: ص ٢٠.

(٢) سامي البدرى، المدخل إلى دراسة مصادر السيرة النبوية والتاريخ الإسلامي: ص ٥٣٧.

(٣) يُنظر تلك الكتب: الطبري، تاريخ: ٤ / ١٠٨؛ الطوسي، اختيار معرفة الرجال: ١ / ٢٨٠؛

ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ٢ / ٧٣٥؛ ابن الدمشقي، جواهر المطالب: ٢ / ٧٩؛ المجلسي،

بحار الأنوار: ٤٢ / ١٥٣.

المؤمنين كتاب إلى ابن عباس، يأتي الردّ عليه من الآخر بالدّفاع عن حقّه والمطالبة في أمره.

إنّ هذه المراسلات تُثير الاهتمام، فهل يُعقل أن يكون التفاوض قد دبّ بين أمير المؤمنين من جهة وواليه على البصرة من جهة أخرى من أجل حلّ أزمة، كلّ واحدٍ منهما يرى صاحبه مخطئاً بحقّه ولم ينصفه؟! ولماذا لم يتدخل طرف ثالث من أجل حلّ الأزمة قبل أن تستعصي وتتطوّر؟!

أمّا بالنسبة إلى أهل البصرة، فيذكر أنّ ابن عباس دعا أحواله بني هلال، فحمل ما اجتمع عنده وخرج به، فبعثت القبائل التي نزلت أخماس البصرة كلّها، فلحقوه بالطفّ من أرض البصرة، وأوقفوه يريدون أخذ الأموال التي بحوزته، وكاد الأمر يصل إلى القتال^(١)، ويقال: بل كان بينهم قتال^(٢).

في حين ذهب أحدهم إلى أنّ حادثة استعانة ابن عباس بأحواله وموقف بني تميم منه، وخروج من خرج من أهل الأخماس لمنعه كانت صحيحة، ولكن في غير ما وضع لها من تاريخ، وتاريخها الذي يظنّه كان بعد صلح الإمام الحسن (عليه السلام)، وخروجه من البصرة بمتاعه، وأنّ بني تميم أرادوا الانتقام لأنفسهم منه بعد ذهاب السّلطة من يده، لمواقفه الصارمة منهم بعد عودته من الكوفة^(٣)، عندما وقف بعضهم إلى جانب ابن الحضرميّ، وقد ذكرناها في ما مضى، ثمّ تتسلسل القصّة في خروج ابن عباس، وفي أثناء مسيره في الطريق، أخذ يُعطي كلّ من سأله، ومن لم يسأله من الضّعفاء، حتّى قدم مكّة، فاشترى الجوّاري بثلاثة آلاف

(١) الطبريّ، تاريخ: ٤ / ١٠٩.

(٢) ابن كثير، البداية والنهاية: ٧ / ٣٥٧.

(٣) محمّد تقي الحكيم، عبد الله بن عباس: ١ / ٣٩٦.

دينار^(١). وكأنّه أراد استغلال تلك الأموال في اللّهُو والترّف والأُمُور الفاحشة، وهذا الشيء لا يقبله العقل مقابل ذلك النقل من قبل المؤرّخين؛ لأنّه يتعارض مع مكانة ابن عبّاس في الإسلام، وما قيل بحقّه من فضائل^(٢).

ولما استقرّ ابن عبّاس في مكّة، أرسل إليه أمير المؤمنين عليّ كتاباً جاء فيه: «إني أشركتُك في أمانتي، ولم يكن رجل من أهلي أوثق منك في نفسي، فلما رأيت الزّمان على ابن عمّك قد كَلَب، والعدوّ قد حَرَب، قلبت لابن عمّك ظهرَ المِجَن بفراقه مع المفارقين، وخذلانه مع الخاذلين، واختطفَت ما قدرت عليه من أموال الأُمّة اختطاف الذّئب الأزل دامية المعزى، ضحّ رويداً، فكأن قد بلغت المدى، وعُرضت عليك أعمالك بالمحلّ الذي به يُنادي المغتر بالحسرة، ويتمنّى المضيع التّوبة، والظّالم الرجعة»^(٣).

على أثر هذا الكتاب، كتب ابن عبّاس إلى أمير المؤمنين عليّ: «أمّا بعد، فقد بلغني كتابك تعظّم عليّ إصابة المال الذي أصبْتُ من بيت مال البصرة، ولعمري إنّ حقّي في بيت مال الله أكثر ممّا أخذتُ. والسّلام»^(٤).

أمّا الطبريّ، فيذكر أنّ ابن عبّاس عندما أراد الخروج من البصرة كتب إلى أمير

(١) البلاذريّ، أنساب الأشراف: ٢ / ٤٠٠.

(٢) قال رسول الله ﷺ بحقّ ابن عبّاس: «اللّهُمّ فقّهه في الدّين، وعلمّه التّأويل». أحمد بن حنبل، المسند: ١ / ٢٦٦؛ البخاري، الصّحيح: ١ / ٤٥.

(٣) ابن قتيبة، عيون الأخبار: ص ٥٠؛ ويُنظر الكتاب الذي نقله البلاذريّ، أنساب الأشراف: ٢ / ٤٠٠.

(٤) الطوسيّ، اختيار معرفة الرّجال: ١ / ٢٨٠؛ ابن الدّمشقيّ، جواهر المطالب: ٢ / ٨٤.

المؤمنين: «... فابعث إلى عملك مَنْ أَحْبَبْتَ، فَإِنِّي ظَاعِنٌ^(١) عَنْهُ. وَالسَّلَامُ»^(٢). في حين أَنَّ البلاذريَّ ذهب إلى أكثر ممَّا لدى الطبريِّ، فهو يقول: «فلَمَّا قرأ عليُّ الكتاب، قال: أو ابن عبَّاس لم يشركنا في هذه الدِّماء؟!»^(٣). وكأنَّه اعترف من أمير المؤمنين في سفك تلك الدِّماء من أجل الملك والإمرة، وهذا يتعارض مع الأمر الواقع الذي لمسنه في معارك الإمام عليٍّ عليه السلام، التي سعى فيها جاهداً من أجل حقن دماء المسلمين، وجمع شملهم، ويتناقض مع أخلاق وقيم وسموِّ نفس أمير المؤمنين، ومن ثَمَّ، فالقول الذي ذكره البلاذريَّ بعيد كلِّ البعد عن أسلوب الإمام، من حيث التعامل والردِّ على الآخرين؛ إذ إنَّ سيرة الإمام عليٍّ عليه السلام قائمة على الرِّفق واللين والأناة، واستصلاح حال الناس، ولا يلجأ للغة العنف والتهديد إلَّا إذا كان أمراً معارضاً لحدود الله ﷻ وشرعه، ولا تأخذه في الله لومة لائم.

وهناك إشارة إلى محاوره جرت بين عمرو بن عبيد^(٤) وبين سليمان بن عليٍّ^(٥)؛

(١) ظاعن: يقال لكلِّ شاخص لسفر في حجٍّ أو غزو أو مسير من مدينة إلى أخرى. ابن منظور، لسان العرب: ١٣ / ٢٧١.

(٢) تاريخ الطبري: ٤ / ١٠٨.

(٣) أنساب الأشراف: ٢ / ٣٩٨.

(٤) عمرو بن عبيد: أبو عثمان بن باب، التميمي، البصري، شيخ المعتزلة في عصره، كان من أهل الورع والعبادة، وكان متكلماً مشهوراً، كان جدُّه (باب) من سبي كابل من جبال السُّند، وكان أبوه يخالف أصحاب الشرط بالبصرة، فكان النَّاس إذا رأوا عمرو مع أبيه، قالوا: هذا خيرُ النَّاس ابنُ شرِّ النَّاس، وكان يرى رأي القدرية، ويدعو لها، توفي سنة ١٤٤هـ. ابن قتيبة، المعارف: ص ٤٨٣؛ ابن خلِّكان، وفيات الأعيان: ٣ / ٤٦٠؛ الذهبي، ميزان الاعتدال: ٣ / ٢٧٣.

(٥) سليمان بن عليٍّ: ابن عبد الله بن العبَّاس، وينتهي نسبه إلى بني هاشم، وهو عمُّ أبي العبَّاس السِّفَّاح، أبو جعفر المنصور، أمُّه فارسيَّة اسمها لبنى، وقيل: سعدى، كان كريماً، قيل: إنَّه يعتق

إذ سأله سليمان عن قول الحسن البصري^(١) في ابن عباس: «يُفتينا في القملة والقملة، وطار بأموالنا في ليلة. فقال عمرو بن عبيد: وكيف يقول هذا وابن عباس (عليه السلام) عليها، لم يفارق علياً حتى قُتل، وشهد صلح الحسن؟! وأي مال يجتمع في بيت المال بالبصرة مع حاجة علي (عليه السلام) إلى الأموال، وهو يُفرغ بيت مال الكوفة في كل خميس ويرشه؟! قالوا: إنه كان يُقيل فيه، فكيف يترك المال يجتمع بالبصرة؟! وهذا باطل»^(٢).

وإن هناك أدلة أخرى تُثبت وجود ابن عباس في البصرة وعدم خروجه عنها؛ إذ قيل: «لم ينزح ابن عباس عن البصرة حتى قُتل علي (عليه السلام)، فشخص إلى الحسن بن علي (عليه السلام)، وشهد الصلح بينه وبين معاوية، ثم رجع إلى البصرة، وثقله بها، فحمله ومالاً من مالها، وقال: هي أرزاقِي اجتمعت»^(٣).

كذلك روي أن ابن عباس كتب إلى معاوية بشأن دس الرّجال في البصرة من أجل استقصاء الأخبار لمصلحته^(٤)، وكسب الأنصار، واستمالة الرّجال. والسؤال الذي يُثار هنا: لماذا لم يتوجّه معاوية إلى كسب عبد الله بن العباس إلى صفّه ضدّ

في كل موسم عشية عرفة مائة نسمة، ولي الموسم في خلافة السّفّاح، وولي البصرة للمنصور الدوانيقي، توفي سنة ١٤٢هـ. المزي، تهذيب الكمال: ١٢ / ٤٤.

(١) الحسن البصري: هو الحسن بن يسار البصري المعروف، ولد بالمدينة سنة ٢١هـ، في خلافة عمر بن الخطّاب، وكانت أمّه خيرة مولاة لأمّ سلمة، نشأ في وادي القرى، وقد نسبته قوم إلى الحديث بالقدر، توفي سنة ١١٠هـ. الصّفدي، الوافي بالوفيات: ١٢ / ١٩٠؛ ويُنظر: الذهبي، ميزان الاعتدال: ١ / ٥٢٧.

(٢) الشريف المرتضى، الأمالي: ١ / ١٢٣.

(٣) وكيع، أخبار القضاة: ١ / ٢٨٩.

(٤) أبو الفرج الأصفهاني، مقاتل الطالبين: ص ٦٣.

خصمه المباشر آنذاك الإمام عليّ عليه السلام عند نشوب تلك القضية التي ضيّقت فوهة الخناق على ابن عبّاس؟! ألم يخش ابن عبّاس من أن يقوم الإمام ببعث رجاله إليه لمحاسبته على ما ارتكب من خطأ لم يصلحه بعد؟

ثم إن ابن عبّاس يعدّ مكسباً مطلوباً لدى معاوية بوصفه أحد القادة الذين اعتمد عليهم الإمام عليّ. وقد حاول معاوية عدّة مرّات من أجل كسب ابن عبّاس إلى جانبه، فيُروى أنّ معاوية قال لعمر بن العاص: «إنّ رأس النّاس بعد عليّ هو عبد الله بن عبّاس، فلو ألقيت إليه كتاباً لعلّك ترفقه به، فإنّه إن قال شيئاً، لم يخرج عليّ منه، وقد أكلتنا الحرب، ولا أرانا نصل العراق إلّا بهلاك أهل الشّام، قال عمرو: إنّ ابن عبّاس لا يُجَدِّع، ولو طمعت فيه، طمعت في عليّ، فقال معاوية: على ذلك، فاكتب إليه...، فلمّا انتهى كتاب جواب ابن عبّاس إلى عمرو، وأتى به معاوية، فقال: أنت دعوتني إلى هذا، ما كان أغناني وأباك من بني عبد المطّلب، فقال: إنّ قلب ابن عبّاس وقلب عليّ واحد»^(١).

إنّ ردّ عمرو بن العاص على معاوية يحمل مضموناً ذا أهمّيّة تعكس العلاقة الحميمة بين ابن عبّاس والإمام عليّ، وليس بينهما في هذه العلاقة أدنى خلل قد يُوقع بينهما خصاماً، فضلاً عن أن يكون في مسألة دنيويّة تافهة جدّاً كالأموال، فكان الأجدر بمعاوية أن يترقّب هذه الفرصة لو كانت ليستميل ابن عبّاس عن طريق الأموال، كما فعل مع الآخرين، خصوصاً إنّ مشكلة الأموال قد نشأت بين عليّ عليه السلام وابن عبّاس ساعده الأيمن كما يزعم، فلو كانت مسألة الأموال واردة وصحيحة، لاستخدمها معاوية في كتبه التي أرسلها لابن عبّاس، يذكره فيها شدّة

(١) نصر بن مزاحم، وقعة صفّين: ص ٤١٠-٤١٤.

عليّ معه، وحرمانه من الأموال التي كان يرى حقّه فيها على أساس التأويل! بل كان ابن عبّاس المناهض لمعاوية بعد استشهاد أمير المؤمنين، وما كان يلقاه من قوارع الكلام، وشدة الخصام، وما كان يُثني به على أمير المؤمنين، ويذكر خصائصه وفضائله، ويصدّ به من مناقبه ومآثره، فلو كان بينهما غبار أو كدر، لما كان الأمر كذلك، بل لكانت الحال بالضدّ ممّا اشتهر من أمرهما^(١).

أمّا مبلغ المال الذي أخذه ابن عبّاس من بيت مال البصرة حسب ما ادّعي، فقد كان كبيراً، لا يتناسب مع مقدرات المسلمين الماليّة في تلك الفترة؛ لكثرة الفتن والقتال بين المسلمين أنفسهم على مستوى الجبهة الداخليّة للدولة الإسلاميّة، فكانت الحاجة للأموال متزايدة للعمليات العسكريّة، والفتوح التي شهدتها الدولة في تلك الأيام^(٢)، وإصلاح الأوضاع العامّة.

إنّ مبلغ المال برواية اليعقوبيّ كان عشرة آلاف درهم^(٣). أمّا البلاذريّ، فجعله ستّة آلاف ألف^(٤)، ولم يذكر هل كانت بالدّرهم أم بالدينار! فإذا صحّت كلتا الروایتين، فمبلغ المال كبير نسبياً، لا يمكن أن يتجمّع ولو لمرة واحدة زمن الإمام عليّ عليه السلام؛ لأنّه لم يكن يرغب في تكديس الأموال بينما المسلمون في شدة الحاجة إليها تلك الأيام؛ إذ روي: «إنّ عليّاً أعطى العطاء في سنة ثلاث مرّات، ثمّ أتاه

(١) جواد كاظم النصر الله، البصرة في عهد ابن عبّاس، مجلّة رسالة الرافدين، العدد (٤)، لسنة ٢٠٠٦ م: ص ٧١.

(٢) يُنظر: شكري ناصر عبد الحسن الميّاخي، الإمام عليّ بن أبي طالب عليه السلام دراسة في فكره العسكريّ: ص ١٢٢.

(٣) تاريخ اليعقوبيّ: ١٤٣/٢.

(٤) أنساب الأشراف: ٣٩٨/٢.

مال من أصفهان، فقال: أُغْدُوا إِلَى عَطَاءٍ رَابِعٍ، إِنِّي لَسْتُ لَكُمْ بِخَازِنٍ»^(١).
فهذه الرواية تنفي تجمُّع الأموال بذلك الرِّقْم الذي ذكره المؤرِّخون كما ذكرناه،
وهذا يعني أنَّ بيت مال البصرة لم يكن يتواجد فيه مبالغ ماليَّة ضخمة، كتلك التي
ادَّعي أنَّ ابن عبَّاس قد أخذها وقصد مكَّة.

ثمَّ إنَّ خروج ابن عبَّاس عن البصرة وتوجُّهه إلى مكَّة بتلك الأموال، غامض
بعض الشيء؛ لعدم وجود أيِّ نصٍّ يكشف مقصده وراء تلك العمليَّة، فهل
كان ابن عبَّاس خرج إلى مكَّة من أجل مساعدة بعض الفقراء لصعوبة العيش
ذاك الوقت؟! أم كان راغباً في تخليص بعض الناس من شحَّة الأموال لتحسين
أحوالهم المعاشيَّة؟! هذا شيء مستبعد أن يكون من قصد ابن عبَّاس؛، لأنَّ الإمام
عليّاً حسب الرواية التي ذكرناها يقول للمسلمين: «إِنِّي لَسْتُ لَكُمْ بِخَازِنٍ»،
فشمل جميع المسلمين، وفي جميع أرجاء الدَّولة، فلم تكن سياسته في العطاء أن
يُمَيِّز مدينة عن سواها.

إذن، فما هي أسباب أخذ ابن عبَّاس للمال بقوله: «إِنَّ حَقِّي فِي بَيْتِ الْمَالِ لِأَعْظَمِ
مِمَّا أَخَذْتُ»؟!^(٢). فهل اعتقاد ابن عبَّاس أنَّه من العاملين عليها؟ أم من باب ذوي
القربى؟ أم شيء آخر؟^(٣).

ثمَّ إذا خرج وترك أمر ولاية البصرة حسب زعم المؤرِّخين، فمَن الذي تولَّى
منصب ولاية البصرة أثناء غيابه عنها؟! فإذا قلنا: بقيت البصرة دون والٍ، فهذا

(١) ابن سلام، الأموال: ص ٣٨٤.

(٢) البلاذري، أنساب الأشراف: ٤٠١ / ٢.

(٣) جواد كاظم النصر الله، شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد المعتزلي: رؤية اعتزاليَّة عن
الإمام عليٍّ: ص ٣٩٨.

حتماً مخالف لسير الأحداث السياسيّة؛ لأنّ معاوية كان دائماً يحاول استغلال أنصاره داخل البصرة من أجل إشاعة الفوضى وإرباك الوضع بين أهلها، حتّى يتمكن من فتح ثغرة ضدّ حكومة الإمام عليّ، كما وجدنا ذلك من خلال ما فعله ابن الحزرميّ، فما بال معاوية هذه المرّة لم يستغلّ غياب السّلطة في البصرة من أجل سيطرته عليها؟! فهذا إن دلّ على شيء، فهو يعطينا برهاناً على تماسك سلطنة البصرة.

وإذا خرج ابن عبّاس عن البصرة، فكيف رجع إلى منصبه فيها عندما أخذ بيعة الناس فيها للإمام الحسن بعد شهادة أمير المؤمنين (عليه السلام)^(١)، ولم يُذكر سبب رجوعه إليها وعلى أيّ أساس؟!

ثمّ إنّ هناك بعض الروايات تذكر أنّ ابن عبّاس كان على اتصال مستمرّ مع الإمام عليّ (عليه السلام)، حول إيصال الأموال التي تزيد من عطاء أهل البصرة؛ إذ يروى عن رجل من بني تميم، قال: «وجّهني عبد الله بن عبّاس إلى عليّ بن أبي طالب (عليه السلام) وهو بالكوفة بستمائة ألف درهم، فضلت من عطايا أهل البصرة»^(٢).

وفي رواية أخرى أنّ عبد الله بن عبّاس حمل مالاً من البصرة ودخل الكوفة فوجد أمير المؤمنين (عليه السلام) قائماً في السّوق، قال ابن عبّاس: «فسلّمتُ عليه فردّ عليّ السّلام، ثمّ قال: يا بن عبّاس، ما فعل المال؟ فقلتُ: ها هو يا أمير المؤمنين، وحملتُ إليه، فقربني ورحب بي»^(٣).

إنّ هذا النصّ الأخير يعكس لنا أنّ شيئاً من الاختلاف قد وقع بين الإمام

(١) المفيد، الإرشاد: ص ٢٧٤.

(٢) محمّد بن سليمان، مناقب الإمام أمير المؤمنين: ٧٣/٢.

(٣) الطبرسيّ، مكارم الأخلاق: ص ١١٣.

عليّ وعامله على البصرة ابن عبّاس، ويبدو أنّ الاختلاف كان حول مبلغ معيّن من المال لا نعرف مقداره ولا مصدره، وكذا لا نعرف المورد الذي أراد الإمام أن يصرفه فيه عندما نجده يقول لابن عبّاس: «ما فعل المال؟»، فلو كان ابن عبّاس قد أحدث أمراً لم يرق لأمر المؤمنين، لوجدناه يحاسبه محاسبة شديدة، فهو لا تأخذه في الله لومة لائم، كما لا يحتاج إلى بيان.

ويبدو من قضيّة أموال البصرة أنّ ابن عبّاس كان على اتصال وثيق بأمر المؤمنين، وأنّه ربّما حاول أن يستغلّ مبلغاً من أموال البصرة من أجل صرفه في جهة معيّنة، لكنّ أمر تصرّفه ذلك بأموال المسلمين لم يلق القبول لدى أمير المؤمنين، فنهاء عن توجّهه ذلك، وهذا ما حتم على ابن عبّاس أن يخرج من البصرة وبحوزته الأموال ويذهب إلى الكوفة ويلتقي بأمر المؤمنين، فلمّا التقى به عليه السلام، قرّبه منه، ورحب بمقدمه، فالإمام عليّ، كان يوجّه ابن عبّاس نحو المسار الصّحيح في حياته، ويصحّح أخطاءه، كونه غير معصوم يقع في الخطأ، وعلى هذا الأساس، نجد أنّ ابن عبّاس لما حضرته الوفاة، قال: «اللّهم، إني أتقرّب إليك بولاية عليّ بن أبي طالب عليه السلام»^(١).

فلو كان ابن عبّاس قد أخذ تلك الأموال الطائلة واستقرّ في مكّة، لوجدنا آثارها بعد وفاته، شأنه في ذلك شأن سائر من مات وترك ثروات ضخمة^(٢).

فعوامل الدّعاية للوضع عليه في زمانه، وخاصّة أنّ السّلطة العبّاسيّة كانت في بداياتها، وبين الثّائرين من أئمّة الزيدية على الحكم، والتماس الطعن لدى

(١) ابن البطريق، العمدة: ص ٢٧٢.

(٢) يُنظر: ابن سعد، الطبقات الكبرى: ٣/ ٢٢٢؛ ابن عساكر، تاريخ دمشق: ٢٥/ ١٢٠؛

الأميني، الغدير: ٨/ ٢٨٣.

الآخرين^(١)، واختلاف الحاسدين لابن عباس وأعدائه^(٢)، ووضع الروايات في إنكار خلافة أمير المؤمنين عليه السلام، لا يستبعد أن يضعوا أخباراً في خيانة ابن عباس؛ لكونه ابن عم أمير المؤمنين والمدافع عنه^(٣).

إنّ هذه الاعتبارات وأمثالها، واختلاف وجهات النظر بين المؤرّخين، والأسباب الغامضة بالنسبة إلى أموال البصرة، والآراء المتشعبة التي أحاطت بالقضية، ممّا لا يمكن أن ننفيه من الأساس، ونجعلها مختلقة! بل ربّما حدث صغير وقع فيه اختلاف بين الأقلام ووجهات النظر التي عبّرت عن رأيها، وسلكت فيه مسالك مختلفة، أسفرت عن مشكلة كبيرة في التاريخ الإسلامي.

(١) محمد تقي الحكيم، عبد الله بن عباس: ٢/ ٣٩٢.

(٢) حسين الشاكري، من أعلام الصحابة والتابعين: ٨/ ٥٠.

(٣) سامي البدري، المدخل إلى دراسة مصادر السيرة النبوية والتاريخ الإسلامي: ص ٥٤٢

المبحث الخامس

البصرة في عهد الإمام الحسن عليه السلام

بعد استشهاد الإمام علي عليه السلام، مرّت الدولة بمرحلة انتقاليّة قصيرة، تولّى الخلافة أثناءها الإمام الحسن بن علي بن أبي طالب؛ ففي صباح اللّيلة التي دُفِن فيها أبوه عليه السلام خطب في الناس خطبة طويلة^(١)، جاء فيها: «لقد قُبِضَ في هذه اللّيلة رجل لم يسبقه الأوّلون بعمل، ولا يُدرّكه الآخرون بعمل، لقد كان يجاهد مع رسول الله فيقيه بنفسه، وكان رسول الله ﷺ يوجّهه برايته، فيكنفه^(٢) جبرائيل عن يمينه وميكائيل عن يساره، فلا يرجع حتّى يفتح الله على يديه، وقد توفي عليه السلام في اللّيلة التي عُرج فيها بعيسى بن مريم عليه السلام، وفيها قُبِضَ يوشع بن نون وصيّ موسى، وما خَلَفَ صفراء ولا بيضاء إلّا سبعمائة درهم فضلت من عطائه، أراد أن يبتاع بها خادماً لأهله.

ثمّ خنقته العبرة، فبكى وبكى النّاس معه. ثمّ قال: أنا ابن البشير، أنا ابن النّذير، أنا ابن الدّاعي إلى الله بإذنه، أنا ابن السّراج المنير، أنا من بيت أذهب الله عنهم الرّجس وطهّرهم تطهيراً، أنا من أهل بيت افترض الله حبّهم في كتابه، فقال تعالى: ﴿قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ وَمَنْ يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُ فِيهَا

(١) البيهقيّ، تاريخ ٢/ ١٤٩؛ ويُنظر: راضي آل ياسين، صلح الحسن: ص ٥٦، ص ٥٩.

(٢) يكنفه: اكتنفوه: أحاطوا به، والتكنيف مثله، يقال: صلاء مكتّف، أي: أُحيط به من جوانبه. ابن منظور، لسان العرب: ٣٠٨/ ٩.

حُسْنًا^(١)، فالحسنة مودَّتْنَا أهل البيت^(٢).

ثم قام ابن عباس (عليه السلام)، فقال: «معاشر النَّاس، هذا ابن نبيِّكم ووصيَّ إمامكم، فبايعوه، فاستجاب له النَّاس، فقالوا: ما أحبه إلينا، وأوجب حقّه علينا، وتبادروا إلى البيعة له بالخلافة».

وكان ذلك في يوم الجمعة، الحادي والعشرين من شهر رمضان سنة (٤٠هـ / ٦٧٠م)^(٣). فكانت مسألة البيعة قد اتَّجَهَتْ نحو قيام الصِّراع بين الطرفين العراقيّ تحت سلطة الإمام الحسن (عليه السلام)، والطرف الشَّامي بقيادة معاوية بن أبي سفيان، سيّما أنّ معاوية قد استقرَّ في بلاد الشَّام وقوي جيشه، ولم يعد يخشى أحداً في المواجهات العسكريّة، وغاراته من بلاد الشَّام على المناطق الخاضعة لسلطة ونفوذ الإمام عليّ (عليه السلام) أعطته حافزاً أكبر في التصدّي لأيّ سلطة تقام بعد سلطة الإمام أمير المؤمنين.

أمّا بالنسبة إلى الإمام الحسن (عليه السلام)، فالحقيقة غير واضحة في حقّه؛ بسبب غياب أخباره في كتب التاريخ، فالتركيز جاء على حياته الخاصّة دون أمور الحكم والقدرة السِّياسيّة، حتّى أنّ فترة عهده لم تُحدّد ضمن العهد الراشديّ هي أم ضمن الفترة الأمويّة حسب المشهور في الكتب التاريخيّة.

(١) سورة الشُّورى، آية (٢٣).

(٢) المفيد، الإرشاد: ص ٢٧٣-٢٧٤؛ ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة: ١٦ / ٣٠؛ ابن الصِّبَّاح، الفصول المهمّة: ٢ / ٧١٦؛ المجلسيّ، بحار الأنوار: ٤٣ / ٣٦٢؛ ويُنظر: أعلام الهداية (لجنة التّأليف): ٤ / ١٢١.

(٣) المفيد، الجمل: ص ٢٧٤؛ ويُنظر: الطبريّ، تاريخ: ٤ / ١٢١؛ أعلام الهداية: ٤ / ١٢٣؛ راضي آل ياسين، صلح الحسن: ص ٥٨.

إنَّ هذا التَّغْيِيبَ له أسبابُ أثَّرت في غياب الأخبار الأخر الخاصَّة بعهد الإمام الحسن، وفيما يتعلَّق بجوانب الخلافة وإدارة الدَّولة، صحيح أنَّ الفترة التي بقي فيها الإمام الحسن قصيرة بالمقارنة مع سائر الذين حكموا الدَّولة، لكنَّ هذا لا يعني تغييب تلك الفترة القصيرة، فطمس شخصيَّة الإمام الحسن أثَّرت على أخباره الإيجابيَّة في حكم الدَّولة.

لقد حاول الإمام الحسن في مطلع هذه الفترة مواجهة الانحراف بالقوَّة وحسم الموقف عسكرياً مع خصمه ومناوئيه^(١)، فهناك رواية تستعرض همَّة الإمام الحسن في القضاء على الانحراف والاختلاف الذي دبَّ بين المسلمين، فلمَّا بايعوه، قال لهم: «تبايعون لي على السَّمع والطاعة، وتحاربون مَنْ حاربتُ، وتسالمون مَنْ سالمْتُ، فلمَّا سمعوا ذلك، ارتابوا وأمسكوا أيديهم، وقبض هو يده»^(٢).

إنَّ الظروف التي تسلَّم فيها الإمام الحسن الحكم وسدَّة الخلافة لم تكن مواتية أبداً لمواصلة طريق أبيه في تحجيم دور الذين يتطفَّلون على حقوق المسلمين، وينتهزون الفرص للإطاحة بهم، فكان التمزُّق والاستغراق في الدُّنيا قد عصف بالمسلمين، ناهيك عمَّا عمل عليه معاوية من شراء الضمائر والنفوس الضَّعيفة من أجل إرباك جبهة الإمام الحسن وانقسام جيشه^(٣).

ثمَّ إنَّ الأجواء التي سادت العراق في تلك الفترة كانت قلقلة للغاية، ولم تكن مشجِّعة أبداً على تصعيد القتال^(٤)، فمال الإمام الحسن عليه السلام إلى الاتفاق على إقامة

(١) مجتبي الموسوي اللّاري، دراسة في أسس الإسلام: ص ٣٤١.

(٢) ابن قتيبة، الإمامة والسَّياسة: ١/ ١٨٣-١٨٤.

(٣) اليعقوبي، تاريخ: ٢/ ١٤٩؛ المفيد، الإرشاد: ص ٢٧٥.

(٤) د. إبراهيم بيضون، ملامح التَّيارات السَّياسِيَّة: ص ١٤١.

هدنة بين الطرفين؛ لإنهاء الأزمة التي تصاعدت بين أهل العراق وأهل الشام، وحفظ المسلمين من الافتراق وحفظ دمائهم^(١).

– البصرة والإمام الحسن عليه السلام

أما علاقة البصرة بالإمام الحسن عليه السلام، فقد بدأت منذ بيعته في الكوفة؛ إذ أرسل عليه السلام ابن عباس لمواصلة ولايته للبصرة، والنظر في أمورها^(٢)، كما كان عليها في عهد أمير المؤمنين علي عليه السلام.

ويبدو أن الأيام الأولى من خلافة الإمام الحسن قد شهدت استقرار البصرة تحت سيطرته وبيعته دون أن يكون هناك اضطراباً ما، وهذا الأمر لم يكن في مصلحة معاوية أبداً؛ إذ كان يترقب الفرصة من أجل الإطاحة بنظام الإمام الحسن وسلطته، ولذلك، لم يكن يرغب أو يرضى بسيادة الأمن والاستقرار داخل البصرة، فعمل على إرباك الوضع فيها، ومعرفة الأخبار عن طريق دس الرجال؛ فقد روي أنه «دس معاوية رجلاً من بني حمير إلى الكوفة، ورجلاً من بني القين إلى البصرة، يكتبان إليه الأخبار، فدلّ على الحميري عند لحام جرير^(٣)، ودلّ على

(١) جاء في كتاب الصلح بين الإمام الحسن ومعاوية بن أبي سفيان: «أن يسلم ولاية المسلمين لمعاوية، على أن يترك سب أمير المؤمنين عليه السلام والقنوت عليه في الصلاة، وأن يؤمن شيعته، ولا يتعرض لأحد منهم بسوء، ويوصل إلى كل ذي حق حقه، والناس آمنون حيث كانوا من أرض الله تعالى...». يُنظر: الطبري، تاريخ: ١٢٢/٤؛ الطبرسي، أعلام الوري: ١/٤٠٣؛ ابن شهر آشوب، مناقب آل أبي طالب: ١٩٦/٣؛ الأميني، الغدير: ٦/١١.

(٢) المفيد، الإرشاد: ص ٣٧٤؛ الأربلي، كشف الغمّة: ١٦١/٢.

(٣) لحام جرير: سكة من سكك الكوفة. الطبري، تاريخ: ٥٠٢/٤.

القينيّ بالبصرة في بني سليم، فأخذوا وقتلًا^(١).

لقد كان معاوية بذلك يحاول إيجاد الثَّغرة التي يتمكّن من خلالها من إعلان سياسته الهادفة إلى بداية تمرّده ضدّ سلطة الإمام الحسن عليه السلام في كلا المصيرين الكوفة والبصرة، فهما يعدّان ثقل الخلافة، ولهما كلّ التأثير في استمرار خلافة وسلطة المسلمين، فإذا تمكّن منهما، فإنّه سوف يُطلق العنان لنفسه ولحاشيته بتصعيد الأزمة بينه وبين الإمام الحسن عليه السلام، وتساعد أزمة الخلافة، فمعاوية بدسّه رجاله في الكوفة والبصرة كان يرسل رسالته في تحدّي السّلطة الجديدة.

وكأنّ الإمام الحسن عليه السلام قد فهم مقصده من ذلك، فكتب إلى معاوية: «أما بعدُ، فإنّك دسست إليّ الرّجال، كأنّك تحبّ اللقاء، وما أشكّ في ذلك، فتوقّعه إن شاء الله»^(٢).

إنّ كتاب الإمام الحسن عليه السلام هذا يعطينا صورة عن مدى استعداد جيشه لخوض الحرب ضدّ جيش الشّام، وفي أيّ لحظة، وهذا ما صرّح به الإمام الحسن لمعاوية ضمن الكتاب، فجيش الإمام في بداية عهده لم يكن ضعيفاً أمام معاوية وجيش الشّام، بل على العكس من ذلك؛ لذلك، أخذ معاوية يعمل على تشتيت وتقسيم ذلك الجيش وإخراجه عن سيطرة قائده، ليتمكّن بكلّ سهولة من تحقيق مآربه الخبيثة.

وكذلك كتب عبد الله بن العباس من البصرة إلى معاوية بشأن دسّ رجل بني القين إلى البصرة، وتمثّل بقول الشّاعر:

(١) أبو الفرج الأصفهانيّ، مقاتل الطالبيّين: ص ٦٢؛ المفيد، الجمل: ص ٣٧٤؛ راضي آل ياسين، صلح الإمام الحسن: ص ٧٦؛ نزار المنصوريّ، النصر لشيعة البصرة: ص ٩١.

(٢) أبو الفرج الأصفهانيّ، الأغاني: ١٩ / ٢١؛ وللمؤلّف نفسه، مقاتل الطالبيّين: ص ٦٣.

لَعَمْرُكَ إِنِّي وَالْخَزَاعِي طَارِقًا كَنَعَجَةٍ عَادٍ حَتْفُهَا تَحَقَّرُ
أَثَارَتْ عَلَيْهَا شَفْرَةً بَكَرَاعِهَا فَظَلَّتْ بِهَا مِنْ آخِرِ اللَّيْلِ تَنْحَرُ
شَمْتُ بِقَوْمٍ مِنْ صَدِيقِكَ أَهْلَكُوا أَصَابَهُمْ يَوْمٌ مِنَ الدَّهْرِ أَصْفَرُ^(١).

فهذه الأحداث لم تؤثر في أهل البصرة بحيث ينكثون ببيعة الإمام الحسن عليه السلام ويدخلون في بيعة أخرى جديدة، ولو كان هناك مناهضة جديدة للخلافة واصطدام بها، لذكرها المؤرخون كما ذكروا فتنة ابن الحضرمي زمن الإمام علي عليه السلام، وقد مر ذكر ذلك بالتفصيل.

لقد كان معاوية يرغب في أن يُفسد على الحسن عليه السلام الأمور، ويوجر عليه قلوب الناس؛ لأن البصرة تُعدّ أهمّ مصر ذي أثر سياسي له بصمته في قلب المعطيات لأيّ طرف ينضمّ إليه، أو يساند حركته، فإذا قامت بدور ما، فسوف تعمل على إرباك الخليفة الجديد، وإرباك الوضع العام، الذي قد يحمل المجتمع الإسلامي على الاستنجاد بشخصية أخرى، وليس هناك أحد مؤهل لذلك المركز سوى معاوية ابن أبي سفيان، وهذا ما سعى إليه، من خلال شماتته بالإمام الحسن عليه السلام، فكان ردّ الإمام على معاوية: «إِنَّكَ شَمْتُ بِمَا لَا يَشْمُتُ بِهِ ذُوو الْحِجَى»^(٢).

– أهل البصرة وجيش الإمام الحسن عليه السلام

وهناك إشارة إلى تواجد أهالي البصرة في جيش الإمام الحسن بشكل كبير؛ إذ روي أنّ سليمان بن صرد^(٣) جاء إلى الإمام الحسن عليه السلام بعد صلحه مع معاوية بن

(١) أبو الفرج الأصفهاني، مقاتل الطالبين: ص ٦٣؛ ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة: ١٦ /

٣٢؛ الأحمدي الميانجي، مواقف الشيعة: ١ / ١٩٠.

(٢) أبو الفرج الأصفهاني، الأغاني: ص ٦٣.

(٣) هو سليمان بن صرد بن الجون بن منقذ بن ربيعة، الذي ينتهي نسبه إلى خزاعة، يكنى أبا

أبي سفيان، فقال له: «ما ينقضي تعجُّبنا من بيعتك معاوية ومعك أربعون ألف مقاتل من أهل الكوفة، وشيعتُك من أهل البصرة»^(١).
وفي الوقت نفسه هناك مَنْ يزعم أنَّ عدد الجيش قد بلغ مائة ألف مقاتل من أهل العراق^(٢)، كلُّهم يأخذ العطاء.

وقد عمل معاوية على شراء ضمائر قادة ذلك الجيش ببذل الأموال^(٣)، فالعديد من رجالات ذلك الجيش لم يكونوا يؤمنون إيماناً صادقاً بقضية الإمام الحسن عليه السلام، بل كان يضمُّ فئات مختلفة الميول والأهواء، فلم يكونوا على درجة واحدة من الإخلاص، ومن ثَمَّ، نجح معاوية في إرباك صفوف الإمام الحسن عن طريق إشاعة موضوع الصِّلح، وأنَّ الحسن قد صالح معاوية^(٤).

لقد كان أَمَامَ الحسن عليه السلام طريقان لا ثالث لهما: إمَّا المغامرة بخوض حرب خاسرة ستأتي بالفناء والدمار على البقية من المؤمنين المخلصين، أو السَّلام من

مطرف، كان خيراً فاضلاً له دين وعبادة، كان اسمه في الجاهلية يسار، فسماه رسول الله ﷺ سليمان، سكن الكوفة، وكان له قدر وكلمة مسموعة في قومه، شهد صفين مع عليٍّ عليه السلام، وكان فيمن كتب للحسين عليه السلام يسأله القدوم إلى الكوفة، وكان قائد مَنْ خرج يطلب ثأر الحسين الشهيد عليه السلام سنة ٦٥هـ، فمكروا في النخيلة، وسمَّوه أمير التَّوَابِين، فقتل هو ومَنْ خرج معهم حينئذٍ في مكانٍ يُسمَّى (عين الوردية) من بلاد الشَّام. ابن عبد البر، الاستيعاب: ٦٥١ / ٢؛ الصَّفدي، الوافي بالوفيات: ٢٤٠ / ١٥.

(١) المجلسي، بحار الأنوار: ٢٩ / ٤٤؛ عليّ الكوراني، جواهر التاريخ: ٩٣ / ٣؛ نزار المنصوري، النصر لشيعتنا البصرة: ص ٩١.

(٢) ابن قتيبة، الإمامة والسياسة: ١ / ١٨٥؛ لكن روايته مبالغ فيها. يُنظر: راضي آل ياسين، صلح الحسن: ص ١١٨.

(٣) اليعقوبي، تاريخ: ١٤٩ / ٢؛ راضي آل ياسين، صلح الحسن: ص ٢٤٨.

(٤) اليعقوبي، تاريخ: ١٤٩ / ٢؛ ويُنظر: صالح الورداني، السِّيف والسياسة: ص ١٤٠.

أجل الإسلام وحفظ هذه الثلة القليلة المتبقية من المؤمنين المخلصين، وإلا فمن رأي الإمام الحسن عليه السلام فيما لو كانت الظروف أفضل أن لا يواجه معاوية إلا وبينهما السيف، ولكن الأمور سارت بعكس ما كان يتمناه الإمام عليه السلام، فاضطر إلى الصلح وحقن الدماء^(١).

ولقد كانت خطوة الصلح وعقد اتفاقية بين الطرفين ذات مردود إيجابي في حفظ المسلمين من خوض القتال وسفك الدماء، ولكنها كانت سلبية على الحسن ابن علي بن أبي طالب عليه السلام بنظر بعض من أتباعه من المتحمسين لقتال معاوية، ما جعلهم يقولون له: «يا مُذَلَّ العرب»^(٢)، وفي رواية أخرى «يا مُذَلَّ المؤمنين»^(٣). وهذا ناتج عن عدم معرفتهم التامة باستراتيجية الإمام الحسن عليه السلام في حفظ المسلمين، ومصلحة الإسلام.

- أهل البصرة وصلح الإمام الحسن عليه السلام

أما بالنسبة إلى العلاقة بين أهل البصرة وما وقع من صلح بين الإمام الحسن عليه السلام ومعاوية بن أبي سفيان، فقد ورد في أحد بنود الصلح: «جعل له ما في بيت مال الكوفة وخراج أبجرد محلة بنيسابور تابعة لأموال البصرة»^(٤). وكانت رغبة الإمام الحسن من البند هو: «أن يفرق في أولاد من قتل أبوه بصفين ألف ألف درهم، وأن

(١) مجتبى الموسوي اللّاري، دراسة في أسس الإسلام: ص ٣٤٢.

(٢) الطبري، تاريخ: ١٢٦/٤؛ موسوعة كلمات الإمام الحسن (لجنة التأليف في معهد باقر العلوم): ص ١٧٦.

(٣) الدّينوري، الأخبار الطوال: ص ٢٢١؛ أبو الفرج الأصفهاني، مقاتل الطالبين: ص ٤٤؛ ابن شعبة الحرّاني، تحف العقول: ص ٣٠٨؛ ابن شهر آشوب، مناقب آل أبي طالب: ٣/ ١٩٧.

(٤) الطبري، تاريخ: ١٢٢/٤؛ راضي آل ياسين، صلح الحسن: ص ٢٦٠.

يجعل ذلك من خراج دار أبجرد»^(١).

أدرك الإمام الحسن عليه السلام أنَّ معاوية أخذهم لا محالة بالانتقام، بأن يمنع عنهم العطاء؛ لذلك، جعل من ضمن بنود المعاهدة الالتزام بأن يوزَّع عليهم مليون درهم، فكان طلب الإمام الحسن عليه السلام إنَّما هو من أجل ضمان مورد مادِّي ليتامى شهداء الجمل وصفين^(٢)، الذين قد يواجهون حالة الحرمان في حكومة معاوية.

أمَّا سبب اختيار مال دار أبجرد دون سائر الأموال في بلاد فارس، فيقول الشيخ الصدوق: «إنَّ المال مالان: الفيء الذي ادَّعوا أنَّه موقوف على المصالح الداعية إلى قوام الملة وعمارتها، من تجييش الجيوش للدِّفاع عن البيضة ولأرزاق الأسارى، ومال الصدقة الذي خصَّ به أهل السَّهام»^(٣)، وقد جرى في فتوح الأرضين بفارس والأهواز وغيرهما من البلدان، ممَّا فُتِح منها صلحاً، وما فُتِح منها عنوة، وما أسلم أهلها عليها هنات هنات، وأسباب بإيجاب الشَّرايط الدَّالة لها...، فخاف الحسن عليه السلام أنَّ كثيراً منهم لا يرى لنفسه أخذ الصدقة من كثير منهم إذا كانت غسالة ذنوبهم، ولم يكن للحسن عليه السلام في مال الصدقة سهم»^(٤).

وعلى هذا الأساس، راعى الإمام الحسن مسألة الأرض وشرعية الأموال التي تؤخذ منها على أساس الصدقة، ومدى تقبُّل البعض لتلك الأموال.

(١) الصدوق، علل الشرائع: ١/ ٢١٢.

(٢) إدريس الحسيني المغربي، لقد شيعني الحسين: ص ٢٨٢.

(٣) أهل السَّهام: هم الذين ورد ذكرهم في القرآن الكريم في آية الفيء: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ إِن كُنتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ...﴾. سورة الأنفال (١٤).

(٤) الصدوق، علل الشرائع: ١/ ٢١٦.

ثم إن معاوية لم يكن راغباً في تحقيق تلك العهود، خصوصاً خراج دار أجرد؛ فقد «دس معاوية إلى أهل البصرة، فطردوا وكيل الحسن، فقالوا: لا تحمل فيأنا إلى غيرنا»^(١). فكان منعهم بأمر معاوية^(٢).

وعليه، فقد كانت سياسة معاوية تهدف إلى إيقاع الإمام الحسن وأهل البصرة في اختلاف حول مسألة الأموال؛ بتصوير أنها حق من حقوقهم يحاول الغير سلبها منهم، والحيلولة بينهم وبينها، ومن ثم، سوف تُثار مسألة النزعة التطرفية لدى أهل البصرة ضد الإمام الحسن عليه السلام، فأهل البصرة تجاهلوا حق الحسن حسب اتفاقية الصلح، ثم تجرأوا عليه في تلك المسألة، وهذا ناتج عن ضغوطات معاوية عليهم؛ فهو لم يكن ليركهم دون أن يبتدع فكرة جديدة تؤدّي بهم نحو التشدد في مسألة ما ضدّ إمام آخر من بني هاشم، فكانت حسابات معاوية في هذه المسألة حساسة ودقيقة جداً، للتلاعب بأهل البصرة وكسبهم إلى جانبه.

وعلى الرغم من كلّ هذه المحاولات من قبل معاوية بشأن زحزحة مكانة الإمام الحسن عليه السلام لدى أهل البصرة، إلّا أنّها جميعاً لم تجد لها أيّ صدى يُذكر، بل على العكس من ذلك تماماً، نجد أنّ أهل البصرة قد ضجّوا عندما سمعوا بنعي الحسن عليه السلام؛ فقد روي أنّ «أول من نعى الحسن عليه السلام بالبصرة عبد الله بن

(١) المزي، تهذيب الكمال: ٦/٢٤٧؛ ابن عساكر، تاريخ دمشق: ١٣/٢٦٦؛ المرعشي، شرح إحقاق الحق: ٢٦/٥٧٤.

(٢) ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ٣/٦؛ راضي آل ياسين، صلح الحسن: ص ٣١٧.

سلمة^(١)، نعاه لزياد، فخرج الحَكَمُ بنُ أبي العاصِ الثقفي^(٢)، فنعاه، فبكى النَّاسُ، وأبو بكرة الثقفيَّ يومئذٍ مريضٌ، فسمع الضَّجَّةَ، فقال: ما هذا؟ فقالت امرأته ميسة بنت سخام الثقفيَّة: مات الحسن بن عليٍّ، فالحمد لله الذي أراح النَّاسَ منه، فقال، أَسَكْتِي ويحك، فقد أراحه الله من شرِّ كثير، وفقد النَّاسُ بموته خيراً كثيراً، يرحم الله حسناً^(٣).

لقد غرقت البصرة في الحزن لوفاة الحسن عليه السلام، إلا هذه المرأة ميسة بنت سخام الثقفيَّة، التي لا نعرف عنها شيئاً، ولا عن علاقتها بالإمام الحسن، ولا عن سبب كرهها له بهذه الشَّدة.

وهذه الضَّجَّة التي شهدتها البصرة بسبب استشهاد الحسن عليه السلام إن دلت على شيء، فإنَّها تدلُّ على أنَّ المسلمين فيها كانوا يعرفون الإمام الحسن وحقَّه عليهم؛ فهو ابن بنت رسول الله صلى الله عليه وآله فاطمة الزَّهراء عليها السلام.

وكذا لم يستعمل الحسن الشَّدة مع أهل البصرة في أيَّام حكمه الدَّولة أبداً، بل على العكس من ذلك تماماً، حاول أن يضمن حقوق بعض أهالي البصرة عن طريق الاتفاق الذي أبرمه مع معاوية بشأن حفظ أموالهم، وعدم اضطهادهم أثناء حكمه، أو مصادرة أموالهم بسبب وقوفهم إلى جنب الإمام عليٍّ عليه السلام في معركة

(١) عبد الله بن سلمة: ابن أبي الخير بن وهب بن ربيعة بن معاوية، الكندي، له إدراك، قال ابن الكلبي: كان من أشرف أهل البصرة، وولاه الإمام عليٌّ عليه السلام على السَّواد، وكان أحد العشرين الذين جدّدوا حلفَ ربيعة واليمن. ابن حجر، الإصابة: ٧٠ / ٥.

(٢) الحكم بن أبي العاصِ الثقفي: أخو عثمان بن أبي العاصِ، الذي ينسب إليه شطُّ عثمان بحذاء الأبلَّة، وكان قد ولّاه عمر بن الخطَّاب على الطائف، ولم يكن في وفد ثقيف عندما قدموا على رسول الله صلى الله عليه وآله. توفي سنة ٦٧هـ. ابن سعد، الطبقات الكبرى: ٤١ / ٧.

(٣) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة: ١٦ / ١١؛ ابن عساكر، تاريخ دمشق: ٢٩٦ / ١٠.

الجميل وصفين، بالإضافة إلى الذين أعلنوا موقفهم المعادي لمعاوية، وعدم تأييده في بعض المواقف السياسيّة.

وباستشهاد الإمام الحسن عليه السلام، انتقلت حكومة الدولة الإسلاميّة إلى البيت الأمويّ بزعامة معاوية، أمّا البصرة، فقد ظلّت مؤيّدة للعلويّين، حتّى أنّنا نجدهم يشاركون إلى جنبهم في ثوراتهم ضدّ الدولة الأمويّة؛ فقد اشتركوا في ثورة الحسين عليه السلام، على الرّغم من الظروف المشدّدة التي أعلنها ضدهم الوالي آنذاك عبيد الله بن زياد، وقد بقي البصريّون موالين للعلويّين؛ فقد حاولوا اغتنام بعض فترات ضعف حكم الأمويّين ليبائعوا أميراً من بني هاشم يُدير أمر البصرة، وهذا ما نجده واضحاً في فتنة البصرة بعد هلاك يزيد بن معاوية، وهو ما سوف نتحدّث عنه في محلّه.

الفصل الثالث

البصرة في العصر الأموي

المبحث الأول: البصرة في العهد السفلي

المبحث الثاني: أوضاع البصرة بعد هلاك

يزيد بن معاوية

المبحث الثالث: سيطرة عبد الله بن الزبير

على البصرة

المبحث الرابع: البصرة في العهد مرواني

المبحث الأول

البصرة في العهد السفّانيّ

أولاً: سياسة معاوية مع أهل البصرة

ملك معاوية بن أبي سفيان عرش الدولة الإسلاميّة على أثر المعاهدة التي اضطرّ إلى عقدها الإمام الحسن بن عليّ بن أبي طالب عليه السلام معه، وقيل: كان ذلك سنة (٤٠هـ / ٦٦٠م)^(١)، والأصحّ سنة (٤١هـ / ٦٦١م)^(٢). وبذلك بدأ عهد جديد من الإمرة والسّيادة القائمة على أساس القوّة والسّيف؛ بصفة أنّ معاوية نصّب نفسه حاكماً للمسلمين وخليفة لرسول الله صلّى الله عليه وآله بقوّة السّيف والعنف، دون إرادة المسلمين، سيّما العراق، وهذا ما جعله يميل إلى استخدام ذلك الأسلوب القائم على أساس الشدّة ليحفظ مركزيّته وسيطرته على إدارة الدولة^(٣)، الأسلوب الذي جعل من الدولة الإسلاميّة محتفظة بهريقتها السّياسيّة على المستوى الخارجيّ، أمّا على المستوى الداخليّ، فالقوّة هي أساس الفصل بين المسلمين، وهي لغة التفاهم مع كلّ من يحاول أن يناقش الخليفة أو يجده يتعارض مع فكره، فاستبدلوا العزّ بالذلّ، والإيمان بالكفر.

(١) اليعقوبيّ، تاريخ: ١٥٠ / ٢.

(٢) خليفة بن خيّاط، تاريخ: ص ١٢٣؛ الطبريّ، تاريخ: ١٢٣ / ٤؛ المسعوديّ، التنبيه والإشراف: ص ٢٦١.

(٣) جرجي زيدان، تاريخ التمدّن الإسلاميّ: ٨٣ / ١.

كان معاوية لا ينظر بإمعان إلى علاقة الدِّين بالمسلمين الذين اعتادوا تطبيق أحكامه في مسائل الحياة العامّة، سواء اجتماعيّة أم سياسيّة، وغيرها من الروابط التي تربط المجتمع بالدِّين، بل هيمن على تصرّفاتهم عن طريق استخدام مختلف الوسائل غير المشروعة، وصولاً إلى تحقيق أهدافه السِّياسيّة^(١).

أمّا سياسته مع أهل البصرة، فقد صنع معاوية ملكيّة وطبقها على أهل البصرة، عن طريق ولاته، الذين عملوا على تحقيق مساعيه القائمة على أساس القوة وإقامة دولته بحدّ السِّيف^(٢)، فأخضع أهلها بالترهيب، وفي المقابل، بذل المال لتأييد سلطته، فاتّبع سياسة الترغيب والترهيب^(٣)، وهذا الأمر الذي فرض عليه هذه الصّيغة المتّبعة هو أنّ سلطته دنيويّة، يحكمها ملكها بالدّهاء والمكر والسِّياسة^(٤) التي وجدها مناسبة في كلّ زمان، فهو يُعطي بيد ويعاقب بالأخرى، وهو أسلوب له تأثيره الفعّال في جذب الناس وتحذيرهم من بطشه الذي لا يعرف الرّحمة، بل يشتدّ كلّما وجد هناك نفساً تأبى أن ترضخ لحكمه، وفي الوقت نفسه، يعمل على التحذير من تلك السِّياسة بطرقه الخاصّة، فكان معاوية يقول: «لو كان بيني وبين النّاس شعرة ما انقطعت، قيل: وكيف؟! قال: إن جذبوها، أرسلتها، وإن خلّوها، جذبتها»^(٥).

إنّ هذه السِّياسة ناتجة عن الدّهاء والمكر اللّذين اتّبعهما في سبيل صنع العلاقات

(١) إبراهيم بيضون، ملامح التيارات السِّياسيّة: ص ١٤٧.

(٢) سوف نتحدّث عن ولاية معاوية على البصرة في المبحث القادم.

(٣) محمّد بحر العلوم، لمحات من الصراع السِّياسي في الإسلام: ١ / ١٨١.

(٤) جرجي زيدان، تاريخ التمدّن الإسلاميّ: ١ / ٨٤.

(٥) البلاذريّ، أنساب الأشراف: ٥ / ٩٣.

السَّيَاسِيَّة التي أتقنها، وقدرته على استقطاب الأنصار والحلفاء، وإضعاف الخصوم، واستدراجهم نحو الهزيمة، لذلك كان ابن عباس يقول: «قد علمت بما كان معاوية يغلب الناس، كان إذا طاروا، وقع، وإذا وقعوا، طار، وإذا قعدوا، قام، وإذا قاموا، قعد»^(١).

والظاهر من سياسة معاوية مع أهل البصرة استخدامه أساليب وحيلاً شتى في سبيل تحقيق مآربه الخبيثة، فكانت مهمّة توطيد سلطته في العراق معتمدة على أولئك الولاة القساة في البصرة والكوفة، الذين فتكوا بالمسلمين وقتلوهم وسملوا أعينهم، كلّ ذلك من أجل مصلحة السّلطة وقوامها.

ومن شدّة الإجراءات المتّبعة أيام زياد بن أبيه على العراقيين (البصرة والكوفة)، احتجّ الإمام الحسين بن عليّ بن أبي طالب عليه السلام على تلك الأعمال الشّنيعة ضدّ المسلمين بقوله لمعاوية: «أولست المدّعي زياد بن سمّية المولود على فراش عبيد عبد ثقيف، فزعمت أنّه ابن أبيك... ثم سلّطته على أهل العراق، فقطع أيدي المسلمين وأرجلهم، وسمل أعينهم، وصلبهم على جذوع النّخل، كأنّك لست من هذه الأئمة وليسوا منك؟!»^(٢).

وفي موضع آخر كان الإمام عليه السلام يردّ على معاوية: «أنظر لنفسك، ولدينك، ولأئمة محمد ﷺ، وأتق شقّ عصا هذه الأئمة، وأن تردّهم في فتنة، فلا أعرف فتنة أعظم من ولايتك عليها...»^(٣).

فكان معاوية بعيداً عن هذا الخطّ الذي ذكره به الإمام الحسين عليه السلام؛ لأنّه لم يكن

(١) البلاذري، أنساب الأشراف: ٩٣/٥.

(٢) الطبرسي، الاحتجاج: ١٩/٢.

(٣) الطبرسي، الاحتجاج: ١٩/٢.

يتورَّع في الدِّين، أو يجعل طريق الشَّريعة الإسلاميَّة منهجاً في تطبيق أحكامه، حتَّى في الوقت الذي كان فيه الدِّين يسكن في وجدان النَّاس ويهيمن على تصرُّفاتهم^(١). فكان همُّه الوحيد استخدام مختلف الوسائل التي تؤمِّن له أطول فترة زمنيَّة يكون فيها على عرش الحكم، بعيداً عن أحكام الدِّين والشَّريعة الإسلاميَّة، التي تحرمه من السَّيادة كيفما يشتهي، بل اتَّصف منهجه العام في حكم الدَّولة بالخشونة وعدم المبالاة بحقوق الآخرين، فكان الحسن البصريُّ، في جملة الذين انتقدوا سياسته وما بدا منه، إذ قال: «أربع خصال كنَّ في معاوية لو لم يكن فيه منهنَّ إلَّا واحدة، لكانت موبقة^(٢)»: ابتزَّاه على هذه الأمة بالسَّفهاء، حتَّى ابتزَّها أمرها بغير مشورة منهم، وفيهم بقايا الصَّحابة وذوو الفضيلة؛ واستخلاف ابنه بعده سكيراً خيَّراً، يلبس الحرير، ويضرب بالطناير؛ وادَّعَّاه زياداً، وقد قال رسول الله ﷺ: الولد للفراش وللعاهر الحجر...»^(٣).

ويبدو أنَّ معاوية لم يكتفِ بهذه السَّياسة القمعيَّة التي مارسها ولاته مع أهل العراقين، بل ذهب إلى أبعد من ذلك؛ فقد استخدم الحصار الاقتصاديَّ كأحد الأساليب المتَّبعة في إضعاف أهل البصرة والضَّغط عليهم، من أجل إرضائهم وإنزالهم على حكمه، فجاء في أحد الكتب التي كتبها الأحنف بن قيس إلى معاوية:

(١) د. إبراهيم بيضون، ملامح التَّيارات السَّياسِيَّة: ص ١٤٧.

(٢) موبقة: أي: مهلكة، وفي الحديث: ولو فعل الموبقات، أي: الذنوب المهلكات. ابن الأثير، النهاية في غريب الحديث: ١٤٦/٥؛ ابن منظور، لسان العرب: ١٠/٣٧٠.

(٣) الطبريُّ، تاريخ: ٤/٢٠٨؛ ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة: ٢/٢٦٢؛ ويُنظر: محمَّد الشيرازيُّ، الفرقة الناجية: ١/٣١٠.

«يا أمير المؤمنين، خبزاً خبزاً؛ فإنّ الجائع أدنى همّه نجران^(١)، وإنّ الشّبعان لا يجاوز همّه سفوان جنوب البصرة»^(٢).

وكأنّ الأحنف بقوله المتقدّم يؤكّد أنّ أهل البصرة لا يمكنهم المضي على تلك السّياسة الرّعناء ما لم يعدّها؛ لأنّهم بمرور الوقت سوف يطالبون بحقّهم. لقد كانت سيطرة معاوية على الحكم سيطرة غير طبيعيّة، بل امتاز بدهاء مكّنه من التلاعب بعواطف الآخرين حسبما تملّيه ظروفه الخاصّة، من أجل استغلال النّاس وتسخيرهم لاعتبارات وجدّها مناسبة لاستمرار حكمه دون معارضة، أو ما شابه ذلك؛ فعندما وفد عليه عبيد الله بن زياد سنة (٥٩هـ / ٦٧٩م) ومعه كبار أهل البصرة، أدخلهم عبيد الله حسب منازلهم وشرفهم بنظره، وأدخل الأحنف بن قيس آخرهم، وكان سيّء العلاقة بعبيد الله، فلمّا نظر إليه معاوية، رحّب به، وأجلسه معه على السّرير، ثمّ تكلم القوم، فأحسنوا الثناء على عبيد الله ابن زياد، والأحنف ساكت، فطلب منه معاوية أن يتكلّم، فقال: «إنّ تكلمت، خالفتُ القوم»^(٣)، فقال معاوية: انهضوا، فقد عزلتُ عبيد الله بن زياد عنكم، واطلبوا والياً غيره ترضونه^(٤). فلم يتجرّأ أحدٌ على ذكر اسم من يكون والياً على البصرة بدلاً من عبيد الله، فأرجعه عليهم، فأبدل عبيد الله سياسته تجاه الأحنف

(١) نجران: موضع يقع في اليمن من ناحية مكّة، وقالوا: سُمّي بنجران بن زيدان بن سبأ ابن يشجب بن يعرف بن قحطان؛ لأنّه كان أوّل من عمّرّها ونزلها. ياقوت الحمويّ، معجم البلدان: ٥/ ٢٦٦.

(٢) البكريّ، معجم ما استعجم: ٣/ ٧٤٠.

(٣) الطبريّ، تاريخ: ٤/ ٢٣٤؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ٣/ ١١٤.

(٤) الطبريّ، تاريخ: ٤/ ٢٣٤؛ ابن كثير، البداية والنهاية: ٨/ ١٠٢.

في البصرة، فكان معاوية يقول لابنه يزيد: يا بني، احفظ عني ما أقول لك: «أنظر أهل العراق؛ فإنهم أهل طعن على أمرائهم وملالة لهم، فإن سألوك أن تُبدل كل يوم أميراً، فافعل»^(١).

لذلك، نجد معاوية يتبع هذه السياسة التي رغب في ترسيخها لابنه يزيد لأن معاوية كان ينظر لابنه ووليَّ عهده لكي يسلك مسلك أبيه، فمعاوية كان دائماً يتقرب إلى زعماء أهل البصرة، وعلى رأسهم الأحنف بن قيس، وكان يعمل على إرضائه، ففي رواية أن معاوية قال للأحنف وجارية بن قدامة ورجال من بني سعد من تميم البصرة قولاً شديداً للهجة، فردوا عليه جواباً موازياً لقوله، وامرأة معاوية فاخنة بنت قرظة، أم عبد الله بن معاوية تسمع كلامهم، فلما خرجوا، قالت لمعاوية: «يا أمير المؤمنين، لقد سمعتُ من هؤلاء الأجلاف^(٢) كلاماً تلقوك به، فلم تُنكر، فكدتُ أن اخرج إليهم فأسطوبهم! فقال معاوية: إن مضرَ كاهل العرب، وتميماً كاهل مضر، وسعداً كاهل تميم، وهؤلاء كاهل سعد»^(٣).

ويبدو أن هذه السياسة جاءت حسب المواقف التي مرّت بها الدولة الأموية، بالإضافة إلى أنها كانت تعرف القبائل القويّة، سيّما أن بني تميم كان لها دورٌ كبيرٌ في الأحداث السَّيَاسِيَّة التي شهدتها البصرة زمن الأحنف بن قيس، خاصّةً موقفهم في صفّين ضدّ معاوية؛ إذ كان يقول للأحنف: «أنت الذي مرّضت نفسك

(١) البلاذري، أنساب الأشراف: ١٠٨/٥.

(٢) الأجلاف: الجافي من الرجال والأحق، ورجلٌ جافٍ: شُبّه بالشاة المسلوخة التي بلا رأس ولا قوائم ولا بطن، أي: عقله فارغ لا علم فيه. ابن منظور، لسان العرب: ٩/٣١؛ الزبيدي، تاج العروس: ٦٠/٦.

(٣) المبرّد، الكامل في اللّغة: ١/٦٥؛ ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة: ١٥/١٣٣.

بالغرور، وقدّمت على مقطعات الأمور، مع إعانتك عليّ بن أبي طالب، وجلادك إِيّاي إجلابك عليّ الخيل والرّجال يوم صفّين، وتحمّلك على أهل الشّام بقوائم السيّوف وطول الرّماح؟!»^(١)، فكان ردّ الأحنف على قول معاوية: «وأما قولك: أعنت أمير المؤمنين، وأجلبت الخيول والرّجال، فأنتم والله معاشر قريش قتلتم أميركم، وجررتم أفلاذه»^(٢)، والدّار منّا نازحة عنه، وقطعتم رحمه، وسفكتم دمه، ثمّ إنكم ألزمتونا دمه! فوالله، إنّ القلوب التي أبغضناك بها ليين جوارحنا، وإنّ السيّوف التي جالднаك بها لفي أعناقنا حمائلها، وبأيدينا قوائمها، وأيم والله، ما تدنو بباع من الغدر إلّا دنونا منه بباعٍ من الختر»^(٣)، وإنّ شئت، لتصفينّ قلوبنا بحلمك»^(٤).

إنّ هذا الحديث، يدلّ على معرفة المسلمين الأوائل بحقائق ذوات أهميّة سياسيّة لها أثر في مسار التاريخ الإسلاميّ، وإنّهم يحفظونها في قلوبهم ما داموا أحياء، وليس عليهم التنازل عن تلك الحقائق، ومن بينهم أهل البصرة، الذين ابتلوا بمخططات كبار قريش وما يطمحون إليه، فهذا ما أبداه الأحنف أمام معاوية، الذي لم يكن يرغب في فتح ثغرة للفتنة في دولته؛ لأنّها بلا شكّ ليست لمصلحة حكمه، فكان يقول للأحنف: «أستصلحك وقومك، فقد كفيْتُك ما قبلي، فاكفني ما قبلك»^(٥).

(١) العباس بن بكار، أخبار الوافدين من الرّجال: ص ٣٢؛ ويُنظر: ابن عساكر، تاريخ دمشق: ٨٦/٦٩.

(٢) أفلاذه: جمع فلذة، وهي قطع المال والذهب والفضّة. ابن منظور، لسان العرب: ٥٠٢/٣.
(٣) الختر: أقبح أنواع الغدر وأسوأه. الفيروز آبادي، القاموس المحيط: ١٧/٢؛ الزبيديّ، تاج العروس: ٣٢٩/٦.

(٤) العباس بن بكار، أخبار الوافدين: ص ٣٣.

(٥) البلاذريّ، أنساب الأشراف: ٢٧/٥.

فكانت هذه الإجراءات من قبل معاوية عبارة عن مساومة قائمة على شراء الذَّم، يدلُّ ذلك على أهميَّة كسب رؤساء القبائل في العراق، ومن ثمَّ، أصبح أولئك الرؤساء يرون سياسة معاوية فيعجبون بها، فهي تلبي مصالحهم الشخصية وما يطمحون إليه من رغبات قد تفوق أحياناً رغبات الوالي نفسه!

ثمَّ إنَّ رئيس القبيلة يعيش في جوِّ قبيلته، فهو يفعل بانفعالاتها، ويطمح إلى ما تطمح إليه، ويعادي مَنْ تعادي، وينظر إلى الأمور من الزاوية التي تنظر إليها منها هذه القبيلة، ويتركز كلُّ ذلك في رئيسها، فالرئيس في المجتمع القبليّ هو المهيمن والمرجع والموجه الأوحد للقبيلة كلّها، فيكفي أن يقول الرئيس كلمة لتصبح قانون القبيلة كلّها، ويكفي أن يتخذ موقفاً ليكون موقف القبيلة كلّها^(١).

لذلك كلّ، عمل معاوية على كسب ودِّ رؤساء القبائل عن طريق الأموال التي يبذلها لهم؛ فقد أعطى كلاًّ من الأحنف بن قيس، وجارية بن قدامة، والجون بن قتادة العبشميَّ^(٢) مائة ألف^(٣). ويروى أنَّ الأحنف وجارية كانا هواهما علويّاً^(٤). وكذا أعطى الحتات بن يزيد^(٥) سبعين ألفاً، وكان الحتات مع عائشة يوم

(١) محمّد مهدي شمس الدّين، دراسات في نهج البلاغة: ص ٢١٤.

(٢) هو جون بن قتادة بن الأعور بن ساعدة بن عوف بن كعب، التميميَّ، البصريَّ، تابعيَّ، وذكر أنّه شهد الجمل مع الزّبير بن العوّام. المزيّ، تهذيب الكمال: ١٦٢/٥؛ ابن حجر، الإصابة: ٦٥١/١.

(٣) لم يُذكر أنّها كانت بالدّرهم أم بالدينار.

(٤) البلاذريّ، أنساب الأشراف: ١٠١/٥.

(٥) الحتات بن يزيد: ابن علقمة بن حوي بن سفيان بن مجاشع بن دارم، كان ممّن هرب من الإمام عليّ في معركة الجمل، وأصبح يرى رأي الأمويّين، قيل: إنّهُ توفّي بعد أسبوع من لقائه معاوية مع أهل البصرة، فلم يقبض ماله. ابن مأكولا، إكمال الكمال: ١٤٦/٢؛ الخوئيّ، معجم

الجميل، احتج على معاوية بنقص جائزته عن أصحابه، فقال معاوية: «اشتريت دينهم، فقال الحتات: ومني فاشتر ديني، فألحقه بهما»^(١). وبذلك يقول الفرزدق:

أبوك وعمي يامعاوي أورثا تراثاً فيختارُ التّراثُ أقاربهُ
فما بال ميراثِ الحتاتِ^(٢) أكلته وميراثُ حربٍ جامدٌ لك ذائبهُ^(٣).

فكان معاوية ينظر إلى أموال المسلمين على أنها ملك لبني أمية، يعطيها لمن يشاء، وكيف ما شاء، ومتى ما شاء، خلافا للإمام عليّ عليه السلام، الذي قيل له: «يا أمير المؤمنين، أعط هذه الأموال، وفُضِّل هؤلاء الأشراف من العرب وقريش على الموالي والعجم، واستمل من تخاف خلافة من الناس»، فكان ردّ أمير المؤمنين عليه السلام: «أتأمروني أن أطلب النّصر بالجور؟! لا والله لا أفعل ما طلعت شمس، وما لاح في السّماء نجم، والله لو كان ما لهم لي، لساويتُ بينهم، وكيف وإنّما هي أموالهم؟!»^(٤).

رجال الحديث: ٢١٠ / ٥.

(١) الطبري، تاريخ: ١٨٠ / ٤؛ ويُنظر: مرتضى العسكري، أحاديث أم المؤمنين عائشة: ٣٢٣ / ١.

(٢) قال ابن هشام: «الحتات: وهو الذي آخى رسول الله ﷺ بينه وبين معاوية بن أبي سفيان...، فمات الحتات عند معاوية في خلافته، فأخذ معاوية ما ترك وراثته بهذه الأخوة». السيرة النبوية: ٩٨٦ / ٤.

(٣) الفرزدق، ديوان: ص ٤٢؛ ابن هشام، السيرة النبوية: ٩٨٦ / ٤؛ الطبري، تاريخ: ١٨٠ / ٤؛ الطوسي، اختيار معرفة الرجال: ٣٠٦ / ١؛ ابن عساكر، تاريخ دمشق: ٢٧٩ / ١٠؛ ابن حجر، الإصابة: ٢٦ / ٢.

(٤) الكليني، الكافي: ٣١ / ٤؛ الطوسي، الأمالي: ص ١٩٤؛ المفيد، الأمالي: ص ١٧٦؛ ابن شهر آشوب، مناقب آل أبي طالب: ٣٦٥ / ١؛ ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة: ٢٠٣ / ٢؛ الميرزا النوري، مستدرک الوسائل ٩١ / ١١؛ هاشم البحراني، حلية الابرار، ص ٢٨٣؛ الشيخ

وعلى هذا، فقد كانت الأموال والعطايا وراء نجاح معاوية في كسب رؤساء القبائل الذين سعوا وراء الملذات الدنيويّة، والتفّوا حوله، خلافاً للإمام عليٍّ عليه السلام وسياسته؛ الذي التزم مبدأ المساواة بين الرعيّة.

ثم إنَّ معاوية لم يكن يُعْطِ الأموال عشوائياً، بل لهدفٍ ما، أو إطفاء غضبٍ في النفوس؛ فعندما أعطى جارية بن قدامة، الذي كان أحد زعماء أهل البصرة الذين وفدوا عليه، نقل عن المدائنيّ: «قال معاوية لجارية: أَنْتَ السَّاعِي مع عليٍّ، والموقد النَّار في نصرته؟! فقال جارية: يا معاوية، دَعُ عَنْكَ عَلِيّاً وذكره، فوالله ما أبغضناه مُذْ أَحْبَبْنَاهُ، ولا غَشَشْنَاهُ مُذْ نَصَحْنَاهُ، قال معاوية: ويحك يا جارية، ما كان أهونك على أهلك إِذْ سَمَّوكَ جارية، فقال: أَنْتَ كُنْتَ أَهْوَنَ على أهلك إِذْ سَمَّوكَ معاوية، فقال معاوية: أَسَكَتَ لَأَمِّ لَكَ، قال: أَمَّ لَمْ تَلِدْنِي! إِنَّ قَوَائِمَ السَّيُوفِ التي لقيناك بها بِصَفَيْنَ لَفِي أَيْدِينَا، قال جارية: إِنَّكَ لَمْ تَمْلِكْنَا قَسْراً، ولم تَفْتَحْنَا عُنُوءاً، ولكنَّا أَعْطَيْنَا عَهْوداً ومَوَاقِيقَ، فَإِنْ وَفَيْتَ لَنَا، وفينا، وَإِنْ نَزَعْتَ إِلَى غير ذلك، فقد تركنا وراءنا رجالاً أَنْجَاداً وأذرعاً شَدَاداً وأَسَنَّةَ حَدَاداً^(١)، وأنا سيِّدهم، أُقِيمُ بها عَوْجَكَ، ويُقَرَى بها ضيفك، ويُعَزَّز بها الدَّلِيلُ، ويُذَلَّ بها العَزِيزُ»^(٢).

فالذين اتَّبَعُوا الإمام عليّاً عليه السلام ونصروه في أيَّامه لم يكونوا يخشون من معاوية أو يهابونه، بل كانوا يذكِّرونه بكلِّ خطوَةٍ يخطوها باتجاههم، والأكبر من ذلك، كانوا يحاجُّون معاوية في مجلسه، وأمام حاشيته! لكنَّ معاوية كان حذراً في تعامله

المنتظري، دراسات في ولاية الفقيه ٢/ ٦٧٠.

(١) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة: ٦/ ٢٨٠؛ ويُنظر: هاشم معروف الحسنيّ، الانتفاضات السَّعِيَّةُ عبر التاريخ: ص ٣٢٨.

(٢) العباس بن بَكَّار، أخبار الوافدين من الرِّجال: ص ٣٧.

مع رؤساء القبائل، فهو يرجح الموازين لمصلحته؛ نتيجة معرفته بكيفية وقوع الحوادث وتكوينها في دولته، فهو يقول: «لقد كنت ألقى الرجل من العرب أعلم أنّ في قلبه عليّ ضغناً، فأستشير، فيشير إليّ منه بقدر ما يجده في نفسه، فلا يزال يوسعني شتاً وأوسعهُ حِلماً حتّى يرجع صديقاً أستعين به فيعيني، واستنجد به فينجدني»^(١).

وبذلك يذكر أحد المؤرخين أنّ معاوية كان يُتقن السياسة، ولم يدركه عبد الملك في إتقانها^(٢)، فهذا الأمر جعله يتمكن من اجتذاب قلوب الخاصة والعامة على السواء، دون أن يعرفوا نواياه الحقيقية تجاههم.

ولم يكتف بهذا النوع من السياسة السطحية مع أهل البصرة، بل ذهب إلى أكثر من ذلك، سيّما مع العناصر البصرية التي وقفت بوجهه، أو حاولت إخفاء شيء يرغب في الحصول عليه؛ فعندما مات زياد بن أبيه، بلغ معاوية أنّ لزياد أموالاً عند عبد الرحمن بن أبي بكر^(٣)، فكتب معاوية بشأن تلك الأموال إلى المغيرة بن شعبة ليتحقّق من المسألة، فكتب المغيرة إلى معاوية: «إني لم أُصّب في يد عبد الرحمن شيئاً»^(٤). فلم يقتنع معاوية بتلك النتيجة، بل أصرّ على استخدام أساليب آخر تجرّ عبد الرحمن بن أبي بكر إلى الاعتراف الصريح بحقيقة تلك الأموال وإرجاعها

(١) ابن قتيبة، عيون الأخبار: ص ٣١؛ ابن عساكر، تاريخ دمشق: ١٨٣/٥٩؛ ابن كثير، البداية والنهاية: ١٤٥/٨.

(٢) المسعودي، مروج الذهب: ٢٢٢/٣.

(٣) عبد الرحمن بن أبي بكر: وهو أوّل مولود بالبصرة بعد تمصيرها، وكان ثقة له أحاديث.

ابن سعد، الطبقات الكبرى: ٧/١٩٠؛ ابن حبان، مشاهير علماء الأمصار: ص ١٥٧.

(٤) الطبري، تاريخ: ١٣٤/٤.

إلى معاوية، فما كان من المغيرة إلّا أن «ألقي على وجه عبد الرّحمن حريرة ونضحها بالماء، فكانت تلتزق بوجهه، فغشي عليه، ففعل ذلك ثلاث مرّات، ثمّ خلاه»^(١)، وكتب إلى معاوية: إنيّ عدّبتّه، فلم أُصّب عنده شيئاً^(٢).

ويبدو أنّ هذا الإجراء الذي اتّبعه معاوية بشأن أمر الأموال نابع من مدى خطورتها في كسب الجموع وتفريقها، كما فعل بتلك الطريقة معاوية^(٣).

يُضاف إلى ذلك، هناك احتمال أنّ معاوية كان يخشى من عبد الرّحمن بن أبي بكره من أن يستغلّ تلك الأموال في سبيل المعارضة ضدّ الدّولة الأمويّة، فهذه العوامل وغيرها جعلت معاوية يكتب إلى المغيرة بن شعبة ويأمره بالوصول إلى حقيقة تلك الأموال، والتحقّق من وجودها أو عدمه.

وكان معاوية يتدبّر الأمور التي من شأنها أن تطيح ببعض الشخصيّات البارزة داخل المجتمع البصريّ، وهناك رواية تنقل لنا كيف اتّبع معاوية تلك السّياسة بحذر وتسرّ، وبدون أن يشعر بها أهل المقتول وعشيرته، قال المدائنيّ: «قال معاوية لأبي هوزة بن شماس الباهليّ^(٤): لقد هممتُ أن أحمل جمعاً من باهلة^(٥)

(١) الطبريّ، تاريخ: ١٣٤/٤.

(٢) الطبريّ، تاريخ: ١٣٤/٤.

(٣) بذل معاوية ألف ألف درهم (مليون) إلى قيس بن سعد، أحد قادة الإمام الحسن بن عليّ ابن أبي طالب عليه السلام من أجل أن يصير إليه، فرفض، فأرسل إلى عبيد الله بن العباس، وجعل له مليون درهم، فصار إلى معاوية في ثمانية آلاف من أصحابه. يعقوبيّ، تاريخ: ١٤٩/٢.

(٤) لم أعثر على ترجمة له.

(٥) باهلة: وهم بنو مالك بن أعصر بن سعد بن قيس عيلان بن مضر بن نزار بن معدّ بن عدنان. وهي إحدى القبائل التي سكنت البصرة، وما يزال بعض بطونها يسكنون المدينة. ابن حزم، جمهرة أنساب العرب: ص ٤٨١.

في سفينة، ثم أغرقهم، قال [أبو هوزة]: إذا لا نرضى بعدّتهم من بني أمية، فقال [معاوية]: أسكت أيها الغراب الأبقع، فقال: إنّ الغراب ربّما درج إلى الرّحمة^(١) حتّى ينقر دماغها ويقتلع عينيها، فقال يزيد [بن معاوية]: أقتله يا أمير المؤمنين، قال: مه، ثمّ إنّ معاوية وجّهه بعد ذلك في سرية فقتل، فقال معاوية لابنه يزيد: يا بُنَيَّ، هذا أخفى^(٢).

إنّ هذه العمليّة تدلّ على دهاء معاوية الذي سعى إلى تعليم ابنه يزيد بعض الملامح السياسيّة التي تمكّنه من قتل خصمه بأقلّ كلفة وبعيداً عن الشبهة؛ لأنّ أهل المقتول سوف يطالبون بدم قتيْلهم، فإذا ما علموا أنّ قتيْلهم قد قتله معاوية، فهذا يعني أنّهم سوف يميكون المؤامرات ضدّ حكومته، ويترقّبون الفرصة من أجل الإيقاع به، وهذا ما جعل معاوية يقتل خصمه دون أن يترك بيّنة لأهله على أنّه هو الذي قتله.

كذلك عمل معاوية على تصفية العناصر القويّة التي وقفت ضده في معاركه مع الإمام عليّ عليه السلام أيام صفين، فلم يدع رئيس قوم، ولا صاحب سيف، ولا خطيباً مرهوباً، ولا شاعراً موهوباً، من الشيعة وأنصار عليّ عليه السلام، إلّا زحزحه عن مقرّه، فسجنه، أو قتله، أو شرّده، أو أهدر دمه^(٣).

ومن تعرّض لتلك الإجراءات دون أن يشملهم أمان معاوية عبد الله بن هاشم

(١) الرّحمة: طائر أبقع يشبه النسر في الخلقة، وكنيتها أمّ جعفر، وأمّ رسالة، وأمّ عجيبة، وأمّ قيس، ويقال لها: الانوق، وذات الاسمين، وقيل: إنّ لئام الطير ثلاثة: الغربان، والبوم، والرّخم. الجاحظ، الحيوان: ١/ ٦٢٩؛ الدّميري، حياة الحيوان: ١/ ٣٥١.

(٢) البلاذري، أنساب الأشراف: ٣١/ ٥.

(٣) راضي آل ياسين، صلح الحسن: ص ٣٥١.

المِرقال^(١)، وكان كبير قريش في البصرة، ورأس الشَّيعة فيها^(٢)، وروي أَنَّ معاوية لما تَمَّ له الأمر، بعث زياد بن أبيه على البصرة، ونادى منادي معاوية فيها: «أمن الأسود والأحمر بأمان الله، إلَّا عبد الله بن هاشم بن عتبة»^(٣). فمكث معاوية يطلبه أشدَّ الطلب، ولا يعرف له خبراً، حتَّى قدم عليه رجل من أهل البصرة، فقال له: أنا أدلُّك على عبد الله بن هاشم، فكتب إلى زياد، فإنَّه عند فلانة المخزوميَّة، فاعمد إلى هذا الحيِّ من بني مخزوم، ففتَّشه داراً داراً، حتَّى تأتَّى إلى دار فلانة المخزوميَّة، فاستخرج عبد الله بن المِرقال منها، فاحلق رأسه، وألبسه جبَّة شعر، وقبَّده، وغلَّ يده إلى عنقه، واحمله على قتب^(٤) بغير بغير وطاء ولا غطاء، وأنفذ به إلى^(٥).

ويبدو أَنَّ معاوية كان قد جعل العيون في البصرة لتراقب مكان اختفاء عبد الله ابن المِرقال، وربَّما عيَّن مكافئة لمن يدلُّ على مكانه، والشَّيء المثير في أمر معاوية في ما نحن فيه، هو أنَّه لم يطلب من زياد بن أبيه أن يذهب مباشرةً إلى الدَّار التي رُصدَ فيها ابن المِرقال، بل طلب منه أن يفتَّش الحيِّ بأكمله حتَّى يصل إلى المكان المنشود، فيقبض على عبد الله بن هاشم!

(١) هو عبد الله بن هاشم بن عتبة بن أبي وقَّاص الزَّهرِّي، كان من أصحاب الإمام عليٍّ عليه السلام، وشهد معه صفين، وقُتل أبوه هاشم بصفين، وكان معه لواء الإمام عليٍّ، فلمَّا قُتل، أخذ اللِّواء ولده عبد الله، فأصبح من أعداء معاوية لعدم نصرته. محسن الأمين، أعيان الشيعة: ٨ / ٨٩؛ حسين الشاكري، الأعلام من الصَّحابة والتابعين: ١٠٢ / ٥.

(٢) راضي آل ياسين، صلح الحسن: ص ٣٥١.

(٣) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة: ٨ / ٢٢٨.

(٤) قتب: رحلٌ صغير على قدر السَّنام، واقتبَّتُ البعير اقتتاباً، إذا شددت عليه القتب. الجوهري، الصَّحاح: ١ / ١٩٨.

(٥) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة: ٨ / ٢٢٨.

ويبدو أنّ هذه السياسة من قبل معاوية قد تركت تأثيراً نفسياً على واقع أهل البصرة، فهو لم يكن يقصد من وراء ذلك السعي إلا أن يذلّهم، وبالاخصّوص حيّ بني مخزوم الذي كان عبد الله بن المرقال قد تخفّى فيه.

علاوة على ذلك، كان معاوية يحاول أن يوصل رسالة إلى كلّ من تراوده نفسه بالوقوف أمامه، مفادها: أنّه سوف يُلاقي المصير نفسه الذي يلقاه أعداء معاوية، وهذا ما يفسّر أسباب عدم توجيه زياد بن أبيه إلى المكان المقصود مباشرة؛ لأنّ ذلك سوف لا يترك أيّ بصمة خوف على أهل البصرة، فقط على الشخصية المطلوبة، وهذا ما لم يرغب به معاوية.

بالإضافة إلى ذلك، ربّما يُحاول معاوية أن يتستّر على الذين ينقلون إليه الأخبار سرّاً دون علم أهل البصرة بأمرهم، فكان تفتيش الحيّ بأمر من الوالي وليس لأحدٍ دخل في ذلك في الظاهر.

ولما أُدخل عبد الله بن هاشم على معاوية، وجده قد ذبل وسهم وجهه^(١)، فعرفه ولم يعرفه عمرو بن العاص، فقال معاوية: يا أبا عبد الله، أتعرف هذا الفتى؟ قال: لا! قال: هذا الذي يقول في صفّين:

أعور يبغي أهله محلاً قد عالج الحياة حتّى ملا
لا بدّ أن يفلّ أو يُفلا^(٢).

(١) سَهَمَ وجهه: أي: أصابه حرُّ السّموم، فتغيّرَ واسمَرَّ. الجوهريّ، الصّحاح: ١٩٥٦/٥؛ أبو الحسن زكريا، معجم مقاييس اللّغة: ١٥٩/٣.

(٢) ابن مزاحم المنقريّ، وقعة صفّين: ص ٣٥٥؛ ابن حبيب، المحرر: ص ٢٩١؛ ابن قتيبة، المعارف: ص ٢٤١؛ الطبريّ، تاريخ: ٢٨/٤؛ ابن عبد البرّ، الاستيعاب: ١٥٤٧/٤؛ ابن الأثير، أسد الغابة: ٤٩/٥؛ ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة: ٢٢٩/٨؛ الصفديّ، الوافي

ويروى أنَّ الذي قال هذا الشَّعر هو والد عبد الله هاشم بن عتبة؛ إذ إنَّه كان يقاتل في صفوف أمير المؤمنين عليٍّ (عليه السلام) يوم صفين، وكان أصحاب أمير المؤمنين (عليه السلام) يتبعون عمار بن ياسر (رضي الله عنه)؛ لأنَّهم سمعوا رسول الله (صلى الله عليه وآله) يقول لعمار: «يا عمار، تقتلك الفئة الباغية»^(١)، فكان عمار يقول لهاشم: أَعوراً وجنباً، لا خير في أَعور لا يغشي البأس، إحمل بنا، فانتزع هاشم راية أمير المؤمنين، وقال الشَّعر^(٢). ويبدو أنَّ معاوية نسب قول الشَّعر إلى ابنه ليدكِّره بما فعل أبوه يوم صفين، بالإضافة إلى أفعال عبد الله نفسه ذاك اليوم.

وبعدما عرف عمرو بن العاص عبد الله بن هاشم، دار بينه وبين عبد الله حديث، فقال عمرو لمعاوية: «يا أمير المؤمنين، هذا ابن المرقال، فدونك الضَّبَّ المضبَّ على غلِّ المغتر المفتون، فإنَّ العصا من العصية، وإنَّما تلد الحيَّة حيَّة، وجزاء السيِّئة سيِّئة مثلها! فقال له ابن هاشم: ما أنا بأوَّل رجل خذله قومه، وأدركه يومه. فقال معاوية: تلك ضغائن صفين، وما جنى عليك أبوك. فقال عمرو: أمكنني منه، فأشخب أوداجه على أثباجه»^(٣)، فقال له هاشم: فهلاًَّ كانت هذه الشَّجاعة منك يا ابن العاص أيام صفين، حين ندعوك إلى النِّزال، وقد ابتلَّت أقدام الرِّجال من نقيع الجريال^(٤)، وقد تضايقت بك المسالك، وأشرفتَ فيها على المهالك، وأيم

بالوفيات: ١٢٩/٢٧.

(١) أحمد بن حنبل، المسند: ١٦١/٢؛ مسلم، الصَّحيح: ١٨٦/٨؛ الترمذي، السُّنن: ٣٣٣/٥؛ البيهقي، السُّنن الكبرى: ١٨٩/٨.

(٢) القاضي نعمان، دعائم الإسلام: ٣٩٢/١.

(٣) أثباجه: جمع ثَبَج بالتحريك، وهو ما بين الكاهل إلى الظَّهر. ابن منظور، لسان العرب: ٢٢٠/٢.

(٤) الجريال: ما خلص من لون أحمر وغيره، يراد به الدَّم. ابن منظور، لسان العرب:

الله، لولا مكانك منه، لنسبت لك مني خافية، أرميك من خلالها أحد من وقع
الآشافي الثقب، فإنك لا تزال تكثر في هوسك، وتخط في دهشك، وتُنشِب في
مرسك، تخط العشواء، في الليلة الحندس الظلماء»^(١).

فأمر به معاوية إلى السجن، وكفّ عن قتله، فبعث إليه عمرو بن العاص بأبيات
شعريّة منها:

وكان من التوفيق قتل ابن هاشم	أمرتك أمراً حازماً فعصيتني
رماك على جدّ بحر الغلاصم	وكان أبوه يا معاوية الذي
ستقرع إن أبقيته سنّ نادم ^(٢) .	وهذا ابنه والمرء يشبه أصله

ونتيجة لهذا البغض من قبل ابن العاص ومعاوية لعبد الله بن هاشم، بقي في
السجن يتعرّض للعذاب حتّى لفظ أنفاسه الأخيرة^(٣).

وكانت هذه السّياسة قائمة على أساس تسويق الوسيلة من أجل الغاية^(٤)،
وهذا ما اتّبعه معاوية مع زعماء أهل البصرة، وذوي الأثر السّياسيّ، ويبدو أنّ
معاوية في إجراءاته تلك أراد أن يُطفئ نار الغضب التي أصبحت تُلازمه إزاء
أولئك الذين لم يتّبعوه، على الرّغم ممّا بذله من الأموال والملذّات الدّنيويّة لكسبهم
إلى صفّه، وترك صاحبهم عليّ بن أبي طالب عليه السلام.

١٠٨/١١

(١) ابن مزاحم المنقريّ، وقعة صفّين: ص ٣٤٨-٣٤٩؛ ويُنظر: محسن الأمين، أعيان الشّيعّة:
٩٠/٨.

(٢) ابن مزاحم المنقريّ، وقعة صفّين: ص ٣٤٩.

(٣) حسين الشاكريّ، الأعلام من الصّحابة والتابعين: ١٠٢/٥.

(٤) د. إبراهيم بيضون، ملامح التّيارات السّياسيّة: ص ١٤٨.

ثانياً : ولاية معاوية على البصرة

نتيجة لانتساع رقعة الدولة الإسلامية، التي خضعت لحكم معاوية، بعد سنة (٤٠هـ / ٦٦٠م)، عمل على أن يوفّق بين سياسته وبين أهل الأمصار المتناثرة في أرجاء المعمورة، عن طريق الولاية الأمويين، ليكفوه أمر تلك النواحي البعيدة عن مركز حكمه المتمثل ببلاد الشام، البلاد الغنيّة بالأموال والموارد الاقتصادية الأخرى، التي مكّنته من دعم سياسته، عن طريق بذل الأموال وكسب الرّجال، فقد نقل معاوية مركز الخلافة الإسلامية من الكوفة، بوصفها مناهضة للسلطة الأمويّة، ومركزاً من مراكز التشيع للإمام عليّ عليه السلام في تلك الفترة، ونقطة إرباك ضدّ معاوية، وقلة ناصريه فيها على الخصوص، وفي العراق على العموم، بالمقارنة مع بلاد الشام، فهذا الأمر جعله يكتفي بولاته على إدارة تلك الأمصار العربيّة، كالبصرة والكوفة والفسطاط، فعمل على استيعاب تلك الولايات المختلفة عن طريق العوامل المؤثّرة في تلك المجتمعات، التي أصبحت تخضع لأحكامه والسّياسة القمعيّة بصورة مباشرة، وهذا الأمر سوف نجده في واقع مدينة البصرة، التي خضعت لحكم معاوية بقوّته، والتي ستعرّض لها من خلال سير هذا المبحث.

- موقف أهل البصرة من وصول معاوية إلى الحكم

أمّا بالنسبة إلى موقف أهل البصرة من وصول معاوية إلى الحكم، فكان موقف المعارضة وعدم القبول بمعاوية لأن يتولّى حكم الدولة بدلاً من الإمام الحسن عليه السلام، وهذا الحدث السّياسي المهمّ لم يتناوله المؤرّخون بشكلٍ مفصّل، بل كلّ ما لدينا إشارة إلى إقامة حكم مستقلّ بالبصرة عن الحكومة التي تركزت ببلاد

الشَّام. فالروايات تذكر أنه في أوّل سنة (٤١ هـ / ٦٦١ م)، «وثب حمران بن أبان على البصرة، فأخذها وغلب عليها»^(١).

وليس لدينا نصّ تاريخيّ يكشف حقيقة حمران بن أبان، وكيفية سيطرته على البصرة، وعلاقته بأهلها، فكلّ ما نعرفه هو أنّ شخصيّة حمران بن أبان إنّما كان ابن أبان، فقال بنوه: ابن أبان كان أوّل مَنْ سُبِي من عين التمر في خلافة أبي بكر، وبعثه خالد بن الوليد إلى المدينة، فأسلم هناك مع بقيّة الأسرى^(٢)، ثمّ أصبح مولّى لعثمان ابن عفّان^(٣)، وحاجبه^(٤)، ثمّ ساءت علاقته مع سيّده عثمان، فنفاه إلى البصرة^(٥). فهذه المعلومات التي بين أيدينا، التي ذكرها المؤرّخون عن حمران بن أبان، لم تف بالغرض من تبيان علاقته بأهل البصرة، ومن ثمّ الاستقلال بحكمها عن حكم الدّولة، حتّى الذين تناولوا فترة البصرة في العهد الأمويّ، لم يعطونا أدنى فكرة عن هذه الأحداث التي شهدتها البصرة في بداية حكم معاوية^(٦).

أمّا أهل البصرة، فقد شعروا بأهميّة مدينتهم بالنسبة إلى معاوية، الذي حاول مرّات سابقة في صولات وجولات له كسب ودّ أهلها، والاستناد إليها على أساس

(١) البلاذريّ، أنساب الأشراف: ٣ / ٢٩٤؛ الطبري، تاريخ: ٤ / ١٢٧؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ٣ / ١٣؛ ابن كثير، البداية والنهاية: ٨ / ٢٤؛ ابن خلدون، تاريخ: ٣ / ٤.

(٢) ابن عبد البرّ، الاستيعاب: ٣ / ٢٤٠.

(٣) ابن سعد، الطبقات: ٥ / ٢٨٣.

(٤) خليفة بن خياط، تاريخ: ص ١٣٣.

(٥) يُنظر: ابن سعد، الطبقات: ٧ / ١٤٨؛ ابن قتيبة، المعارف: ص ٤٣٦.

(٦) عندما رجعنا إلى موسوعة البصرة التاريخيّة، القسم الأمويّ، من ص ١٥ إلى ص ٣٤، لم نجد فيها بعض الأحداث السّياسيّة المهمّة التي حدثت في البصرة أيام الأمويّين، على الرّغم من أنّها تناولت ذلك العهد، وقد أوضحنا تلك الأحداث في هذه الدّراسة.

قوّتها العسكريّة في مواجهة خصمه ومقارعتة (الإمام عليّ عليه السلام)، لكنّه لم يوفّق إلى ذلك، لهذا، ما إن وصل إلى عرش الحكم، حتّى ثار أهل البصرة ضدّه، رافضين أمرته للمؤمنين.

وهناك نصّ تاريخيّ يعرض لنا صيغة ذلك الرّفص؛ فقد ذُكر أنّه «بلغ أهل البصرة ما كان من بيعه الحسن لمعاوية، فشغبوا، وقالوا: لا نرضى أن يصير الأمر إلى معاوية»^(١).

وهذا القول يُثير الاستغراب بخصوص أهل البصرة! إذا ما علمنا أنّ الكوفة قد بايعت لمعاوية بالحكم وخلافة المسلمين، وبتلك البيعة فقدت مركزها في إدارة الدّولة العربيّة الإسلاميّة، ومع هذا، لم يعترضوا على تلك التغيّرات التي حطّت من مكانة مصرهم! فلماذا ثار البصريّون وأعلنوا الرّفص لمرّة معاوية على المسلمين؟

الظاهر أنّ أهل البصرة كانوا يخشون من سياسة معاوية وشدّته تجاههم؛ لأنّهم لم يقفوا إلى جانبه، ولم يؤيّدوه في صراعه السّياسيّ مع الإمام عليّ عليه السلام، بل عملوا على قتل رسله الذين اندسّوا في البصرة من أجل الدّعوة له وكسب الأنصار وتعزيز مكانته في المدينة، عن طريق نفوذه هناك، فنجد البصريّين قد أحرقوا الأوّل (عبد الله بن عامر الحضرميّ) زمن الإمام أمير المؤمنين عليّ عليه السلام، وقبضوا على الثاني (وهو القينيّ) زمن الإمام الحسن عليه السلام، وسلّموه للوالي عبد الله بن العباس، الذي بدوره أخذ بأمر الإمام الحسن بمعاينة القينيّ وقتله على فعلته من تفريق أمر المسلمين في البصرة.

(١) ابن أعثم، الفتوح: ٢٩٧/٤.

– معاوية يوجّه بسر بن أرطاة إلى البصرة

بقي أهل البصرة على موقفهم العدائيّ من معاوية كما ساد من ذي قبل، لاعتبارات رأوها ضروريّة في المحافظة على كيانهم السّياسي، ومواجهة الأخطار المحدقة بهم؛ خشيةً من أن ينتهك جيش معاوية مدينتهم، «فدعوا للحسين بن عليّ (عليه السلام)»^(١)؛ بوصفه الشخصية السّياسيّة المنافسة لمعاوية بعد أخيه الحسن (عليه السلام)، وبذلك يكون توجه أهل البصرة قد انصبّ ضدّ رغبات معاوية، الأمر الذي جعله يتخذ التدابير اللازمة لتفريق أهل البصرة عمّا عزموا عليه، فوجّه بسر بن أرطاة إلى البصرة سنة (٤١هـ / ٦٦١م)، وضمّ إليه جيشاً يعمل على استئصال أيّ حركة عسكريّة قد تحدث هناك، وكذلك إنزال أهل البصرة على حكم معاوية، فلما قدم بسر البصرة، خطب على منبرها، وشتّم الإمام عليّاً، ثمّ قال: «أنشد الله رجلاً يعلم أنّي صادق إلّا صدقني، أو كاذباً إلّا كذّبي، فقال أبو بكر [نفيح بن الحارث بن كلدة] اللهمّ إنّنا لا نعلمك إلّا كاذباً»، فأمر به بسر فخنق، فقام أبو لؤلؤة الضّبيّ^(٢)، فرمى بنفسه عليه فمنعه^(٣).

كان الغرض من توجيه بسر هو إخضاع البصرة لسلطة معاوية، وإيذاء النّاس من أجل ارضاء معاوية^(٤)، فاتّبع سياسة قمعيّة لكسر شوكة البصريّين، وحملهم

(١) ابن أعثم، الفتوح: ٢٩٧/٤.

(٢) أبو لؤلؤة الضّبيّ: لم نثر على ترجمة له، ومن خلال سير الأحداث، يتّضح أنّه كان أحد موالى أبي بكر الثّقفيّ بالبصرة؛ إذ أقطعه أبو بكر مائة جريب من الأرض. الطبريّ، تاريخ: ١٢٨/٤.

(٣) الطبريّ، تاريخ: ١٢٨/٤؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ١٣/٣؛ ويُنظر: محمّد بن عقيل، النّصائح الكافية: ص ١٠٢.

(٤) محمّد بحر العلوم، لمحات من الصّراع السّياسي في الإسلام: ٢٩٢/١.

على الطاعة للأمير الجديد.

كانت البصرة قد خضعت لأوّل عامل لمعاوية كان يحمل الصَّيْغة العسكريّة، التي أبرزته بمظهر الاستعلاء على الآخرين، فتمكّن من هزيمة هذه المدينة سياسياً، لتصبح بعد ذلك هدف السَّياسة القمعيّة للأُمويّين بصورة مباشرة.

بقي بسر بن أرطاة على البصرة لمدة ستّة أشهر^(١)، ولم يذكر المؤرّخون إجراءاته السَّياسيّة والعسكريّة طول الفترة المذكورة داخل البصرة، ما عدا طريقته في الضغط على زياد ابن أبيه، الذي كان متواجداً في فارس منذ أن ولّاه الإمام عليّ عليه السلام على خراجها من أجل القدوم على معاوية، وأن يجلب الأموال التي كانت بحوزته ويسلّمها لمعاوية^(٢).

إنّ هذه الإجراءات تعكس لنا سبب تواجد بسر بن أرطاة في البصرة، فتواجهه كان يرتبط بتحقيق المهمّة التي أوكل بها من قبل معاوية، فهو لم يكن والياً على البصرة لإدارتها، بل من أجل القضاء على كلّ من تمرّد بوجه الأمير وإخضاعه وكسر شوكته. وعلى هذا الأساس يمكن أن يكون أداة لمعاوية، لمراجعة حساباته بالبصرة؛ لذلك كان أبو بكرة قد ذهب إلى معاوية ليحدّثه عن إجراءات بسر، فقال له: «إن تنظر لنفسك ورعيّتك، وتعمل صالحاً، فإنّك قد تقلّدت عظيمًا، خلافة الله في خلقه، فاتّق الله، فإنّ لك غاية لا تعدوها، ومن ورائك طالب حثيث، فأوشك أن تبلغ المدى، فيلحق الطالب، فتصير إلى من يسألك عمّا كنت فيه، وهو أعلم به منك، وإنّما هي محاسبة وتوفيق، فلا تؤثّرَنَّ على الله عزّ وجلّ شيئاً»^(٣).

(١) الطبريّ، تاريخ: ٤ / ١٢٨.

(٢) يُنظر لقضيّة الأموال بين زياد بن أبيه ومعاوية: الطبريّ، تاريخ: ٤ / ١٢٨ - ١٢٩.

(٣) الطبريّ، تاريخ: ٤ / ١٢٩؛ ابن كثير، البداية والنهاية: ٨ / ٢٥.

إنّ هذا الموقف قد أثار في نفس معاوية أموراً حملته على إعادة النظر في إمرة البصرة وولايتها، فعمل على تولية والٍ جديد محلّ بسر بن أرطاة، بعدما انتهت مهمّته في ترويض المدينة، فأراد معاوية أن يوجّه عتبة بن أبي سفيان^(١) والياً على البصرة، فكلّمه عبد الله بن عامر، وقال: «إنّ لي بها أموالاً وودائع، فإن لم توجّهني عليها، ذهبت»^(٢). فولّاه البصرة آخر سنة (٤١ هـ).

والظاهر أنّ بسر بن أرطاة بقي بجانب عبد الله بن عامر من أجل إتمام البيعة لمعاوية داخل البصرة أولاً، وإلزام الناس بإطاعة عمال معاوية ثانياً، ويذكر أحد المؤرّخين أنّ عبد الله بن عامر حالما وصل البصرة صعد المنبر، فقال: «الحمد لله الذي أصلح أمر الأمّة، وجمع الكلمة، وأدرك لنا بثأرنا، وكفانا مؤنة عدونا...»^(٣). ثمّ صعد بسرّ درجتين من المنبر، وتوعّد الناس بالعقاب والتأليب إذا لم يبايعوا، فأقبلت النّاس على البيعة لمعاوية^(٤). ويبدو أنّ هذه البيعة كانت عامّة في مسجد البصرة.

وأما إجراءات بسر بن أرطاة عند دخوله البصرة في بداية أمره، فقد كانت من أجل التمهيد لمثل هذه البيعة، خاصّةً بعد الرّفص البصريّ لأمر معاوية، ويبدو أنّ هناك بعض الذين رفضوا أمر معاوية والبيعة له، وهذا ما جعل بسرّ «يحرق بيوت

(١) عتبة بن أبي سفيان: ابن حرب بن أميّة، أخو معاوية، ولد على عهد الرسول ﷺ، يكنى أبا الوليد، ولّاه عمر بن الخطاب الطائف وصدقاتها، ثمّ ولّاه معاوية مصر حين مات عمرو بن العاص، توفي سنة ٤٣ هـ، ودُفن في مصر. ابن عبد البرّ، الاستيعاب: ٣ / ١٠٢٥.

(٢) الطبري، تاريخ: ٤ / ١٣٠؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ٣ / ١٥.

(٣) الثّقفيّ، الغارات: ٢ / ٦٤٥.

(٤) الثّقفيّ، الغارات: ٢ / ٦٤٦.

كُلِّ مَنْ كَانَ مَعَ عَلِيٍّ عَلَيْهِ السَّلَامُ، أَوْ كَانَ مِنْ أَصْحَابِهِ، وَكُلِّ مَنْ أَبْطَأَ عَنِ الْبَيْعَةِ، فَأَقْبَلَ يَحْرِقُ دَوْرَهُمْ، وَيُخَرِّبُ وَيَنْهَبُ أَمْوَالَهُمْ»^(١).

وَالرَّاجِحُ أَنَّ الَّذِينَ قَاطَعُوا أَمْرَ الْبَيْعَةِ لِمَعَاوِيَةَ هُمْ أَصْحَابُ عَلِيٍّ وَشِيعَتِهِ مِنْ أَهْلِ الْبَصْرَةِ. وَالسُّؤَالُ الَّذِي يُثَارُ هُنَا هُوَ: لِمَاذَا تَوَجَّهَ بَسْرَ بْنَ أَرْطَاةَ إِلَى حَرْقِ الدَّوْرِ، وَالتَّخْرِيبِ وَنَهْبِ الْأَمْوَالِ؟!

لَا شَكَّ فِي أَنَّ الْبَصْرَةَ أَصْبَحَتْ مَدِينَةً ذَاتَ أَثَرٍ سِيَاسِيٍّ بَارِزٍ، قَادِرَةٌ عَلَى أَنْ تَبْدِلَ نِظَامَ حُكْمٍ وَقِيَادَةً مَعَارِضَةً ضِدَّ الْحُكَّامِ، كَمَا وَجَدْنَا هَذَا الْحَسَّ فِي مَعْرَكَةِ الْجَمَلِ، وَهَذِهِ الْمِيزَةُ جَعَلَتْ الْأُمَرَاءَ وَالْوَلَاةَ فِي قَلْقٍ إِزَاءَ أَهْلِ الْبَصْرَةِ، وَشَكَّ مِنْ نَوَايَاهُمْ تَجَاهَ الْحُكُومَةِ الْمَرْكَزِيَّةِ اللَّأَشْرَعِيَّةِ؛ لِأَنَّهَا أَصْبَحَتْ تَضُمُّ تَيَّارَاتٍ سِيَاسِيَّةً مُخْتَلِفَةً الْهَوَى وَالْوَلَاءَ، وَإِنَّ هَذَا الْاِخْتِلَافَ لَا يُمْكِنُ السَّيْطَرَةُ عَلَيْهِ إِلَّا بِأَسْلُوبِ الشَّدَّةِ وَالتَّنْكِيلِ، وَمَصَادَرَةِ الْأَمْوَالِ بِالْقُوَّةِ، لِتَشْدِيدِ الْخُنَاقِ عَلَى النَّاسِ، وَإِضْعَافِ أَمْرِهِمْ؛ كَيْ لَا يَتِمَكَّنُوا مِنْ إِجْرَاءِ أَيِّ اضْطِرَابٍ سِيَاسِيٍّ دَاخِلِ مَدِينَتِهِمْ، وَهَذَا مَا وَجَدْنَاهُ لَدَى بَسْرَ بْنِ أَرْطَاةَ حَاكِمِ مَعَاوِيَةَ الْعَسْكَرِيِّ عَلَى الْبَصْرَةِ، فَكَانَ عَمَلُهُ يَهْدَفُ إِلَى حِفْظِ النِّظَامِ السِّيَاسِيِّ بِأَيِّ شَكْلِ مِنَ الْأَشْكَالِ، حَتَّى لَوْ كَانَتْ تِلْكَ الْإِجْرَاءَاتُ عَلَى حَسَابِ الْمَجْتَمَعِ! نَاهِيكَ عَنْ انْتِهَاكِهِ لِهَدَفِ الشَّرِيعَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ. لِذَلِكَ، نَجِدُ أَنَّ هُنَاكَ رَدُودَ فِعْلٍ مِنْ أَهْلِ الْبَصْرَةِ عَنْ طَرِيقِ الْخُرُوجِ ضِدَّ الْحَاكِمِ، وَعُرِفَتِ الْبَصْرَةُ بِكَثْرَةِ الْخَوَارِجِ، وَسَوْفَ نَتَحَدَّثُ عَنْ ذَلِكَ فِي الْفَصْلِ الْخَامِسِ مِنْ هَذَا الْكِتَابِ.

(١) الثَّقَفِيُّ، الْغَارَاتُ: ٦٤٦/٢.

– عبد الله بن عامر والياً على البصرة

أمّا بالنسبة إلى عبد الله بن عامر، فكان أول والٍ حقيقيٍّ لمعاوية على البصرة، وكان قد تولّى البصرة من قبل في عهد عثمان بن عفّان سنة (٢٨هـ / ٦٤٨م) ^(١). وكان أول أعمال عبد الله بن عامر في البصرة أيام معاوية أن اختار مساعديه على إدارتها، ليتمكّن من تنظيم وضعه، وتحقيق النجاح في ولايته، فاختار حبيب بن شهاب الشامي ^(٢) على شرطته، وعمير بن يثربي الضبي ^(٣) على القضاء ^(٤). أمّا أسلوب عبد الله بن عامر في إدارة البصرة، فقد كان اللين، وعدم الأخذ على أيدي السفهاء، ففسدت البصرة بسبب سياسته التي اتّبعتها في أيام عمله بها لمعاوية، «كان ابن عامر ليّناً، سهلاً، سهل الولاية، لا يعاقب في سلطانه، ولا يقطع لصّاً، فقليل له في ذلك، فقال: أنا أتألف الناس، فكيف أنظر إلى رجل قد قطعت أباه وأخاه؟!» ^(٥).

ويبدو أنّ عبد الله بن عامر لم يعد يتحمّل المجازفة في خدمة الحكّام على حساب الناس؛ فقد اكتسب من تجربته الأولى على البصرة أيام عثمان بن عفّان أنّ الأمراء يتغيّرون والناس باقون، فالأجدر به أن يتقرّب إلى الناس ليرتفع شأنه بينهم؛

(١) فلهاوزن، تاريخ الدولة العربيّة: ص ١١٢.

(٢) لم أعر على ترجمة له. وقد نُسب إليه (نهر حبيب) بالبصرة، النهر الذي أقطعه إيّاه عثمان بن عفّان، وقيل: زياد بن أبيه. البلاذريّ، فتوح البلدان: ٢ / ٤٤٤؛ ياقوت الحمويّ، معجم البلدان: ٥ / ٣٢٠.

(٣) عمير بن يثربي الضبيّ: كان على قضاء البصرة بعد كعب بن سور الأزديّ، وكان قليل الحديث. ابن سعد، الطبقات الكبرى: ٧ / ١٤٩.

(٤) الطبريّ، تاريخ: ٤ / ١٣٠؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ٣ / ١٥.

(٥) الطبريّ، تاريخ: ٤ / ١٦١.

تَحسُّباً لأيِّ متغيِّراتٍ في الأحداث السَّياسِيَّة، كما حدث في أيَّام ولايته الأولى على البصرة؛ لذلك، ترك السُّلطة داخل البصرة بيد القبائل، لا بيد الحكومة^(١).

وعلى هذا الأساس، لم نجد عبد الله بن عامر يكلِّف نفسه مشقَّة الاصطدام بالقبائل هناك، وإنَّما ترك الحبل على الغارب بسبب تربيته الخاصَّة^(٢)، السَّياسة التي تركت آثاراً سلبية على أهل البصرة؛ إذ أصبحت المشاكل ظاهرة، فكان السُّلب والقتل في الشوارع والأسواق فاشيين في النهار المبصر^(٣)، فتدهورت الأوضاع هناك بحيث لم تكن تعجب معاوية، الذي أصبح يخشى عاقبة الأمور، لاسيَّما أنَّ البصرة خاصَّةً، والعراق عامَّةً، ذوا أثر فعَّال وساخن تجاه الخلافة الأمويَّة، فازدادت البصرة سوءاً يوماً بعد آخر.

لم يعد معاوية يتحمَّل مساوئ هذا الوالي الضعيف، فكتب إليه «يستزيره»^(٤)، وذلك في سنة (٤٤هـ / ٦٦٤م)^(٥). ثمَّ أمره أن يعتزل عمله، ويأخذ الأموال التي كانت لديه، وزوَّجه أخته هنداً^(٦). فكان أوَّل عامل أمويٍّ على البصرة من قبل معاوية أثبت فشله وعدم لياقته الإداريَّة والسَّياسِيَّة في استيعاب أهل البصرة، وتوجيههم بما يخدم المصالح الأمويَّة.

وكذا امتدَّ مردود هذا الفشل إلى الخليفة الجديد، الذي لم يتمكَّن من اختيار

(١) فلهاوزن، تاريخ الدولة العربيَّة: ص ١١٢.

(٢) ناجي حسن، القبائل العربيَّة في المشرق: ص ١٠٥.

(٣) فلهاوزن، تاريخ الدولة العربيَّة: ص ١١٢.

(٤) يستزيره: أي: يقدم عليه. الفيروز آبادي، القاموس المحيط: ٤٢ / ٢.

(٥) الطبري، تاريخ: ٤ / ١٦٢.

(٦) الطبري، تاريخ: ٤ / ١٦٤.

الوالي الكفاء لإدارة البصرة، وقد تناسى معاوية أن عبد الله بن عامر هرب من البصرة متستراً تحت جناح الليل عندما قُتل عثمان، واختير الإمام علي عليه السلام لخلافة المسلمين، وتمت البيعة له من قبل أهل البصرة^(١).

ومن الواضح أن هذه الأحداث لا تتفق مع الرأي القائل: «إن معاوية كان على درجة عالية من الذكاء وبعد النظر؛ بحيث أنه كان يدرك متطلبات هذا الإقليم أو ذاك»^(٢).

- الحارث بن عبد الله الأزدي والياً على البصرة

وعلى أثر عزل عبد الله بن عامر، استعمل معاوية أول سنة (٤٥هـ / ٦٦٥م) الحارث بن عبد الله الأزدي^(٣)، فأقام بالبصرة أربعة أشهر^(٤)، ثم عزله^(٥)؛ بسبب إخفاقاته في حفظ الأمن كمن سبقه!

إن هذا الإخفاق الثاني لمعاوية، الذي يدل على عدم رجاحته في اختيار الشخصية المناسبة، التي يمكنها النجاح في سياسة أهل البصرة، فما كان منه إلا أن يبحث عن الشخصية المؤهلة ليعهد إليه بولاية البصرة، فوجد أن زياد بن أبيه هو أفضل من

(١) ابن حبان، الثقات: ٢ / ٢٧٤.

(٢) إبراهيم بيضون، ملامح التيارات السياسية: ص ١٥٣.

(٣) الحارث بن عبد الله الأزدي: كان صديقاً لـ خالد بن الوليد قلماً يفارقه، ولـ خالد ثقة برأيه، يستشير في أمره، وشهد معه اليرموك، ثم شهد صفين مع معاوية، مات زمن معاوية. الزركلي، الأعلام: ٢ / ١٥٦.

(٤) الطبري، تاريخ: ٤ / ١٦٤.

(٥) يُنظر: ملحق رقم (١)

يقوم بهذا الدور^(١)، خاصَّةً أنَّه تمكَّن بهذه الفترة من إلحاق زياد بن سمِيَّة هذا بأبيه أبي سفيان^(٢)، وكان زياد قبل ذلك يُعرف أيضاً بابن أبي عبيد، مولى ثقيف^(٣).

– زياد بن أبيه والياً على البصرة

ويبدو أنَّ زياد بن أبيه قد تأثر بعصرين مختلفين، فنجدته قبل معاوية، وبالأخصَّ زمن الإمام عليٍّ عليه السلام يُرشد الناس ولا يتجاوز على حقوقهم، ويلتزم الحقَّ في القضايا السَّياسِيَّة، كما وجدناه في فتنة ابن الحضرميِّ، وهذا يدلُّ على أنَّ زياداً كان متأثراً بسياسة أمير المؤمنين وابن عباس والي البصرة آنذاك، في حين تبدَّلت هذه الشخصية زمن معاوية بن أبي سفيان، فكان طاغية جباراً حين عمل له^(٤).

إنَّ هذا الاختلاف ناتج عن تأثر هذه الشخصية وتذبذبها في كلِّ مدَّة، وإنَّ الرَّجل لا يمتلك مبادئ ثابتة في العمل؛ فمن جهة نجده كان مولى لبني ثقيف، بعيداً عن مجريات الأحداث السَّياسِيَّة، ثمَّ أصبحت له أهمِّيَّة مرموقة زمن ولاية عبد الله بن عامر على البصرة أيام عثمان بن عفَّان، وأيضاً في حكم الإمام عليٍّ عليه السلام، أمَّا زمن معاوية، فقد تأثر بالنسب الأمويِّ الذي لحقه، فأراد أن يؤكِّد ذلك من خلال التزامه العمل الذي يحقِّق مصالح البيت الأمويِّ.

ومن خلال التغير الثاني الذي طرأ على مركز والي البصرة، كانت حكومة معاوية تحاول السَّيطرة على زمام الأمور، فكلَّمًا حاولت إبدال والٍ بآخر على أمل أن يصلح الوضع هناك، فشل الوالي الجديد بتحقيق النَّجاح بمهمَّته وبصورة

(١) إبراهيم بيضون، التَّوَّابون: ص ٦٢.

(٢) يُنظر: الطبري، تاريخ: ٤/ ١٦٣؛ العيني، عمدة القارئ: ١٠/ ٤٠.

(٣) نصر بن مزاحم، وقعة صفين: ص ٢١٨-٢١٩.

(٤) طه حسين، الفتنة الكبرى/ عليٍّ وبنوه: ص ٢٠٢.

مرضية، فكان لابدّ والحالة المضطربة التي تمرّ بها البصرة أن تُحكم من قبل والٍ يتمتع بصفات سياسيّة وإداريّة جيّدة، تمكّنه من القيام بهذه المهمّة^(١)، فوقع الاختيار على زياد بن أبيه لضبط البلاد.

وما إن قدم زياد البصرة حتّى أطلق لنفسه العنان في سياسة القتل في العراق بصورة هائلة مريعة^(٢)؛ ليُخضع الناس لحكم معاوية، ثمّ قال لأهل البصرة: «ربّ فرّح بإمارتي لن تنفعه، وكارهٍ لها لن تضرّه»^(٣)؛ وهذا يكشف لنا أنّ الرّجل كانت لديه عداوة مع بعض البصريّين، وفي مقابل ذلك، كان البعض فرحاً بولايته؛ لعلاقتهم الجيّدة به، فعمل زياد على تحذير الناس من سيرته فيهم هذه المرّة، وأنّه يختلف عمّا مضى من وقت قضاه في البصرة؛ لأنّ ذلك الوقت كان تحت حكم خليفة يختلف منهجاً عن حكم معاوية وسياسته في النّاس.

ثمّ إنّ زياداً كان عارفاً بأوضاع البصرة وأهلها؛ لأنّه كان قد تولّى بعض المناصب من قبل، فقد تولّى المحاسبة لجيش البصرة في ولاية أبي موسى الأشعريّ، زمن عمر بن الخطّاب^(٤)، وفي زمن أمير المؤمنين الإمام عليّ عليه السلام، تولّى الخراج وبيت

(١) هادي حسين محمود، البصرة في عهد الوالي زياد، مجلّة المورد، مج ٥، العدد الرابع، لسنة ١٩٧٦م: ص ٩٢.

(٢) جورج جرداق، الإمام عليّ صوت العدالة الإنسانيّة: ص ٤٤١.

(٣) ابن قتيبة، عيون الأخبار: ص ٣٧٥؛ الزّبير بن بكار، الموفقيّات: ص ٣٠٢؛ أمّا المسعوديّ، فذكر أنّه قال:

ألا ربّ مسرورٍ بنا لا نسرّه وأخرٌ محزونٌ بنا لا نضرّه.

مروج الذهب: ٢١٣/٣.

(٤) د. ناجي حسن، القبائل العربيّة في المشرق: ص ١٠٦.

المال^(١)، ثم تمكَّن في أيام ولايته ابن عباس للبصرة أن يتولَّى مهمَّة القضاء على ابن الحضرميِّ، الذي أرسله معاوية إلى البصرة لتفريق أهلها وثورتهم ضدَّ الإمام عليٍّ عليه السلام كما ذكرناه سابقاً في الفصل الأوَّل.

إنَّ هذه الأدوار أكسبت زياد بن أبيه بعض الخبرة في تصرّفات أهل البصرة، وكيفيَّة التعامل معهم في حالات الاضطراب والاختلاف؛ لذلك، كان قدومه للبصرة من أجل فرض السُّلطة وحفظ، مصلحة الحاكم، واستتباب الأوضاع، التي بدورها أقلقت حكومة الشَّام.

كان أوَّل إجراءات زياد بن أبيه في البصرة أن ألقى على مسامع أهلها خطبة شديدة اللُّهجة^(٢)، الخطبة المشهورة بالخطبة البتراء^(٣)، ابتدأها بالتحذير من الأخطاء والابتعاد عن جادة الصَّواب، «أتكونون كمن طرفت عينه الدُّنيا، وسدَّت مسامعه الشهوات، واختار الفانية على الباقية...»^(٤). فكان يحاول بذلك أن يؤثِّر الضَّمائر، ويحرِّك المشاعر، عسى أن تتحرَّس بعض الشيء من الفساد الذي انتشر بشكل فظيع، «إنَّكم أحدثتم في بلاد الإسلام الحدث الذي لم تسبقوا إليه؛ من ترككم الضعيف يُقهر، ويؤخذ ماله...»^(٥).

(١) الطبري، تاريخ: ٣ / ٥٤٦.

(٢) يُنظر للخطبة كاملة: الجاحظ، البيان والتبيين: ٢ / ٤٠-٤٣؛ ووردت بعض مقاطعها لدى: ابن قتيبة، عيون الأخبار: ص ٣٧٥-٣٧٦؛ الطبري، تاريخ: ٤ / ١٦٥؛ الزَّبير بن بكار، الموفقيَّات: ص ٣٠٢.

(٣) سُمِّيت بالخطبة البتراء؛ لأنَّ زياداً كما يذكر المؤرِّخون لم يبدأها بالبسملة، ولم يحمِّد الله، ولم يصلِّ على رسوله في بداية كلامه. الطبري، تاريخ: ٤ / ١٦٥.

(٤) الجاحظ، البيان والتبيين: ٢ / ٤١.

(٥) الجاحظ، البيان والتبيين: ٢ / ٤١.

ثم هدد أهل البصرة وأوعدهم بأنَّ من: «غَرَّقَ قوماً، أغرقناه، ومن حَرَّقَ على قوم، حَرَّقناه، ومن نقب بيتاً، نقبت بيته، ومن نبش قبراً، دفنته حياً»^(١). وقد أخذ زياد الناس بالظنَّة، وعاقب على الشَّبهة، وأخذ المقبل بالمدبر، والمقيم بالظاعن^(٢).

وعلى وجه العموم، السَّياسة التي اعتمدها زياد بن أبيه داخل البصرة، حسب قول البعض: «لين في غير ضعف، وشدة في غير عنف»^(٣). فكانت خطبته برنامج عمل ألزم به نفسه أمام أهل البصرة، بقوله: «إني مهما قصرت، فلن أقصر عن ثلاث: لست محتججاً عن طالب حاجة منكم ولو أتاني طارقاً لبلي، ولا حابساً عطاء ولا رزقاً عن إبانه، ولا مجمرأ^(٤) لكم بعثاً»^(٥).

فلما انتهى زياد من خطبته، قام الأحنف بن قيس، فقال: «أيُّها الأمير، إنّما المرء بجده، والجواد بشده، وقد بلغك جدُّك أيُّها الأمير ما ترى، وإنّا الثناء بعد البلاء، والحمد بعد العطاء، وإنّا لن نشني حتّى نبتي». فقال زياد: صدقت^(٦).

ويرى أحد الباحثين أنّ سياسة زياد في البصرة هي نوع من الحكم العرفي الذي أعلنه، وإنّه لم يكتف بالعقوبات الشرعيّة التي جاء بها الدّين الإسلاميّ،

(١) الجاحظ، البيان والتبيين: ٤١ / ٢.

(٢) طه حسين، الفتنة الكبرى / عليّ وبنوه: ص ١١٢؛ محمّد بحر العلوم، لمحات من الصراع السَّياسي في الإسلام: ٢٨٠ / ١.

(٣) الجاحظ، البيان والتبيين: ٤١ / ٢.

(٤) التجمير: هو إبقاء الجنود في المناطق المفتوحة، وهي مناطق بعيدة عن أهلهم، ويبقون فيها مدّة طويلة. الجوهريّ، الصّحاح: ٦١٦ / ٢؛ ابن منظور، لسان العرب: ١٤٦ / ٤.

(٥) الجاحظ، البيان والتبيين: ٤٢ / ٢؛ ويُنظر: ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة: ٢٠٣ / ١٦.

(٦) الجاحظ، البيان والتبيين: ٤٢ / ٢؛ ابن قتيبة، عيون الأخبار: ص ١٧٦.

بل أحدث عقوبات جديدة طَبَّقَهَا على العراقيين؛ لِيَتِمَكَّنَ من ضبط أمور البصرة بشكل خاص، وتثبيت سلطان الأمويين، الذي لم يكن ثابتاً في يومٍ من الأيام^(١)؛ إذ قال: «وقد أحدثنا لكلّ ذنب عقوبة»^(٢).

لقد التزم زياد سياسة الإرهاب لخلق أجواء يطغى عليها الخوف داخل البصرة وخارجها من العراق بصورة عامة، وغايته من تلك السَّياسة إرضاء الحاكم المستبد، فنجدّه يسخر طاقات المجتمع لصالح النظام الحاكم، ليصبح إقطاعياً سياسياً يتحكَّم فيه الظالم بجوره وتعسّفه واضطهاده^(٣).

وكانت أوّل إجراءات زياد بن أبيه، بعد خطبته التي ألقاها في البصرة، أن استعمل على شرطته عبد الله بن حصن^(٤)، وأمهل الناس فترة مناسبة لينتشر أمر خطبته، وما على النَّاس إلا الالتزام تجاه أوامره الصَّادرة، فترك النَّاس حتّى بلغ الخبر الكوفة، ليكون بعدها قد أعذر مَنْ أنذر، فبدأ بتطبيق أحكامه الاستبداديّة بمنع التجوّل ليلاً، واتخذ صيغة معيّنة في كَيْفِيَّةِ اتِّبَاعِ إجراءات المنع؛ إذ كان يؤخّر صلاة العشاء حتّى يكون هو آخر مَنْ يصلي، ثم يأمر رجلاً فيقرأ سورة البقرة ترتيلاً، ليفسح المجال أمام النَّاس للوصول إلى بيوتهم، وهي صيغة أشبه ما تكون بالتوقيت كما هو معروف اليوم في إجراءات منع التجوال في الحالات الطارئة

(١) ثابت إسماعيل الراوي، العراق في العصر الأمويّ: ص ١٧٣.

(٢) الجاحظ، البيان والتبيين: ٤٢ / ٢.

(٣) محمّد بحر العلوم، لمحات من الصراع السَّياسي في الإسلام: ٣٠٠ / ١.

(٤) عبد الله بن حصن: السدوسي، تنسب إليه مقبرة ابن حصن بالبصرة؛ لأنّه كان يجلس هناك، فنُسبت إليه، وهو أحد التابعين، يروي عن أبي موسى الأشعريّ. ابن حجر، الإصابة: ٥٣ / ٤؛ ويُنظر: ابن حبان، الثقات: ٢١ / ٥.

فإذا فرغ الرجل من قراءة سورة البقرة، أمهل الناس بقدر ما يرى أن إنساناً يبلغ الخريبة، ثم يأمر صاحب شرطته بالخروج، فيخرج، فإذا رأى إنساناً يتجول، قتله^(١).

وقد اعتمد زياد في تطبيق الطريقة المتقدمة على شرطته التي يبلغ عددها أربعة آلاف رجل^(٢)، إذ قتلت هذه القوة في الليلة الأولى من تطبيق الحكم السابق الذكر كل مَنْ وجد مخالفاً لأمر زياد بن أبيه في منع التجوال، فلما أصبح زياد في اليوم التالي لإعلان إجراءاته داخل البصرة، يروى أنه «وجد في باب القصر تسعمائة رأس، وفي الليلة الثانية جاءوا بخمسين رأساً، وفي الليلة الثالثة جاءوا برأس واحد»^(٣).

إن هذه الأرقام وإن كانت تحمل نوعاً من المبالغة في عدد الشرطة وعدد المقتولين تطبيقاً لخطر التجوال ليلاً، ولكنها تشير إلى كثرة مَنْ قتلوا داخل البصرة بسبب تجاهلهم أوامر زياد، أو أنهم كانوا غافلين عنها، فكانت الأيام الأولى لتطبيق الأوامر قد أحدثت مأساة في البصرة، سيما في الليل؛ لأن المسلمين لم يكونوا يتوقعون أن الوالي سوف يصّر على مثل تلك الإجراءات؛ الأمر الذي يعكس مقدار إصرار الوالي الجديد على الشدة والحزم وعدم التساهل، وفرض ذلك حتى على اللذين لم يكن لديهم أدنى اطلاع على تلك الإجراءات؛ إذ يروى

(١) الزبير بن بكار، الموفقيّات: ص ٣٠٧؛ الطبري، تاريخ: ١٦٨/٤؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ٤٨/٣.

(٢) الطبري، تاريخ: ١٦٨/٤.

(٣) الزبير بن بكار، الموفقيّات: ص ٣٠٧-٣٠٨؛ ويُنظر: البلاذري، أنساب الأشراف: ٢٠٦/٥.

أَنَّ صاحبَ الشَّرْطَةِ أَخَذَ فِي إِحْدَى اللَّيَالِي أَعْرَابِيًّا، فَأَتَى بِهِ إِلَى زِيَادٍ، فَقَالَ لَهُ: «هَلْ سَمِعْتَ النَّدَاءَ؟ فَقَالَ: لَا وَاللَّهِ، قَدِمْتُ بِحُلُوبَةٍ^(١) لِي، وَغَشِينِي اللَّيْلَ، فَاضْطَرَرْتُهَا إِلَى مَوْضِعٍ، فَأَقَمْتُ لِأَصْبَحٍ، وَلَا عِلْمَ لِي بِمَا كَانَ مِنَ الْأَمِيرِ، قَالَ: أَظْنُكَ وَاللَّهِ صَادِقًا، وَلَكِنَّ فِي قَتْلِكَ صَلَاحَ هَذِهِ الْأُمَّةِ، ثُمَّ أَمَرَ بِهِ فَضُرِبَتْ عُنُقُهُ»^(٢).

وَهُنَاكَ مَنْ ذَهَبَ إِلَى أَنَّ هَذِهِ الْحَادِثَةَ وَقَعَتْ بِالْكُوفَةِ، وَقَدْ اعْتَمَدَ فِي ذَلِكَ عَلَى الطَّبْرِيِّ، الَّذِي بَدَوْرُهُ ذِكْرُ الرَّوَايَةِ عَلَى أَنَّهَا جَرَتْ فِي الْبَصْرَةِ، وَلَا نَعْلَمُ لِمَاذَا جَعَلَهَا الْبَاحِثُ بِالْكُوفَةِ! وَلَرَبَّمَا كَانَ مِنْ سَهْوِ الْقَلَمِ^(٣).

وَبِهَذَا، كَانَ زِيَادٌ أَوَّلُ مَنْ شَدَّ أَمْرَ السُّلْطَانِ، وَأَكَّدَ الْمَلِكَ لِمَعَاوِيَةَ، وَأَلْزَمَ النَّاسَ الطَّاعَةَ، وَتَقَدَّمَ فِي الْعُقُوبَةِ، وَجَرَّدَ السَّيْفَ، وَأَخَذَ بِالظُّنَّةِ، وَعَاقَبَ عَلَى الشُّبْهَةِ، وَخَافَ النَّاسُ فِي سُلْطَانِهِ خَوْفًا شَدِيدًا^(٤).

لَمْ يَكُنْ لِلتَّسَاهُلِ ذِكْرٌ فِي سِيَاسَةِ هَذَا الْوَالِي، بَلْ كَانَ هَمُّهُ الْوَحِيدَ تَحْقِيقَ مَا يَسْعَى إِلَيْهِ، وَتَطْبِيقَ آرَائِهِ، فَلَمَّا حَقَّقَ مَا عَزَمَ عَلَيْهِ، خَطَبَ بِالنَّاسِ، فَقَالَ: «هَدَّأْتُ الْبَلَدَةَ سَائِرَ الْيَوْمِ، لَكُمْ بَطُونٌ بِيُوتِكُمْ، وَلَنَا ظُهُورُهَا، وَلَا حَقَّ لَكُمْ فِي ظُهُورِهَا»^(٥). كَأَنَّهُ حَدَّدَ الْمَجَالَ الَّذِي يَشْغَلُهُ شَرْطَتُهُ فِي فِرَاضِ سَيِّطَرَتِهِمْ وَسُلْطَتِهِمْ، وَفِي الْوَقْتِ نَفْسَهُ

(١) حُلُوبَةٌ: هِيَ مَا تَجَلِبُ لِلْبَيْعِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ، وَقِيلَ: هِيَ النَّاقَةُ الَّتِي تَجَلِبُ لِلْبَيْعِ. ابْنُ مَنْظُورٍ، لِسَانُ الْعَرَبِ: ١/ ٢٦٩؛ الْعَظِيمُ أَبَادِي، عَوْنُ الْمَعْبُود: ٩/ ٢٢١.

(٢) الطَّبْرِيُّ، تَارِيخُ: ٤/ ١٦٧؛ وَهُنَاكَ رَوَايَةٌ تَذَكُرُ أَنَّ الْأَعْرَابِيَّ «قَدِمَ بِغَنَمٍ». الْبَلَاذَرِيُّ، أَنْسَابُ الْأَشْرَافِ: ٥/ ٢٠٦. فَرَبَّمَا تَكُونُ هُنَاكَ أَكْثَرُ مِنْ حَادِثَةٍ بِهَذَا الشَّأْنِ.

(٣) لِلتَّفْصِيلِ رَاجِعْ: مُحَمَّدُ بَحْرُ الْعُلُومِ، لِمَحَاتٍ مِنَ الصَّرَاعِ السِّيَاسِيِّ فِي الْإِسْلَامِ: ١/ ٢٧٩.

(٤) الطَّبْرِيُّ، تَارِيخُ: ٤/ ١٦٧؛ وَيُنْظَرُ: جَاسِمُ صَكْبَانَ عَلِيٍّ، مَوْسُوعَةُ الْبَصْرَةِ الْحَضَارِيَّةِ/ الْقِسْمُ التَّارِيخِيُّ، الْبَصْرَةُ فِي الْعَهْدِ الْأُمَوِيِّ: ص ١٧.

(٥) الزُّبَيْرُ بْنُ بَكَّارٍ، الْمَوْقِفَاتُ: ص ٣٠٨.

أراد أن يهّمش دور القبائل ورؤسائها في حفظ أمن قبائلهم، بل جرّد أهل البصرة من كلّ الصّلاحيّات الخارجيّة، فمهمّتهم تكمن في بيوتهم. إنّ هذه النظرة تعكس عقليّة زياد بن أبيه بالنسبة إلى طريقة إضعاف العصبية القبليّة داخل البصرة في مقابل تقوية السّلطة الحاكمة، «كان يتّخذ موقفاً فوق الأحزاب وفوق القبائل، وكان يشعر تمام الشعور بأنّه عامل من عمّال الدّولة، وكان جاداً كلّ الجدّ في القيام بالواجبات التي يقتضيها منصبه والشّعور به، غير مبالٍ بالعافية لنفسه، وغير ميّال بما جاء في القرآن، الذي استطاع كلّ حاكم أن يستنبط منه السّياسة التي تناسبه»^(١).

وبعد هذا العمل المتواصل من زياد بن أبيه داخل البصرة، أراد أن يكشف مدى قدرته على حفظ مدينتهم، وجعلها أفضل من ذي قبل، بالإضافة إلى ذلك، همّ أن يقف على نتائج إجراءاته، ومدى نجاحها، فسأل أهل البصرة عن أكثر سككها خوفاً، فقالوا: المربد. فأمر، فألقي فيه كساء خزّاً، فبقي سبعة أيّام لا يقربه أحد، ثمّ قال للنّاس: «افتحوا منازلكم وحوانيتكم، فمّن ذهب له شيء، فزياد له ضامن»^(٢).

بعد هذا النجاح الذي حقّقه زياد بن أبيه في البصرة، عمل على تشكيل سلطته داخل المدينة، فاستعان بعدّة من أصحاب النّبي ﷺ، منهم: عمران بن الحصين

(١) فلهاوزن، تاريخ الدّولة العربيّة: ص ١٢٥.

(٢) الرّبير بن بكّار، الموقّعات: ص ٣٠٨.

الخرَاعي^(١)؛ إذ ولَّاه قضاء البصرة، والحكم بن عمرو الغفاري^(٢)، الذي ولَّاه خراسان التابعة إداريًّا لأعمال البصرة، وسمرة بن جندب، الذي جعله على شرطته^(٣)، وأنس بن مالك، الذي جعله على صلاتها^(٤).

ولم يكن منهجه في تشكيل السَّلمة يعتمد على الصَّحابة فقط، بل أشرك أهل البصرة في سلطته بعد نجاحه في مهمَّته، «فكتب خمسائة من مشيخة أهل البصرة في صحابته»^(٥). ولم يذكر المؤرِّخون أسماء هؤلاء الخمسائة، وكذا المبالغة فيه واضحة.

ويبدو أن زياد بن أبيه قد غيَّر سياسته في تحجيم دور القبائل داخل البصرة في سلطته بعد ذلك؛ لأنَّ هذه السَّياسة تولَّد التذمُّر، وقبائل البصرة كانت قويَّة لا يمكنها أن تبقى لفترة أطول معزولة عن نظام الحكم داخل المدينة، ثمَّ إنَّ زياداً سوف يكون بحاجة ماسَّة إلى كبار القبائل مع مرور الزَّمن، فكانت سياسته المتشدِّدة في بداية الأمر ناتجة عن رغبته في إنزال كبار أهل البصرة على أحكامه دون معارضة؛ لأنَّ إشراكهم في بداية أمره يكون ممَّا يساعدهم على إعلان التمرد

(١) عمران بن الحصين الخزاعي: يكنى أبا نجيد، أسلم قديماً هو وأبوه وأخته، وغزاه مع رسول الله ﷺ، وبعثه عمر بن الخطَّاب إلى البصرة ليفقَّه أهلها، ولَّاه زياد قضاءها. توفي بالبصرة سنة ٢٥هـ. ابن سعد، الطبقات الكبرى: ٩/٧.

(٢) الحكم بن عمرو الغفاري: سكن البصرة، بعثه زياد واليًّا في أوَّل ولايته للعراقين، ثمَّ عزله عن البصرة، وولَّاه بعض أعمال خراسان، ومات فيها، وقيل: مات بالبصرة سنة ٥٠هـ. ابن عبد البر، الاستيعاب: ٣٥/١.

(٣) يُنظر: ملحق رقم (١).

(٤) الطبري، تاريخ: ١٦٨/٤.

(٥) الطبري، تاريخ: ١٦٨/٤.

ضدّه في الفترات المناسبة، وعند تضارب المصالح، سيّما القبيلة التي يتعرّض بعض رجالها لأحكام زياد أو زجّهم في سجونهم، فتتوتّر الحياة السّياسيّة في البصرة، وهو ما لن يكون في مصلحة الوالي.

لذلك، عندما أشرك زياد زعماء البصرة في سلطته، حاول أن تكون سلطته عامّة، فهو يحاول إشراك جميع الأوساط السّياسيّة داخل البصرة في سلطته، رغبةً منه في إشراكهم في إدارة مصر، ومن ثمّ، حمّلهم جزءاً من المسؤوليّة عمّا يجري من الأحداث داخل المدينة.

أمّا بالنسبة إلى مشيخة أهل البصرة الذين اشتركوا في حكومة زياد، فكان عددهم خمسمائة، وهذا العدد كبير، يعطينا صورة واضحة عن إشراكه جميع قبائل البصرة بسلطته، دون أن يعتمد على قبيلة ويترك أخرى؛ لأنّ ذلك سوف يكون مردوده سلبياً على سلطته؛ كون القبائل المستبعدة لا تسكت عن تصرّفاته بمرور الزمن، فكانت عمليّة التوازن بين القبائل العربيّة في البصرة دون أن يرّجح كفة إحدى القبائل على الأخرى.

لقد كانت هذه الإجراءات وراء نجاح زياد بن أبيه في سيطرته على الوضع السّياسيّ أثناء ولايته على البصرة، والسيطرة على العصبيّة القبليّة.

وكذلك لجأ زياد إلى اتّخاذ الحرس، فشكّل رابطة من خمسمائة، واستعمل عليهم شيبان بن عبد الله الأشعري^(١) صاحب مقبرة بني شيبان من بني سعد، فكان هؤلاء الخمسمائة لا يبرحون المسجد^(٢).

(١) شيبان بن عبد الله الأشعريّ: ولّاه زياد باب عثمان وما يليه من البصرة، فجذّ في طلب الخوارج، وأخافهم، فلم يزل على ذلك حتّى أتاه ليلة -وهو متّكئ باب داره- رجلان من الخوارج، فقتلاه. ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة: ٩٩/٥.

(٢) الطبريّ، تاريخ: ١٦٩/٤.

ويبدو أنَّ أولئك المرابطين الذين استخدمهم زياد كان الهدف من تشكيل قوّتهم هي رغبة ابن زياد في أن تكون هناك قوّة عسكريّة مجهزة ومستعدّة بقربه دائماً، تفادياً لأيّ اضطراب قد يحدث ضده، فهم أشبه بقوّات الطوارئ بالمفهوم الحديث، لاسيّما أنَّ أفراد القبائل دائماً ما تكون مواقفهم سلبية في الأزمات التي يعاني منها الوالي، ومن ثمّ، فهؤلاء المرابطين سوف يغنون زياد بن أبيه عن الاستعانة بالقبائل البصريّة في مواجهة الاضطرابات؛ من جهة ضمن ولائهم لسيّدهم ووليّ نعمتهم زياد.

ويبدو أنَّ هذه الأمور التي أحدثها زياد في البصرة كانت من اجتهاده دون تدخل سلطة الشّام في شؤونه، وهناك رواية توضّح ذلك، وتبيّن قوّة الشخصية التي يتمتّع بها زياد، وقدرته على اتخاذ القرارات، وإن كانت تتعارض مع أميره معاوية؛ إذ قال المدائنيّ: «سأل موليّ لفاخته بنت قرصة^(١) أن يكتب له معاوية كتاباً منشوراً بأن يُخلى له سوق الطعام في البصرة، فلا يبيع فيها أحد غيره حتّى يخرج ما في يده منه، فكتب له بذلك، وقال له: ويحك، إنّي أحذرك زياداً، فلمّا مُنع الناس من بيع الطعام، غلا السّعر، فركب زياد وهو شارب دواءً، فوجده على سطح وهو يناول الدّنانير والرّقاع بالقصب، فأمر به فأُنزل، فقال: إنّ معي كتاب أمير المؤمنين، فقال: اقطعوا يده، ثمّ قال: ادفعوا إليه منشوره ويده، فرجع إلى معاوية،

(١) هي فاختة بنت قرصة بن عمرو بن نوفل بن عبد مناف، القرشيّة، النوفليّة، زوج معاوية ابن أبي سفيان، وقد تزوّج معاوية أختها عنود بنت قرصة، ثمّ تزوّج أختها فاختة. وذكر أنّها خرجت مع معاوية ببعض غزواته. ابن حجر، الإصابة: ٢٥٧/٨؛ ويُنظر: ابن حبيب، المحبّر: ص ٣٠٧.

فقال له: قد نهيتك وحذرتك، فأبيت»^(١).

إنّ هذا الإجراء يكشف لنا مدى استقلالية زياد بإدارة البصرة، وعن عدم رغبته في إقامة بعض الاحتكارات في البصرة؛ فإنّ ذلك سوف يفسد عليه سياسته المتبعة في أهل البصرة، وتحقيق ما يسعى إليه من حفظ الأمن والاستقرار.

وكذلك كان زياد بن أبيه يتبع بعض الطرق التي تموّه الحقائق على أهل البصرة، وتجعلهم من المساندين له والمؤيدين لحكمه، فروي أنّ زياداً أيام ولايته على البصرة مرّ بأبي العريان العدوي^(٢)، وكان شيخاً مكفوفاً ذا لسان وعارضة شديدة، فقال أبو العريان: ما هذه الجلبة^(٣)؟ قالوا: زياد بن أبي سفيان. فقال أبو العريان: والله، ما ترك أبو سفيان إلّا يزيد ومعاوية وعتبة وعنبسة وحنظلة ومحمداً، فمن أين جاء زياد؟ فبلغ الكلام زياداً، وقال له قائل: لو سددت عنك فم هذا الكلب! فأرسل إليه بمائتي دينار، فقال له رسول زياد: إنّ ابن عمّك زياداً الأمير قد أرسل إليك مائتي دينار لتنفقها، فقال: وصلته رحم، إي والله ابن عمّي حقّاً. ثمّ مرّ به زياد من الغد في موكبه، فوقف عليه، فسلم، وبكى أبو العريان، فقيل له: ما يبكيك؟ قال: عرفتُ صوت أبي سفيان في صوت زياد، فبلغ ذلك معاوية، فكتب إلى أبي العريان:

ما ألبثتك الدنانير التي بُعِثت
أنّ لوّنتك أبا العريان ألوانا
أمسى إليك زياد في أرومته
نُكراً فأصبح ما أنكرت عرفانا

(١) البلاذري، أنساب الأشراف: ٢٤٦/٥.

(٢) لم أعثر على ترجمة له.

(٣) الجلبة: الضجة ورفع الصوت. ابن منظور، لسان العرب: ٢٦٩/١؛ الزبيدي، تاج العروس: ٣٧٠/١.

لله دُرُّ زيادٍ لو تعجَّلَها كانت له دونَ ما يخشاهُ قُرَبانا
فلَمَّا قرأ أبو العريان كتابَ معاوية، قال: أكتب جوابَه يا غلام:
أَحْدِثْ لَنَا صِلَةً تَحْيَا النُّفُوسَ بِهَا قد كدَتْ يا ابنَ أبي سفيانَ تنسانا
أَمَّا زيادٌ فقد صَحَّحتَ مَناسِبَهُ عندي فلا أَبْتَغِي في الحَقِّ بُهتاناً
مَنْ يُسَدِّ خيراً يُصِبه حينَ يَفْعَلُهُ أو يُسَدِّ شراً يُصِبه حيثما كانا^(١).

وعلى هذا، لم يكن زياد بن أبيه بعيداً عن استخدام الأموال في سياسته، بل عرف كيف يستخدمها ليسدَّ الثَّغرات التي قد يصادفها من بعض الأشخاص، فيتحوَّلون إلى نصرته ومعاونته حالما يتلقَّون الأموال، فكانت السَّياسة الماليَّة للأُمويِّين حاضرة في البصرة.

وبعد هذا النجاح الذي حقَّقه زياد بن أبيه في البصرة، عمل على تنظيم قبائلها إداريًّا من جديد، فأعاد تنظيم المدينة إلى خمس وحدات إداريَّة، تسمَّى كلُّ منها خمساً^(٢)، يشتمل كلُّ واحد منها على عدد من العشائر، ويرأسه رئيس له سلطات واسعة^(٣)، والغاية من وراء هذا التقسيم؛ جعل تلك الأُخماس عسكريَّة^(٤)، ولتسهيل السَّيطرة عليها، ومعرفة قدراتها القتاليَّة عن طريق أسمائها في سجل العطاء، الذي يُشرف على إعطيات القبائل العربيَّة بالبصرة، وكذلك رغبة زياد في

(١) الثَّقَفِيُّ، الغارات: ٩٣٢/٢؛ ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة: ١٦/١٨٧-١٨٨؛ عبَّاس القمي، الكنى والألقاب: ٣٠٢/١.

(٢) يُنظر: صالح أحمد العلي، التنظيمات الاجتماعيَّة والاقتصاديَّة في البصرة: ص ٥٣؛ وللمؤلَّف نفسه: خطط البصرة: ص ٥١.

(٣) صالح أحمد العلي، خطط البصرة: ص ٥١.

(٤) صالح أحمد العلي، التنظيمات الاجتماعيَّة والاقتصاديَّة في البصرة: ص ٥٣.

إيجاد نوع من التوازن بين العشائر، وعدم ازدحامها ببعض المناطق^(١). ويرى أحد الباحثين أنّ هذا التقسيم يهدف إلى تسهيل توزيع العطاء على أفراد القبائل من خلال رؤسائهم^(٢)؛ لكننا لم نجد نصوصاً تاريخية تعرض لنا صعوبة توزيع العطاء على أفراد القبائل! بل على العكس من ذلك، نجد أنّ زياد بن أبيه كان قد عمل على تفريق تلك الأعداد المتزايدة في البصرة إلى مناطق أخرى؛ إذ نفى خمساً وعشرين ألفاً إلى خراسان، ونفى مثل هذا العدد من أهل الكوفة إلى خراسان أيضاً^(٣)، ونفى عدداً من أزد البصرة إلى مصر^(٤).

ويُنظر إلى عملية التهجير هذه على أساس أنّها من باب تصفية الحسابات مع العناصر الشيعة المعارضة للسلطة الأموية، وكذلك كانت من باب تخفيف حدة التوتر السياسي في البصرة والكوفة، والرغبة في إبعاد العناصر المثيرة للقلق وفق تشخيص السلطة منها بعيداً عن العراق وعن مركز الدولة في دمشق.

وقد تجلّى الإجراء المتقدم في تهجير جماعات قبلية عرفوا بولائهم للعلويين، ولكن نفي هذا العدد الضخم من الشيعة كان عاملاً قوياً في نشر حركة التشيع في خراسان، وفي تهيئة الوضع بعد ذلك للانقلاب العباسي الذي اعتمد أكثر ما اعتمد فيه على الشيعة من أهل خراسان^(٥).

(١) يُنظر تفاصيل أوفى عن الأخاس وتوزيعها: صالح أحمد العلي، خطط البصرة: ص ٤٩، وما بعدها؛ وللمؤلف نفسه: التنظيمات الاجتماعية والاقتصادية في البصرة: ص ٥٠-٥٤.

(٢) جاسم صكبان عليّ، موسوعة البصرة الحضارية/ القسم التاريخي، البصرة في العهد الأموي: ص ١٨.

(٣) الطبري، تاريخ: ٤ / ١٧٠.

(٤) ياقوت الحموي، معجم البلدان: ١ / ٤٥١.

(٥) جابر رزاق غازي، سياسة النفي والتهجير في الدولة العربية الإسلامية: ص ١٤٠-١٤١.

ولا ننسى هنا أنَّ زياداً قد اتَّبَعَ سياسةَ معاوية في التجويع والمضايقة السَّياسِيَّةَ للفئات الشَّيعِيَّة؛ إذ كتب إلى جميع عماله: «أنظروا مَنْ قامت عليه البِئنةُ أَنَّهُ يَحِبُّ عَلِيّاً وأهل بيته، فأحوه من الدَّيوان، وأسقطوا عطاءه ورزقه»^(١).

وعلى هذا الأساس، نجد مسألةَ تفريق تلك الأعداد قد جاءت من أجل القضاء على القوَّة العسكِرِيَّة لتلك القبائل، باعتبار أنَّ وجودها كان مبعث إرباكٍ للوضع السَّياسِي الذي يرغب زياد بن أبيه في إيجاده بالبصرة، خاصَّةً بعد ظهور الخوارج المعارضين لسلطته فيها^(٢)، وبعد مقتل رئيس قوَّاته التي أوجدها للحالات الطارئة عند قيام الأزمات السَّياسِيَّة، والأوضاع التي تصبُّ في غير صالحه.

لقد أدَّى ظهور هذه الأحداث المقلقة في البصرة، بعد تلك الشَّدة التي استخدمها زياد بن أبيه، إلى بحثه عن مخرج آخر؛ لأنَّ سياسته تلك بمرور الزمن سوف تفشل، لذلك، اتَّجَّه إلى إضعاف قوَّة القبائل في البصرة؛ خشيةً من التكتلات القبليَّة والعصبيَّة والجاهليَّة التي يُلزم بها أفراد القبائل، فعمل على استغلال أهل البصرة في أعمال الفتوح، واستغلَّهم زياد لتثبيت سلطانه على تلك البقاع التي نزلوها، ليتخلَّص من قوَّتهم ومن ثوراتهم، في إبعادهم عن مصرهم^(٣).

ثمَّ عمل زياد على زرع نوع من الحقد والكراهية بين أهل البصرة، من أجل إدخالهم في نزاعات خلافيَّة عقائديَّة، ليتعدوا عن خلق الأزمات ضدَّ الوالي،

(١) سُليم بن قيس، كتاب سُليم: ص ٣١٨؛ ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة: ٤٥ / ١١؛ الحسن بن سليمان بن الحليّ، مختصر البصائر: ص ١٤؛ المجلسي، بحار الأنوار: ١٨١ / ٣٣.
(٢) الطبري، تاريخ: ١٧٢ / ٤؛ ويُنظر: هاشم داخل، عقوبة النفي في الدَّولة العربيَّة الإسلاميَّة: ص ١٠٧.

(٣) ثابت إسماعيل الراوي، العراق في العصر الأمويّ: ص ٩٩.

وليلزموا مساجدهم ومجالسهم.

وفي هذا الإطار، عمل زياد على بناء مساجد للموالين والمؤيدين لبني أمية في البصرة، لتكون أبواباً إعلامية تدعو لهم، وتُشيع أفكارهم، لتطغى على المجتمع البصري، فينشأوا عليها مع مرور الزمن، ولتثبيت سلطانهم، وكذا تكون موجات مواجهة ضد المناوئين والرافضين لتسلط بني أمية على رقاب الناس؛ إذ ذكر أنه: «بنى زياد مساجد لشيعه بني أمية ومن يُبغض علياً، فمنها: مسجد بني عدي، ومسجد بني مجاشع، ومسجد الأساورة، ومسجد الحدان، وكان لا يدع أحداً يبني بقرب مسجد الجماعة مسجداً»^(١).

على الرغم من كل هذه الإجراءات التي اتبعتها زياد من أجل إضعاف قوة القبائل بالبصرة وتشتيت أمرها، إلا أنه لم يتمكن من أن يضع حداً لتلك القوة، بل ظلت القبائل تتمتع بقوتها من أجل حماية حقوقها من النهب وسطوة الوالي، وهناك رواية تحدّد لنا طبيعة تلك القوة التي يتمتع بها أفراد القبائل عند الحاجة؛ فقد ذكر أن زياد بن أبيه حمل مالاً من البصرة إلى معاوية، ففزعت تميم والأزد وربيعة إلى مالك بن مسمع، وكانت ربيعة مجتمعة عليه، واستغاثوا به، وقالوا: يحمل المال ونبقى بلا عطاء، فركب مالك بن مسمع، واجتمع الناس إليه، فلحق بالمال فردّه، وضرب فسطاطاً بالمربد، وأنفق المال في الناس حتى وفاهم عطاءهم، ثم قال: إن شئتم الآن أن تحملوا، فاحملوا، فما راجعه زياد في ذلك بحرف^(٢).

ويبدو أن سكوت زياد كان ناتجاً عن الظروف التي آلت إليها البصرة في تلك

(١) البلاذري، أنساب الأشراف: ٢٣٩/٥؛ ويُنظر: الثقفى، الغارات: ٥٥٨/٢؛ ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة: ٩٥/٤.

(٢) أبو الفرج الأصفهاني، الأغاني: ٤٩٨/٢٢.

اللَّحظة، فالأمر حتم عليه التزام السَّكينة والتَّريث أمام البصريين الذين كانوا في ذروة الغضب، فعمل على امتصاص تلك النقمة وإرضاء النفوس؛ لأنَّ خلاف ذلك كان سيؤدِّي حتماً إلى الصَّدَام بين الوالي وأهل البصرة، فيكون الأمر في غير صالح الوالي، ناهيك عن احتمال نشوب الحرب بين السُّلطة والقبائل، وهذا ما جعل زياداً يكفَّ عنهم بالسَّكوت، وفي ذلك يقول الشاعر:

إذا ما خشينا من أمير ظلامَةٍ دعونا بأغسَّان يوماً فعسكرا

ترى النَّاسَ أفواجا إلى باب داره إذا شاء جاء وادار عين وحسرا^(١).

لكنَّ أهل البصرة لم يسلموا من زياد بن أبيه جرَّاء هذا الموقف الذي اتخذوه ضده، فما إن ولَّاه معاوية العراقيين (البصرة والكوفة)، حتَّى أصبح يُقيم في البصرة ستَّة أشهر وفي الكوفة مثل هذه الفترة، وفي الفترة التي كان يغيب فيها عن البصرة كان يترك لنيابته في منصبه سمرة بن جندب^(٢) ليقوم بأعماله في البصرة^(٣)، وكان ذلك سنة (٥٠هـ / ٦٧٠م)^(٤).

- جرائم سمرة بن جندب في حق البصريين

وكان زياد بن أبيه قد أوصى سمرة بن جندب بأن يجرِّد السَّيف في أهل البصرة^(٥)، فكان إنذار ابن جندب لأهل البصرة حال دخولها، إذ يروى أنَّه: «أقبل

(١) أبو الفرج الأصفهاني، الأغاني: ٢٢ / ٤٩٨؛ ويُنظر: الطبري، تاريخ: ٥ / ٥٨٠.

(٢) عن سمرة بن جندب، يُنظر: ابن سعد، الطبقات الكبرى: ٦ / ٣٤؛ خليفة بن خياط، طبقات: ص ٩٧؛ ابن عبد البر، الاستيعاب: ٢ / ٦٥٣؛ ابن حجر، الإصابة: ٣ / ١٥٠.

(٣) الطبري، تاريخ: ٤ / ١٧٤.

(٤) الطبري، تاريخ: ٤ / ١٧٤.

(٥) البلاذري، أنساب الأشراف: ٥ / ٢١٩.

سمرة من المريد، فخرج رجل من الأزقة فتلقى الخيل، فحمل عليه رجل من القوم فأوجره^(١) الحربة، ثم مضت الخيل، ومَرَّ به سمرة وهو يتشحط^(٢) في دماؤه، فقال: ما هذا؟ فقليل: رجل أصابته أوائل خيل الأمير، فقال: إذا سمعتم بنا قد ركبنا، فأتقوا أَسْتَنَّا^(٣).

وبهذا، يكون هذا الشخص الإنذار الأول لجميع أهلها، حتى يكون عبرة لهم من أجل الابتعاد عن الأعمال التي تُسيء إلى الوالي وسلطة الدولة. وعن ابن سيرين، قال: «وَهَلْ يُحْصَى مَنْ قَتَلَ سَمْرَةَ بْنَ جَنْدَبٍ؟! استخلفه زياد على البصرة وأتى الكوفة، فجاء وقد قتل ثمانية آلاف من الناس، فقال له [زياد]: هل تخاف أن تكون قد قتلت أحداً بريئاً؟! قال: لو قتلتُ إليهم مثلهم، ما خشيت!«^(٤).

لقد كان سمرة بن جندب يقتل أعداداً كبيرة من أهل البصرة، ويلحق بهم أنواع العذاب والمآسي، دون أن يخشى الله ﷻ أو أي شيء آخر، كأنه كان يتسلل بقتل المسلمين من أهل البصرة، دون مبرر لقتلهم. يروى أن رجلاً أعطى زكاة ماله، ثم صلى ركعتين، فأمر به سمرة، فقتل، فقال

(١) أَوْجَرَهُ: طعنه بالرَّمح في صدره. الزبيدي، تاج العروس: ٥٨٥ / ٧.

(٢) يَتَشَحَّطُ: الشَّحَطُ الاضطراب بالدم، أي: يتخبط فيه ويضطرب ويتمرغ. ابن منظور، لسان العرب: ٣٢٧ / ٧.

(٣) البلاذري، أنساب الأشراف: ٥ / ٢٢٠؛ الطبري، تاريخ: ١٧٦ / ٤.

(٤) الفضل بن شاذان، الإيضاح: ص ٥٤٣؛ الطبري، تاريخ: ١٧٦ / ٤؛ ويُنظر: محمد بن عقيل، النصائح الكافية: ص ٧٧؛ سعد أيوب، معالم الفتن: ٢ / ٢١٩-٢٢٠؛ جواد الخليلي، شرح القصيدة الرائية: ص ٤٣٠؛ فارس حسون كريم، الرّوض النضير في معنى حديث الغدير: ص ٢٧٩.

أبو بكرة الثَّقَفِيُّ أخو زياد بن أبيه لأُمِّه: «ما شأن هذا؟ فأخبروه، فقال: ويلك، لم قتلَ رجلاً عند أحسن عمله؟! فقال: هذا عمل أخيك زياد، هو يأمرني بهذا، فقال: أنت وأخي في النَّار، أنت وأخي في النَّار»^(١)، ثم تلا أبو بكرة قوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى * وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى﴾^(٢).

وعن أبي السَّوار العدوي^(٣)، قال: «قتل سمرة من قومي في غداة سبعة وأربعين رجلاً قد جمع القرآن»^(٤).

لقد قتل سمرة بن جندب خلال الفترة التي قضاهَا في البصرة نائباً لزياد ثمانية آلاف وأكثر من البصريين^(٥)، وهذا العدد يجعلنا أمام وضع آخر في البصرة، عكس أيام زياد بن أبيه، الذي قتل في ليلته الأولى بالبصرة عدداً يفوق ألفاً وأربعمائة رجل^(٦)، وهذه الأرقام قد يكون فيها نوع من المبالغة، ولكنها تشير إلى كثرة القتلى من أهل البصرة، ثم توقف عن إراقة الدماء، في حين أنَّ سمرة بن جندب قد أخذ

(١) البلاذري، أنساب الأشراف: ٢١٩ / ٥.

(٢) سورة الأعلى، الآيتان: (١٤-١٥).

(٣) أبو السوار العدوي: هو حسان بن حريث، من بني عدي بن زيد مناة بن أد بن طابخة ابن إلياس بن مضر، وكان ثقة يروي عن الإمام عليّ وعمران بن حصين وغيرهما. ابن سعد، الطبقات الكبرى: ١٥٠ / ٧؛ ابن الأثير، اللباب في تهذيب الأنساب: ٣٢٩ / ٢؛ الذهبي، سير أعلام النبلاء: ٣٥١ / ١١.

(٤) الطبري، تاريخ: ١٧٦ / ٤؛ ويُنظر: البلاذري، أنساب الأشراف: ٢٢٠ / ٥؛ محمد الشيرازي، الفرق الناجية: ٢٨٠ / ١.

(٥) الزبير بن بكار، الموفقيات: ص ٣٠٧-٣٠٨.

(٦) يُنظر: عبد الحسين شرف الدين، الفصول المهمة في تأليف الأمة: ص ١٣٥؛ علي الكوراني، جواهر التاريخ: ٣٠٥ / ٢.

شكلاً آخر في مجازره التي ارتكبها بحق البصريين، فعندما احتجّ الناس عليه بكثرة مَنْ قَتَلَ على الشبهة وبدون التحقيق والتقصي، كان يردّ عليهم بقوله: «وأيّ بأسٍ في ذلك؟! إن كان من أهل الجنة، مضى إلى الجنة، وإن كان من أهل النار، مضى إلى النار»^(١). فلم يكن يخشى عاقبة تلك الأعمال من القتل وسفك الدماء، بل ازداد في تجريد السيف، فقتل بشراً كثيراً^(٢).

لقد كان سبب هذه الإجراءات والشدة وسفك الدماء، السياسة الأموية المتبعة داخل مدينة البصرة، بهدف إخضاعها لسيادة الحكم القائم آنذاك. أمّا ردود أفعال أهل البصرة، فكانت عبارة عن ثورات أشخاص تمسكوا بمبادئهم من أجل الحق ومناهضة الظلم والاستبداد الذي لحقهم جرّاء تلك الإجراءات، فجعلهم المؤرّخون خوارج وحرورية^(٣)، قد كثر خروجهم في البصرة ضدّ الوالي زياد بن أبيه، الذي هدّد الناس بحرمانهم من أرزاقهم وأعطياتهم، إذا ما ساندوا أولئك المعارضين، فابتعد الناس عنهم^(٤)، فنجح زياد في الضغط على القبائل في البصرة عن طريق حرمانهم من العطاء إذا لم يساندوه في القضاء على الخوارج، فكان له ما أمر به، فعملت القبائل على التصدي للخوارج وملاحقتهم وإضعاف أمرهم.

ويبدو أنّ معارضة الخوارج في البصرة لم تكن تتبنّى شكلاً واحداً ضدّ الدولة

(١) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة: ٧٧ / ٤؛ محمّد الريشهري، موسوعة الإمام عليّ بن أبي طالب: ٣٢٤ / ١١.

(٢) الطبريّ، تاريخ: ١٧٧ / ٤.

(٣) الطبريّ، تاريخ: ١٧٧ / ٤.

(٤) الطبريّ، تاريخ: ١٧٧ / ٤.

الأمويَّة، بل هناك من خرج ضدها من أجل أمور لم تكن تتعلَّق بمصلحة المجتمع، بل من أجل قضايا التزم بها على حساب الأكثرية، كمسألة الدين والعبادة، والزَّهد، فكانت مسألة الخوارج من المسائل الشائكة في التاريخ الإسلامي، وسيأتي الحديث عنهم في الفصل الخامس من هذا الكتاب.

– سمرة بن جندب يعقب زياداً في ولاية البصرة

وفي سنة (٥٣هـ / ٦٧٢م) هلك زياد بن أبيه، وكان خليفته على البصرة سمرة ابن جندب، فأقره معاوية عليها لمدة ثمانية عشر شهراً^(١)، وليس لدينا معلومات وافية عن الفترة التي مرّت بها البصرة تحت حكم ابن جندب بعد هلاك زياد بن أبيه، ويبدو أنّ الهدوء والترقّب في المدينة قد دبّ إلى أهلها طول الفترة المذكورة، فكان ثابت الولاء لمعاوية، عازماً على تصفية خصومه، وخدمته وتحقيق رغباته في سطوته على عرش الدولة، فلمّا عزل معاوية سمرة بن جندب عن ولاية البصرة، قال سمرة: «لعن الله معاوية، والله، لو أطعْتُ الله كما أطعْتُ معاوية، ما عدّني أبداً»^(٢). فهو كان يقتل الذي يقول: «أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له،

(١) الطبري، تاريخ: ٢١٧/٤؛ أمّا ابن أعثم، فجعل ولاية ابن جندب ثمانية أشهر فقط. الفتوح: ٣١٧/٤. لكنّ فترة الثمانية عشر شهراً هي الأصحّ؛ باعتبار أنّ زياد بن أبيه توفّي سنة ٥٣هـ، وسمرة بن جندب تولّى بعده إمارة البصرة فترة ثمانية عشر شهراً، ومن بعده تولّى عبد الله ابن عمرو بن غيلان لمدة ستّة أشهر، وعزله سنة ٥٥هـ، ثمّ ولى معاوية عبيد الله بن زياد البصرة، فالفترة بين هلاك زياد بن أبيه وولايته ابنه ستين تنطبق على فترة ابن جندب وعمرو ابن غيلان.

(٢) الفضل بن شاذان، الإيضاح: ص ٥٤٣؛ الطبري، تاريخ: ٢١٧/٤؛ ابن كثير، البداية والنهاية: ٧٣/٨؛ الأميني، الغدير: ٣٠/١١.

وأنَّ محمدًا عبده ورسوله»^(١)، فيقدّمه ويضرب عنقه، رغبة منه في كسب رضا سيّده معاوية!

ولم يذكر لنا المؤرّخون سبب عزل سمرة بن جندب عن البصرة، ويقال: إنّ السّبب كان يعود إلى طلب أهل البصرة من معاوية عزله عنهم^(٢)، وبالإضافة إلى هذا، فإنّ سبب إعفائه من ولاية البصرة هو «أنّ سمرة بن جندب وضع نفسه في طاعة معاوية وتثبيت عرشه، حتّى إذا وصل إلى مبتغاه واستقرّ في الحكم، واستنفذ من سمرة ما أراد، لفّظه، وعزّله عن الحكم، ولم يعبأ به بعد أن أصبح اسمه مقروناً بكلّ سائنة في عهد معاوية»^(٣).

ومّا هو جدير بالذكر، أنّ معاوية يهتمّ بتقريب أمثال سمرة وزياد بن أبيه وعمرو ابن العاص، الذين يشعرون بالنقص لعقدة في نفوسهم، فيحاولون أن يخفوها عن الناس بهذا اللون من السلوك اللاّ إنسانيّ، وقد نقم عمر بن الخطّاب على سمرة بن جندب حين سمع أنّه يبيع الخمر بعد أن حرّمها الإسلام، فقال: «قاتل الله سمرة، إنّ رسول الله ﷺ قال: لعن الله اليهود؛ حرّمت عليهم الشّحوم، فباعوها»^(٤). والعرب تقول: الطيور على أشكالها تقع؛ فإنّ سجّاح التميّمة لما فشلت نبوّتها، فأسلمت، أسكنها معاوية البصرة، وتوفّيت فيها، فصلّى عليها

(١) الطبريّ، تاريخ: ٢١٧/٤.

(٢) ابن أعثم، الفتوح: ٣١٧/٤.

(٣) د. محمّد بحر العلوم، لمحات من الصراع السّياسي في الإسلام: ٢٨٦/١.

(٤) أحمد بن حنبل، الصّحيح: ٢٥/١؛ مسلم، الصّحيح: ٤١/٥؛ ابن ماجّة، السّنن:

سمرة بن جندب والي البصرة حينئذٍ^(١).

- عبد الله بن عمرو بن غيلان والياً على البصرة

ثم ولى معاوية إمارة البصرة عبد الله بن عمرو بن غيلان، وتكاد تكون معلوماتنا عن هذا الأخير محصورة جداً؛ فقد ذكر أنه كان من كبار رجال معاوية^(٢) ومعاونه في حروبه^(٣)، والبعض جعله مجهولاً^(٤)، وكأن شهرته قد جاءت عن طريق ولايته للبصرة لمدة قصيرة قدّرت بستّة أشهر^(٥).

وكذا يبدو أنه كان غير ذي حنكة في إدارة المصر، الذي لم يشهد الهدوء إلا لفترات الولاية ذوي النزعة الدّمويّة، كسمرة بن جندب، وفي سنة (٥٥٥هـ / ٦٦٧م)، عزله معاوية عن البصرة، وكان سبب عزله برواية الطبري، أنه خطب على منبر البصرة، فحصبه رجل من بني ضبة يدعى جبير بن الضحّاك^(٦) أحد بني ضرار، فأمر به، فُقطعت يده، فقال:

السَّمْعُ والطَّاعَةُ والتَّسْلِيمُ خَيْرٌ وَأَعْفَى لِبَنِي تَيْمٍ^(٧).

فأنته بنو ضبة، فقالوا: إنّ صاحبنا جنى على نفسه، وقد بالغ الأمير في عقوبته،

(١) الطبري، تاريخ: ٣/ ٢٣٦؛ ابن حزم، جهرة أنساب العرب: ص ٢١٥؛ المقرئ، إمتاع الأسماع: ١٤/ ٢٤٢.

(٢) ابن عبد البر، الاستيعاب: ٣/ ١١٩٨.

(٣) ابن حجر، الإصابة: ٤/ ٥٥٤.

(٤) ابن حجر، لسان الميزان: ٣/ ٣٢٢.

(٥) خليفة بن خياط، تاريخ: ص ١٦٩؛ الطبري، تاريخ: ٤/ ٢١٩؛ ابن عبد البر، الاستيعاب:

٣/ ١١٩٨؛ ابن عساكر، تاريخ دمشق: ٣١/ ٢٩٩.

(٦) لم أعر على ترجمة له.

(٧) الطبري، تاريخ: ٤/ ٢٢٢؛ وللمؤلف نفسه: جامع البيان: ١/ ٩٥٣.

ونحن لا نأمن أن يبلغ خبره أمير المؤمنين فيأتي من قبله عقوبة تخص أو تعم، فإن رأى الأمير أن يكتب لنا كتاباً يخرج به أحدنا إلى أمير المؤمنين يُخبره أنه قطعه على شبهة، وأمر لم يتّضح! فكتب لهم بعد ذلك إلى معاوية، فأمسكوا الكتاب حتى بلغ رأس السنة، فقالوا: يا أمير المؤمنين، إنه قطع صاحبنا ظلماً، وهذا كتابه إليك، فقرأ الكتاب، فقال: أما القادة من عمالي، فلا يصحّ ولا سبيل إليه، فعزله عنهم^(١).

وعلى هذا، فقد كان سبب العزل ناتجاً عن احتيال الضبيّين ضدّ والي البصرة، الذي أصبح ضحية أخطائه التي ارتكبها بتزويد أهل البصرة بكتاب يشهد فيه على نفسه، دون أن يفكر بمصيره عندما يكون الكتاب بين يدي معاوية، وبحضرته أهل البصرة، الذين حاكوا ثوب التهمة وألبسوها لواليتهم عبد الله بن غيلان من أجل التخلص منه، والنجاة من عقوبة معاوية في الوقت نفسه، حال سماعه خبر ما يصنعه أهل البصرة مع واليه عليهم.

ويبدو أنّ هذه الإجراءات التي اتّبعها أهل البصرة كانت تهدف إلى إضعاف أمر الولاية عليهم أمام معاوية، الذي عمل على إرضاء رغباتهم؛ خوفاً من عاقبة الأمور في البصرة، فصحّح أخطاء واليه، وهنا يكمن ضعف معاوية؛ لأنّه لم يحقّق في هذه الحادثة، بل اكتفى بشهادة أهل البصرة عندما حضروا بين يديه، وحمل الوالي خطأ أفعاله، فعزله عن البصرة، ثمّ دفع دية الضبيّ من بيت المال، ثمّ خيرهم في اختيار الوالي الذي يروونه مناسباً لإدارة مدينتهم^(٢).

ولعلّ أهل البصرة كانوا يرغبون بعودة عبد الله بن عامر على ولايتهم، وعلم

(١) الطبري، تاريخ: ٢٢٣/٤؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ٩٥/٣؛ ابن كثير، البداية والنهاية: ٧٧/٨؛ ابن خلدون، تاريخ: ١٥/٣.

(٢) الطبري، تاريخ: ٢٢٣/٤؛ ابن كثير، البداية والنهاية: ٧٧/٨.

معاوية بذلك، وقال لهم: «هل لكم في ابن عامر، فهو مَنْ قد عرفتم في شرفه، وعفافه وطهارته؟ قالوا: أمير المؤمنين أعلم»^(١).

وكأنَّ معاوية أراد بذلك أن يتعاطف بعض الشيء مع أهل البصرة بشأنه، لا سيَّما وأنَّ ابن عامر قد فشل في إدارة المدينة عندما تولَّاهَا في بداية حكم معاوية، فإذا ما تولَّاهَا من جديد، فإنَّه سوف يفسد ما أصلحه أسلافه من الولاة، وهذا ما جعله يركِّز على عبيد الله بن زياد لتولِّي أمر البصرة، خاصَّةً أنَّه يتمتَّع بصفات مؤهَّلة لإدارتها والسيطرة عليها، ثمَّ إنَّه هو الذي أرغم أهل البصرة على إطاعة السَُّلْطة وعدم التظاهر ضدها أيام معاوية، فيكون معاوية وجد ضالَّته في رجال ثقيف الذين يتمتَّعون بالمكر والدَّهاء، فسَلَّطهم على البصرة.

- ولاية عبيد الله بن زياد على البصرة

أمَّا ولاية عبيد الله بن زياد على البصرة (٥٥/٦٧هـ - ٦٧٤/٦٨٦م)، فكانت زمن معاوية ذات استقرار نسبيٍّ، دون أن يكون هناك معارضة قويَّة تُقلق السَُّلْطة المركزيَّة في دمشق، أمَّا فترة ما بعد وفاة معاوية ووصول يزيد بن معاوية لحكم الدولة، فتُعَدُّ من أشدَّ الفترات الحرجة التي مرَّت بها الدَّولة الأمويَّة؛ إذ واجهتها ثورة الإمام الحسين (عليه السلام)، التي اشترك فيها بعض البصريين على الرُّغم من إجراءات عبيد الله بن زياد، لمنع هؤلاء من الخروج من مدينتهم لالتحاق بصنفوف تلك النهضة، التي جسَّدت كلَّ مبادئ التحدي للقهر والحرمان والظلم والاستبداد، وسوف نتحدَّث عن موقف أهل البصرة من هذه النهضة في الفصل الرابع من هذه الدِّراسة.

وكذا تعرّضت البصرة لفتنة وقعت بين القبائل العربيّة التي تقطنها، ووقع القتال فيما بينها، فاضطربت الحياة السياسيّة فيها، وكان سبب ذلك الاضطراب هو عبيد الله بن زياد الذي حاول الاستقلال بالبصرة عن حكم الدولة الأمويّة وسيأتي الحديث عنها فيما بعد.

وأما بالنسبة إلى ولايته أيام معاوية على البصرة، فإنّ عبيد الله كان مثل أبيه، تخشى القبائل الوقوف ضده؛ إذ ورد بعض الأخبار عن استجارة يزيد بن مفرغ العبديّ^(١) بالأحنف بن قيس من ملاحقة عبيد الله بن زياد، فكان ردّ الأحنف: «إني لا أجير على ابن سمية»^(٢). وهذا يعني أنّ رؤساء القبائل كانوا يخشون من بطش عبيد الله، كما كان يفعل أبوه في ولايته على البصرة أيام معاوية، فكبار البصرة لم يكونوا يرغبون في أن يكونوا طعماً سهلاً لجلاوزة عبيد الله بن زياد، فتجنّبوا الاصطدام به؛ كي يحافظوا على نفوذهم تجاه الوالي والسلطة الأمويّة، بالإضافة إلى استقرار أوضاعهم داخل البصرة.

أما سبب ملاحقة عبيد الله ليزيد بن مفرغ، فقد كان الأخير مع عباد بن زياد

(١) يزيد بن مفرغ العبديّ: أبو عثمان بن زياد بن ربيعة الحميريّ، وإنّا لقّب جدّه مفرغاً؛ لأنّه راهن على سقاء من لبن ليشربه كلّ، فشربه حتّى فرغ، فسمّي مفرغاً، وذكر أنّه كان شعباً بنبالة قرية بالحجاز ممّا يلي اليمن، وكان يزيد شاعراً غزلاً محسنّاً. ابن خلّكان، وفيات الأعيان: ٣٤٢/٦؛ ويُنظر: ابن حزم، جمهرة أنساب العرب: ص ٤٣٦.

(٢) البلاذريّ، أنساب الأشراف: ٤٠٣/٥؛ ابن عساكر، تاريخ دمشق: ١٧٩/٦٥؛ ابن خلّكان، وفيات الأعيان: ٣٤٩/٦.

أخي عبيد الله^(١) بسجستان^(٢)، فأشغل عباد بحرب التَّرك في تلك البلاد من نواحي بلاد فارس، فاستبطأه ابن مفرَّغ، وأصاب الجند الذين كانوا مع عباد ضيق في علوفات دوابهم، فقال ابن مفرَّغ:

أَلَا لَيْتَ اللَّحَى كَانَتْ حَشِيشًا فنعلفها خِيُولَ الْمُسْلِمِينَ^(٣).

وكان عباد بن زياد عظيم اللِّحية، فقليل له: ما أراد غيرك، فطلب ابن مفرَّغ، فهرب منه وهجاه بقصائد، وكان ممَّا هجاه به قوله:

إِذَا أَوَى مُعَاوِيَةُ بْنُ حَرْبٍ فَبَشَّرَ شَعْبَ رَحْلِكَ بِانْصِدَاعٍ
فَأَشْهَدُ أَنَّ أُمَّكَ لَمْ تَبَاشِرْ أَبَا سَفْيَانَ وَاضْعَةَ الْقِنَاعِ
وَلَكِنْ كَانَ أَمْرًا فِيهِ لَبْسٌ عَلَى وَجَلٍ شَدِيدٍ وَارْتِيَاعٍ^(٤).

فكتب عباد إلى أخيه عبيد الله بن زياد وهو بالشَّام عند معاوية، فاستأذن عبيد الله معاوية بشأن ابن مفرَّغ في القتل، فلم يوافقهُ معاوية، وأمره بتأديبه^(٥). فلما قدم ابن مفرَّغ البصرة، استجار بالأحنف وغيره من الرؤساء، فلم يُجره أحد، فأجاره المنذر بن الجارود، وأدخله بيته، وعندما عرف عبيد الله بمكان ابن مفرَّغ، أرسل

(١) هو عباد بن زياد بن أبيه، أخو عبيد الله بن زياد، يكنى أبا حرب، ولَّاه معاوية سجستان سنة (٥٣هـ)، وكانت وفاته سنة (١٠٠هـ). ابن حجر، تهذيب التهذيب: ٨١ / ٥.

(٢) سجستان: وهي ناحية كبيرة وولاية واسعة من بلدان المشرق المعروفة، أرضها كلّها رملة سبخة، والرياح فيها لا تسكن أبداً. ياقوت الحموي، معجم البلدان: ١٩٠ / ٣.

(٣) ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ١١٤ / ٣؛ ابن خلّكان، وفيات الأعيان: ٣٤٤ / ٦؛ الصّفي، الوافي بالوفيات: ٢٨ / ٢٢؛ ابن كثير، البداية والنهاية: ٨ / ١٠٢؛ البغدادي، خزنة الأدب: ٣٠١ / ٤.

(٤) الطبري، تاريخ: ٤ / ٢٣٥؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ٣ / ١١٤.

(٥) الطبري، تاريخ: ٤ / ٢٣٥؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ٣ / ١١٥.

شرطته إلى دار المنذر، وكان المنذر متواجداً بقصر عبيد الله في تلك اللحظة، فلما رأى ابن مفرغ في قبضة الشرطة، طلب من عبيد الله أن يتركه؛ لأنّه قد استجار به، فلم يُعط عبيد الله أذناً صاغية لطلب المنذر بن الجارود، الذي التزم السكوت خوفاً من فتك الوالي، الذي عاقب ابن مفرغ بحمله على حمارٍ والطواف به في الأزقة والأسواق، والناس تتفرّج عليه^(١)، ثمّ سيّره عبيد الله إلى أخيه عباد بسجستان، فكلمت البيانية بالشام معاوية بشأن ابن مفرغ، فقدم على معاوية، وعفا عنه^(٢).

وبذلك، نجد معاوية قد استخدم طريقة أخرى من دهائه في هذا الأمر، فنجده يتمكن في الأخير من الاستفادة من إنزال جميع الأطراف على حكمه، دون أن يشعروا بما دبّر من مكيدة، فهو من يأمر بتعذيب الآخرين ومعاقتهم، ويطلق العنان للولاة الذين أصبحوا هم السلاح الفعليّ له، فإذا ما حقق رغبته في العقوبة التي يأمر بها ولاته، نجده يُصدر حكماً آخر بحقّ المعاقبين، فيكون قد كسب رضا أولئك الذين تعرّضوا للعقوبة من قبل واليه وبأمره، دون أن يشعروا بما يحكيه معاوية.

ثالثاً: البصرة وولاية العهد ليزيد

تعدّ ولاية العهد من محدثات معاوية بن أبي سفيان، الذي فكّر في أن يجعل أمر الحكم ملكيّاً في الأسرة الأمويّة، وحصر هذا المنصب بابنه يزيد، الذي كان بعيداً كلّ البعد عن مؤهّلات القيادة وولاية العهد، وكان معاوية عارفاً بذلك الأمر،

(١) البلاذريّ، أنساب الأشراف: ٥/ ٤٠٢؛ ابن عساكر، تاريخ دمشق: ٦٥/ ١٧٩؛ الذهبيّ، سير أعلام النبلاء: ٣/ ٥٢٢.

(٢) الطبريّ، تاريخ: ٤/ ٢٣٦؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ٣/ ١١٦.

وعالمًا بأنَّ النَّاسَ تنظر من بعده إلى أربعة شخصيَّاتٍ جديرة بتوليِّ الخلافة، وهم: (الحسين بن عليّ بن أبي طالب، وعبد الله بن عبَّاس، وعبد الله بن الزبير، وعبد الله بن عمر)، وبالأخصَّ الإمام الحسين بن عليّ عليه السلام؛ بوصفه يمثِّل بيت النبوة، فوجود هؤلاء شكَّل عقبةً كبيرةً أمام معاوية في طموحه بالنسبة إلى مسألة عهد أمر الحكم لابنه يزيد.

لم يجد معاوية بديلاً عن تنصيب ابنه؛ لأنَّ عدم تحقيق ذلك يعني ضياع كلِّ ما فعله منذُ أيَّام ولايته على الشَّام حدود سنة (١٨هـ / ٦٣٨م)، حتَّى وصل إلى عرش السُّلطة سنة (٤١هـ / ٦٦١م)، فهو قد عاصر جميع مراحل الصراع السَّيَاسِيّ المقنَّع والمكشوف حول الخلافة، منذ وفاة الرسول ﷺ وحتَّى عهده، الذي أقام صرحه بالقوَّة، وبالوسائل التي تصطدم تمام الاصطدام مع الأعراف السَّائدة في ذلك الوقت^(١).

لم يكن معاوية يرغب في ضياع السُّلطة من يد الأمويِّين، بالإضافة إلى حقد معاوية على البيت الهاشميِّ، الذي جرَّده طول فترة الرِّسول ﷺ والإمام عليّ عليه السلام من المناصب السَّيَاسِيَّة؛ لذلك، كانت نظرتَه إلى الهاشميِّين انتقاميَّة، فتولَّد الحقد والكرهية من جانب الأمويِّين عليهم، وعلى رأسهم معاوية.

وعلى أيِّ حال، فإنَّ معاوية لا يجهل حال ابنه يزيد، الذي اشتهر بكونه سَكِّيراً فاسقاً يلعب القمار، ويربِّي القردة والكلاب، ويلبسها أساور الذهب^(٢)، وكذا هو على معرفة بالمجتمع الإسلاميِّ وطبيعته في عدم تقبُّل البيعة وردِّها، وهو على

(١) فلهاوزن، تاريخ الدولة العربيَّة: ص ١٣٤.

(٢) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة: ٢٠ / ١٣٢؛ ابن كثير، البداية والنهاية: ٨ / ٢٣٩؛ المقرئزي، النزاع والتخاصم: ص ٥٦.

معرفة أيضاً بوجود كتل سياسيّة تتطلّع لكسب المعركة والاستيلاء على الحكم بعده عندما يعود الأمر شوري بين المسلمين في اختيار الأصلح للأمة^(١).

وتشير بعض الروايات التاريخيّة إلى أنّ الذي أثار أمر من يخلف معاوية في حكمه هو المغيرة بن شعبة، الذي كان والياً لمعاوية على الكوفة، فهو الذي قال لمعاوية: «أنا أخاف إن حدث بك حدث أن يقع الناس في مثل ما وقعوا فيه بعد قتل عثمان، فاجعل للناس بعدك علماً يفزعون إليه، واجعل ذلك يزيد ابنك»^(٢). وهذا يعكس لنا مدى قدرة معاوية على تنصيب ابنه رغماً على المسلمين، ودون أن يهّمه أمرهم، خاصّةً بوجود المغيرة بن شعبة على الكوفة وزباد بن أبيه على البصرة، وهذان المصران يحكمهما بقبضة حديدية يصعب كسرها؛ بصفة أنّهما -أي: البصرة والكوفة- أساس التحرك الثوري ضدّ الخلافة الأمويّة في تلك الأيام، لكنّ معاوية كان يخشى ردود الفعل التي قد تقع فيما بعد.

بعدما سرح معاوية المغيرة بن شعبة في دعوة أهل الكوفة إلى البيعة ليزيد، كتب إلى زياد بن أبيه بأن يعمل على أخذ البيعة ليزيد بولايته العهد من أهل البصرة^(٣). لكنّ زياداً لم يكن يرغب في إعلان أمر ولاية العهد هذا، لا سيّما وأنّ البصريين قد رفضوا أن يبايعوا لمعاوية نفسه عندما عقد الاتفاق مع الإمام الحسن (عليه السلام) في الكوفة، فكيف يتقبّلون الآن هذا الأمر لابنه؟

فكتب بذلك كتاباً إلى معاوية جاء فيه: «يا أمير المؤمنين، إنّ كتابك ورد عليّ

(١) أسد حيدر، مع الحسين في نهضته: ص ٤٧.

(٢) ابن قتيبة، الإمامة والسياسة: ١/ ١٨٧؛ أمّا الطبري، فقد ذكر أنّ المغيرة بن شعبة قد التقى بيزيد بن معاوية، وتكلّم معه بشأن خلف أبيه. تاريخ: ٤/ ٢٢٤.

(٣) ابن أعثم، الفتوح: ٤/ ٢٩٧؛ ويُنظر: الطبري، تاريخ: ٤/ ١٢٧.

بكذا، فما يقول الناس إذا دعوناهم إلى بيعة يزيد، وهو يلعب بالكلاب والقروء، ويلبس المصبَّغ، ويُدمن الشَّراب، ويمشي على الدفوف...؟!»^(١).

وكأنَّ زياداً بكلامه المتقدِّم وضع معاوية أمام الأمر الواقع والصَّحيح، ولا بدَّ من تحسين صورة يزيد أمام الناس رويداً رويداً؛ حتَّى يكون كفاءاً للحسين بن عليٍّ عليه السلام، وعبد الله بن عبَّاس، وعبد الله بن الزبير، وعبد الله بن عمر، «ولكن تأمره يتخلَّق بأخلاق هؤلاء حولاً وحولين، فعسينا أن نموّه على النَّاس»^(٢).

ووافق معاوية على رأي زياد في التودّد وعدم التعجيل بنشر هذه الرغبة حتَّى يكفَّ يزيد عن كثير ممَّا كان يصنع^(٣)، فكان زياد بن أبيه يعدُّ المشروع سابقاً لأوانه، وكانت حجّة حاكم البصرة في ما أشار به أن تياراً معارضاً على جانب من القوّة لا بدَّ أن يلجأ إلى العصيان والثورة المسلّحة تعبيراً عن رفضه لهذه الدّعوة^(٤).

وعلى هذا الأساس، عمل معاوية كعادته على استدراج كبار القبائل العربيّة وزعمائها بما فيهم كبار أهل البصرة، وعلى رأسهم الأحنف بن قيس التميميّ، الذي عمل معاوية من أجله جواً مناسباً لحضوره لدمشق، عند دعوته لرؤساء الأمصار إليها، من أجل التحضير لولاية عهد ابنه يزيد^(٥).

ولم يكن معاوية يخشى ردود أفعال زعماء القبائل ما عدا الأحنف بن قيس، الذي وصفه زياد بن أبيه لمعاوية بقوله: «إنَّ الأحنف قد بلغ من الشَّرَف والحلم

(١) اليعقوبيّ، تاريخ: ١٥٣/٢.

(٢) اليعقوبيّ، تاريخ: ١٥٣/٢.

(٣) الطبريّ، تاريخ: ٢٢٥/٤.

(٤) إبراهيم بيضون، ملامح التيارات السَّياسيّة: ص ١٥٩.

(٥) محمّد ماهر حماد، الوثائق السَّياسيّة والإداريّة العائدة للعصر الأمويّ: ص ١٣٢.

والسؤدد ما لا تنفعه الولاية ولا يضره العزل»^(١). بل أصبح موضع ثقة الناس جميعاً بمختلف طبقاتهم وأهوائهم وميولهم^(٢)، الأمر الذي أقلق معاوية كثيراً؛ خوفاً من أن تستغل هذه الشخصية ضده من قبل بعض الشخصيات التي كانت تترقب الفرصة للإطاحة بالأسرة الأموية.

وعندما كان الأحنف بن قيس في المجلس الذي عقده معاوية في الشام من أجل إعلان أمر ولاية العهد لابنه يزيد، طلب من الأحنف أن يتحدث، فقال الأحنف: «أصلح الله أمير المؤمنين، إن الناس قد أمسكوا في منكر زمانٍ قد سلف، ومعروف زمانٍ مؤتلف، ويزيد ابن أمير المؤمنين نعم الخلف، وقد حلبت الدهر أشطره»^(٣). يا أمير المؤمنين، فاعرف من تُسند إليه الأمر من بعدك، ثم اعصِ أمر من يأمرك، ولا يغرك من يُشير عليك، ولا ينظر لك، وأنت أنظر للجماعة، وأعلم باستقامة الطاعة، مع أن أهل الحجاز وأهل العراق لا يرضون بهذا، ولا يبايعون يزيد ما كان الحسن حياً»^(٤).

ويفهم من كلام الأحنف أن ذلك حصل قبل شهادة الإمام الحسن بن علي عليه السلام، أي: قبل سنة (٥٠هـ)، ويبدو أن أمر ولاية العهد كان أحد الأسباب التي جعلت معاوية يحتال في التخلص من أقوى منافسي ابنه في الحكم من بعده؛ لأن بقاءه

(١) ابن قتيبة، عيون الأخبار: ص ١٦٢.

(٢) يُنظر: محمد شيث خطاب، الأحنف بن قيس التميمي، مجلة المجمع العلمي العراقي، مج ١١، لسنة ١٩٦٤م: ص ٥٢، وما بعدها.

(٣) حلبت الدهر أشطره: مثل يقال للرجل المجرب الأمور، الذي قاسى الشدة والرخاء، وتصرف في الفقر والغنى. الميداني، مجمع الأمثال: ٢١٧/١.

(٤) ابن قتيبة، الإمامة والسياسة: ١٩١/١.

سوف يحول بين ابنه وبين منصب ولاية العهد ورغبة معاوية في أن يشاهد ابنه على عرش السُّلْطَة قبل وفاته، «فلم يكن شيء أثقل من أمر الحسن»^(١).

إنَّ معاوية لم ينسَ أَنَّهُ قد عقد اتِّفَاقِيَّةَ الصَّلَاحِ مع الإمام الحسن، الاتِّفَاقِيَّةَ التي جاء في أحد بنودها أَنَّ مَنْ يتولَّى الحُكُومَةَ في حالة هلاك معاوية هو الإمام الحسن إذا كان حيًّا، وأخوه الإمام الحسين (عليه السلام) إن كان ميتاً^(٢)، فالمسألة كانت أكثر حساسيَّة بين الهاشميَّين والأمويَّين، فعمل معاوية على التخلُّص من ثقل الهاشميَّين، فدسَّ السُّمَّ للإمام الحسن فقتله^(٣)؛ لأنَّ بقاءه يعني حسب ما صَّرح به الأحنف بن قيس في قوله المتقدِّم الذِّكْر أَنَّ أهل الحجاز وأهل العراق لن يبايعوا يزيد.

إنَّ الأمر السَّابِقَ يجرُّنا إلى الهدنة، فربَّما كان المسلمون في العراق على بَيِّنَةٍ من أمر الاتِّفَاقِ، ومن ثَمَّ هم يعرفون أَنَّ الأمر سوف يُصبح للإمام الحسن حالة هلاك معاوية، وهو الأصلح والأنسب لحكمهم.

والسَّوَال الذي يلزم أن نطرحه هنا، هو: لماذا لم يفعل معاوية مع الأحنف بن قيس الشيء نفسه، فيتخلَّص منه مثل ما فعل مع الإمام الحسن، دون كلِّ هذا العناء المبذول من أجل التحضير لأمر البيعة، وكسب ودِّه، وهو مَنْ قاد بني سعد من تميم البصرة للوقوف ضدَّ معاوية في معركة صفين؟! من تميم البصرة للوقوف ضدَّ معاوية في معركة صفين؟!

(١) أبو الفرج الأصفهانيّ، مقاتل الطالبين: ص ٤٨.

(٢) يُنظر، ابن الصَّبَّاح، الفصول المهمَّة: ٢ / ٧٢٩؛ راضي آل ياسين، صلح الحسن: ص ٢٥٩.

(٣) (أرسل معاوية إلى ابنة الأشعث زوجة الإمام الحسن: إنِّي مزوَّجك ببزيد ابني على أَن تسمِّي الحسن بن عليٍّ، وبعثَ إليها بمائة ألف درهم، فقبلتْ، وسمَّت الحسن، فسوَّغها معاوية المال، ولم يزوِّجها من ابنه، فخلف عليها رجل من آل طلحة، فأولدها، فكان إذا وقع بينهم وبين بطون قريش كلام، عيَّروهم، وقالوا: يا بني مُسَمَّه الأزواج). أبو الفرج الأصفهانيّ، مقاتل الطالبين: ص ٤٨.

الذي يبدو، هو أن معاوية كان يخشى قبيلة بني تميم التي تدين بالولاء المطلق لسيدها الأحنف، وتقف معه ضد أي شيء يتعرض له، ما يعني أنه سوف تكون نتائج المصادمة معه في غير مصلحة معاوية، ومن ثم، تخرج البصرة عن سيطرته، وربما تدخل في طاعة حزب سياسي آخر يعمل على الوصول إلى عرش الحكم، كيف لا والأحنف بن قيس كان يهدد ويتوعد معاوية؟!

لم يكن لمعاوية التصرف مع الأحنف بأسلوب آخر غير الترضية والجذب، حتى أنه كان يجيب دعوات البطش بالرجل بقوله: «هذا الذي إذا غضب، غضب لغضبه مائة ألف من بني تميم لا يدرون فيم غضب»^(١).

إن هذا أحد الأسباب التي كانت تمنع معاوية من التخلص من الأحنف، بالإضافة إلى أن الأحنف نفسه لم يكن ممن يريد الوصول إلى السلطة، المسألة الأهم في إثارة حفيظة معاوية، فلو كان الأحنف يرغب بالسلطة ويسعى لها، لما تردد معاوية ثانية في قتله.

– أهل البصرة والبيعة ليزيد بن معاوية

أما ما يرجع إلىبيعة أهل البصرة ليزيد بن معاوية، فليس لدينا روايات تاريخية تكشف لنا تلك الكيفية. والظاهر أن الأحنف بن قيس هو من مثل أهل البصرة في أمر البيعة التي جرت في بلاد الشام، فما كان من الأحنف، إلا أن قال لمعاوية: «أنت أعلمنا بليله ونهاره، وبسرّه وعلايته، فإن كنت تعلم أنه خير لك، فوله واستخلفه، وإن كنت تعلم أنه شر لك، فلا تزوده الدنيا وأنت صائر إلى الآخرة؛ فإنه ليس لك من الآخرة إلا ما طاب، واعلم أنه لا حجة لك عند الله إن قدمت

(١) ابن خلّكان، وفيات الأعيان: ٢/ ٥٠٠؛ الصفدي، الوافي بالوفيات: ١٦/ ٢٠٦.

يزيدَ على الحسن والحسين، وأنت تعلم مَنْ هما، وإلى ما هما»^(١)، ثم قال: إِنَّهَا عَلَيْنَا أَنْ نَقُولَ: ﴿سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾^(٢).

ويبدو أَنَّ الأحنف حاول أن يعظ معاوية ويذكِّره بعاقبته، كونه سوف يذهب عن هذه الدُّنيا، فعليه أن يختار مَنْ هو أولى بالأمر بعده، وليس عليه أن يتعاطف مع ابنه وتحقيق رغبته على حساب المسلمين، خاصَّةً بوجود الإمامين الحسن والحسين عليهما السلام، فهما أولى هذه الأُمَّة برعايتها وقيادتها، لكنَّ قوَّة معاوية ووسطوته على بلاد الإسلام جعلت المسلمين يقفون مكتوفي الأيدي، بل جعلت البعض يتقرَّب إلى معاوية لينال جائزته! فكانت الأمصار العربيَّة في حالة ترقُّب لما سيؤول الأمر إليه في الحجاز، التي تضمُّ أقوى الشخصيات وأقربها نسباً للرَّسول الأكرم صلَّى الله عليه وآله، سواء أَمِن ذرِّيَّته أم من أبناء الصَّحابة الباقيين، فهم أولى المسلمين بالاحتجاج بتلك المسألة، التي أصبحت تدور بين الشَّام والحجاز، على أساس الكفاءة والقدرة بين العناصر المتواجدة فيها، ولكنَّ معاوية تمكَّن بطرقه الخاصَّة من كسب ودِّ الحجازيِّين وبيعتهم^(٣)، فكان هذا الأمر كافياً في حسم الأمور لصالح يزيد في الأمصار العربيَّة الأخرى.

(١) ابن قتيبة، الإمامة والسَّياسة: ١/ ١٩٣-١٩٤.

(٢) سورة البقرة، آية (٢٨٥).

(٣) يُنظر: ابن قتيبة، الإمامة والسَّياسة: ١/ ٢٠٤-٢١١.

المبحث الثاني

أوضاع البصرة بعد هلاك يزيد بن معاوية

استخلف يزيد بن معاوية بعد أبيه في حكم الدولة العربية الإسلامية (٦١٠هـ/٦٧٦م - ٦٣هـ/٦٧٩م)، أي: بقي على عرش السّلطة سنتين وثمانية أشهر^(١). وكان واليه في هذه الفترة على البصرة عبيد الله بن زياد، الذي نصبه معاوية في أيامه سنة (٥٥هـ)، كما أسلفنا.

ليس لدينا معلومات عن سياسة يزيد بن معاوية مع أهل البصرة؛ لأنّ الأخبار جاءت عن نهاية حكمه، وهذا ما يفسّر لنا أنّ فترة عبيد الله بن زياد كانت مستندة على قوّة يزيد بن معاوية في إدارة البصرة والسيطرة عليها، لكنّ الشيء المهمّ الذي حدث في عهد عبيد الله هو نهضة الإمام الحسين عليه السلام سنة (٦١هـ/٦٧٧م).

كان عبيد الله قد اتخذ الإجراءات الصّارمة تجاه أهل البصرة لمنع البصريّين من الالتحاق بنهضة إمامهم ووليّهم الحسين عليه السلام؛ فقد أمر بتطويق الطرق التي تربط البصرة بالكوفة والعسكر، ومنع النّاس من الخروج والدّخول، ليتمّ له ما أراد من عزل أهل البصرة عن الالتحاق بتلك النّهضة، التي سيأتي الحديث عنها لاحقاً. عدا هذا الحدث التاريخيّ الذي بقي مثيراً للجدل حتّى وقتنا الحاضر، لم نجد

(١) الطبريّ، تاريخ: ٣٨٤/٤؛ أمّا ابن حبيب، فيذكر أنّ يزيد بن معاوية هلك سنة ٦٤هـ، فكانت ولايته ثلاث سنين وثمانية أشهر. المحبّر: ص ٢٢؛ ويُنظر: المسعوديّ، التنبيه والإشراف: ص ٢٦٤.

أحداثاً سياسيَّة ذات شأن كبير، ولها علاقة بيزيد بن معاوية مع أهل البصرة. كان موت يزيد بن معاوية بارقة أمل لأهل البصرة للتخلُّص من القهر والتسلُّط والجبروت الأمويِّ، الذي عمل على التحكُّم بحياة النَّاس، الذين أرغموا على قبول ذلك التسلُّط وإطاعة السُّلطة الغاشمة.

وكان المجتمع البصريّ جزءاً من أولئك الذين ذاقوا ويلات تلك الأحكام القسريَّة التي نفَّذتها سلطة الأمويِّين في البصرة، فكان هلاك يزيد بن معاوية بالنسبة إلى أعوان السُّلطة الأمويَّة يعني لهم الكثير؛ فهم سلطته التنفيذيَّة ويده التي يبطش بها جميع المعارضين من الأهالي، ومن ثمَّ أصبحوا مكروهين ومنبوذين ومطاردين، لا يتمتَّعون بدعم سلطويِّ، بل كان عليهم أن يلجأوا إلى نمط آخر يتماشى مع رغبات النَّاس، وهذا ما عمل عليه عبيد الله بن زياد في دعوته أهل البصرة إلى نهج جديد يقوم على أساس المساواة، وضمان الحقوق، وحقن الدِّماء، والابتعاد عن العصبيَّة القبليَّة، التي تفرِّق أهل البلدة الواحدة، وتُشيع الكره فيما بينهم، والتقرَّب إلى الأهالي.

ما إن سمع عبيد الله بهلاك يزيد بن معاوية حتَّى قام خطيباً بأهل البصرة، فقال: «يا أهل البصرة، إنسبوني، فو الله لتجدُنِّي أهاجر والدي ومولدي فيكم وداري، ولقد وليتكم وما أحصى ديوان مقاتلتكم ثمانين ألفاً^(١)، وما أحصى ديوان عمالكم إلَّا تسعين ألفاً، ولقد أحصى اليوم مائة وأربعين ألفاً، وما تركتُ لكم ذا ظنَّة أخافه عليكم إلَّا وهو في سجنكم هذا، وإنَّ أمير المؤمنين يزيد بن معاوية قد توفِّي، وقد اختلف أهل الشَّام، وأنتم اليوم أكثر النَّاس عدداً، وأعرضه فناءً، وأغناه عن

(١) أمَّا المسعوديُّ، فقد ذكر: «ومقاتلتكم ستون ألفاً». مروج الذهب: ٣ / ٢٨٢.

الناس، وأوسع بلداداً، فاختاروا لأنفسكم رجلاً ترضونه لدينكم وجماعتكم، فأنا أول راضٍ من رضيتموه...»^(١).

لقد كان عبيد الله بن زياد خائفاً جداً من تلك الانتهاكات التي خلفها بالبصرة أيام معاوية بن أبي سفيان وابنه يزيد من بعده، وهذه الأمور كافية في أن يثب عليه بعض الذين قد تضرّروا جرّاء قسوته في ولايته عليهم؛ لذلك، نجده قد جعل له مبرراً ينطلق منه في مواجهة أهل البصرة حالة إعلان هلاك يزيد بن معاوية؛ فقد سعى في خطبته إلى إثارة حماس أهل البصرة نحو التمسك به؛ على أساس ما قدّمه لهم من خدمة جيّدة غيّرت أحوالهم الاقتصادية، وفضله عليهم في العطاء؛ باعتبار أنّ فترة ولايته شهدت تزايد أعدادهم في العطاء، ثمّ نجده يعترف لأهل البصرة بقوّتهم عن طريق كثرة أعدادهم، وهذا الأمر يبدو أنّه قد أثار حفيظة ابن زياد في استغلاله سياسياً من أجل الاستقلال بحكم البصرة، مادامت تتمتع بهذه الميزات التي تؤهلها لتكون حكومة قائمة بذاتها، دون أن تخضع لتسلّط أمير جديد على الدولة الإسلامية.

ويبدو أنّ عبيد الله بن زياد أراد أن يستند إلى قاعدة عسكرية قادرة على مواجهة التغيّرات الجذريّة التي قد تحدث في سلالة نظام الحكم؛ لأنّ تلك الفترة كانت قد أصبحت تهدّد الأمويين بفقدانهم عرش الحكم، وهذا يعني أنّ القادم يعلن موقفاً غير سليم تجاههم لإضعاف أمرهم ووضعهم، وبذلك يكون عبيد الله بن زياد قد أسند أمره لأقوى الأمصار العربيّة الإسلاميّة، وربّما تكون المتغيّرات قد جرت لمصلحته.

(١) الطبري، تاريخ: ٤ / ٣٨٧؛ الجاحظ، البيان والتبيين: ٢ / ٨٩.

ثمَّ إنَّ عبيد الله بن زياد كان يقصد من وراء تلك الخطبة إظهار نواياه الحسنة وتعاطفه مع القبائل العربيَّة بالبصرة، خصوصاً بعد أن اضطربت عليه الأمور، ولم يعد بوسعه سوى التوسُّل بأهل البصرة وإغرائهم بمبايعته؛ لكي يبقى أهل البصرة بمعزلٍ عن الأحداث السَّياسِيَّة التي قد تخوَّب بلادهم، كما كان الوضع من قبل عندما تعرَّضت لانتهاكات الناكثين، بالإضافة إلى تسلُّط المفسدين والظالمين، كما وجدنا ذلك زمن معاوية؛ لذلك، حاول أن يرمز إلى نفسه بأنَّه الشَّخصِيَّة الفضلى التي تستطيع أن تحافظ على البصرة من تفاقم الوضع السَّياسِي، والعمل على تحقيق الاستقرار، وحفظ التوازن بين القبائل، وقد نجح ابن زياد في ما سعى إليه، فبايعه أهل البصرة^(١).

ويبدو أنَّ أهل البصرة لم يكونوا صادقين في بيعتهم تلك، بل كانوا يسخرون منه؛ إذ روي أنَّهم لما خرجوا من عنده، جعلوا يمسحون أيديهم بباب الدَّار وحيطانها، ويقولون: «ظنَّ ابن مرجانة أنَّنا نوليه أمرنا في الفرقة»^(٢).

إنَّ قول أهل البصرة هذا يكشف لنا مدى كراهيتهم لابن زياد، الذي بدأ أمره بالضعف والانهيار، دون أن يكون له مكانة الوالي المطاع، فكان «يأمر بالأمر، فلا يُقضى، ويرى الرأي، فيردُّ عليه، ويأمر بحبس المخطئ، فيُحال بين أعوانه وبينه»^(٣).

ونتيجة لسوء الأمور التي صبَّت لغير صالح عبيد الله بن زياد، الذي وزَّع الأموال من بيت المال على الناس وخرَّج الأسماء، أي: شمل جميع أهل البصرة

(١) الطبري، تاريخ: ٤ / ٣٨٩.

(٢) الطبري، تاريخ: ٤ / ٣٩٠؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ٣ / ٢٢٨.

(٣) الطبري، تاريخ: ٤ / ٣٩٠؛ ويُنظر: شارل بللا، الجاحظ: ص ٢٦٧.

في سجلات العطاء دون أن يجرم أحداً منهم لاختلافٍ ما، واستعجل الكتاب في ذلك، حتّى وكلّ بهم مَنْ يحبسهم بالليل في الديوان، وأسرّجوه بالشّمع^(١).

لم تنجح هذه الطريقة في كسب أهل البصرة، فكفّ عبيد الله عن ذلك، ونقل الأموال إلى إخوته، وجمع خاصّته، فأراد أن يقاتلوا معه كلّ مَنْ يتمرّد على سلطته، ويُعرض عن طاعته بالبصرة، فقال له أخوته: «والله، ما من خليفة فتقاتل عنه، فإن هُزمت، فتت إليه، وإن استمددته، أمذك»^(٢).

ويخبرنا الدّينوري أنّ عبيد الله بن زياد كان قد أصبح في ريبٍ من أمره، لا يستطيع أن يسلك الاتجاه الصّحيح تجاه الناس، وكيفيّة التعامل معهم؛ إذ سأل مولاه له يسمّى (مهران) عن الرّأي، فقال له: «أيّها الأمير، إنّ النّاس إن ملكوا أنفسهم، لم يولّوا عليهم أحداً من ولد زياد، وإنّا ملكتم الناس بمعاوية ثمّ يزيد، وقد هلكا، وإنّك قد وترت الناس، ولست آمن أن يثبوا بك»^(٣).

والظاهر أنّ مولاه عبيد الله بن زياد بكلمته السّابقة قد أوقف مولاه على حقيقة أمره، وكيفيّة تسلّطه على رقاب النّاس بقوة الذين أوكلوا إليه مهمّة إدارة البصرة، الذين من دونهم لا يستطيع أن يقدّم أو يؤخّر، فهو قد أصبح رمزاً للأمير داخل البصرة، دون أن يكون له قرار حازم أو رأي يعول عليه، بل لم يجد الأذن الصّاغية لسماعه.

ثمّ افتقد عبيد الله الأمان والطمأنينة على دمه، فطفق يبحث عن مجرٍ له يخلّصه

(١) الطبريّ، تاريخ: ٣٩١ / ٤؛ ويُنظر: محمّد رضا حسن، فرقة الأزارقة: ص ٦٤.

(٢) الطبريّ، تاريخ: ٣٩١ / ٤.

(٣) الأخبار الطّوال: ص ٢٨١-٢٨٢.

من شكوكه التي طغت عليه، فبعث إلى حارث بن قيس^(١)، فقال له: «إنَّ أبي أوصاني إن احتجت إلى الحرب يوماً أن أختاركم، وإنَّ نفسي تأبى غيركم»^(٢). فما كان من حارث هذا إلَّا أن دبَّر له الإجارة، وأخرجه من قصر الإمارة ليلاً؛ خشيةً عليه من القتل نهراً، فلمَّا كان الليل، همَّ عبید الله وأتباعه بالخروج إلى الأزدي^(٣)، فحملوا الأموال وانطلقوا، فكان عبید الله بن زياد يسأل أثناء مشيهم عن مكانهم، فقليل له: في بني سليم، فقال: سلمنا إن شاء الله، فلمَّا أتى بني ناجية، قال: نجونا إن شاء الله^(٤). وهذا يعني أنَّ تلك النواحي التي مرَّ بها كانت موالية له، ثمَّ إنَّ بني ناجية سألوا قيس بن حارث: مَنْ أنت؟ فقال: ابن أخيك، ويقال: إنَّ رجلاً منهم عرف عبید الله بن زياد، فقال: ابن مرجانة، فأرسل سهماً فوق في عمامته، فمضى به الحارث حتَّى أنزله في داره بالجهاضم^(٥)، فلمَّا أمِن عليه، مضى به إلى بيت مسعود بن عمرو بن عدي^(٦)، فلمَّا رآه مسعود، قال للحارث: «أترى لنا أن نعادي

(١) هو حارث بن قيس بن صهبان الجهمي، كان شريفاً بالأزد، وهو أخو المهلب لأُمِّه، وذكره ابن حجر ضمن ترجمة أبيه (قيس بن صهبان). يُنظر: الإصابة: ٥/ ٤٠٢.

(٢) الطبري، تاريخ: ٤/ ٣٩١.

(٣) كان سبب اختياره الأزدي إجارتهم أباه أيام خلافة الإمام عليٍّ عليه السلام ووقوع فتنة ابن الحضرمي بالبصرة، الذي أرسله معاوية إلى هناك لتحريض أهلها ضدَّ أمير المؤمنين كما تقدَّم بالتفصيل، بالإضافة إلى قوَّة الأزدي التي كانت تستطيع أن تجيرَ كلَّ مَنْ لجأ إليها.

(٤) ابن قتيبة، الإمامة والسياسة: ٢/ ٢٧؛ الدينوري، الأخبار الطوال: ص ٢٨٢؛ الطبري، تاريخ: ٤/ ٣٩٢؛ ابن عساکر، تاريخ دمشق: ٣٧/ ٤٥٥؛ الذهبي، تاريخ الإسلام: ٥/ ٣٨.

(٥) الجهاضم: وهي محلَّة بالبصرة نسبة إلى الجهاضمة، بطن من الأزدي، وهم ينسبون إلى جهضم بن عوف بن مالك بن فهم بن غنم، وقيل: جهضم بن فهم. ابن الأثير، اللباب في تهذيب الأنساب: ١/ ٣١٧؛ عمر كحالة، معجم قبائل العرب: ١/ ٢١٢.

(٦) هو مسعود بن عمرو بن الأشرف بن البخترى بن هذيل بن زيد بن كعب بن الأزدي بن

أهل مصرنا في عبيد الله، وقد أبلينا في أبيه ما أبلينا، ثم لم نكافأ عليه، ولم نشكر؟! ما كنت أحسب أن هذا من رأيك! قال الحارث: إنه لا يعاديك أحد على الوفاء ببيعتك حتى تبلغه مأمنه [يعني الشام]»^(١). ولما أصبح الناس، هموا بقتل عبيد الله ابن زياد، فلم يصادفوه، فانطلقوا إلى الحبس، فكسروه، وأخرجوا من كان فيه، وبقي أهل البصرة تسعة أيام بغير وال يحكم المدينة^(٢).

كان هذا التحول الذي شهدته البصرة بداية التكتلات القبليّة، وبداية اضطراب الحياة السياسيّة بشكل خطير، وكأنّ الأحداث ناتجة عن خطأ عبيد الله بن زياد؛ لما ظنّ أنّه يستطيع المضي قدماً في حكم الولاية التي سوف يكون عليها حاكماً مستقلاً عن الدولة، وذلك أنّ أيّ أمير كان، ما لم يكن في الوقت نفسه رئيس قبيلة، لا يستطيع أن يفعل شيئاً من غير الاستناد إلى خليفة؛ لأنّ القيمة الشخصيّة للأمير ليست كافية في أن تكفل له النجاح^(٣). فكان خروج عبيد الله بن زياد من

الحارث بن العتيك، كان لقبه (قمر العراق) لجماله، وكان سيّد الأزد في زمانه، وأحد أشرف أهل البصرة الذين راسلهم الإمام الحسين عليه السلام. يُنظر: ابن دريد، الاشتقاق: ٢ / ٥٠٢؛ ابن حزم، جمهرة أنساب العرب: ص ٣٧٠؛ السمعاني، الأنساب: ٤ / ٥٤١؛ ابن الأثير، اللباب في تهذيب الأنساب: ١ / ٣١٧.

(١) الطبريّ، تاريخ: ٤ / ٣٩٢؛ وفي رواية أخرى: أنّ حارث بن قيس أقبل على امرأة مسعود أم بسطام، فاحتال عليها بمبلغ من المال، فأذنت لهما بدخول بيت زوجها، ومن ثمّ قبل مسعود إجارته لعبيد الله بعدما تناول طعامه وارتدى ثيابه. للتفصيل، يُنظر: الطبريّ، تاريخ: ٤ / ٣٩٥.

(٢) الدّينوريّ، الأخبار الطّوال: ص ٢٨٣.

(٣) فلهاوزن، تاريخ الدولة العربيّة: ص ٤٢١.

دار الإمارة والتحاقه بالأزد بداية تنازع قبائل البصرة النفوذ السَّياسيِّ فيما بينها^(١)، كلُّ يرغب في أن يجعل السَّيادة حسب هواه مع غُصَّ النظر عن المصلحة العامَّة للمدينة وأهلها، المدينة التي تتعرَّض لأزمة سياسيَّة خطيرة قد تكون نتائجها وخيمة على الجميع حينئذٍ.

وهناك رواية ترجَّح أنَّ سبب خلع أهل البصرة لعبيد الله بن زياد كان خلع أهل الكوفة طاعته عليهم، فقال أهل البصرة: «أخلعه أهل الكوفة ونبايعه نحن؟! هذا ما لا يكون»^(٢).

فهذه الرواية تُعطي استقراءً للأحداث المتغيِّرة في مدينة البصرة من أنَّ قبائلها أصبحت تراقب موقف قبائل أهل الكوفة، وأيضاً تُعطي إيضاحاً بأنَّ القبائل المعارضة لحكم بني أميَّة هي موالية لبني هاشم، وحاولت -آنذاك- فرض إرادتها في خلع عامل بني أميَّة، وبما أنَّهم كانوا يخشون السَّيطرة الأمويَّة وظلمها وقهرها للقبائل البصريَّة، بقيت تلك القبائل تنتظر حتَّى هلاك يزيد بن معاوية ليُعلنوا الثَّورة ضدَّ عبید الله بن زياد^(٣)، لكنَّ الأزد حالوا دون ذلك في إجارتهم لعبيد الله، لفترة تتراوح بين «الشَّهرين إلى الثلاثة»^(٤). فالعلاقة التي ربطت أهل البصرة بأهل الكوفة، هي إعلان الثَّورة على عبید الله بن زياد في وقتٍ واحدٍ، «فبلغ أهل البصرة

(١) إحسان النصِّ، العصبيَّة القبليَّة: ص ٢٦٤.

(٢) البلاذريُّ، أنساب الأشراف: ٦/ ٧-٨؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ٣/ ٢٢٨.
(٣) شارل بللا، الجاحظ: ص ٨٤؛ عون الشَّريف قاسم، شعر البصرة في العصر الأمويِّ: ص ٢٣.

(٤) خليفة بن خيَّاط، تاريخ: ص ٨٤؛ أمَّا البلاذريُّ، فجعل مدَّة إقامة ابن زياد ثلاثة أشهر. أنساب الأشراف: ٦/ ٣٣.

ما صنع أهل الكوفة، فاجتمعوا وأخرجوا الرايات، فلم يبق أحدٌ إلا خرج؛ وذلك لسوء آثار عبيد الله بن زياد فيهم، يطلبون قتله»^(١).

إنّ التزامن في إعلان العصيان التام في المصيرين البصرة والكوفة في ملاحقة ابن زياد هو الأقرب إلى الحدث التاريخي، الذي أصبح يهدّد الكيان السياسي للدولة الأموية، ثم إنّ العلاقة بين المصيرين غير مرغوب فيها لدى بعض المؤرخين، الذين حاولوا تبرير موقف أهل البصرة، بأنهم تأثروا بما ورد عليهم من نكث البيعة لابن زياد في الكوفة، فنهجوا نهجهم.

والسبب الذي دفع المؤرخين لهذا التبرير هو أهميّة البصرة والكوفة بالنسبة إلى الدولة الأموية، فهذان المصيران هما الشريان النابض لقوة الدولة وجيشها، فإذا كانت الكوفة تشيّع لعليّ عليه السلام، فقد أرادوا أن يجعلوا من البصرة تياراً سياسياً مناهضاً للتشيّع، فجعلوها عثمانية أموية.

بالإضافة إلى هذا، كان أهل المصيرين في تنافس شديد، فقد كان كلّ يرغب في أن يكون هو صاحب الكلمة العليا والقرار المنفّذ، وليس أن يكون تابعاً للمصر الآخر، كما هو واضح في مناظراتهم ومفاخراتهم، خاصّة في بداية العصر العباسي الأول، عندما قدم الخلفاء العباسيون الكوفة على البصرة سياسياً^(٢).

ثم اضطربت البصرة بسبب الصراع من أجل السلطة داخل المدينة، وآلت الأمور إلى يد القبائل، فقد بدأ المصيرين بالتدريج نحو الأسوأ، فظهرت التكتلات والحزابات القبليّة^(٣) بفعل التكتلات والمحالقات السياسيّة فيها، حتّى ليصعب في

(١) ابن قتيبة، الإمامة والسياسة: ٢٧/٢.

(٢) يُنظر: مفاخرات الكوفيين والبصريين: البراقبي، تاريخ الكوفة: ص ٢٢٩.

(٣) عون الشريف قاسم، شعر البصرة في العصر الأموي: ص ٢٣.

بعض الأحيان إعطاء الصَّورة الحقيقيَّة لتلك الفترة بفعل اضطراب الرِّوايات، فالخلط واضح لدى المؤرِّخين في إبراز الصَّورة الأنسب لسير الأحداث^(١).

فبنو تميم قد أشعلوا ذلك الاضطراب عندما بايعوا عبد الله بن الحارث بن نوفل بن عبد المطلب القرشيَّ الهاشميَّ المعروف بـ(بَبَّة)^(٢)، أرادوه على التعسِّف لصالح البلد^(٣). بالإضافة إلى إنهاء آمال عبيد الله بن زياد في العودة لتوليَّ منصب الولاية بالبصرة، ويبدو أنَّ تميمًا أرادت أن تكون هي صاحبة القرار في تلك الفترة؛ إذ التزمت أمر بَبَّة، فأدخلوه دار الإمارة دون مشورة الأزد وبكر بن وائل، وفي ذلك يقول الشَّاعر:

نَزَعْنَا وَأَمَرْنَا وَبَكْرُ بْنُ وَائِلٍ تَجَرَّ خَصَاهَا تَبْتَغِي مَنْ تَحَالَفُ
وَمَا بَاتَ بَكْرِيٌّ مِنَ الدَّهْرِ لَيْلَةً فَيُصْبِحُ إِلَّا وَهُوَ لِلذَّلِّ عَارِفُ^(٤).

ويذهب ابن الأثير إلى أنَّهم إنَّما وَلَّوْا بَبَّةَ للبصرة؛ لأنَّ أباه من بني هاشم وأمه من بني أميَّة، فقالوا: من ولي الأمر، رضيَ به، وسكن البصرة^(٥). أي: إنَّ تفكيرهم

(١) يُنظر للرِّوايات الواردة بشأن تلك الأحداث: البلاذري، أنساب الأشراف: ٦/ ٩-٢٠؛ الطبري، تاريخ: ٤/ ٣٨٧-٤٠٨.

(٢) إنَّما لُقِّبَ (بَبَّة)؛ لأنَّ أمه كانت ترقصه وهو طفل، وتقول: «لأنَّ كَحْنَ بَبَّةَ جاريةٌ...» يُنظر: ابن حبيب، المنَّقى: ص ٣٤٧؛ ابن دريد، الاشتقاق: ٢/ ٧٠؛ ابن عبد البر، الاستيعاب: ٣/ ٨٨٥؛ الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد: ١/ ٢٢٦. وكان بَبَّةَ قد توارى عن الحجاج بن يوسف الثقفي؛ لأنَّه اشترك في ثورة ابن الأشعث. يُنظر: عبد الغني الأزدي، المتوارين: ص ٤٨.

(٣) الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد: ١/ ٢٢٧.

(٤) الطبري، تاريخ: ٤/ ٣٩٧.

(٥) أسد الغابة: ٣/ ١٤٠.

انصبَّ على مَنْ يتولَّى منصب الخلافة، فإن كان علويّاً، أبقى ببةً في إدارة البصرة؛ كونه ينتمي إلى العلويين من جهة الأب، وإن تولّى أمر الخلافة أمويّاً، فيرضى به أيضاً؛ كونه ينتمي من جهة الأم لبني أمية.

ولكن الأقرب للواقع هو أنّ أهل البصرة كانوا يرغبون بتولية أمير علويّ يدير مدينتهم، فكان ببة أول أمير هاشميّ يصل لإدارة الأمصار العربيّة الإسلاميّة منذ اتّفاق الإمام الحسن عليه السلام مع معاوية بشأن الخلافة.

والظاهر أنّ عبد الله بن الحارث (ببة)، عجز عن إصلاح الوضع السّياسي في البصرة، بل لم يتمكّن من تغيير الحياة السّياسيّة لأهلها، وكان هذا ناتجاً عن ضعف سلطته في مقابل قوّة القبائل، فخاف على نفسه من قبيلة الأزد، التي بدورها كانت منافساً قوياً لبني تميم في البصرة، فاستولت الأزد على المسجد بقيادة زعيمها مسعود بن عمرو العتكيّ، فقليل لببة: إنّ مسعوداً وأهل اليمن وربيعه قد ساروا، وسيهيّج الناس شرّاً، فلو أصلحت بينهم، أو ركبت في بني تميم عليهم، فقال: «لا أفسدت نفسي في إصلاحهم»^(١). وقيل: بل اعتزل ببة أهل البصرة بسبب العصبيّة القبليّة التي تمسّكوا بها^(٢).

ولم يكن عبيد الله بن زياد بعيداً عن تلك الأحداث السّياسيّة، بل هو الذي حرّض مسعود العتكيّ زعيم الأزد على إقامة تحالف بين الأزد وبكر وربيعه، وقد أنفق على إنجاح ذلك الحلف مائة ألف درهم^(٣)، وكان الحلف يهدف إلى إعادة

(١) الطبريّ، تاريخ: ٤/ ٣٩٨؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ٣/ ٢٣٦.

(٢) ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ٣/ ٢٣٦.

(٣) الطبريّ، تاريخ: ٤/ ٣٩٧؛ ويُنظر: د. ناجي حسن، القبائل العربيّة في المشرق: ص ١١٣.

عبيد الله بن زياد إلى إدارة السَّلتة داخل البصرة^(١).

وكان عبيد الله بن زياد، يقول لأخيه عباد: «أُكِّدَ بينهم الحلف»^(٢). فكتبوا فيما بينهم كتاباً انضاف إلى الكتابين اللَّذين كانا قد كُتبا بين القبائل التي دخلت في الحلف ضدَّ تميم، فوضعوا كتاباً عند مسعود بن عمرو، ووضعوا كتاباً عند الصَّلْت بن حريث^(٣)، علماً أنَّ الأزد قد استقرَّوا في البصرة منذ أيام الفتوحات، ولكن بأعداد قليلة، وفي نهاية عهد معاوية بن أبي سفيان وبداية عهد يزيد بن معاوية، نزلت الأزد البصرة بأعداد كثيرة، فتحالفوا مع ربيعة البصرة، فعقدوا حلفاً فيما بينهم، ليكونوا أتباعاً كُلُّ يُسند صاحبه^(٤)، فلما جدَّدوا ذلك الحلف، اتَّفَقوا على أن يتولَّى قيادة جمعهم مالك بن مسعود رئيس الأزد^(٥).

كان الحلف عبارة عن تحدِّي القبائل فيما بينها داخل البصرة، وبالأخصَّ الأزد وتمدِّم، فسار مسعود بالأزد وربيعه وأهل اليمن حتَّى دخلوا المسجد، وصعد مسعود المنبر، بينما خرج مالك بن مسمع زعيم ربيعة في كتيبة حتَّى علا

(١) الطبري، تاريخ: ٣٩٨/٤.

(٢) خليفة بن خيَّاط، تاريخ: ص ١٩٨؛ الطبري، تاريخ: ٣٩٧/٤؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ٢٣١/٣.

(٣) هو الصَّلْت بن حريث بن جابر بن سري بن سلمة بن عبيد بن ثعلبة بن يربوع، فتى ربيعة، وضعت الأزد وربيعه كتاب حلفهم على يديه. ابن مأكولا، إكمال الكمال: ٢٩٤/٤.

(٤) الطبري، تاريخ: ٣٩٨/٤؛ ويُنظر: ابن مأكولا، إكمال الكمال: ٢٩٤/٤.

(٥) الطبري، تاريخ: ٣٩٨/٤.

الجبّانة^(١)، ثم مرّ بدور بني تميم حتّى دخل سكّة بني العدويّة^(٢)، فجعل يحرق دورهم للشحناء التي في صدورهم^(٣)، وكان سبب تلك الشحناء قد جاء متزامناً مع الأحداث التي وقعت في خراسان؛ فقد أوقع عبد الله بن خازم السلميّ بريعة وهزمهم شرّ هزيمة منكرة^(٤)، فكان هذا التصاعد السّيّسيّ قد نشأ من طرف قبيلة الأزد وحلفائها، الذين توجّهوا إلى المسجد ودار الإمارة للسيطرة على زمام الأمور في البصرة.

ثم إنَّ عبيد الله بن زياد كان قد أوكل منصب ولاية البصرة لمسعود بن عمرو العتكيّ^(٥)، فلما علمت بنو تميم وقيس بغاية مسعود بن عمرو، قالوا: «لا نرضى ولا نجيز ولا نوليّ إلا رجلاً ترضاه جماعتنا، فقال مسعود: فقد استخلفني، فلا أدع ذلك أبداً»^(٦).

وقد قاد هذا الاختلاف بين قبائل البصرة إلى تنازع النفوذ السّيّسيّ فيما بين هذه القبائل، فالأزد أرادت أن تولّي سيّدها مسعود بن عمرو أميراً للبصرة، ولكنّ قبيلة

(١) الجبّانة: وهي في الطرف الجنوبيّ الغربيّ من المربد، والمقبرة الرئيسة في البصرة. يُنظر: صالح أحمد العلي، خطط البصرة: ص ١٠٨.

(٢) بنو العدويّة: وهم زيد، والصّدي، ويروبع، وهؤلاء بنو مالك بن حنظلة بن مالك بن زيد مناة بن تميم، أمّ هؤلاء الثلاثة من بني عديّ مناة بن أد. ابن حزم، جمهرة أنساب العرب: ص ٢٢٨.

(٣) الطبريّ، تاريخ: ٤/ ٣٩٩؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ٣/ ٢٣١.

(٤) يُنظر: الطبريّ، تاريخ: ٤/ ٣٩٩؛ عون الشريف قاسم، شعر البصرة في العصر الأمويّ: ص ٢٤.

(٥) خليفة بن خياط، تاريخ: ص ١٩٨.

(٦) الطبريّ، تاريخ: ٤/ ٣٩٨-٣٩٩؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ٣/ ٢٣٤.

تميم لم تكن لترضى أن يتأمر عليها رجل ينتمي إلى القبيلة التي تنافسها، ومن ثمَّ، جاءت تميم إلى سيدها الأحنف بن قيس، الذي رغب في أن يبرّر أسباب استيلاء الأزدي على المسجد ودار الإمارة، فقد ذكر أنّ تميماً قالت للأحنف: «إنّ الأزدي قد دخلوا المسجد، قال: ودخل المسجد، فَمَهْ؟! إنّها هو لكم ولهم، وأنتم تدخلونه»^(١). والظاهر أنّ فتیان بني تميم لم يوافقوا الأحنف بن قيس في تبريره لهم، فاحتجّوا عليه بانتهاكات الأزدي وتعديهم على بني تميم من القتل وحرق الدّور^(٢)، فما كان من الأحنف إلّا أن طلب البينة على قَوْلهم، فشهدوا عنده على ذلك^(٣)، ثمّ قال: أجا عباد بن حصين بن يزيد التميمي؟^(٤)، قالوا: لا، ثمّ مكث غير طويل حتّى كرّر مقولته على مَنْ حضر أمامه من بني تميم، بشأن عباد، فقالوا: لم يحضر بعد، فدّعي عبس بن الطلق^(٥)، فعقد له راية ودفعها إليه، وقال له: سِرْ، فصاح الناس، هاجت زيراً - وزيراً أمة للأحنف -، وإنّما كنّوه بها ليزدادوا حماسة في القتال؛ لأنّ من عادات العرب أن يتحمّسوا بأسماء النساء في المعارك^(٦).

(١) الطبريّ، تاريخ: ٤ / ٤٠٥.

(٢) الطبريّ، تاريخ: ٤ / ٣٩٩؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ٣ / ٢٣٢.

(٣) الطبريّ، تاريخ: ٤ / ٣٩٩؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ٣ / ٢٣٢.

(٤) هو عباد بن حصين بن يزيد بن عمرو بن أوس بن سيف بن عزم بمن حلزة بن بيان بن سعد بن الحارث الحبلة بن عمرو بن تميم، لم يذكره في كتب الرجال والتّراجم، ويبدو أنّه أحد كبار بني تميم وفرسانها. يُنظر: الطبريّ، تاريخ: ٤ / ٤٠٠.

(٥) هو عبس بن الطلق بن ربيعة الصريمي، الملقّب بعبس الطعان، ويقال له: أخو كهمس، فارس من رؤساء تميم، قتل عبس في معاركه ضدّ الأزارقة سنة ٧٢هـ. الزّركلي، الأعلام: ٤ / ١٨٧.

(٦) شاكر مجيد كاظم، التنشئة الاجتماعيّة عند العرب قبل الإسلام: ص ٨٠.

ولما سار عبس، جاء عباد في ستين فارساً، فسأل عما صنع الناس، فقالوا: ساروا وعليهم عبس بن طلق، فرفض عباد السير تحت راية عبس، فرجع والفرسان إلى أهله^(١).

ويقال: إن تميماً في ذلك الوقت مع باديتها وحلفائها من الأساورة والزط والسيابجة وغيرهم كانوا زهاء سبعين ألفاً^(٢)، وفي ذلك يقول الشاعر:

سائل ذوي يمنٍ ورهطٍ محرقٍ والأزد إذ ندبوا لنا مسعودا
فأتاهم سبعون ألف مدجج متسرلين يلامعاً وحديداً^(٣).
ولعل هذا العدد فيه مبالغة.

ثم التقى القوم بالقرب من المسجد، فرمى الأساورة بألفي نشابة^(٤)، في رشق واحد، فتلقوها الأزد برماحهم، فعادوا الأساورة مرة أخرى، فأجلوا الأزديين عن أفواه السكك، وأقاموا على أبواب المسجد، ومسعود بن عمرو الأزدي على المنبر، وكان يحض قومه ويرفع همهم استعداداً للقتال، فدخل بنو تميم المسجد، فأقبلوا نحو مسعود، فجعل غطفان بن أنيق بن يزيد^(٥) يقاتل ويحض قومه على القتال والشدة، ثم ارتجز قائلاً:

يال تميم أنهما مذكورة إن فات مسعود بها مشهورة

(١) البلاذري، أنساب الأشراف: ٦/ ٢٠؛ الطبري، تاريخ: ٤/ ٤٠٠.

(٢) المبرّد، الكامل في اللغة: ص ١٠٥-١٠٦؛ ويُنظر: البلاذري، فتوح البلدان: ٢/ ٤٦٠.

(٣) المبرّد، الكامل في اللغة: ص ١٠٦؛ ويلامعاً: أي: ثياب لامعة ذوات ألوان مختلفة. الزبيدي، تاج العروس: ٥/ ٥٠٤.

(٤) نشابة: النبل، وقوم نشابة، أي: يرمون بها. الفيروز آبادي، القاموس المحيط: ١/ ١٣٢.

(٥) لم أعثر على ترجمة له.

فاستمِسكوا بجانبِ المقصورة^(١).

أي: لا يهرب فيفوت^(٢)، ثم قتلوا مسعوداً، وذلك في أوّل شَوّال سنة (٦٤هـ / ٦٨٣م)، فانهزم قومٌ من الأزد^(٣).

ويروى أنّ عبيد الله بن زياد كان ينتظر في تلك الأثناء ما يكون من مسعود وجماعته بعد سيطرتهم على مسجد البصرة، فجاء أحدهم إليه بالخبر، فقبل لعبيد الله: إنّ مسعوداً قد صعد المنبر، فتهيأ للركوب، فبينما هو كذلك، إذ قيل: قد قُتل مسعود، فما كان من عبيد الله إلّا أن اغترز في ركابه ولحق بالشام^(٤).

لقد كان مسعود بن عمرو آخر أملٍ لابن زياد في رجوعه إلى منصب ولاية البصرة والاستقلال بحكمها، لكنّ تميماً أفسدوا ذلك الأمل بمقتل مسعود الأزديّ، وعلى أثر مقتل سيّد الأزد، أصبحت القبائل في تلك الفترة مضطربة سياسياً؛ بسبب تأزّم الموقف بينها؛ فقد بدأت تبحث عن الثأر لقتلها بجوار المسجد وداخله، فكان هذا الحدث تحوّلاً نحو الأسوأ، فالأزد لم تقبل بمقتل سيدها، وكان سكوتها يعني أنّ تميماً سوف تفرض سيادتها على القبائل داخل البصرة.

وهناك من ذهب إلى أنّ مسعود بن عمرو العتكيّ قد قتلته الخوارج بتحريض من الأحنف بن قيس^(٥)، ولا نعلم مدى صحّة هذا الخبر، ولا مدى علاقة الأحنف

(١) الطبريّ، تاريخ: ٤ / ٤٠٠؛ ابن حجر، الإصابة: ١ / ٣٥٦.

(٢) الطبريّ، تاريخ: ٤ / ٤٠٠؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ٣ / ٢٣٣.

(٣) الطبريّ، تاريخ: ٤ / ٤٠١.

(٤) البلاذريّ، أنساب الأشراف: ٦ / ٢١.

(٥) البلاذريّ، أنساب الأشراف: ٦ / ٨؛ ومن المعاصرين الذين ذهبوا إلى هذا الرأى: عبد

القادر باش أعيان، البصرة في أدوارها التاريخيّة: ص ٤٢.

بالخوارج، وأنه هل كان ضعيفاً تجاه مسعود والأزد بحيث يجرّض الخوارج على قتل مسعود على الرّغم من قوّة بني تميم بالبصرة؟!

علاوة على ذلك، فإنّ الأحنف هو من طلب من قومه عدم قتال الأزد عندما دخلوا المسجد، بتوجيه أنّه من حقّهم كونهم بصريّين، فلم يكن يميل إلى السيّف وإراقة الدّماء، وتفريق جموع القبائل داخل البصرة.

والأغرب من هذا ذهاب البعض إلى أنّ مقتل مسعود كان قد جاء عن طريق الخوارج؛ إذ شبّه لهم به، وظنّوا أنّه عبيد الله بن زياد، فقتلوه^(١).

والظاهر أنّ هذه الروايات صُنعت من أجل تشويه صورة بني تميم؛ باعتبارهم وقفوا ضدّ عبيد الله بن زياد وحالوا بينه وبين الأزد في إرجاعه مرّة أخرى لتوليّ أمر البصرة.

وعلى أثر مقتل مسعود بن عمرو الأزديّ، ولّت الأزد رئاستها زياد بن عمرو ابن الأشرف العتكيّ^(٢)، وخرجوا وخرجت ربيعة وعليها مالك بن مسمع يطلبون بدماء من قُتل منهم، ثمّ نظّموا صفوفهم لخوض الحرب ضدّ تميم البصرة، فجعل في الميمنة بكر بن وائل، وفي الميسرة عبد القيس وهم لكيز بن أفصي بن دعمي بن جديلة بن أسد بن ربيعة، وكان زياد بن عمرو العتكيّ في القلب^(٣). فبلغ الأحنف ما كان من أمر القبائل التي يقودها زياد بن عمرو العتكيّ، فقال:

(١) ابن قتيبة، الإمامة والسّياسة: ٢٨ / ٢.

(٢) زياد بن عمرو بن الأشرف، العتكيّ: أخو مسعود الذي قتل بالمسجد، ترأس الأزد بعد أخيه، وقيل: كان على شرطة الحجاج. يُنظر: ابن حجر، الإصابة: ٣٤٤ / ١.

(٣) البلاذريّ، أنساب الأشراف: ٢٥ / ٦.

«هذا غلام حدث شأنه الشَّهرة، وليس يبالي أين يقذف بنفسه»^(١).

وبالمقابل انقادت مضر كلَّها بالبصرة للأحنف بن قيس، واجتمعت له رئاسة قبيلة تميم^(٢).

وبذلك مالت الحياةُ السَّيَّاسِيَّةُ فِي البصرة إلى التكتلات القبليَّة، التي أصبحت عبارة عن حزبين متنافسين، كلٌّ يرغب في بسط سيطرته على حساب الآخر. لم يكن هناك مجال للتفاوض وإنهاء الخصام سلمياً، فاستعدَّ الأحنف وأتباعه لملاقاة القوم من الأزد وربيعة وبكر بن وائل، فنظَّم التميميَّون صفوفهم لخوض الحرب، فجعلوا سعداً والرَّباب في القلب، ورئيسهم عبس بن طلق الطعان، فجعل بالقلب بحذاء الأزد، وجعل حارثة بن بدر الغدافي^(٣) في بني حنظلة بحذاء بكر بن وائل، وجعلت عمرو بن تميم^(٤) بحذاء عبد القيس، وفي ذلك يقول حارثة للأحنف:

سيكفيكَ عبسٌ أخو كهمسٍ	مقارعةَ الأزدِ بالمربدِ
وتكفيكَ عمرو على رسلها	لكيزُ بن أفصى وما عدَّدا
وتكفيكَ بكراً إذا أقبلتْ	بضربٍ يشيبُ له الأمرُ ^(٥) .

(١) المبرِّد، الكامل في اللُّغة: ص ١٠٤؛ البلاذري، أنساب الأشراف: ٦ / ٢٥.

(٢) المبرِّد، الكامل في اللُّغة: ص ١٠٤.

(٣) هو حارثة بن بدر بن حصين بن قطن بن مالك بن غدانة بن يربوع بن حنظلة بن زيد مناة بن تميم، أدرك النَّبيَّ ﷺ، وله أخبار بالفتوح، قيل: إنَّه مات غرقاً سنة ٦٤هـ في حرب الخوارج. ابن حجر، الإصابة: ٢ / ١٣٨.

(٤) عمرو بن تميم: وهم العنبر، والهجيم، وأسيد، ومالك، والحارث، وقليب، وكعب، وهم سادات أهل البصرة. ابن حزم، جمهرة أنساب العرب: ص ٢٠٧.

(٥) المبرِّد، الكامل في اللُّغة: ص ١٠٤؛ ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة: ١٥ / ١٣٤.

فاقتتلوا أشد القتال، فقتل من الفريقين كثير، فقالت لهم بنو تميم: «الله، الله، يا معشر الأزد في دماننا ودمائكم، بيننا وبينكم القرآن ومن شئتم من أهل الإسلام»^(١).

ثم إن بني تميم خيروا الأزد في إقامة البيعة عليهم؛ باعتبارهم قتلوا سيد الأزد، يقبلون بديته، وحددوها بمائة ألف درهم^(٢)، وكان الأحنف بن قيس يتودد إلى الأزد رغبة منه في إصلاح ما أفسدته الحرب بين القبائل في البصرة، فخاطب القبائل، قائلاً: «يا معشر الأزد وربيعه، أنتم إخواننا في الدين، وشركاؤنا في الصهر، وأشقاؤنا في النسب، وجيراننا في الدار، ويدنا على العدو، والله، لأزد البصرة أحب إلينا من تميم الكوفة، ولأزد الكوفة أحب إلينا من تميم الشام، فإن استشرى شنائكم وأبى حسك^(٣) صدوركم، ففي أموالنا وسعة أحلامنا لنا ولكم سعة»^(٤).

لذلك، لما التقى الفريقان لعقد الصلح بين الأحنف بن قيس سيد تميم ومالك ابن مسمع سيد الأزد، جعل الأحنف يخفف عند المفاوضة، وجعل مالك يثقل^(٥)، فقليل للأحنف: «مالك تخفف، وقد ذهب حلمك في الناس، ومالك يزني؟! قال: إنه [يعني: مالكا] يرجع إلى قوم لا يخالفونه إذا قال، وأنا أرجع إلى قوم يتأبون علي»^(٦).

(١) الطبري، تاريخ: ٤ / ٤٠٥.

(٢) الطبري، تاريخ: ٤ / ٤٠٥.

(٣) حسك: أي: ضغن وعداوة. الجوهري، الصحاح: ٤ / ١٥٧٩.

(٤) الجاحظ، البيان والتبيين: ٢ / ٩٢؛ ويُنظر: المبرّد، الكامل في اللغة: ص ١٠٤-١٠٥.

(٥) البلاذري، أنساب الأشراف: ٦ / ٢٦.

(٦) البلاذري، أنساب الأشراف: ٦ / ٢٦.

فعرضت الأزد شروطها على الأحنف، وكانت ثلاثة مطالب يتخير أحدها: «إن شئت، فانزل أنت وقومك على حكمنا، وإن شئت، فخل لنا عن البصرة، وارجل أنت وقومك إلى حيث شئتم، وإلا، فدوا قتلانا، واهدروا دماءكم! وليود مسعود دية المشعر»^(١). والمراد من قوله: «دية المشعر» هو أمر الملوك في الجاهلية، وكان الرجل إذا قُتل وهو من أهل بيت المملكة وُدي عشر ديات^(٢).

ويبدو أن المطالب التي تقدّم بها الأزد كانت انتقاماً من بني تميم، وإنزالهم على الخضوع لأوامر الأزد الذين كالوا الأمور لمصلحتهم السَّيَاسِيَّة دون غيرهم، فما كان من الأحنف إلا أن بعث إليهم ما اختاروه من تلك المطالب، فجاءهم المبعوثون بقول بني تميم: «إنكم خيرتمونا خلافاً فيها خيار، أمّا النزول على حكمكم، فكيف يكون والكلم يقطر دماً؟! وأمّا ترك ديارنا، فهو القتل، قال الله ﷻ: ﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنْ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ أَوْ اخْرَجُوا مِنْ دِيَارِكُمْ مَا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ﴾»^(٣)، وإنّما الثالثة، إنّما هي حمل المال، فنحن نبطل دماءنا، ونندي قتلاكم»^(٤).

ويبدو أن بني تميم لم تكن تملك الأموال الكافية لدفع الدّيات، فعمل الأحنف على دفع إياس بن قتادة المجاشعي^(٥) رهينة عند الأزد حتّى يؤدي المال الملزم به،

(١) المبرّد، الكامل في اللّغة: ص ١٠٥؛ البلاذري، أنساب الأشراف: ٦ / ٢٧.

(٢) المبرّد، الكامل في اللّغة: ص ١٠٥.

(٣) سورة النساء، آية (٦٦).

(٤) المبرّد، الكامل في اللّغة: ص ١٠٥.

(٥) إياس بن قتادة المجاشعيّ. ويقال: العبشميّ، ابن أخت الأحنف بن قيس، من أهل البصرة، وكان على قضاء الرّي، يروي عن قيس بن عباد، مات في أيام مصعب بن الزّبير. ابن حبان، الثقات: ٦ / ٦٤؛ ويُنظر: ابن حبان، مشاهير علماء الأمصار: ص ٢٣٨، السّمعاني، الأنساب: ٥ / ٥٢٧.

فرضي به القوم^(١)، ففخر بذلك الفرزدق، فقال:

وَمِنَّا الَّذِي أُعْطِيَ يَدَيْهِ رَهِيْنَةٌ لَغَارِي مَعَدَّ يَوْمَ ضَرْبِ الْجَمَاجِمِ
عَشِيَّةَ سَالَ الْمَرْبَدَانِ كِلَاهُمَا عَجَاجَةً مَوْتٍ بِالسَّيُوفِ الصَّوَارِمِ
هُنَالِكَ لَوْ تَبَغِي كُلِّيًّا وَجَدْتَهَا بِمَنْزِلَةِ الْقِرْدَانِ تَحْتَ الْمَنَاسِمِ^(٢).
وتمَّ الصِّلح على دفع الدِّية دون الاقتتال، وبلغت دية مسعود ألفَ ناقة^(٣)،
وكانت هذه دية المملوك قبل الإسلام^(٤)، فرضيت الأزد بالدِّية وكفُّوا^(٥).

إنَّ هذه الرواية توضِّح لنا أنَّ قبيلة الأزد لم تكن تتساهل في عمليَّة دفع الدِّيَّات، بل مارست الضغط على قبيلة تميم، وهذا يوحي لنا بأنَّ قبيلة الأزد لم تكن تخضع للتعاليم الإسلاميَّة في موضع الدِّيَّات، وأنها خالفت تلك التعاليم، وعملت بموروثها الجاهلي.

وعوّضت تميم كلَّ متضرّر من تلك الحرب، ودفعت خسائر الحرب كما في المصطلح الحديث. فكانت هذه الدِّيَّات والخسائر قد أثقلت كاهل الأحنف،

(١) المبرّد، الكامل في اللّغة والأدب: ص ١٠٥.

(٢) ديوان: ص ٥٦٦؛ ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة: ١٥/١٣٦؛ ويُنظر: ابن عساكر، تاريخ دمشق: ٣٧/٤٥٤.

(٣) الدِّينوريّ، الأخبار الطَّوال: ص ٢٨٧.

(٤) كانت دية الملك من ملوك العرب إذا قتله قاتل منهم ألفَ بعير، فهذا سيار بن عمرو بن جابر الفزاريّ احتمل ملك المناذرة الأسود بن المنذر دية ابنه الذي قتله الحارثُ بن ظالم المَرِّيّ. محمود شكريّ الألوّسيّ، عقوبات العرب في جاهليّتها وحدود المعاصي التي يرتكبها بعضهم، تحقيق: محمّد بهجة الأثري، مجلّة المجمع العلميّ العراقيّ، مج ٣٥، ج ٢، بغداد ١٩٨٤م: ص ٦١-٦٢.

(٥) الدِّينوريّ، الأخبار الطَّوال: ص ٢٨٧.

الذي توجّه نحو أبناء عمومته في يبرين^(١) يطلب المساعدة في دفع الدّيات، فالتقى بشخص هناك، فأعطاه ألف بعير، فأخذها^(٢).

وعلى الرُّغم من تحفّظنا على العدد ألف، ولكنّ الرواية تعكس مدى تقديم المساعدة للمحتاجين من أجل حلّ مشاكلهم، وكذا يتبيّن أنّ الأحنف قد حصل على بعض المساعدة في دفع الدّيات لأزد البصرة.

وكان الذي حمل ديات بني تميم إلى الأزد إياس بن قتادة بن أوفي، ابن أخت الأحنف، الذي تركه الأخير رهينة لدى الأزد كما أسلفنا ذلك، فقالت الأزد وربيعة لإياس: قد رضيناك؛ لأنّك رجل شريف مسلم ورع، فقبضوها منه^(٣).

وفي كلامهم هنا تناقض؛ فهم يشيدون بهذا الرّجل؛ لأنّه مسلم شريف ومعروف بالورع، ولكنّهم استلموا منه مقدار الدّية حسب الأعراف والأحكام الجاهليّة، ولم يجدوا في ذلك حراماً لأنّهم خالفوا الشريعة الإسلاميّة، طالما يحقّق ذلك رغباتهم ومصالحهم الشخصيّة، وإن كان لا يتفق مع القيم الإسلاميّة.

ولما رجع إياس بن قتادة إلى قومه، قالوا له: طلّت دماؤنا، وحملت دماء الأزد وربيعة، فحملها لهم، وكان إياس ناسكاً، فقال لبني تميم: قد وهبت لكم شبابي، فهبوا إليّ شيبتي، وأقام يؤذّن في مسجده حتّى مات^(٤).

(١) يبرين: اسم قرية كثيرة النخيل والعيون العذبة بحذاء الأحساء من بني سعد بالبحرين، وقيل: رمل معروف في ديار بني سعد من تميم، والظاهر أنّه اسم لأكثر من موضع. يُنظر: البكريّ، معجم ما استعجم: ٤/ ١٣٨٧؛ ياقوت الحمويّ، معجم البلدان: ١/ ٧١.

(٢) المبرّد، الكامل في اللّغة: ص ١٠٦.

(٣) البلاذريّ، أنساب الأشراف: ٦/ ٢٨.

(٤) البلاذريّ، أنساب الأشراف: ٦/ ٢٨؛ ويُنظر: ابن سعد، الطبقات الكبرى: ٧/ ١٤١؛ محمّد بن عليّ بن حمزة، من له رواية في مسند أحمد: ص ٣٨؛ الصفديّ، الوافي بالوفيات:

ويبدو من هذه الروايات أن إياساً أصبح الواسطة بين القبائل المتخاصمة، ومن ثم رضيت به تلك القبائل وتمسكت برأيه، والأكثر من هذا، أنه أقام في المسجد يؤذن حتى مات، فهذه الإشارات توضّح لنا كيفية تمسك القبائل بشخصية إياس داخل البصرة، وهذا الأمر يجعلنا أمام شيء محاط بالضبابية، فلا يستبعد أن تكون قبائل البصرة قد رضيت بإياس ليس لنقل الديات فقط، بل ربّما لإدارة المدينة في تلك الفترة؛ لأنّه حفظ الدماء، وهو شريف قومه^(١)، وإقامته في مسجد البصرة حتى موته؛ بصفة أن المسجد المكان الجامع لاتجاهات أهل البصرة كافة، وإن كنا نفقد المصدر.

وذكر ابن كثير أن أهل البصرة أقاموا عليهم نحواً من أربعة أمراء من بينهم، في أقل من ستّة أشهر، خلال الأحداث التي شهدتها البصرة بعد هلاك يزيد بن معاوية، ولكنهم لم يتمكّنوا من ضبط البصرة، فاضطربت الأمور^(٢)، ولم يذكروا أسماء هؤلاء الأربعة، إلا أن من المرجح أن يكون إياس بن قتادة التميمي أحدهم.

المبحث الثالث

سيطرة عبد الله بن الزبير على البصرة

أولاً: موقف البصرة من آل الزبير

- المطلب الأول: موقف البصرة من آل الزبير

كانت معركة الجمل المحطّة الأولى المهمّة في بروز عبد الله بن الزبير على مستوى السّلطة والنفوذ السّياسيّ، فقد برز -آنذاك- بوصفه شخصيّة منافسة بين الطرفين المتنافسين طلحة والزبير، وكانت أمّ المؤمنين عائشة وراء ذلك البروز في طموح عبد الله بن الزبير، فهي من أمرته في الصّلاة التي اختلفا عليها، ثمّ إنّ عبد الله بن الزبير وقف بوجه أبيه الزبير عندما أراد أن يوزّع أرزاق الناس، فأخذوا برأي الابن وتركوا رأي أبيه^(١).

كانت تلك الأحداث النواة الأساسيّة لانطلاقته الأولى نحو الزعامة والسّلطة، ثمّ جاءت الأحداث مجتمعة لمصلحة عبد الله بن الزبير عند هلاك يزيد بن معاوية؛ فهو المنافس الوحيد للأسرة الأمويّة الحاكمة في الشّام؛ فبنو هاشم افتقدوا ذلك التنافس باستشهاد الإمام الحسين (عليه السلام)، فلم يرغبوا في إعلان الثورات كمبدأ ضدّ الظالم؛ لأنّ ذلك في غير مصلحة جميع المسلمين في تلك الفترة، فالتزموا أسلوب

(١) الطبريّ، تاريخ: ٣/ ٤٩٠. ويُنظر عن موقف عبد الله من أبيه الزبير: ص ١٣٤ من هذه الدراسة.

الثورة الفكرية، وعملوا على تحقيقها لتوعية المجتمع الإسلامي، في حين أن أهل البصرة لم يرغبوا في مكاتبة الأسرة الأموية والدخول تحت ظلها من جديد، بوصفهم لا يزالون يعيشون مأساة تلك الأسرة، فكاتبوا ابن الزبير وبايعوه على الإمرة وخلافة المسلمين.

وأول من أظهر الرضا لابن الزبير داخل البصرة سلمة بن ذؤيب الرياحي^(١)، فبعد اختلاف أهل البصرة فيما بينهم بشأن عبيد الله بن زياد، قام سلمة ولبس سلاحه ومعه لواء، ودعا الناس إلى بيعه ابن الزبير وطاعته، وقال: «عليكم بالعائد بالبيت الحرام، وابن حواري رسول الله ﷺ، فبايعه جماعة يسيرة»^(٢).

ويذكر ابن سعد أن أهل البصرة عندما اختاروا عبد الله بن الحارث الملقب بـ(ببة) والياً عليهم، كتبوا إلى ابن الزبير: إنا قد رضينا به، فأقره^(٣). وهذا الخبر يؤكد أن أهل البصرة اختاروا (ببة) لحكومة مدينتهم، ثم كاتبوا ابن الزبير، الذي بدأ يظهر بوصفه ندّاً قوياً للأمويين، ومن ثم، يتمكّنون من ضرب مصلحة الأمويين وإبعادهم عن العراق بالتدريج؛ لأن ابن الزبير سوف يعمل على كسب جميع النواحي التابعة للعراق شيئاً فشيئاً، وفي الوقت نفسه نجد عبد الله بن الزبير لا يعارض أهل البصرة في اختيارهم من يتولّى أمرهم، وهذا عائد لاستراتيجية ابن الزبير في كسبهم لجانبه؛ لأن أي اختلاف مبكر يقع بين الطرفين أو خطأ يرتكب من قبله، سوف يؤثر على مسعاه نحو كسب البصرة؛ لذلك، كانت الأمور تسير لمصلحته، حتى نجد عبد الله بن الحارث يأخذ البيعة من أهل البصرة لابن الزبير

(١) لم أعثر على ترجمة له.

(٢) البلاذري، أنساب الأشراف: ١٣/٦؛ ابن حجر، فتح الباري: ٦٢/١٣.

(٣) الطبقات الكبرى: ٢٥/٥.

في المسجد الجامع، وهو نائم مادّاً يده، فقبل في ذلك:

بَايَعْتُ أَيَقَاطاً وَأَوْفَيْتُ بِيَعِي وَبَبَّةٌ قَدْ بَايَعْتَهُ وَهُوَ نَائِمٌ^(١)

وإذا قارنّا هذه البيعة مع أحداث البصرة آنذاك، نجدّها اقتصرت على بني تميم؛ لأنّهم مَنْ اختار (ببّة) لولاية البصرة، في حين أنّ الأزديّ وربيعة ما زالوا محجّرين لعبيد الله بن زياد، وهم يطالبون بإرجاعه إلى دار الإمارة.

- الحارث بن عبد الله بن أبي ربيعة يتولّى البصرة

كانت تلك البيعة بداية سيطرة ابن الزبير على البصرة، ثمّ ولي البصرة بعد ولاية (ببّة)، التي استمرّت لمدة سنة^(٢) الحارث بن عبد الله بن أبي ربيعة^(٣)، الملقّب بـ(القباع)^(٤)، وقيل: إنّما سُمّي القبّاع؛ لأنّه ولي البصرة^(٥)، فعير على النّاس مكاييلهم، فنظر إلى مكيال صغير في مرآة العين وقد أحاط بدقيق استكثّره، فقال: إنّ مكياهم هذا لقبّاع^(٦).

ويروي صاحب الأغاني أنّ الحارث بن أبي ربيعة خاصم رجلاً من بني تميم، فلمّا أراد إمضاء الحكم عليه، أنشأ الرّجل يقول:

(١) ابن سعد، الطبقات الكبرى: ٢٥ / ٥.

(٢) ابن سعد، الطبقات الكبرى: ٢٥ / ٥.

(٣) هو الحارث بن عبد الله بن أبي ربيعة بن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم، كان رجلاً سهاكاً، وخطيباً عفيفاً، وكان فيه سواد؛ لأنّ أمّه حبشيّة. ابن سعد، الطبقات الكبرى: ٢٨ / ٥.

(٤) القبّاع: مكيال ضخم، والقبّاعيّ من الرّجال: العظيم الرأس، مأخوذ من القبّاع. ابن منظور، لسان العرب: ٢٥٩ / ٨.

(٥) يُنظر ملحق رقم (١).

(٦) المبرّد، الكامل في اللّغة: ص ٦٧١؛ ابن دريد، الاشتقاق: ٩٩ / ١.

أَحَارِ تَثَبَّتْ فِي الْقَضَاءِ فَإِنَّهُ إِذَا مَا إِمَامٌ جَارَ فِي الْحُكْمِ أَقْصَدَا
وإِنَّكَ مَوْقُوفٌ عَلَى الْحُكْمِ فَاحْفَظْ وَمَهْمَا تُصِيبُهُ الْيَوْمَ تُدْرِكُ بِهِ غَدَا
فَإِنِّي مِمَّا أُدْرِكُ الْأَمْرَ بِالْآنِي وَأَقْطَعُ فِي الرَّأْسِ الْأَمِيرَ الْمُهَنْدَا^(١).

كأنَّ الناس أصبحت تستهزئ من القُباع ولا تخشاه، وهذا التصرف من قبل أهل البصرة يعكس مرونة الوالي في تطبيق أحكام الشدَّة والتعسُّف كسابقه من عمَّال بني أمية، الذين انتهكوا البصرة، وجعلوها مسرحاً لإراقة الدماء.

ولكن هناك رواية تؤكد قوَّة القُباع في حزم الأمور، وكيفية التعامل معها، فالدولة الإسلامية أصبحت منقسمة فيما بينها، وأصبح هناك شخصان يتوليان الحكم وإدارة الأقاليم الخاضعة لكل منهما؛ فمروان بن الحكم (٦٥هـ / ٦٨٤م) سيطر على بلاد الشام وما يليها من الأجزاء القريبة، فأصبحت تدين بالولاء للبيت المرواني بعدما فقد البيت السفياي منصب الحكم، لكنَّ عبد الله بن الزبير العائذ بالبيت الحرام، نصَّب نفسه حاكماً على بلاد الحجاز، مستغلاً استشهاد الإمام الحسين (عليه السلام)، ثمَّ امتدَّ نفوذه ليشمل العراق، حيث يعتنق كثير من أهل العراق مذهب التشيع، وخاصةً أنَّ الشيعة وابن الزبير يجتمعان على عداء الدولة الأموية^(٢).

لم يكن مروان بن الحكم راضياً عن تصرّفات ابن الزبير، فوجَّه جيشاً من فلسطين بقيادة حبيش بن دجلة القيني^(٣)، يتراوح تعدادُه بين «الأربعة آلاف إلى

(١) أبو الفرج الأصفهاني: ٢٢ / ٤٨٧؛ ابن عساكر، تاريخ دمشق: ١١ / ٤٤٦.

(٢) د. سميرة مختار الليثي، جهاد الشيعة في العصر العباسي الأول: ص ٣٠.

(٣) حبيش بن دجلة القيني: وهو أوَّل أمير أكل على منبر رسول الله ﷺ، قُتل بالربذة أيام ابن الزبير، قتله الحتف التميمي البصري. السمعي، الأنساب: ٢ / ٤٨٨؛ ابن الأثير، اللباب في

الستّة آلاف»^(١)، مهمّته القضاء على عبد الله بن الزبير، وإخضاع الحجاز لسيطرة مروان بن الحكم، فكان جيش ابن دلجة أثناء مسيرهم إلى محاصرة ابن الزبير ينزل على الناس، ويتزوّد بما يحتاج إليه من مأكل ومشرب دون أن يعطي أيّ ثمن^(٢).
أمّا أهل المدينة، فما إن سمعوا بخبر جيش ابن دلجة، حتّى تغيّبَ بشرٌ من الصالحين، وهربَ عاملُ ابن الزبير عن المدينة، وهو جابر بن الأسود بن عوف، ابن أخي عبد الرحمن بن عوف، فلم يكن ابن الزبير في حالة تمكّنه من مواجهة ابن دلجة بعد هذه الأحداث، ثمّ لم يوجد جيش وقوّات قتاليّة قادرة على مواجهة ذلك الجيش القادم، فطلب العون من القُباع والي البصرة بإرسال قوّات من أهلها إلى المدينة؛ لصدّ جيش ابن دلجة، فوجّه القُباعُ الحنّنفَ بن السجق التميميّ^(٣) وشخصاً آخر من بني ربيعة في ثلاثة آلاف، ووجّه والي الكوفة ألفين، التحقوا بجيش الحنّنف بن السجق^(٤).

ثمّ قدم جيش بن دلجة فعسكر بالجرف^(٥)، وقبل أن يدخل ابن دلجة المدينة، بلغه قرب جيش الحنّنف، فأشير عليه بأن يتلقّاه ولا يمهلّه حتّى يصير إلى المدينة

تهذيب الأنساب: ١/ ٥٠٦؛ الزُّركلي، الأعلام: ٢/ ١٦٧.

(١) البلاذريّ، أنساب الأشراف: ٦/ ٢٨٩.

(٢) البلاذريّ، أنساب الأشراف: ٦/ ٢٨٩.

(٣) هو الحنّنف بن السجق بن سعد بن عوف بن زهير بن مالك بن ربيعة بن مالك بن حنظلة، أمّه بنهارة بنت يزيد بن الأغوش من بني عبس، يكنى أبا عبد الله، كان ديناً شريفاً له منزلة، وقيل: سار الحنّنف نحو الشّام، حتّى إذا كان بوادي القرى، سمّ طعاماً فُهِت هناك. خليفة بن خيّاط، طبقات: ص ٣٣٣؛ ابن قتيبة، المعارف: ص ٤١٦.

(٤) البلاذريّ، أنساب الأشراف: ٦/ ٢٨٩.

(٥) الجرف: موضع على ثلاثة أميال من المدينة. ياقوت الحمويّ، معجم البلدان: ٢/ ١٢٨.

فيعينه أهلها ومن حولهم، ويأتيه مدد عبد الله بن الزبير^(١).
ويبدو أنّ جيش الحنتف المتكوّن أغلبه من أهل البصرة وبعض أهل الكوفة،
كان لا يزال في مسيره إلى المدينة، فعمل ابن دلجة على قطع الطريق بين ابن الزبير
والجيش القادم لنصرته، فخرج إلى ملاقة جيش الحنتف، فقصّد الرّبذة، فلمّا وصل
إليها، تفاجأ؛ إذ وجد جيش الحنتف قد عسكر في الرّبذة وسيطر عليها.
والظاهر أنّ هناك عمليّة تنوير زحزحت ابن دلجة عن المدينة من أجل صدّ
جيش الحنتف، الذي عسكر في الرّبذة واستعدّ لقتال ابن دلجة، وجعل ألف فارس
قد أكرمهم في غيابة من الأرض -أي: هبّطة-، فما كان وقت الظهر حتّى وقع
القتال بين أهل العراق وأهل الشّام، واستمرّ لساعة، وأهل الشّام ظاهرون، ثمّ إنّ
كمين ابن الحنتف قد ظهر عليهم، فلم يشعر الشّاميّون إلّا وهم من ورائهم، فانهزم
جيش ابن دلجة من كلّ وجه، وقُتل أتباعه عند حوافر الخيل، وتقطّع أصحابه^(٢).
ويبدو أنّ أهل العراق كانوا على قدرة عالية من القتال، ولهم قدرات عالية
مكّنتهم من هزم جيش الشّام وفراره من ساحة الوغى.
ويبدو أنّ هذه المعركة التي انكسر بها مقاتلو الشّام قد عزّزت موقف عبد الله
ابن الزبير تجاه مروان بن الحكم، الذي فشل في ما خطط له من الاستيلاء على
المدينة، وكان ذلك بوقوف أهل البصرة والكوفة إلى جانب ابن الزبير، وتخليصه
من مأزق شبه محسوم لقيادة الشّام.
إنّ هذه الأحداث تكشف عن مدى قدرة القبّاع على توجيه الجيش ضدّ عدوّه،

(١) البلاذريّ، أنساب الأشراف: ٢٩٠ / ٦

(٢) البلاذريّ، أنساب الأشراف: ٢٩٠ / ٦؛ ويُنظر: ابن حبيب، المحبّر: ص ٤٨١؛ اليعقوبيّ،

تاريخ: ٢ / ١٧٦؛ الطبريّ، تاريخ: ٤ / ٤٧٦.

والظاهر أنَّ القبائل داخل البصرة لم تعرف الهدوء النسبيَّ؛ لأنَّ الصِّراع السِّياسيَّ فيما بينها كان على أشدِّه في هذه الفترة؛ جرَّاء الحرب التي جرت فيما بينها زمن عبيد الله بن زياد، فكانت الأحداث الداخليَّة في البصرة قد جعلت القُباع عديم الفائدة، وقليل الأهميَّة، إلَّا أنَّ ابن الزبير لم يرغب مع هذا في استبداله ما دام أهل البصرة في طاعته ومدينين له بالولاء، لكنَّ الأمور سارت على غير ما يشتهي ابن الزبير؛ إذ بدأت الحياة السِّياسِيَّة في البصرة تأخذ منعطفاً آخر نحو الكوفة بدلاً من مكَّة وابن الزبير؛ فالمختار بن أبي عبيد الثقفيَّ قد سيطر على الكوفة، وبدأ يُعدِّ العدة من أجل إخضاع البصرة لسيطرته، فدعا أهل البصرة عن طريق المثني بن مخزومة العبدي^(١)، الذي عمل جاهداً على حسم الأمور في البصرة لمصلحة المختار، وهنا، تبدأ صفحة جديدة من صفحات الحياة السِّياسِيَّة في البصرة، حيث شمل الصِّراع السِّياسيَّ هذه المرَّة المختار وقبائل أهل البصرة.

ثانياً: المختار وأهل البصرة ومصعب بن الزبير

- المطلب الثاني: المختار وأهل البصرة ومصعب بن الزبير

بدأ عمل المختار بن أبي عبيدة الثقفيَّ في كسب ودِّ أهل البصرة من خلال إرسال المثني بن مخزومة العبديَّ، الذي كان متواجداً مع المختار في الكوفة إلى البصرة^(٢).

(١) المثني بن مخزومة العبديَّ: ابن الرباب الشني، لم يفردوا له ترجمة، وذكره ابن حجر ضمن ترجمة أبيه مخزومة، وقال: كان صاحب المختار، وجَّه به إلى البصرة في عسكر ليأخذها، فهُزم، وهو أحد كبار الشَّيعة الذين طالبوا بدم الإمام الحسين عليه السلام مع سليمان بن صرد الخزاعي، واشتركوا في معركة عين الوردية، ولكن وصولهم كان متأخراً. الإصابة: ٥/ ٥٨٠؛ ويُنظر: أبو مخنف، مقتل الحسين: ص ٢٥٥.

(٢) الطبري، تاريخ: ٤/ ٥٣٦.

وما إن وصل الرجل إلى مدينته، حتّى اتخذ من المسجد مكاناً لاجتماعه بقومه من عبد القيس، ودعي الناس إلى بيعة المختار، ثمّ توجه نحو مدينة الرّزق «وهي دار كبيرة كانت تسمّى أحياناً قرية الرّزق، وسعتها ضرورية لاستيعاب ما يودع فيها من حبوب لتوزّع على الناس في بداية كلّ شهر، وكان لها أربعة أبواب^(١)»، فعسكر عندها^(٢).

ويبدو أنّ هذه الخطوة من قبل المشنّى كانت محاولة منه للاستفادة من الأرزاق التي قد يصعب الحصول عليها في حالة إعلان العصيان داخل البصرة، فضلاً عن إضعاف أتباع القبّاع وهزّ معنوياتهم؛ باعتبارها المورد المهمّ للقوّات العسكرية. إلّا أنّ القبّاع تمكّن من إفشال خطط المشنّى، بتوجيه الشرطة والمقاتلة، فعملوا على محاربة المشنّى في سكّة الموالي، حتّى خرجوا إلى السّبخة^(٣)، فوقفوا فيها، ولزم الناس دورهم^(٤)، وتمكّن الشرطة من السيطرة على مدينة الرّزق.

وكانت هناك معارك بين أصحاب المشنّى بن مخرمة وشرطة القبّاع والي البصرة، وكان الظّفّر للشرطة، الذين قتلوا أربعين رجلاً من أصحاب المشنّى^(٥)؛ ولما اشتدّ الأمر وعلم المشنّى أنّه لا يتمكّن من مواجهة الشرطة، نزل على قومه من عبد القيس، فوجّه القبّاع شرطته ومقاتليه إلى سكّة عبد القيس ليُجهزوا على المشنّى،

(١) صالح أحمد العلي، خطط البصرة: ص ١٥٤.

(٢) الطبريّ، تاريخ: ٥٣٦/٤.

(٣) السّبخة: تقع في الشّمال على طرف البطيحة من البصرة، وهي غير السبخة التي في الجزيرة، التي كان قد أصلحها زياد في زمن ولايته. صالح أحمد العلي، خطط البصرة: ص ١٥٣-١٥٤.

(٤) الطبريّ، تاريخ: ٥٣٦/٤.

(٥) الطبريّ، تاريخ: ٥٣٧/٤.

لكن كبير عبد القيس لم يسمح لأتباع القُبَاع بأن يُلْحَقُوا الصَّرر بالْمِثْنَى وأَصْحَابِهِ، فقال له: لَتَرَدَّنْ خَيْلَكَ عَنْ أَخْوَانِنَا أَوْ لَنَقَاتَلَنَّهَا»^(١).

ما كان من والي البصرة القُبَاع حينها إِلَّا التَّوَجَّهَ إِلَى الْأَحْنَفِ بْنِ قَيْسٍ لِيَعْمَلَ عَلَى إِصْلَاحِ أَمْرِ النَّاسِ قَبْلَ أَنْ تَتَصَاعَدَ الْأَحْدَاثُ وَتَخْرُجَ عَنِ السَّيْطَرَةِ، فَقَدِمَ الْأَحْنَفُ وَعَمَرُو بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ عَلَى عَبْدِ الْقَيْسِ، فَقَالَ الْأَحْنَفُ لِبَكْرِ وَالْأَزْدِ وَالْعَامَّةِ: «أَلَسْتُمْ عَلَى بَيْعَةِ ابْنِ الزَّبِيرِ؟ قَالُوا: بَلَى، وَلَكِنَّا لَا نَسَلِّمُ إِخْوَانَنَا، قَالَ: فَمُرُوهُمْ فَلْيَخْرُجُوا إِلَى أَيِّ بِلَادٍ أَحَبُّوا، وَلَا يُفْسِدُوا هَذَا الْمَصْرَ عَلَى أَهْلِهِ، وَهُمْ آمِنُونَ»^(٢). فَعَمِلَ كِبَارُ أَهْلِ الْبَصْرَةِ عَلَى الْمَحَافِظَةِ عَلَى أَمْنِ النَّاسِ وَعَدَمِ إِرَاقَةِ الْمَزِيدِ مِنْ دِمَاءِ الْبَصْرِيِّينَ، فَعَمَلُوا عَلَى اسْتِقْرَارِ الْحَيَاةِ السَّيَاسِيَّةِ.

عندها طلب من المِثْنَى بْنِ مَخْرَمَةَ أَنْ يَخْرُجَ إِلَى الْمُخْتَارِ بْنِ أَبِي عُبَيْدَةَ الثَّقَفِيِّ فِي الْكُوفَةِ؛ لِأَنَّ أَنْصَارَهُ فِي الْبَصْرَةِ قَلِيلُونَ^(٣)، فَالتَّحَقَّقَ الْمِثْنَى بِالْمُخْتَارِ، وَأَعْلَمَهُ مَا كَانَ مِنْ أَمْرِ النِّزَاعِ دَاخِلَ الْبَصْرَةِ، وَتَدَخَّلَ زُعَمَاءُ الْقَبَائِلِ فِي حَلِّ الْاِخْتِلَافِ، فَكَانَ الْمُخْتَارُ قَدْ أَزْدَادَ تَعَلُّقًا بِرُؤَسَاءِ الْقَبَائِلِ، فَلَمْ يَبْأَسْ مِنْ أَهْلِ الْبَصْرَةِ، بَلْ عَمِلَ عَلَى كَسْبِ كِبَارِهِمْ طَمَعًا فِيهِمْ^(٤)، فَكَتَبَ إِلَيْهِمْ: «فَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا أَوْ تَكُونُوا مِنَ الدُّنْيَا مَا شِئْتُمْ، وَأَضْمِنُوا لَكُمْ الْجَنَّةَ»^(٥).

(١) الطبري، تاريخ: ٥٣٧/٤؛ ابن خلدون، تاريخ: ٢٦/٣.

(٢) الطبري، تاريخ: ٥٣٧/٤.

(٣) البلاذري، أنساب الأشراف: ٤١٧/٦؛ الطبري، تاريخ: ٥٣٧/٤.

(٤) الطبري، تاريخ: ٥٣٨/٤.

(٥) البلاذري، أنساب الأشراف: ٤١٧/٦؛ الطبري، تاريخ: ٥٣٨/٤؛ ابن كثير، البداية

والنهاية: ٣٠٣/٨.

وكان الكتاب الأوّل موجّهاً إلى الذين التزموا الدّفاع عن المثنّى بن مخزّمة، وهما: مالك بن مسمع وزياّد بن عمرو بن الأشدق، وهما رأسا الأزديّ بالبصرة حينئذٍ. ثمّ كتب كتاباً إلى الأحنف بن قيس، جاء فيه: «من المختار إلى الأحنف ومن قبله، فسلم أنتم، أمّا بعد، فويل أمّ ربيعة من مضر؛ فإنّ الأحنف مورّد قومه سقر، حيث لا يستطيع لهم الصّدر، وإنّي لا أملك ما خُطّ في القدر، وقد بلغني أنّكم سمّيتوني كذاباً، وقد كُذّب الأنبياء من قبلي، ولست بخير من كثير منهم»^(١). وكتب إلى الأحنف:

إذا اشتريت فرساً من مالكا ثمّ أخذت الجوب في شمالكا
فاجعل مصاعاً حذماً من بالكا^(٢).

ويبدو من هذا الكتاب أنّ المختار حاول التأثير على نفسيّة بني تميم وإخافتهم، خصوصاً وما وقع من عداوة متأصّل في النفوس بين الأزديّ وبكر بن وائل من جهة، وقيم وأحلافها من جهة أخرى، فاستغلّ ذلك العداوة من أجل التأثير، عسى وأنّ يحقّق ما يطمح إليه في السّيطرة على البصرة، التي أصبحت إلّا القلّة من أهلها مخالفة للأمويّين في ولائها، الأمر الذي يتطابق مع ما يريده المختار، الذي أعلن الحرب ضدّ الأمويّين وملاحقتهم.

والرّاجح أنّ المختار توصّل إلى نتائج جيّدة مع أهل البصرة، لكنّ عبد الله ابن الزبير أحسّ بخطر ذلك التقارب بين المختار وأهل البصرة، فكان عليه أن يتخذ التدابير اللازمة لإبطال ذلك التقارب، الذي يُعدّ خطراً على آل الزبير؛ لأنّ

(١) البلاذريّ، أنساب الأشراف: ٦/٤١٧؛ الطبريّ، تاريخ: ٤/٥٣٨؛ ابن كثير، البداية والنهاية: ٨/٣٠٣.

(٢) الطبريّ، تاريخ: ٤/٥٣٨.

موقفهم لا يحتمل أيَّ جبهة جديدة قد تنفتح عليهم، خصوصاً مع خسران ولاء العراق لهم.

وعلى هذا الأساس، عمل عبد الله بن الزبير على عزل القُبَاع وتولية أخيه مصعب بدلاً عنه سنة (٦٧هـ / ٦٨٦م)، ويروى أنَّ مصعباً قدم من مكَّة إلى البصرة متلثماً، حتَّى أناخ على باب المسجد، ثمَّ دخل فصعد المنبر، فقال النَّاسُ: أمير، أمير! وجاء الحارث بن عبد الله بن أبي ربيعة القُبَاع، الذي كان لا يزال أمير البصرة وواليها لآل الزبير إلى تلك اللَّحظة، فكشف مصعب لثامه، فعرفوه، وقالوا: مصعب بن الزبير، ثمَّ قال للحارث: إظهار، فصعد حتَّى جلس تحته من المنبر درجة، ثمَّ خطب مصعب، وقال: «يا أهل البصرة، بلغني أنَّكم تلقَّبون أمراءكم، وقد سمَّيتُ نفسي الجزَّار»^(١).

لقد كان الهدف من توجيه مصعب إلى البصرة هو البطش الذي استخدمه الولاية مع أهل البصرة من قبل، بل زاد عليهم بلبقه، وهذا ما يفسِّر لنا عدم رغبة عبد الله بن الزبير في خسارة البصرة ودعم أهلها؛ لذلك، أرسل مصعباً بخطة جديدة تقوم على البطش وتصفية الخصوم، الذين يعملون على إدخال البصرة تحت طاعة المختار.

وبذلك، عمل مصعب على جمع القوَّة، ثمَّ جعلها مستعدَّة للتخلَّص من المختار نهائياً، فانقسمت قبائل البصرة فيما بينها بالنسبة إلى مصعب؛ فتميم ساندته ورحَّبت به^(٢)، وهذا الترحيب ناتج عن مخاوفهم من المختار عندما هدَّدهم وتوعَّدهم في

(١) الطبري، تاريخ: ٤/ ٥٥٨؛ ابن كثير، البداية والنهاية: ٨/ ٣١٦؛ وذكر ابن قتيبة، أنَّه لقَّب نفسه (القصاب). الإمامة والسياسة: ٢/ ٢٥.

(٢) الدِّينوري، الأخبار الطَّوال: ص ٢٩٧.

كتبه التي كتبها للأحنف بن قيس، في حين وقفت عبد القيس مترددة في مساندة مصعب، فأيدّه بعضهم وخالفه آخرون^(١).

وكان مصعب قد كره الخروج لقتال المختار في الكوفة في حالة عدم حضور المهلب بن أبي صفرة معه. ويبدو أنّ السبب الذي حمل مصعباً على الإصرار على حضور المهلب هو ما يتمتع به من خبرة في القتال والمعارك، علاوة على أنّ المهلب الشخصية الأزدية الكبيرة التي تتمتع بتأييد الأزد، الذين يأتمرون بأمره دون معارضة أو تردد، وهذا الأمر يساعد مصعباً على مزيد الاطمئنان، خاصّة وأنّ بعض الأزديين كانوا قد مالوا إلى المختار من قبل مع المشي بن مخزومة العبدي، لذلك، كتب مصعب إلى المهلب وهو والي خراسان آنذاك، لكنّ المهلب كره الخروج بمثل ذلك الأمر؛ إذ ذكر الطبري أنّه «اعتلّ بشيء من الخراج»^(٢)، أي: إنّّه تعلّل بلزوم بقائه من أجل إصلاح أمر الخراج الذي يتعرّض لبعض المشاكل في خراسان حينئذٍ.

لم يرض مصعب بن الزبير بذلك العذر، فأمر محمد بن الأشعث الكندي^(٣) بأن يذهب إلى المهلب بريد يدعوه إلى اللّحاق بقومه بالبصرة، فكان المهلب بن أبي صفرة قد عاتب محمد بن الأشعث، وقال له: «مثلك يا محمد يأتي بريداً؟! أما

(١) ناجي حسن، القبائل العربية في المشرق: ص ١٢٤.

(٢) الطبري، تاريخ: ٥٥٩/٤.

(٣) هو محمد بن الأشعث بن قيس بن معديكرب بن معاوية بن جبله بن عدي بن ربيعة بن معاوية بن الحارث الأكبر بن معاوية بن ثور بن مرتع بن معاوية بن كندي بن غفيرة؛ أمّه أم فروة بنت أبي قحافة عثمان بن عامر، كان محمد يكنى أبا القاسم، قُتل سنة ٦٧ هـ. ابن سعد، الطبقات الكبرى: ٦٥/٥؛ ابن الأثير، أسد الغابة: ٣١١/٤؛ ابن حجر، الإصابة: ٢٥٨/٦.

وجد مصعب يريداً غيرك؟!»^(١). فكان ردُّ مُحَمَّد: «ما أنا بريد أحد، غير أنَّ نساءنا وحرماننا غلبنا عليهم عبداننا وموالينا»^(٢).

إنَّ قول مُحَمَّد بن الأشعث المتقدِّم يدلُّ على السَّخَط الذي عمَّ ضدَّ المختار في الكوفة؛ لأنَّه عمل على تقديم الموالي والعبيد على ساداتهم من العرب، فكره بعض أشراف وسادات ورؤساء القبائل من أهل الكوفة الذين يطاردتهم المختار لاشتراكهم بقتل الإمام الحسين عليه السلام والبقاء مع المختار لذلك، والتحقوا بمصعب ابن الزبير بالبصرة، وانضمُّوا إليه؛ من أجل مساعدتهم على التخلُّص من المختار، وهذا يعكس مدى تدهور العلاقة بين المختار وقبائل الكوفة^(٣).

وهناك رواية تذكر أنَّ أكثر من عشرة آلاف رجل قد هربوا من الكوفة إلى مصعب، واجتمعوا به بالبصرة، وعرضوا عليه فكرة مقاتلة المختار والقضاء عليه^(٤).

ويبدو واضحاً ما في الرقم المذكور في الرواية السابقة من مبالغة، ولكنَّه يشير مع ذلك إلى كثرة مَنْ التحق من أهل الكوفة بصفوف مصعب في البصرة، فجاءت الأمور مجتمعة لمصلحة آل الزبير، وكان اكتمال صفوف مصعب بقدوم المهلب بن أبي صفرة من خراسان إلى البصرة، «فقدم في تجملٍ عظيم، ومالٍ ورجالٍ وعدَدٍ وعُدَدٍ، وجيشٍ كثيفٍ، وفرح به أهل البصرة، وتقوى به مصعب»^(٥).

(١) الطبري، تاريخ: ٤/ ٥٥٩؛ ابن أَعثم، الفتوح: ٦/ ٢٨٤.

(٢) الطبري، تاريخ: ٤/ ٥٥٩.

(٣) انظر: ناجي حسن، القبائل العربيَّة في المشرق: ص ١٢٦.

(٤) الدِّينوري، الأخبار الطَّوال: ص ٢٩١؛ ويُنظر: نشوان الحميري، الحور العين: ص ١٨٢.

(٥) ابن كثير، البداية والنهاية: ٨/ ٣١٦.

ثم عمل مصعب على تنظيم جيشه من أجل خوض القتال ضد المختار، وحمل أهل البصرة في البرّ وعلى السفن^(١) صوب الكوفة، وعندما علم المختار بقدوم مصعب وأهل البصرة في السفن، سكر^(٢) الفرات، وبقيت سفن أهل البصرة تجرّ على الطين^(٣)؛ لذلك، كان أهل البصرة يقولون:

عَوَدَنَا الْمَصْعَبُ جَرَّ الْقَلْسِ^(٤) بِالزَّنَبِيَّاتِ^(٥) الطَّوَالِ الْقَعْسِ^(٦)

فلما رأى ذلك أهل البصرة، خرجوا يمشون، ولما بلغ المختار أنهم أقبلوا إليه، وجهه إلى كلّ خمسٍ من أخماس أهل البصرة رجلاً لملاقاتهم^(٧)، فكان المهلب بن أبي صفرة يقود خمسين من أخماس البصرة، وكانوا كثيري العدد والفرسان، وهم الأزد وتميم، وكان الأحنف حاضراً، فلم يشهر نفسه^(٨).

ويبدو أنّ المواجهة كانت شديدة بين الطرفين، جعلت المهلب ينادي في أصحابه: «كروا كرة صادقة، فإنّ القوم قد أطمعوكم، وذلك بجولتهم التي

(١) ابن كثير، البداية والنهاية: ٣١٦ / ٨.

(٢) سكر: سكر النهر: سدّ فاه، وكلّ شقّ سدّ مجرى الماء. ابن منظور، لسان العرب: ٣٧٥ / ٤.

(٣) البلاذري، أنساب الأشراف: ٤٣٦ / ٦؛ ويُنظر: الطبري، تاريخ: ٥٦٢ / ٤.

(٤) القلس: جبل ضخم من ليف أو خوص النخل أو غيرهما. الفيروز آبادي، القاموس المحيط: ٢٤٢ / ٢.

(٥) الزنبريات: مفرداها زنبرية، وهي سفينة ضخمة. ابن منظور، لسان العرب: ٣٣٠ / ٤.

(٦) الطبري، تاريخ: ٥٦٢ / ٤؛ والقعس: نقيض الحذب، وهو خروج الصّدر ودخول البطن. ابن منظور، لسان العرب: ١٧٧ / ٦؛ وذكر البلاذري الشطر الثاني من بيت الشعر هكذا: بالزَّنَبِيَّاتِ الطَّوَالِ الْمَلْسِ. أنساب الأشراف: ٤٣٦ / ٦.

(٧) البلاذري، أنساب الأشراف: ٤٣٧ / ٦؛ الطبري، تاريخ: ٥٦٣ / ٤.

(٨) البلاذري، أنساب الأشراف: ٤٣٧ / ٦.

جالوها»^(١).

وكان محمد بن الأشعث يقول لجماعته من أهل الكوفة: «دونكم ثأركم»^(٢)، فكانوا أشدَّ على أصحاب المختار من أهل البصرة، لا يدركون منهزماً إلا قتلوه، ولا يأخذون أسيراً فيعفون عنه^(٣).

ثمَّ تمكَّن أصحاب مصعب من محاصرة المختار وأتباعه في القصر، ويذكر أبو مخنف أنَّ الحالة التي أصبح عليها المختار وأصحابه كانت ممَّا يرثى له، فأهل الكوفة وقفوا ضده حتَّى أصابهم الجهد، وحاصروهم في القصر، لا تخرج له خيل إلا رُميت بالحجارة من فوق البيوت، ويصبُّ عليها الماء القذر، فكانت معاشهم أفضلها من نسائهم، فكانت المرأة تخرج من منزلها معها الطعام واللطف والماء قد التحفت عليه، فتخرج كأنَّها تريد المسجد الأعظم للصلاة، وكأنَّها تأتي أهلها وتزور ذات قرابة لها، فإذا دنت من القصر، فُتِح لها فتدخل على زوجها وحميمها بطعامه وشرابه ولطفه، فلَمَّا بلغ مصعب وأصحابه خبر تلك النسوة، قطع عليهنَّ الطريق^(٤).

ثمَّ إنَّ المختار لم يستسلم لمصعب، بل وجد أنَّ القتال هو الحلَّ الأمثل الذي ينهي مأساة أتباعه، فاغتسل، وتحنَّط، ثمَّ وضع الطَّيب على رأسه ولحيته، وخرج في تسعة عشر رجلاً، فضارب بسيفه حتَّى قُتل^(٥)، ونزل من بقي من أصحاب

(١) الطبري، تاريخ: ٤ / ٥٦١.

(٢) الطبري، تاريخ: ٤ / ٥٦١.

(٣) الطبري، تاريخ: ٤ / ٥٦١.

(٤) الطبري، تاريخ: ٤ / ٥٦٨-٥٧٠.

(٥) الطبري، تاريخ: ٤ / ٥٧٨.

المختار (وهم نحو ستة آلاف) على حكم مصعب، فقتلهم جميعاً^(١). وكان ذلك في سنة (٦٧هـ/٦٨٦م)، وفي رواية أخرى أن مصعباً استشار الأحنف بن قيس بشأن الذين نزلوا على حكمه من أتباع المختار بعد مقتله، فقال له: أرى أن تعفو عنهم؛ فإن العفو أقرب للتقوى، فقال أشراف أهل الكوفة: اقتلهم، وضجّوا، فلما قُتلوا، قال الأحنف: ما أدركتم بقتلهم ثأراً، فليته لا يكون في الآخرة وبالاً^(٢).

وهناك رواية تذكر حديثاً دار بين أبي بكر الهذلي^(٣) من طرف أهل البصرة وبين الحسن بن زيد الكوفي^(٤) في مجلس أبي العباس السفّاح -أول خلفاء بني العباس-، جاء فيه: قال أبو بكر: سلهم يا أمير المؤمنين -يعني أبا العباس- كم كانت عدّتهم يوم دخلنا عليهم مسجدهم بالكوفة، فذبحنا منهم ثلاثين ألفاً ذبح الحملان! فأراد الحسن بن زيد أن يكسر قول أبي بكر، فقال: مع من كنتم يومئذ؟ فقال أبو بكر: كنّا مع مصعب بن الزبير بن العوام، قال: فمن كنتم تقاتلون؟ قال: كنّا نقاتل المختار بن أبي عبيدة الثقفي، ورفع صوته، فقال الحسن: على ما كنتم يا أهل البصرة، على باطل أم على حق؟ فقال أبو بكر: كنّا على باطل، وكنتم على حق،

(١) المسعودي، التنبيه والإشراف: ص ٢٧٠.

(٢) البلاذري، أنساب الأشراف: ٦/٤٤٢.

(٣) هو سلمة بن عبد الله، أبو بكر الهذلي، كان عالماً بأيام العرب وسيرها، وأحد أصحاب الحديث، لقي الزهري والحسن البصري ومحمد بن سيرين، وكان بصرياً، توفي سنة ١٥٩هـ. الصفدي، الوافي بالوفيات: ١٥/٢٠٢؛ ويُنظر: المزّي، تهذيب الكمال: ٣٣/١٥٩.

(٤) الحسن بن زيد الكوفي: هو غير الحسن بن زيد بن الحسن بن علي بن أبي طالب عليه السلام، لم أعر على ترجمة له.

فضعفتهم عن حقِّكم، وغلب باطلنا حقَّكم^(١).

كانت هذه المناظرة في مجلس أبي العباس السَّفَّاح، وكان كلُّ طرف يُحاول أن يبرِّر موقفه في تلك الواقعة بين الطرفين، خاصَّةً وإنَّ حديثهم كان غاية في الأهمِّيَّة؛ لوجود أبي العباس السَّفَّاح، الذي بدأ دعوته لإرجاع الحقِّ لبني هاشم.

والغريب في الرواية المتقدِّمة الذَّكر هو العدد المذكور من القتلى، وهو الثلاثون ألفاً المذبوحون من قبل أهل البصرة! فمن جهةٍ، نجد أنَّ الأحنف بن قيس أشار على مصعب بن الزبير بأن يعفو ويصفح عن أهل الكوفة، لكنَّ أسياذ الكوفة أبوا ذلك^(٢)، فتمَّ قتل ستَّة آلاف منهم، وإذا ما صحَّت رواية ابن بكَار الماضية، فهذا يعني أنَّ العدد المذكور ممَّنْ ذُبِح من أهل الكوفة نقلاً يعارض العقل، ومن ثمَّ، لا يمكن التسليم لمثل هذه الرِّوايات.

وبعدما تمكَّن مصعب بن الزبير من قتل المختار، أصبح نفوذ آل الزبير يمتدُّ على البصرة والكوفة، أي: العراق بالكامل، وكان هذا التوسُّع في نفوذ آل الزبير يعني تزايد حدَّة التنافس بين الزَّبيريين أنفسهم، فما إنَّ تمكَّن مصعب من سيطرته على الكوفة، حتَّى عزله أخوه عبد الله عن ولاية البصرة، وولَّى مكانه ابنه حمزة بن عبد الله بن الزبير، واعتذر إلى أخيه مصعب، قائلاً: «والله، إنِّي لأعلم أنَّك أحرى وأكفأ من حمزة، ولكنِّي رأيت فيه رأي عثمان في عبد الله بن عامر، حين عزل أبا موسى الأشعريَّ وولَّاه [البصرة]»^(٣).

وهذا النصُّ يكشف لنا مدى تعاطف بعض الخلفاء والأمراء مع أقربائهم،

(١) الزبير، ابن بكَار، الأخبار الموقَّعات: ص ١٦٠.

(٢) يُنظر: الطبري، تاريخ: ٥٧٨/٤.

(٣) الطبري، تاريخ: ٥٧٨/٤.

ومن ثمّ، عملوا على توليتهم بعض المناصب الحسّاسة في الدّولة، على الرّغم من معرفتهم بعدم قدرتهم على القيام بتلك المهامّ التي أوكلت إليهم، وعلى الرّغم من وجود الشخصيّات الكفوءة لتولّي تلك الأعمال، ومن ثمّ، كان هؤلاء الخلفاء والأمراء قد أوجدوا التعصّب لأحزابهم وأبنائهم، وهذا الأمر في النهاية أثر على تطوّر الدّولة الإسلاميّة، وأربك وضعها السّياسي على المستوى الداخلي؛ لأنّ أمور المسلمين آلت إلى أنفُسٍ شحيحةٍ في تحقيق النجاح، وبالمقابل، حرمت ذوي القدرة من ممارسة ذلك الدّور.

بالإضافة إلى هذا، فإنّ عبد الله بن الزبير ربّما كان يطمح إلى أبعد ممّا وصل إليه، فقد نصب نفسه خليفة المسلمين، فبدأ يعدّ العدّة من أجل ولاية العهد، وبذلك، نجده يقرّب ابنه حمزة، ويُبعد أخاه مصعباً؛ لأنّه الأجدر بذلك المنصب لو قدّر الاستمرار لآل الزبير في حكم الدّولة، وبذلك، نجده يولّي ابنه حمزة البصرة، حتّى يمهله الوقت الكافي لممارسة الحياة السّياسيّة، ويكتسب الخبرة، شأنه في ذلك شأن أسلافه.

تولّى حمزة بن عبد الله بن الزبير أمر البصرة سنة (٦٧هـ/ ٦٨٦م)، ولم يبق في البصرة إلّا لفترة قصيرة؛ لأنّه لم يوفّق في إدارتها، وحمل أهلها على طاعة آل الزبير، بل أظهر أنّه غير أهل للقيادة والإدارة؛ إذ لم يتحلّ بصفات رجال السّياسة، بل كان على العكس من ذلك متهوراً ببعض الشيء؛ إذ طلب الخراج هنا، فتأخّر عليه صاحبه، فقام إليه حمزة بن عبد الله بسيفه فضربه، فقتله، فقال الأحنف: «ما أحدٌ سيف الأمير!»^(١).

(١) الطبري، تاريخ: ٤/ ٥٧٨؛ ويُنظر: البلاذري، أنساب الأشراف: ٦/ ٤٣٤.

ولما ازداد أمر البصرة سوءاً جرّاء تصرّفات حمزة، كتب الأحنف إلى عبد الله بن الزبير بذلك، وسأله أن يُعيد مصعباً على البصرة^(١)؛ وبذلك، فشل حمزة في تحقيق رغبة أبيه في ولايته على البصرة، فكان يقول بحق ابنه: «أردتُ أن أباهي به بني مروان، فنكص»^(٢).

وبعودة مصعب بن الزبير إلى ولاية البصرة مرّة ثانية، بدأت مرحلة جديدة من الصّراع السَّيَاسِيّ بين العراق والشّام.

أمّا بالنّسبة إلى عبد الملك بن مروان (٦٥هـ / ٦٨٥م)، فإنّه كان يخشى من تسلّط مصعب، ومن ثمّ فكّر في مهاجمته في عقر داره، فكان عبد الملك يخاطب أهله بقوله: «إنّ مصعب بن الزبير قد قتل المختار، ودانت له أرض العراق وسائر البلدان، ولست آمنه أن يغزوكم في عقر بلادكم، وما غزي قومٌ في عقر دارهم إلّا ذُلُّوا»^(٣).

لذلك دبر عبد الملك بن مروان خطّة تتضمّن إثارة البصرة ضدّ مصعب لإضعاف أمره وتشتيت القبائل من حوله فيها، ومن ثمّ، مهاجمته في معقله البصرة قبل أن يقوم مصعب نفسه بمهاجمة عبد الملك وبلاد الشّام في حملة لا يُعرف نتائجها.

(١) الطبريّ، تاريخ: ٤ / ٥٧٨؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ٣ / ٣٤٢.

(٢) البلاذريّ، أنساب الأشراف: ٦ / ٤٣٥؛ الطبريّ، تاريخ: ٤ / ٥٧٨؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ٣ / ٣٤١؛ ابن كثير، البداية والنهاية: ٨ / ٣٢٢.

(٣) الدّينوريّ، الأخبار الطّوال: ص ٣٠١؛ والقول في نهاية الخطبة استعاره عبد الملك من كلام الإمام عليّ عليه السلام عندما خاطب أهل الكوفة لينهض بهم لمحاربة معاوية، الذي أغار جيشه على الأنبار، وعاث فيها فساداً. القاضي نعمان، دعائم الإسلام: ١ / ٣٩٠؛ الشّريف الرّضي، نهج البلاغة: ١ / ٦٨.

ويبدو أنّ عبد الملك كان يخشى أن يصيبه ما أصاب المختار عندما هاجمه مصعب في عقر داره الكوفة، لذلك، ولهذا، لم يكن ليبقى دون أن يقوم هو بالمبادرة إلى مهاجمة مصعب على أرض العراق، وإرباك الوضع هناك.

ولتنفيذ الخطة المتقدمة، استغلّ عبد الملك فرصة عدم تواجد مصعب، الذي كان في الكوفة^(١)، وكان مصعب يوليّ عمر بن معمر القرشي^(٢) على البصرة أثناء غيابه عنها^(٣)، فاختار عبد الملك خالد بن عبد الله بن خالد بن أسيد^(٤) ليذهب إلى البصرة، ويمهّد الطريق لجيش الشام. فقدم خالد بن عبد الله إلى البصرة مستخفياً في مواليه وخاصّته، حتّى نزل على عمرو بن أسمع الباهلي^(٥).

ويبدو أنّ خالد بن عبد الله بن قيس كان يؤنّب أحد الذين انضمّوا إلى خالد بن عبد الله، وأجاره، فكان ردّه على الأحنف: «إنّ حالي قد اشتدّت، وإنّ عليّ ديناً،

(١) يُنظر: البلاذري، أنساب الأشراف: ٨٠ / ٦.

(٢) عمر بن عبيد الله بن معمر بن عثمان بن عمرو بن كعب بن سعد بن تميم، أبو حفص القرشي التميمي، أحد وجوه قريش وكرمائها، وليّ فتوحاً كثيرة، وتولّى لعبد الله بن الزبير، وقدم دمشق وافداً على عبد الملك بن مروان، مات سنة ٨٢ هـ. ابن عساكر، تاريخ دمشق: ٤٥ / ٢٨٦؛ الزركلي، الأعلام: ٥ / ٥٤.

(٣) البلاذري، أنساب الأشراف: ٨٠ / ٦.

(٤) خالد بن عبد الله بن خالد بن أسيد: ابن أبي العاص بن عبد شمس بن عبد مناف، أبو أمية القرشي، كان مع مصعب بن الزبير في العراق، ثمّ لحق بعبد الملك بن مروان، وشهد معه مقتل مصعب، وولّاه البصرة، ثمّ عزله عنها، وضمّها لأخيه بشر بن مروان. ابن عساكر، تاريخ دمشق: ١٦ / ١٢٢.

(٥) عمرو بن أسمع الباهليّ: أحد أشراف البصرة، أجار خالد بن عبيد الله بن خالد، وعمل على توثيق الأمر لخالد مع صاحب الشرطة، فلم ينجح. يُنظر: الطبري، تاريخ: ٣ / ٥.

فقال الأحنف: وهل تكفيك عشرة آلاف أكلّم المصعب فيأمر لك بها^(١). فالنصّ يعكس حالة أهل البصرة الاقتصاديّة، زمن آل الزبير، التي كما يبدو قد ساءت، ما جعل بعض الناس يطلبون الأموال مقابل أيّ فعل يؤدّونه، ويتعدّون عن سلطة آل الزبير.

ثم إنَّ خالد بن عبد الله تمكّن من الحصول على إجارة عمرو بن أصمغ، الذي أرسل إلى صاحب شرطته معمر بن عبيد الله بالبصرة عباد بن الحصين^(٢)، يرغب في كسب تأييده والتستّر عليه، ومن ثمّ، يكون له ظهراً^(٣). لكنّ محاولة أصمغ تلك لم تُفلح؛ إذ إنَّ صاحب الشرطة ردّ على أصمغ بقوله: «والله، لا أضع لبد^(٤) فرسي حتّى آتيك في الخيل»^(٥).

عند ذلك اشتدّ الأمر بخالد بن عبد الله، الذي خرج راكضاً إلى مالك بن مسمع، وقال له: «اضطّرت إليك، فأجرني»^(٦)، فما كان من مالك بن مسمع إلّا القبول بإجارته، وعمل من ساعته على دعوة قبائل بكر بن وائل والأزد ليصدّوا خيل صاحب الشرطة عباد بن الحصين الذي أقبل بخيله بحثاً عن خالد بن عبد

(١) البلاذريّ، أنساب الأشراف: ٧ / ٨٤.

(٢) عباد بن الحصين بن يزيد بن عمرو، الحبطيّ، التميميّ، فارس تميم في عصره، ولي شرطة البصرة أيام ابن الزبير، وكان مع مصعب أيام قتال المختار، أدرك فتنة ابن الأشعث وهو شيخ، ورحل إلى كابل، فقتل هناك حدود سنة (٨٥هـ). ابن قتيبة، المعارف: ص ٤١٤؛ الزركليّ، الأعلام: ٣ / ٢٥٧.

(٣) الطبريّ، تاريخ: ٥ / ٣.

(٤) لبد: ألبَد الفرس: شدّه عليه، أي: وضعه على ظهره. الزبيديّ، تاج العروس: ٥ / ٢٣٤.

(٥) الطبريّ، تاريخ: ٥ / ٣.

(٦) البلاذريّ، أنساب الأشراف: ٦ / ٨٤؛ الطبريّ، تاريخ: ٥ / ٣.

الله، فتواقف مع قبائل أهل البصرة التي أجارت خالداً، ويذكر أنهم تواقفوا يومهم دون قتال، فلما كان اليوم الثاني، غدوا إلى جفرة نافع بن الحارث^(١)، فأصبح أصحاب خالد جفريّة يُنسبون إلى الجفرة، وأصحاب ابن معمر زبيريّة^(٢). وعلى هذا الأساس قسّم ابن أعثم أهل البصرة إلى صَفَيْن: زبيريّين ومروانيّين^(٣).

ثم إنّ النَّاس بقوا أيّاماً في البصرة دون قتال، حتّى أرسل مصعب مدداً لصاحب شرطته ابن معمر ألف مقاتل^(٤)، وأمدّ عبد الملك بن مروان خالد بن عبد الله بقوة تحت إمرة عبيد الله بن زياد بن ظبيان^(٥)، الذي تلكأ في دخول البصرة بسبب المعارك التي وقعت بين خالد وأهل البصرة، فخشي البعض زجّ نفسه في ساحة الوغى قبل أن يعرف المسالك المناسبة لدخوله، فأرسل أحد أتباعه لدخول البصرة ليأتيه بالخبر اليقين، وما إن دخل، حتّى وجد الناس قد تفرّقت، وقيل: اقتتلوا في البصرة أربعة وعشرين يوماً^(٦)، فضجّوا من الحرب، ومشت السُفراء

(١) جفرة خالد: موضع بالبصرة، وهو الذي نُسبت إليه المعركة التي حدثت بين خالد بن عبد الله بن أسيد وبين أهل البصرة من أصحاب مُصعب، وكانت الغلبة لأصحاب مصعب سنة ٦٩هـ. البكريّ، معجم ما استعجم: ٢/ ٤٨٧؛ ياقوت الحمويّ، معجم البلدان: ٢/ ١٤٧.

(٢) الطبريّ، تاريخ: ٣/ ٥.

(٣) الفتوح: ٢٥٤/ ٦.

(٤) البلاذريّ، أنساب الأشراف: ٨٥/ ٦؛ الطبريّ، تاريخ: ٤/ ٥.

(٥) عبيد الله بن زياد بن ظبيان: من أتباع عبد الملك بن مروان، وأحد قادة جيشه، أرسله عبد الملك في مدد لإسناد خالد بن عبيد الله بن خالد عندما دخل البصرة، فلم يستطع أن يدخلها، وقيل: هو من قتل الزبير واحتزّ رأسه، فأكرمه عبد الملك على ذلك. ابن خلدون، تاريخ: ٣/ ٢٤.

(٦) البلاذريّ، أنساب الأشراف: ٨٦/ ٦؛ الطبريّ، تاريخ: ٤/ ٥؛ ويُنظر: المسعوديّ، مروج الذهب: ٣٠٦/ ٣.

بينهم لطلب الصِّلح، فاصطلحوا على أن يخرج خالد من البصرة، وبقيَّة أهلها آمنون^(١).

ويبدو أنَّ هناك بعض الأنصار لعبد الملك بن مروان في البصرة، الذين عملوا على استغلال غياب الوالي، فرغبوا في الإطاحة بحكم آل الزبير، وصرف نفوذهم عن البصرة، ومن ثمَّ، يجعلون من البصرة تابعاً لحكومة الشَّام، وهذا يعني أنَّ الحياة السَّياسِيَّة في البصرة لم تكن تتماشى مع رغبة أهلها، بل كانوا منقسمين على تيارات سياسيَّة كلٌّ تيار منها يعمل من أجل مصلحة صاحبه، لكنَّ أتباع عبد الملك كانوا قليلين بالبصرة بالمقارنة مع أصحاب مصعب، ومن ثمَّ، رجحت كفة آل الزبير على كفة حكومة الشَّام، فرجعت البصرة تحت نفوذهم.

ولما انتهت جهود خالد بن عبد الله بالبصرة، لحق بالشَّام، ولم يُبدِ عبد الملك بن مروان أيَّ ردٍّ فعل تجاه فشل خططه للإطاحة بمصعب، بل كان شغله الشاغل بالدرجة الأولى التخلُّص من عمرو بن سعيد بن الأشدق^(٢).

أمَّا مصعب بن الزبير الذي هدأت له البصرة بعد تلك الأحداث، فقد غضب

(١) البلاذري، أنساب الأشراف: ٨٦/٦.

(٢) بعد موت معاوية الثاني أصبح منصب الخلافة شاغراً، فعقدت الأطراف الأمويَّة المتصارعة مؤتمراً لها بالجالية موضع بالأردن، واتفقوا على اختيار مروان بن الحكم خليفة على أن يكون خالد بن يزيد بن أبي سفيان ولياً للعهد أولاً، وعمرو بن سعيد بن الأشدق ولياً للعهد ثانياً، ولكن، ما إن وصل مروان إلى دفة الحكم، حتَّى ضرب بالأرض مقررات مؤتمر الجالية، وعيَّن ابنه عبد الملك خليفة من بعده، ولما تقلَّد عبد الملك دفة الحكم، أعلن عمرو ابن سعيد الأشدق تمرده، ولكنَّ عبد الملك تمكَّن من القضاء عليه بالغدر، فقتله ورمى برأسه من فوق القصر بدمشق، على الرَّغم من أنَّ مروان كان ابن عمِّه. للتفصيل راجع: ابن قتيبة، الإمامة والسَّياسة: ٢/٢٢؛ يعقوبي، تاريخ: ٢/١٨٧؛ الطبري، تاريخ: ٤/٤١٤.

على الذين ساندوا خالد بن عبد الله، فشخص إلى البصرة، فأقبل على أشرافها من الناس، وعمل على تأنيبهم والنيل من كرامتهم^(١)، ثم أمر أحد أتباعه بهدم دورهم والاستيلاء على متاعهم^(٢).

ويبدو أن هذه الإجراءات كانت ناتجة عن غضب مصعب على أولئك الذين ساندوا حكومة الشام داخل البصرة، فكانت إجراءاته التعسفية تلك ضد أهل البصرة سبباً رئيساً في قلب المعطيات ضد آل الزبير داخل البصرة؛ لأن إجراءاته زحزحت النفوذ الزبيري عن العراق، حيث عمل أشراف أهله على مكاتبة عبد الملك يدعونه إلى أنفسهم، ويخبرونه أنهم مبايعوه، فلم يبقَ بالبصرة شريف إلا كتب إليه غير المهلب بن أبي صفرة^(٣).

إن هذه الأسباب تجعلنا لا نتفق مع الرأي القائل: «إن الوضع الذي كان عليه مصعب تجاه تلك القبائل منعه القيام بأية مخاطرة أو الإقدام على عمل من شأنه أن يؤزّم علاقاته بتلك القبائل، وهو ينتظر غزواً متوقعاً بين آونة وأخرى من أهل الشام»^(٤).

إن هذا الرأي لم يفكر به مصعب، والدليل على ذلك ما فعله بحق أشراف أهل البصرة وساداتها؛ إذ روي أن مصعباً ضرب كبار أهل البصرة مائة سوط، وحلق رؤوسهم ولحاهم، وهدم دورهم، وصهرهم في الشمس ثلاثة أيام، وحملهم على طلاق نسائهم، وجر أولادهم في البعوث، وطاف بهم في أقطار البصرة، وأحلفهم

(١) الطبري، تاريخ: ٤ / ٥.

(٢) الطبري، تاريخ: ٤ / ٥.

(٣) البلاذري، أنساب الأشراف: ٨٤ / ٧.

(٤) د. ناجي حسن، القبائل العربية في المشرق: ص ١٣١.

أن لا ينكحوا الحرائر^(١).

لذلك كلّهُ، نجد أنّ مصعباً قد ارتكب الخطأ الفظيع بمعاينة أهل البصرة، فتحوّلت المعطيات ضده، واختلف عليه أهل العراق، وجعل يتأمل مَنْ معه، فلا يجدهم يقاومون أعداءه^(٢).

وقيل: عندما وقعت الحرب بين مصعب بن الزبير وعبد الملك بن مروان سنة (٧١هـ / ٦٩٠م)، لم يقف مع مصعب سوى رجلين من أهل البصرة^(٣)، وبمقتل مصعب بن الزبير، انتهى نفوذ آل الزبير في البصرة، لتدخل تحت نفوذ حكم الدولة الأمويّة من جديد، ولكن، هذه المرّة تحت جناح الفرع المروانيّ، لإعادة القبضة الحديديّة على البصرة بعدما خرجت عن سلطة الأمويّين فترة من الزمن.

(١) الطبريّ، تاريخ: ٥/ ٦؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ٣/ ٣٦٥.

(٢) ابن كثير، البداية والنهاية: ٨/ ٣٤٦.

(٣) الزبير بن بكار، الأخبار الموفّقيّات: ص ٥٥٩.

المبحث الرابع

البصرة في العهد المرواني

أولاً: البصرة زمن عبد الملك بن مروان

- المطلب الأول: البصرة زمن عبد الملك بن مروان

بعد مقتل مصعب بن الزبير تسلّط عبد الملك بن مروان على العراق، وأدخله تحت نفوذ الدولة الأموية من جديد، فأخضع البصرة والكوفة لحكمه، وبذلك الإخضاع لم تكن الحياة السياسية في البصرة قد هدأت، بل على النقيض من ذلك؛ إذ أصبحت البصرة تعاني من مشاكل جديدة إزاء مسألة ولايتها ومن يُدير أمرها، فمقتل مصعب ترك فراغاً سياسياً هناك؛ إذ بقيت البصرة مفتقدة لوالٍ يسدّ ذلك النقص، الذي على أثره تصاعد الصراع بين شخصيتين بصريّتين، فكانت سنة (٧١هـ/ ٦٩٠م) فترة منافسة على الرياسة في البصرة بين عبد الله بن أبي بكر^(١)

(١) عبيد الله بن أبي بكر: أبو حاتم، ولي إمارة سجستان مرتين زمن زياد بن أبيه، بين سنة (٥٠ إلى ٥٣هـ)، وولي قضاء البصرة، ثم تولى إمارة سجستان في إمرة الحجاج. يُنظر: الذهبي، سير أعلام النبلاء: ١٣٨/٤؛ وللمؤلف نفسه، تاريخ الإسلام: ٤٧٨/٥؛ الصفدي، الوافي بالوفيات: ٢٤٠/١٩.

وحمran بن أبان^(١)، فقد سعى كل واحد منهما إلى الحصول على الرِّعامة هناك^(٢). وكان عبيد الله بن أبي بكرة يفتخر على حمran بأنه أغنى منه مالاً، ووقف مع أتباع عبد الملك بن مروان^(٣) عندما بعث خالد بن عبد الله بن خالد بن أسيد لتأليب أهل البصرة ضدّ مصعب بن الزبير؛ لذلك، كانت فرصة ابن أبي بكرة أقوى من منافسه للحصول على زعامة إمرة البصرة، فقبل حمran بن أبان: «إنّك لا تقوى على ابن أبي بكرة، فاستعن بعبد الله بن الأهم^(٤)؛ فإنّه إن أعانك، لم يقوَ عليك ابن أبي بكرة»^(٥). فاستعان حمran بابن الأهم، فحصل على زعامة البصرة، فجعل حمran عبد الله بن الأهم على شرطة البصرة^(٦)، ولا نعرف بالضبط فيما إذا كان أهل البصرة قد قبلوا ولاية حمran عليهم أم رفضوها؛ فليس لدينا نصوص بهذا الشأن من أجل توضيح ذلك.

والظاهر أنّ أهل البصرة قد قبلوا بسلطة حمran بن أبان على مصرهم، دون اللّجوء إلى المعارضة، أو حتّى التصعيد ضده، وما يؤكّد هذا الكلام، أنّ المنافس

(١) عن حمran بن أبان، يُنظر: ابن قتيبة، المعارف: ص ٤٣٥؛ الصّفديّ، الوافي بالوفيات: ١٣/١٠٣؛ ابن حجر، الإصابة: ٢/١٥٣؛ السيوطي، إسعاف المبتطأ برجال الموطأ: ص ٢٧. ويُنظر: بداية هذا الفصل: ص ٢٣٢.

(٢) ابن كثير، البداية والنهاية: ٨/٣٤٩.

(٣) البلاذريّ، أنساب الأشراف: ٦/٨٩؛ الطبريّ، تاريخ: ٥/١٣.

(٤) هو عبد الله بن سنان بن خالد بن منقر بن عبيد بن مقاعس بن زيد مناة بن تميم، كان والياً للإمام عليّ عليه السلام على كرمان بناحية فارس، ووفد على عمر بن عبد العزيز في أيّامه فوعظه. ابن عساكر، تاريخ دمشق: ٢٧/١٠٧.

(٥) الطبريّ، تاريخ: ٥/١٣؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ٣/٣٨٧.

(٦) الطبريّ، تاريخ: ٥/١٣. ويُنظر ملحق رقم (١).

الآخر على زعامة البصرة (عبيد الله بن أبي بكر) لم يرَص بالوضع هناك؛ لأنَّ سكوته على ذلك يعكس خسارته كلَّ ما قدَّمه من مساعدة لأتباع عبد الملك عندما قدموا البصرة؛ لذلك، خرج يطلب مساعدة عبد الملك بن مروان، الذي كان متواجداً في الكوفة، فما كان من عبد الملك إلَّا أن ولى خالد بن عبد الله بن خالد بن أسيد على البصرة، وقال له: «أكرم جفريتك»^(١). يعني: الذين قاتلوا معه يوم الجفرة ونصروه على عمّال ابن الزبير، فعمل خالد على إكرام أتباعه، فجعل عبيد الله بن أبي بكر نائباً له على ولاية البصرة، فقدمها وعزل حمران بن أبان، الذي بقي على أمر البصرة فترة زمنيّة يسيرة^(٢). وبذلك، يكون عبيد الله بن أبي بكر، أوّل والٍ على أمر البصرة لحساب الفرع المروانيّ للدولة الأمويّة.

ويبدو أنّ مشاكل البصرة قد تفاقت بوجه ولاية عبد الملك بن مروان، وفقدت الاستقرار طول السنوات الخمس الأولى من حكم عبد الملك؛ إذ ولى على البصرة أكثر من والٍ! حتّى أنه استعان بعمّال عبد الله بن الزبير الذين ضبطوا له البصرة عندما كانت تابعة لنفوذه؛ إذ يُذكر أنّ عبد الملك بن مروان ولى عمر بن عبيد الله ابن معمر بن عثمان التميمي الذي كان يلي أمر البصرة لابن الزبير، فكان عبد الملك قد أفشى فيه من الجود ما تحدّث به النَّاس في الآفاق، كلّ ذلك من أجل ضبط البصرة، لكنّه لم يستطع ذلك، فأغاض عمله عبد الملك بن مروان، فقال له: «أنت لابن الزبير سيفٌ مشحودٌ، ولي شفرةٌ كليله»^(٣)، والله، لأبعثنك إلى بلدة

(١) خليفة بن خيَّاط، تاريخ: ص ٢٠٥؛ ابن عساكر، تاريخ دمشق: ١٦/ ١٢٥.

(٢) الطبري، تاريخ: ٥/ ١٣.

(٣) كليله: يقال: سيفٌ كهامٌ: كليلٌ عن الضرب، وكهَمَ الرَّجُلُ يَكْهَمُ كِهَاماً: إذا كان بطيئاً عن النصر والحرَب. الفراهيدي، كتاب العين: ٣/ ٣٨٢-٣٨٣.

يتضاءل بها شخصك»^(١).

وعلى هذا الأساس، نجد أنَّ عبد الملك كان يحاول استغلال الشخصيات القويَّة والمعروفة بقدرتها على حفظ الأمن لمصلحة الأمراء والحكَّام، الذين يتربَّعون على عرش السَّلمة، ومن ثَمَّ، هذا ما حدث مع أهل البصرة، الذين تعرَّضوا لشدَّة الحُكَّام واختلاف الولاة.

إلَّا أنَّ المؤرِّخين لم يذكروا لنا عن هذه الفترة من تاريخ البصرة الأحداث السَّياسِيَّة بشيء من التفصيل، بل كلَّ ما وجدناه أيَّام ولاية خالد بن عبد الله بن خالد هو قتاله للأزارقة الذين نزلوا بناحية الأهواز، وشنَّوا هجماتهم على البصرة، فكان أهلها قد تولَّوا قتالهم دفاعاً عن أنفسهم وصوناً لحرماتهم^(٢).

وكان الأزارقة من أخطر الجبهات التي فُتحت ضدَّ أهل البصرة، وسوف نذكرهم ضمن فصل الخوارج.

في نهاية سنة (٧٢هـ / ٦٩١م)، عزل عبد الملك بن مروان عامله على البصرة خالد بن عبد الله بن خالد بن أسيد، وولَّى مكانه أخاه بشر بن مروان، الذي ولي إمرة العراقين^(٣).

كان تواجد بشر في البصرة من أجل إعادة استقرار الأمور لمصلحة السَّلمة الأمويَّة؛ إذ تعرَّضت البصرة لهجمات الأزارقة المستمرَّة، ويبدو أنَّ بعض القبائل داخل البصرة كانت ضدَّ سلطة عبد الملك بن مروان؛ إذ يشير اليعقوبيُّ إلى أنَّ بشر

(١) ابن حبيب، المنمَّق: ص ٣٨٠.

(٢) يُنظر: الطبري، تاريخ: ١٨ / ٥.

(٣) ابن أعثم، الفتوح: ٢٣٣ / ٨؛ ابن خلدون، تاريخ: ٤٠ / ٣.

ابن مروان كان قد نقل عدداً من الأزد وربيعة البصرة وأنزلهم الموصل^(١). وبموت بشر بن مروان سنة (٦٧٤هـ / ٦٩٣م) اضطربت البصرة، التي كانت في صراع مستمر مع الخوارج الأزارقة، فتسلل جند من أهل البصرة تاركين ميدان القتال ضد الأزارقة، راجعين إلى مدينتهم، فأصبح الخطر يطوق عبد الملك بن مروان؛ إذ كان يخشى فقدان البصرة لصالح الخوارج، لذلك، أرسل رجله المعهود الحجاج بن يوسف الثقفي^(٢) إلى العراق^(٣) ليعمل على إعادة توازن الحياة السياسية هناك من جديد؛ لأن العراق أصبح مصدر أخطار جسيمة، تشكل تهديداً واضحاً للسلطة الأموية فيه^(٤).

بل نجد أن الكوفة والبصرة أعلنتا موقفاً معادياً للدولة الأموية في هذه الفترة، وكره الحكام على مستوى أعلى، والولاة على مستوى أدنى^(٥). فكان تسليط الحجاج يعدّ الحل المناسب لخروج الدولة الأموية من تلك المتاهات التي تتواجد على أرض العراق.

ثانياً: الحجاج وأهل البصرة

- المطلب الثاني: الحجاج وأهل البصرة

لم تكن الأمور داخل البصرة تسير على ما يشتهي عبد الملك بن مروان، بل على النقيض من ذلك؛ إذ عجز في سنين سيطرته الأولى على العراق عن كسب المجتمع

(١) تاريخ اليعقوبي: ٢ / ١٩٠.

(٢) ابن قتيبة، الإمامة والسياسة: ٢ / ٣٩.

(٣) عبد الواحد ذنون طه، العراق في عهد الحجاج بن يوسف الثقفي: ص ٦٣.

(٤) محمد بحر العلوم، لمحات من الصراع السياسي في الإسلام: ٢ / ٢٨٩.

البصريّ سياسيّاً، وهذا التأخير كان يصبّ في مصلحة الخوارج، الذين بدأوا يهدّدون أهل البصرة ويجعلونهم تحت الضّغط، ما جعل عبد الملك يخشى انشقاق البصرة عن سلطة الشّام، فكان ولاية البصرة الذين استمروا بالتناوب على إدارتها من (٧٠هـ / ٦٨٩م - ٧٥هـ / ٦٩٥م) قد أثبتوا أنّهم غير مؤهلين سياسيّاً لمعايشة أهل البصرة والتأقلم معهم وجرّهم نحو الحكومة المركزيّة للأُمويّين، الأمر الذي ظلّ يُقلق حاكم الشّام في تلك الفترة.

ثمّ فوجئ عبد الملك بن مروان بخبر وفاة أخيه بشر بن مروان بالبصرة، فبلغ الخطر مبلغاً دعاه إلى اختيار رجل يتمتّع بإجراءات الكبت والعنف على أعلى مستوى ممكن، وذلك سنة (٧٤هـ / ٦٩٣م)، سالكاً بذلك سياسة معاوية بن أبي سفيان عندما واجه الأمر نفسه، عندما ولّى زياد بن أبيه، الذي نجح في حكم البصرة على ما يشتهي معاوية بالقهر والجور وقطع الأعناق والأرزاق.

إلا أنّ الشيء الذي ميّز معاوية في أيّامه، هو أنّه استخدم دهاءه في التعرّف على أهل كلّ مصر، فدسّ الرّجال الذين يعملون على نقل صورة كلّ بلد له، فشخص خصومه الذين يحرضون ضده، ليفني وجودهم بالمصر، فيكون قد قلع عين المؤامرة والمظاهرة ضدّ سلطته، الأمر الذي لم نشهده عند عبد الملك بن مروان، الذي بدا محتاراً بأمر العراق وشدّتهم على ولاته.

أمّا كيفيّة وصول الحجاج إلى ولاية العراق، فقد رُوي أنّه كان موجوداً في المدينة، فاتاه كتاب عبد الملك بولاية العراق بعد وفاة بشر بن مروان^(١).

وفي روايةٍ أخرى: أنّ عبد الملك بن مروان نادى للصلاة جامعة، فاجتمع

(١) الطبريّ، تاريخ: ٥ / ٤٠؛ ويُنظر: ابن قتيبة، الإمامة والسّياسة: ٣٩ / ٢.

الناس بين يديه، فخطبهم، وذكرهم بشدة العراق، وارتفاع سخطهم ضد حكومة الشام، وهم في أحسن حالاتهم، ذوو قدرة على تحمل الصّعب، ثم قال للجماعة التي حضرت خطبته: «فهل من رجل ينتدب لهم، ذي سلاح عتيّد، وقلب شديد، فيُخمد نيرانها، ويبيد شبّانها؟ فسكت الناس جميعاً! ووثب الحجاج بن يوسف، فقال: أنا يا أمير المؤمنين»^(١). فلم يوافق عبد الملك في المرّة الأولى.

وتذكر الرواية أنّ عبد الملك كرّر سؤاله عمّن يملك القدرة على الذهاب إلى العراق وتولي أمره، فسكت الجميع غير الحجاج، فهو من كان يقول: أنا للعراق، فقال عبد الملك: وما الذي أعددت لأهل العراق؟ فقال: ألبس جلد النمر، ثم أخوض الغمرات، وأتبع الهلكات، فمن نازعني، طلبته، ومن لحقته، قتلته بشدة وعجل وريث، وتبرّ وازورار^(٢)، وطلاقة واكفهرار^(٣)، ورفق وجفاء، وصلّة وحرمان، فإن استقاموا، كنتُ لهم والياً خفياً، وإن خالفوا، لم أبق منهم طويلاً^(٤)، فهذا ما أعددت لهم يا أمير المؤمنين، ولا عليك أن تجربني، فإن كنت للطلّي^(٥) قطعاً، وللأرواح نزاعاً، وللأموال جماعاً، وإلّا فاستبدل بي، فإن الرّجال كثير. فقال عبد الملك: أنت لها^(٦).

(١) الزبير بن بكار، الأخبار الموقّيات: ص ٩١.

(٢) ازوراراً: السيرة الشديدة، والزوار: البعير الصّلب المهيأ للأسفار. الزبيدي، تاج العروس: ٤٧٩/٦.

(٣) اكفهرار: اكفهر الرّجل: إذا عبس، وفلان مكفهر، أي: منقبض كالح لا يرى فيه أثر بشر ولا فرح. الجوهري، الصّحاح: ٨٠٩/٢؛ ابن منظور، لسان العرب: ٥/١٥١.

(٤) طويلاً: أدرجهم في طي النسيان، ولا أبقى لهم ذكراً. الزبيدي، تاج العروس: ١٩/٦٤٦.

(٥) للطلّي: الأعناق، يُريد بها قطع الأعناق. الجوهري، الصّحاح: ٦/٢٤١٤.

(٦) الزبير بن بكار، الأخبار الموقّيات: ص ٩١-٩٢.

ويبدو من رواية الطبري، وهذه الرواية، أنَّ عبد الملك عندما كتب إلى الحجاج وهو بالمدينة قفل راجعاً إلى بلاد الشام ليلتقي بعبد الملك، ليرى الأخير مدى قدرة الحجاج على هذه المهمة التي أوكلت إليه لمواجهة العراق وأهله، وعلى هذا الأساس، لا يمكن أن نجعل الرواية بعيدة عن الحدث التاريخي كما ذهب إلى ذلك أحد الباحثين^(١)؛ لأنَّ الحجاج أعطى تبريراً لطريقة عبد الملك في اختياره لولاية العراق؛ إذ كان يقول: «إنَّ أمير المؤمنين عبد الملك نشر كنانته، ثمَّ عجم عيدانها، فوجدني أمرها عوداً، وأصلبها مكسراً»^(٢).

وعلى هذا الأساس، فإنَّ عبد الملك بن مروان عندما جمع الناس في بلاد الشام كان راغباً في الوقوف على موقف أهل الشام تجاه أهل العراق، وعلى الطرق التي تمهّد له عمليّة السيطرة على تلك الناحية غير المستقرّة، والثائرة ضدَّ الأمويين، وكان يُريد أن يسمع آراءهم عن تلك الناحية من الدّولة، فلم يُجبه أحد لطلب الإمرة وولاية العراق! وهذا أمر يعكس لنا اشتداد شوكة أهل العراق في تلك الفترة، الذين ربّما أصبحوا يتمردون ضدَّ سلطة الشام، وكذلك لخطر الأزارقة، الذي أصبح يهدّد العراق، لا سيّما البصرة التي طالما كانت مقصدهم.

والأهم في الحديث الذي جرى بين عبد الملك والحجاج بن يوسف، هو: أنَّ عبد الملك بن مروان كان بلا شكّ عارفاً بشخصيّة الحجاج قبل أن يولّيه على العراق، وذلك عندما أرسله سنة (٧٣هـ / ٦٩٢م) لحصار ابن الزبير وقتله داخل حرم مكّة^(٣)؛ فقد هدم بيت الله الحرام عندما ضربه بالمنجنيق دون أن يخشى حرمة

(١) عبد الواحد ذنون طه، العراق في عهد الحجاج بن يوسف الثقفي: ص ٦٥.

(٢) الطبري، تاريخ: ٤١ / ٥.

(٣) اليعقوبي، تاريخ: ١٨٧ / ٢.

ذلك البيت الذي انطلقت منه أعظم رسالة سماوية إلى الناس كافة ودعتهم لدين الإسلام، فعبد الملك كان عارفاً بالحجاج منذ أول وهلة، فلما إذا نجد المماثلة التي ذكرتها رواية صاحب الموقّيات، لئبقي عبد الملك رافضاً لتوليّ الحجاج أمر العراق ثلاث مرّات؟!

الذي يبدو هو أنّ عبد الملك أراد اختبار كفاءة قاداته ورجاله في قبول ولاية العراق، تلك الولاية التي عجز عن إدارتها كلّ من تولّاها لعبد الملك فترة الخمس الأولى من سنوات حكومة عبد الملك، فأراد أن يعكس لأهل الشّام خطورة العراق، الذي أصبح يهدّد سلطة الشّام، ومن ثمّ، يحاول زرع الحماس في نفوس رجاله؛ إذ يقول: «ما لي أرى اللّيوث قد أطرقت، ولا أرى أسداً يزأر نحو فريسته؟!»^(١).

ثمّ إنّ عبد الملك قد استوعب الخطر الوحيد الذي ما زال يهدّد استقرار سلطته هناك، الخطر الذي لا يمكن إزالته إلّا عن طريق القوّة والشّدّة والبطش، كأنّه حاول أن يربط تلك الأسباب بشخصيّة الحجاج، الرّجل المناسب لما أراده. ومن ثمّ، إنّ ولاية الحجاج على العراق سوف تلقى التأييد من رجال الشّام، الذين لم يعارضوا الخلافة الأمويّة، بل كانوا الحصن الحصين لها، وهذا ما جعل عبد الملك ينجح في تحقيق ما يصبو إليه من إجراءات سياسيّة على مستوى سلطته.

ثمّ وجّه عبد الملك حملته نحو العراق بقيادة الحجاج بن يوسف الثقفيّ، الحملة التي كانت غاية في الأهميّة بالنّسبة إلى الدولة الأمويّة وبقائها؛ إذ كان ذلك مرهوناً بنجاح الحجاج في مهمّته، الذي كتب إليه عبد الملك كتاباً بخطّ يده جاء فيه: «أمّا

(١) الزبير بن بكار، الأخبار الموقّيات: ص ٩٢.

بعد، يا حجاج، فقد وليتكَ العراقيين صدقة، فإذا قدمت الكوفة، فطأها وطأة يتضاءل منها أهل البصرة! وإياك وهوينا الحجاز؛ فإنَّ القائل هناك يقول: ألفاً، ولا يقطع بهنَّ حرفاً، وقد رميت العرض الأقصى، فارمه بنفسك، وأرد ما أردته بك، والسَّلام»^(١).

لقد كانت الخطوات العريضة لسياسة الحجاج تجاه أهل العراق هي التي تسلَّمها من أميره، ما يعني إعطاءه حرِّيَّة التصرُّف والقيام بما يحلو له؛ إن كان ذلك مايتوقَّف عليه إنجاح مهمَّته في العراقيين.

ويبدو أنَّ عبد الملك لم يكن يكثرث لأمر أهل العراق أبداً، بل كان كلُّ همِّه أن يبقى على كرسيِّ السَّلمة، فهو يأمر الحجاج «بالمسير إلى العراقيين ويحتال لقتلهم»^(٢)، مادام ذلك يتماشى مع أهداف الأمويين؛ في حين يذهب أحدهم إلى اتِّهام صاحب الإمامة والسَّياسة بأنَّه لا يُعطي الصُّورة الصَّحيحة لموقف عبد الملك عندما سيَّر الحجاج إلى العراقيين^(٣).

والظاهر من الروايات التاريخية بالنسبة إلى خطبة الحجاج بأهل العراقيين، هو أنَّها جاءت باللهجة نفسها في كلا المصربين، وقيل: إنَّه قدم الكوفة متلثماً، فصعد المنبر، وخطب بأهلها، ثمَّ توجَّه إلى البصرة، وخطب بأهلها كما خطب هناك في الكوفة^(٤).

(١) اليعقوبي، تاريخ: ١٩١ / ٢.

(٢) ابن قتيبة، الإمامة والسَّياسة: ٣٩ / ٢.

(٣) عبد الواحد دُثُون طه، العراق في عهد الحجاج بن يوسف الثقفي: ص ٦٧.

(٤) يُنظر: اليعقوبي، تاريخ: ١٩١ / ٢؛ الطبري، تاريخ: ٤٥ / ٥؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ:

٣ / ٤٢٦؛ ابن كثير، البداية والنهاية: ٣٢٠ / ٧؛ ابن خلدون، تاريخ: ٣ / ٤٢.

ويبدو أنّ خطورة الموقف داخل البصرة كان يحتم على الحجاج بعد بسط سيطرته على الكوفة مغادرتها واللحاق بالبصرة بأقصى سرعة ممكنة؛ وذلك من أجل كسب الوقت لصالح مهمته في كسر شوكة البصريين وحملهم على قتال الخوارج، وتلبية أوامر سلطة الشام، فتوجّه إلى البصرة، ومعه ألفا رجل من مقاتلة الشام وحماهم^(١).

وكان قدوم الحجاج للبصرة يوم الجمعة في وقت الصلاة، فلما دنا من البصرة، أمر أتباعه أن يتفرّقوا على أبواب المسجد، وكان المسجد يضمّ ثمانية عشر باباً^(٢)، فأمر أن يقف على كلّ باب مائة رجل من جلاوزته بأسيافهم، ثم اتفق مع من بقي من هؤلاء لحراسة الأبواب أن يقوموا بقتل كلّ من يخرج من أبواب المسجد.

فدخل الحجاج المسجد وبين يديه مائة رجل، وخلفه مائة رجل، كلّ واحد منهم مرتد بردائه، وسيفه قد أخفاه إلى داخل إزاره، فكانوا بذلك التنكر حذرين بعض الشيء، ولربّما كان خوفهم من انكشاف أمرهم، فيقع ما لا يتوقعون من أهل البصرة، الذين كانوا حينئذٍ متمرّدين على سلطة عبد الملك بن مروان، ثم قال الحجاج لأتباعه: «إني إذا دخلت، فسأكلّم القوم في خطبتي، وسيحصوني، فإذا رأيتموني قد وضعت عمامتي على ركبتي، فضعوا أسيافكم، واستعينوا بالله»^(٣).

والظاهر من قول الحجاج هذا أنّه اتفق مع حراسه على صيغة معيّنة في كيفية تجريد السيوف وتسليطها على رقاب أهل البصرة، فلما خطب بأهلها، قال: «أيّها الناس، إنّ أمير المؤمنين عبد الملك... قد ولّاني مصركم، وقسمة فيئكم، وأمرني

(١) ابن قتيبة، الإمامة والسياسة: ٣٩ / ٢.

(٢) ابن قتيبة، الإمامة والسياسة: ٤٠ / ٢.

(٣) ابن قتيبة، الإمامة والسياسة: ٤٠ / ٢.

بإنصاف مظلومكم، وإمضاء الحكم على ظالمكم، وصرف الثواب إلى المحسن البريء، والعقاب إلى العاصي المسيء، وأنا متَّبِعُ فيكم أمره، ومنفذٌ عليكم عهده، وأرجو بذلك من الله ﷻ المجازاة، ومن خليفته المكافأة. وأخبركم أَنَّهُ قَلَدَنِي بسيفين حين توليته إِيَّاي عليكم: سيفُ رحمة، وسيفُ عذاب ونقمة.

فأما سيف الرَّحمة، فسقط مِنِّي في الطَّرِيق، وأما سيف النَّقمة، فهو هذا^(١).

والذي يبدو من هذه الخطبة هو أَنَّ الهدف منها التحذير والوعيد، وأنَّ عليهم أن يخشوه مادام واليهم الجديد، وليس عليه التساهل تجاه جميع الناس، إلَّا المحسن منهم، والموالي لسلطة الشَّام، وَمَنْ عدا ذلك، فسوف ينال عقاب الحِجَّاج وحَدَّة سيفه، الذي سَمَّاه سيف عذاب ونقمة.

لكنَّ أهل البصرة تجاهلوه، ولم يخشوه، فحصبوه، فأكثروا عليه، ثمَّ خلع عمامته، فحمل أصحابه على الناس داخل المسجد، ولم يتركوا خارجاً يخرج، فقتل منهم بضعة وسبعين ألفاً، حتَّى سالت الدِّماء إلى باب المسجد، وإلى السُّكك^(٢).

وقيل: لما حصبه النَّاس وهو على منبر البصرة، قال: «إِنِّي أرى رؤوساً قد أُنِعت وحن قطافها»^(٣). ما يعكس مدى ترسُّخ فكرة القتل المترسِّمة في ذهن الحِجَّاج، الفكرة التي كانت من جملة أوامر سيِّده عبد الملك.

وتبدو المبالغة الكبيرة في الرواية التي ذكرت عدد مَنْ قُتل من أهل البصرة؛ فهذا

(١) ابن قتيبة، الإمامة والسياسة: ٤٠ / ٢.

(٢) ابن قتيبة، الإمامة والسياسة: ٤٠ / ٢.

(٣) المبرِّد، الكامل في اللغة: ص ٢٢٤؛ الجاحظ، البيان والتبيين: ٢ / ٢٢٤؛ ابن قتيبة، الإمامة والسياسة: ٤٠ / ٢؛ الطبري، تاريخ: ١٥ / ٥؛ المسعودي، مروج الذهب: ٣ / ١٥٥؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ٣ / ٤٢٥؛ ابن كثير، البداية والنهاية: ١١ / ٩.

القدر بضعة وسبعين ألفاً لا يمكن إغفاله؛ لأنّ جماعة الحجاج حسب ما ذكرناه كانوا قد تفرّقوا على أبواب المسجد، وكانت ثمانية عشر باباً، وكان على كلّ باب مائة مقاتل، ويكون مجموعهم ألفاً وثمانمائة مقاتل، وهؤلاء ليس في استطاعتهم قتل هذا الكمّ من المسلمين وإراقة دمائهم!

وكذا لو كان عدد القتلى كما ذكر في الرواية، فكم سيكون العدد الإجمالي لسكّان البصرة في تلك الفترة؟! وكم كانت مساحة المسجد الذي قُتل فيه أكثر من سبعين ألف مصلّ؟!!

إلاّ أنّه يبقى ما تعكسه لنا الرواية من بشاعة الصورة التي آلت إليها أوضاع أهل البصرة؛ وذلك لكثرة مَنْ قُتل من المسلمين داخل المسجد، ولهتك حرمة. وكذا كانت هذه الإجراءات وليدة تخليّ أهل البصرة عن قتال الخوارج في ناحية الأهواز، فاستطاع الحجاج بخطابه الشهير ولهجة التهديد العنيفة التي غلبت عليه تعبئة المقاتلين وحملهم على الالتحاق بالمهلب بن أبي صفرة الذي يقاتلهم بالأهواز^(١).

وكانت إجراءات الحجاج في البصرة وإجبار أهلها على الدّفاع عن سلطة الشّام هي إجراءات زياد بن أبيه نفسها أيام معاوية بن أبي سفيان، وربّما زاد الحجاج عليها فتكاً بالمسلمين الذين عارضوا أوامرهم، فعندما توعّد الحجاج أهل البصرة، جيء إليه برجلٍ من بني يشكر، فقيل: هذا عاص، فقال الرّجل: إنّ بي فتقاً، وقد رآه بشر بن مروان فعذرني، وهذا عطائي مردود في بيت المال، فلم يقبل الحجاج عذر الرّجل، فقتله^(٢)، ففزع من ذلك أهل البصرة.

(١) إبراهيم بيضون، ملامح التّيارات السّياسيّة: ص ٢٣٥.

(٢) الطبريّ، تاريخ: ٤٦/٥؛ ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة: ١٨٤/٤؛ ابن كثير، البداية

لقد كان الحجاج بفعلته تلك أشبه بزياد بن أبيه عندما تشدّد في إجراءاته بالبصرة، ومنع الناس من التجوال ليلاً، فجيء بإنسانٍ غريب عن مصر، فذكر عذره، لكنّ زياداً لم يقبله منه، فقتله.

لقد كان وطأة الحجاج على أهل البصرة وفتكه فيهم أشدّ من وطأة ابن زياد وفتكه، حتّى قال الفرزدق في ذلك:

إِذَا مَا بَدَأَ الْحَجَّاجُ لِلنَّاسِ أَطْرَقُوا وَأَسْكَتَ مِنْهُمْ كُلَّ مَنْ كَانَ يَنْطِقُ
فَمَا هُوَ إِلَّا بَائِلٌ مِنْ مَخَافَةٍ وَآخِرُ مِنْهُمْ ظَلٌّ بِالرَّيْقِ يَشْرُقُ^(١).

إنّ هذا التشابه بين الأمراء الذين يتولّون حكم البصرة، دليل على اضطراب البصرة في ظلّ الأمويين، فأصبحت تحت قبضة أولئك الجبارين، ذوي النزعة الدّمويّة، الذين أصبحوا يتناوبون على ولاية البصرة من أجل إخضاعها لنظام الحكم، فكانت الحياة السَّيَاسِيَّةُ في البصرة ذات اتجاهات مختلفة، كلّ يرغب في تحقيق مصلحته أو حفظ دمه من الأمير، فيتقرّب إليه.

وفي الوقت نفسه، كان أهل البصرة يحاولون استغلال بعض المواقف من أجل الإطاحة بالولاة، وهذا ما حدث مع الحجاج عندما ثاروا ضده، واتّبعوا عبد الله ابن الجارود، الذي أحدث الاضطراب في معسكر الحجاج، وهو ما ستعرّض له في الفصل الرابع من هذا الكتاب.

كانت الفترة التي قضاها الحجاج على البصرة تُعدّ من أشدّ الفترات التي شهدتها المدينة في عصر الحكومة الأمويّة؛ إذ لم يكتف بنفسه في تطبيق الأحكام والبطش بأهل البصرة، بل بحث عن مساعدٍ آخر يُعينه على هذا الأمر يعمل بأسلوب

والنهاية: ١٤/٩؛ جورج جرداق، الإمام عليّ صوت العدالة الإنسانية: ص ٤٥٠.

(١) ديوان: ص ٣٥٢. البائل: الذي يبول خوفاً، كناية عن الخوف.

الحجاج نفسه؛ فعن الشعبي، قال: قال الحجاج: دُلّوني على رجل للشرط، ف قيل: أيّ الرجال تريد؟ فقال: أريده دائم العبوس، طويل الجلوس، سمين الأمانة، أعجف^(١) الخيانة، لا يخفق في الحقّ على جرّة، يهون عليه سبأ^(٢) الأشراف في الشفاعة^(٣). ف قيل له: عليك بعبد الرحمن بن عبيد التميمي^(٤)، ويقول الشعبي: فو الله، ما رأيت صاحب شرطة قطّ مثله؛ كان لا يجسّ إلا في دين، وكان إذا أُتي برجل نقب على قوم، وضع منقبته في بطنه حتّى تخرج من ظهره، وإذا أُتي برجل قد أحرق على قومٍ منزلهم، أحرقه، وإذا أُتي برجل يشكّ فيه، وقد قيل: إنّه لصّ، ولم يكن منه شيء، ضربه ثلاثمائة سوط، فضمّ إليه الحجاج شرطة البصرة والكوفة^(٥). وعلى هذا الأساس، أصبح أهل البصرة ضحيّة تلك الإجراءات المتشدّدة، فوقعوا بيد الحجاج فريسةً للتعذيب والتنكيل والتقتيل والحرق، وأقلّ شيء يتعرّض إليه بعض أهل البصرة، هو ضرب ثلاثمائة سوط، هذا فيما إذا كان الشخص بريئاً لم يفعل شيئاً!

لقد كانت هذه التصرفات التي تعرّض لها المسلمون من قبل رجالات الدولة الأمويّة، ممّا يقودنا بلا شكّ إلى الوقوف على حقيقة الحياة السياسيّة في البصرة، التي أصبحت أجواؤها يسودها الترقّب والخوف من سيف الحجاج، الذي امتدّ

(١) أعجف: أي: رقيق، والتعجّف: الجهد وشدة الحال. ابن منظور، لسان العرب: ٢٣٤/٩.

(٢) سبأ: وهي السبلة، ما على الشفة العليا من الشعر يجمع الشاربين وما بينهما، والمرأة إذا كان لها هناك شعر، قيل: امرأة سبلاء. ابن منظور، لسان العرب: ٣٢٢/١١.

(٣) ابن قتيبة، عيون الأخبار: ص ٢٣.

(٤) لم أعثر على ترجمة له.

(٥) ابن قتيبة، عيون الأخبار: ص ٢٣.

إلى الجماعات ليستعرضها، وفاضت سجون العراق بالرَّجال والنساء؛ إذ يُقيمون على المهانة والعذاب^(١).

ولم يكتف الحَجَّاج بالسجون، بل عمل على طلب الرِّجال أمام أعين الناس^(٢) كي يزرع روح اليأس والخوف في نفوس أهل البصرة، الذين أصبحوا يبحثون عن أيِّ شيء يستنجدون به، حتَّى ذهبوا إلى قبر أبي الفزدق غالب بن هَمَّام يطلبون الاستجارة به خوفاً من بطش شرط الحَجَّاج^(٣)، الذين أصبحوا يدخلون البصرة ويأخذون مَنْ شاءوا لإشراكهم في قتال الخوارج.

كان الحَجَّاج بن يوسف الثقفي لا يعرف الرِّحمة تجاه أهل البصرة، بل يضرب الرِّقاب دون أن يأسف لفعله، فقد روي أنَّ الحَجَّاج كان جالساً إلى مائدة ذات يوم يتغذى مع نفرٍ من أصحابه، فإذا بأحد رجال الشرطة قد أتاها بحائك من أهل البصرة، وقال له: أصلح الله الأمير، هذا رجلٌ عاص، فجعل الحائكُ يرتجفُ خوفاً وهلعاً، وقال للحَجَّاج: أنشدك الله أيُّها الأمير في دمي! فوالله، ما قبضتُ ديواناً قطّ، ولا شهدتُ عسكرياً قطّ، وإنِّي لحائكٌ أخذت من تحت الحفّ^(٤)، فقال الحَجَّاج: إضربوا عنقه! فما أحس إلا والسيف يعلو رقبتَه، فتابع الحَجَّاج غداءه،

(١) جورج جرداق، الإمام عليّ صوت العدالة الإنسانية: ص ٤٥٢.

(٢) يُنظر: أبو الفرج الأصفهاني، الأغاني: ٤٧٤ / ٢٢.

(٣) إنَّ طلب الاستجارة بالقبور كان معروفاً عند العرب قبل الإسلام، خاصّة قبور رؤساء القبائل وعلية القوم والحكماء وأصحاب الفضل والكرم والسَّخاء. للتفصيل في ذلك راجع: المبرّد، الكامل في اللّغة: ص ٣٢٦؛ ابن دريد، الاشتقاق: ١ / ١٤٧؛ د. جواد عليّ، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام: ١٧٦ / ٥؛ عليّ النمازيّ الشاهروديّ، مستدرک سفينة البحار: ١٣٠ / ٨؛ عليّ الكورانيّ، جواهر التاريخ: ١٣٠ / ١.

(٤) الحفّ: خشبة الحائك. الفيروز آبادي، القاموس المحيط: ٩٤ / ٣.

وأمسك الباقون عن الغداء استنكاراً واشمئزازاً، واصفرت وجوههم، فقال الحجاج: مالي أراكم قد صفرت أيديكم وأصفرّت وجوهكم وحدّ نظركم من قتل رجلٍ واحدٍ؟! ألا إنّ العاصي يجمع خلالاً؛ يخلُ بمركزه، ويعصي أميره، ويغرّ المسلمين وهو أجيرهم، وإنّما يأخذ الأجر لما يعمل، والوالي مخير فيه، إنّ شاء قتل، وإنّ شاء عفا^(١).

كان الحجاج يعمل بما يشتهي دون أن يتأثر بشفقة أصحابه، أو بطلب الرحمة من قبل الضحية، وهم أهل البصرة التي ليس لها من القوة سوى لسانها الذي يجرّكه صاحبه راجياً عفو الأمير، أو التقليل من شدة العقوبة.

على هذه الصورة، كان الحجاج يرى صلاح البصرة، «لأضربنكم ضرب غرائب الإبل حتّى تستقيم لي قناتكم»^(٢). لذلك، استطاع أن يعبث بهذا المصر كما يحلو له، بحجة المحافظة على أمنه، واستمرار صلته بسلطة الشام.

ولم يترك الحجاج ثغرة لأهل البصرة في أيّام ولايته، بل كان على غاية من الحذر والدقّة في تسيير المصر وجعله خاضعاً لسلطته عن طريق من ينوب عنه في غيابه، فيروي ابن خلّكان: أنّ الحجاج لما أراد الخروج من البصرة إلى مكّة -شرّفها الله تعالى-، خطب الناس قائلاً: «يا أهل البصرة، إنّني أريد الخروج إلى مكّة، وقد استخلفت عليكم محمّداً ابني، وأوصيه فيكم بما أوصى به رسول الله ﷺ في الأنصار، فإنّه أوصى أن يُقبل من محسنهم، ويُتجاوز عن مسيئهم، ألا وإنّي قد أوصيته فيكم أن لا يقبل من محسنكم، ولا يتجاوز عن مسيئكم، ألا وإنكم قائلون بعدي كلمة ليس يمنعكم من إظهارها إلّا الخوف: لا أحسن الله له الصّحابة، وإنّي

(١) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة: ٤ / ١٨٥.

(٢) ابن قتيبة، عيون الأخبار: ص ٣٧٦.

معجّل لكم الجواب: لا أحسن الله عليكم الخلافة»^(١).

إنّ الحجاج هنا يتّبع طريقة مخالفة لتلك التي اتّبعها الرّسول ﷺ في وصيّته بحال المسلمين، فابتعد عن طريق الإسلام وخدمته، وفي الوقت نفسه نجده حذراً في تسيير مصر وجعله خاضعاً لسلطته عن طريق مَنْ ينوب عنه في عمله في حالة غيابه، فأطلق لنائبه صلاحية البطش والقتل والتنكيل، وكأنّه أراد أن يضع أهل البصرة في خوف يداهم النفوس في كلّ خطوة يخطونها، وفي كلّ نفسٍ يتنفسونها. ثمّ إنّ الحجاج ربّما كان يخشى أن يقوم أهل البصرة بثورة ضدّ سلطته مستغلّين غيابه عنهم.

لقد جعلت هذه السّياسة الحجاج ينجح في سيطرته على البصرة، وشلّ أهلها؛ لأنّها لم تعد تملك طاقة تحمليّة في مقابل إجراءات الحجاج وتعسّفه غير المنتهي؛ لذلك، بدأ أهل البصرة يتطلّعون إلى أسلوب الثورة التي أصبحت هي الحلّ الأمثل للتخلّص من عبء الحجاج وقوانينه الانتهازية، وممارساته القمعيّة ضدّهم، فعملوا على مساندة كلّ حركة من شأنها العمل على محاربة الحجاج، وبدأوا بكسر الخراج، ولحقوا بالأمصار^(٢)؛ خوفاً من بطش الحجاج.

ولم يذكر المؤرّخون كيف تمكّن بعض أهل البصرة من كسر الخراج، ولا الإجراءات التي قاموا بها أولاً، ولا كيفيّة هربهم من البصرة ولحاقهم بالأمصار. لقد حاول أهل البصرة استخدام الجانب الاقتصاديّ سلاحاً لمحاربة الحجاج، فامتنعوا من دفع الخراج وزرع الأراضي، وهربوا، عسى أن ينجحوا في الضغط على الحجاج وإضعاف سلطته، لكنّ الحجاج لم يترك الذين هربوا يعيشون، فتمكّن

(١) وفيات الأعيان: ٣٢ / ٢.

(٢) البلاذريّ، أنساب الأشراف: ٣٢٠ / ٧.

من خلال عمّاله أن يكتب إلى البصرة: «مَن كان له أصل في قرية فليخرج إليها، فخرج الناس، فعسكروا، فجعلوا ييكون وينادون: يا محمّداه»^(١). والظاهر أنّ أهل البصرة كانوا بحاجة إلى قائد مدبّر يخطط لأفعالهم؛ لتكون على غاية من الدقّة والتنظيم، لذلك، نجدهم استعانوا بعبد الرحمن بن محمّد ابن الأشعث عندما أعلن العصيان ضدّ الحجاج، فكاتبه أهل البصرة على خلع الحجاج، ثمّ انضمّ الموالى إلى العرب لتوحيد جبهة القتال ضدّ الحجاج، كمشاركة ثانويّة خاصّة على المستوى القيادي^(٢)، وسوف نذكر الثورات التي كادت أن تطيح بالحجاج في الفصل القادم.

ثالثاً: البصرة من عام (٨٦ إلى ١٣٢هـ).

- المطلب الثالث: البصرة من عام (٨٦ إلى ١٣٢هـ)

جاءت سنة (٨٦هـ / ٧٠٥م) لتُنهي مسيرة عبد الملك بن مروان في إدارة الدولة الإسلاميّة ومركزها الشّام؛ إذ هلك وبوبع لابنه من بعده الوليد بن عبد الملك (٨٦-٩٦هـ)، الذي أقرّ الحجاج بن يوسف الثقفيّ بدوره على العراق وبلاد المشرق كاملاً^(٣).

وكانت الأوضاع السّياسيّة في البصرة قد استقرّت بعض الشيء؛ لأنّ المؤرّخين لم يذكروا أيّ أحداث سياسيّة ذات شأن على مستوى العراق. ويبدو أنّ عمليّة الفتوح نحو المشرق كان لها الدور الكبير في تهدئة المنطقة،

(١) الطبري، تاريخ: ١٨٢/٥.

(٢) إبراهيم بيضون، ملامح التّيارات السّياسيّة: ص ٢٤٤.

(٣) الطبري، تاريخ: ٢١٦/٥.

والحوُول دون وقوع أزمة سياسيَّة في البصرة.

وكان قائد الفتوح في بلاد المشرق تلك الفترة القائد البصريّ قتيبة بن مسلم الباهلي^(١)، الذي استطاع تحقيق الفتوح بشكل واسع في خراسان، وربّما تعرّض المسلمون هناك إلى حالات عصيية نتيجة شدّة القتال والهجمات التي يشنّها العدوّ عليهم بتلك البقاع، فجعل الحجاج بن يوسف الثقفيّ يكتب إلى أمصار المسلمين بالدّعاء لمقاتليهم هناك^(٢).

وجاءت نهاية الوليد بن عبد الملك لتُعلن أوّل خلاف ضده قاده قتيبة بن مسلم الباهليّ، ولكنّ هذا الخلاف كان من خارج العراق بأرض الفرس، وكان سبب ذلك أنّ الوليد بن عبد الملك رغب في تولية ابنه عبد العزيز بن الوليد من بعده وعزل أخيه سليمان بن عبد الملك (٩٦-٩٩هـ)، فكتب إلى قاداته بأخذ البيعة لابنه عبد العزيز، فقال جرير في ذلك شعراً:

فإنَّ الناسَ قد مدّوا إليه أكفَّهُمْ وَقَدْ برَحَ الخَفَاءُ
ولو قد بايعوكَ وليّ عهدٍ لقامَ القِسْطُ واعتدلَ البناءُ^(٣).

وكان الحجاج بن يوسف الثقفيّ وعتيبة بن مسلم الباهليّ قد بايعا لابن الوليد

(١) هو أبو حفص، قتيبة بن أبي صالح مسلم بن عمرو بن الحصين بن ربيعة بن خالد، الباهليّ، أمير خراسان زمن عبد الملك بن مروان من جهة الحجاج؛ لأنّه كان أمير العراقيّين، أقام في خراسان ثلاث عشرة سنة، وقبلها على الرّي، وبلغ قتيبة في غزو الترك والتوغّل في بلاد ما وراء النهر، وافتتح القلاع، وكان قد أظهر الخلاف لسليمان بن عبد الملك، فقتل سنة (٩٦هـ) بفرغانة من بلاد فارس. ابن خلّكان، وفیات الأعيان: ٨٦/٤.

(٢) الطبريّ، تاريخ: ٢١٨/٥.

(٣) ديوان: ص ١٤؛ ويُنظر: الطبريّ، تاريخ: ٥/٢٧٤؛ ابن عساكر، تاريخ دمشق: ٣٦/٣٧١؛ ابن خلّاد الرامهرمزيّ، أمثال الحديث: ص ١٢؛ ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة: ٣/٢٦٨.

ابن عبد الملك، وخلع سليمان عبد الملك^(١)، لكن موت الوليد جاء قبل أن يأخذ البيعة بشكل عام من المسلمين، وبذلك، وصل أخوه سليمان بن عبد الملك إلى عرش الحكم، فكتب إليه قتيبة على السمع والطاعة، وأنه خير قاداته المعول عليهم في عملية الفتوح، وطلب من سليمان بن عبد الملك أن يوليّه خراسان، فكتب سليمان كتاباً لقتيبة يوليّه خراسان، لكنّ الناس همّوا بخلع قتيبة، واضطرب الأمر، فدفع إليه عهده سليمان بن عبد الملك، فاستشار أخوته، فقالوا: لا يثق بك سليمان بعد هذا الذي حدث^(٢).

والظاهر أن موافقة سليمان بن عبد الملك على تولية قتيبة بن مسلم الباهلي على خراسان، إنما كانت خشية من قوّته التي كانت من أغلب قبائل أهل البصرة؛ إذ يذكر الطبري أن مقاتلة أهل البصرة يومئذٍ بخراسان، من أهل العالية تسعة آلاف، وبكر سبعة آلاف، وتيم عشرة آلاف، وعبد القيس أربعة آلاف، والأزد عشرة آلاف^(٣)، فهذه الأعداد قادرة على تشكيل جبهة موحّدة ضدّ سلطة الشّام، التي لم ترغب بإثارتها بادئ الأمر، لكن، ومع التطوّرات السريعة، سرعان ما تخلّى عن قتيبة مقاتلوه في تلك البقعة؛ لأنّه همّ في خلع سليمان بن عبد الملك، ودعا الناس إلى الوقوف بجانبه^(٤)؛ ولكن، تأتي الرياح بما لا تشتهي السفن؛ إذ عارضه أغلب أهل البصرة هناك، فغضب قتيبة عليهم، وبدأ يوبّخهم بقوله: «لا أعزّ الله من

(١) الطبري، تاريخ: ٥/ ٢٧٣؛ ويُنظر: البلاذري، فتوح البلدان: ٣/ ٥١٩؛ ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة: ٣/ ٢٦٨.

(٢) الطبري، تاريخ: ٥/ ٢٧٤-٢٧٥؛ ابن خلّكان، وفيات الأعيان: ٦/ ٢٩٦؛ البغدادي، خزانة الأدب: ٩/ ٨٦.

(٣) الطبري، تاريخ: ٥/ ٢٧٥.

(٤) الطبري، تاريخ: ٥/ ٢٧٥؛ ابن كثير، البداية والنهاية: ٩/ ١٦٢.

نصرْتُم، والله، لو اجتمعتم على عَنزٍ، ما كسرتُم قرنَه، يا أهل السَّافلة ولا أقول: أهل العالِيَة، يا أوباش الصَّدقة، جمعتم كما تجمع إبل الصَّدقة من كلِّ أوب^(١)، يامعشر بكر بن وائل، يا أهل النفخ والكذب والبخل، بأيِّ يومِكم تفتخرون، يوم حربكم أو يوم سلمكم؟! فوالله، لأنَّا أعزَّ منكم يا أصحاب مسيلمة، يابني ذميم، ولا أقول تميم، يا أهل الخور والقصب والعذر...»^(٢).

لقد كان نتيجة تقرير قتيبة للنَّاس أن جعلهم يصرفون أمرهم إلى رجل غيره، فبحثوا عن رجل يتولَّى رئاستهم هناك، حتَّى اجتمعوا على وكيع بن حسان بن قيس^(٣) أحد رجال بني تميم^(٤)، وبدأت النَّاس تباع وكيعاً هذا سرّاً دون علم قتيبة، فلمَّا وقع الخلاف بينهم في خراسان، قيل للعجم: «هؤلاء يقاتلون على غير دين، فدعوهم يقتل بعضهم بعضاً»^(٥). فأصبحت الحرب عربيَّة إسلاميَّة خالصة. ثمَّ إنَّ وكيعاً اتَّفَق مع رجلٍ يقال له: حيَّان من أهل خراسان، وكان العجم يأتمرون بأمره، فما إن وقع القتال، حتَّى تفاجأ قتيبة بميل الأعاجم نحو وكيع، فقتلوا قتيبة سنة (٩٦هـ / ٧١٥م)^(٦).

(١) أوب: يقال: جاؤوا من كلِّ أوب، أي: من كلِّ ناحية. الجوهري، الصَّحاح: ٨٩ / ١.
 (٢) البلاذري، أنساب الأشراف: ٣ / ٥٢٠؛ الطبري، تاريخ: ٥ / ٢٧٥؛ ابن أعثم، الفتوح: ٧ / ١٧٣؛ البغدادي، خزنة الأدب: ٩ / ٨٧.
 (٣) وكيع بن حسان بن قيس بن أبي سود بن كلب بن عوف بن نابل بن عوف بن غدانة، وهو الذي قتل قتيبة بن مسلم الباهليَّ بخراسان في حكومة سليمان بن عبد الملك. ابن حجر، الإصابة: ٧ / ١٦٤.

(٤) الطبري، تاريخ: ٥ / ٢٧٧؛ ابن خلدون، تاريخ: ٣ / ٦٩.

(٥) الطبري، تاريخ: ٥ / ٢٧٧-٢٧٨.

(٦) خليفة بن خيَّاط، تاريخ: ص ٢٤٣؛ الطبري، تاريخ: ٥ / ٢٨١.

كانت هذه الأحداث خارج مدينة البصرة، لكنّها ضمن الرّقعة الجغرافيّة التي كانت تابعة إدارياً للبصرة في تلك الفترة، ولكنّ رجال البصرة كانوا لحمّة تلك الأحداث وسداها، إلّا أنّنا لم نجد ردود أفعال في البصرة تجاه تلك الأحداث التي اشترك بها رجالها، حتّى أنّ قبيلة باهلة لم تطالب بدم بطلها، وهذا يدلّ على ضعف باهلة تجاه القبائل الأخرى داخل البصرة أوّلاً، وخشيتها من ردود أفعال سلطة الشّام ثانياً، وقوّة وسطوة الحجاج في البصرة ثالثاً.

وفي السّنة التي قُتل فيها قتيبة بن مسلم الباهليّ نفسها مات الحجاج بن يوسف الثقفيّ، فولّى سليمان بن عبد الملك يزيد بن المهلب بن أبي صفرة^(١)، فكان آل المهلب من قبيلة الأزد قد حلّوا محلّ الحجاج.

ويبدو أنّ الدافع الحقيقيّ وراء تولية سليمان بن عبد الملك لآل المهلب كان العلاقة الحميمة التي تربط الاثنين، حتّى «كان يجلس على سريره، فإذا جاء سليمان، تنحّى يزيد بن المهلب عنه، وإن جاء يزيد بن المهلب وسليمان على السرير، جلس معه»^(٢).

والظاهر أنّ سمعة آل المهلب كانت كفيلة بالمحافظة على هذه المنطقة، بنفوذها الواسع، وكلمتها المسموعة في قبائل اليمن والأزد بشكل خاصّ^(٣).

(١) يزيد بن المهلب بن أبي صفرة: الأزديّ، أبو خالد، أمير من القادة الشّجعان، ولي خراسان بعد وفاة أبيه سنة (٨٣هـ)، ثمّ عزله عبد الملك بن مروان برأي الحجاج، وكان الحجاج يخشى منه، فسجنه، فهرب من حبسه ولحق بسليمان بن عبد الملك، فأجاره. وفي عهد سليمان تولّى العراقيّ، ثمّ قاد ثورة ضدّ يزيد بن عبد الملك سنة (١٠٢هـ)، فقتل فيها. ابن خلكان، وفيات الأعيان: ٢/ ٢١٤؛ الذهبيّ، سير أعلام النبلاء: ٤/ ٥٠٣.

(٢) الجهشياريّ، الوزراء والكتّاب: ص ٥٠.

(٣) د. ناجي حسن، القبائل العربيّة في المشرق: ص ١٥١.

ثُمَّ إِنَّ يَزِيدَ بْنَ الْمُهَلَّبِ خَرَجَ إِلَى خِرَاسَانَ، فَاسْتَخْدَمَ عَلَى الْبَصْرَةِ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ هَلَالٍ الْكَلَابِيَّ^(١)، وَصَيَّرَ مَرْوَانَ بْنَ الْمُهَلَّبِ^(٢) عَلَى أَمْوَالِهِ وَأُمُورِهِ بِالْبَصْرَةِ، وَكَانَ أَوْثَقَ أَخُوتهِ عِنْدَهُ^(٣). ثُمَّ اسْتَأْنَفَ عَمَلِيَّةَ الْفَتْوحِ مِنْ جَدِيدٍ فِي بِلَادِ الْمَشْرِقِ، وَبَصَحْبَتِهِ جُمُوعٌ مِنْ مُقَاتِلِي أَهْلِ الْبَصْرَةِ^(٤)، وَكَانَتْ فَتُوْحُهُ قَدْ وَصَلَتْ جَرْجَانَ^(٥). وَيَبْدُو أَنَّ الْأُمُورَ دَاخِلَ الْبَصْرَةِ مَالَتْ نَحْوَ الْاسْتِقْرَارِ؛ لِأَنَّ سَلِيمَانَ بْنَ عَبْدِ الْمَلِكِ كَانَ قَدْ أَطْلَقَ الْأَسْرَى، وَخَلَّى أَهْلَ السَّجُونِ، وَأَحْسَنَ إِلَى النَّاسِ^(٦)، فَضْلاً عَنْ هَذَا، تَفَاهَمَ يَزِيدُ بْنُ الْمُهَلَّبِ مَعَ أَهْلِ الْبَصْرَةِ عَلَى الْاسْتِقْرَارِ؛ كَوْنُهُ يَنْتَمِي إِلَيْهِمْ، وَهَذَا سَبَبٌ مُقْنَعٌ لَوْلَائِهِمْ لَهُ وَلِسُلْطَةِ الشَّامِ.

وَكَانَتْ هَذِهِ الْعَوَامِلُ سَاعَدَتْ عَلَى بَرُوزِ شَخْصِيَّةِ يَزِيدَ بْنِ الْمُهَلَّبِ عَلَى الْمُسْتَوَى السَّيَاسِيِّ، وَرَبَّمَا أَصْبَحَ طَرَفًا مُنَافِسًا عَلَى السُّلْطَةِ؛ بِحُكْمِ مَا يَمْتَلِكُهُ مِنْ قُوَّةٍ دَاخِلِ الْبَصْرَةِ، الَّتِي دَعَمَتْهُ فِي ثَوْرَتِهِ أَيَّامَ يَزِيدَ بْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ (١٠١ - ١٠٥هـ)، الثَّوْرَةُ ذَاتِ الْأَهْمِيَّةِ الْكَبِيرَةِ فِي هَذَا الْعَهْدِ، وَسَيَأْتِي الْحَدِيثُ عَنْهَا فِي الْفَصْلِ الْقَادِمِ.

(١) لَمْ نَعَثِرْ عَلَى تَرْجَمَةٍ لَهُ. وَذَكَرَهُ كُلٌّ مِنْ: الطَّبْرِيِّ، تَارِيخُ: ٢٨٩/٥؛ ابْنُ الْأَثِيرِ، الْكَامِلُ فِي التَّارِيخِ: ٢٥/٥؛ ابْنُ خَلْدُونَ، تَارِيخُ: ٧٠/٣.

(٢) مَرْوَانَ بْنَ الْمُهَلَّبِ بْنِ أَبِي صَفْرَةَ: شَجَاعٌ خَطِيبٌ مِنْ أَشْرَافِ الْعَرَبِ، وَهُوَ مِنْ دَبْرِ الْأَمْرِ الْمَهْرَبِ أَخِيهِ يَزِيدَ مِنْ سَجْنِ الْحِجَاجِ، وَقَادَ الثَّوْرَةَ مَعَ أَخِيهِ يَزِيدَ حِينَ خَلَعَ طَاعَةَ بَنِي مَرْوَانَ، وَقَادَ أَهْلَ الْبَصْرَةِ ضِدَّ جَنْدِ الشَّامِ، وَكَانَتْ وَقَائِعُ قُتْلِ فِيهَا مَرْوَانَ سَنَةَ ١٠٢هـ. يُنْظَرُ: الطَّبْرِيُّ، تَارِيخُ: ٣٤١/٥؛ ابْنُ عَسَاكِرَ، تَارِيخُ دِمَشْقَ: ٣٦٠/٥؛ الزُّرْكَانِيُّ، الْأَعْلَامُ: ٢٠٩/٧.

(٣) الطَّبْرِيُّ، تَارِيخُ: ٢٨٩/٥؛ وَيُنْظَرُ: خَلِيفَةُ بْنُ خَيْطٍ، تَارِيخُ: ص ٢٤٧.

(٤) الطَّبْرِيُّ، تَارِيخُ: ٢٩٧/٥.

(٥) جَرْجَانُ: مَدِينَةٌ مَشْهُورَةٌ عَظِيمَةٌ، بَيْنَ طَبْرِسْتَانَ وَخِرَاسَانَ. يَاقُوتُ الْحَمَوِيُّ، مَعْجَمُ الْبِلْدَانِ: ١١٩/٢.

(٦) الطَّبْرِيُّ، تَارِيخُ: ٣٠٤/٥.

- البصرة في عهد عمر بن عبد العزيز

أما الحياة السياسيّة في البصرة في عهد عمر بن العزيز (٩٩-١٠١هـ)، فلم تكن مضطربة، وكان هذا ناتجاً عن عدم مضايقة عمر بن عبد العزيز لأهل البصرة، وعدم ممارسته سياسة تعمل على تقويض أهل البصرة وحملهم على الرضوخ إلى ما يرغب به حاكم الدولة؛ إذ أسند ولايتها لعدي بن أرطاة^(١)، وأوكل إليه مهمّة القبض على يزيد بن المهلب.

ويبدو أنّ هناك مسائل خلافيّة كانت بين عمر بن عبد العزيز ويزيد بن المهلب؛ فالأوّل كان يُبغض آل المهلب، ويقول: هؤلاء جابرة، ولا أحبّ مثلهم، والثاني يزيد بن المهلب، كان يُبغض عمر بن عبد العزيز، ويقول: إنّني أظنّه مرأياً^(٢).

ثمّ طلب عمر من يزيد أن يؤدّي إليه الأموال التي كانت بحوزته منذ زمن سليمان بن عبد الملك، فأنكر يزيد بن المهلب تلك الأموال، فحبسه عمر بن عبد العزيز في سجنه^(٣).

ويبدو أنّ عدي بن أرطاة كان يتصرّف بولاية البصرة ببعض الأمور التي لا توافق نهج عمر بن عبد العزيز، وربّما لجأ في بعض المواقف إلى قتل الناس وسجنهم بسبب عمل قاموا به عن طريق الخطأ أو ما شابه ذلك، فكتب إليه عمر بن عبد

(١) عدي بن أرطاة الفزاريّ الدمشقيّ: أمير البصرة لعمر بن عبد العزيز، كان يسبّ الإمام عليّاً عليه السلام من على منبر البصرة في أيام ولايته لها، قتله معاوية بن يزيد وجماعة صبراً سنة ١٠٢هـ. الصفديّ، الوافي بالوفيات: ٣٤٨/١٩؛ ويُنظر: محمّد بن سليمان الكوفيّ، مناقب الإمام أمير المؤمنين عليه السلام: ٣١٨/١.

(٢) الطبريّ، تاريخ: ٣١٢/٥؛ ابن خلّكان، وفيات الأعيان: ٢٩٩/٦.

(٣) الطبريّ، تاريخ: ٣١٢/٥؛ ابن كثير، البداية والنهاية: ٢١٢/٩.

العزیز: «بئس ما صنعت إذ سجتته»^(١).

وكان عديّ بن أرطاة ذا شخصيّة تميل إلى سفك الدماء والقتل، ففي بعض الأحيان يحاول إثارة بعض الأسباب التي تبرّر أعماله في قتل الناس بالبصرة؛ إذ نجده يكتب إلى عمر بن عبد العزيز يستأذنه في تعذيب العمّال، فيردّ عليه سيّده: «كأنّي لك جنّة من عذاب الله! وكأنّ رضاي يُنجيك من سخط الله!»^(٢). وهذا يكشف أنّ عمر بن عبد العزيز لم يكن يرغب في أن يكون عمل الولاة مائلاً عن طريق الحقّ من أجل رضا الحاكم، بل عليهم الجدّ من أجل رضا الله تعالى، حتّى يتجنّبوا سخطه. وفي الوقت نفسه يتعدون عن سنّة آل أميّة في طريقة الحكم؛ إذ كانوا عودوا ولاتهم وأمرأهم على العمل من أجل رضا حكام بني أميّة، فأنزلوا أشدّ صور العذاب والحرمان بالأمصار الإسلاميّة طول فترة حكمهم.

وهناك كتاب آخر من عمر بن عبد العزيز إلى عامله على البصرة عديّ بن أرطاة جاء فيه: «أمّا بعد، فإنّك غررتني بعمامتك السوداء، ومجالستك القراء، وإرسالك العمامة من ورائك، فإنّك أظهرت لي الخير، فأحسنّت، فقد أظهرنا الله على ما كنتم تكتُمون، والسّلام»^(٣).

والظاهر أنّ هناك أمراً كان ابن أرطاة يكتمه عن سيّده، أو ربّما أظهر شيئاً يكرهه عمر بن عبد العزيز، وقد يكون ابن أرطاة يتعامل مع الناس بوجهين مختلفين، أي: يُظهر خلاف ما يُبطن، وهذا المعنى واضح في كتاب عمر بن عبد العزيز الأخير. وربّما كان عديّ بن أرطاة قد قتل قسماً من أهل البصرة وعدّبهم في سجونهم،

(١) ابن حزم، المحلّي: ٤٩/١١.

(٢) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة: ٢٠/١٧.

(٣) الصنعاني، المصنّف: ٤٦٢/١١؛ ويُنظر: الذهبي، تاريخ الإسلام: ١٦٣/٧.

فقد ذكر ابن كثير أنه كان يستنّ بسنة الحجاج بن يوسف الثقفي، وقد نهاه عمر بن عبد العزيز عن ذلك^(١).

وعمل ابن أرطاة على إثارة الأوساط الدينية في البصرة من خلال صعوده المنبر وسب الإمام علي عليه السلام^(٢)، وقد قال رسول الله ﷺ: «مَنْ سَبَّ عَلِيًّا، فَقَدْ سَبَّنِي، وَمَنْ سَبَّنِي، سَبَّ اللَّهَ تَعَالَى»^(٣).

إنّ الفترة الوحيدة التي لم يُسب فيها أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام على منابر الأمصار الإسلامية في الدولة الأموية هي فترة حكم عمر بن عبد العزيز، وإن كنّا نجد عماله في بعض الأحيان تُعلن السب كما هو الأمر في ابن أرطاة، لكن هذه الحالة كانت في بداية عهده، فلمّا مات، عاد الأمويون إلى سنتهم المبنية على سب الإمام علي عليه السلام حتى سقوط الدولة الأموية سنة ١٣٢هـ.

إنّ ما ذكرناه عن شخصية ابن أرطاة داخل البصرة إنّما هو محاولة للوصول إلى حقيقة الأوضاع في تلك الفترة في ظل حكم عمر بن عبد العزيز، ويبدو أنّ ابن أرطاة قد اصطدم بقرارات خليفته التي حتمت عليه اتّباعها، وإن كان يجتهد في كتمان بعض الأمور التي أحسّ بها عمر بن عبد العزيز.

لقد كان ابن أرطاة متأثراً بشخصية الحجاج، فحاول سلوك منهجه من أجل

(١) البداية والنهاية: ١٥٦/٩.

(٢) محمد بن سليمان الكوفي، مناقب الإمام أمير المؤمنين عليه السلام: ٣١٨/١.

(٣) أحمد بن حنبل، المسند: ٣٢٣/٦؛ الحاكم النيسابوري، المستدرک على الصحّاحين: ١٢١/٣؛ ويُنظر: المسعودي، مروج الذهب: ٣٥/٢؛ القاضي نعمان، شرح الأخبار: ١/١٥٥؛ الصّدوق، الأمالي: ص ١٥٧؛ الذهبي، تاريخ الإسلام: ٦٣٤/٣؛ ابن كثير، البداية والنهاية: ٣٩١/٧.

صنع المجد الكاذب الذي يطمح إليه كلّ ذي سلطة في زمانه، لكنّ الأحداث في أيّامه لم تكن تحتاج إلى شخصيّة دمويّة معتادة على سفك الدماء كما شهدته البصرة أيّام زياد بن أبيه أو الحجاج بن يوسف، فربّما ما آلت إليه الأمور من الاستقرار السَّياسيّ داخل البصرة لم تهَيّ لابن أُرطاة أن يندرج في قائمة أولئك الذين عملوا على تصفية العناصر السَّياسيّة التي تستهدف الحكم.

- حالة البصرة السَّياسيّة في عهد يزيد بن عبد الملك بن مروان

أمّا حالة البصرة السَّياسيّة في عهد يزيد بن عبد الملك بن مروان (١٠١-١٠٥هـ)، فقد شهدت المدينة ثورة آل المهلب ضدّ سلطة بني مروان بقيادة يزيد بن عبد الملك، الذي ولى مسلمة بن عبد الملك^(١) للقضاء عليها، وعندما أتمّ مسلمة مهمّته في القضاء على آل المهلب وتشريدهم من البصرة، ضمّت إليه الكوفة، فولي البصرة عبد الرّحمن بن سليم الكلبي^(٢)، وعلى شرطتها وأحداثها عمر بن يزيد التميمي^(٣).

(١) مسلمة بن عبد الملك: ابن مروان من بني أميّة في دمشق، يلقّب بالجرادة الصّفراء؛ لصُفرة كانت تملّوه، له فتوح مشهورة، سار في مائة وعشرين ألفاً لغزو القسطنطينيّة في دولة أخيه سليمان، وبني مسجد مسلمة بالقسطنطينيّة سنة ٩٦هـ، وولّاه أخوه يزيد إمرة العراق، ثمّ أرمينية. مات بالشّام سنة ١٢٠هـ. يُنظر: ابن قتيبة، المعارف: ص ٣٥٨؛ ابن عساكر، تاريخ: دمشق: ٥٨/ ٢٩؛ الذهبي، تاريخ الإسلام: ٧/ ٤٦٨؛ ابن حجر، تقريب التهذيب: ٢/ ١٨٣؛ الزّركلي، الأعلام: ٧/ ٢٢٤.

(٢) عبد الرّحمن بن سليم الكلبي: أحد رجال الحجاج وقادته، وهو من قاد حرب الحجاج ضدّ محمّد بن عبد الرّحمن بن الأشعث، تولّى شرطة البصرة ليزيد بن عبد الملك. ابن عساكر، تاريخ دمشق: ٣٤/ ٤٠١.

(٣) عمر بن يزيد التميمي: يكنى أبا بردة، كوفيّ له حديث، ولكن يكتب من الضعفاء. عبد الله

ويذكر الطبري أنّ عبد الرحمن هذا حاول أن يستعرض أهل البصرة، أي: يعاقب الذين أيّدوا آل المهلب، وأفشى ذلك لصاحب الشرطة عمر بن يزيد، الذي عارض فكرة عبد الرحمن، بقوله: «أتريد أن تستعرض أهل البصرة ولم تكن حصناً بكوفة^(١)، وتدخل من تحتاج إليه؟! فوالله، لو رماك أهل البصرة وأصحابك بالحجارة، لتخوّفت أن يقتلونا، ولكن انظرنا عشرة أيام حتى نأخذ أهبة ذلك»^(٢). ويبدو من هذا الاستعراض الذي نواه عبد الرحمن بن سليم، أنّه إنّما كان من أجل إرضاء سادته من البيت الأموي؛ باعتبار أن أهل البصرة وقفوا ضدّ الحكومة الأموية عندما تخلّوا عن طاعتهم لها، واتّبعوا يزيد بن المهلب وأيدوه بالثورة التي شنّها ضدّهم -سيأتي الحديث عنها لاحقاً-، لكنّ الظروف لم تكن مؤاتية لوالي البصرة الأموي؛ إذ لم يكن لديه القوّة الكافية التي تسانده في حالة الاضطراب السّياسي، كما في قول عمر بن يزيد: «وتدخل من تحتاج إليه»، فلم يكن هذا الوالي ذا مقدرة على سوس أهل الأمصار، بل لم يكن لديه الفطنة المناسبة للتعامل معهم حسب ما تمليه عليه مصلحة الدّولة، وعليه، لم يكن مسلمة بن عبد الملك يوافق عبد الرحمن بن سليم على ما همّ به بشأن أهل البصرة، فعزله عنها^(٣)، وولّى بدلاً عنه عبد الملك بن بشر بن مروان على البصرة، وأقرّ صاحب الشرطة^(٤).

ابن عديّ، الكامل: ١٣٨/٥؛ ابن حجر، تهذيب التهذيب: ١٠٥/٨.

(١) كوفية: موضع يقال له (كوفية عمرو)، وهو عمرو بن قيس من الأزد، كان أبرويز السّاسانيّ لما انهزم من بهرام جور نزل به، فقراه وحمله، فلمّا رجع إلى ملكه، أقطعه ذلك الموضع.

البكريّ، معجم ما استعجم: ١١٤٤/٤.

(٢) تاريخ الطبري: ٣٥٠/٥.

(٣) يُنظر: الطبري، تاريخ: ٣٥٠/٥.

(٤) الطبري، تاريخ: ٣٥٠/٥.

إنَّ هذه الأحداث تعطينا صورة مغايرة للدولة الأمويين التقليديين الذين أنزلوا أشدَّ العقوبات بأهل البصرة، ويبدو أنَّ هذه الاختلاف راجع إلى عبد الملك، الذي كان بعيداً عن أمور السَّياسة ومحاسبة الناس محاسبة عسيرة، بل كان شخصيَّة منصرفة بكلِّ طاقاتها إلى مجالس الغناء وحبِّ الجواري واللَّهو، أكثر من أمور العامَّة حتَّى هلكه سنة ١٠٥هـ^(١).

- حالة البصرة السَّياسِيَّة في عهد هشام بن عبد الملك بن مروان

وفي عهد هشام بن عبد الملك (١٠٥-١٢٥هـ) الذي تولَّى الحكم خلفاً لأخيه يزيد، كانت الحياة السَّياسِيَّة هادئة بعض الشيء، فقد ولي هشام بن عبد الملك خالد ابن عبد الله القسري^(٢) على العراق كلّهُ، وكان خالد القسريّ هذا يمثل شخصيَّة

(١) لقد ارتبط يزيد بن عبد الملك بجاريته: حبابة وسلامة القسّ، التي عُرفت بالقسّ؛ لأنَّ عبد الرَّحمن بن أبي عمَّار الجشميَّ من أهل قرى مكّة، كان يلقَّب القسّ؛ لعبادته، فشغف بها، واشتهر بها، فغلب لقبه عليها، وهي من مولات المدينة، وبها نشأت.

وكانت سلامة وحبابة من قيان أهل المدينة، وكانتا حاذقتين ظريفتين ضاربتين، وكانت سلامة أحسنهما غناء، وحبابة أحسنهما وجهاً، وسلامة تقول الشَّعر وحبابة تتعاطاه فلا تحسنه، واشترى رسل يزيد سلامة القسّ من آل رمانة بعشرين ألف دينار، واشترى حبابة بأربعة آلاف دينار من عثمان بن سهل بن حنيف، فلمَّا ماتت حبابة، بكى عليها، وقال:

لئن نسلُ عنكِ النفسُ أو تذهلَ الهوى فبالأس يسْلُو القلبُ لا بالتجلُّدِ

وقيل: مكث يزيد بن عبد الملك بعد موتها سبعة أيَّام لا يخرج إلى الناس حزناً عليها، تاركاً أمور المسلمين، وهو الرّجل الأوّل في سلّم المناصب السَّياسِيَّة في الدولة الأمويَّة. الطبري، تاريخ: ٣٧٥/٥؛ الصفديّ، الوافي بالوفيات: ٢٠٧/١٥؛ ويُنظر: ابن عساكر، تاريخ دمشق: ٢٣٤/٦٩؛ المزيّ، تهذيب الكمال: ٢٣٠/١٧؛ الأميني، الغدير: ٢/٢١٠؛ الزركلي، الأعلام: ١٠٧/٣.

(٢) خالد بن عبد الله بن يزيد بن أسد بن كريض البجليّ، ثمّ القسريّ، وكان يزيد بن أسد جدّه،

هشام بن عبد الملك الذي سلّمه ولاية العراق، وقد اتّبع هشام السّياسة الأمويّة التقليدية في اختيار الولاة المعدّين لمهامّ دقيقة في كسب النّاس، وجعلهم يخضعون مباشرةً لسلطة الدّولة. فكان لخالد رؤيته المنفردة في الحكم، وأصبح أحد قلائل اليمينيّين الذين تولّوا مهام ولاية العراق^(١).

أمّا أخبار هذا الوالي في البصرة، فقد ارتبط عمله السّياسيّ هناك بتعذيب عمر ابن يزيد بن هبيرة^(٢)، الذي استولى على أموال العراق^(٣)، فكان القسريّ يعذب عمر بن يزيد بن هبيرة أشدّ أنواع العذاب، حتّى شقّ ذلك على أهل البصرة مشقّة شديدة؛ لأنّ أهل البصرة كانوا يحبّون عمر بن يزيد، فقال الفرزدق في ذلك:

أَلَا قَطَعَ الرَّحْمَنُ ظَهَرَ مَطِيَّةٍ أَتَتْنَا نَحْطَى مِنْ دَمَشَقٍ بِخَالِدٍ
وَكَيْفَ يَوْمُ النَّاسِ مَنْ كَانَتْ أُمُّهُ تَدِينُ بِأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِوَاحِدٍ^(٤).

ثمّ هرب عمر بن يزيد من سجن القسريّ^(٥)، وربّما كان ذلك بتدخّل أهل

وفد على النّبيّ محمّد ﷺ، فأسلم ونزل الشّام، ثمّ اشترى خالد لما ولي العراق خططاً بالكوفة وابتنى بها، وكانت أمّه نصرانيّة، ولّاه هشام بن عبد الملك العراق، ثمّ ساءت العلاقة بينهما، فعزله هشام، قُتل خالد سنة ١٢٦هـ. ابن قتيبة، المعارف: ص ٣٩٨؛ السمعانيّ، الأنساب: ٤٩٧/٤.

(١) د. إبراهيم بيضون، ملامح التّيارات السّياسيّة: ص ١٣٦.

(٢) عمر بن يزيد بن هبيرة: والي العراق من قبل يزيد بن عبد الملك، ثمّ عزله هشام بن عبد الملك وعذّبه بالبصرة عن طريق عامله خالد القسريّ أنواع العذاب، فهرب من السّجن، ولحقته شرطة القسريّ، فقتلوه وهو يريد الشّام. يُنظر: ابن أعثم، الفتوح: ٢٤٠/٨.

(٣) ابن أعثم، الفتوح: ٢٣٩/٨.

(٤) ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ٢٧٩/٥؛ المولى حيدر الشروانيّ، مناقب أهل البيت ﷺ: ص ٤٧٧. ولم يورد هذا الشّعر في ديوان الفرزدق.

(٥) ابن أعثم، الفتوح: ٢٤٠/٨. أمّا ابن الأثير، فيروي أنّ «عمر بن يزيد الأسديّ أبلى في

البصرة ومساعدتهم السَّجِين على الهرب؛ لِحُبِّهِمْ لَهُ، وتعاطفهم معه، فلمَّا علم القسريُّ بذلك، وجَّه صاحب شرطة البصرة مالك بن المنذر بن الجارود العبديَّ^(١) في مطاردته، فلحقه في الطريق وهو يريد الشَّام، فقتله، وبلغ ذلك هشاماً، فلم يقبل على القسريِّ وصاحب شرطته، فأمر بهالك بن المنذر إلى السَّجِن في دمشق، وبقي هناك يعذَّب حتَّى مات^(٢).

وكان خالد بن عبد الله القسريُّ يلعن الإمام عليّاً عليه السلام على منبر البصرة^(٣)، شأنه بذلك كسابقه من ولاة بني أميَّة، باتِّباعهم السنَّة الأمويَّة!

ولم يكن أهل البصرة يقبلون بذلك السبِّ لأمر المؤمنين والطعن فيه؛ إذ روي أنَّ خالداً القسريَّ صعد يوماً المنبر بالبصرة، فأرتج عليه أهلها، فقال: «أيُّها النَّاس، إنَّ الكلام يجيء ويذهب أحياناً، فيتسبَّب عند مجيئه سببه، ويعزَّ عند غروبه طلبه،

قتل يزيد بن المهلَّب، فقال يزيد بن عبد الملك: هذا رجل العراق، فغاض ذلك خالد بن عبد الله، وأمر مالك بن المنذر وهو على شرطة البصرة أن يعظِّمه ولا يعصي له أمراً، وأقبل يطلب له عشرة يقتله بها، فذكر مالك بن المنذر عبد الأعلى بن عبد الله بن عامر، فافتى عليه، فقال عمر بن يزيد: لا تقتل على مثل عبد الأعلى، فأغلظ له مالك وضر به بالسَّياط حتَّى مات». الكامل في التاريخ: ١٤٥/٥.

(١) مالك بن المنذر بن الجارود العبديُّ: أحد عمال بني أميَّة في البصرة، ولَّاه خالد القسريُّ منصبَ صاحب الشرطة، وكان مالكٌ قد شارك في ثورة يزيد بن المهلَّب ضدَّ سلطة الشَّام آنذاك، ثمَّ طغى عليه منصب الشرط الذي أوكل إليه من قبل القسريِّ، فأخذ يسجن الناس ويتعقَّبهم. يُنظر: البخاريُّ، التاريخ الكبير: ٣٠٩/١؛ الطبريُّ، تاريخ: ٣٢٩/٥؛ ابن عساكر، تاريخ دمشق: ٥١٢/١٠.

(٢) ابن أعثم، الفتوح: ٢٤٠/٨.

(٣) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة: ٥٧/٤؛ ويُنظر: أحمد الرَّحْمَانيُّ الهمدانيُّ، الإمام عليّ بن أبي طالب: ص ٥٨٧.

وربما كُوبر^(١)، فأبى، وعُولج فأبطأ^(٢).

كان هدف خالد القسري ومن ورائه الدولة الأموية منذ اليوم الأول لتأسيسها هو الخطّ من شخصيّة عليّ بن أبي طالب وأهل بيته عليهم السلام، وسبّه على منابر المسلمين، من أجل النيل من فضائله ومن الصفات التي كان يتمتع بها بوصفه قائداً مقتدراً في كلّ الظروف التي شهد بها له أعداؤه قبل مواليه؛ إذ يروى أنّ عمر بن عبد العزيز، قال: «كان أبي إذا خطب، فنال من عليّ عليه السلام، تلجلج، فقلت: يا أبت، إنّك تمضي في خطبتك، فإذا أتيت على ذكر عليّ، عرفتُ منك تقصيراً! فقال: أو فطنتَ لذلك؟ قلتُ: نعم. فقال: يا بنيّ، إنّ الذي حولنا لو يعلمون من عليّ ما نعلم، تفرّقوا عنّا إلى أولاده»^(٣).

لقد جاءت مسألة السبّ لتؤكد أنّ الأمويين عاجزون عن الحفاظ على نفوذهم داخل الدولة ما دام هناك شخص عليّ بن أبي طالب عليه السلام، الذي يمثل الإسلام كلّهُ، كما قال الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله عندما برز الإمام عليّ عليه السلام لقتال عمرو بن ودّ

(١) كوبر: كابره على حقّه: جاحده وغالبه عليه، وكوبر على ماله، وإنّه لمكابر عليه: إذا أخذ منه عنوة وقهراً. الزبيديّ، تاج العروس: ٧ / ٤٣٤.

(٢) السيّد المرتضى، الأمالي: ٤ / ١٩؛ الزبيديّ، تاج العروس: ٧ / ٤٣٤.

(٣) ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ٥ / ٤٢؛ ويُنظر: د. محمّد بحر العلوم، لمحات من الصراع السياسيّ في الإسلام: ٢ / ٢٩٩.

العامري^(١): «برز الإيمان كلّهُ إلى الشُّركِ كلّهُ»^(٢). فلو كانت هذه الثَّقافة ظاهرة في جميع الأمصار الإسلاميَّة أيام الدَّولة الأمويَّة، لكان الوضع قد تغيَّر، ولما بقي المسلمون خاضعينَ لذلك التسلُّط القسريِّ، الذي كرَّس الخلاف بين الهاشميين والأمويين المتفاقم خطبه في العصر الأمويِّ، فالإمام عليٌّ عليه السلام ومَن حوله ومَن بعده من الهاشميين كانوا يمثلون المعسكر المثالي في الإسلام، الذي يؤمن بالمثل والمبادئ والقيم، وهو المبدأ الذي يؤثر فيه المثاليون القيم الإسلاميَّة على حظوظ الدُّنيا، بينما كان الأمويون يمثلون المعسكر الواقعي المتطرَّف، الذي لا يرى الأشياء إلَّا بالمنظار المادِّي، وأتباع هذا المعسكر يضحَّون بكلِّ شيء من أجل الدُّنيا^(٣).

وعلى هذا الأساس، كان خالد القسريُّ أحد أتباع المعسكر الأمويِّ، الذي يقرب أولئك الذين يثَّون الدَّعاية لصالحهم، وبناء على هذا النحو الذي سلكه خالد بن عبد الله القسريِّ، يكون الرَّجل قد ابتعد بعلاقته عن البيت الهاشميِّ، عكس ما ذهب إليه أحد الباحثين، من أنَّ علاقة القسريِّ بزعماء البيت الهاشميِّ

(١) عمرو بن ودّ العامريِّ: فارس قریش، وقد كان قاتل يوم بدر، وخرج يوم الخندق معلماً يرى مشهده، فلما وقف هو وخيله، قال الإمام عليٌّ بن أبي طالب: يا عمر، إني أدعوك إلى الله، وإلى رسوله، وإلى الإسلام، فقال عمرو: لا حاجة لي بذلك، ثمَّ دعاه عليٌّ للمبارزة، فقال عمرو: لم يا ابن أخي؟! فو الله، ما أحبُّ أن أقتلك، فردَّ عليه أمير المؤمنين عليه السلام: ولكني أحبُّ أن أقتلك. عندها تنازلا، فقتله الإمام عليٌّ عليه السلام. أنظر: الحاكم النيسابوريِّ، المستدرک على الصَّحیحین: ٣/ ٣٢؛ البيهقيِّ، السنن الكبرى: ٩/ ١٣٢؛ المتقي الهنديِّ، كنز العمال: ١٠/ ٤٥٤.

(٢) الجاحظ، العثمانية: ص ٣٣٣؛ أبو الفتح الكراجكيِّ، كنز الفوائد: ص ١٣٧؛ ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة: ١٣/ ٢٦١.

(٣) حامد حفني داود، نظرات في الكتب الخالدة: ص ١٦٠.

كانت منسجمة إلى حد كبير، وجزءاً لا يتعد عن نهجه السياسي العام^(١). وفي نهاية المطاف، ساءت العلاقة بين هشام بن عبد الملك وعامله على العراق خالد بن عبد الله القسري؛ وذلك لأن الأخير احتفظ بأموال كثيرة لنفسه دون علم هشام^(٢)، وقيل: كان يطلق لسانه في حق هشام بما يكرهه^(٣)، فكانت هذه الأسباب كافية لعزله، فتم ذلك سنة (١٢٠هـ / ٧٣٧م)^(٤).

البصرة وثورة الشهيد زيد بن علي بن الحسين عليه السلام

ثم شهد العراق فترة اضطراب سياسي تمثلت بالثورة التي قادها الشهيد زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب عليه السلام، وكانت في سنة (١٢١هـ / ٧٣٨م). وما يهمنا من أخبار هذه الفترة هو الوضع السياسي في البصرة، التي بقي فيها زيد بن علي لمدة شهرين^(٥)، فقد أتى البصرة متخفياً بعد أن كان متخفياً في الكوفة^(٦).

ويبدو أن أهل البصرة قد شاركوا في ثورة زيد بن علي، خاصة الشيعة منهم؛ إذ روي أن الشيعة لقوا زيداً، فقالوا له: «أين تخرج عنا رحمك الله ومعك مائة ألف

(١) د. إبراهيم بيضون، ملامح التيارات السياسية: ص ٣٤٤.

(٢) يُنظر: الطبري، تاريخ: ٥ / ٤٧٥.

(٣) ابن خلّكان، وفيات الأعيان: ٧ / ١٠٣.

(٤) خليفة بن خياط، تاريخ: ص ٢٧٥؛ الطبري، تاريخ: ٥ / ٤٦٧؛ الذهبي، تاريخ الإسلام: ٣١٨ / ٧.

(٥) البلاذري، أنساب الأشراف: ٣ / ٤٣٤؛ الطبري، تاريخ: ٥ / ٤٩١.

(٦) مهدي عبد الحسين النجم، ثورات العلويين: ص ١٣٦.

سيف من أهل الكوفة والبصرة وخراسان يضربون بني أمية بها دونك؟^(١).
 إنّ هذا النصّ يكشف لنا تواجد أهل البصرة ضمن صفوف الثوّار الذين التحقوا بثورة زيد، بعد أن أرسل إلى أهل السّواد يدعوهم إليه^(٢).
 ولكنّ الشيء الذي لم يتّضح لنا، هو دور أهل البصرة في هذه الثورة، ومقدار ما كان لهذا الدور من تأثير وفعاليّة في نتائج هذه الثورة، هذا ما لم يتّضح، خاصّة وأنّ الأخباريين قد ركّزوا على قائد الثورة وتحركاته، وأغفلوا الدور الآخر الذي يمثله أتباعه من أهل الأمصار العربيّة الإسلاميّة، فلم تكن المعلومات وافية عن ذلك.

- البصرة أيام الوليد بن يزيد

أمّا أيام الوليد بن يزيد (١٢٥-١٢٦هـ)^(٣)، فقد كانت البصرة مضطربة سياسيّاً، شأنها في ذلك شأن سائر البلدان الأخرى^(٤)؛ فقد كان الوليد مهملاً في أموره، قليل العناية بشؤون المسلمين، وكان صاحب ملاءة وقيان، وإظهار للقتل والجور، وتشاغل عن أمور النّاس، حتّى أنّ الطبريّ قال بحقّه: «تركّت الأخبار الواردة عنه بذلك كراهة إطالة الكتاب بذكرها»^(٥).
 ولما قُتل الوليد بن يزيد، كان عامله على البصرة محمّد بن القاسم بن محمّد

(١) أبو الفرج الأصفهانيّ، مقاتل الطالبيين: ص ١٣١؛ ويُنظر: جعفر السّبحانيّ، الزّيدية في موكب التاريخ: ص ٢٨٦.

(٢) الطبريّ، تاريخ: ٥ / ٤٩١.

(٣) البعقوبيّ، تاريخ: ٢ / ٢٣١.

(٤) البعقوبيّ، تاريخ: ٢ / ٢٣٣.

(٥) تاريخ الطبريّ: ٥ / ٥٣٨.

الثقفي^(١)، فهرب عنها^(٢). وهذا أول والٍ من ولاية الأمويين يهرب من البصرة بعد سماع خبر وفاة سيده، وهذا بلا شك يعكس مواقفه السابقة إزاء أهل البصرة، الذين لم يكونوا راضين عنه، فترك مدينتهم وفر عنها.

ثم اصطلح أهل البصرة على عبد الله بن عبد الله بن أمية المخزومي^(٣)، الذي يُعرف بالأفوه^(٤)؛ إذ تبعه الناس، فصلّى بهم جمعة^(٥).

وليس لدينا النصوص التاريخية الكافية عن تلك الفترة لإعطاء صورة واضحة عن الحياة السياسية آنذاك. ولكن الذي يبدو أنّ تلك الأيام من تاريخ الدولة الأموية كانت بدايات الانهيار بأفعال أصحاب السلطة أنفسهم، الذين مالوا إلى الملذات، وابتعدوا عن أمور الناس، فكانت أيامهم فتنة عامة في جميع أرجاء الدولة^(٦).

وفي نهاية أيام يزيد بن الوليد بن عبد الملك الناقص^(٧)، الذي ملك لفترة خمس

(١) محمد بن القاسم بن محمد، لم يذكروا له ترجمة، وهو غير محمد بن القاسم الثقفي القائد الفاتح.

(٢) خليفة بن خياط، تاريخ: ص ٢٩٤.

(٣) عبد الله بن عبد الله بن أبي أمية المخزومي، ابن أخي أم سلمة زوج النبي ﷺ. ذكره جماعة من المؤلفين. فيه نظر، ولا تصح له صحبة؛ لصغره. ابن عبد البر، الاستيعاب: ٩٤٢/٣؛ ويُنظر: البخاري، التاريخ الكبير: ١٢٩/٥.

(٤) الأفوه: الواسع الفم، وموفوه: إذا كان حسن الكلام بليغاً في كلامه. الخليل الفراهيدي، كتاب العين: ٩٥/٤؛ ابن منظور، لسان العرب: ٥٢٩/١٣.

(٥) خليفة بن خياط، تاريخ: ص ٢٩٤.

(٦) اليعقوبي، تاريخ: ٢/٢٣٤.

(٧) كان يزيد بن الوليد بن عبد الملك يلقب بالناقص؛ لأنه نقص الناس أعطياتهم التي زادها الوليد بن يزيد؛ إذ زادهم الأخير في العطاء عشرة عشرة، فلما قُتل الوليد، نقصهم يزيد تلك

أشهر^(١)، قدم سعيد بن عمرو بن جعدة بن هبيرة المخزومي^(٢) للبصرة في سنة (١٢٦هـ / ٧٤٣م)، داعية لمروان بن محمد بن مروان بن الحكم (١٢٧ - ١٣٢هـ)،^(٣) فنزل عند أبي العسكر^(٤) المسمعيّ مستخفياً، ودسّ إلى وجوه أهل البصرة يدعوهم إلى الدخول في طاعة مروان، وجعل يعدّهم بالأموال، ويخبرهم بأنّ الزيادة سوف تأتيهم من قبل مروان بن محمد^(٥)..

لكنّ أهل البصرة وجدوا أنّ سعيد بن عمرو بن جعدة قد تأخّر عليهم، ولم يجدوا لقوله مصداقاً بشأن الأموال التي وعدّهم بها؛ لذا، ابتعدوا عنه، وجعل صبيان البصرة في سككهم يقولون:

مَنْ يَبَايعُ بَنِيَّةَ ابْنِ جَعْدَةَ الشَّقِيَّةِ
ظَنُّوا أَنَّ جَعْدَةَ امْرَأَةً^(٦).

الزيادة، وردّ أعطيّاتهم إلى ما كانت عليه أيام هشام بن عبد الملك. الطبريّ، تاريخ: ٥ / ٥٦٤. (١) اليعقوبيّ، تاريخ: ٢ / ٢٣٤.

(٢) سعيد بن عمرو بن جعدة بن هبيرة بن أبي وهب بن عمرو بن عائذ بن عمران بن مخزوم الكوفيّ. كان هشام بن عبد الملك قد ضمّه إلى ولده ليتأدّبوا بأدبه، وقيل: كان صدوق الحديث. ابن عساکر، تاريخ دمشق: ٢١ / ٢٥؛ ويُنظر: ابن شاهين، تاريخ أسماء الثقات: ص ٩٩؛ الذهبيّ، تاريخ الإسلام: ٨ / ٤٣٨.

(٣) لما ولي الوليد بن يزيد وخرج عليه ابن عمّه يزيد بن الوليد وقتله، اختلف بنو أميّة فيما بينهم، وأقبل مروان بن محمد من الجزيرة بعدما بايعه أهلها بطلب الخلافة لنفسه؛ بحجّة الطلب بدم المظلوم الوليد بن يزيد، فخلع إبراهيم بن الوليد، وقتل قوماً من بني أميّة، واضطرب أمر الملك. يُنظر: ابن قتيبة، الإمامة والسّياسة: ٢ / ١٥٣؛ الدّينوريّ، الأخبار الطّوال: ص ٣٤٩. (٤) لم أعثر على ترجمة له.

(٥) البلاذريّ، أنساب الأشراف: ٨ / ٢٣٥.

(٦) البلاذريّ، أنساب الأشراف: ٨ / ٢٣٥.

ثم إن تلك الأحداث كانت قد وصلت إلى مسامع عبد الله بن عمر بن عبد العزيز^(١) والي العراق في تلك الأيام^(٢)، فوجه عمر بن سهيل بن عبد العزيز^(٣) إلى البصرة، وبصحبه جند من البخارية^(٤)، فهرب ابن جعدة، ولكن مروان بن محمد لم يتوقف عن أمر البصرة، بل حاول أن يثيرها ضد صاحب الشرطة عمرو بن سهيل، الذي كان قد انتزع منصب صاحب الشرطة من المسور بن عباد بن عمر بن الحصين الحبطي من بني تميم، الذي كان يلي البصرة قبل ابن سهيل^(٥).
ويبدو أن بني تميم كانوا قد غضبوا للمسور، الذي فقد منصبه وكان أحدهم، فتدخلت العصبية القبلية في تلك الأيام.

ثم إن ابن سهيل نهضت معه الأزدي وربيعة وقريش والبخارية ومن معه من أهل الشام، في حين كان المسور في بني تميم وباهلة وبني عامر بن صعصعة^(٦)،

(١) عبد الله بن عمر بن عبد العزيز بن مروان، كان عاملاً ليزيد بن الوليد على العراق سنة ١٢٦هـ، ولما كان في عهد مروان بن محمد الملقب بالحمار آخر ملوك بني أمية، قتله سنة ١٣٠هـ. يُنظر: ابن خلّكان، وفيات الأعيان: ٣ / ٤٦١.

(٢) الطبري، تاريخ: ٥ / ٥٨٣؛ ويُنظر: البلاذري، فتوح البلدان: ٢ / ٤٥٥.

(٣) عمر بن سهيل بن عبد العزيز بن مروان: أمير ثائر من الشجعان، كان مقيماً بمصر، وخرج على مروان بن محمد، فقبض عليه وحبسه في الفسطاط إلى أن قُتل مروان، وظهرت الدعوة العباسية، ففر من سجنه، فطلبه صالح بن عليّ العباسي، فامتنع، فظفر به في جبل الآق، فقتله. يُنظر: ابن عساكر، تاريخ دمشق: ٤٦ / ٧٠؛ الزركلي، الأعلام: ٥ / ٧٨.

(٤) البخارية: وهم فرق من الشرطة التي تتكوّن من الموالي، والذين يجيدون الرمي بالشباب، والبخارية سكة من سكك البصرة. يُنظر: الطبري، تاريخ: ٤ / ٢٢٢؛ ياقوت الحموي، معجم البلدان: ١ / ٣٥٦.

(٥) البلاذري، أنساب الأشراف: ٨ / ٢٣٥.

(٦) البلاذري، أنساب الأشراف: ٨ / ٢٣٦.

فتشّنتْ الأجواءُ كثيراً، وأصبحت في طريقها نحو إعلان الحرب بين الطرفين. ويبدو أنَّ الخلاف بين قبائل البصرة الذي وقع أيام عبيد الله بن زياد وتحدّثنا عنه في بداية هذا الفصل بالتفصيل تجدد هذه الفترة، فأصبحت القبائل أساس السَّيطرة والنفوذ، خاصّةً وأنَّ الدَّولة وسلطتها كانت قد أُصِبت بالإنهاك والتعب، فكانت بعيدة عن أمور القيادة والإدارة وفُضّ المشاكل التي تقع في الأمصار العربيّة، فكانت البصرة من بين تلك الأمصار التي اضطربت سياسياً، وأصبح الصِّراع يدور حول تولّي المناصب والرِّئاسة وكلُّ يرى أحقيّته في ذلك، ثمَّ كان الحذر واضحاً بين الطرفين المتنافسين في البصرة^(١)، وأصبح ابن سهيل صاحب الشَّرطة آنذاك لا يثق ببعض الرِّجال؛ إذ اتَّهم عمرو بن سهيل محمّد بن وكيع^(٢)، فعزله عن شرطته^(٣).

ويبدو أنَّ السَّيطرة على البصرة كانت من نصيب عمرو بن سهيل، الذي سيطر على السَّكك، لكنَّ هذه السَّيطرة لم تستمرَّ طويلاً؛ فقد عسكر المسوّر بن عباد على أبواب السَّكك، فكان القتال مستمراً بالبصرة^(٤). ويبدو أنَّ بني تميم قد دارت عليهم المحن أثناء القتال، فضعف شأنهم، فكان شاعرهم يقول:

صبراً بني الكرام يا حماة الأدبار إنّ الفرارَ يا بني تميم عار^(٥).

(١) البلاذريّ، أنساب الأشراف: ٢٣٦ / ٨.

(٢) محمّد بن وكيع، وهو غير محمّد بن وكيع المحدث المشهور، لم أعثر على ترجمة له.

(٣) البلاذريّ، أنساب الأشراف: ٢٣٦ / ٨.

(٤) البلاذريّ، أنساب الأشراف: ٢٣٦ / ٨.

(٥) البلاذريّ، أنساب الأشراف: ٢٣٧ / ٨.

وكانت الأوضاع تزداد سوءاً دون أن يتوقف القتال لصالح كفة على حساب الأخرى، بل كان الطرفان متكافئين، الأمر الذي دفع الطرفين إلى القبول بالتحكيم بشأن مَنْ له حقّ الرّئاسة في البصرة، فاختروا عبد الكريم بن سليط الحنفي^(١) لأمر التحكيم، بين «عمرو بن سهيل بن عبد العزيز والمسور بن عباد بن عمر»، فحكم للمسور؛ لبأسه، وكثرة ولده، ومواليه، وفرسانه، وكان الحكم مائلاً إلى المسور^(٢). ويبدو أنّ التحكيم لم يُرض طموح ابن سهيل وأتباعه، فتجدّد القتال، فهزموا وفوقعت العصبيّة بين القبائل بالبصرة، وبقيت الاضطرابات تعمّ المدينة، قال أبو عبيدة: «اقتتلوا سبعة أشهر»^(٣).

لقد كانت الأوضاع السّياسيّة في البصرة تميل نحو الأسوأ؛ إذ بقيت فترة من الزّمن دون والٍ يحكمها، الأمر الذي استمرّ حتّى أيّام مروان بن محمّد بن الحكم، واستمرّت الفتنة بالبصرة حتّى عام (١٢٩هـ / ٧٤٦ م)^(٤)، عندما ولّى مروان يزيد ابن عمرو بن هبيرة العراق^(٥)، فكتب إلى المسور بن عباد بأن يصليّ بالناس في

(١) عبد الكريم بن سليط الحنفيّ المروزيّ: نزيل البصرة، ذكره ابن حبان في الثّقات، وكان هشام بن عبد الملك قد استشاره فيمن يولّيه على خراسان، وكان عالماً بأحوالها. ابن حجر، تهذيب التهذيب: ٣٣٢/٦؛ ويُنظر: ابن حبان، الثّقات: ١٣١/٧؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ٢٢٦/٥.

(٢) البلاذريّ، أنساب الأشراف: ٢٣٧/٨.

(٣) البلاذريّ، أنساب الأشراف: ٢٣٧/٨.

(٤) خليفة بن خيّاط، تاريخ: ص ٣٢٦.

(٥) يزيد بن عمر بن هبيرة بن معاوية. كان أصله من الشّام، وولي قسرين للوليد بن يزيد ابن عبد الملك، وكان مع مروان الحمار يوم غلب على دمشق، وجمع له ولاية العراقين، يكنى أبا خالد، كان جسيماً خطيباً شجاعاً حسوداً أكولاً، قُتل أوّل خلافة بني العبّاس. الصّفديّ،

البصرة، وأن ينزل دار الإمارة، فمنعته بنو سعد^(١)، فلمَّا رأى المسوّر ذلك، عدل إلى البيضاء قصر عبيد الله بن زياد بالبصرة، فترها^(٢).

ويبدو أنّ البصرة قد تمرّدت على مروان بن محمد وإجراءاته بحق أهلها، الذين رفضوا الانصياع لأوامره بولاية المسوّر، فعزلوه، واصططحوا على عباد بن منصور^(٣)، وهو قاضي البصرة آنذاك، فصلّى بالناس^(٤).

ولم يوافق ما آلت إليه أمور أهل البصرة يزيد بن عمر بن هبيرة، الذي ولّى سلم ابن قتيبة بن مسلم الباهلي^(٥)، لكنّ سلماً هذا لم تكن الأحداث -آنذاك- تسير وفق مصلحته هو أيضاً؛ فقد بدأت الدعوة العباسيّة تجتاح البلدان، ومن بينها البصرة؛ إذ كان أبو سلمة الخلال^(٦) قد أراد أن يوجّه من قوّاده إلى البصرة، فكتب إلى

الوافي بالوفيات: ١٥ / ٢٨.

(١) خليفة بن خياط، تاريخ: ص ٣٢٧؛ ويُنظر: البلاذريّ، أنساب الأشراف: ٨ / ٢٣٨.

(٢) البلاذريّ، أنساب الأشراف: ٨ / ٢٣٨.

(٣) عباد بن منصور: الناجي، أبو سلمة البصريّ، الذي تولّى القضاء فيها، وكان صدوقاً، رُمي بالقدر، وكان يدّلس، مات سنة ١٥٢هـ. ابن حجر، تقريب التهذيب: ١ / ٤٦٨؛ ويُنظر: وكيع، أخبار القضاة: ٢ / ٤٣؛ الصفديّ، الوافي بالوفيات: ١٦ / ٣٥؛ ابن حجر، تهذيب التهذيب: ٩٠ / ٥.

(٤) خليفة بن خياط، تاريخ: ص ٣٢٦.

(٥) سلّم بن قتيبة بن مسلم الباهليّ: أبو عبد الله، والي البصرة، وليّها ليزيد بن عمرو بن هبيرة في أيام مروان بن محمد، ثمّ تولّاها في أيام أبي جعفر المنصور، فكان من الموثوق بهم في الدولتين الأمويّة والعباسيّة، وكان من عقلاء الأمراء، مات بالرّي سنة ١٤٩هـ. الصفديّ، الوافي بالوفيات: ١٥ / ١٨٧؛ ويُنظر: العقيليّ، الضّعفاء: ٢ / ١٦٦؛ ابن حجر، تهذيب التهذيب: ١١٨ / ٤.

(٦) أبو سلمة الخلال: هو حفص بن سليمان، أبو سلمة الكوفيّ المعروف بالخلال، مولى السبيع

سفيان بن معاوية بن يزيد بن المهلب^(١) أن يُظهر دعوة بني العباس، ويدعو إليهم هناك^(٢). ثم كتب سفيان بن معاوية إلى سلم بن قتيبة بن مسلم يأمره بالتحوّل عن دار الإمارة، ويخبره بما أتاها من رأي أبي سلمة الخلال، فأبى سلم ذلك، واختار المواجهة^(٣).

وكانت اليمينية وحلفاؤهم من ربيعة وغيرهم قد انضمّوا إلى أصحاب الدعوة العباسية، في حين أنّ قيس ومضر ومن كان بالبصرة من بني أمية ومواليهم، سارعت إلى نصرة سلم بن قتيبة^(٤)، وكان سفيان بن معاوية نادى لأتباعه: مَنْ جاء برأسٍ، فله خمسمائة، ومن جاء برأسين، فله ألف درهم^(٥).

لكنّ سفيان بن معاوية لم يُفلح في مسعاه بالبصرة جرّاء مقتل ابنه، فتركها وارتحل إلى كسكر^(٦)، بعد ذلك وجّه يزيد بن عمر بن هبيرة مدداً إلى سلم بن

من همدان، كان من دعاة بني العباس، وكان يُعرف بوزير آل محمد، وهو أوّل مَنْ وقع عليه اسم الوزير في الإسلام، قتله أبو مسلم الخراسانيّ سنة ١٣٣هـ. الصفديّ، الوافي بالوفيات: ٦٣/١٣.

(١) سفيان بن معاوية بن يزيد بن المهلب: أوّل مَنْ دعا إلى بيعته بني هاشم وإلى أمر الدّعوة العباسية بالبصرة، ولكنّه اصطدم بسلم بن قتيبة واليها حينئذٍ، فخرج عنها، ثمّ ولّاه أبو العباس السفّاح ولاية البصرة، وعزله عنها سنة ١٣٦هـ، وكذلك ولّاها لأبي جعفر المنصور. يُنظر: خليفة بن خياط، تاريخ: ص ٣٢٧، ص ٣٤٩.

(٢) الطبريّ، تاريخ: ٦/ ٧٧؛ ويُنظر: خليفة بن خياط، تاريخ: ص ٣٢٤.

(٣) الطبريّ، تاريخ: ٦/ ٧٧.

(٤) الطبريّ، تاريخ: ٦/ ٧٧؛ ويُنظر: مؤلّف مجهول، أخبار الدّعوة العباسية: ص ٣٥٦.

(٥) الطبريّ، تاريخ: ٦/ ٧٧.

(٦) كَسْكَر: وهي الجزء الغربيّ من مدينة واسط، أسَّسها الحجاج بن يوسف الثقفيّ، وبها مزارع ونخيل وبساتين وعمارات متّصلة. الشريف الإدريسيّ، نزهة المشتاق: ١/ ٣٨٢.

قتيبة، فوجّه أربعة آلاف رجل على رأسهم جابر بن توبة الكلابيّ^(١)، فقدم جابر البصرة، وأغار على دور المهلب وسائر الأزد، فقاتلهم مَنْ بقيَ من رجال الأزد قتلاً شديداً^(٢).

ولما انهزم الأزد ومَنْ معهم، سبى جابر الكلابيّ ورجاله النِّساء، وهدموا الدَّور وانتهبوها، واستمرَّ ذلك ثلاثة أيَّام^(٣). فبقيت البصرة على تلك الحال من السَّلب والنَّهب حتَّى قيام حكم بني العبَّاس محلَّ حكم الأمويِّين سنة ١٣٢هـ / ٧٤٩م.

(١) جابر بن توبة الكلابيّ: لا نعرف عنه سوى أنّه والٍ لأبي جعفر المنصور على البصرة، وعزله عنها سنة ١٥٠هـ. خليفة بن خيَّاط، تاريخ: ص ٣٤٤.

(٢) الطبريّ، تاريخ: ٦ / ٧٧.

(٣) الطبريّ، تاريخ: ٦ / ٧٧.

الفصل الرابع

البصرة والثورات المناهضة للدولة الأموية

المبحث الأول: البصرة ونهضة الإمام

الحسين عليه السلام

المبحث الثاني: البصرة وثورة ابن الجارود

المبحث الثالث: البصرة وثورة عبد الرحمن

ابن الأشعث

المبحث الرابع: البصرة وثورة يزيد بن المهلب

المبحث الأول

البصرة ونهضة الإمام الحسين عليه السلام

تُعَدُّ نهضة الإمام الحسين عليه السلام نادرة من نواذر تاريخ الدولة العربيّة الإسلاميّة؛ فقد جسّدت كلّ مبادئ التحدي للظلم والطغيان، والمطالبة بحقوق المستضعفين، الذين لا يملكون الحلول المناسبة للتعبير عن حقّهم أمام سلطة الحاكم الأمويّ الجبريّة.

كانت هذه النهضة تستمدّ معطياتها من شخصيّة الإمام الحسين عليه السلام، الذي يُعدّ رائد التيار الاجتماعيّ الإصلاحيّ؛ إذ إنّه تحدّى الجموع المحتشدة ليرسم صورة جديدة من الفكر السياسيّ القائم على أساس تذليل الصّعوبات بمجرّد الالتزام بحقيقة المبدأ.

إنّ نهضة الإمام الحسين عليه السلام لم تكن حركة محلّية تستهدف مكاناً محدّداً الكوفة لتعلن عن بدء قيامها، بل كانت نهضة إنسانيّة بكلّ ما تحملها الكلمة من معنى، نهضة ضدّ السّلطة الانتهازية، التي بدأت تغير بعض المعالم السياسيّة لمسار الأُمّة الإسلاميّة في جعل مبدأ حكم الدولة وراثيّاً محصوراً في أسرة معيّنة، ومن ثمّ، حرمت الشخصيات الكفوءة والأقرب لمصلحة الدولة العربيّة الإسلاميّة من الوصول إلى دقّة الحكم والتغيير والبناء.

لقد جاءت هذه النهضة لتكرّس نتاج دماؤها في سبيل تحقيق رفاهية الشعوب في كلّ مكان وزمان، وأن تكون صوتاً مدوّياً في آذان الظلمة والفساق، وكلّ مَنْ

تسوّل له نفسه أن يعيث بحياة الآخرين، بالإضافة إلى شحذ الهمم والنفوس نحو نيل أهدافها، وتحقيق رغباتها المشروعة، ومواصلة مسيرة الحياة والتقدّم والتطوّر. عاش الإمام الحسين (عليه السلام) فترة حكم معاوية وهو محافظ على شروط معاهدة الصّلع التي اتّفق عليها هذا الظالم المستبدّ مع أخيه الحسن (عليه السلام)^(١). وجاء في أحد بنود تلك المعاهدة، أنّه في حالة موت معاوية بن أبي سفيان، فإنّ الخلافة تذهب للإمام الحسن من بعده إذا كان حيّاً، وفي حالة وفاته، يكون الأمر للإمام الحسين (عليه السلام)^(٢)، لكنّ معاوية لم يكن ليحافظ على تلك البنود ويعمل بعهوده ومواريثه، بل سرعان ما دسّ بها في التراب؛ وذلك عندما عمل على إثارة الأمصار العربيّة الإسلاميّة ضدّ الإمام الحسن (عليه السلام)، كما وجدنا ذلك في البصرة^(٣).

ثمّ عمل معاوية على أخذ البيعة لابنه يزيد بولاية العهد، وبذلك نقض اتفاقه مع الإمام الحسن (عليه السلام) نقضاً كاملاً.

ثمّ جاء يزيد بن معاوية إلى عرش الحكم، بادئاً عهده بصدامه بالإمام الحسين (عليه السلام)^(٤) وبمَنْ كان يؤمّن بقيادته وتحت إمامته؛ إذ كتب إلى عامله على المدينة حينئذٍ الوليد بن عتبة بن أبي سفيان^(٥)، بأن يأخذ له البيعة من الإمام الحسين (عليه السلام)،

(١) المفيد، الإرشاد: ص ٢٩٢.

(٢) ابن قتيبة، الإمامة والسّياسة: ١ / ١٨٢؛ راضي آل ياسين، صلح الحسن: ص ٢٥٩.

(٣) يُنظر: الفصل الثاني من هذا الكتاب.

(٤) راجع للعداوة بين بني أميّة وبني هاشم: لبيب بيضون، موسوعة كربلاء: ١ / ٣٠٩.

(٥) الوليد بن عتبة بن أبي سفيان: الأمويّ، ولّاه معاوية على المدينة، وعند موت معاوية، كتب إليه يزيد بأخذ البيعة من الإمام الحسين، ثمّ عزله عن ولاية المدينة واستقدمه إليه بدمشق، فكان من رجال مشورته، ثمّ أعاده إلى ولاية المدينة سنة ٦١هـ، وثورة عبد الله بن الزبير في إبانها، توفّي الوليد بالطاعون سنة ٦٤هـ. الصفديّ، الوافي بالوفيات: ٢٧ / ٢٧٦؛ الزركليّ،

وعبد الله بن الزبير كان من بين اللّذين لم يبايعوا ليزيد، فإن امتنعاً، ضَرَبَ عنقيهما، وبعث برأسيهما إليه في عاصمته.

ورد كتاب يزيد على الوليد ليلاً، فوجّه من ساعته إلى الحسين وعبد الله بن الزبير، فأخبرهما الخبر، فقالا: نصبح ونأتيك مع الناس^(١).

وبذلك، تكون عاصمة الجور والطغيان قد خطّطت لاغتيال الحسين عليه السلام؛ لأنّه الثقل الأكبر في دولة يزيد الظالم، فتحرّك الإمام بما تقتضيه مسؤوليته وقيادته للأمة من أجل الحفاظ على الدّين الإسلاميّ؛ إذ قال: «على الإسلام السّلام إذ قد بُليت الأُمّة براعٍ مثل يزيد بن معاوية»^(٢).

وكان على الإمام الحسين عليه السلام في الوقت نفسه أن يتّخذ موقفاً حاسماً بخروجه من المدينة؛ إذ كان معنى بقائه فيها مقتله، وذهاب شخصيّة لها تمام الأثر على السّاحة الإسلاميّة المريضة في ذلك الوقت أشدّ المرض.

ثم إنَّ الحجّة كانت قد تمّت على الحسين عليه السلام، فجاهر بالخلاف، وعقد العزم على الصّمود بوجه الطاغية يزيد؛ إذ تجسّد في زمانه قول جدّه رسول الله صلى الله عليه وآله: «إذا ظهرت البدع في أمتي، فليُظهر العالمُ علمه، فمَن لم يفعل، فعليه لعنة الله»^(٣).

وكان أوّل تحرّك من قبل الإمام عليه السلام، هو أن اختار مكّة ليجتمع بمَن يؤمّها

الأعلام: ١٢١ / ٨.

(١) الدّينوريّ، الأخبار الطّوال: ص ٢٢٧؛ اليعقوبيّ، تاريخ: ١٦٨ / ٢.

(٢) ابن أعثم، الفتوح: ١٧ / ٥؛ ابن طاووس، اللّهُوف في قتل الطفوف: ص ١٨؛ شرف الدّين الموسويّ، المجالس الفاخرة: ص ١٨٣؛ باقر شريف القرشيّ، حياة الإمام الحسين عليه السلام: ٢٥٧ / ٢.

(٣) الكلينيّ، الكافي: ٥٤ / ١؛ القاضي نعمان، دعائم الإسلام: ٢ / ١، الصّدوق، علل الشرائع: ٢٣٦ / ١؛ المحقّق الحليّ، المعبر: ١٩ / ١.

من مختلف الأمصار، ويضع بين أيديهم ذلك المصير الأسود والأخطار المحدقة بالإسلام من دولة أبي سفيان إن هم لم يقوموا بوظيفتهم من الوقوف بوجه ظلمهم وطغيانهم. فضلاً عن رغبة الإمام الحسين عليه السلام في أن يبث حركته الإعلامية في أرجاء العالم الإسلامي كافة؛ كون المسلمين جميعاً يجتمعون في مكة المكرمة من أجل أداء فريضة الحج، وبذلك يلزم الجميع الحجة بدماء البيت النبوي.

أمّا بالنسبة إلى الأمصار العربيّة الإسلاميّة، فقد أصبحت في قلق جرّاء إجراءات الولاة الأمويّين، وفي الوقت نفسه، أصبح المجتمع الإسلاميّ في حالة حذر وترقب للأوضاع السّياسيّة بعد موت معاوية، ولم تكن أمصار المسلمين قادرة على التخطيط لثورة ضدّ السّلطة الحاكمة التي كانت في تلك الأيام في عزّ قوّتها وسطوتها، بل كان الشّلل النفسيّ يسود تلك الأمصار، فلم يتجرّأوا على إعلان العصيان والتزام مبدأ الكفاح من أجل تحقيق ما يسعون إليه من تغيير واقعهم.

وكانت البصرة إحدى أكبر الأمصار العربيّة في حالة ترقب وحذر من التغيير الجذريّ الذي نزل بواقع الحكم الأمويّ، من نهاية معاوية بن أبي سفيان. ويبدو أنّ أهل البصرة كانوا يخشون بطش عبيد الله بن زياد واليها حينئذٍ، وهناك إشارة إلى أنّ المختار بن عبيدة الثقفيّ أقام بالبصرة في آخر حكم معاوية، وعمل على الترويج لذكر الإمام الحسين عليه السلام، فعلم بأمره عبيد الله بن زياد، فأخذه وجلده مائة جلدة وبعثه إلى الطائف^(١).

والشيء الذي يُثير التساؤل هنا، هو السرّ في وجود المختار في البصرة، فهل كان الإمام الحسين عليه السلام وراء ذلك؟ وهل كانت هذه الخطوة هي خطوة تمهيدية لثورة

(١) الذهبيّ، تاريخ الإسلام: ٥ / ٦١.

الإمام الحسين عليه السلام، أم كانت ردّ فعل على الاتفاق الذي جرى بين الإمام الحسن عليه السلام ومعاوية؟

من المرجّح أنّ الوضع لم يكن يحتمل تواجد بعض الشخصيات السياسيّة القويّة القادرة على قلب الواقع في البصرة كشخصيّة المختار، الأمر الذي نلمسه من خلال جلد المختار وإخراجه من البصرة، دون أن يُعطى فرصة أخرى لتصحيح مساره هناك، وهذا الأمر يعكس لنا سياسة الأمويّين تجاه أقوى منافسيهم؛ فهم لم يُغفلوا أدنى ما يثير الشكّ، بل سرعان ما يقتلعونه من جذوره.

والأهمّ من هذا، هو أنّ أهل البصرة قد رفضوا أن يبايعوا لمعاوية عندما تنازل الإمام الحسن عليه السلام عن السّلطة سنة ٤١هـ / ٦٦١م، فدعوا إلى تولّي الإمام الحسين عليه السلام مقاليد الأمور كما تقدّم في محله^(١).

إنّ واقع الأحداث التاريخيّة في تلك المدّة يعكس لنا أنّ المختار كان قد حاول أن يكسب رفض أهل البصرة لسلطة معاوية، ورفض الصّلاح الذي عُقد بين الإمام الحسن بن عليّ عليه السلام ومعاوية بن أبي سفيان، وهذا الشيء واضح من خلال المختار نفسه؛ فإنّ تواجده بالبصرة حينئذٍ جاء متزامناً مع معارضتهم لسلطة معاوية، وهذا يعني أنّ المختار حاول أن يبيّن أنّ في حالة اعتزال الإمام الحسن عليه السلام عن السّلطة، فهناك أخوه الحسين عليه السلام، وهو جدير بتولّي السّلطة بعد أخيه.

وبهذا، يكون أهل البصرة قد سبقوا أهل الكوفة في الدّعوة للإمام الحسين عليه السلام بعشرين سنة من إعلان الثورة سنة (٦١هـ / ٦٨١م)، ولكن، لماذا لم يجدّدوا تلك الدّعوة عندما كتب رجال كبار الكوفة للإمام الحسين عليه السلام على الرّغم من حدّة

(١) ابن أعثم، الفتوح: ٤/ ٢٩٧؛ ويُنظر: المفيد، الإرشاد: ص ٢٩٢.

التنافس بين البصرة والكوفة في المجال السَّيَّاسِيّ؟!
يُروى أنَّ الإمام الحسين عليه السلام عندما أقام في مكَّة نحواً من خمسة أشهر أو أربعة، ورد عليه ثمانمائة كتاب من أهل العراقين (الكوفة والبصرة) بيعة أربعة وعشرين ألفاً، فبعث الإمام الحسين عليه السلام مسلم بن عقيل إلى الكوفة، ونزل دار المختار بن عبيدة الثقفيّ، وبايعه من أهلها ثمانية عشر ألفاً عدا أهل البصرة^(١).

فإذا ورد على الإمام الحسين عليه السلام بيعة أربعة وعشرين ألفاً، وكان عدد أهل الكوفة الذين بايعوا مسلم بن عقيل ثمانية عشر ألفاً، فالعدد الباقي ربّما هم من أهل البصرة، فماذا كان مصيرهم؟!

يبدو هنا أنَّ حلقة من حلقات التاريخ قد فُقدت وبقيت مجهولة إلى يومنا الحاضر.

ثمَّ إنَّنا نجد أنَّ كتب أهل البصرة قد وردت على الإمام الحسين عليه السلام في مكَّة، ولم يكتفوا بالمراسلة، بل قصدوا الالتحاق بصفوف الإمام الحسين عليه السلام مدّة مقامه في مكَّة، فتوافد نفر من أهل البصرة إلى بيته ومواليه^(٢).

ويبدو أنَّ هؤلاء نفر كانوا قلة، وربّما يكونون من الذين وفدوا على الإمام بكتب أهل البصرة، أو من الذين كانوا يجتمعون في بيت مارية بنت سعد أو

(١) ابن حاتم العامليّ، الدّرّ النظيم: ص ٥٤٢؛ ويُنظر: محسن مشكل الحجاج، موقف أهل البصرة من واقعة الطفّ، مجلّة رسالة الرافدين، العدد الثاني، السنة الأولى ٢٠٠٥ م: ص ٢٣٠.

(٢) المجلسيّ، بحار الأنوار: ٤٤ / ٣٦٣؛ محمّد مهدي شمس الدّين، أنصار الحسين: ص ٣٧.

منقذ^(١) في البصرة؛ إذ كان منزلها مألفاً يتحدثون فيه^(٢).

إنّ تلك الاجتماعات تعطينا صورة أخرى على أنّ أهل البصرة في هذه الفترة العصبية الحساسة، كانوا يجتمعون ويتناقشون ويتباحثون في ما بينهم لنصرة الإمام الحسين عليه السلام.

إلا أنّ هذه الاجتماعات يحيطها بعض الغموض إلى الآن؛ فهل كان أهل البصرة قد عزموا على إثارة الفوضى داخل مدينتهم ضدّ السلطة الأموية من أجل إرباكها بعض الوقت لصالح الحسين عليه السلام؟ أم أنّهم كانوا يفكّرون بصيغة أخرى تجعلهم أكثر فعالية تجاه ثورة الحسين عليه السلام؟ أو ربّما كانت تلك الاجتماعات لمجرد تذاكر أمر الحسين عليه السلام وثورته المقبلة وضعفهم في نصرته لا غير.

لم يبيّن أحد من المؤرّخين الغرض من تلك الاجتماعات، ولا ما كان يُتداول فيها، لم يتعرّض لذلك لا الطبريّ ولا غيره من المؤرّخين؛ فهم لم يتجرّأوا على إبرازها بشكل جليّ كي يتسنى لنا من خلالها الوصول إلى الهدف المنشود.

بعد أن وصلت رسائل أهل الكوفة إلى الإمام الحسين عليه السلام وعلم أنّ هوى أهل البصرة ليس مع آل معاوية^(٣)، حاول أن يكسب العراق إلى جانبه؛ باعتبار أنّ كلا المصرين يمثل العراق في تلك الفترة، فكتب إلى زعماء الأخماس بالبصرة، وإلى الأشراف، فجاء منه نسخة واحدة إلى جميع أشرافها، وهم «مالك بن مسمع

(١) قال المامقاني: مارية بنت منقذ أو سعيد العبدية، يستفاد كونها إمامية تقيّة كما روي عن أبي جعفر الصادق عليه السلام، من أنّها كانت تشييع، وكانت دارها مألفاً للشيعة يتحدثون فيها. تنقيح المقال: ٨٣/٣.

(٢) الطبريّ، تاريخ: ٤/٢٦٣؛ د. ليب بيضون، موسوعة كربلاء: ١/٤٤١.

(٣) سعيد أيوب، معالم الفتن: ٢/٢٥٨.

البكريّ، الأحنف بن قيس التميميّ، المنذر بن الجارود، ومسعود بن عمرو، وقيس بن الهيثم، وعمرو بن عبد الله بن معمر^(١)، ويزيد بن مسعود النهشليّ^(٢). وجاء في نسخة الكتاب: «أَمَّا بَعْدُ، فَإِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى مُحَمَّدًا ﷺ عَلَى خَلْقِهِ، وَأَكْرَمَهُ بِنَبَوَّتِهِ، وَاخْتَارَهُ لِرِسَالَتِهِ، ثُمَّ قَبَضَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ، وَقَدْ نَصَحَ لِعِبَادِهِ، وَبَلَغَ مَا أُرْسِلَ بِهِ ﷺ، وَكُنَّا أَهْلَهُ وَأَوْلِيَاءَهُ وَأَوْصِيَاءَهُ وَوَرَثَتَهُ، وَأَحَقَّ النَّاسُ بِمَقَامِهِ فِي النَّاسِ، فَاسْتَأْثَرَ عَلَيْنَا قَوْمَنَا بِذَلِكَ، فَضَرَبْنَا، وَكْرَهْنَا الْفِرْقَةَ، وَأَحْبَبْنَا الْعَافِيَةَ، وَنَحْنُ نَعْلَمُ أَنَّا أَحَقُّ بِذَلِكَ الْحَقِّ الْمُسْتَحَقِّ عَلَيْنَا مِمَّنْ تَوَلَّاهُ، وَقَدْ أَحْسَنُوا وَأَصْلَحُوا وَتَحَرَّوْا الْحَقَّ، فَرَحِمَهُمُ اللَّهُ وَغَفَرَ لَنَا وَلَهُمْ. وَقَدْ بَعَثْتُ رَسُولِي إِلَيْكُمْ بِهَذَا الْكِتَابِ، وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى كِتَابِ اللَّهِ وَسُنَّةِ نَبِيِّهِ ﷺ؛ فَإِنَّ السُّنَّةَ قَدْ أُمِيتَتْ، وَإِنَّ الْبِدْعَةَ قَدْ أَحْيِيَتْ، وَإِنْ تَسْمَعُوا قَوْلِي وَتُطِيعُوا أَمْرِي، أَهْدِيَكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ. وَالسَّلَامُ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ»^(٣).

(١) ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ١٣٥ / ٣.

(٢) يزيد بن مسعود النهشليّ: لم يذكره أصحاب كتب التَّراجم والرِّجال، ولكنه أحد زعماء الأخماس، كان عظيمًا من عظماء أهل البصرة وكبارهم؛ فهو من جمع أهل البصرة لنصرة الإمام الحسين ﷺ، وخطبهم، وكتب إلى الإمام الحسين ﷺ بشأن أهل البصرة. يُنظر: ابن نما الحليّ، مثير الأحزان: ص ١٧؛ ابن طاووس، اللّهُوف في قتلى الطفوف: ص ٢٦؛ المجلسيّ، بحار الأنوار: ٣٣٧ / ٤٤؛ محمّد السماوي، إِبْصَارُ الْعَيْنِ: ص ٤١؛ محسن الأمين، أعيان الشَّيْخَةِ: ١ / ٥٩٠؛ محمّد تقي التستري، قاموس الرِّجال: ١١ / ١١١.

(٣) أبو مخنف، مقتل الحسين ﷺ: ص ٢٨؛ الدِّينوريّ، الأخبار الطَّوَال: ص ٢٣١-٢٣٢؛ الطبريّ، تاريخ: ٤ / ٢٦٥؛ ابن طاووس، اللّهُوف في قتلى الطفوف: ص ٢٨؛ ابن كثير، البداية والنهاية: ٨ / ١٧٠؛ المجلسيّ، بحار الأنوار: ٤٤ / ٣٣٩؛ د. لبيب بيضون، موسوعة كربلاء: ١ / ٤٤٢.

كان الإمام الحسين عليه السلام قد بعث هذا الكتاب مع مولى له يسمى سليمان، ويكنى أبا رزين^(١)، ولا نعرف عنه شيئاً آخر، فالكتاب يعدّ تكريماً لأهل البصرة من قبل الإمام الحسين عليه السلام، وهو بهذا يقترب من نهج جدّه رسول الله صلى الله عليه وآله عندما أرسل الكتب إلى مختلف بقاع الأرض من أجل إصلاح الناس ودعوتهم إلى الدين الإسلامي، ثم يبيّن لأهل البصرة أهميّة أهل النبوة الذين هم أحقّ الناس بمقامه، لكنّ الناس لم يراعوا ذلك المقام، فسلّكوا مساراً خطيراً عرف أهل بيت النبي كيفيّة التعامل معه، وهو حفظ الإسلام والمسلمين، وإبعادهم عن الفرقة التي تمزّق الدّين وأهله، وتقودهم نحو الرّدة.

والأمر المهمّ الذي بيّنه الإمام الحسين عليه السلام لأهل البصرة بكتابه أيضاً، هو الدّور الذي ألزم الإمام عليه السلام في تلك الفترة بسلوك طريق جديد، يصحّح ذلك الانحراف الخطير الذي عصّف بالإسلام وأهله؛ «فإنّ السّنة قد أُميتت، وإنّ البدعة قد أُحييت»، فالإصلاح الاجتماعيّ والسياسيّ الذي سلّكه الإمام الحسين عليه السلام ينطلق من هذا المبدأ.

أمّا مواقف أهل البصرة تجاه كتاب الإمام الحسين عليه السلام، فقد كانت باتجاهين، تمثّل الأوّل بالإيجابيّة؛ إذ جمع يزيد بن مسعود النهشليّ بني تميم وبني حنظلة وبني سعد، فلمّا اجتمعوا عنده، قال لهم: «يا بني تميم، كيف ترون موضعي فيكم وحسبي منكم؟ فقالوا: بخ بخ، أنت والله فقرة الظهر، ورأس الفخر، حللت في الشرف وسطاً، وتقدّمت فيه فُرطاً، قال: فإنّي قد جمعتكم لأمرٍ أريد أن أشاوركم فيه وأستعين بكم عليه، فقالوا: إنّنا والله نمنحك النصيحة، ونجهد لك الرأي،

(١) ابن طاووس: اللّهُوف: ص ٢٦؛ محمّد مهدي شمس الدّين، أنصار الحسين: ص ٣٧.

فقل حتّى نسمع، فقال: إنّ معاوية مات، فأهون به الله هالكاً ومفقوداً، ألا إنّّه قد انكسر باب أحد بيعة عقد بها أمر أظنّ أنّه قد أحكمه، وهيّات والذي أراد، اجتهد والله ففشل، وشاور فخذل. وقد قام ابنه يزيد شارب الخمر، ورأس الفجور، يدّعي الخلافة على المسلمين، ويتأمّر عليهم بغير رضیّ منهم، مع قهر حلم، وقلة علم، لا يعرف من الحقّ موطئ قدمه، فأقسم بالله قسماً مبروراً لجّهاده على الدّين أفضل من جهاد المشركين، وهذا الحسين بن عليّ ابن بنت رسول الله ﷺ، ذو الشّرف الأصيل...، وها أنا ذا قد لبست للحرب لامتها، وأدرعت لها بدرعها، من لم يقتل، يمّت، ومن يهرب، لم يفت، فأحسنوا رحمكم الله الجواب. فتكلّمت بنو حنظلة، فقالوا: أبا خالد، نحن نبلى كنانتك، وفرسان عشيرتك، إن رميت بنا، أصبت، وإن غزوت بنا، فتحت، لا نخوض والله غمرة إلا خضناها، ولا تلقى والله شدة إلا لقيناها، نصرك والله بأسيافنا، ونقيك بأبداننا، إذا شئت، فافعل.

وتكلّمت بنو سعد، فقالوا: يا أبا خالد، إنّ أبغض الأشياء إلينا خلافاك والخروج من رأيك، وقد كان صخر بن قيس^(١) أمرنا بترك القتال، فحمدنا أمرنا وبقي عزنا فينا، فأمهلنا نراجع المشهور ونأتيك برأينا.

وتكلّمت بنو عامر، فقالوا: يا أبا خالد، نحن بنو أبيك، وحلفاؤك، لا نرضى إن غضبت، ولا نوطن إن ظعنت، والأمر إليك، فادعنا، نجبك، وأمرنا، نُطعك،

(١) صخر بن قيس: هو الأحنف بن قيس؛ لأنّه كان يسمّى صخر بن قيس، وكذلك الضحّاك نسبة إلى تميم. خليفة بن خياط، طبقات: ص ٣٣٤؛ ابن عبد البر، الاستيعاب: ٧١٥ / ٢؛ ابن الأثير، أسد الغابة: ٥٥ / ١.

والأمر لك إذا شئت^(١).

كان أهل البصرة قد لبّوا دعوة يزيد بن مسعود النهشلي، وأخبروه أنهم على استعداد لما يرغب إليه من أمر المشاركة والالتحاق بصفوف الإمام الحسين (عليه السلام)، عدا بني سعد؛ فإنهم كانوا متردّدين في الاشتراك بالحرب المقبلة، معتردين إلى يزيد بن مسعود النهشلي بأنّ الأحنف بن قيس قد أمرهم بترك القتال، ليحافظوا على عزّتهم، فأخبروا النهشلي بأنهم سوف يراجعون أمرهم، ومن بعده يقرّرون موقفهم من الاشتراك أو عدمه.

وبهذا يكون بنو سعد وكبيرهم الأحنف بن قيس قد تخاذلوا عن نصره الإمام الحسين (عليه السلام)، فالأحنف يكتب إلى الإمام: «أما بعد، فاصبر إنّ وعد الله حقّ، ولا يستخفّنك الذين لا يؤقنون»^(٢).

ويبدو أنّ هذا الكتاب وصل إلينا منقوصاً، فليس من الصحيح أن يكون الأحنف -فيما إذا صحّ عنه الكتاب- قد كتب هذه الكلمات المعدودة فقط؛ فإنّها لا تتناسب مع الحدث السّياسي المهمّ، الذي سوف يكون حدّاً فاصلاً بين العلويين من جهة وبني أميّة من جهة أخرى؛ لأنّ نهاية المعركة المرتقبة سوف تحدّد مصير حكم الدولة ومسير الأحداث السّياسية من بعدها.

(١) ابن نما الحلي، مثير الأحزان: ص ١٨؛ ابن طاووس، اللّهُوف في قتلى الطفوف: ص ٢٦-٢٨؛ المجلسي، بحار الأنوار: ٤٤/ ٣٣٨-٣٣٩؛ ويُنظر: عبد الله البحراني، العوالم، الإمام الحسين: ص ١٨٨؛ محسن الأمين، لواعج الأشجان: ص ٤١؛ موسوعة كلمات الحسين (عليه السلام) (لجنة الحديث في معهد باقر العلوم): ص ٣٨٥؛ أحمد حسين يعقوب، كربلاء الثورة والمأساة: ص ٢٣١-٢٣٢.

(٢) الذهبي، سير أعلام النبلاء: ٣/ ٢٩٨؛ علي نظري منفرد، قصّة كربلاء: ص ٩٦؛ باقر شريف القرشي، حياة الحسين (عليه السلام): ٢/ ٣٢٣.

وعليه، لا يمكن الجزم بمضمون هذا الكتاب لنقف على موقف الأحنف بشكل دقيق.

وأما إذا سلّمنا بأنّ الموجود من الكتاب إنّما هو المقدار المتقدّم لا غير، فإنّ من الواضح التخاذل الذي اختاره الأحنف عن نصرّة سيّد الشّهداء.

ولكنّ موقف بني سعد بشكل عامّ كان خالياً من الحسّ الثوريّ، إلّا أنّ حالتهم الانهزاميّة تلك لم تؤثر على باقي البصريّين، بل نجد أنّ يزيد بن مسعود قد كتب إلى الإمام الحسين (عليه السلام) بموقفه ومَن معه، فلمّا قرأ الإمام الحسين (عليه السلام) ذلك الكتاب، قال: «مَالِكٌ أَمَنَكَ اللهُ يَوْمَ الْخَوْفِ، وَأَعَزَّكَ، وَأَرَوَاكَ يَوْمَ الْعَطَشِ»^(١).

إنّ جموع أهل البصرة لم تشترك في القتال في واقعة الطفّ إلى جانب الإمام الحسين (عليه السلام)؛ إذ إنّهم لمّا تجهّزوا للخروج، بلغهم مقتلته (عليه السلام)، فجزع مسعود النهشليّ من ذلك الأمر، فمات من ساعته^(٢).

ولا نعرف السّبب الحقيقيّ وراء عدم التوقيت الصّحيح لخروج أهل البصرة مع خروج الإمام الحسين (عليه السلام)، نحو كربلاء وتأخّرهم في خروجهم ذاك. وأما الاتجاه الثاني إزاء كتاب الإمام الحسين (عليه السلام) إلى أهل البصرة، فهو الاتجاه السّلبيّ؛ إذ إنّ المنذر بن الجارود^(٣) -وهو أحد رؤساء أخماس البصرة- أصبح

(١) المجلسيّ، بحار الأنوار: ٣٣٩/٤٤؛ لبيب بيضون، موسوعة كربلاء: ١/ ٤٤٤.

(٢) ابن طاووس، اللّهُوف في قتلى الطفوف: ص ٢٨؛ عليّ بن الحسين الهاشميّ، ثمرات الأعواد: ١/ ١٦٩.

(٣) المنذر بن الجارود بن عمرو بن حنش، ويقال (الجارود المعلّي)، ويقال: إنّ اسمه بشر والجارود لقبه، من وجوه أهل البصرة وأشرافها، كان من أصحاب الإمام عليّ (عليه السلام)، وولي اصطخر من قبله، وكان من الوافدين على معاوية بن أبي سفيان في أيامه، ولّاه عبيد الله بن زياد، فغلب على قنديل، ومات في الثّغر سنة ٦٢هـ. ابن عساكر، تاريخ دمشق: ٦٠/ ٢٨١.

يشكّ بأمر الكتاب، وخشي أن يكون دسيسة من قبل عبيد الله بن زياد، فأخذ سليمان رسول الإمام الحسين عليه السلام والكتاب الذي بحوزته وعرضهما على عبيد الله، الذي قام من ساعته فضرب عنق مبعوث الإمام الحسين عليه السلام^(١)، الذي أرسله إلى أهل البصرة. فيكون سليمان أول من أريقت دماؤه في نهضة الإمام الحسين عليه السلام، وعلى أرض البصرة، التي ضمت أول دم من الدماء التي أريقت في طريق تلك النهضة الخالدة.

وأما بالنسبة إلى المنذر بن الجارود وحقيقة أمره مع سليمان مولى الإمام الحسين عليه السلام، فأمره غير واضح، فهل كان المنذر لا يعرف حقاً حقيقة سليمان، أم أنه رغب بالحصول على سمعة طيبة لدى السلطة الأموية وعلى رأسها عبيد الله بن زياد، الذي كان متزوجاً بحريّة بنت المنذر بن الجارود؟!^(٢).

وعلى هذا الأساس يكون المنذر بن الجارود هو من كشف أمر المراسلة التي جرت بين الإمام الحسين عليه السلام وكبار أهل البصرة، فكان هذا كافياً لإجهاض أية مبادرة من البصرة للمشاركة في التحرك^(٣) الذي كان يخطط له أهلها لنصرة الإمام الحسين عليه السلام.

وربما كان تحركهم سوف يفتح جبهة جديدة ضدّ الأمويين في البصرة، أقوى المراكز السياسيّة التي لها القدرة على أن تقوم بدور كبير في أحداث النهضة وقلب المعطيات لمصلحتها، لكنّ هذا الأمر لم ينجح؛ إذ عمل عبيد الله بن زياد -والي البصرة آنذاك- على إحكام أمر البصرة والسيطرة عليها بشكل كامل، فقد صعد

(١) أبو مخنف، مقتل الحسين: ص ٢٥؛ ويُنظر: أسد حيدر، مع الحسين في نهضته: ص ٩١.

(٢) أبو مخنف، مقتل الحسين: ص ٢٥.

(٣) إبراهيم بيضون، التوابون: ص ٧٢.

منبرها، وقال: «أما بعدُ، فوالله، ما تقرن بي الصَّعبة، ولا يقعقع لي بالشَّان^(١)، وإنِّي لنكلُّ لمن عاداني، وسُمَّ لمن حاربني، أنصف القارة من رامها^(٢)، يا أهل البصرة، إنَّ أمير المؤمنين ولَّاني الكوفة، وأنا غادٍ إليها الغداة، وقد استخلفتُ عليكم عثمان ابن زياد بن أبي سفيان، وإيَّاكم والخلاف والإرجاف، فوالذي لا إله غيره، لئن بلغني عن رجلٍ منكم خلاف، لأقتلنَّه وعريقه ووليه، ولأخذنَّ الأدنى بالأقصى حتَّى تستمعوا لي، ولا يكون فيكم مخالف ولا مشاقّ...»^(٣).

كانت إجراءات عبيد الله بن زياد شبيهة بإجراءات أبيه في أيامه مع أهل البصرة، وهذه المرَّة كانت إجراءات عبيد الله استثنائية؛ إذ لم يتوعَّد الذين يتحرَّكون لنصرة الإمام الحسين عليه السلام فحسب، بل الأشخاص الذين يثورون ضدَّ ابن زياد وكبار أهل البصرة؛ باعتبارهم متخاذلين عن نصرة ابن زياد، وكذلك أقرباء المتَّهمين، كأنَّه عدَّ الذي يخرج عن سلطة الوالي خارجيًّا، فيضرب عنقه!

(١) الشَّان: البغض. الجوهري، الصَّحاح: ٢١٤٦/٥.

(٢) أنصف القارة من رامها: هذا مثل، وقيل: إنَّ القارة قوم من رماة العرب، وهم الهون بن خزيمة، وإنَّما سَمَّوه بالقارة؛ لأنَّ بني كنانة لما خرجت بنو أسد بن خزيمة من تهامة وخالفوا كنانة وضمُّوا القليل إلى الكثير، جعلوا بني الهون بن خزيمة قارة بينهم لا لأحد دون أحد، ويقال: إنَّ حرباً جرت بين الهون بن خزيمة وبين بكر بن كنانة، فقال رجل من بني بكر: أيُّما أحبَّ إليكم، المراماة أو المسابقة؟ فقال رجل منهم:

قَدْ عَلِمْتُ سَلْمٌ وَمَنْ وَالِاهَا أَنَا نُصَدُّ الْخَيْلَ عَنْ هَوَاهَا

قَدْ أَنْصَفَ الْقَارَةَ مَنْ رَمَاهَا أَمَّا إِذَا مَا فَئْتُهُ نَلْقَاهَا

نردّها داميةً كلاها

وبذلك غدت مثلاً متداولاً بين العرب. اليعقوبي، تاريخ: ١/١٩٨-١٩٩؛ الموفِّق الخوارزمي،

المناقب: ص ١٨٥؛ ابن منظور، لسان العرب: ٥/١٢٣.

(٣) أبو مخنف، مقتل الحسين: ص ٢٦؛ ويُنظر: الدَّينوري، الأخبار الطَّوال: ص ٢٣٢.

إنّ هذه الإجراءات من قبل الوالي الأمويّ لها تأثير كبير على شلّ النفسيّة البصريّة؛ إذ إنّها تُثير في النفس خوفاً من الانتهاكات التي قد يتعرّضون لها في حالة استمرارهم بإسناد النهضة.

ولم يكتفِ ابن زياد بهذه الخطوة، بل عمل على إحاطة أهل البصرة بالعساكر القادرة على منعهم من الالتحاق بصفوف الإمام الحسين (عليه السلام)، وإفشال أيّ محاولة قد يلجأ إليها البصريّون، عندما يلتحق عبيد الله بن زياد بالكوفة لممارسة مهامّه التي أوكلت إليه من قبل سلطة الشّام؛ إذ أمر ابن زياد بأخذ ما بين واقصة^(١) إلى طريق الشّام إلى طريق البصرة، فلا يدعون أحداً يخرج أو يدخل^(٢).

وكذلك أمر عامله على البصرة بأن يضع المناظرة بين الناس^(٣)، وهي بلا شكّ محاولة لصرف الناس إلى أمر آخر غير أمر النهضة، وهي مناورة منه في كسب الوقت لصالحه، وتأخير أهل البصرة عن نهضة الإمام (عليه السلام).

وقد ساعدت هذه التدابير التي لجأ إليها والي العراق حينئذٍ السّلطة الأمويّة كثيراً في السيطرة على النهضة؛ فقد عزلوا النّاس عن نصره الإمام الحسين (عليه السلام)، وغيّبوا الأخبار عن مسامعهم؛ فلا يثور حماس أهل الأمصار حالة سماع خبر مسير الحسين (عليه السلام).

وقد كان هذا الأمر واضحاً عندما أقبل الإمام الحسين (عليه السلام) في مسيره إلى

(١) واقصة: منزل بطريق مكّة بعد القرعاء نحو مكّة. ياقوت الحمويّ، معجم البلدان: ٣٥٤/٥.

(٢) الطبريّ، تاريخ: ٤/٢٩٥؛ المفيد، الإرشاد: ص ٣٢٠؛ مهدي عبد الحسين النجم، ثورات العلويّين: ص ٦٣.

(٣) الطبريّ، تاريخ: ٤/٢٦٣.

الكوفة؛ إذ لم يلتقِ أحداً في الطريق، ولا يشعر بشيء، كأنَّ الأرض التي مرَّ بها مهجورة تماماً، حتَّى لقي الأعراب، فسألهم، فقالوا: «لا والله ما ندرى، غير أنا لا نستطيع أن نلجَّ ولا نخرج»^(١).

إنَّ هذه الإجراءات ساعدت على حسم المواجهة عسكرياً لصالح السَّلاطنة الأمويَّة منذ وقتٍ مبكِّرٍ.

ولم يكتف عبيد الله بن زياد من هذه الخطوة المتَّبعة لإضعاف أمر أهل البصرة، بل عمل على حمل بعض أشرافها وجعلهم يخرجون معه إلى الكوفة، عندما أرسل يزيد بن معاوية كتاباً إليه يولِّيه أمرها؛ إذ انتخب من أهل البصرة خمسمائة أشخصهم معه^(٢).

إنَّ فكرة عبيد الله هذه كانت تهدف إلى التخذيل عن الإمام الحسين عليه السلام بمختلف الوسائل، ووجد ضالَّته في كبار أهل البصرة؛ لأنَّهم أساس الحركة الفعلية داخل مدينتهم، ولهم الثَّقل الكبير في توجيه أتباعهم نحو الاشتراك في النهضة أو عدم الاشتراك والحياد.

والرَّاجح أنَّ عبيد الله أراد أن يكشفَ ميول أهل البصرة؛ لأنَّ معارضتهم الوالي وعدم الخروج معه نحو الكوفة في تلك الفترة بالذَّات، يُعدُّ موقفاً متخاذلاً إزاء السَّلاطنة الأمويَّة، وتمرداً على الوالي، ومن ثَمَّ، سوف يتعرَّضون لإجراءات الوالي، التي هي القتل دون أدنى شكَّ.

ثمَّ إنَّ أولئك الرِّجال من أهل البصرة الذين لهم مكانتهم ولهم منزلة مرموقة

(١) البلاذريّ، أنساب الأشراف: ٣/٤٢٣؛ الطبريّ، تاريخ: ٤/٢٩٥.

(٢) أبو مخنف، مقتل الحسين: ص ٢٨؛ الطبريّ، تاريخ: ٤/٢٦٨؛ محمَّد مهدي شمس الدِّين، أنصار الحسين: ص ٢٢١.

بين قبائل الكوفة، عندما ينزلون الكوفة ويقدمون على أبناء عموماتهم، لا بد أنهم سيلاقون بالترحاب والتكريم والتبجيل^(١)، وبذلك سوف يكسب عبيد الله بن زياد رضا قبائل الكوفة، الأمر الذي سيساعده في تخذيل الناس عن مسلم بن عقيل رسول الإمام الحسين (عليه السلام) إلى الكوفيّين.

ومن بين أشرف أهل البصرة الذين أخرجهم عبيد الله بن زياد معه إلى الكوفة، شريك بن الأعور^(٢)، أحد زعماء أهل البصرة ومن شيعة علي (عليه السلام) وأصحابه^(٣)، وقد كان شهد صفين مع الإمام علي (عليه السلام)، وله حكاية مع معاوية بن أبي سفيان عندما وفد عليه في دمشق؛ إذ روي أنه دخل على معاوية وسلّم عليه بالإمارة، وكان شريك قصيراً، فقال معاوية: ما أنت ويحك؟! قال: أنا من تُنكره ولا تجهله، أنا شريك الحارثي، فقال معاوية: إنك لشريك، والله ما له شريك، وإنك لأعور، والصحيح خير من الأعور، فكيف سدت قومك؟ فقال شريك: يا معاوية، إنك لمعاوية، وما معاوية إلا كلبة عوت واستعوت، وإنك لابن صخر، والسَّهل خير من الصَّخر، وإنك ابن حرب، والسَّلم خير من الحرب، وإنك ابن أمية، وما أمية إلا أمة صُغرت، فكيف صرت أمير المؤمنين؟!

واعلم بأنّي خلّفت خلفي أذرعاً شداداً، ورجالاً أنجاداً، وأنا سيّدهم، أقيم بها

(١) أسد حيدر، مع الحسين في نهضته: ص ٩١.

(٢) شريك بن الأعور: اسم أبيه الأعور، وهو الحارث بن عبد يغوث بن خلف بن سلمة بن دهلي، المذحجي. ابن الأثير، اللباب في تهذيب الأنساب: ١/ ٥٢١.

(٣) علي النازي الشاهرودي، مستدركات علم رجال الحديث: ٤/ ٢٠٩؛ حسين الشاكري، الأعلام من الصحابة والتابعين: ٦/ ١١٥؛ ويُنظر: هادي النجفي، موسوعة أحاديث أهل البيت (عليه السلام): ٨/ ٢٨٣؛ لبيب بيضون، موسوعة كربلاء: ١/ ٤٧٣.

عوجك، ويُقرى بها ضيفك، ويُعزُّ بها الدَّلِيل، ويُذَلُّ بها العزيز.

فأمر معاوية بإخراجه، فأُخرج وهو يقول:

أَيْشْتُمْنِي مُعَاوِيَةُ بْنُ حَرْبٍ وَسَيْفِي صَارُمٌ وَمَعِيَ لِسَانِي
وَحَوْلِي مِنْ بَنِي عَمِّي لُيُوثٌ ضَرَاغِمَةٌ تَهْشُ إِلَى الطَّعَانِ^(١).

لقد كان شريك بن الأعور من جملة المناصرين للبيت العلوي، الذين لم يهابوا معاوية في مناصرتهم تلك، حتَّى وهو في محضره وبين يديه، فبقي على موالاته لأهل بيت النبي ﷺ، حتَّى أَنَّا لَنَجِدُ دوره البارز في نهضة الإمام الحسين عليه السلام؛ إذ كان شريك ومَنْ معه مَنَّ رافق عبيد الله بن زياد من أهل البصرة في طريقه نحو الكوفة يكرهون وصول ابن زياد إليها، فاحتالوا عليه خلال الطريق بالمرض والتساقط وعدم مقدرتهم على مواصلة المسير^(٢). محاولين اغتنام الفرصة لتأخير عبيد الله بن زياد لبعض الوقت؛ ليسبقه الإمام الحسين عليه السلام في دخول الكوفة^(٣)، ليُحكم سيطرته على المدينة، ويقود أهلها قبل أن يتفرَّقوا عن بيعته بوصول ابن زياد، لكنَّ الأخير لم يلتفت إلى شريك بن الأعور وأتباعه، ولم يهتمَّ لأمرهم، وبقي وحده ومعه مهران أحد مواليه، فقال له عبيد الله: «يا مهران، على هذه الحال إن أمسكتُ عنك حتَّى تنظر إلى القصر، فلك مائة ألف»، فكان ردُّ مهران: لا والله ما

(١) العباس بن بكار الضبِّي، أخبار الوافدين من الرِّجال: ص ٣٦-٣٧؛ المرزباني الخراساني، مختصر أخبار شعراء الشيعة: ص ٥٩-٦٠؛ ويُنظر: محمَّد تقي فلسفي، الطفل بين الوراثة والترية: ١٧٢/٢.

(٢) أبو مخنف، مقتل الحسين: ص ٢٨؛ الطبري، تاريخ: ٢٦٨/٤.

(٣) أبو مخنف، مقتل الحسين: ص ٢٨؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ١٣٦/٣.

أستطيع^(١).

إنَّ هذا النصَّ يكشف عن السَّرعَة التي كان عبيد الله بن زياد عليها في سبيل أن يسبق الإمام الحسين عليه السلام ويدخل الكوفة قبله.

ولم يتوقّف شريك بن الأعور - وهو مريض - عند محاولته الأولى ضدّ عبيد الله ابن زياد، بل نزل في دار هانئ بن عروة عندما دخل الكوفة^(٢)؛ إذ كان مسلم بن عقيل نازلاً فيها أيضاً، وبلغ ذلك عبيد الله، فأرسل إلى شريك أنّه يأتيه عائداً^(٣)، فقال شريك لمسلم بن عقيل: «إنّما غايتك وغاية شيعتك هلاك هذا الطاغية، وقد أمكنك الله منه، وهو صائرٌ إلَيَّ ليعودني، فقم فادخل الخزانة، حتّى إذا اصمأناً^(٤) عندي، فاخرج إليه فاقتله، ثمّ صرّ إلى قصر الإمارة، فاجلس فيه، فإنّه لا ينازعك فيه أحدٌ من النّاس، وإنّ رزقني الله العافية، صرّت إلى البصرة، فكفيتك أمرها،

(١) أبو مخنف، مقتل الحسين: ص ٢٨.

(٢) هو هانئ بن عروة بن الفضفاض بن نمران بن عمرو بن قماس بن عبد يغوث المراديّ الغطيفيّ، مخضرم، سكن الكوفة، وكان من خواصّ الإمام عليّ عليه السلام، ولما بايع أهل الكوفة مسلم بن عقيل، نزل على هانئ، فلما قدم عبيد الله بن زياد الكوفة، عرف مكان مسلم بن عقيل في دار هانئ، فاستدعاه إلى قصر الإمارة، وقتل هانئ فيه سنة ٦٠ هـ. ابن حجر، الإصابة: ٤٤٥/٦.

(٣) أبو مخنف، مقتل الحسين: ص ٢٩؛ الدّينوريّ، الأخبار الطّوال: ص ٢٣٤؛ الطبريّ، تاريخ: ٤/ ٢٧١؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ٣/ ١٣٨؛ ويُنظر: السيّد بحر العلوم، الفوائد الرّجاليّة: ٤/ ٣٤؛ محسن الأمين، لواعج الأشجان: ص ٤٥؛ خالد محمّد خالد، أبناء الرّسول في كربلاء: ص ٨٧.

(٤) اصمأناً: يقال: صام: أي: تصاموا وسكتوا، وعلى معنى: احمّلوا على العدو. ابن منظور، لسان العرب: ١٢/ ٢٤٣.

وباعَتْ لكَ أَهْلَهَا»^(١).

لقد كان تخطيط شريك للتخلّص من عبيد الله سليماً، خاصّةً وإنَّ الفرصة مقبلة، ونتيجتها مضمونة، والشيء الذي يُثير الاستغراب هنا، هو لماذا لم يكن اندفاع شريك هذا في البصرة من قبل أن يخرج عبيد الله بن زياد عنها، فيقود أهل البصرة ضده؟!

لقد كان شريك بن الأعور يملك الحسَّ الثوريّ والشجاعة في الوقت نفسه، لكنّه لم يكن يملك الفرصة المناسبة لكي يُقدم على هكذا عمل، لذلك نجده أسند مسألة تغيير الوالي الأمويّ إلى غيره، وهذا ما نلمسه من خلال حديثه مع مسلم ابن عقيّل بشأن الإجهاض على عبيد الله بن زياد.

ثمَّ إنَّ زعماء أهل البصرة كانوا قادرين على أن يؤخّروا عبيد الله أيّاماً في البصرة بإثارة شغب ولو بسيط فيها، بل كانوا قادرين على قتله، لكنّهم بلا شكّ كانوا يفكّرون في مركزهم في الدّولة والمجتمع^(٢)، وكذلك حدّة التنافس السَّيَاسِيّ بين أهل البصرة وأهل الكوفة، وهذا ممّا له بلا شكّ أثر كبير ينعكس على عقلية أهل البصرة؛ لأنَّ أيّ نجاح للنهضة إنّما هو نجاح للكوفة وأهلها، وهذا الأمر لم يكن أهل البصرة ليرغبوا فيه، وعلى هذا الأساس نجدهم قد اعتمدوا على غيرهم ساعة المواجهة.

(١) الدِّينوريّ، الأخبار الطّوال: ص ٢٣٤؛ الطبريّ، تاريخ: ٤/ ٢٧١؛ أبو الفرج الأصفهانيّ، مقاتل الطالبيين: ص ٦٥؛ ويُنظر: ابن شهر آشوب، مناقب آل أبي طالب: ٣/ ٢٤٣؛ السيّد بحر العلوم، الفوائد الرّجاليّة: ٤/ ٢٣٤؛ لبيب بيضون، موسوعة كربلاء: ١/ ٤٧١؛ عليّ نظري منفرد، قصّة كربلاء: ص ١٢٢.

(٢) محمّد مهدي شمس الدّين، أنصار الحسين: ص ٢١٨.

أما بالنسبة إلى هانئ بن عروة صاحب الدار التي نزلها شريك بن الأعور، فقد بدأ معارضته بشأن قتل عبيد الله؛ إذ قال: «ما أحبُّ أن يُقتل في داري ابن زياد»^(١). وفي الوقت نفسه لم يكن مسلم بن عقيل يرغب في الإقدام على ذلك العمل القائم على الغدر والفتك؛ فعندما قدم عبيد الله بن زياد يعود شريك بن الأعور في دار هانئ، لم يخرج مسلم إلى قتله، وعندما انصرف عبيد الله، اعتذر مسلم إلى شريك بعد فوات الفرصة كما يراها كثيرون، وبَيَّن له أنَّ ذلك العمل فتك، وقد قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ الْإِيمَانَ قِيدُ الْفَتَكِ»^(٢). فقال شريك: «أما والله لو قتلته، لَقَتَلْتَ غَادراً فَاجِراً كافراً»^(٣).

والظاهر أنَّ مسلم بن عقيل لم يكن يرغب في أن يكون الفتك من شيمه، الفتك الذي يتعارض تمام التعارض مع القيم الإسلامية التي نشأ عليها في مدرسة أهل البيت ﷺ.

ثم إنَّ مسلماً لم يكن بتلك الدرجة من الجهل بعواقب فُجَحِ القتل بالعدو، والأمر السيئ المترتبة على تنفيذ تلك الخطّة، ولو نُفِّذت، لكانت فتحاً جديداً لبني أمية في إسناد سمة الغدر والفتك بأهل البيت ﷺ، وبهذا العمل تقوم دعايتهم المغرضة ضدَّ دعوة الحسين؛ بأنَّ فاتحة عهده مبنية على الغدر والخيانة^(٤).

(١) الدينوري، الأخبار الطوال: ص ٢٣٤؛ أبو الفرج الأصفهاني، مقاتل الطالبين: ص ٦٥؛ ويُنظر: موسوعة شهادة المعصومين (لجنة الحديث في معهد باقر العلوم): ١١٤ / ٢.

(٢) أحمد بن حنبل، المسند: ١ / ١٦٦؛ ابن الجعد، المسند: ص ٤٦٣؛ ابن الأشعث السجستاني، سنن أبي داود: ١ / ٦٣١؛ ابن عبد البر، الاستذكار: ٥ / ٣٣.

(٣) الطبرسي، إعلام الوري: ١ / ٤٣٨.

(٤) أسد حيدر، مع الحسين في نهضته: ص ١٠٢.

وانفرد الذهبي بروايةٍ أخرى في المقام؛ إذ يذكر أنّ شريك بن الأعور لما نزل على هانئ بن عروة فمرض، كان عبيد الله يعوّده، فهيأوا لعبيد الله ثلاثين رجلاً ليغتالوه، فلم يتمّ لهم ذلك^(١).

لئن صحّت هذه الرواية، فإنّ هؤلاء الثلاثين ربّما كانوا من ضمن الخمسمائة الذين خرجوا من البصرة مع عبيد الله بن زياد إلى الكوفة، ثمّ ليس لدينا نصوص أخرى تؤكّد هذا الخبر، ولا تتكلّم عن موقف عبيد الله من هؤلاء الثلاثين، أو ما آلت إليه أمورهم بعد ذلك.

- شهداء أهل البصرة في معركة الطفّ

أمّا ثوار أهل البصرة الذين استشهدوا مع الإمام الحسين (عليه السلام) في معركة الطفّ، فقد جاء ذكرهم لدى المؤرّخين المتأخّرين والمعاصرين، ولم يذكرهم لنا المؤرّخون الأوّلون ما عدا الطبريّ، الذي ذكر لنا يزيد بن نبيط من عبد القيس، وكان أحد الذين يجتمعون في دار مارية بنت منقذ العبديّة بالبصرة، وله من البنون عشرة، فقال لأصحابه: إنّني أزمعتُ على الخروج، فقالوا له: إنّنا نخاف عليك أصحاب ابن زياد، فقال: إنّني والله لو قد استوت أخفافها بالجدد، لهان عليّ طلب منّ طلبني، فخرج إلى الحسين (عليه السلام)، فدخل في رحله بالأبطح^(٢)، وبلغ الإمام الحسين (عليه السلام) مجيؤه، فجعل يطلبه، وجاء الرّجل إلى رحل الحسين (عليه السلام)، فقبل له: قد خرج إلى منزلك، فأقبل في أثره، ولما لم يجد الحسين (عليه السلام)، جلس في رحله ينتظره، وجاء

(١) سير أعلام النبلاء: ٣/ ٢٩٩.

(٢) الأبطح: موضع بمكّة المكرّمة، وهو البطحاء، ويضاف إلى مكّة ومنى؛ لأنّ المسافة بينه وبينهما واحدة. والأبطح: كلّ ميلٍ فيه دقاق الحصى. ياقوت الحمويّ، معجم البلدان: ١/ ٧٤.

البصريُّ فوجد الإمام الحسين عليه السلام في رحله جالساً، فقال: «بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا»، ثمَّ أقبل مع الحسين إلى كربلاء وقاتل معه حتَّى استشهد معه هو واثنان من أبنائه العشرة^(١).

لقد كانت هذه الشَّخصيَّة خير أنموذج لاشتراك أهل البصرة بثورة الإمام الحسين عليه السلام، ونيلهم الشَّهادة بين يديه.

وذكر شخص آخر يسمَّى عامر بن مسلم العبدي^(٢)، وقيل: إنَّ عامر بن مسلم من الشَّيعة في البصرة، فخرج هو ومولاه سالم إلى الحسين عليه السلام، وانضمَّا إليه حتَّى وصلوا كربلاء، ولما بدأ النَّزال، استشهد بين يديه في الحملة الأولى^(٣).

والحجَّاج بن زيد السَّعديّ البصريّ من شهداء يوم عاشوراء^(٤)، وسيف بن مالك العبديّ البصريّ، كان من الذين يجتمعون في دار مارية، استشهد في كربلاء مبارزة بعد صلاة الظَّهر^(٥).

كذلك قيل إنَّ عبد الله الفقعيّ، أحد رجال أهل البصرة، الذين كانوا يجتمعون

(١) تاريخ الطبري: ٢٦٣/٤؛ ويُنظر: محمَّد تقي التستريّ، قاموس الرِّجال: ٩٥/١١؛ محسن الأمين، أعيان الشَّيعة: ٩٢/٨؛ محمَّد السَّماوي، إِبصار العين: ص ١٨٩؛ عليّ نظري منفرد، قصَّة كربلاء: ص ٢٩٩.

(٢) ذكره محمَّد بن المشهديّ صاحب كتاب المزار في زيارة الناحية المقدَّسة: ص ٤٩٤؛ وقال الشيخ الطوسي: «مجهول». الرِّجال: ص ١٠٣؛ ويُنظر: العلامة الحليّ، خلاصة الأقوال: ص ٣٧٩؛ ابن داود، الرِّجال: ص ٢٥٢.

(٣) محمَّد السَّماويّ، إِبصار العين: ص ١٩١؛ ويُنظر: د. ليبب بيضون، موسوعة كربلاء: ٣٦-٢٨/٢.

(٤) محمَّد بن المشهديّ، المزار: ص ٤٩٣.

(٥) محمَّد السَّماويّ، إِبصار العين: ص ١٩٢.

في دار مارية، ولديه أحد عشر ولداً، فخرج لنصرة الإمام الحسين عليه السلام، فتبعه أربعة من بنيهِ، فرزقوا الشَّهادة في كربلاء^(١).

وذكر أنَّ سعيد بن مرَّة التميميَّ كان شاباً له من العمر تسع عشر سنة، خرج لنصرة إمامهِ وهو في ليلة عرسهِ، فنال الشَّهادة بين يدي الإمام الحسين عليه السلام^(٢).

والذي توجَّ هذا الموقف البطوليَّ والمشرَّف لأهل البصرة هو الهفهاف بن المهند الراسبي البصريّ، فقد قيل إنَّ هذا الرَّجل كان فارساً شجاعاً، ومن المخلصين في الولاء للإمام الحسين عليه السلام، وكان من أصحاب الإمام عليّ عليه السلام، ومَن شهد معه حروبه الثلاثة: الجمل وصفين والنهروان، وفي صفين جعله أمير المؤمنين عليه السلام أميراً على قبيلة الأزد، وبعد استشهاد أمير المؤمنين الإمام عليّ عليه السلام صار من أصحاب الإمام الحسن عليه السلام، ومن بعده صار من أصحاب الإمام الحسين عليه السلام^(٣)، وقيل: إنَّ الهفهاف وصل متأخراً فوجد المعركة قد انتهت، فحمل بمفرده على معسكر بني أمية، وقاتل ثمَّ استشهد^(٤).

والشيء الذي يجلب الانتباه بالنسبة لنهضة الإمام الحسين عليه السلام وعلاقتها بالبصرة، هو أنَّ أوَّل شهيد من أتباع الحسين عليه السلام كان قد سشهد فيها قبل إعلانها كان بصرياً، وهو سليمان مولى الإمام الحسين عليه السلام، وآخر مَن استشهد في هذه

(١) عليّ بن الحسين الهاشمي، ثمرات الأعواد: ١/ ١٦٩.

(٢) عليّ بن الحسين الهاشمي، ثمرات الأعواد: ٢/ ١٧٠؛ ويُنظر: نزار المنصوري، النصرة لشيعَة البصرة: ص ١٦٠.

(٣) عليّ نظري منفرد، قصَّة كربلاء: ص ٢٩٩.

(٤) المامقاني، تنقيح المقال: ٣/ ٣٠٣؛ محمد تقي التستري، قاموس الرِّجال: ١٠/ ٥٧٢؛ عليّ نظري منفرد، قصَّة كربلاء: ص ٢٩٩؛ محمد رضا الحسيني، تسمية مَن قُتل مع الإمام الحسين عليه السلام، مجلَّة تراننا، العدد الثاني، لسنة ١٤٠٦هـ: ٢/ ١٥٦.

النهضة كان بصرياً أيضاً، وهو الهفهاف بن المهند البصري، وعلى هذا الأساس، فإنّ تواجد أهل البصرة لم يكن مقتصرًا على هؤلاء الأشخاص الذين لم يذكرهم أهل التاريخ بشكل واضح، بل أضيفوا إلى الجزء المغيّب من تاريخ الإسلام؛ لأنّ بروزهم في أيام الدولة الأموية كان غير مرغوب فيه، فضلاً عن الإعلام الأمويّ المضادّ لنهضة الإمام الحسين (عليه السلام)^(١).

هذا علاوة على أنّ أعداداً كبيرة من أهل البصرة تقدّر بأربعة آلاف وخمسمائة كانوا في سجون ابن زياد منذ أيام معاوية، ولم يكن لهم السبيل في نصرة الإمام الحسين (عليه السلام)؛ لأنّهم كانوا مقيّدين مغلولين في غياهب السجون، وكانوا يُطعمون يوماً ولا يُطعمون آخر، فلمّا شاع خبر هلاك يزيد بن معاوية، وثب أهل البصرة على دار ابن زياد، ونهبوا أمواله وخيله، وقتلوا غلمانته، وكسروا حبسه، وأخرجوا منه الأربعة آلاف وخمسمائة رجل^(٢).

وعلى هذا، فإنّ الظروف التي أحاطت بالبصرة، وما كان من سياسة الولاة الأمويّين في حجب دور رجال أهل البصرة ذوي الطموح والأثر السّياسيّ، فضلاً عن تطويق البصرة بالعساكر الأموية، التي أخذت الناس على الشبهة، كلّ ذلك ساعد على كبح جموع أهل البصرة ومشاركتهم بشكل كبير في ثورة كربلاء الخالدة. على الرّغم ممّا قدّمه بعض البصريّين في سبيل الالتحاق بركب الإمام الحسين (عليه السلام) ونصرته ضدّ أعدائه، وعلى الرّغم ممّن سقط شهيداً من هؤلاء بين يديه (عليه السلام)، إلّا أنّ ذلك لم يكن كافياً لإبعاد المطاعن والشبهات عن مدينة البصرة وأهلها؛ إذ اتّهمت بابتعادها عن النهضة وتأييدها، بل إنّها كانت منحرفة حتّى

(١) للتفصيل راجع: لبيب بيضون، موسوعة كربلاء: ١/ ٢٧٧، وما بعدها.

(٢) ابن طاووس، اللّهُوف في قتلى الطّوف: ص ١٥٣.

بالنسبة إلى تعاطفها مع الإمام الحسين عليه السلام؛ إذ جاء في حديث منسوب إلى الإمام جعفر بن محمد الصادق عليه السلام أنّه قال: «لَمَّا مَضَى الْحُسَيْنُ بْنُ عَلِيٍّ عليه السلام، بَكَى عَلَيْهِ جَمِيعُ مَا خَلَقَ اللَّهُ إِلَّا ثَلَاثَةَ أَشْيَاءَ: الْبَصْرَةُ، وَدَمَشْقُ، وَآلُ عَثْمَانَ»^(١).

والشَّيْءُ الَّذِي يُثِيرُ الْاسْتِغْرَابَ بِشَأْنِ هَذَا الْحَدِيثِ، هُوَ الْغَايَةُ الَّتِي تَوَخَّاهَا الْإِمَامُ الصَّادِقُ عليه السلام مِنْ هَذَا الْقَوْلِ. ثُمَّ مَدَى تَطَابُقِ هَذَا الْكَلَامِ مَعَ مَدْرَسَةِ أَهْلِ الْبَيْتِ عليهم السلام، أَهْلِ الْبَيْتِ الَّذِينَ ابْتَعَدُوا عَنْ إِثَارَةِ النُّفُوسِ وَبِنَاءِ الْحَزَازَاتِ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ وَأَهْلِ الْأَمْصَارِ، وَعَمَلُوا عَلَى بَثِّ الْأَلْفَةِ وَبِنَاءِ الْأَنْفُسِ وَتَرْكِتِهَا، وَإِبَاعِدَاهَا عَنِ الْمَتَاهَاتِ وَمُثِيرَاتِ الْفِتَنِ وَالشُّبُهَاتِ، فَالْإِمَامُ الصَّادِقُ عليه السلام يَقُولُ: «الْوُقُوفُ عِنْدَ كُلِّ شَبْهَةٍ خَيْرٌ مِنَ الْاِقْتِحَامِ فِي الْهَلَكَةِ، وَتَرَكَ حَدِيثٌ لَمْ نُرَوْهُ أَفْضَلَ مِنْ رَوَايَتِكَ حَدِيثًا لَمْ تُحْصِهِ، إِنَّ عَلَى كُلِّ حَقٍّ حَقِيقَةً، وَعَلَى كُلِّ صَوَابٍ نَوْرًا، فَمَا وَافَقَ كِتَابَ اللَّهِ فَخُذُوهُ، وَمَا خَالَفَهُ فَدَعُوهُ»^(٢).

إِنَّ الْإِمَامَ عليه السلام بِكَلَامِهِ هَذَا يَحْتُنُّ عَلَى الْوُقُوفِ عِنْدَ كُلِّ شَبْهَةٍ، وَعَلَى مَعْرِفَةِ حَقِيقَتِهَا، وَأَنَّ هَذَا الْعَمَلُ هُوَ خَيْرٌ مِنْ نَسْبَتِهَا إِلَى جِهَةٍ مَعَيَّنَةٍ قَبْلَ أَنْ نَتَأَكَّدَ مِنْ صَحَّتِهَا، وَهَذَا الْأَمْرُ يَتَطَابَقُ مَعَهُ هَذَا الْحَدِيثُ الَّذِي أَلْصَقَ التُّهْمَةَ بِأَهْلِ الْبَصْرَةِ آنَذَاكَ؛ فَإِنَّ الْمَعْلُومَ عَنْ أَهْلِ الْبَصْرَةِ أَنَّهُمْ قَدْ ضُجُّوا لِسَمَاعِهِمْ خَبَرَ اسْتِشْهَادِ الْإِمَامِ الْحُسَيْنِ عليه السلام، فَبَكَى النَّاسُ، وَضَجَّتْ الْمَدِينَةُ بِخَبْرِهِ^(٣)، وَلَيْسَتْ الْفَتْرَةُ الزَّمَنِيَّةُ بَيْنَ اسْتِشْهَادِ الْإِمَامَيْنِ الْحُسَيْنِ وَالحسن عليهم السلام بِطَوِيلَةٍ، فَلَمَّاذَا لَمْ يَتَأَثَّرُوا بِاسْتِشْهَادِ الْإِمَامِ

(١) ابن قولويه، كامل الزيارات: ص ١٦٦؛ الطوسي، الأمالي: ص ٥٤؛ هاشم البحراني، مدينة المعاجز: ٤/ ١٦٦؛ عبد الله البحراني، العوالم، الإمام الحسين عليه السلام: ص ٤٦١.

(٢) اليعقوبي، تاريخ: ٢/ ٢٦٦.

(٣) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة: ١٦/ ١١؛ ابن عساكر، تاريخ دمشق: ١٠/ ٢٩٦.

الحسين عليه السلام لو فرضنا صحّة الخبر المتقدم؟!!

ثم إنّ بعض أهل البصرة استشهدوا في واقعة الطفّ إلى جانب الإمام الحسين عليه السلام، فكان هذا الأمر كافياً في أنّ البصرة قد بكت على قتلاها، فلا يبعد بكاؤها على الحسين عليه السلام؛ لأنّ الحسن البصريّ عندما وصل خبر استشهاد الإمام الحسين عليه السلام إليه أجهد بالبكاء حتّى اختلج جنباه، وقال: «وا ذلّ أمة قتل ابن دعيّها ابن نبيّها»^(١).

إنّ بكاء الحسن البصريّ هذا ينفي الحديث السابق بعدم بكاء أهل البصرة. هذا كلّ من ناحية، ومن ناحية أخرى أنّ التاريخ لم يذكر لنا ما يؤيّد هذا الحديث وما جاء فيه من مضمون غريب، وهو تعيب أهل البصرة بعدم بكائهم على قتل الإمام الحسين عليه السلام؛ إذ يُذكر أنّه لما قُتل الحسين عليه السلام قام عبد الله بن الزبير في مكّة، وعظّم مقتله، وعاب على أهل الكوفة خاصّة، ولام العراق عامّة، فكان يقول: «إنّ أهل العراق غدر وفجر إلّا قليلاً، وإنّ أهل الكوفة شرار أهل العراق...»^(٢). وقد أشرك جميع الناس في تخذيل الحسين عليه السلام، وأفرد أهل الكوفة بحمل العار في دعوته وتلييته لدعوتهم، ثمّ قتلهم إيّاه^(٣). فلو كان الحديث السابق المنسوب إلى الإمام جعفر بن محمد الصادق عليه السلام صحيحاً، لذكره الخطباء على منابر المسلمين، ولعيّروا أهل البصرة به؛ لأنّهم لم يبكوا على الإمام الحسين عليه السلام.

ثمّ إنّ يزيد بن مسعود النهشليّ الزعيم البصريّ الذي كان أحد رؤساء أخماس البصرة قد راسل الإمام الحسين عليه السلام على الخروج معه ونصرته، فلما سمع بمقتل

(١) البلاذريّ، أنساب الأشراف: ٣/ ٤٢٥؛ عليّ نظري منفرد، قصّة كربلاء: ص ٤٧١.

(٢) الطبري، تاريخ: ٤/ ٣٦٤.

(٣) مرتضى العسكري، معالم المدرستين: ٣/ ٣١.

الحسين، جزع من ذلك الخبر فمات، وكان يزيد هذا قد التفَّ حوله من أهل البصرة عشرة آلاف مقاتل^(١). فهل يُعقل أنَّ هذه الألوْف لم تبك لسماع خبر مقتل الحسين عليه السلام، وهم راغبون بالخروج لنصرته وبذل أرواحهم دونه؟!

وعلى هذا، فحديث عدم بكاء أهل البصرة حديث غير سليم من حيث المضمون، ويقوى أنَّه وُضع بقصد تحقيق مآرب خبيثة لبعض أصحاب الميول والأهواء، على رأسها إبعاد البصرة عن خطِّ التشييع وخطِّ العلويين وخطِّ نصره الحقِّ، طالما كانت هناك فئة ترغب بجعل البصرة عثمانيَّة^(٢).

والسؤال الذي يُثار هنا، هو: لماذا لم يتوجَّه الإمام الحسين عليه السلام إلى البصرة لدعوة أهلها وكسب ودِّها وأهمَّيَّتها السَّياسِيَّة، ثمَّ يخرج بعدها إلى الكوفة؟

يبدو أنَّ عدم توجَّه الإمام الحسين عليه السلام إلى البصرة مباشرةً جاء حسب استراتيجيَّته العسكريَّة ونظرته الثاقبة؛ إذ كانت البصرة حينها ترزح تحت حكم ظالم حاقِد مستبَدٍّ من قبل الأمويين وجلاوزتهم بصورة مشدَّدة، وكان واليها عبيد الله بن زياد، الذي كان يعاقب على التَّهمة والظنَّة، ومن دون التحقُّق من غاية كلِّ فرد، وهل كان على صواب أم خطأ! وبذلك سيطرت السَُّلطة الغاشمة على أهل البصرة كلَّ السيطرة، سيطرة شلَّت أيَّة حركة باتجاه الثورة في تلك الفترة، فإذا فكَّر الإمام الحسين عليه السلام بجعل البصرة إحدى المحطَّات التي يمرُّ بها ركبُه أثناء مسيره، فإنَّ هذا كان يعني أنَّه سوف يقود نفسه نحو الهاوية وفشل ثورته؛ بسبب اصطدامه بالوالي الأمويِّ في البصرة، خاصَّةً وأنَّ الإمام الحسين عليه السلام لم يضمن كلَّ أهل البصرة عندما كتب إليهم بأمره، ومن ثمَّ، تحبط محاولته قبل أن يصل إلى

(١) ابن طاووس، اللُّهوف في قتل الطفوف: ص ٢٨.

(٢) يُنظر: نزار المنصوري، النصره لشيعة البصرة: ص ١٠٤-١٠٥.

الكوفة التي هي هدفه المنشود، ونقطة تجمع الثوار. ثم إنَّ الإمام الحسين عليه السلام كان قد دعا جميع المؤمنين والمسلمين بالاشتراك في نهضته، والخروج معه نحو الكوفة، عندما التقى بجموعهم في أثناء إقامته بمكة المكرمة، ومنهم أهل البصرة، إلاَّ أنه اكتفى بمكاتبتهم ليكونوا على علمٍ بتحركه، وتاريخ خروجه^(١).

ينضاف إلى ما تقدّم، أنَّ الإمام الحسين عليه السلام كان على عجلةٍ من أمره للوصول إلى الكوفة وقيادة تلك الجموع التي كتبت إليه بأن يقدم عليها، قبل أن يتخذ يزيد بن معاوية تدابيرَه في منع الحسين عليه السلام من الوصول إلى منطقة تجمع الثوار في الكوفة، وعلى هذا الأساس، نجد أنَّ الإمام الحسين عليه السلام قد برهن على مدى تخطيطه العسكري الناجح في التعامل مع الأحداث التي أحاطت به، لكنّه لم يكن يملك الوقت الكافي الذي يحتاج إليه في تحقيق تلك الاستراتيجية التي حاول تطبيقها في سيره نحو الكوفة، ومن ثمَّ، حاصرت كتائب الجيش الأمويّ، ولم تترك له عليه السلام أيّ منفذٍ آخر سوى المبايعَة ليزيد بن معاوية، أو القتال، فاختار القتال على الدلّة.

(١) للتفاصيل، يُنظر: أبو مخنف، مقتل الحسين: ص ٢٨؛ الدينوريّ، الأخبار الطوال: ص ٢٣١.

المبحث الثاني

البصرة وثورة ابن الجارود

عندما تولى عبد الملك بن مروان دفة الحكم في الدولة الأموية عام (٦٥هـ / ٦٨٥م)، كانت البصرة خاضعة لسيطرة عبد الله بن الزبير، وبقيت لفترة زمنية بعيدة عن حكم عبد الملك بن مروان، حتى تمكّن الأخير من قتل مصعب ابن الزبير والي العراق لأخيه سنة (٧١هـ / ٦٨٩م)، بعد ذلك أصبحت البصرة من بين المناطق التي خضعت لسيطرة عبد الملك بن مروان، ولكن، بدأت المشكلات تظهر في البصرة بين الحين والآخر، خاصّةً من قبل الخوارج، الذين أخذوا يشنون الحملات المتلاحقة على تلك الناحية من الدولة.

وقد سارت الأمور نحو الأسوأ دون أن تكون هناك سيطرة تامّة لأحد الأطراف المتنازعة، سواء الخوارج أو أتباع السّلطة الأموية، فكان عبد الملك بن مروان قد عزم على وضع حدّ لتلك الظروف التي كانت بضرره، فاختار حدود سنة (٧٥هـ / ٦٩٤م) الحجاج بن يوسف الثقفي لإدارة العراق وتصفية خصوم الأمويين، وفرض سيطرتهم على المنطقة بالكامل.

قدم الحجاج الكوفة، ثم خرج منها قاصداً البصرة من أجل القيام بمهمته التعبوية ضدّ الخوارج الذين لزموا ناحية الأهواز، وأصبحوا يُغيرون من هناك على البصرة، فكان تواجد الحجاج بالبصرة من أجل إنزال أهلها على حكم عبد

الملك^(١)، فاستخدم أساليب التنكيل والقتل جميعها مقابل كل من حاول الاعتذار عن المشاركة في قتال الخوارج^(٢).

لقد ولدت سياسة الحجاج الرعب والهلع واليأس في نفوس البصريين، الذين تزامحوا في الخروج لقتال الخوارج بناحية الأهواز، وكان قائد القتال ضدهم المهلب بن أبي صفرة، فتعجب من كثرة من لحقه من أهل البصرة! فقال: لقد أتى العراق رجل ذكر^(٣). فلم يترك الحجاج أي فرصة لأهل البصرة في محاججته أو الرد عليه، وهذا الأمر ناتج عن تخوفه من تعاون البصريين مع أولئك الخوارج. ثم إن أسلوبه كان مبنياً على الشدة والحزم دون أي تريث أو نظر في مطالب الآخرين، ما جعله ينفرد بقراراته في أهل البصرة، يوجههم حسب رغبته وطموحه الهادف إلى التخلص من الخوارج.

أمّا أهل البصرة، فإنهم لم يُبدوا أي اعتراض على تصرفات الحجاج في تلك الفترة؛ إذ إنَّها كانت تصب لمصلحتهم في تحلّصهم من عدوهم المباشر في تلك الفترة، وهم الخوارج الأزارقة. فخرج أهل البصرة بفرسانهم إلى رستقباد^(٤) وعسكروا هناك استعداداً للمواجهة العسكرية التي لم تحدّد بفترة زمنية معينة، بل ارتبط مصيرهم هناك بتمكنهم من هزيمة الخوارج والقضاء على فتنهم؛ إذ قال الحجاج لما نزلوا رستقباد: «هذا المكان - والله - مكانكم شهراً بعد شهر، وسنة بعد سنة،

(١) البلاذري، أنساب الأشراف: ٦ / ٢٤٠.

(٢) الطبري، تاريخ: ٥ / ٤٦.

(٣) الطبري، تاريخ: ٥ / ٤٦؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ٣ / ٤٢٦.

(٤) رستقباد: موضع من أرض دستوا من نواحي الأهواز. ياقوت الحموي، معجم البلدان:

٣ / ٤٣.

حَتَّى يَهْلِكَ اللَّهُ عَدُوَّكُمْ هَؤُلَاءِ الْخَوَارِجُ الْمُطَّلَيْنَ عَلَيْكُمْ»^(١).

وعلى الرُّغم من ذلك، لم يُبدِ أهل البصرة أيَّ اعتراض على قرار الحِجَّاج، بل كانوا مطمئنِينَ إليه؛ لأنَّ الحِجَّاج لم يتصادم معهم إلى تلك اللَّحظة بأيِّ قرار يثير استغرابهم، حتَّى خطب ذات يوم، فقال: «إِنَّ الزَّيَادَةَ الَّتِي زَادَكُمْ إِيَّاهَا ابْنُ الزُّبَيْرِ إِنَّمَا هِيَ زِيَادَةٌ مَخْسِرَةٌ بَاطِلَةٌ، مِنْ مَلْحِدٍ فَاسِقٍ مُنَافِقٍ، وَلَسْنَا نَجِيزُهَا!»^(٢).

وكان مصعب قد زاد الناس في العطاء مائة مائة^(٣)، أمَّا بالنَّسبة إلى أهل البصرة، فإنَّهم لم يكونوا يفكِّرون بتجاوز الحِجَّاج على أعطياتهم في تلك الفترة؛ فقد روي أنَّ شيخاً من أهل البصرة من بني تميم جلس في المسجد ومعه صحيفة له في يده، فقال لأحدهم: أترى هذا الكتاب مغنياً عَنِّي شيئاً عند هذا السُّلطان -يعني: الحِجَّاج-، فقال الآخر: وما هذا الكتاب؟ فردَّ عليه صاحبه: هذا كتاب من رسول الله ﷺ كتبه لنا أن لا يُتعدَّى علينا في صدقاتنا^(٤).

ويبدو أنَّ صاحب الكتاب كان أحد الصَّحابة الذين عاشروا رسول الله ﷺ، فمسألة العطاء كانت حسَّاسة في نفوس المسلمين، ويعدُّونها حقَّهم المشروع، بحيث لا يمكن لأحد أن يسلبهم إِيَّاهَا أو يتلاعب بها، خاصَّةً في ساحة القتال، التي تؤثر في حياتهم الاقتصاديَّة بابتعادهم عن مزاولة الأعمال الأخرى في كسب رزقهم.

(١) ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ٤٢٦/٣.

(٢) ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ٤٢٦/٣.

(٣) ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ٤٢٦/٣؛ ويُنظر: د. عبد الواحد دُثُون طه، العراق في عهد

الحِجَّاج بن يوسف الثقفي: ص ٧٧.

(٤) أحمد بن حنبل، المسند: ١/١٦٣.

ويبدو أنَّ الحَجَّاج كان يحاول الحرص على اختصار النفقات وتوفيرها لفترة أطول^(١)؛ لأنَّه لم يكن عارفاً بنتائج حملته تلك على الخوارج، فكانت سياسته الاقتصادية هذه المرَّة بدون أيِّ تأييد من قبل أهل البصرة، الذين أسندوا أمرهم إلى عبد الله بن الجارود العبدِّي^(٢)، فقام بنقاش الحَجَّاج، قائلاً: إنَّ هذه الزيادة ليست بزيادة ابن الزبير، إنَّما هي زيادة أمير المؤمنين عبد الملك، قد أجازها على يد أخيه بشر، فقال الحَجَّاج: ما أنت والكلام؟! لتحسنَّ حملَ رأسِكَ أو لأسلبنَّك إِيَّاه! فقال ابن الجارود: ولم؟! إنِّي لك لناصح، وإنَّ هذا القول من ورائي^(٣). إنَّ هذا الحديث الذي دار بين الطرفين يدلُّ على أنَّ كلَّ طرف كان يحاول استفزاز الآخر والوقوف على مدى ثبوته على رأيه؛ فالحجَّاج بقوله لابن الجارود: ما أنت والكلام؟! إنَّما كان يهدف بكلامه هذا تشخيص درجة ثبوت ابن الجارود على كلامه، ومدى قدرته على تحدِّي الحَجَّاج في الالتزام بالزيادة دون أن يتراجع، فجاء الردُّ السَّريع على لسان ابن الجارود الذي استخدم أسلوباً ليناً في بداية حديثه بأنَّه ناصح للحجَّاج! وإنَّ قوله جاء عن طريق أتباعه، ولا يشكُّ رأياً فردياً انفرد به هو.

(١) إبراهيم بيضون، ملامح التيارات السياسيَّة: ص ٢٤٧.

(٢) هو عبد الله بن بشر بن عمرو بن الجارود، العبدِّي، كان يلقَّب بطير العناق؛ لقصره، ويقال: يلقَّب بالعقاد؛ لقصره، وكان رأس عبد القيس، واجتمعت عليه القبائل من أهل البصرة وأهل الكوفة فولَّوه أمرهم برستقباد، فقاتلوا الحَجَّاج، فظفر بهم، فأخذ الحَجَّاج، فقتله سنة ٧٦هـ. ابن قتيبة، المعارف: ص ٣٣٨؛ السمعاني، الأنساب: ٤/ ١٣٨؛ ويُنظر: الذهبي، تاريخ الإسلام: ٥/ ٣٢٣؛ وقيل: إنَّ المدائني (ت ٢٢٥هـ) له كتاب أخبار ابن الجارود. إسماعيل باشا البغدادي، هدية العارفين: ١/ ٦٧٠.

(٣) ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ٣/ ٤٢٧.

بدأت الأمور تتوتّر في معسكر الحَجَّاج، وانقسم على نصفين كلّ يتبع صاحبه، فقام مصقلة بن كرب العبدِي^(١)، فردّ على ابن الجارود: «إنّه ليس للرعيّة أن تردّ على راعيها! وقد سمعنا ما قال الأمير، فسمعاً وطاعةً فيما أحببنا وكرهنا. فقال له عبد الله بن الجارود: يا ابن الجرْمَقائيّة^(٢)، ما أنت وهذا؟! ومتى كان مثلك يتكلّم وينطق في مثل هذا؟!»^(٣).

إنّ هذا النصّ يكشف مدى الانشقاق الذي أصبح يأخذ شكل التحدّي، بحيث أخذ كلّ طرف بالطعن في الطرف الآخر لاعتبارات شخصيّة زادت من حدّة الخلاف والانقسام، فكانت الوجوه تأتي عبد الله بن الجارود وتنضمّ إلى جانبه وتصوّب رأيه ضدّ الحَجَّاج^(٤).

والظاهر أنّ كبار الناس قد اتّفقوا مع عبد الله بن الجارود على خلع الحَجَّاج ومبايعة ابن الجارود على إمرة العراق، ثمّ يكتبون إلى عبد الملك بن مروان أن يختاروا لهم والياً جديداً بدلاً عن الحَجَّاج، فاستغلّوا فرصة تواجد الخوارج بصفتهم كانوا يمثلون تهديداً جدّياً لعبد الملك بالاستيلاء على العراق وفصل هذا الجزء الحساس من بدن الدولة الخاضعة لسلطة الشّام، «فإن أباي، خلعهنا، فإنّه هائبٌ لنا ما دامت الخوارج»^(٥).

(١) هو مصقلة بن كرب بن رقية بن خوتقة بن عبد الله بن صبرة بن الحدرجان بن عساس بن ليث بن ذهل، كان سيّداً، وابناه كرب بن مصقلة ورقية بن مصقلة خطيبان، وعمّه عبد الله بن رقية قُتل يوم الجمل مع الإمام عليّ عليه السلام. ابن حزم، جمهرة أنساب العرب: ص ٢٨٠.

(٢) الجرامقة: قوم بالموصل أصلهم من العجم. الجوهريّ، الصّحاح: ٤ / ١٤٥٤.

(٣) ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ٤٢٧ / ٣.

(٤) ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ٤٢٧ / ٣.

(٥) ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ٤٢٧ / ٣؛ ابن خلدون، تاريخ: ٤٢ / ٣.

ثمَّ بدأت الدَّعوة لابن الجارود، فبايعوه سرّاً على الإمرة، وأعطوه المواثيق على الوفاء، وأخذ بعضهم على بعض العهود^(١)، فلمّا وجد ابن الجارود قدرته على مواجهة الحجاج، خرج ضده بمن معه، وكان الحجاج قد أحرز بيت المال واحتاط فيه، ثمَّ أصبحت السيطرة شبه محسومة لابن الجارود ومن معه، فأرسل الحجاج أعين مولى بشر بن مروان^(٢) إلى ابن الجارود يستدعيه إليه، فاستهزأ ابن الجارود بالحجاج ورسوله، وكان يقول لأعين: «لولا أنّك رسول، لقتلتك»^(٣).

وبهذا، لم يتمكّن الحجاج من استدراج ابن الجارود إليه، وربّما كان يرغب في محادثته للوصول إلى حلٍّ للأزمة التي نشأت بينهما، لكنّ ابن الجارود استغلَّ ضعف الحجاج آنذاك، فأقبل بجماعته زحفاً نحو الحجاج، وكان رأيه أن يُخرجوا الحجاج عنهم، ولا يقتلوه^(٤)، فلمّا صاروا إليه، نهبوا فسطاطه، وأخذوا ما قدروا عليه من متاعه ودوابّه، ولم يبق شيء للحجاج، حتّى أشفقت بعض العشائر على نسائه اللاتي يتيمين إليهم، فأخذوهنّ؛ خوفاً عليهنّ من السبي.

ثمَّ إنّ أتباع ابن الجارود انصرفوا عن الحجاج وتركوه^(٥)؛ إذ لم يكونوا مصمّمين على قتله، وإنّما أرادوا تخويفه لاضطراره إلى مغادرتهم نحو الشّام، لكنّ مخطّطهم

(١) ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ٤٢٧/٣.

(٢) أعين مولى بشر بن مروان، صاحب حمام أعين بالكوفة، وكان ملازماً للحجاج في حروبه، واشترك في قتال شبيب الخارجي في الكوفة، وتشبّه أعين بملابس الحجاج، فحمل عليه شبيب وقتله سنة ٧٦هـ. الطبريّ، تاريخ: ٥/٧٢، ٩٧؛ ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة: ٤/٢٧٠.

(٣) ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ٤٢٧/٣.

(٤) ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ٤٢٨/٣؛ ابن خلدون، تاريخ: ٣/٤٢.

(٥) ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ٣/٤٢٨؛ ويُنظر: ابن الغملاس، ولادة البصرة ومتسلّموها:

هذا لم ينجح؛ إذ سرعان ما انضمت أقوام من أهل البصرة إلى جانب الحجاج؛ خوفاً من محاربة عبد الملك بن مروان وبطشه^(١).

بعدها أصبحت المخاوف تراود بعض أتباع ابن الجارود من عودة أمر الحجاج من جديد، فقد جعل الغضبان بن القبعثري الشيباني^(٢) يقول لابن الجارود: «تعشَّ بالجلي قبل أن يتغذى بك، أما ترى مَنْ قد أتاه منكم؟! ولئن أصبح، ليكثرنَّ ناصره، وليضعفنَّ منكم»^(٣). فكان ردُّ ابن الجارود: إنَّ المساء قد قرب، ولكنه سيُعامله بالعادة!

لم يستغلَّ ابن الجارود فرصة ضعف الحجاج للانقضاض عليه وطرده عن البصرة، وكان مع الحجاج عثمان بن قطن^(٤) وزيايد بن عمرو العتكي صاحب شرطة الحجاج في البصرة، والظاهر من أمر زيايد بن عمرو العتكي أنَّه التزم الحياد بين الطرفين، دون أن يُظهر تعاطفه بشكل صريح مع أيِّ جهة، بل عمل على

(١) ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ٤٢٨/٣.

(٢) الغضبان بن القبعثري بن هودة بن عباد، الشيباني. يُنسب إليه قصر الغضبان في ظاهر البصرة، كان يدخل على عبد الملك بن مروان، فلمَّا كانت حركة ابن الجارود ومقتله، هرب الغضبان برجال من أهل العراق، ولحق بالشَّام، وقيل: كان في سجن الحجاج محبوساً. ابن عساكر، تاريخ دمشق: ٤٨/٦٢-٦٤؛ ويُنظر: ياقوت الحموي، معجم البلدان: ٤/٢٢٠٦؛ ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة: ٢٠/١٩٥؛ ابن الأثير، اللُّباب في تهذيب الأنساب: ١/٥٤.

(٣) ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ٤٢٨/٣.

(٤) عثمان بن قطن بن عبد الله: قائد كان مع الحجاج بن يوسف في العراق، وولي إمرة بعض جيوشه، وآخر ما وليه قيادة جيش سيَّره الحجاج لقتال شبيب الخارجي في الكوفة، فتمكَّن شبيب من قتل عثمان سنة ٧٦هـ. خليفة بن خياط، تاريخ: ص ٢١١؛ ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة: ٤/٢٥٩؛ الزُّركلي، الأعلام: ٤/٢١٢.

استغلال الموقف لمصلحته؛ إذ كان يقول للحجاج: إني آخذ لك من القوم أماناً وتخرج حتى تلحق بأمر المؤمنين، فقد تفرق كثير من الناس عنك، ولا أرى أن تقاتل بمن معك^(١).

كان زياد بعمله هذا قد أراد أن يكسب كلاً من الحجاج والثوار^(٢)، غير أن الحجاج لم يوافق على هذا الرأي، فحقد عليه^(٣)، وأخذ برأي عثمان بن قطن بقتال ابن الجارود، حتى يحققوا الظفر أو يموتوا كراماً، فكان الحجاج قد حفظ هذا لعثمان^(٤).

ثم إن بعض القواد الذين كانوا بجانب ابن الجارود انشقوا عنه بسبب عدم إشراكهم في المشاورة للوقوف بوجه الحجاج، فالتحقوا بالحجاج^(٥)، ومن بينهم عباد بن الحصين الحبطي^(٦)، وقد سار إلى الحجاج بهائة رجل^(٧)، ثم انضم قتيبة ابن مسلم الباهلي إلى جانب الحجاج، فكان الحجاج قد اطمأن للحياة من جديد على أثر انضمام من انضم إليه، فلما أصبح الحجاج، بلغ تعداد من اجتمع عنده

(١) ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ٤٢٨/٣؛ ويُنظر: ابن خلدون، تاريخ: ٤٢/٣.

(٢) د. ناجي حسن، القبائل العربية في المشرق: ص ١٤٢.

(٣) ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ٤٢٩/٣.

(٤) ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ٤٢٩/٣.

(٥) ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ٤٢٩/٣.

(٦) عباد بن زياد الحبطي: يكنى أبا جهضم، وكان فارس بني تميم، وولي شرطة البصرة أيام عبد الله بن الزبير، وكان مع مصعب أيام قتل المختار بن عبيدة، وشهد فتح كابل مع عبد الله ابن عامر، أدرك فتنة ابن الأشعث وهو شيخ مفلوج، فخاف الحجاج، فهرب نحو كابل، فقتل هناك. ابن قتيبة، المعارف: ص ٤٦٤.

(٧) ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ٤٢٩/٣؛ ابن خلدون، تاريخ: ٤٣/٣.

سِتَّةَ آلَافٍ، فَاقْتَتَلُوا قِتَالاً شَدِيداً^(١)، فَكَادَ ابْنُ الْجَارُودِ أَنْ يَظْفَرَ، فَأَتَاهُ سَهْمٌ أَثْنَاءَ الْقِتَالِ، فَأَصَابَهُ، فَوَقَعَ مَيِّتاً، وَبِمَوْتِهِ تَفَرَّقَ أَتْبَاعُهُ وَانْكَسَرُوا، فَاسْتَغْلَّ الْحِجَّاجُ تِلْكَ الْفُرْصَةَ الَّتِي حَلَّتْ بِابْنِ الْجَارُودِ، فَنَادَى بِأَمَانِ أَتْبَاعِهِ وَالنَّاسِ، إِلَّا الْهَذِيلَ بْنَ عِمْرَانَ^(٢)، وَعَبْدَ اللَّهِ بْنَ حَكِيمٍ^(٣)، وَأَمَرَ أَنْ لَا يَتَّبِعَ الْمُنْهَزَمُونَ^(٤).

وَقِيلَ: إِنَّ الْحِجَّاجَ اتَّهَمَ مَسْمَعَ بْنَ مَالِكٍ بْنَ مَسْمَعٍ^(٥) بِتَزْيِينِ الْخُرُوجِ عَلَى الْحِجَّاجِ لِابْنِ الْجَارُودِ، فَأَخَذَهُ وَحَبَسَهُ^(٦)، ثُمَّ أَخَذَ بِرَأْسِ ابْنِ الْجَارُودِ وَرَوْسَ عَشْرَةٍ مِنْ أَصْحَابِهِ وَبَعَثَ بِهَا إِلَى الْمَهْلَبِ بْنِ أَبِي صَفْرَةَ^(٧)، وَنُصِبَتْ لِيرَاهَا الْخَوَارِجُ فَيَأْسُوا مِنَ الْاِخْتِلَافِ^(٨)، وَكَذَلِكَ أَرَادَ الْحِجَّاجُ بِفَعْلَتِهِ تِلْكَ أَنْ يَجْعَلَ ابْنَ الْجَارُودِ

(١) الطبري، تاريخ: ٤٦/٥.

(٢) الهذيل بن عمران: وهو أحد وجوه أهل البصرة، وقد رجح رأي عبد الله بن الجارود عندما اختلف مع الحجاج، فخلعوه وناهضوه، فلما وقع القتال وظفر الحجاج، نادى بأمان الناس إلا الهذيل هذا. ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ٤٢٨/٣.

(٣) عبد الله بن حكيم، التميمي، السعدي، البصري، من وجوه أهل البصرة، أوفده بشر ابن مروان على عبد الملك أخيه في وفد ليحضّوه على تولية عمر بن عبيد الله بن معمر قتال الأزارقة، ويخبروه أنّ المهلب مريض، وكان أحد الذين ثاروا ضدّ الحجاج مع ابن الجارود. ابن عساكر، تاريخ دمشق: ٤١١/٢٧.

(٤) ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ٤٢٩/٣.

(٥) مسمع بن مالك بن مسمع بن شيبان بن شهاب بن قلع، شيخ بكر بن وائل بالبصرة ووجهها، وقف مع الحجاج ضدّ ابن الجارود، فاتّهمه الحجاج بعدم صدقه له، فحبسه. يُنظر: ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ٤٢٨/٣.

(٦) ابن عساكر، تاريخ دمشق: ١٥٨/٥٨.

(٧) الطبري، تاريخ: ٤٦/٥.

(٨) ابن خلدون، تاريخ: ٤٣/٣.

وَمَنْ اتَّبَعَهُ عِبْرَةٌ لِمَنْ تَسَوَّلَ لَهُ نَفْسُهُ الثَّوْرَةَ ضِدَّ الْحِجَّاجِ.

لقد كانت تلك الحادثة أوَّل مجابهة دمويَّة بين الحِجَّاج وبين أهل العراقين، الذين رغبوا في تغيير سياسة الحِجَّاج، التي أصبحت تتطاول عليهم يوماً بعد يوم، فلم يجدوا بديلاً للتغيير سوى الحركة الثوريَّة، إلَّا أنَّهم أخفقوا في مساعدتهم ذلك.

- البصرة وثورة الزَّنج

وعلى أثر حركة عبد الله بن الجارود ثار الزَّنج بالبصرة؛ إذ كان هؤلاء قد تجمَّعوا بالبصرة في آخر أيَّام مصعب بن الزبير، ولم يكونوا بالكثيرين، فأفسدوا، وتجاوزوا على حقوق بعض الناس^(١). فلما ولي خالد بن عبد الله بن أسيد البصرة وقد كثروا، شكوا الناس ما نالهم منهم، فجمع لهم جيشاً كثيفاً، فلما بلغهم ذلك، تفرَّقوا، وقدر على بعضهم، فقتلوا وصُلبوا^(٢).

كان هؤلاء الزَّنج من الموالي، الذين زاد عددهم بشكل ملحوظ منذ نهاية الفترة السفيانيَّة وبداية الفترة المروانيَّة الأولى، فقد أصبح عددهم كبيراً يعادل عدد العرب، ما أدَّى إلى ظهور مشاركتهم العرب في الحياة العامَّة، وهذا أدَّى - من ثمَّ - إلى ظهور الصِّراع بين الموالي والعرب^(٣).

بادر الزَّنج إلى استغلال تلك الواقعة من أجل تمثيل نفوذهم على الصعيد السِّياسيِّ، وهذا الأمر جعلهم ينظِّمون أنفسهم تحت زعامة رجل منهم، يقال له: رباح شيرزنجي، ومعنى شيرزنجي: أسد الزَّنج، وانضمَّ إليه لفيف من أهل

(١) البلاذري، أنساب الأشراف: ٢٩٩ / ٧.

(٢) البلاذري، أنساب الأشراف: ٢٩٩ / ٧.

(٣) جمال جودة، الأوضاع الاجتماعيَّة والاقتصاديَّة للموالي: ص ٢٠٨.

الكلاء وغيرهم، فغلب على كورة الفرات^(١)، وكان على الفرات والأبلة من قبل الحجاج يومئذ كراز بن مالك السلمي^(٢)، الذي لم يتمكّن من المحافظة على تلك الناحية من البصرة، فتركها وهرب وأخلّى عمله ودخل البصرة^(٣).

إنّ زياد بن عمرو العتكيّ صاحب الشرطة وجّه جيشاً بقيادة ابنه حفص بن زياد العتكيّ، فقاتل الزنج، وكان القتال شديداً، ما يدلّ على تعاظم قوّة الموالي في البصرة؛ إذ تمكّنوا من الانتصار على جيش صاحب الشرطة وقتل ابنه حفص، ما قوّى أمر شيرزنجي، الذي أصبح يتحدّى أصحاب البلد من العرب الذين هم أسياد أولئك الزنج.

وبقيت الحال على ما صارت إليه حتّى قدم الحجاج البصرة، فخطب بأهلها وقال: «يا أهل البصرة، إنّ عبيدكم وكساحيكم^(٤) رأوا معصيتكم، فتأسوا بكم، وأيم الله، لئن لم تخرجوا إلى هؤلاء الكلاب فتكفوني أمرهم، لأعقرنّ نخلكم، ولأنزلنّ بكم ما أنتم له أهل باستخراجكم وفسادكم»^(٥).

أثّرت خطبة الحجاج بأهل البصرة جدّاً، فانتدبوا من جميع أخماس البصرة، وتولّى قيادتهم كراز السلميّ، فقاتل الزنج حتّى صاروا إلى صحارى دورق^(٦)،

(١) البلاذريّ، أنساب الأشراف: ٧ / ٣٠٠؛ ويُنظر: عبد الواحد ذنون طه، العراق في عهد الحجاج بن يوسف الثقفيّ: ص ١٠٢.

(٢) لم أعثر له ترجمة له.

(٣) البلاذريّ، أنساب الأشراف: ٧ / ٣٠٠؛ ويُنظر: ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ٣ / ٤٣١.

(٤) كساحيكم: الكسّاح: من كسح البيت، إذا كسّسه، فهو الكسّاح، أي: الكناس. ابن منظور، لسان العرب: ٢ / ٥٧١.

(٥) البلاذريّ، أنساب الأشراف: ٧ / ٣٠٠.

(٦) دَوْرَق: بلد بخوزستان فيه أبنية عجيبة، والمعادن في أعمالها كثيرة، وبها آثار قديمة لقباذ بن

فواقعوهم هناك، فقتل شيرزنجي والزنج، وقُتل مَنْ أفلت منهم^(١).
إنَّ هذه التحرّكات التي قام بها الموالي بالبصرة تُعدّ أوّل حركة للموالي ضدّ العرب في العهد الأمويّ، وفي بداية العهد المروانيّ، لكنّ هؤلاء الأعاجم لم يتلقّوا الدّعم أو الحماية من قبل العشائر التي انضمّوا إليها، حتّى الدولة لم تقدّم لهم الحماية الكافية في تلك الفترة، حتّى يتمكّنوا من القيام بدور سياسيّ يؤثّر في مجريات الأحداث، فلم يكن لهم دور في السّياسة^(٢).
ومع ظهور العصبيّة العربيّة، وتحديد كلمة (ولاء) على غير العرب الموالى كان من الطبيعيّ أن تكون النظرة العربيّة إلى الموالى غير العرب نظرة لا تساويهم بها^(٣).

داراً، نُسب إليها قوم من الرّواة. ياقوت الحمويّ، معجم البلدان: ٤٨٣ / ٢.
(١) البلاذريّ، أنساب الأشراف: ٣٠١ / ٧؛ ويُنظر: ابن الأثير الكامل في التاريخ: ٤٣١ / ٣؛ ابن خلدون، تاريخ: ٤٣ / ٣.
(٢) يُنظر: صالح أحمد العلي، التنظيمات الاجتماعيّة والاقتصاديّة في البصرة: ص ٩٧.
(٣) جمال جودة، الأوضاع الاجتماعيّة والاقتصاديّة للموالى: ص ٢١٣.

المبحث الثالث

البصرة وثورة عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث

كان عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث الكندي^(١) شخصية مرموقة بما عُرف له من التقدّم والشرف، وكانت له أبهة في نفسه، وكان جميلاً بهياً منطيقاً، فازدهاه ذلك، وملأه كبراً وفخراً وتطاولاً.

وكان الحجاج قد صاهر ابن الأشعث؛ إذ تزوّج ميمونة بنت محمد بن الأشعث^(٢)، فكانت هذه المصاهرة فاتحة خير بالنسبة إلى ابن الأشعث؛ إذ ألزّمه الحجاج العطايا؛ إكراماً، ولا يظهر له إلاّ قبول، العوامل التي أدّت بدورها إلى قلب الأمور بنظر الحجاج، الذي لم يرغب في بروز شخصية منافسة له بالعراق؛ تجنباً للاصطدام بها، فكان يقول: «أما والله يا عبد الرحمن، إنك لتقبل عليّ بوجه فاجر، وتدبر عنيّ بقفاء غادر، وأيم الله، حقيقة أمرك على ذلك»^(٣).

وقد انتهت مصاهرة الحجاج إلى مكيدة بالنسبة إلى كيفية التخلص من ابن

(١) عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث بن قيس، الكندي: أمير سجستان للحجاج، ثمّ خالف أوامره بعدم التوغّل ببلاد فارس، ووقع الخلاف الذي كان يرغب به ابن الأشعث، فقاد الجيش الذي كان بصحبته ضدّ الحجاج، ثمّ خلع عبد الملك بن مروان ودعا لنفسه بالبصرة سنة ٨٢هـ، وبقي يقاتل حتّى سنة ٨٤هـ، عندما ظفر به الحجاج، وطاف برأسه في بعض المدن. الصفديّ، الوافي بالوفيات: ١٨ / ١٣٤؛ ويُنظر: ابن حجر، تهذيب التهذيب: ٦ / ٢٣١.

(٢) ابن قتيبة، الإمامة والسياسة: ٢ / ٤٤.

(٣) ابن قتيبة، الإمامة والسياسة: ٢ / ٤٥.

الأشعث، الذي طالما كان تواجهه بقربه يؤدِّي إلى إثارة المشاكل في نفس الحجاج، الذي رغب بالتخلُّص من ابن الأشعث عن طريق الغدر^(١)، لكنَّ تلك الطريقة كانت لتثير الأمور ضدَّ الحجاج من أقرب الناس إليه، وهي زوجته أخت ابن الأشعث؛ لذلك، عمل على التفكير بطريقة تكون أسهل له في الإجهاض على ابن الأشعث، من دون أن توجَّه التُّهم ضده في حالة مقتله، فهذه المكيدة التي عُرف بها ابن الأشعث جعلته يقول: «وأنا كما زعم الحجاج، إن لم أحاول أن أزيله عن سلطانه، فأجهد الجدَّ إذ طال بي وبه بقاء»^(٢).

ثمَّ عمل الحجاج على تجهيز جيش لابن الأشعث للخروج إلى سجستان^(٣)، ذلك الإقليم الذي أتعب الأمويين، وكان كثير الانتفاضة عليهم^(٤)، فكانت بداية ثورة عبد الرَّحمن بن محمَّد بن الأشعث من هذا الإقليم، وكان سبب توجَّه ابن الأشعث إليه هو حرب التَّرك، الذين استغلَّوا ظروف الدولة الأمويَّة الصَّعبة أيَّام حربها الخوارج، فمنعوا الجزية، وتجاوزوا على الحكم الأموي، فجهَّز الحجاج جيشاً كثيفاً حسن العُدَّة^(٥) يسمَّى بجيش الطواويس^(٦)، وكان جهازه أربعين ألف مقاتل، عشرون من أهل البصرة، ومثلها من أهل الكوفة، وجدَّ في ذلك الجيش

(١) الطبري، تاريخ: ١٤٠/٥.

(٢) الطبري، تاريخ: ١٤٠/٥.

(٣) سجستان: ناحية كبيرة وولاية واسعة تقع جنوب هراة. ياقوت الحموي، معجم البلدان: ١٩٠/٣.

(٤) محمَّد محمَّد علي الصلابي، الدولة الأمويَّة: ٨٠٥/١.

(٥) المسعودي، التنبيه والاشراف: ص ٢٧١.

(٦) الطواويس: كان يسمَّى جيش ابن الأشعث بهذا الاسم؛ لحسن زيتهم، ودقَّة تنظيمهم. المسعودي، التنبيه والاشراف: ص ٢٧١؛ ابن خلدون، تاريخ: ٢٧/٣.

وشمّر، وأعطى الناس أعطيّاتهم، وأخذهم بالخيول الروائع، والسّلاح الكامل، وأخذ في عرض الناس، فكلّ رجل كان يتحلّى بالشّجاعة والفروسيّة إلّا أحسن معونته، وأشركه بجيش ابن الأشعث^(١)، فلما وجّه الحجاج ابن الأشعث إلى المهمّة التي أنيطت به لحرب الترك، احتجّ أخوة عبد الرّحمن بن محمّد بن الأشعث على الحجاج^(٢)، لكنّ الحجاج أمر بتوجيهه، وكان ابن الأشعث عازماً على خلع الحجاج في الوقت نفسه^(٣).

ولما حقّق ابن الأشعث الانتصار على التّرك بسجستان، وسار يريد ملك رتبيل^(٤)، خاف من التوغّل بتلك البلاد، فكتب إلى الحجاج بعمله ورجوعه، وأنّه آخر غزو رتبيل إلى العام المقبل، فكتب إليه الحجاج يتوعّده^(٥).

إنّ الطبيعة الجغرافيّة لتلك الأراضي الجبليّة المرتفعة، ومناخها القاسي الذي كان يميّز بشدّة البرودة، وسقوط الثلوج في موسم الشتاء، ممّا لم يعتده العرب

(١) الطبريّ، تاريخ: ١٤١/٥؛ المسعوديّ، التنبيه والاشراف: ص ٢٧١؛ ابن كثير، البداية والنهاية: ٤٠/٩.

(٢) قيل: جاء أخوة عبد الرّحمن بن محمّد بن الأشعث، منهم: قيس، وإسحاق، والمنذر، والصّباح، حتّى دخلوا على الحجاج، فقالوا: أيّها الأمير، لا توجّه عبد الرّحمن في هذا الجيش، فإنّنا نتخوّف أن يخرج عليك! فتبسّم الحجاج، ثمّ قال: ليس هذا أوّل حسد الأخوة، وإنّما أنتم حسدتموه؛ لأنّه ليس من أمّكم، فقالوا: أيّها الأمير، أمّا نحن، فقضينا ما علينا، ونحن خارجون معه. ابن أعثم، الفتوح: ٧٧/٧؛ ويُنظر: الطبريّ، تاريخ: ١٤١/٥.

(٣) ابن قتيبة، الإمامة والسّياسة: ٤٥/٢.

(٤) رتبيل: اسم ملك زابلستان، وكان للترك عدّة ملوك يسمّون باسم رتبيل. ابن خلّكان، وفيات الأعيان: ١٠٧/٧؛ الصّفديّ، الوافي بالوفيات: ٥٤/٢٨.

(٥) اليعقوبيّ، تاريخ: ١٩٤/٢؛ الطبريّ، تاريخ: ١٤٦/٥؛ المسعوديّ، التنبيه والاشراف: ص ٢٧١.

سابقاً، باعتبارهم كانوا يمارسون القتال على أراضٍ منبسطة صحراوية شديدة الحرارة، فأسهمت جميع تلك العوامل في تربيث عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث وجيشه في التقدّم.

وإنّ خطة عبد الرحمن بفتح تلك المناطق كانت تقوم على ضبط الأمن والاستقرار في المنطقة التي يفتحها جيشه^(١)، قبل أن ينتقل إلى فتح منطقة أخرى، العمل الذي كان يتطلب جهداً عظيماً، ووقتاً طويلاً، في حين كان الحجاج يرغب بفتح تلك المناطق بأسرع ما يمكن، وبأقصر فترة زمنية، ولهذا، فإنّ عقليّة كلا الشخصين: عبد الرحمن والحجاج، كانتا متباينتين.

اشتدّ التوتر بين الحجاج وابن الأشعث، فكان الحجاج لا يتحمّل أدنى مشادة بين الطرفين، خاصّةً من طرف ابن الأشعث الذي تحيّن الفرصة للوثوب على الحجاج والانقلاب عليه، فبعدما وصل كتاب الحجاج إلى عبد الرحمن، الذي نعتة بالجبين والتهاون، عمل عبد الرحمن على تحريض الناس ضدّ الحجاج، ودعاهم إلى خلعه، فخلعوه وبايعوه^(٢).

بعدما عزم ابن الأشعث ومن كان معه على خلع الحجاج، كتبوا كتاباً بينهم على مصالحة ملك رتبيل، فإن ظفروا بالحجاج، نقضوا الكتاب، ووقفوا عنه، وإن كانت الأخرى - بعدم تحقيق ما يتطلّعون إليه -، لجأوا إلى ملك رتبيل واتخذوه ملجأ^(٣).

هذا يعني أنّ ابن الأشعث والذين كانوا معه قد أخذوا خطوة احترازية؛ خشيةً

(١) يُنظر: عليّ محمد محمد الصلابي، الدولة الأموية: ١/ ٨٠٦.

(٢) اليعقوبي، تاريخ: ٢/ ١٩٤؛ الطبري، تاريخ: ٥/ ١٤٧.

(٣) اليعقوبي، تاريخ: ٢/ ١٩٤؛ الطبري، تاريخ: ٥/ ١٤٦-١٤٧.

من فشل سعيهم نحو إطاحة حكم الحجاج على العراق، وفي حالة فشلهم، فلديهم الأراضي الكفيلة بحمايتهم من سطوة الحجاج.

لقد كان عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث ساخطاً غاية السخط على الحجاج، وقد دعم رأيه الجيش الذي كان تحت لوائه، فتركية جيشه تدل على كفاءة عالية من حيث القدرات القتالية، بعدما اختاره الحجاج بنفسه، وباختياره ذلك هياً للثورة عليه وعلى الدولة الأموية^(١)؛ إذ كان قد اختار أعظم فرسان البصرة والكوفة، فكانت علاقة أهل البصرة بابن الأشعث قد انطلقت من ذلك الجيش، الذي كان نصف عدده من أهل البصرة، ما يعني أن زعماء القبائل المعارضة لسياسة الحجاج وبقية القوى المشاركة في هذه الحملة رجحت كفة ابن الأشعث، الذي قرّر خلع الحجاج، وإبعاده عن العراق؛ لسياسته التعسفية التي عُرِف بها، وبطشه الذي شُبّه ببطش فرعون^(٢).

كانت القضية قد أصبحت مقترنة بمصير الناس، الذين أصبحوا لا يطيقون استمرار سطوة الحجاج ووثوبه على العراق؛ إذ روي أن عمال الحجاج كتبوا إليه: «إنَّ الخراج قد انكسر، وإنَّ أهل الذمة قد أسلموا ولحقوا بالأمصار»، فكتب إلى أهل البصرة وغيرهم: «إنَّ مَنْ كان له أصل في قرية، فليخرج إليها، فخرج الناس، فعسكروا وجعلوا يكون ويقولون: وا محمداه، وجعلوا لا يدرون أين يذهبون، فجعل قراء أهل البصرة يخرجون إليهم متقنعين فيكون معهم»^(٣).

(١) عليّ محمد محمد الصلابي، الدولة الأموية: ٨٠٦/١.

(٢) الطبري، تاريخ: ١٤٧/٥.

(٣) البلاذري، أنساب الأشراف: ٣٢٠/٧؛ الطبري، تاريخ: ١٨٢/٥؛ ويُنظر: د. عليّ محمد

محمد الصلابي، الدولة الأموية: ٨١٢/١.

أصبحت الثورة في نفوس البصريين بحاجة إلى قائد يقودها من أجل حمل السلاح والتعبير عمّا لحقهم من ظلم وجبر في مزاوله بعض الأعمال، فأصبحت البصرة متهيئة لإعلان الثورة ضدّ الحجاج.

ويبدو أنّ ابن الأشعث كان عارفاً بأوضاع العراق المتدهورة بسبب سلطة الحجاج وسياساته؛ لذلك عزم على تدعيم ثورته بانضمام بعض الشخصيات العسكرية وقادة الجيش، فوجّه كتاباً إلى المهلب بن أبي صفرة يدعوه إلى خلع الحجاج^(١)، لكنّ المهلب بخبرته الطويلة في قيادة الحروب لم يرغب بخسران منصبه العسكري؛ لأنّه لم يكن ميّالاً إلى الحركات الانفصاليّة عن الدولة، خاصّةً وأنّه تولّى حرب الخوارج منذ زمن عبد الله بن الزبير، فبقي على ولائه للسلطة الحاكمة، دون الانضمام إلى أيّ طرف ينازع السلطنة؛ لذلك، نجده قدّم النصيحة لابن الأشعث بحقق دماء المسلمين، وعدم تفريق جماعتهم^(٢).

وعلى أثر هذه التطوّرات السّياسيّة، كتب الحجاج إلى عبد الملك بن مروان يطلب المدد، فلمّا وقع كتابه بيد عبد الملك، هاله أمر ابن الأشعث، فبعث إلى خالد بن يزيد بن معاوية^(٣)، ودعاه فأقرأه الكتاب، ورأى ما به من الجزع! فقال له خالد: «يا أمير المؤمنين، إن كان هذا الحدث من قبل سجستان، فلا تُخفه، وإن كان

(١) خليفة بن خيَّاط، تاريخ: ص ٢١٦.

(٢) الطبري، تاريخ: ١٤٩/٥.

(٣) خالد بن يزيد بن معاوية بن أبي سفيان: القرشيّ الأمويّ، أبو هاشم الدمشقيّ، أمّه أم هاشم بن أبي هاشم بن عتبة بن ربيعة بن عبد شمس العشميّة، قيل: هو من الطبقة الثالثة من تابعي أهل الشّام، مات سنة ٩٠ هـ. ابن الأثير، أسد الغابة: ٩٨/٢؛ المزيّ / تهذيب الكمال:

من قبل خراسان، تحوَّفته»^(١).

ويبدو أنَّ اهتمام عبد الملك بن مروان لهذا الحديث خشيةً من ابن الأشعث، وأن يكون هو صاحب رايات خراسان التي أخبر النبي ﷺ أنَّ زوال ملك بني أمية على يديها^(٢). فأصبحت المسألة تتعلّق بملك بني أمية، الأمر الذي لم يرغبوا أبداً بحدوثه، خاصّةً عبد الملك، الذي اتّهم أهل العراق بكره ولايته لطول عمرها، فتوعّدهم قائلاً: «اللّهم سلّط عليهم سيوف أهل الشام»^(٣). فأرسل جند الشام إلى الحجاج ليخرج بهم لقتال ابن الأشعث، وكان تجمّع جيش الحجاج في البصرة^(٤). والظاهر أنَّ الحجاج كان قد استخدم سياسة الضغط على الفقهاء ورجال الدّين من أجل تحريض أهل البصرة على الالتحاق بجيشه، وكسب ثقة العامّة هناك، فعندما دخل أنس بن مالك على الحجاج في دار الإمارة، قال له الحجاج: «يا ابن الخبيثة، جوال في الفتن، مرّة مع عليّ بن أبي طالب، ومرّة مع ابن الزبير، ومرّة مع ابن الأشعث، والله، لاستأصلنك كما تُستأصل الصّمغة، ولأجردنك كما يُجرّد الضّب»^(٥).

إنّ هذا النصّ يكشف مدى حرج وضع الحجاج في البصرة؛ لأنّ رجال الدّين فيها قد تخلّوا عن نصرته، بل كانوا يميلون إلى ابن الأشعث وينضمّون إليه،

(١) الطبريّ، تاريخ: ٥ / ١٤٩؛ ويُنظر: عليّ الكوراني، جواهر التاريخ: ٣ / ٥١١.

(٢) أحمد بن حنبل، المسند: ١ / ٧؛ الترمذيّ، السنن: ٣ / ٣٤٥؛ ابن ماجّة، السنن: ٢ / ١٣٥٤؛ الحاكم النيسابوري، المستدرک على الصّحيحين: ٤ / ٥٢٧.

(٣) الطبريّ، تاريخ: ٥ / ١٤٩.

(٤) الطبريّ، تاريخ: ٥ / ١٤٩؛ ابن أعثم، الفتوح: ٧ / ٨٥.

(٥) الصّفديّ، الوافي بالوفيات: ٩ / ٢٣٥.

حسب انطلاقتهم من دوافع دينية وشرعية بحسب ما وصل إليه اجتهداهم، وقد كان القاسم المشترك بين كل هذه الدوافع هو شخصية الحجاج الظالمة المتعسفة الجائرة المتعطشة إلى سفك الدماء^(١). فوقف رجال الدين ضد الحجاج، محاولين الاستفادة من سميتهم الدينية في نصره ابن الأشعث، وهذا بلا شك قاد الحجاج إلى التهجم عليهم، عسى أن يتمكن من تغيير الأمور عن طريق الضغط والقوة! إلا أن الأمور لم تسر حسب ما يشتهي الحجاج، بل خرجت على إرادته وسيطرته؛ إذ كتب أنس بن مالك بإجراءات الحجاج تجاهه وما قاله في حقه إلى عبد الملك بن مروان، فكان رد الأخير شديد اللهجة ضد الحجاج، «إنك عبدٌ من ثقيف طمحت بك الأمور، فعلوت فيها وطغيت، حتى عدوت قدرك، وتجاوزت طورك... لقد هممتُ أن أبعث إليك مَنْ يسحبك ظهراً لبطن»^(٢).

وما يثير الدهشة في هذا الكتاب، هو أن عبد الملك بن مروان لم يكن يتحقق من الأسباب التي قادت الحجاج إلى فعل ما فعله بأنس، على الرغم من أنه كان سيفه الذي تمكن به من إخضاع العراق لسيطرته، وهذا بلا شك كان ناتجاً عن عبد الملك نفسه؛ إذ أصبح يشك في قدرة الحجاج المعهودة على ضبط الأمور، فهو الذي أراد من الحجاج أن يكون شديد اللهجة على أهل البصرة عندما اختاره لولاية العراق سنة (٧٥هـ) كما ذكرنا سابقاً، ثم نجد عبد الملك يتحول ضد الحجاج عندما أخذ الأخير يزيد من ضغطه وظلمه على رجال الدين والعامة من الناس من أجل تعزيز موقفه.

لم يكن هم عبد الملك شخصية خادم النبي ﷺ أبداً، وإنما كان تخوفه من اتساع

(١) علي محمد الصلابي، الدولة الأموية: ١ / ٨١٤.

(٢) الصفدي، الوافي بالوفيات: ٩ / ٢٣٥.

ثورة ابن الأشعث، ومن ثمَّ، مشاركة رجال الدِّين وتأييدهم لها، ما سيكون أمراً سلبياً جداً على مركز السُّلطة ببلاد الشَّام؛ لذلك، لم يكن عبد الملك راغباً بذلك الاتِّساع، فأرسل المدد للحجَّاج ليُخرج إلى ابن الأشعث ويُجهز عليه في بلاد فارس، فسار الحجَّاج إلى ابن الأشعث الذي عزَّز صفوف جنده بإضافة أربعة آلاف فارس من أهل الكوفة والبصرة^(١)، فلم يعد يخشى المواجهة المرتقبة بينه وبين والي الأمويِّ؛ لذلك، ما إن وقع القتال بين الطرفين بأرض فارس، حتَّى انكشف الحجَّاج، فدخل البصرة، وتبعه ابن الأشعث^(٢).

كانت هذه المواجهة المَرَّة الأولى التي يُهزم فيها الحجَّاج شرَّ هزيمة؛ لذا، كانت إيجابيّة بالنسبة إلى موقف ابن الأشعث، الذي ازدادت ثقته بنفسه وبجيّشه وبقدرتهم على مقارعة الجيش الأمويِّ، فتعقَّبوا جيش الحجَّاج المنهزم، وكانوا كلّما أدركوا شاذّاً منهم، قتلوه، وأصابوا ثقله^(٣).

أمّا ابن قتيبة، فيذكر أنّ الحروب كانت بين الطرفين طول ستّة أشهر، دون أن يكتب النصر لأيٍّ منهما^(٤). ثمَّ كاتب أهل البصرة ابن الأشعث بخلع الحجَّاج، وهم يستبطنونه، ويستعجلونه للقدوم عليهم، فعلم الحجَّاج بتلك الكتب المتبادلة، فصعد منبر البصرة، وحرَّض الناس على قتال ابن الأشعث، وحثَّهم على طاعة عبد الملك^(٥).

(١) الطبري، تاريخ: ١٤٩/٥.

(٢) خليفة بن خيَّاط، تاريخ: ص ٢١٥؛ الذهبي، تاريخ الإسلام: ٥/٦.

(٣) الطبري، تاريخ: ١٥٠/٥.

(٤) الإمامة والسَّياسة: ٤٩/٢.

(٥) الإمامة والسَّياسة: ٥٠/٢.

لم يكن الحجاج راغباً في فقدان سيطرته على مدينة البصرة؛ لما للمدينة من تأثير كبير على مجريات الأحداث السّياسيّة في المنطقة، خاصّةً وأنّها تضمّ أقوى القبائل العربيّة، التي ستُضعف موقف الحجاج وتُخرجه فيما لو انضمت إلى ابن الأشعث. وفي المقابل، فإنّ أهل البصرة كانوا متلوّنين سياسياً، وقليلًا ما يؤيّدون الثورة ضدّ الدولة الأمويّة، لكن، هذه المرّة كانوا جادّين في الثورة، من أجل التخلّص من مأساة الحجاج التي خلّفها بالمدينة، دون مراعاة أهلها، وهذا الأمر نجده واضحاً عندما كسروا الخراج وأعلنوا الإضراب، لكنّهم لم يتمكّنوا من الصّمود لفترة طويلة؛ إذ كانت أزلام الحجاج وجلاوزته بالمرصاد لهم، فأفشلوا كلّ محاولة من شأنها تطوّر الموقف ضدّ الحجاج، وجاءت الفرصة المناسبة لأهل البصرة في ما كانوا يصبون إليه من التخلّص من ظلم الحجاج وإفشال أمره عليهم، فكان رجلٌ من أهل البصرة يقال له: سلمة المنقريّ من بني تميم، يقول للحجاج: «والله، لو كنّا زمعاً^(١) وبني زمع، ما رضينا أن نكون تبعاً لهذا الخائن»^(٢).

وبهذا، تكون البصرة قد خرجت من سيطرة الحجاج وقبضته الحديديّة الفتّاكة الظالمة، ولا يمكن أن يبقى ملازماً بها، خاصّةً وأنّ ابن الأشعث قادم نحوهم بعد ما كاتبوه، ووجدوا فيه قائد الثورة المناسب ضدّ الحجاج، وعلى هذا الأساس، قام عامّة أهل البصرة مع العلماء والعبّاد لإسناد ابن الأشعث، فاجتمع له جيش عظيم^(٣). ما شكّل للحجاج صدمة لم يكن ليتوقّعها أبداً بعد كلّ الإجراءات

(١) زمعَ زمعاً: خرق من الخوف وجزع وأبطأ في مشيته. ابن منظور، لسان العرب: ٨ / ١٤٤.

(٢) ابن قتيبة، الإمامة والسّياسة: ٢ / ٥٠.

(٣) الذّهبيّ، العبر في خبر منّ عبر: ص ٥٦؛ وللمؤلّف نفسه: تاريخ الإسلام: ٦ / ٦.

التعسّفية ضدّ أهل البصرة^(١)، الذين اجتمعوا على عبد الرحمن بن محمّد بن الأشعث، فسَمَّى نفسه (ناصر المؤمنين)^(٢).

أصبح الحجاج منبوذاً من قبل البصريّين، الذين التفّوا حول ابن الأشعث، وهذا ما جعل البصرة تخضع لسيطرة ابن الأشعث بالكامل آخر سنة (٨١هـ / ٧٠٠م)^(٣)، ويُعدّ هذا الإنجاز بنظر ابن الأشعث والثوار تقدّماً ضدّ الدولة الأمويّة بالكامل، دون أن يقتصر على عاملها الذي يُدير العراق، فخطب بأصحابه، قائلاً: «أمّا الحجاج، فليس بشيء، ولكنّا نريد غزو عبد الملك»^(٤).

الخطاب المتقدّم كان يعني أنّ ابن الأشعث بدأ يفكر بمستقبل ثورته، ولكن تفكيره لم يكن سليماً، وهذا ناتج عن ضعف عقليّته عن استيعاب النّجاح الذي حقّقه، وكيفيّة استغلاله للإطاحة بحكم الأمويّين؛ فهو عندما وجد أنّ البصرة قد استقرّت له، أصبح الغرور يسيطر عليه، متناسياً ردّة الفعل التي سوف تشنّها الدولة الأمويّة بين الحين والآخر؛ إذ خطب بالناس، قائلاً: «إنّه لم يبق من عدوّكم إلّا كما يبقى من ذنب الوزغة»^(٥)، تضرب به يميناً وشمالاً، فلا تكبت أن تموت»^(٦). والظاهر من خطبته الأخيرة أنّه كان يرغب في أن يبعث في نفوس أصحابه الأمل الذي يتطلّعون إليه في الخلاص من السّيطرة الأمويّة.

(١) الطبريّ، تاريخ: ١٥٠ / ٥.

(٢) المسعوديّ، التنبية والاشراف: ص ٢٧٢.

(٣) الطبريّ، تاريخ: ١٥١ / ٥؛ ويُنظر: جعفر السبحانيّ، الزيدية في موكب التاريخ: ص ٢٧١.

(٤) الطبريّ، تاريخ: ١٥١ / ٥.

(٥) الوزغة: الارتعاش والرّعد، ويقال: بفلان وَزَغ: إذا كان يرتعش. ابن منظور، لسان العرب: ٤٥٩ / ٨.

(٦) المبرّد، الكامل في اللّغة: ص ١٨٩؛ الجاحظ، البيان والتبيين: ١٠٥ / ٢.

ويبدو من خطبته -أيضاً- أنّ ابن الأشعث لم يكن بذي خبرة مناسبة في الأمور العسكرية؛ لأنّ المسألة لم تكن قد حُسمت بعد، وكان الحجاج ما زال معسكراً في موقع الزاوية من البصرة، وما زال المدد يأتيه من الشّام، حتّى أنّ بعض أهل البصرة لم يكن راضياً عن خطبته الأخيرة، «يأمر أصحابه بقلّة الاحتراس من عدوّهم، ويعدّهم^(١) الغرور»^(٢).

ويذكر أحد المؤرّخين أنّ ابن الأشعث لما دخل البصرة قعد عنه عامّة أهلها^(٣)، وهذا الخبر يتعارض مع الأحداث التي شهدتها البصرة تلك الفترة؛ لأنّ القتال كان يدور على أرض البصرة، وكان عامّة أهلها قد بايعوا ابن الأشعث، وقاتلوا معه أشدّ القتال سنة (٨٢هـ / ٧٠١م)، حتّى انتهوا إلى الحجاج، وانهزم عامّة قريش وثقيف، فقال الشّاعر في ذلك:

فرّ البراء وابن عمّه مصعبٌ وفرّت قريشٌ غير آل سعيد^(٤).

ثمّ تجدد القتال بين الطرفين، وكانت وقائع شديدة بينهم، فجال أصحاب الحجاج وتقوّض صفّهم، فجنّوا الحجاج على ركبته، وقال: «لله درّ مصعب، ما كان أكرمه حين نزل به ما نزل»، وعزم أنّه لا يفرّ^(٥)، فوصلت إليه أمداد أهل الشّام بقيادة سفيان بن الأبرد الكلبي^(٦)، فحمل على ميمنة ابن الأشعث، فانكسر

(١) لدى الجاحظ: «يعدّهم الأضاليل، ويمنّهم الأباطيل». البيان والتبيين: ١٠٦/٢.

(٢) المبرّد، الكامل في اللّغة: ص ١٨٩.

(٣) خليفة بن خياط، تاريخ: ص ٢١٦.

(٤) الطبريّ، تاريخ: ١٥١/٥.

(٥) ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ٤٩٣/٣.

(٦) سفيان بن الأبرد الكلبي: أحد قادة جيش الشّام، الذي تولّى قتال بعض الخوارج بالكوفة سنة ٧٨هـ بأمر الحجاج، ثمّ كان له أثر كبير في معارك الحجاج ضدّ ابن الأشعث. الذهبي،

الأخير، وحوّل جبهة قتاله نحو الكوفة، وتبعه أهلها وأهل البصرة^(١).

ويبدو من تحوّل ابن الأشعث من البصرة إلى الكوفة أنّه أصبح عاجزاً عن إدارة القتال في البصرة، غير مستطيع للاستمرار على تلك الحال لفترة أطول؛ لأنّ استمراره على ذلك سوف يُضعف قوّته أمام أمداد أهل الشّام المستمرّة للحجّاج؛ لذلك، رغب في فتح جبهة جديدة ضدّ الحجّاج، فقدم الكوفة، ولم يكن أمامه خيار آخر في سبيل تدبير أمره، وهو لم يترك البصرة فريسة أمام الحجّاج، بل استخلف عليها عبد الرّحمن بن العباس بن ربيعة بن الحارث^(٢)، وقال له: «قاتل بالنّاس؛ فإنّ عندهم قتالاً شديداً، ولهم نشاط، فإنّي منصرف إلى الكوفة، وممدّك بالرجال»^(٣). فما كان من أهل البصرة، إلّا أن التحقوا بعبد الرّحمن بن العباس، فبايعوه على الصّبر وقتال الحجّاج.

وقد ثبت أهل البصرة في قتال الحجّاج وجيش الشّام، والتصّدّي لهم على أفواه السّكك^(٤)، واستمرّوا في قتال الوالي الأمويّ خمس ليال، كانت أشدّ قتال رآه الناس^(٥). عند ذلك مال الحجّاج إلى مماطلة أهل البصرة، وأخذهم بالخديعة؛

تاريخ الإسلام: ٣٣٠ / ٥.

(١) الطبريّ، تاريخ: ١٥٣ / ٥؛ ابن كثير، البداية والنهاية: ٤٩ / ٩.

(٢) عبد الرّحمن بن العباس بن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب: استخلفه ابن الأشعث على البصرة بعد خروجه إلى الكوفة، وبقي يقاتل الحجّاج ثلاثة أيّام في البصرة، ثمّ لحق بابن الأشعث بالكوفة، وشارك في حروبه ضدّ الحجّاج، وكان على خيله. قُتل بهراً. الذهبيّ، تاريخ الإسلام: ١٥ / ٩.

(٣) البلاذريّ، أنساب الأشراف: ٣٢٨ / ٧.

(٤) البلاذريّ، أنساب الأشراف: ٣٢٨ / ٧.

(٥) الطبريّ، تاريخ: ١٥٣ / ٥؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ٤٩٣ / ٣.

إذ أمر فرفعت راية أمان، وناداهم أصحاب الحجاج بأمره: «ثكلتكم أمهاتكم، علام تقاتلون، وقد ترك صاحبكم القتال ومضى؟!»^(١). فدخل أهل البصرة في أمان الحجاج، في حين رفض الأقوياء منهم النزول على حكمه، فلحقوا بابن الأشعث بالكوفة^(٢)، التي انتقل القتال إليها، ووقعت المعارك الشديدة فيها، وكاد ابن الأشعث أن يغلب على العراق، وبلغ جيشه ثلاثة وثلاثين ألف فارس ومائة وعشرين ألف راجل^(٣).

وكان ابن الأشعث قد عسكر في دير الجماجم^(٤)، في حين عسكر الحجاج في دير قرّة^(٥)، فاشتد القتال بين الطرفين بأرض العراق، وخشي رؤوس قريش وأهل الشام وعبد الملك بن مروان ومواليه من عاقبة ذلك القتال، وكذلك أبدى عبد الملك مخاوفه من تدهور الأوضاع إلى درجة تفقد فيها حكومته زمام الأمور مرّة أخرى، خاصّةً بعد فشل الحجاج في استعادة الكوفة، فتدارس عبد الملك موقف أهل العراق، ووصل إلى نتيجة مقنعة بإيقاف القتال بين الطرفين، وإرسال وفد للتفاوض مع ابن الأشعث، للوقوف على ما يرغب به من مطالب تعمل على تهدئة

(١) البلاذري، أنساب الأشراف: ٧/ ٣٢٩؛ ويذكر الصفدي: أنّه عندما نادى منادي الحجاج بالأمان يوم الزاوية، قتل أحد عشر ألفاً. الوافي بالوفيات: ١٨/ ١٣٤؛ ويُنظر: ابن الغملاس، ولاة البصرة ومتسلّموها: ص ١٢.

(٢) الطبري، تاريخ: ٥/ ١٥٣؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ٣/ ٤٩٣؛ ابن خلدون، تاريخ: ٤٨/ ٣.

(٣) الذهبي، العبر في خبر من غبر: ص ٥٧؛ ويُنظر للمؤلّف نفسه: تاريخ الإسلام: ٦/ ٨.

(٤) دير الجماجم: وهو دير بظاهر الكوفة، على طريق البرّ الذي يسلك إلى البصرة. البكري، معجم ما استعجم: ٢/ ٥٧٣.

(٥) دير قرّة: دير بإزاء دير الجماجم. ياقوت الحموي، معجم البلدان: ٢/ ٥٢٦.

التوتر السَّياسي والعسكريّ، فجاء الوفد الشَّامي الذي يتزعمه عبد الله بن عبد الملك بن مروان^(١)، وأخو عبد الملك محمّد بن مروان^(٢)، وجاءوا ببعض الحلول لأهل العراق بهدف إيقاف القتال، منها: عزل الحجاج عن العراق إذا كان ذلك مطلب العراقيّين واستبداله بمحمّد بن مروان، والمساواة بالعتاء بين أهل الشَّام وأهل العراق؛ إذ كان أهل الشَّام يُفَضَّلون بالعتاء أكثر من غيرهم، بصفتهم الجيش الخاصّ لسلطة الشَّام، وأن ينزل عبد الرّحمن بن محمّد بن الأشعث أيّ بلد من العراق يكون عليه والياً مادام حيّاً، فإنّ أهل العراق قبلوا ذلك، عزل عنهم الحجاج^(٣).

إنّ هذه المساومة بالنسبة إلى وضع الحجاج كانت أشدّ أمر يمرّ به قطّ، ووقع في هلع وذعر شديدين مخافة أن يقبل أهل العراق بهذه المقترحات فيعزل عنهم، فاحتجّ على هذه المساومة، وأخبر عبد الملك بأنّ أهل العراق لا يميلون إلى الهدوء، ولا يلبثون حتّى يخالفوك، ويسيروا إليك، كما ساروا إلى عثمان بن عفّان، ولا يزيدهم ذلك إلّا جرأة عليك^(٤).

إلّا أنّ عبد الملك أراد إيقاف القتال بأيّ شكل من الأشكال، وإن كان على حساب عامله الحجاج! فلم يُعطِ الحجاج أذنّاً صاغية، وتجاهل نصيحته! فلمّا

(١) عبد الله بن عبد الملك بن مروان: الأمويّ، قيل: إنّهُ أوّل مَنْ حوّل الدواوين بمصر إلى العربيّة، وليها أيام أبيه سنة ٨٦هـ، وأقرّه أخوه الوليد بعد وفاة أبيهما، وابتنى مسجداً عُرف بمسجد عبد الله، توفي سنة ٩٠هـ. الزّركليّ، الأعلام: ٤ / ١٠٠.

(٢) الطبريّ، تاريخ: ٥ / ١٥٦.

(٣) الطبريّ، تاريخ: ٥ / ١٥٦؛ د. عليّ محمّد محمّد الصلابيّ، الدولة الأمويّة: ١ / ٨١٠.

(٤) الطبريّ، تاريخ: ٥ / ١٥٦.

قدم وفد الشَّام على ابن الأشعث، وعرضوا عليه تلك الخيارات، طلب منهم أن يُمهّلوه بعض الوقت، فاجتمع بقادته ورؤساء أهل العراق، فذكر لهم ما عُرض عليه.

ويبدو أن ابن الأشعث أراد أن تضع الحرب أوزارها أيضاً؛ باعتبار أن قوّته قد أنهكت، وليس لديه القدرة على مواصلة القتال أمام إمدادات أهل الشَّام، فرأى في هذه المطالب فرصة لا تكون في الغد إلا حسرة^(١). في حين كان أهل العراق يرغبون بالخلاص من التسلُّط الأمويّ، فأصروا على القتال وخلع عبد الملك بن مروان.

والظاهر أن عدم قبول قادة عبد الرّحمن بن محمّد الأشعث بالمقترحات التي قدّمتها سلطة الشَّام، وفي مقدّمتها عزل الحجاج الذي كان عيناً ويداً لعبد الملك ابن مروان في العراق، الذي قدّم للأمويّين ونصب لهم المنابر بسيفه، ودينه الذي لم يكن في نفسه أيّ أثر مقابل رضا عبد الملك عنه، إنّ الرّفص لتلك المقترحات، تعني الفرصة التي أتت قادة أهل العراق، التي لا يمكن أن يأتي الزّمان بها مرّة أخرى، وكان الأولى بهم أن يتشدّدوا في المطالب المقدّمة إليهم، ومن ثمّ، يضغطوا على عبد الملك حتّى يستجيب لرفع المظالم، وإقامة العدل، والتقيّد بالشريعة الإسلاميّة دون انحراف، فعدم قبول مقترحات سلطة الشَّام كان خسارة كبيرة لجيش عبد الرّحمن بصورة خاصّة، وللعراقيّين بصورة عامّة، وكان الأجدر بهم أن يستثمروا تلك الفرصة ولا يفوّتوها، ويعملوا بكلّ الوسائل على تحقيقها، وكان ضياعها يدلّ على فقدانهم للحسّ السّيّاسيّ في تلك المفاوضات، وأنّ مبايعتهم

لابن الأشعث جاءت في لحظات عاطفيَّة ثوريَّة، فهم لم يترَيَّثوا في فهم واقعهم السَّياسِيَّ المحيط، بل أصرُّوا على إرادتهم في خلع عبد الملك بن مروان، عند ذلك أمر عبد الملك بإعادة الحجاج لقيادة الحرب من جديد ضدَّ أهل العراق، فاقتتلوا في دير الجماجم نحواً من أربعة أشهر، ولم يكن بعد وقائع صفين أعظم من هذه الحروب، ولا أهول من هذه الزخوف^(١).

بعد تلك المعارك انهزم ابن الأشعث، فترك الكوفة وأتى البصرة، واجتمع إليه من المنهزمين جمع كثير^(٢). ويذكر الطبري أنَّ عبيد الله بن عبد الرَّحمن بن سمرة^(٣) قدم البصرة قبل ابن الأشعث، وكانت البصرة تحت حكم أيوب بن الحكم^(٤)، ابن عمِّ الحجاج، فأخذها عبيد الله بن عبد الرَّحمن، فلما قدم ابن الأشعث البصرة، خرج إليه عبيد الله، فقال له: «إني لم أرد فراقك، وإنما أخذتها لك»^(٥). وهذا يعني أنَّ البصرة بقيت تميل إلى ابن الأشعث على الرُّغم من انتصار الحجاج، فهي لم تكن

(١) المسعودي، التنبيه والاشراف: ص ٢٧٢.

(٢) الطبري، تاريخ: ٥ / ١٧٠؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ٣ / ٥٠٤؛ ويُنظر: خليفة بن خياط، تاريخ: ص ٢١٧.

(٣) عبيد الله بن عبد الرَّحمن بن سمرة: القرشي، قيل: كان أحد عوران قريش، وكان أحد الذين انضموا إلى عبد الرَّحمن بن محمَّد بن الأشعث في ثورته ضدَّ الحجاج، وكان يرغب بتولية المناصب، فاستولى على البصرة، ثم تركها لابن الأشعث، وخرج معه إلى هراة من بلاد فارس، فانشقَّ عن ابن الأشعث في ألفي مقاتل. ابن حبيب، المنمَّق: ص ٤٠٥؛ الطبري، تاريخ: ٥ / ١٧٤؛ الذهبي، تاريخ الإسلام: ٦ / ١٣.

(٤) أيوب بن الحكم الثقفي: ولَّاه الحجاج على البصرة لما كان في العراق، ثمَّ عزله، ثمَّ أعاده مرَّة أخرى. قتله صالح بن عبد الرَّحمن الكاتب مع جماعة من آل الحجاج بأمر سليمان بن عبد الملك سنة ٩٧هـ. ابن عساكر، تاريخ دمشق: ١٥ / ٤.

(٥) تاريخ الطبري: ٥ / ١٧٠.

تؤمن للسلطة الأموية، بل التزمت الثورة ضدها طول حكمها. ويرى أحد الباحثين أن البصرة كانت ذات سلوك سياسي متلون^(١). ويبدو لنا أن هذا التلون كان نتاج ثورتهم ضد السلطة الأموية في فترات الضعف والاضطراب التي تمر بها الدولة، ثم تخضع لسلطة الدولة مرة أخرى، حسب مبدأ القوة الذي يتحكم بمصير الناس، وكذلك اختلاف وجهات نظر أهلها، فهناك من يميل إلى نصره الأمويين، وهناك من يبغضهم، فكان هذا التباين والاختلاف يؤدي في نهاية المطاف إلى ظهور التلون في الجانب السياسي لأهل البصرة. ثم خرج عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث عن البصرة ولحق بمسكن^(٢)، واجتمع عليه أنصاره، وبقي في بلاد الفرس هارباً من الحجاج، وقد التحق بملك سجستان رتبيل بعدما طلب منه الأمان، ولما علم الحجاج بذلك، هدد رتبيل، الذي بعث برأس ابن الأشعث للحجاج وفاء باتفاق عقد بينهما^(٣). كانت ثورة ابن الأشعث من أخطر الثورات التي شهدتها تاريخ العراق الأموي، وكادت أن تطيح بالحجاج، وأصبحت السلطة الأموية تتخوف من شدتها واتساع أمرها في العراق، حتى قيل: إنها هزت دولة الأمويين هزاً شديداً^(٤). لقد نمت الثورة وأسست بسبب بغض الحجاج، واستهدفته في بداية أمرها من أجل الإطاحة به وتغيير نظام الأمويين، وطريقة حكمهم للعراق، ثم اتسع نطاقها

(١) شارل بللا، الجاحظ: ص ٨٥.

(٢) مسكن: موضع على نهر دجيل عند دير الجاثليق. ياقوت الحموي، معجم البلدان: ١٢٧/٥.

(٣) الطبري، تاريخ: ١٨٨/٥؛ ويُنظر: اليعقوبي، تاريخ: ١٩٥/٢.

(٤) فلهاوزن، تاريخ الدولة العربية: ص ٢٢٤.

ليشمل السُّلطة المركزيَّة الأمويَّة الشَّاميَّة ذاتها، فقادة العراق أصبحوا يشعرون بحساسيَّة خلَّفتها السَّياسة الأمويَّة التي اعتمدت في حكم العراق على القمع بوصفه أفضل الأساليب لحماية نفسها من الضَّعف والسَّقوط.

لقد كانت ثورة عبد الرَّحمن بن محمَّد الأشعث ثورة العراق بكلِّ ما تعنيه العبارة، من حيث المشاركة الواسعة والاستجابة العظيمة، على نحو لم تشهده المحاولات الثوريَّة السَّابقة^(١).

أمَّا بالنسبة إلى الحجاج، فقد استطاع أن يُبرهن لعبد الملك أنَّه رجل الشدائد التي تحيط بعرش السُّلطة الأمويَّة من قبل أهل العراق؛ لذلك، أطلق لنفسه العنان في إجراءاته العسكريَّة وانتهاكاته الإجرامِيَّة؛ إذ عمل على قتل الأسرى واحداً تلو الآخر^(٢)، وبقي يضايق أهل البصرة، خاصَّة الذين وقفوا ضده بتأييد ابن الأشعث، فهرب أهل البصرة عن مدينتهم بغية التخلُّص من إجراءات الحجاج القمعيَّة والانتقاميَّة، فنادى مناديه: «ألا برئت الذمَّة ممَّن أوى عراقياً. وكان لا يبلغه أنَّ أحداً من أهل العراق في دار أحدٍ من أهل المدينة إلَّا أخرجه»^(٣). وهذا يعني أنَّ الحجاج بقي يلاحق العناصر البصريَّة النشيطة؛ خوفاً من انخراطهم في ثورة جديدة تعمل على الإطاحة بشخصيَّته وحكمه للعراق.

ولهذا، أصبحت الحياة السَّياسِيَّة لأهل البصرة تساند المحاور المعارضة للسُّلطة الأمويَّة، دون أيِّ تهيُّب من ردود أفعال الحُكَّام الأمويِّين المستبدِّين الطَّغاة، فكانت وراء تلك الحركات والثَّورات المتواصلة في العصر الأمويِّ.

(١) إبراهيم بيضون، ملامح التَّيارات السَّياسِيَّة: ص ٢٦٨.

(٢) ابن قتيبة، الإمامة والسَّياسة: ٥٦ / ٢.

(٣) اليعقوبي، تاريخ: ٢٠٣ / ٢.

المبحث الرابع

البصرة وثورة يزيد بن المهلب

أصبحت البصرة محطّ أنظار الثوّار الذين يثورون ضدّ السّلطة الأمويّة، وهذا بلا شكّ كان ناتجاً عن طبيعة أهل البصرة العسكريّة؛ فقد اكتسبوا تلك الصّفات جرّاء تاريخهم الطويل في ممارسة القتال في الفتوح الإسلاميّة، فضلاً عن الثّورات التي احتضنتها البصرة، وبالأخصّ ثورتا ابن الجارود وابن الأشعث؛ إذ سرعان ما اندلعت كلتا الثّورتين اللّتين لم يجد قاداتهما أنسب من أرض البصرة لتمرّكزهم. وهذا الأمر كما لمسناه كان نابعاً من طبيعة الأحوال السّياسيّة التي أحاطت بالمدينة؛ فقد أصبحت الحياة السّياسيّة فيها قائمة على بطش الأمراء الأمويّين، وبالأخصّ الحجاج بن يوسف الثقفيّ، ما فرض على أهل البصرة أن يميلوا نحو كلّ ثورة تُثار ضدّ السّلطة الأمويّة؛ بُغية التخلّص من سلطة الوالي، أو التأثير عليه في سبيل تغيير سياسته إزاء أهل البصرة بصورة خاصّة، والعراق بصورة عامّة.

وعلى الرّغم ممّا حدث من ثورات ضدّ السّلطة الأمويّة انطلقت من أرض البصرة، وتوسّعت باتجاه الكوفة بوصفها مرحلة ثانية، إلّا أنّنا لم نجد أيّ ردود أفعال من قبل حكام الدولة الأمويّة، حتّى أنّ السّلطة لم تكلف نفسها التحقيق في أسباب اندلاع تلك الثّورات بصورة منطقيّة، على الأقلّ لتلافي حدوث ما يشابهها في المستقبل.

وحسب ما أرى، فإنّ هذا الأمر كان أحد جوانب الغبن التي أحاطت بالحاكم

الأمويّ؛ في اعتماده بصورة كليّة على إدارة تلك النواحي من الدّولة على ولاة أطلّقت أيديهم بصورة تامّة في إخضاعها، وجعلها خاضعة للسلطة، وهذا الأمر فرض على الولاية استخدام أبشع الأساليب في تحقيق رغبات أسيادهم على حساب الرعيّة، التي لم تجد بديلاً سوى مناهضة الحكّام والسّخط عليهم! فقداد الأمر المتكرّر هذا إلى تكرار الثّورات التي أنهكت الدولة العربيّة عسكرياً، ومن ثمّ، جعلتها تضعف شيئاً فشيئاً مع مرور الزمن، فأصبحت البصرة تتطلّع إلى مساندة كلّ ثورة ضدّ الأمويّين؛ إذ كانت تأمل من خلالها النجاح في القضاء على مشاكلهم، فإن فشلت، بقيت بانتظار ولادة الثّورة اللاحقة^(١).

أمّا علاقة البصرة بيزيد بن المهلب بن أبي صفرة، فقد كانت نتاج علاقة أهل البصرة بأبيه المهلب، الذي أنقذ البصرة من خطر الأزارقة (الخوارج)، كما ستحدّث عن ذلك لاحقاً.

كان يزيد بن المهلب في سجن الحجاج، فهرب منه ولحق بالشّام، ونزل على سليمان بن عبد الملك، فكان الأخير الملاذ ليزيد من عقوبة الوليد بن عبد الملك أخي سليمان^(٢)، وعندما تولى سليمان هذا الحكم، عين يزيد بن المهلب على العراق، ثمّ أخذ يزيد يتطلّع إلى ولاية خراسان، عساها تدبّر عليه الثّروات الضّخمة والأموال الكثيرة^(٣).

لم ينعم يزيد بن المهلب طويلاً في ظلّ سليمان بن عبد الملك، بل سرعان ما مات الأخير في سنة (٩٩هـ / ٧١٧م)، فتولّى الحكومة من بعده عمر بن عبد العزيز،

(١) إبراهيم بيضون، ملامح التّيارات السّياسيّة: ص ٢٧٠.

(٢) يُنظر: الطبريّ، تاريخ: ٥ / ٢٣١-٢٣٤؛ ابن كثير، البداية والنهاية: ٩ / ٩٤.

(٣) نافع توفيق العبوديّ، آل المهلب بن أبي صفرة: ص ٩٩.

الذي سرعان ما حاسب يزيد بن المهلب على الأموال التي كانت بحوزته أثر الفتوح التي كانت بقيادته في جبهة المشرق؛ إذ حقق فتوحاً كثيرة، وغنم أموالاً طائلة، كتب كتاباً على أثرها إلى سليمان بن عبد الملك يخبره بتلك الإنجازات^(١).

والظاهر أنه كان هناك خلاف بين عمر بن عبد العزيز ويزيد بن المهلب؛ إذ إنَّ عمر كان يُبغض يزيد وأهل بيته، ويقول عنهم: إنَّهم جبابرة، لا أحبُّ أمثالهم. وكان يزيد بن المهلب بدوره يبغض عمرًا، ويقول: إنِّي لأظنُّه مرئياً^(٢).

وعلى هذا الأساس، بعث عمر بن عبد العزيز عدي بن أرطاة والياً على البصرة، وأوكل إليه مهمّة القبض على يزيد بن المهلب، فأوثقه بالحديد ما إن وصلها، وبعثه إلى عمر بن عبد العزيز، فحبسه عمر حتّى مماته^(٣).

وقبل موت عمر بن عبد العزيز، خاف يزيد بن المهلب من بقائه في السّجن؛ ففي ذلك حتفه وهلاكه؛ إذ إنَّ موت عمر يعني وصول يزيد بن عبد الملك إلى الحكم، ويزيد هذا ناظم على يزيد بن المهلب؛ لما فعله في أقارب يزيد بن عبد الملك في أيام ولايته على العراق^(٤)؛ لذلك السّبب، خطّط يزيد للهرب من سجن عمر ابن عبد العزيز، الذي تعرّض للمرض الشديد في آخر أيامه، فاتفق مع مواليه على مساعدته في الهرب، وكذلك بمساعدة الهذيل بن زفر^(٥) صاحب حلب، الذي

(١) الطبري، تاريخ: ٣٠٣/٥.

(٢) الطبري، تاريخ: ٣١٢/٥؛ ابن خلكان، وفيات الأعيان: ٢٩٩/٦.

(٣) خليفة بن خياط، تاريخ: ص ٢٤٩.

(٤) الطبري، تاريخ: ٣١٧/٥.

(٥) هو الهذيل بن زفر بن الحارث، الكلابي، أحد الرّؤساء المروانيين، ساعد يزيد بن المهلب على الهرب، ثمّ قدم مع مسلمة بن عبد الملك على حربه، وكان على ميسرته. يُنظر: ابن أعثم، الفتوح: ٢٥٢/٨.

أَيَّده في هروبه^(١).

توجّه يزيد بن المهلب إلى البصرة بمجرد هروبه من السّجن، ليخوض ثورته على أساس قبلي^(٢)، فهذه الوجهة هي المنطلق الوحيد أمام يزيد في التخلّص من متابعة يزيد بن عبد الملك للإجهاز عليه.

وكان يزيد بن عبد الملك يُدرك خطورة الموقف، وما قد يسبّبه ابن المهلب من قلب البصرة ضده بشكل أكثر عنفاً، خاصّةً وأنّ يزيد بن المهلب أراد من البصرة أن تكون له يوماً حصناً منيعاً من الأمويين؛ إذ رفض أن يتولّى منصب الخراج على العراق؛ خشيةً من تضارب مصالحه الشخصية، فهو من جهة لم يكن عازماً على أن يتّبع أسلوب الحجاج نفسه في تطويع الناس لدفع الخراج، ومن جهة أخرى، كان سليمان بن عبد الملك لا يقبل من يزيد بن المهلب ذلك الأسلوب المرن مع أهل جلدته، الأمر الذي جعله يبتعد عن أمر الخراج في العراق^(٣)؛ على أساس حفاظه على قربه من أهل العراق وتعاطفهم معه.

ثم إنَّ يزيد بن المهلب كان يرى في البصرة الصّبر أمام الجيش الشامي، فعندما ترك ابن الأشعث البصرة، كان يزيد يقول: «ويح عبد الرحمن بن محمّد بن الأشعث، هبّه غلب على البصرة، أغلب على الصّبر؟...»^(٤).

وكان يزيد بن عبد الملك يعرف أهميّة البصرة بالنسبة إلى ابن المهلب، فكتب إلى عامله هناك عدي بن أرطاة يُعلمه بنبأ هربه، وبأنّ عليه أن يتّخذ بعض التدابير

(١) الطبري، تاريخ: ٥ / ٣١٨.

(٢) حسين الساعدي، المعلّى بن خنيس: ص ٢٥.

(٣) ابن خلّكان، وفيات الأعيان: ٦ / ٢٩٦.

(٤) اليعقوبي، تاريخ: ٢ / ٢١٧.

تجاه مهربه، وأن يأخذ مَنْ كان بالبصرة من أهله؛ إذ كان عديّ بن أرطاة قد عمل على سجن آل المهلبّ بالبصرة^(١).

ويبدو أنّ هذه الخطوة من عمل يزيد بن عبد الملك على البصرة جاءت بالدرجة الأولى للحدّ من مشاكل آل المهلبّ، التي قد يثيرونها في البصرة عندما يصل أخوهم يزيد، ثم إنّ عديّاً بإجراءاته تلك كان يحاول التأثير على المجتمع البصريّ؛ إذ لم يكن سجن آل المهلبّ بالأمر الهينّ عليهم؛ باعتبارهم أسياد البصرة آنذاك؛ إذ يقول الشاعر بحقّهم:

مروانُ بيتُ الشامِ غيرُ مدافع وبيتُ العراقيّينَ آلُ المهلبِ^(٢).

لقد ارتبطت غاية عديّ بن أرطاة بمدى تأثر أهل البصرة بسجن أسيادهم؛ عسى أن يتمكّن من خلال قراره ذلك من إخافة الناس بجعل آل المهلبّ عبرة لمن اعتبر؛ لأنّ قضيّة القبض عليهم كانت تعني إبعادهم عن الحياة السّياسيّة في البصرة على المستوى الداخليّ، ليتفرّغ ابن أرطاة إلى الخطوة التالية، وهي أن يريد ابن المهلبّ قادم إلى البصرة، وأنّ قدومه يعني الشيء الكثير بالنسبة إلى بقاء عديّ ابن أرطاة والياً للأمويين على البصرة، فكانت خطوته احترازيّة ودفاعيّة في الوقت نفسه؛ خشيةً من ردود الأفعال داخل المدينة؛ إذ نجد عديّاً قد استعدّ لدخول يزيد ابن المهلبّ البصرة، وخندق عليها^(٣).

وكان عبد الملك بن المهلبّ^(٤) قد جاء بمبادرة صلح مع عديّ بن أرطاة، فقال

(١) الطبريّ، تاريخ: ٣٢٨/٥؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ٢٥ / ٤.

(٢) وكيع، أخبار القضاة: ١٦٩ / ٢.

(٣) البلاذريّ، أنساب الأشراف: ٣٠٢ / ٨؛ الطبريّ، تاريخ: ٣٢٩ / ٥.

(٤) عبد الملك بن المهلبّ بن أبي صفرة، الأزديّ: من شجعان العرب وأشرافهم، خرج على

له عبد الملك بن المهلب: خُذ ابني حميداً واحبسْه مكاني، وأنا أضمن لك أن أُرَدَّ يزيد عن البصرة حتى يخرج إلى فارس، ويطلب لنفسه الأمان، ولا يقربك، فأبى عليه^(١).

والظاهر من رفض عديٍّ لمبادرة الأمان الخشية من خروج آل المهلب إلى فارس؛ إذ كانت تلك الناحية ممَّا يصعب السيطرة عليه من النواحي بالمقارنة إلى البصرة، التي كان عديٌّ بن أرطاة يعتقد بأنَّها لا يمكن أن تخرج من قبضته بعد سجنه لآل المهلب، فلم يتعرَّض ابن أرطاة للضغط من قبل أهل البصرة في بداية الأمر، وقبل دخول يزيد بن المهلب البصرة، فكانت الأمور تصبُّ لمصلحته، فلا يمكنه المساومة على شيء لم يتيقَّن له، أو يقف على آثاره.

لذلك، فإنَّ ابن أرطاة طوَّق الأزْد بصفتهم قبيلة المهالبة بجند من بني تميم، وعليهم بدل بن نعيم^(٢)، من بني ثعلبة بن يربوع^(٣).

وكان دخول يزيد بن المهلب البصرة سنة (١٠١هـ / ٧١٩م)^(٤). وكان محمَّد بن المهلب^(٥) هو الوحيد الذي لم يُسجن من آل المهلب، فجمع الرِّجال والفتية من

بني مروان مع أخيه يزيد، وشهد الوقائع في العراق، فقتل أخوه، فتفرَّقت جموعهما، ثم قُتل مع أخيه المفضل في السَّند سنة ١٠٢هـ. يُنظر: الطبري، تاريخ: ٥ / ٢٧٣، ٢٨٧؛ الزُّركلي، الأعلام: ١٦٥ / ٤.

(١) الطبري، تاريخ: ٥ / ٣٢٩.

(٢) لم أعثَر على ترجمة له.

(٣) البلاذري، أنساب الأشراف: ٧ / ٢٩٨.

(٤) خليفة بن خياط، تاريخ: ص ٢٥١؛ المسعودي، مروج الذهب: ٤ / ٣٤.

(٥) محمَّد بن المهلب بن أبي صفرة: أحد رجال البيت المهلبِّي، الذي لم يسجنه عديٌّ بن أرطاة عندما سجن إخوته، وقد جمع كتيبة لاستقبال أخيه يزيد وتسهيل أمره، واشترك في الثورة ضدَّ

أهل بيته وناس من مواليه، ثم خرج حتى استقبل أخاه يزيد في كتيبة يهول من رآها^(١). فاضطرب أمر الوالي الأموي، فبعث من ساعته دعوة إلى زعماء أخماس أهل البصرة، وبعث على كل خمس رجالاً يتولّى أمره^(٢).

والظاهر من دعوة عدي بن أرطاة زعماء أخماس البصرة أنها كانت تحسباً لأيّ أمر طارئ قد يحدث في البصرة أثناء دخول يزيد بن المهلب، وكذلك أراد أن يضمن وقوف كبار أخماس أهل البصرة إلى جانبه، ما يعزز بقاء سيطرته على المدينة.

ويذكر أنّ يزيد بن المهلب أقبل لا يمرُّ بخيلٍ من خيل الأخماس ولا قبيلة من قبائلهم إلاّ تنحّوا له عن السبيل، حتى مضى فنزل داره^(٣).

ويذكر البلاذري أنّ دار يزيد بن المهلب كانت مطوّقة بالرجال، وصيّر عدي بن أرطاة أمرها لمنهال بن أبي عيينة^(٤)، ليعلمه بقدوم ابن المهلب^(٥).

والشيء الذي يبعث على التشكيك في المقام، هو سبب عدم قيام عدي بن أرطاة من ساعته ليأخذ ابن المهلب قبل أن يقوي أمره.

والظاهر أنّ قبائل أهل البصرة ورجالها قد أظهروا تعاطفهم مع ابن المهلب

الدولة الأموية إلى جانب أخيه، وقتل معه سنة ١٠٢هـ. يُنظر: الطبري، تاريخ: ٥ / ٢٣٠ - ٣٤٣.

(١) الطبري، تاريخ: ٥ / ٣٢٩؛ ويُنظر: د. نافع توفيق العبودي، آل المهلب بن أبي صفرة: ص ١١٠.

(٢) الطبري، تاريخ: ٥ / ٣٢٩. د. عمر كحّالة، معجم قبائل العرب: ١ / ٩٨.

(٣) الطبري، تاريخ: ٥ / ٣٣٠.

(٤) لم أعثر على ترجمة له.

(٥) أنساب الأشراف: ٨ / ٢٩٧.

حالة دخوله؛ إذ كانوا يقولون: «الأمير أبو خالد، قدمتم خير مقدم. ادخلوا بسلام»^(١).

لقد كانت هذه الخطوة بلا شكّ قد داهمت فكر ابن أرطاة بالنسبة إلى كَيْفِيَّة تعامله مع الأمر داخل البصرة، وكذا موقفه من يزيد بن المهلب ووضعه يده بيده^(٢)؛ إذ إنّ الأخير كان قد كتب كتاباً إلى الآخر يقرأه السَّلام^(٣)، وكذلك جاء فيه: «إني لم أخلع، ولم أرد شقاقاً، وقد كتبت إلى أمير المؤمنين أسأله أن يؤمّن، فخلّ سبيل إخوتي لنخرج عن مصر، فإن أتى كتابي أمير المؤمنين بما نحبّ، فذاك، وإلّا، كنت قد سلّمت منّا وسلّمنا منك»^(٤).

ويبدو أنّ يزيد بن المهلب في كتابه الأخير كان يرغب في كسب الوقت في البصرة؛ لكي يتمكّن من تحقيق ما يصبو إليه، والدليل على ذلك، هو أنّه بعث بعض رجاله إلى الشَّام ليأخذوا له الأمان من يزيد بن عبد الملك، فلم ينتظر ردّ الأخير، بل أظهر خلافه لعديّ بالبصرة^(٥).

لقد كانت هذه الخطوة من قبل يزيد بن المهلب رغبةً منه في تثبيت مركزه في البصرة، وفي جمع المزيد من الأتباع^(٦)، ولم يبق يزيد بن المهلب إلّا أياماً معدودة، حتّى نجده قد سيطر على البصرة، وحبس عاملها، وكان هذا النجاح راجعاً

(١) أنساب الأشراف: ٢٩٧ / ٨.

(٢) أنساب الأشراف: ٢٩٨ / ٨.

(٣) أنساب الأشراف: ٢٩٨ / ٨.

(٤) البلاذريّ، أنساب الأشراف: ٢٩٨ / ٨.

(٥) الطبريّ، تاريخ: ٣٣٠-٣٣١.

(٦) عدنان عليّ كرموش الفراجي، الخلافة الأمويّة: ص ١٤.

إلى سياسته التي اتبعتها مع أهل البصرة، فحقّق النجاح الكبير في حسم الأمور لمصلحته؛ إذ نجده قد بذل الأموال، وأخذ يقطع الذهب والفضة ويعطي الناس، فمالوا إليه، وفي المقابل، كان عديّ بن أرطأة يعطي الناس درهمين، ويقول: لا يحلّ لي أن أعطيكم من بيت المال درهماً إلّا بأمر يزيد بن عبد الملك، ولكن، تبلّغوا بهذا حتّى يأتي الأمر^(١)، وفي ذلك يقول الفرزدق:

أظنُّ رجالَ الدّرهَمينِ سوفُهمُ إلى الموتِ آجالُهم ومصارعُ
فأحزَمُهم مَنْ كان في قعرِ بيتِهِ وأيقنَ أنَّ الأمرَ لا شكَّ واقعٌ^(٢).

ويبدو من هذا أنّ حرمان أهل البصرة من حصّتهم في بيت المال^(٣) كان قد ولّد سخطاً في النفوس وموقفاً سلبياً من سلطة الشّام؛ إذ أصبحت أموالهم تذهب لتغطية نفقات جيش الشّام، الأمر الذي لم يكن أهل العراق ليرضوا به أبداً، بل كانوا يشكون دائماً من بقاء جند الشّام مفروضين عليهم، يأكلون من خراجهم، ويمتازون عنهم في العطاء^(٤).

فمسألة بقائهم إلى جانب عديّ بن أرطأة لم تعد أمراً مرغوباً به حسب واقع حالهم؛ لذلك، عندما أعلن يزيد بن المهلب المواجهة العسكرية ضدّ الوالي الأمويّ بالبصرة، نجد أنّ بني تميم الذين انضمّوا لابن أرطأة سرعان ما تركوا القتال في

(١) الطبريّ، تاريخ: ٥/ ٣٣٠؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ٤/ ١٢٤.

(٢) ديوان: ص ٣٠٨؛ ابن أعثم، الفتوح: ٨/ ٢١٩.

(٣) عندما دخل يزيد بن المهلب بيت مال البصرة، وجد فيه «عشرة آلاف ألف درهم».

البلاذريّ، أنساب الأشراف: ٨/ ٣١٠.

(٤) محمّد ضياء الدّين الرّيس، الخراج والنظم الماليّة في الإسلام: ص ٢٨٤.

المربد عندما حمل عليهم أحد موالي يزيد بن المهلب^(١).

ثم إنَّ يزيد بن المهلب كان همَّه الوحيد في تلك الأيام هو الوصول إلى قصر الإمارة، حيث كان أخوته مسجونين، وربَّما خاف عليهم من القتل قبل أن يصل إليهم، الأمر الذي كان إخوته قد أحسَّوا به، فجعلوا متاعاً على الباب يمنع الآخرين من فتحه والدخول عليهم^(٢).

بعدها تمكَّن يزيد بن المهلب من دخول القصر، وأمسك بعدي بن أرطاة، فجيء به وهو يتبسَّم، والظاهر من تبسُّمه أنَّه كان مطمئناً إلى جهة يزيد بن المهلب، وهذا ما نجده من خلال الحديث الذي دار بينهما^(٣)؛ لأنَّ قتل عدي على يدي يزيد كان يعني مطالبة سلطة الشَّام بدمه، وهذا يعني مقتل يزيد بن المهلب لا محالة، «أعلم أنَّ بقائي بقاؤك، وأنَّ هلاكِي مطلوب به مَن جرَّته يده»^(٤).

ولما تمكَّن يزيد بن المهلب من عدي وأتباعه، حبسهم في سجنه^(٥)، وفي اليوم التالي من سيطرته على البصرة، نادى بالناس، فحضرُوا المسجد، وحشدوا، فخطبهم، وقال: «يا أيُّها النَّاس، إنَّا غضبنا لكم، فانظروا لأنفسكم رجلاً يحكم فيكم بالعدل، ويقسم فيكم بالسَّويَّة، ويُقيم فيكم الكتاب والسُّنَّة، ويسير بسيرة الخلفاء الراشدين»^(٦). وكأنَّه بخطابه هذا كان يقصد نفسه دون سواه، فهو الذي

(١) البلاذري، أنساب الأشراف: ٨ / ٣٠٣.

(٢) الطبري، تاريخ: ٥ / ٣٣١.

(٣) الطبري، تاريخ: ٥ / ٣٣١.

(٤) الطبري، تاريخ: ٥ / ٣٣١.

(٥) المسعودي، التنبيه والاشراف: ص ٢٧٧.

(٦) البلاذري، أنساب الأشراف: ٨ / ٣٠٨؛ ويُنظر: الطبري، تاريخ: ٥ / ٣٣٦.

وزَّع الأموال بالسوية، وكسب ودَّ الناس وتقرَّبهم إليه، ونصرته على عدوِّه، ثمَّ إنَّه كان يرى في دخوله البصرة أنَّه الأمير^(١).

إنَّ خطابه ذلك كان يقصد من خلاله تمهيد طريقه لإمرة البصرة بأسلوب مرن لا يتعارض مع رغبات أهل البصرة، وكان الحسن البصريّ وحده الذي تعجَّب من أسلوب يزيد، الذي كان زمن سليمان بن عبد الملك يضرب الأعناق، وعندما استولى على البصرة، وعدهم بالسَّير بسيرة الخلفاء الراشدين، فكان الحسن البصريّ، يقول: «ألا وإنَّ من سيرة الخلفاء الراشدين أن يوضع في رجله قيد ويُردَّ إلى محبس عمر [بن عبد العزيز]»^(٢).

وعلى هذا الأساس، بذل الحسن البصريّ جهده في منع الناس من تأييد الثورة، ولكنَّه في الوقت نفسه لم يكن مؤيِّداً لبني مروان^(٣).

ويبدو أنَّ الحسن البصريّ لم يكن يرغب في إراقة المزيد من دماء الناس الأبرياء على حساب المصالح الشخصية والسياسية؛ إذ كان يقول: «كان يزيد بالأمس يضرب أعناق هؤلاء الذين ترون، ثمَّ يسرَّح إلى بني مروان يريد بهلاك هؤلاء رضاهم، فلمَّا غضب غضبة، نصب قصباً، ثمَّ وضع عليها خرقاً، ثمَّ قال: إنِّي قد خالفتهم، فخالفوهم»^(٤).

لقد كانت مسألة معارضة الحسن البصريّ بحدِّ ذاتها محاولة منه لكشف حقائق يزيد وما يقصد إليه من دعوة الناس إلى أن يقاتلوا معه أهل الشَّام دون مبرر!

(١) ابن قتيبة، عيون الأخبار: ص ٢٢٢.

(٢) البلاذريّ، أنساب الأشراف: ٨ / ٣٠٩.

(٣) عبد المجيد محمَّد صالح الكبيسيّ، عصر هشام بن عبد الملك: ص ١٣.

(٤) الطبري، تاريخ: ٥ / ٣٣٦.

لكنَّ يزيد بن المهلَّب لم يتأثَّر بما قاله الحسن البصريّ، حتّى أنّه لم يضغَط عليه من أجل الوقوف إلى جانبه، فاستوثق أهل البصرة ليزيد بن المهلَّب، الذي رغب في توسيع نفوذه وسيطرته على الأقاليم التابعة إداريّاً للبصرة، فبعث عمّاله إلى الأهواز وفارس وكرمان^(١) ومكران والسَّنَد^(٢)؛ وأرسل مدرك بن المهلَّب^(٣) إلى خراسان ليستوثق له من قومه الأزد هناك، وكان على خراسان حينئذٍ عبد الرحمن بن نعيم الأزديّ^(٤).

ويبدو أنّ الأخير كان يخشى على منصبه من الضَّياع، فلم يُبدِ أيّ استعداد لمساندة الثورة، فقد عمل على دسّ الرّجال من أجل التأثير على النّاس هناك، فلا يتبعوا يزيد بن المهلَّب، وبدأ ببني تميم؛ إذ دسّ إليهم «أنّ مدرك بن المهلَّب يريد يُلقِي بينكم الحرب، وأنتم في بلاد عافية وطاعة، وعلى جماعة»^(٥).

ولربّما حاولت بنو تميم منع الأزد من الخروج والالتقاء بمدرك بن المهلَّب، حيث كان انطلاق الأزد أثناء اللّيل حتّى التقوا بمدرك، فقالوا له: «إنّك أحبّ النّاس إلينا، وأعزّهم علينا، وقد خرج أخوك ونابذه، فإن يُظهره الله، فإنّنا ذلك لنا

(١) الطبريّ، تاريخ: ٥ / ٣٣٤.

(٢) ابن أعثم، الفتوح: ٨ / ٢٢١.

(٣) مدرك بن المهلَّب بن أبي صفرة، الأزديّ: قائد من الشّجعان، قال كعب بن معدن: لا يستحي الشّجاع أن يفرّ من مدرك. له أخبار في حروب أبيه مع الأزارقة، قُتل سنة ١٠٢هـ مع أخيه يزيد. يُنظر: البلاذريّ، فتوح البلدان: ٣ / ٥١٦؛ الزُّركليّ، الأعلام: ٧ / ١٩٧.

(٤) عبد الرحمن بن نعيم، العامريّ: أحد القادة الأمويّين وأمرائهم، ولّاه عمر بن عبد العزيز خراسان في أيّامه، وكانت مدّة ولايته على خراسان ستّة عشر شهراً، وذكره ابن حبان في ثقاته.

الطبريّ، تاريخ: ٥ / ٣١٤. ويُنظر: ابن عساكر، تاريخ دمشق: ٦٤ / ٢٢.

(٥) الطبريّ، تاريخ: ٥ / ٣٣٤؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ٤ / ١٢٧.

ونحن أسرع النَّاس إليكم أهل البيت، وأحقُّه بذلك، وإن تكن الأخرى، فوالله مالِك في أن يغشينا ما يعرِّنا فيه البلاء راحة، فعزم له رأيه على الانصراف»^(١).

كان أزد خراسان يخشون من فشل ثورة يزيد بن المهلب؛ لأنَّ ذلك كان يعني لهم الاستعداد للقتل والتشريد الذي سوف يتعرَّضون له من قبل سلطة الشَّام.

ويروى أنَّ يزيد بن المهلب ولَّى على الأبلَّة رجلاً يقال له: السَّميدع الكنديّ، من بني مالِك بن ربيعة، من ساكني عمان، يرى رأي الخوارج، وكان خرج وأصحاب يزيد وعديّ مصطفون، فاعتزل واعتزل معه ناس من القرَّاء، فكانت تلك الخطوة من يزيد لم توافق رغبات رؤساء أخماس البصرة من قيس وتميم، فهربوا إلى الكوفة^(٢).

ويرى أحد الباحثين أنَّ تميماً كعادتها تتجاذبها مختلف الأهواء، وتؤثِّر عليها تلك الالتزامات التي ارتبطت بها من قبل، خاصَّة مع حليفها قيس، ذلك الحلف الذي أوقف من قبل الأزد للسيطرة على البصرة، فمالت أغلب تميم إلى قيس مؤكِّدة ذلك الحلف من جديد^(٣).

ولكن، لا يوجد ما يؤكِّد قيام حلف بين هؤلاء في البصرة في فترة قيام ثورة يزيد بن المهلب بالذَّات؛ لأنَّ ذلك سوف يكون كافياً لإفشال هذه الثورة؛ فإنَّ قيام حلف يعني تجدد الصِّراع السِّياسي بين قبائل البصرة من جديد، ومن ثمَّ، سيؤدِّي إلى إرباك موقف قائد هذه الثورة يزيد بن المهلب، الذي اتَّبع جميع الطرق في سبيل التأثير على أهل البصرة ليكونوا صفّاً واحداً معه، الأمر الذي نلتمسه من

(١) الطبري، تاريخ: ٥ / ٣٣٥.

(٢) الطبري، تاريخ: ٥ / ٣٣٢.

(٣) د. ناجي حسن، القبائل العربيَّة في المشرق: ص ١٥٥.

خلال إخباره أهل البصرة: «أنَّه يدعوهم إلى كتاب الله وسنَّة نبيِّه مُحَمَّدٌ ﷺ، ويحثُّ على الجهاد، ويزعم أنَّ جهاد أهل الشَّام أعظم ثواباً من جهاد التُّرك والدَّيلم»^(١). ثمَّ نجده في موضع آخر يدعو أهل البصرة إلى الرِّضا من بني هاشم^(٢)، وهذا يعني أنَّ الدَّعوة لبني هاشم في البصرة كانت تلقى أذنًا صاغية لدى البصريِّين. فكأنَّ يزيد بن المهلَّب أراد التوفيق بين جميع الأطراف السَّياسِيَّة داخل البصرة، وأنَّ يوحد بينها تحت رايته.

ثمَّ إنَّه بعمله ذلك سوف يستند إلى الدِّين لإضفاء طابع شرعي على ثورته^(٣). ولا نستبعد أنَّ العباسيِّين قد استفادوا من عنوان تلك الدَّعوة في البصرة عندما أخذوا يعدُّون العدَّة لإسقاط الدَّولة الأمويَّة، عندما رفعوا شعار الرِّضا من آل مُحَمَّد؛ لذلك، كانت دعوة يزيد بن المهلَّب إلى كتاب الله وسنَّة نبيِّه في البصرة قد ولَّدت ردود أفعال من قبل بعض الصَّحابة^(٤).

ولم يكن يزيد بن عبد الملك ليترك يزيد بن المهلَّب ينفرد باستقلاله على منطقة المشرق فيقوى أمره، فجَهَّز جيشه للقضاء عليه، وأوكل مهمَّة القيادة إلى العباس

(١) الطبري، تاريخ: ٥ / ٣٣٥.

(٢) البلاذري، أنساب الأشراف: ٨ / ٣١٠.

(٣) نافع توفيق العبودي، آل المهلَّب بن أبي صفرة: ص ١١٦.

(٤) ذكر أحمد بن حنبل «أنَّ قوماً من أهل البصرة خرجوا للحجِّ ليالي خروج يزيد بن المهلَّب، فالتقوا بالعداء بن خالد الكلابيَّ [بن هوذة بن ربيعة بن عمرو بن عامر، بصريٍّ أسلم بعد فتح مكَّة وحنين]، فسألوه: أنت صحبتَ رسولَ الله ﷺ؟ قال: نعم، ثمَّ قال: ما فعل يزيد بن المهلَّب؟ قلنا [أهل البصرة]: هو هناك [يعني: في البصرة] يدعو إلى كتاب الله تبارك وتعالى، وإلى سنَّة النبي ﷺ، قال: فيما هو من ذاك؟! فقالوا: أيَّا نتَّبِع هؤلاء أم هؤلاء [يعني: أهل الشَّام أو يزيد]؟ قال: إنَّ تقعدوا، تُفلحوا وترشدوا، إنَّ تقعدوا، تفلحوا وترشدوا». المسند: ٥ / ٣٠.

ابن الوليد بن عبد الملك^(١) ومسلمة بن عبد الملك، وكان يزيد بن المهلب قد تهيأ للقاء جيش الشَّام؛ إذ خرج إلى واسط، وأرسل أخاه عبد الملك بن المهلب إلى الكوفة، وكان بصحبته أهل البصرة، فاستقبلهم العباس بن الوليد بسورا^(٢)، فوقع القتال بين الطرفين، وكان النصر حليف عبد الملك بن المهلب، فكشفوا أهل الشَّام وفرَّ قوهم.

لكنَّ ذلك لم يكن كافياً لهزيمتهم، فنادى أهل الشَّام: لا بأس، إنَّ لنا في أوَّل القتال جولة، فالتحم الطرفان مرَّة أخرى أسفرت عن هزيمة أتباع عبد الملك بن المهلب، الذي التحق بأخيه يزيد الذي عسكر بالعقر^(٣).

أمَّا بالنسبة إلى البصرة، فقد استخلف عليها يزيد بن المهلب أخاه مروان، فعمل على حثِّ النَّاس على حرب أهل الشَّام، وسرَّح النَّاس إلى أخيه يزيد، لكنَّ الحسن البصريَّ كان يثبُّط النَّاس عنه؛ إذ كان يقول في تلك الأيام: «أيُّها النَّاس، إلزموا رجالكم، وكفُّوا أيديكم، واتَّقوا الله مولاكم، ولا يقتل بعضُكم بعضاً على دنيا زائلة، وطمع فيها يسير، ليس لأهلها بباقي، وليس الله عنها فيما اكتسبوا... فمَن كان منكم خفياً، فليلزم الحقَّ، وليحبس نفسه عمَّا يتنازع النَّاس فيه من

(١) العباس بن الوليد بن عبد الملك بن مروان: كان من الأبطال المذكورين بالسَّخاء، وكان يقال له: (فارس بني مروان)، استعمله أبوه على حمص، وولي المغازي، وفتح عدَّة حصون، ولكنه كان ينال من عمر بن عبد العزيز. مات في سجن مروان بن محمَّد في حدود سنة ١٣٠هـ. الصَّفدي، الوافي بالوفيات: ١٦ / ٣٦٣.

(٢) سورا: موضع بالعراق من أرض بابل، وهي مدينة السريانيِّين. ياقوت الحموي، معجم البلدان: ٣ / ٢٧٨.

(٣) العقر: وهو موضع من أرض بابل، يقع بين واسط وبغداد، وفيه قتل يزيد بن المهلب. البكري، معجم ما استعجم: ٣ / ٩٥٠.

الدُّنيا...»^(١).

ولما بلغ مروان بن المهلب أمر الحسن البصري في تحريض الناس ضده، قام بالناس يأمرهم بالجِدِّ والاحتشام، ثم قال: «بلغني أنَّ هذا الشَّيخ الصَّالِّ المرائي [ولم يسمِّه] يثبِّط النَّاسَ، والله، لو أنَّ جاره نزع من خصِّ داره قصبَةً، لظَلَّ يعرف أنفه! وأيم الله، ليكفَّنَّ عن ذكرنا وعن جمعه إليه سُقاط الأبلَّةِ وعلوج^(٢) فرات البصرة، أو لأنحينَّ عليه مبرداً خشناً»^(٣).

كان مروان بن المهلب يتوعَّد الحسن البصري بالكفِّ عن تحريض الناس ضدَّ آل المهلب، وإلَّا، فسوف يعرِّض نفسه إلى أشدَّ أنواع العذاب! لكنَّ أتباع الحسن البصريَّ من أهل البصرة لم يكونوا ليرضوا بالتهديد والوعيد من قبل مروان بن المهلب، بل قرَّروا الوقوف ضده ومقاتلته إذا دعت الضرورة، لكنَّ الحسن البصريَّ لم يكن يسمح لأتباعه بقتال مروان بن المهلب، «أمركم ألاَّ يقتل بعضُكم بعضاً مع غيري، وأدعوكم إلى أن يقتل بعضُكم بعضاً دوني»^(٤)!، فلم يجوز لهم ما رغبوا إليه.

وعليه، فإنَّ مروان بن المهلب قد حمل على أتباع الحسن البصريَّ وفرَّقهم، لكنَّ الحسن بقي ملتزماً ما بدأ به من تثبيط النَّاسِ، حتَّى كفَّ عنه مروانُ بن المهلب^(٥).

(١) الطبري، تاريخ: ٥ / ٣٤٠.

(٢) علوج: العِلْجُ: الرَّجُل من كَفَّار العجم، والجمع علوج. الجوهرى، الصحاح: ١ / ٣٣٠.

(٣) الطبري، تاريخ: ٥ / ٣٤١؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ٤ / ١٣١؛ ويُنظر: ابن أعثم، الفتوح: ٨ / ٢٢٥.

(٤) الطبري، تاريخ: ٥ / ٣٤١.

(٥) الطبري، تاريخ: ٥ / ٣٤١؛ ويُنظر: نافع توفيق العبودي، آل المهلب بن أبي صفرة:

والظاهر من هذه الأحداث أنّ البصرة انقسمت على أهلها حينها، وأنّ كلّ قسم انضمّ إلى طرفٍ معيّن، فتكوّنت الأحزاب السّياسيّة، كلّ يعمل حسب شاكلته، وكان من شأن هذه الأحداث أن تضعف موقف آل المهلب بالبصرة، ومن ثمّ، يُحرمون من الدّعم العسكريّ الذي يحتاجون إليه حالة وقوع القتال ضدّ الجيش الشاميّ.

ويبدو أنّ مروان بن المهلب كان يعمل على التقرب من الحسن البصريّ؛ إذ استشاره بأمر أحد الأشخاص المرتدّين، فكان ردّ الحسن بتلك القضية أن قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ بَدَّلَ دِينَهُ فَاقْتُلُوهُ»^(١)، فقتل الشّخص المرتدّ^(٢).

والظاهر أنّ رجال الدّين كانوا يتمتّعون بثقل كبير داخل المجتمع الإسلاميّ آنذاك، وأنّ كلمتهم كانت لا تزال مسموعة، وأنّ بإمكانهم أن يحرّضوا جيشاً بالكامل ضدّ قائده، والدّليل على هذا ما حدث بين الحسن البصريّ وآل المهلب بالبصرة.

بقي يزيد بن المهلب يقاتل جيش الشّام بمنطقة العقر ثمانية أيّام^(٣)، فلم يرغب مسلمة بن عبد الملك بإطالة المدّة، فعمل على استفزاز أتباع ابن المهلب وزحزحتهم عن قائدهم، فأحرق الجسر الذي عُقد للجيش، فلمّا رأى أتباع ابن المهلب الدّخان، هربوا ولم يثبت أحد، فقال يزيد بن المهلب: «قَبَّحَهُمُ اللَّهُ، بَقُّ دُخْنٌ عَلَيْهِ فَطَارُ»^(٤).

(١) أحمد بن حنبل، المسند: ١/٢١٧؛ البخاريّ، الصّحيح: ٤/٢١؛ النسائيّ، السنن: ١٠٤/٧.

(٢) البلاذريّ، أنساب الأشراف: ٨/٣١٧.

(٣) الطبريّ، تاريخ: ٥/٣٤١.

(٤) الطبريّ، تاريخ: ٥/٣٤٢.

وبعدما لاحت الهزيمة ليزيد بن المهلب، أُشير عليه بالانصراف إلى واسط؛
فإنَّها حصن يتحصَّن به حتَّى تأتيه مدد أهل البصرة وعمان والبحرين في السفن،
فلم يرغب يزيد أن يترك المعركة، وتمثَّل بقول الشاعر:

أبالموت خَشَّني عبادٌ وإنَّما رأيتُ منايا الناس يَشقى ذليلُها
فما ميتةٌ إن مُتُّها غيرَ عاجزٍ بعارٍ إذا ما غالت^(١) النفسُ عَوَّها^(٢).

بقي يزيد بن المهلب في جماعة قليلة تقاتل معه، فقتلوا جميعاً، وكان ذلك سنة
(١٠٢هـ / ٧٢٠م)^(٣). وكان إخفاق ثورته سبباً في تعريض أسرة المهالبة إلى المتاعب
الكثيرة، حتَّى أنَّهم لم يسلموا على أرواحهم، فاجتمعوا بالبصرة، وأعدَّوا السفن
البحريَّة، وتجهَّزوا بكلِّ جهاز، وخرجوا إلى قنابيل^(٤) ليتحصَّنوا بها، وكان يزيد
ابن المهلب قد ولى عليها وداع بن حميد الأزدي^(٥)، وطلب منه أن يأمن المهالبة من
بعده^(٦).

ويبدو أنَّ أسباب إخفاق يزيد بن المهلب في ثورته تعود بصورة رئيسة إلى
عدم امتلاكه الوقت الكافي لبدء تحرُّكه وإظهار أمره^(٧)، ثمَّ موقف رجال الدِّين

(١) غالت: أي: سكرت وذهب عقلها. ابن منظور، لسان العرب: ١١ / ٥٠٩.

(٢) الطبري، تاريخ: ٥ / ٣٤٣؛ ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة: ٣ / ٢٥٦.

(٣) المسعودي، التنبيه والاشراف: ص ٢٧٨.

(٤) قنابيل: مدينة بالسند. ياقوت الحموي، معجم البلدان: ٤ / ٤٠٢.

(٥) وداع بن حميد الأزدي: أحد رجال بني الأزد، شارك في حروب يزيد بن المهلب زمن
سليمان بن عبد الملك، فوَّيَّ على قنابيل، وقد منع آل المهلب من دخولها، عندما لجأوا إليه. ابن
الأثير، الكامل في التاريخ: ٤ / ١٣٣.

(٦) الطبري، تاريخ: ٥ / ٣٤٦.

(٧) يُنظر: نافع توفيق العبودي، آل المهلب بن أبي صفرة: ص ١٢٧.

ضدّه، وعملهم على تشييط الناس وتفريقهم عنه، ما أدّى إلى قلة أنصاره، فانعدمت إمدادات أهل البصرة إليه، بل تركوه وحده في ساحة القتال وتفرّقوا عنه، ما أضعف موقفه.

وكذلك كان خروج يزيد بن المهلب من البصرة إلى الكوفة يُعدّ خطأ عسكرياً؛ فقد فشل تقديره العسكريّ باحتلال الكوفة، فاضطرّ إلى النزول في العقر دون تحصينات، ما سهّل مهمّة الجيش الشاميّ في القضاء عليه بسهولة، وكان من الأفضل له البقاء في البصرة أو في واسط، واتّخاذ موقف دفاعيّ ريثما تصله الإمدادات من المناطق التي خضعت لنفوذه^(١).

وكان من نتائج فشل ثورة آل المهلب زيادة الحقد على الخلافة الأموية أكثر من ذي قبل؛ لأنّ الذين أفلتوا من بطش الأمويّين من المهالبة عملوا على تحريض عشائريهم وأبناء جلدتهم؛ لأنّ الخلافة الأموية لم تقدّر الجهد الذي بذله آل المهلب في إعلاء شأن الأمويّين، خاصّةً ما كان من المهلب بن أبي صفرة، الذي قاد الجبهة العسكريّة ضدّ مناوئي الأمويّين لفترة طويلة، فكانت الحكومة الأموية وقفت موقف الضدّ من آل المهلب في أيّام يزيد بن عبد الملك^(٢)، ووقف الناس بصورة عامّة موقفاً عدائياً من الأمويّين، حتّى كانوا يقولون: «ضحّى بنو حرب بالدين يوم كربلاء، وضحّى بنو مروان بالمرءة يوم العقر»^(٣).

أمّا أهل البصرة، فقد تأثّروا لمقتل يزيد بن المهلب، وأصبحوا يكتنون الكره

(١) يُنظر: نافع توفيق العبودي، آل المهلب بن أبي صفرة: ص ١٢٩.

(٢) عدنان عليّ كرموش الفراجي، الخلافة الأموية: ص ٣٤.

(٣) البكري، معجم ما استعجم: ٣/ ٩٥٠؛ ابن خلكان، وفيات الأعيان: ٤/ ١٠٩؛ الصفديّ،

الوافي بالوفيات: ٢٤ / ٢٤٨.

للأُمويِّين، حتَّى قيل: إن عبد الرَّحمن بن سليم الكلبي^(١) كان والياً لمسلمة بن عبد الملك على البصرة^(٢)، فأراد استعراض الذين وقفوا إلى جانب آل المهلب، فقال له صاحب شرطتها: «والله، لو رموك أهل البصرة وأصحابك بالحجارة، لتخوّفت أن يقتلونا»^(٣)، وهذا يدلّ على مدى توتّر الأحداث السَّياسِيَّة في البصرة، وكثرة النَّاس الذين تعاطفوا مع آل المهلب.

(١) عبد الرَّحمن بن سليم، الكلبيّ: أبو العلاء، أمير السَّاحل، وولي سجستان للحجّاج بن يوسف الثَّقفيّ، وكان أحد القادة الأُمويِّين، اشترك في جيش الشَّام ضدَّ يزيد بن المهلب، وفي سنة ١٠٤هـ، غزى الصَّائغة اليمنى بأمر يزيد بن عبد الملك، ثمَّ أصبح أمير ساحل دمشق، فقاتل الروم هناك. ابن عساكر، تاريخ دمشق: ٣٤ / ٤٠١.

(٢) يُنظر ملحق رقم (١) ص ٤٦٢.

(٣) الطبريّ، تاريخ: ٥ / ٣٥٠.

الفصل الخامس

البصرة والخوارج

المبحث الأول: خوارج البصرة زمن الإمام
عليه السلام

المبحث الثاني: خوارج البصرة زمن الدولة
الأموية

المبحث الثالث: أهل البصرة والأزارقة

المبحثُ الأولُ

خوارجُ البصرة زمن الإمام عليٍّ عليه السلام

المطلب الأول: التعريف بالخوارج

أولاً: الخوارج لغة

اشتقَّ اسم (الخوارج) من الفعل (خَرَجَ)، وجاء في المعاجم اللغويّة: أنَّ (الخارجيَّ) هو: الذي يخرج بنفسه من غير أن يكون له قديم^(١)، كما جاء في قول الشاعر:

أبا مروانَ لستَ بخارجيٍّ وليسَ قديمٌ مجدك بانتِحالٍ^(٢).

وقيل:

خُذُوا حِذْرَكُمْ مِنْ خَارِجِيٍّ عِذارِهِ فَقَدْ جَاءَ زَحْفًا فِي كِتَابِهِ الْخَضْرَا^(٣).
فأهل اللغة جعلوا (الخوارج) و(الخارجيّة)، طائفة منهم لزمهم هذا الاسم لخروجهم عن النَّاس، ولهم مقالة على حدة.

ثانياً: الخوارج اصطلاحاً

(١) أبو الحسين زكريا، معجم مقاييس اللغة: ٢ / ١٧٥؛ ابن منظور، لسان العرب: ٢ / ٢٥٠؛

الفيروز آبادي، القاموس المحيط: ١ / ١١٥؛ الزبيدي، تاج العروس: ٣ / ٣٤٥.

(٢) ابن منظور، لسان العرب: ٢ / ٢٥٠.

(٣) الزبيدي، تاج العروس: ٣ / ٣٤٥.

وأما اصطلاحاً، فإنَّ (الخوارج) إنّما سُمِّيت (خوارج)؛ لخروجهم على أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب عليه السلام ومحاربتهم إيَّاه^(١). فكُونُوا حزباً صريحاً بهم^(٢) يعتمد على بعض الآراء والمقالات المخالفة لعموم المسلمين. وكذا يزعم الخوارج أنّهم أحقّ من غيرهم بتطبيق تعاليم الدِّين الإسلاميّ، ومَن خالفهم أعلنوا الحرب ضده^(٣).

المطلب الثاني: عقائد الخوارج ومقالاتهم

وأما بالنسبة إلى مقالات الخوارج ومعتقداتهم وآرائهم، فمنها: القول بالبراءة من الإمام عليّ عليه السلام، وعثمان، إلّا ما كان في سني خلافته السّت الأولى، وتكفيرهما، وإجماعهم على إمام يختارونه من أوفياء الناس، ممّن كان قائماً بالكتاب والسنة. والإمام عندهم يثبت بعقد رجلين، ويقولون: إنّنا نحتكم بما حكم به القرآن، والخروج على كلّ إمام جائر، والتكفير بارتكاب الكبائر، فهذا أصلهم الذي قد أجمعوا عليه.

ولهم أئمةٌ نُسبوا إليهم ولقبوا بهم، وهم يسمّون كلّ إمام لهم أمير المؤمنين^(٤). وقد احتجّ الخوارج على بعض الأئمة والحكّام المعاصرين لهم، ومَن خالفهم، كفروهم، واعتبروه عدوّ الإسلام وفق نظرهم التي اكتسبوها من احتجاجاتهم تلك. ومن ثمّ، كوّن الخوارج تيّاراً فكريّاً سياسياً مناهضاً للحكّام؛ فقد اعتمدوا في خروجهم على المحاججة ومخاطبة الآخرين، لكنّهم تأثروا بإصدار أحكامهم

(١) نشوان الحميريّ، الحور العين: ص ٢٠٠.

(٢) فلهاوزن، الخوارج والشيعة: ص ٣٢.

(٣) أبو حاتم الرازيّ، الزّينة: ص ٢٨٢.

(٤) أبو حاتم الرازيّ، الزّينة: ص ٢٨٢.

على الخصوم دون أن يحكّموا عقولهم ويجعلوها في مسارها الصحيح، فوقعوا في أخطائهم التي تمسّكوا بها في بعض المواقف، فوجدوها صحيحة حسب زعمهم، واعتبروا مخالفيتهم مخطئين في أحكامهم وإن كانوا على حقّ. وقد ظهر الخوارج على مسرح الأحداث السياسيّة في فترات مختلفة ومتفاوتة، لكنّ ظهورهم العسكريّ بشكل صريح كان في معركة صفين^(١).

المطلب الثالث: الأسماء التي أُطلقت على الخوارج

أطلق على الخوارج طائفة من الأسماء، مثل:

أولاً: الحرورية

سُمّوا بذلك نسبة إلى حرّوراء، وهي قرية بظاهر الكوفة، انحاز إليها الخوارج عندما اختلفوا مع الإمام عليّ^(عليه السلام)، ولم يدخلوا معه إلى الكوفة، فسُمّوا بذلك^(٢). ويروى في سبب تسميتهم الحرورية أنّ الإمام عليّاً^(عليه السلام) لما ناظرهم بعد مناظرة عبد الله بن عباس، رجع معه ألفان من حرّوراء، فقال لهم الإمام: «ما نسّميتكم؟ ثمّ قال: أنتم الحرورية؛ لاجتماعكم بحرّوراء»^(٣).

ثانياً: المارقة

(١) الشهرستاني، الملل والنحل: ١ / ١١٤؛ ويُنظر: أحمد الشتاوي، دائرة المعارف الإسلاميّة: ٤٧٠ / ٨.

(٢) اليعقوبيّ، تاريخ: ٢ / ١٣٢؛ المسعوديّ، التنبيه والاشراف: ص ٣٣١؛ مؤلّف مجهول، أخبار الدولة العبّاسيّة: ص ٤١؛ أبو حاتم الرازيّ، الزيّنة: ص ٢٧٩؛ ويُنظر: الذهبيّ، تاريخ الإسلام: ٣ / ٥٨٨؛ البراقيّ، تاريخ الكوفة: ص ١٨٥.

(٣) المبرّد، الكامل في اللّغة: ص ٥٧٩؛ أبو حاتم الرازيّ، الزيّنة: ص ٢٧٩.

وُسَمِّيتِ الْخَوَارِجُ بِالْمَارِقَةِ أَيْضاً، فَقَدْ اشْتُقَّ هَذَا الْاسْمُ مِنْ حَدِيثِ الرَّسُولِ الْأَكْرَمِ ﷺ إِلَى الْإِمَامِ عَلِيِّ ع: «يَمْرُقُونَ مِنَ الدِّينِ كَمَا يَمْرُقُ السَّهْمُ مِنَ الرَّمِيَّةِ، فَقَاتِلْهُمْ؛ فَإِنَّ فِي قِتَالِهِمْ فَرْحاً لِأَهْلِ الْأَرْضِ، وَعَذَاباً مُعْجَلاً عَلَيْهِمْ، وَذُخْراً لَكَ عِنْدَ اللَّهِ ﷻ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»^(١).

ثالثاً: الشَّرَاةُ

وَكَذَا أُطْلِقَ عَلَيْهِمْ اسْمُ (الشَّرَاةِ)، وَهُمْ الْخَوَارِجُ الَّذِينَ خَرَجُوا عَنْ طَاعَةِ الْإِمَامِ. وَإِنَّمَا لَزِمَهُمْ هَذَا اللَّقْبُ؛ لِأَنَّهُمْ زَعَمُوا أَنَّهُمْ شَرَوْا دَنِيَاهُمْ بِالْآخِرَةِ، أَوْ شَرَوْا أَنْفُسَهُمْ بِالْجَنَّةِ؛ لِأَنَّهُمْ فَارَقُوا أَثَمَةَ الْجُورِ^(٢)، مُسْتَنْدِينَ فِي هَذِهِ التَّسْمِيَةِ إِلَى قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللَّهِ﴾^(٣).

رابعاً: الْمُحَكَّمَةُ

وَكَذَلِكَ عُرِفَتِ الْخَوَارِجُ بِالْمُحَكَّمَةِ مِنْ خِلَالِ الشُّعَارِ الَّذِي التَّزَمُوا بِهِ أَثْنَاءَ احْتِجَاجِهِمْ عَلَى الْإِمَامِ عَلِيِّ ع بَعْدَ قَبُولِ التَّحْكِيمِ، فَنَادَوْا: «لَا حُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ»^(٤).

(١) النَّسَائِيُّ، السَّنَنِ: ٧ / ١١٩؛ الصَّدُوقُ، الْخُصَالُ: ص ٥٧٤؛ وَيُنْظَرُ: أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ، الْمُسْنَدُ:

١ / ١٣١؛ ابْنُ عَبْدِ الْبَرِّ، التَّمْهِيدُ: ٢٣ / ٣٣٤.

(٢) ابْنُ مَنْظُورٍ، لِسَانُ الْعَرَبِ: ١٤ / ٤٢٩؛ الطَّرِيحِيُّ، مَجْمَعُ الْبَحْرَيْنِ: ٢ / ٥٠٨؛ الزَّبِيدِيُّ،

تَاجُ الْعُرُوسِ: ١٩ / ٥٦٩.

(٣) سُورَةُ الْبَقَرَةِ، آيَةُ (٢٠٧).

(٤) الشَّافِعِيُّ، كِتَابُ الْأَمِّ: ٤ / ٢٢٩؛ الطَّبْرِيُّ، تَارِيخُ: ٤ / ٥٣؛ الْقَاضِي نَعْمَانُ، شَرْحُ الْأَخْبَارِ:

٢ / ٩؛ نَشْوَانُ الْحَمِيرِيِّ، الْخُورُ الْعَيْنِ: ص ٢٠١؛ ابْنُ شَهْرٍ أَشُوبٍ، مَنَاقِبُ آلِ أَبِي طَالِبٍ:

٢ / ٣٦٩؛ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ قَدَامَةَ، الْمَغْنِي: ١٠ / ٥٩؛ أَحْمَدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ الطَّبْرِيُّ، ذَخَائِرُ الْعُقَبِيِّ:

فلما سمع الإمام أمير المؤمنين عليه السلام ذلك، قال: «كلمة حق أُريد بها باطل»^(١).
وقد اختلف في أول شخص نادى بهذا النداء؛ فقيل: إنَّ أولَ مَنْ حَكَّمَ عروة
ابن حدير^(٢).

وقيل: بل أولَ مَنْ حَكَّمَ رجل يقال له: سعيد من بني محارب بن حفصة بن
قيس بن عيلان بن مضر^(٣).

وقيل: أولَ مَنْ حَكَّمَ وَلَفَظَ بالحكومة ولم يشهد بها، رجل من بني سعد بن زيد
مناة بن تميم بن مرة من بني صريم، يُقال له: الحجاج بن عبد الله، ويُعرف بالبرك،
وهو الذي ضرب معاوية على أليته؛ فإنه لما سمع بذكر الحكمين، قال: أَيْحَكِّمُ فِي
دين الله؟! لا حُكَمَ إِلَّا لله! فسمعه سامعٌ، فقال: طعن والله فأنفذ^(٤).

وقيل: إنَّ أولَ مَنْ حَكَّمَ رجلان من عنزة اسمهما: جعد ومعدان، وكان مع
الإمام علي عليه السلام منهم أربعة آلاف رجل، وقد مرَّ برأياتهم الأشعث بن قيس
الكندي^(٥) وهو يقرأ كتاب التحكيم، فخرج جعد ومعدان، فقالا: لا حُكَمَ إِلَّا

(١) مسلم، الصحيح: ٣ / ١١٦؛ الطبري، تاريخ: ٤ / ٥٣، ابن البطريق، العمدة: ص ٤٦٣.

(٢) عروة بن حدير، أو عروة بن أدية: أدية جدّة له في الجاهليّة، وهو عروة بن حدير، أحد بني
ربيعه حنظلة، وكان عروة قد نجا من حرب النهروان، فلم يزل باقياً مدّة من حكم معاوية،
ثمَّ أتى به زياداً ومعه مولى له، فسأله عن أبي بكر وعمر، فأثنى عليهما خيراً، وسأله عن عثمان
والإمام علي، فأثنى على عثمان في أول خلافته، وكفره في آخرها، وكذلك كفر الإمام عليّاً
بعد التحكيم، فقتله ابن زياد سنة ٥٨هـ. المبرّد، الكامل في اللّغة: ص ٥٧٨؛ ويُنظر: الزُّركلي،
الأعلام: ٤ / ٢٢٦؛ محمّد تقي التستري، قاموس الرّجال: ١٠ / ٢٩.

(٣) المبرّد، الكامل في اللّغة: ص ٥٧٨؛ أبو حاتم الرازي، الرّيئة: ص ٢٨٠.

(٤) المبرّد، الكامل في اللّغة: ص ٥٨٣.

(٥) الأشعث بن قيس الكندي: ابن معد يكرب، أمير كندة في الجاهليّة والإسلام، أسلم ثمَّ

لله، ثمَّ شدَّ على أهل الشَّام، فقاتلا حتَّى قُتلا^(١).

وتزعم الخوارج أنَّ أوَّل مَنْ حَكَّم هو عبد الله بن وهب الراسبيّ زعيمُ الخوارج^(٢).

والظاهر من اختلاف الروايات بشأن أوَّل مَنْ حَكَّم أنَّ التحكيم جرى أكثر من مرَّة في عدَّة مناسبات؛ فالبعض نادى بالتحكيم عند رفع المصاحف خديعة أهل الشَّام والبعض الآخر نادى بحكم الله عندما قرأ الأشعثُ بن قيس كتاب التحكيم، الذي انبثق عن اجتماع الحكَّمين.

وبهذا، يكون هؤلاء الخوارج هم أصل أقدم الفرق الإسلاميَّة^(٣) التي ظهرت فيما بعد، والتزمت ببعض الأفكار، التي سرعان ما تطوَّرت إلى أنَّ أصبحت مطالب سياسيَّة، أخذت تشكِّل اتجاهاً فكرياً سياسياً في فهم الدِّين، فتطرَّفوا بآرائهم، وابتعدوا عن المسار الصَّحيح الذي يلتزمه الدِّين الإسلاميّ في التعامل الاجتماعيّ.

ارتدَّ في عهد أبي بكر، أُسر وحُمل إلى أبي بكر، فعفا عنه وزوَّجَه أختَه أمَّ فروه، وشهد الوقائع. أُصيبَ عينه في معركة اليرموك. توفِّي في الكوفة سنة ٤٠هـ. خليفة بن خيَّاط، طبقات: ص ١٣١؛ الذهبي، تاريخ الإسلام: ٦١٠ / ٣.

(١) الدِّينوريّ، الأخبار الطَّوال: ص ١٩٦؛ ويُنظر: نصر بن مزاحم، وقعة صفِّين: ص ٥١٢؛ ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة: ٢٣٧ / ٢.

(٢) ابن كثير، البداية والنهاية: ٣٠٨ / ٧.

(٣) للحديث عن الفرق الإسلاميَّة، راجع: أبو حاتم الرازيّ، الزُّينة: ص ٢٥٩ وما بعدها؛ الشهرستانيّ، الملل والنحل: ١ / ٤١ وما بعدها؛ نشوان الحميريّ، الحور العين: ص ١٥٤، وما بعدها؛ الإيجي، المواقف: ٦٥٢ / ٣، وما بعدها.

البصرة وتطور تاريخها السياسي

أما البصرة وتطور تاريخها السياسي، فقد بدأ مع عملية الفتح الإسلامي، ذلك الدور الكبير الذي حققته في إخضاع جهات المشرق لسيطرة الإسلام والمسلمين، فكانت القاعدة الأساسية التي تركز عليها الدولة في الجانب العسكري، الذي يُعدّ الشريان النابض لمختلف الشعوب، وعلى مرّ السنين.

وقد أثر هذا التطور على الفكر السياسي لأهل البصرة، الذين كانوا موافقين لمنهج الخلفاء (الراشدين)، حتّى أنّهم كانوا يوافقون عثمان بن عفّان في سني حكومته السّت الأولى، حتّى ظهر منه التطرف والجنوح نحو النزعة الأموية، والاستئثار بالأموال، فأبغضوه^(١)، فوجدوا أنفسهم مسؤولين عن تغيير واقع المسلمين، الذي بدأ ينهار بأفعال عثمان، عندما قرّب أقرباءه، واتّخذ الضياع والأموال، وعاقب الصحابة^(٢)، وبخس حقّ سائر المسلمين، فتحرّك بعض كبار أهل البصرة بالاتفاق مع أهل الكوفة والفسطاط (مصر)، بوصفهم أهل الأمصار الثلاثة المسؤولة عن استقرار الأوضاع السياسية داخل الدولة، بفعل أهميّتها حينئذٍ؛ بصفة أنّ هذه الأمصار الثلاثة تمثّل القوة العسكرية الضاربة للدولة.

ثمّ نجدهم قد تمكّنوا من تغيير واقعهم بمقتل عثمان بن عفّان، فكانت تلك الخطوة التي أقبل عليها أهل الأمصار الثلاثة من إجراء القرارات التي اتّفقوا عليها.

لكنّ تلك الأحداث لم تكن بمصلحة أهل البصرة، الذين خرجوا ضدّ سلطة الحاكم المقتول؛ إذ اتخذ موقفهم ذلك ذريعة من أجل بذر بذرة الفتنة بين أهل الدين

(١) جعفر السبحاني، رسائل ومقالات: ص ٢٨٨.

(٢) اليعقوبي، تاريخ: ١٢١/٢.

الإسلاميَّ، وإسقاط خلافة الإمام عليٍّ عليه السلام. فتعرّضت إلى حركة جديدة اتخذت من دم الحاكم المقتول شعاراً لتمزيق وحدة المسلمين، وإشاعة روح الاختلاف والتناحر بين أبناء الجلدة الواحدة.

وقد بدا هذا الأمر واضحاً بصورة أجلى عندما وقع الانقسام بين أهل البصرة، فصاروا بين مؤيّد ومعارض للحركة الجديدة، التي خرجت ضدّ سلطة الإمام عليٍّ عليه السلام لاعتبارات شخصيّة ومصالح اقتصاديّة، عندها وقع الاختلاف بين المسلمين عموماً وأهل البصرة خصوصاً، بعدما تعرّضوا للقهر والحرمان، حتّى قدم أمير المؤمنين عليٍّ عليه السلام منقذاً للبعض ومؤدّباً للبعض الآخر.

لقد كانت هذه الأحداث السِّياسِيَّة ذات أثر كبير في جعل البصرة هدفاً لكلّ من يرغب بإعلان حركةٍ معارضةٍ للدولة الإسلاميّة في عصورها الأولى، لا سيّما العصر الأمويّ.

ويبدو لنا أنّ أصحاب الجمل هم من رسم الطريق لكلّ من يرغب في إعلان العصيان، فالطريق أن يتوجّه إلى البصرة بحكم موقعها الجغرافيّ أولاً، وأهمّيّتها العسكريّة ثانياً، وتنوّع التشكيلة الفكريّة لأهلها ثالثاً.

ظهور الخوارج الصريح على مسرح الأحداث السِّياسِيَّة

أمّا ظهور الخوارج على مسرح الأحداث السِّياسِيَّة بصورة معلنة أمام الجميع، فقد كان أيام الإمام عليٍّ عليه السلام في معركة صفّين؛ إذ وقع القتال بين معسكر أمير المؤمنين عليه السلام وعامّتهم من أهل العراق، ومعسكر الشّام بقيادة معاوية بن أبي سفيان، وكان أصحاب الإمام عليٍّ عليه السلام قد حقّقوا الانتصار على أصحاب معاوية،

حتى أن معاوية نفسه دعا بفرسه لينجو عليه^(١)، لكن عمرو بن العاص جاء بحيلة رفع المصاحف والدعوة إلى تحكيم القرآن بين الطرفين، فتمكّن بحيلته تلك من إنقاذ جيش الشام وقائده، وقلب المعطيات لمصلحتهم ضد الإمام عليّ عليه السلام، الذي صاح بأصحابه بأنها مكيدة، فعارضوه، وهدّدوا بتسليمه لأهل الشام إن هو لم يقبل بالتحكيم^(٢).

وفي رواية أخرى أمّهم قالوا له: «لترجعن الأشر عن قتال المسلمين، وإلا فعلنا بك مثل ما فعلنا بعثمان»^(٣).

وإن صحّت هذه الرواية، يكون الخوارج قد شكّلوا حزباً سياسياً خاصاً بهم قبل وقوع القتال في صفين؛ إذ إنّ تهديدهم المتقدّم لأmir المؤمنين يكشف عن مدى جاهزيّتهم في خوض الصراع وحزم المواقف السياسيّة الحاسمة. وإنّ بعض هؤلاء الخوارج كان قد شارك في قتل عثمان بن عفّان، وهذا واضح من خلال تهديدهم لأmir المؤمنين عليّ عليه السلام، وبذلك، تكون حركة الخوارج من الوجهة النفسيّة ذات جذور بعيدة؛ لأنّ معركة صفين لم تكن سوى سبب طارئ أتاح لهؤلاء المنشقّين أن يؤلّفوا كتلة لإحداث الاضطرابات، وضمّ المستائين تحت لوائهم^(٤).

وبعد ما تمّ الاتفاق على مسألة التحكيم أيام صفين، ووصلت النوبة إلى اختيار الحكّامين، كان الإمام عليّ عليه السلام قد اختار عبد الله بن عباس لينوب عن طرفه،

(١) اليعقوبيّ، تاريخ: ٢ / ١٣١؛ الطبريّ، تاريخ: ٤ / ٣٥.

(٢) الشهرستانيّ، الملل والنحل: ١ / ١١٤؛ صالح الوردانيّ، السيف والسياسة: ص ١٣٦.

(٣) شارل بللا، الجاحظ: ص ٢٨٠.

(٤) الشهرستانيّ، الملل والنحل: ١ / ١١٤.

فعارضه الخوارج في ذلك، وقالوا للإمام: هو منك، فحملوه على بعث أبي موسى الأشعري^(١)، الذي خذَل النَّاسَ عن الإمام أمير المؤمنين عليٍّ عليه السلام يوم الجَمَل عندما كان على ولاية الكوفة كما تقدّم بالتفصيل، فضلاً عن مداهنته لمعاوية^(٢). ثم كتبوا كتابين فيما بينهما، أحدهما من الإمام عليٍّ عليه السلام، والآخر من معاوية، ثم اختصموا في صفة الإمام عليٍّ عليه السلام؛ ففيما أصرَّ أصحابه عليه السلام على توصيفه بإمرة المؤمنين، رفض أصحاب معاوية ذلك، وأصرّوا على تجريد عليٍّ عليه السلام من إمرة المؤمنين، وكان مالك الأشتر قد أصرَّ على توصيفه بالإمرة، فاختلفوا^(٣)، ثم أشار أمير المؤمنين عليه السلام بكتابة اسمه بدون الإمرة^(٤).

بعد ذلك، اجتمع الفريقان بدومة الجندل سنة (٣٨هـ / ٦٥٨م)، وتمكّن عمرو ابن العاص بدهائه ومكره المعروفين من الغدر بأبي موسى الأشعري، فقال الناس: «حكم والله الحكماء بغير ما في الكتاب، والشَّرط عليهما غير هذا، وتضارب القوم بالسيّاط، وأخذ قوم بشعور بعض، واقترب الناس، ونادت الخوارج: كَفَرَ

(١) اليعقوبي، تاريخ: ٢ / ١٣١.

(٢) إن هذا الاختلاف الذي وقع بين أصحاب الإمام عليٍّ عليه السلام وأصحاب معاوية، هو عين الاختلاف الذي وقع زمن الرسول ﷺ عندما كتب كتاب الصّلىح يوم الحديبية مع سهيل بن عمرو: «هذا ما صالح رسول الله، فقال سهيل: لو علمنا أنّك رسول الله، ما قاتلناك، فمحا رسول الله اسمه بيده، وكتب: من محمّد بن عبد الله...». يُنظر: اليعقوبي، تاريخ: ٢ / ١٣١؛ الصّدوق، كمال الدّين وتمام النعمة: ص ٥٠.

(٣) اليعقوبي، تاريخ: ٢ / ١٣١؛ الطبري، تاريخ: ٤ / ٣٧.

(٤) اليعقوبي، تاريخ: ٢ / ١٣١؛ ويُنظر: عليّ الكوراني، جواهر التاريخ: ١ / ٣٣٧؛ محمّد الريشهري، موسوعة الإمام عليّ بن أبي طالب عليه السلام: ٦ / ٢٤٣.

الحكماء، لا حُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ»^(١).

وعليه، فمسألة التحكيم هي أساس الفتنة التي سعى وراءها عمرو بن العاص في جماعة معاوية، ففرّق أهل العراق عن الإمام عليّ عليه السلام^(٢)، وبذلك، يكون ابن العاص قد حفظ ماء الوجه لمعاوية، وأنقذه من هزيمة أكيدة، وعلى هذا الأساس، يكون معاوية وابن العاص قد أسهما إسهامة فعّالة في انبثاق حزب الخوارج على الصّعيد السّياسي بفعلتهما الخبيثة تلك.

ويرى البعض أنّ عمليّة معاوية وابن العاص في رفع المصاحف لم تكن خديعة^(٣).

وبذلك، يكون معاوية وعمرو بن العاص قد أفسدا على الإمام عليّ عليه السلام أمره في مجال السّياسة والحرب عن طريق إثارة أولئك الخوارج، وبطبيعة الحال، لم يقف تأثير الخوارج على المجال السّياسي، بل وفي مجال المبادئ والعقائد التي التزموا بها. وهكذا أصبح الصّراع بين المسلمين على السّلطة يأخذ طوراً جديداً لم يصل إليه من قبل؛ فبدلاً من أمير واحد للمؤمنين هناك ثلاثة: أمير المؤمنين عليّ عليه السلام في العراق، ومعاوية بن أبي سفيان في الشّام، وأمير انتخبه الخوارج ثائراً على أهل العراق والشّام، والحرب قائمة بين هؤلاء الأمراء^(٤).

وأما خوارج البصرة، فتبدأ قضيتهم مع الإمام عليّ عليه السلام عندما بعث أبا موسى للمحكمة التي أقرّها الخوارج أنفسهم، ويبدو أنّ الأحنف بن قيس التميمي،

(١) الطبري، تاريخ: ٤ / ٣٤.

(٢) أحمد عوض أبو الشباب، الخوارج: ص ٤٤.

(٣) محمّد بيومي مهران، الإمامة وأهل البيت: ١ / ٣٩٩.

(٤) محمّد عمارة، الإسلام وفلسفة الحكم: ص ١١٢.

حاول أن يكون طرفاً في قضية التحكيم، فاستشار الإمام علياً في ذلك، فلم يوافق الناس يومئذٍ إلا على أبي موسى الأشعري^(١).

ولما انتهى التحكيم، خرج الأشعث بن قيس بكتاب التحكيم يقرأه على الناس ويعرضه عليهم فيقرأونه، حتّى مرّ بطائفة من بني تميم، وفيهم عروة بن أدية، فقال: «أُتَحَكَّمُونَ في أمر الله ﷻ الرّجال؟! لا حكمَ إلاّ لله، ثمّ شهد بسيفه فضرب به عجز دابته [الأشعث] ضربة خفيفة، واندفعت الدّابة، وصاح به أصحابه أن املك يدك، فرجع»^(٢).

وقد غضبت اليمانيّة للأشعث، فمشى الأحنف بن قيس وناس كثيرة من بني تميم فاعتذروا للأشعث، فقبل وصفه^(٣).

وبهذا، يكون عروة بن أدية أوّل من شهر سيفه من الخوارج بين صفوف المسلمين^(٤).

أخطر خوارج أهل البصرة

وكان أخطر خوارج أهل البصرة هو حرقوص بن زهير السّعديّ ذو الثّديّة^(٥)، وشخصيّة حرقوص هذا نجدها تشترك في عدّة أحداث متفاوتة؛ فالتاريخ يذكر

(١) الطبريّ، تاريخ: ٤ / ٣٧.

(٢) الطبريّ: ٤ / ٣٩؛ ويُنظر: المبرّد، الكامل في اللّغة: ص ٥٧٨؛ ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة: ٢ / ٤٢١.

(٣) المبرّد، الكامل في اللّغة: ص ٥٧٨؛ الطبريّ، تاريخ: ٤ / ٤٠؛ عليّ الكورانيّ، جواهر التاريخ: ١ / ٣٥٠.

(٤) المبرّد، الكامل في اللّغة: ص ٥٧٨.

(٥) محمّد الموسويّ الشيرازيّ، الفرقة الناجية: ١ / ٣٦٧.

أنَّ حرقوصاً كان أحد قادة أهل البصرة الذين تمكّنوا من تحقيق فتوحات كبيرة في بلاد فارس زمن عمر بن الخطّاب وعثمان بن عفّان.

ثمّ نجده يقود ثوَار أهل البصرة ضدّ عثمان ويشترك في مقتله.
و حين قدم الناكثون البصرة، وقامت معركةُ الجمل الصّغرى التي استشهد فيها حُكيم بن جبلة كما تقدّم، طلبوا قتلة عثمان للاقتصاص منهم حسب ما زعموا، وكان من بينهم حرقوص، الذي منعه عشيرته من بني سعد، فلم يتمكّن الناكثون من الإجهاز عليه.

ثمّ نجده ينضمّ إلى جانب الإمام عليّ عليه السلام في معركة صفّين حتّى جرى أمر التحكيم، عندها دخل على أمير المؤمنين عليه السلام، وقال له: «تُب من خطيئتك، وارجع عن قضيتك، واخرج بنا إلى عدوّنا نقاتلهم حتّى نلقى ربّنا»^(١).

إنّ شأن حرقوص في مطلبه هذا شأن سائر الخوارج؛ فقد أصدر حكماً ينطوي على تكفير الإمام عليّ عليه السلام، وأنّه أخطأ في مسعاه لإنهاء الخلاف على أساس التحكيم، وعليه أن يتوب من خطيئته كما تاب الخوارج، ومن بينهم حرقوص.

وبذلك، يكون الخوارج قد أصدروا أحكاماً خاصّة بهم تنطوي على ملء إرادتهم، وتتطابق مع الوضع القائم الذي هم فيه، فمالوا إلى إصدار الأحكام الكلّيّة بدون شروط ولا تفاصيل ولا استثناءات، وتكفير من خالفهم من فرق المسلمين^(٢)، كما هو واضح من قول حرقوص بن زهير لأمير المؤمنين عليه السلام.

ومع هذا، لم يكفر الإمام عليّ عليه السلام الخوارج، بل على عكسهم، نجده يحاورهم

(١) الطبريّ، تاريخ: ٤/ ٥٢؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ٢/ ٦٥٨؛ ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة: ٢/ ٤٤٢؛ ويُنظر: محمّد أبو زهرة، تاريخ المذاهب الإسلاميّة: ص ٥٢.

(٢) العقائد الإسلاميّة (مركز المصطفى للدراسات الإسلاميّة): ٣/ ٣٧٠.

بمنطقيّة وتفكير وموضوعيّة، ولا يتجاوز على الحدود الفاصلة التي يرسمها بتعامله مع الآخرين من أجل كسب رضا معارضيه من الخوارج، ويحاول أن يؤثّر في أفكارهم التي التزموا بها، فعندما طلبوا منه أن يخرج بهم لقتال معاوية بعد التحكيم، قال لهم: « قَدْ أَرَدْتُكُمْ عَلَى ذَلِكَ فَعَصَيْتُمُونِي، وَقَدْ كَتَبْنَا بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ كِتَابًا، وَشَرَطْنَا شُرُوطًا، وَأَعْطَيْنَا عَلَيْهَا عَهْدَنَا وَمَوَاقِفَنَا »^(١).

لقد استند الإمام عليه السلام إلى قوله تعالى: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا﴾^(٢). فليس من صفاته عليه السلام المراوغة والاحتيال، وإن كان على حساب عدوّه، بل التزم مبادئ بناء غايته منها الحفاظ على وحدة المسلمين قدر الإمكان، دون أن يميل عن طريق الحقّ طرفة عين، هذه نظرة أمير المؤمنين عليه السلام. وفي المقابل، نجد ردّ حرقوص بن زهير باتّهام الإمام بارتكاب الذنب، وأنّه ينبغي عليه أن يتوب، فردّد عليه أمير المؤمنين عليه السلام: « ما هو ذنب، ولكنّه عَجْزٌ مِنَ الرَّأْيِ، وَضَعْفٌ مِنَ الْفِعْلِ، وَقَدْ تَقَدَّمْتُ إِلَيْكُمْ فِيما كَانَ مِنْهُ، وَنَهَيْتُكُمْ »^(٣).

وعلى هذا، نجد أنّ الخوارج قد التزموا التطرّف في آرائهم، مبتعدين في ذلك كلّ الابتعاد عن روح الإسلام في التسامح وطرح الآراء والتعبير عن فكر الفرد، فأصبح خطّ الخوارج يمثّل الإسلام الزائف، ويرمز للباطل على مرّ الزّمان^(٤).

(١) الطبريّ، تاريخ: ٤ / ٥٣؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ٢ / ٦٨٥؛ المرعشي، شرح إحقاق الحقّ: ٣٢ / ٥٢٩.

(٢) سورة النحل، آية (٩١).

(٣) الطبريّ، تاريخ: ٤ / ٥٣؛ ابن شهر آشوب، مناقب آل أبي طالب: ٢ / ٣٦٩؛ محسن الأمين، أعيان الشّيعّة: ١ / ٥٢١.

(٤) صالح الورداني، السّيف والسّياسة: ص ١٣٨.

وفيا يرتبط بحرقوص بن زهير السعدي، الذي لقبته بعض المصادر بلقب (ذي الثدي)، والبعض الآخر بلقب (ذي الخوصرة)، فقد ذهبت بعض المصادر إلى أن حرقوصاً هذا هو نفسه الذي اعترض على رسول الله ﷺ عندما قام بتقسيم غنائم هوازن يوم حنين؛ إذ روي عن ابن عباس أنه قال: «كانت غنائم هوازن يوم حنين؛ إذ جاءه ذو الخوصرة التميمي، وهو حرقوص بن زهير أصل الخوارج، فقال: إعدل يا رسول الله، فقال: ويحك، ومن يعدل إذا لم أعدل؟!»^(١).

وهناك رواية تنفي أن يكون ذو الخوصرة هو حرقوص بن زهير؛ إذ روي في تقسيم الغنائم يوم حنين أن الذي جاء واعترض على قسمة رسول الله ﷺ هو عبد الله بن ذي الخوصرة التميمي^(٢).

وهناك من يرى أن ذا الخوصرة هذا ليس هو ذو الثدي الذي قتله الإمام عليّ عليه السلام بالنهروان، فقليل: المعروف أن ذا الثدي اسمه حرقوص، وهو الذي حمل على الإمام عليّ ليقطله فقتله الإمام عليه السلام^(٣).

وهناك من ذهب إلى أن ذا الخوصرة وذا الثدي هما شخص واحد، هو حرقوص ابن زهير^(٤).

ويرى الشهرستاني أن الشبهات نشأت كلها من شبهات منافقي زمن النبي ﷺ؛

(١) الطبرسي، مجمع البيان: ٥/٧٢؛ ابن الأثير، أسد الغابة: ٢/١٤٠؛ أما الطبري، فقد ذكر رواية تقسيم الأموال ولم يذكره باسم حرقوص أو غيره، بل اكتفى بتسميته بذي الخوصرة التميمي، للتفصيل راجع: جامع البيان: ١٠/٢٠١.

(٢) أحمد بن حنبل، المسند: ٣/٥٦؛ البخاري، الصحيح: ٨/٥٢؛ ابن البطريق، العمدة: ص ٤٦٠.

(٣) العيني، عمدة القارئ: ١٦/١٤٢؛ ويُنظر: ابن حجر، فتح الباري: ١٢/٢٥٩.

(٤) عليّ الكوراني، جواهر التاريخ: ١/٣٧٥.

إذ لم يرضوا بحكمه في ما كان يأمر وينهى، وشرعوا في ما لا مسرح للفكر فيه ولا مسرى، وسألوا عما منعوا من الخوض فيه ومن السؤال عنه، وجادلوا بالباطل فيما لا يجوز الجدل فيه^(١).

إنَّ المصادر التي اختلفت في التسميتين (ذي الخويصرة وذي الثدية)، تجعل بذرة الخوارج الأولى عائدة إلى زمن النبي ﷺ، وعليه، لا يمكن الجزم بالقول بأنَّ ذا الخويصرة هو حرقوص بن زهير؛ لأنَّه عُرِفَ بذِي الثَّدِيَّة، أمَّا لقب (ذو الخويصرة)، فربَّما كان على عهد الرِّسول ﷺ؛ إذ قال: «إِنَّهُ سَيَكُونُ مِنْ ضِئْضِيِّ»^(٢) هذا قوم يمرقون من الدِّين كما يمرقُ السَّهْمُ من الرَّمِيَّة»^(٣). وبذلك، يكون ذو الخويصرة شخصاً آخر يمثِّل رمز الخوارج أو علامتهم وأصلهم الذي منه ينحدرون^(٤)، وما ذو الثَّدِيَّة إلاَّ أحد الذين مرَقوا من الدِّين.

ولعلَّ ما أَرادَه الشهرستانيُّ بقوله: «وهم الذين أوَّهَم ذو الخويصرة، وآخَرَهُم ذو الثَّدِيَّة»^(٥)، هو أنَّ الاثنين قد عاصرا عهد النبي ﷺ، فكان الذي خرج على الرِّسول ذا الخويصرة، فكان أوَّهَم، ثمَّ خرج ذو الثَّدِيَّة على الإمام عليٍّ عليه السلام، فكان آخَرَهُم.

ويرى البعض أنَّ قصَّة ذي الخويصرة هو التشكيك في مطالب المتطرِّفين

(١) الملل والنحل: ٢١/١.

(٢) ضئضى: يخرج من نسله وأصله وعقبه. ابن منظور، لسان العرب: ١/ ١١٠.

(٣) المبرِّد، الكامل في اللُّغة: ص ٥٨٥؛ ويُنظر: أحمد بن حنبل، المسند: ٥/ ٤٢؛ البخاري،

الصَّحيح: ٨/ ٥٢؛ النسائي، السُّنن: ٥/ ٨٨؛ البيهقي، السُّنن الكبرى: ٧/ ١٨.

(٤) منعم عبد الرِّحيم حميد الزوار، الفكر السِّياسيُّ عند الخوارج: ص ٦٨.

(٥) الملل والنحل: ١/ ١١٥.

السِّيَاسِيِّينَ بِالْعَدْلِ فِي النِّظَامِ الْإِسْلَامِيِّ؛ إِذْ لَيْسَ كُلُّ مَنْ رَفَعَ شَعَارَ الْمَطَالِبَةِ بِالْعَدْلِ وَعَلَيْهِ سِيَاءُ الدِّينِ وَالصَّلَاحِ كَانَ مِنْ طُلَّابِ الْعَدَالَةِ حَقًّا، بَلْ رَبَّمَا لَتَنْفِذَ مَآرِبَ سِيَاسِيَّةٍ مَعِيْنَةٍ^(١). فَكَانَ حَرْقُوصُ بْنُ زَهَيْرٍ يَزْهَدُ أَتْبَاعَهُ مِنَ الْخَوَارِجِ، فَيَقُولُ لَهُمْ: «إِنَّ الْمَتَاعَ بِهَذِهِ الدُّنْيَا قَلِيلٌ، وَإِنَّ الْفِرَاقَ لَهَا وَشَيْكَ، فَلَا تَدْعُو نَكَمَ زَيْنَتِهَا وَبَهْجَتِهَا إِلَى الْمَقَامِ بِهَا، وَلَا تَلْتَفِتَنَّكُمْ عَنْ طَلَبِ الْحَقِّ وَإِنْكَارِ الظُّلْمِ، فَإِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ»^(٢).

إِنَّ حَرْقُوصًا اعْتَقَدَ أَنَّ الْحَقَّ مَعَهُمْ، وَيَجِبُ التَّمَسُّكُ بِهِ دُونَ الْإِنْجِرَارِ وَرَاءَ الْمَكَاسِبِ الدُّنْيَوِيَّةِ، وَكَذَلِكَ أَكَّدَ لَهُمْ أَنَّ عَمَلَهُمُ الَّذِي أَقْبَلُوا عَلَيْهِ هُوَ أَسَاسُ التَّقْوَى، وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ، فَعَمِلَ عَلَى تَثْبِيتِهِمْ عَلَى كَلِمَتِهِمْ دُونَ الرُّجُوعِ إِلَى غَيْرِهَا، أَوْ اتِّبَاعِ أَمْرٍ آخَرَ يَحْرِفُ فِكْرَهُمُ الَّذِي انطوى على مطالبهم التي اقتضت على مجاميعهم.

ثُمَّ وَجَدَ الْخَوَارِجُ أَنْفُسَهُمْ مِنْ غَيْرِ تَنْظِيمٍ، فَعَمَلُوا عَلَى تَوَلِيَةِ أَمْرِهِمْ أَمِيرًا، فَعَرَضُوهَا عَلَى زَيْدِ بْنِ حَصِينِ الطَّائِي^(٣)، فَرَفَضَهَا، ثُمَّ عَرَضُوهَا عَلَى حَرْقُوصِ بْنِ زَهَيْرٍ، فَرَفَضَهَا، فَقَبِلَهَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ وَهَبِ الرَّاسِبِيُّ، بَعْدَهَا اجْتَمَعُوا فِي مَنْزِلِ شَرِيحِ بْنِ أَوْفِي الْعَبْسِيِّ^(٤)، فَاتَّفَقُوا عَلَى الْخُرُوجِ إِلَى الْمَدَائِنِ، وَأَنْ يَكْتُبُوا إِلَى إِخْوَانِهِمْ

(١) مُحَمَّدُ الرِّيشَهْرِيُّ، الْقِيَادَةُ فِي الْإِسْلَامِ: ص ٣٦٧.

(٢) الطَّبْرِيُّ، تَارِيخُ: ٤ / ٥٥.

(٣) زَيْدُ بْنُ حَصِينِ الطَّائِي: كَانَ مِنَ الْمُجْتَهِدِينَ، وَمِنْ أَصْحَابِ الْبَرَنْسِ (الشَّيَابِ الطَّوَالِ)، وَهُوَ أَحَدُ الزَّعَمَاءِ الَّذِينَ عَرَضُوا عَلَيْهِمْ إِمْرَةَ الْخَوَارِجِ فَرَفَضَهَا. نَصْرُ بْنُ مَزَاحِمٍ، وَقَعَةُ صَفِّينَ: ص ٩٩.

(٤) شَرِيحُ بْنُ أَوْفِي الْعَبْسِيِّ: كَانَ فِي الْمَسِيرِينَ الَّذِينَ سَيَّرَهُمْ عُثْمَانُ بْنُ عَفَّانٍ فِي حُكُومَتِهِ مِنَ الْكُوفَةِ إِلَى دِمَشْقَ، ثُمَّ خَرَجَ عَلَى الْإِمَامِ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ، وَأَنْكَرَ التَّحْكِيمَ وَالْحُكْمَيْنِ، فَقُتِلَ فِي

من خوارج أهل البصرة، فكتبوا إليهم مع عبد الله بن سعد العباسي^(١) كتاباً جاء فيه: «من عبد الله بن وهب، ويزيد بن حصين، وحر قوص بن زهير، وشريح بن أوفي، إلى مَنْ بلغه كتابنا بالبصرة من المؤمنين المسلمين، سلام عليكم، فإننا نحمد الله إليكم، الذي لا إله إلا هو، الذي جعل أحبَّ عباده إليه أعملهم بكتابه ... أمّا بعدُ، فقد اجتمعنا بجسر النهروان، فسيروا إلينا رحمكم الله؛ لتأخذوا نصيبكم من الأجر والثواب، وتأمروا بالمعروف وتنهون عن المنكر، وكتابنا هذا إليكم مع رجلٍ من إخوانكم ذي أمانة ودين، فسلوه عما أحببتهم، واكتبوا إلينا بما رأيتم، والسلام»^(٢).

فالخوارج بكتابهم هذا يوضّحون لأهل البصرة حالهم وما وصلوا إليه من أمر، وأنّ عليهم أن يلحقوا بهم، وإذا شكّكوا في أمرهم أو كان لديهم شيء يريدون معرفته، والتحقّق منه، فعليهم بسؤال صاحب الكتاب، وعلى هذا، فزعما الخوارج يشهدون باجتهاده وصدقه وأمانته، حتّى يكونوا على بينة من أمرهم بنظرة طرف واحد وهم الخوارج! دون الرّجوع إلى طرف آخر يناقض الخوارج في وجهة نظرهم.

ولما قرأ أتباعهم من أهل البصرة كتابهم، اجتمعوا في خمسمائة رجل، وقلّدوا أمرهم إلى مسعر بن فدكي التميمي^(٣)، فلمّا علم ابن عبّاس والي البصرة حينئذٍ

النهروان. ابن عساكر، تاريخ دمشق: ٢٣ / ٣.

(١) لم أشر على ترجمة له.

(٢) الدّينوري، الأخبار الطّوال: ص ٤٠٢-٤٠٤.

(٣) مسعر بن فدكي التميمي: زعيم الخوارج في البصرة، كان يقطع الطريق ويستحلّ الفروج، وكان قد اشترك في حرب صفّين مع الإمام عليّ عليه السلام، ووضعه على قراء الكوفة والبصرة، ثمّ

لأمير المؤمنين عليّ عليه السلام، لم يكن ليتركهم يفعلون ما بدا لهم؛ كونه المسؤول عن إدارة البصرة والمحافظة على أمنها، فأمر أبا الأسود الدؤليّ بأن يتبعهم ويمنعهم من الانضمام للخوارج الذين نزلوا في المدائن، لكنّ أبا الأسود لم يتمكّن من اللحاق بهم، فلحقوا بعبد الله بن وهب^(١).

ويبدو أنّ هؤلاء الخوارج من أهل البصرة كانوا على اتصال بأمور وأحوال أولئك الخوارج الذين انبثقوا عن معسكر أمير المؤمنين عليّ عليه السلام؛ لأنّهم لم يقوموا بأيّ اعتراض على كتاب عبد الله بن وهب، بل صدّقوه، وعجلّوا أمرهم بالالتحاق به، وهذا يعني أنّ تكتلات الخوارج قد انتشرت في جميع المدن الإسلامية، خاصّة ذات الأثر الفعّال كالبصرة.

فخوارج البصرة كانوا ممن لم يرَضَ عن قسمة الإمام عليّ عليه السلام للغنائم بعد نهاية معركة الجمل، فعندما التقى بهم، قال: «أيّها الناس، أنا عليّ بن أبي طالب، فتكلّموا بما نقمتم عليّ، فقالوا: نقمنا عليك أولاً أنّا قاتلنا بين يديك بالبصرة، فلمّا أظفرك الله بهم، أبحتنا ما في عسكرهم، ومنعنا النساء والذرّيّة، فكيف نُحلّ لنا ما في العسكر ولم نُحلّ لنا النساء؟!»^(٢).

فكان ردّ الإمام عليّ عليه السلام: «فلما ظفرتم اقتسمتم سلب من قاتلكم، ومنعتمكم من النساء والذرّيّة؛ فإنّ النساء لم يقاتلن، والذرّيّة وُلدوا على الفطرة، ولم ينكثوا، ولا ذنب لهم، ولقد رأيتُ رسولَ الله ﷺ منّ على المشركين، فلا تعجبوا أن مننتُ

انضمّ إلى الخوارج، وبعدها قدم على الإمام عليّ عليه السلام يطلب التوبة. ابن حزم، المحلّى: ١١ / ٣٠١-٣٠٢؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ٣ / ٢٩٤.

(١) الطبريّ، تاريخ: ٤ / ٥٦؛ ويُنظر: البلاذريّ، أنساب الأشراف: ٣ / ١٤٢.

(٢) المجلسيّ، بحار الأنوار: ٣٣ / ٣٩٦.

على المسلمين، فلمَّ أسلب نساءهم ولا ذريَّتهم»^(١).

لكنَّ الخوارج لم يكونوا مقتنعين بتعليل الإمام عليٍّ عليه السلام لهم، وتوضيح طريقته التي اتَّبعها في تقسيم غنائم الحرب بعد معركة الجمل، وهي طريقة مطابقة لسنة النبيِّ محمدٍ صلى الله عليه وآله، فترك عدلُ أمير المؤمنين عليه السلام الذي التزمه في إنصاف أتباعه وغيرهم انطباعاً في نفوس بعضهم انعكس في آراء الخوارج، فأصروا على أنَّ أمير المؤمنين قد أخطأ في تلك القسمة بعدم إباحة النساء للمقاتلين، فبقوا ملتزمين بغيَّهم، وعدم العدول عن آرائهم التي تبَّناها سلاحاً للاحتجاج.

وكان خوارج البصرة متطرِّفين في آرائهم؛ إذ لم يقبلوا بغير رأيهم، وقتلوا كلَّ مَنْ خالفهم الرأي؛ فقد رُوي من طريف أخبارهم أنَّهم أصابوا مسلماً ونصرانياً، فقتلوا المسلم، وأوصوا بالنصراني، فقالوا: إحفظوا ذمَّة نبيِّكم^(٢).

وفي رواية أخرى: لقيهم عبد الله بن خبَّاب^(٣) وفي عنقه مصحف، ومعه امرأته حامل، فقالوا له: إنَّ هذا الذي في عنقك ليأمرنا أن نقتلك، فقال: ما أحيا القرآن، فأحيوه، وما أماته، فأميتوه، فوثب رجلٌ منهم على رطبة فوضعها في فيه، فصاحوا به، فلفظها تورَّعاً، وعرض برجلٍ منهم خنزيراً، فضربه الرِّجلُ فقتله، فقالوا: هذا فسادٌ في الأرض، فقال عبد الله بن خبَّاب: ما عليَّ منكم بأْس، إنِّي لمسلم، قالوا له: حدِّثنا عن أبيك، قال: سمعتُ أبي يقول: سمعتُ رسول الله صلى الله عليه وآله يقول: تكون

(١) المجلسي، بحار الأنوار: ٣٩٦/٣٣.

(٢) المبرِّد، الكامل في اللغة: ص ٥٩٨.

(٣) عبد الله بن خبَّاب بن الأرت: ولد زمن النبيِّ صلى الله عليه وآله، فسماه عبد الله، وهو ثاني من ولد في الإسلام، وكان من سادات المسلمين، له رؤية، ولأبيه صحبة، قتله الخوارج سنة ٣٧هـ. ابن عبد البر، الاستيعاب: ٨٩٤/٣؛ ابن الأثير، أسد الغابة: ١٥٠/٣؛ ابن حجر، الإصابة: ٦٤/٤.

فتنة يموت فيها قلبُ الرجل كما يموتُ بدنه، يُمسي مؤمناً ويُصبحُ كافراً، فكنُ عبدَ الله المقتول ولا تكنُ عبدَ الله القاتل. قالوا: فما تقول في أبي بكر وعمر؟ فأثنى خيراً، فقالوا: ما تقول في عليٍّ أمير المؤمنين قبل التحكيم، وفي عثمان ستّ سنين؟ فأثنى خيراً، قالوا: فما تقول في الحكومة والتحكيم؟ قال: أقول: إنّ عليّاً أعلمُ بالله منكُم، وأشدُّ توقّياً على دينه، وأبعد بصيرة، قالوا: إنّك لست تتّبع الهدى، إنّما تتّبع الرجال على أسمائها، فعمدوا إليه وذبحوه^(١)، وبقروا بطن امرأته^(٢).

وفي الحديث الذي دار بين الخوارج وعبد الله بن خباب هذ شيء من الغموض والدهشة، فلماذا اختار عبد الله بن خباب هذا الحديث بالذات دون غيره، على الرغم من أنّ الخوارج هم مَنْ أشار عليه بأن يحدثهم حديث عن أبيه سمعه من رسول الله ﷺ؟!

إنّ هذا اللقاء يدلّ على أنّ الأعمال التي ارتكبتها الخوارج قد جاءت لتعبر عن وجهة نظرهم بالنسبة إلى تطبيق أحكامهم ضدّ كلّ مَنْ حاول أن يقول الحقيقة، ويعارض أفكارهم التعصّبية المتطرّفة، وأعمالهم التعسّفية المنكرة.

ويُروى أنّ الإمام عليّاً عليه السلام لما بلغه خبر عبد الله بن خباب ومقتله، وتعرّض الخوارج للنّاس في الطرقات، بعث الحارث بن مرّة العبدي^(٣) ليأتيهم فينظر فيما

(١) المبرّد، الكامل في اللّغة: ص ٥٩٨-٥٩٩؛ وذكر حديث رسول الله ﷺ من وجه آخر؛ إذ قيل: «إنّه ذكر فتنة القاعد فيها خيرٌ من القائم، والقائمُ خيرٌ من الماشي، والماشي فيها خيرٌ من السّاعي، قال: فإنّ أدركت ذلك، فكنُ عبدَ الله المقتول». أحمد بن حنبل، المسند: ١١ / ٥.

(٢) الطبريّ، تاريخ: ٤ / ٦١؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ٢ / ٦٩١.

(٣) الحارث بن مرّة العبديّ: هو من رؤساء جند أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب عليه السلام يوم صفّين، في محبة الإمام عليّ عليه السلام. عليّ النّمازيّ الشّاهروديّ، مستدركات علم رجال الحديث:

بلغه عنهم، ويكتب إليه بأخبارهم دون أن يكتُم شيئاً^(١)، لكنَّ الحارث لم يسلم على نفسه من بطش الخوارج؛ إذ التقوا به فقتلوه^(٢).

لقد كانت هذه التصرفات التي مال إليها الخوارج مؤثرة جداً في نفوس من تواجد في عسكر الإمام عليٍّ عليه السلام من أصحابه، الذين كانوا مستعدين للسَّير إلى حرب أهل الشَّام، فوجدوا أنَّ حرب هؤلاء الخوارج أولى من حرب أهل الشَّام؛ بصفة أنَّ الخوارج أخذوا يتجاسرون على سائر المسلمين المخالفين لآرائهم ومنطقهم التَّهْجَمِيَّ! سواء أكان هؤلاء المسلمون من المواليين للإمام عليٍّ عليه السلام أم من الناقمين عليه، فقالوا للإمام عليٍّ عليه السلام: « يا أمير المؤمنين، علام تدع هؤلاء وراءنا يخلفوننا في أموالنا وعيالنا؟! سر بنا إلى القوم، فإذا فرغنا ممَّا بيننا وبينهم، سرنا إلى عدوِّنا من أهل الشَّام »^(٣).

فوجهة نظر أصحاب الإمام عليٍّ عليه السلام كانت منطقيَّة؛ لأنَّ بقاء الخوارج يعثون في بلاد المسلمين يؤثِّر في نفسيَّة جيش الإمام أمير المؤمنين عليه السلام، وربَّما تنكسر معنويَّاتهم في مواجهة جيش الشَّام، حيث الأخبار التي تصل معسكر أمير المؤمنين تُبقي أصحابه في قلق وإرباك؛ خوفاً من أن يكون أهلهم ضحيَّة للخوارج. علاوة على ذلك، فإنَّ عدم استقرار الجبهة الداخليَّة يعطي فرصة أكبر للعدوِّ

(١) الطبري، تاريخ: ٤ / ٦١.

(٢) الطبري، تاريخ: ٤ / ٦١؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ٢ / ٦٩٢.

(٣) الطبري، تاريخ: ٤ / ٦١؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ٢ / ٦٩٢؛ ويُنظر: محسن الأمين، أعيان الشَّيعة: ١ / ٥٢٣؛ محمَّد الريشهري، موسوعة الإمام عليٍّ بن أبي طالب: ٦ / ٣٥٥؛ سعيد أيوب، معالم الفتن: ٢ / ١٢٣؛ علي الكوراني، جواهر التاريخ: ١ / ٣٥٤؛ د. أحمد عوض أبو الشَّباب، الخوارج: ص ١٠٦.

لاستغلالها ضد خصمه.

لهذا كله وغيره، أمر الإمام عليّ أتباعه بالمسير إلى الخوارج؛ من أجل وضع حدّ لتصرّفاتهم الرعناء، وعودة الاستقرار في النواحي التي نزلها هؤلاء وعاشوا فيها فساداً.

ولما نزل أمير المؤمنين عليه السلام وأتباعه النهروان^(١)، بعث إلى الخوارج: «ادفعوا إلينا قتلة إخواننا منكم، نقتلهم بهم، ثم أنا تارككم وكافّ عنكم حتّى ألقى أهل الشام، فلعلّ الله يقلّب قلوبكم ويردّكم إلى خير ممّا أنتم عليه من أمركم. فبعثوا إليه، فقالوا: كلنا قتلّتهم، نستحلّ دماءهم ودمائكم»^(٢).

لم يكن همّ الإمام عليّ عليه السلام القتل وسفك الدماء، بل كان يحاول إصلاح هؤلاء وإرجاعهم إلى جادة الصواب، فهو يعرف مدى ضعفهم في مواجهة جيشه عسكرياً في ساحة القتال، لكنّه كان يحاول عرض الحجّة تلو الأخرى عسى أن يتمكن من التأثير عليهم فيعدلوا عن رأيهم، فيقول لهم عليه السلام: «إني نذير لكم أن تصبّحوا تليفكم الأمّة غداً صرعى بأثناء هذا النهر...»^(٣).

وكان أمير المؤمنين عليه السلام قد ناظر أهل النهروان وحاججهم بكلّ أفعالهم، وما ارتكبوه من ذنوب، سواء بشأن المكيدة التي ارتبطت برفع المصاحف، أم بشأن

(١) النهروان: وهي كورة واسعة بين بغداد وواسط من الجانب الشرقي، حدّها الأعلى ببغداد، وفيها عدّة بلاد متوسّطة. ياقوت الحمويّ، معجم البلدان: ٥ / ٣٢٥.

(٢) الطبريّ، تاريخ: ٤ / ٦٢؛ ويُنظر: المبرّد، الكامل في اللّغة: ص ٥٨٣؛ ابن قتيبة، الإمامة والسياسة: ١ / ١٦٨.

(٣) الطبريّ، تاريخ: ٤ / ٦٢؛ ويُنظر: محمّد عليّ الحائريّ الحرّم آبادي، مقتل أمير المؤمنين عليه السلام، مجلّة تراننا، العدد الثاني، السّنة الرابعة ١٩٨٩ م: ص ١٧٨.

الأحكام التي التزمها أمير المؤمنين عليه السلام تجاه أهل الشام والمحكمة، فلم يترك شائبة ريب إلا وكشفها لهم، فلم يكن لديهم من ردّ سوى اتّهامه بالكفر، وأنّ عليه التوبة كما تابوا^(١).

كان لقاء أمير المؤمنين عليه السلام بالخوارج إيجابياً؛ إذ استطاع التأثير في بعضهم، فأنّج العدول عن آرائهم؛ إذ يروى أنّ أمير المؤمنين عليه السلام رفع راية أمان وجعلها مع أبي أيّوب الأنصاري^(٢)، فناداهم أبو أيّوب: مَنْ جاء هذه الرّاية منكم ممّن لم يَقتُل ولم يستعِرْضِ الناسَ، فهو آمن، ومَنْ انصرف إلى الكوفة أو إلى المدائن وخرج من جماعتهم، فهو آمن، فما كان من فروة بن نوفل الأشجعي^(٣) إلا أن قال: «والله، ما أدري على أيّ شيء نقاتل عليّاً، لا أرى إلا أن أنصرف حتّى تنفذي بصيرتي في قتاله أو اتّباعه»، فانصرف بخمسمائة فارس^(٤).

وخرجت طائفة أخرى متفرّقين، فنزلت الكوفة، وخرج إلى الإمام عليه السلام نحو من مائة فارس، في حين كان عدد الخوارج أربعة آلاف، والذين بقوا مع

(١) يُنظر: الطبري، تاريخ: ٦٢-٦٣.

(٢) أبو أيّوب الأنصاريّ: هو خالد بن زيد بن كليب بن ثعلبة، من بني النجّار، صحابي، شهد العقبة وسائر المشاهد، وكان شجاعاً صابراً تقيّاً محبّاً للغزو والجهاد، عاش إلى أيام بني أميّة، وكان يسكن المدينة، فرحل إلى الشام، واشترك في فتح القسطنطينيّة زمن معاوية بن أبي سفيان، توفّي في القسطنطينيّة، وفيها دُفن سنة ٥٢هـ. ابن عبد البرّ، الاستيعاب: ٢ / ٤٢٤.

(٣) فروة بن نوفل الأشجعيّ: أخو عبد الرّحمن بن نوفل، عداده في أهل الكوفة، وقيل: له صحبة. ابن حبان، الثقات: ٥ / ٢٩٧.

(٤) الطبري، تاريخ: ٦٤ / ٤؛ ويُنظر: ابن قتيبة، الإمامة والسّياسة: ١ / ١٦٩؛ الدّينوريّ، الأخبار الطّوال: ص ٢١٠.

عبد الله بن وهب زعيمهم ألفان وثمانمائة لمقاتلة الإمام عليٍّ عليه السلام في النهروان^(١). بعد ذلك استعدّ الخوارج لقتال جيش الإمام عليٍّ عليه السلام، الذي تمكّن بدوره من قمع تلك الزمرة الفاسدة وقتل زعمائهم، وكان ذلك سنة (٣٨هـ/ ٦٥٨م)^(٢)، وقيل: كانت وقعة النهروان سنة (٣٩هـ/ ٦٥٩م)^(٣).

ويُدّعي محمد صالح ناصر أنّ الإمام عليّاً ندم ندماً شديداً على قتله أهل النهروان؛ لأنّهم أنصروه بالأمس، وكان يبكي بكاء مرّاً لتذكّرهم، واعترف على نفسه أنّهم ليسوا مشركين ولا منافقين، بل كانوا من خيار المسلمين في الدّين والرّأي^(٤).

والذي نراه، هو أنّ هذا الرّأي رأي مضطرب بعيد عن مسار الإمام عليٍّ عليه السلام ونهجه في تحقيق العدل؛ إذ إنّّه يتعارض تمام التعارض مع ما قاله أمير المؤمنين عليه السلام عندما انتهى من قتال الخوارج؛ إذ قال: «الله أكبر، والله، ما كذبت ولا كُذِّبتُ، أما والله، لولا أن تنكلوا عن العمل، لأخبرتكم بما قضى الله على لسان نبيّه صلى الله عليه وآله لمن قاتلهم مستبصراً في قتالهم عارفاً للحقّ الذي نحن عليه»^(٥).

إنّ هذا النصّ يدلّنا على أنّ الإمام كان قد حاول تثبيت أتباعه وتقوية إيمانهم بأنّهم على الحقّ في قتال الخوارج، وأنّه كان على بصيرة من أمره، خالٍ من أيّ ندم

(١) الطبريّ، تاريخ: ٤/ ٦٤؛ فلهاوزن، الخوارج والشيعة: ص ٤٠.

(٢) خليفة بن خياط، تاريخ: ص ١٤٩؛ الطبريّ، تاريخ: ٤/ ٦٩؛ الذهبي، تاريخ الإسلام: ٣/ ٥٨٨.

(٣) اليعقوبي، تاريخ: ٢/ ١٣٤.

(٤) منهج الدّعوة عند الإباضية: ص ٧٥.

(٥) الطبريّ، تاريخ: ٤/ ٦٦؛ ويُنظر: المبرّد، الكامل في اللّغة: ص ٦٠٣؛ الطبرسي، إعلام الوري: ١/ ٣٣٨؛ الذهبي، تاريخ الإسلام: ١/ ٣٩٤؛ ابن كثير، البداية والنهاية: ٧/ ٣٢١.

على ما سلك تجاه الخوارج الذين غرَّهم الشَّيْطَانُ، وغرَّتْهم الأُمَانِي، وزَيَّنَتْ لهم المعاصي، فشَقُّوا وحدة المسلمين، وعاثوا في الأرض الفساد، ولم يقبلوا النَّصْح والإرشاد.

بعد ذلك خرج أمير المؤمنين عليه السلام في طلب ذي الثُّدِيَّة^(١) ومعه بعض أصحابه، فوجدوه على شاطئ النهر في عددٍ من القتلى، فلَمَّا استخرجوه، نظر إلى عضده، فإذا لحم مجتمع على منكبه كثدي المرأة، له حلمة عليها شعرات سود، فكان أمير المؤمنين عليه السلام يحاول أن يكشف لأتباعه حقيقة الوصف الذي وصفه لهم رسول الله ﷺ عندما تحدَّث عن الخوارج؛ إذ يُروى أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ لما وصفهم قال: «سِيَاهُم التحليق -أي: حلق الرؤوس- يقرؤون القرآن لا يجاوز تراقيهم، علامتهم رجلٌ مخدج اليد»^(٢).

وعلى أساس هذا الحديث، يكون الخوارج قد تواجدوا زمن الرِّسُول الأكرم ﷺ، ولكنَّهم لم يكونوا حينها على قدر كافٍ من القوَّة بحيث يعارضونه، بل كانوا يقومون بأعمال منكرة في الدِّين الإسلاميّ، فحذَّر الرِّسُول ﷺ أتباعه من شرِّ هؤلاء، وأنَّهم سوف يقاتلونهم مع مرور الزمن، فقاتلهم الإمام عليّ عليه السلام وأمامه الحجَّة والدليل على أنَّهم المقصودون بالأحاديث النَّبَوِيَّة الشَّرِيفَة^(٣)، فكيف

(١) روي عن مسروق، قال: « قالت عائشة: ترى قول عليّ عليه السلام: والله ما عبروا النهر، ولا يعبرونه حقٌّ؟ قالت: أفترى قوله في ذي الثُّدِيَّة: اطلبوه، فو الله ما كذَّبْتُ ولا كُذِّبْتُ؟ قلت: إي والله. قالت: والله، إنِّي لأعلم أنَّ الحقَّ مع عليٍّ، ولكيَّي كنتُ امرأةً الأحماء. القاضي نعمان، شرح الأخبار: ٢/ ٦٣-٦٤.

(٢) أحمد بن حنبل، المسند: ١٧٦/٥؛ ابن ماجه، السنن: ١/ ٦٢؛ ويُنظر: ابن الجوزي، الموضوعات: ٣/ ٥٥.

(٣) د. عامر النجَّار، الخوارج: ص ٣٨.

يندم بعد ذلك كما ادّعى المدّعي؟!

وفي نهاية معركة النهروان، كان خوارج البصرة قد ذهبوا قتل، شأنهم في ذلك شأن حرقوص بن زهير ذي الثُدَيَّة وأمثاله.

ولم توضّح لنا الروايات التاريخية مصير أولئك الخمسمائة الذين خرجوا من البصرة والتحقوا بأهل النهروان، ولكن لا شك في أنّهم قُتلوا جميعاً؛ إذ لو كانوا من جملة مَنْ عدلوا عن رأيهم وابتعدوا عن طريق الخوارج، لذكرهم المؤرّخون. ويبدو أنّ خوارج أهل البصرة لم يتّعظوا من أسلافهم الذين وقعوا قتل في معركة النهروان، بل بقوا على تطرّفهم، ملتزمين بأفكارهم التي توصّلوا إليها معتبرين أنّها الوسيلة التي يجب الثبوت عليها؛ لأنّها تلزمهم الحقّ! فاستتجوا برأيهم أنّ الإمام عليّاً عليه السلام كان غير مصيب في قتاله أهل النهروان، وأنّهم يجب عليهم مشاقّته والخروج عن طاعته.

وكان هؤلاء الخوارج بقيادة الحرّيت بن راشد الناجي^(١)، الذي أعلن معارضته لأمر المؤمنين عليه السلام، وكان معه ثلاثمائة من بني ناجية، خرجوا مع الإمام علي عليه السلام من البصرة، فشهدوا الجمل وصفين معه، ثمّ أقاموا بالكوفة إلى جانب أمير المؤمنين عليه السلام، فلمّا انتهت معركة النهروان، ركب الحرّيت بن راشد بقومه

(١) الحرّيت بن راشد الناجي: وهو أحد الذين التقوا برسول الله ﷺ بين مكّة والمدينة، وكان في وفد بني سامة بن لؤي، فاستمع لهم الرسول، وأشار إلى قوم من قريش، فقال: هؤلاء قومكم فانزلوا عليهم، وكان الحرّيت يوم الجمل مع طلحة والزبير، ويقال: ولّاه عبد الله بن عامر على كورة فارس، قُتل الحرّيت سنة ٣٩هـ. ابن عبد البر، الاستيعاب: ٢/ ٤٥٩؛ ابن الأثير، أسد الغابة: ٢/ ١١٠؛ وذكره ابن كثير باسم (الحارث بن راشد الناجي). البداية والنهاية: ٣٤٢/٧.

الثلاثاء، فحضر عند الإمام عليٍّ (عليه السلام)، فقال له: «يا عليّ، والله، لا أُطيع أمرَكَ، ولا أُصليّ خلفَكَ، وإني غداً لمفارقكَ»^(١). فقال الإمام عليٌّ (عليه السلام): «ثكلتكَ أمُّكَ، إذا نَعَصِي رَبَّكَ، وتنكثُ عهدَكَ، ولا تضرُّ إلَّا نفسك، خبرني، لم تفعل ذلك؟ فقال: لأنَّكَ حكمتَ وضعفتَ عن الحقِّ، وركنتَ إلى القوم الذين ظلموا، فأنا عليك زارٍ، وعليهم ناقيم، ولكم جميعاً مُباين، فقال له عليٌّ (عليه السلام): هلمَّ أدارسك الكتاب، وأناظرك في السُّنن، وأفاتحك أموراً أنا أعلم بها منك، فلعلَّكَ تعرف ما أنت له الآن منكر، قال [الخريّت]: فإني عائد إليك، قال [الإمام عليّ]: لا يستهوينكَ الشَّيطان، ولا يستخفَّنكَ الجُهاال، والله، لئن استرشدتني وقبلتَ مِنِّي، لأهديَنَّكَ سبيلَ الرِّشاد»^(٢).

لقد شكَّل الخريّت حزباً من بني عمومته، وناهض بهم الإمام عليّاً (عليه السلام)، رافضاً الصَّلاة وراؤه أو إطاعة أمره، متَّهماً إيَّاه بأنَّه ضَعُف عن الحقِّ عند قيام التحكيم، لكنَّ الشيء المهمُّ في حديث الخريّت المتقدِّم، هو أنَّه لم يمتلك القدرة الكلاميَّة، والمحاجة الفكرية للشُّبوت أمام مناقشة الإمام عليٍّ (عليه السلام)، بل سرعان ما نجده قد وعد أمير المؤمنين (عليه السلام) بأنَّه سوف يعود إليه، لكنَّه في الحقيقة ترك معسكر الإمام (عليه السلام) في الكوفة وخرج ببني ناجية.

ما سبق يعني أنَّ الخوارج لم يستطيعوا مناظرة أمير المؤمنين، وأنَّهم خلو من القدرة على المجادلة بالسُّنَّة والبراهين المعوَّل عليها؛ فقد كان الإمام عليٌّ (عليه السلام) يلتزم السُّنَّة النبويَّة أساساً لكلِّ مناظرة فكريَّة، فقد جاء في كتابه لابن عبَّاس، عندما

(١) الطبري، تاريخ: ٨٦/٤؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ٧١٤/٢؛ ابن كثير، البداية والنهاية: ٣٥١/٧.

(٢) الطبري، تاريخ: ٨٧/٤؛ المجلسي، بحار الأنوار: ٤٠٦/٣٣.

أرسله لمناظرة الخوارج: «لا تخصمهم بالقرآن، فإنَّ القرآنَ حمالٌ [أي: يحمل معان كثيرة] ذو وجه، تقول ويقولون، ولكنَّ حاججهم بالسُّنة، فإنهم لن يجدوا عنها محيصاً»^(١).

كان الإمام عليٌّ عليه السلام عارفاً بطرق الخوارج وحججهم الواهية الضعيفة، فلم يتمكنوا من محاججته، ولكنَّ الحرَّيت بن راشد ترك أمير المؤمنين عليه السلام، وسار من ليلته هو وأصحابه، مفارقين علياً وأتباعه، ولم يكن جلَّ همهم في خروجهم هذا إلا تأكيد إيمانهم بتعصّبهم لمبادئهم التي انطلقوا منها حسب ميلهم الفكريّ، دون أن يتأثروا بغيرهم، فالحرَّيت وأصحابه اعتقدوا أنَّهم على الحقِّ، وجميع من هو غيرهم على باطل، سواء أكانوا من أصحاب الإمام عليٍّ عليه السلام أم أصحاب معاوية، فأصبح ناقماً على الجميع، وعلى كلِّ من خالف هواه^(٢).

كلَّ هذا كان بسبب تعصّبهم الأعمى لمذهبهم وآرائهم في فهم الشريعة الإسلامية، وصار الدين الإسلامي في اعتقادهم لا يخرج من حدود معسكراتهم، فهم وحدهم أصحاب الدين، وهم أهل الإسلام وبنوه دون غيرهم، حتّى دخول الجنة لا يتمُّ إلا عن طريقهم حصراً^(٣).

ولما علم الإمام عليٌّ عليه السلام بخروج الحرَّيت بن راشد وأتباعه دون رجعة، قال: «بُعْدًا لَهُمْ كَمَا بَعَدَتْ نُمُودُ، أَمَا لَوْ أُشْرِعَتِ الْأَسِنَّةُ إِلَيْهِمْ، وَصُبَّتِ السُّيُوفُ عَلَى هَامَاتِهِمْ، لَقَدْ نَدِمُوا عَلَى مَا كَانَ مِنْهُمْ، إِنَّ الشَّيْطَانَ الْيَوْمَ قَدْ اسْتَفْلَهُمْ»^(٤)، وهو غداً

(١) الشريف الرضي، نهج البلاغة: ٣/ ١٣٦.

(٢) يُنظر: البلاذري، أنساب الأشراف: ٣/ ١٧٧؛ الطبري، تاريخ: ٤/ ٨٧.

(٣) د. نبيل خليل أبو حاتم، الفرق الإسلامية فكرياً وشعراً: ص ١٢٨.

(٤) استفْلَهُمْ: فرّق شملهم. يُنظر: ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة: ١٠/ ٧٥.

مُتَبَرِّئٌ مِنْهُمْ وَمُتَخَلِّ عَنْهُمْ»^(١).

وكانَّ الإمامَ عَليُّ بنَ أبي طالبٍ (عليه السلام) يوجِّه خطابه هذا لأصحابه الذين بقوا معه، خوفاً عليهم من الانحراف ومتابعة تلك الزمر المنحرفة عن هدف الشريعة الإسلامية، ولكشف الخفايا التي قد تصبح شكوكاً تراود أتباعه مع كلِّ حادثَةٍ يتفاجأون بها. علاوة على ما تقدّم، فإنَّ الإمام كان يمثِّل رمزاً صادقاً لحرِّيَّة الرأي، وممثلاً حقيقيّاً لها؛ وذلك بأنَّ أعطى الحرِّيَّة التامَّة لكلِّ فئة أو شخص بالتعبير عن آرائه ومعتقداته وأفكاره، مع غضِّ النظر عن كونها مخالفة لرأي السُّلطة الحاكمة، فالخرَّيت لما وقف بوجه أمير المؤمنين عَليِّ بن أبي طالب (عليه السلام) وخاطبه بذلك الأسلوب، فإنَّه كان على يقين من سلامته، ومن أنَّ عليّاً ما كان ليعاقبه على ما أبداه من وجهة نظر مخالفة له، على الرُّغم من علمه بقدرته عَليِّ بن أبي طالب (عليه السلام) على البطش به وبجميع مَنْ معه؛ لأنَّه يمثِّل رأس السُّلطة، وبإشارة منه يُلقى القبض عليه، وبإيماة منه يُسجن، وبكلمة منه يُقتل ويُعفى قبره، إلَّا أنَّ المعارضين كانوا يعلمون إيمان عليٍّ، وأخلاق عليٍّ، وصبر عليٍّ، وعظم شخص عليٍّ (عليه السلام)؛ لأنَّه ابن الإسلام، وبيته بيت النبوة ومهبط الوحي ومختلف الملائكة، وأنَّه القرآن الناطق الذي يمشي على الأرض، وهو المعيار الحقيقيُّ للقيم والأخلاق والمروءة الإسلامية، فأمر المؤمنين عَليِّ بن أبي طالب (عليه السلام) لا يمثِّل أسوة حسنة للمسلمين فقط، بل هو نبراس حقٍّ، ومتراس صدق، وميراث مشترك لجميع الشعوب، وهو بحقَّ صوت العدالة الإنسانية.

(١) الشريف الرضي، نهج البلاغة: ١٠٢/٢؛ ويُنظر: الطبري، تاريخ: ٨٨/٤؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ٧١٥/٢؛ ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة: ٧٤/١٠؛ المجلسي، بحار الأنوار: ٣٧٧/٣٣؛ محمَّد باقر المحمودي، نهج السَّعادة: ٤٨٣/٢.

بعد ذلك طلب زياد بن خصفة^(١) من أمير المؤمنين عليه السلام أن يسمح له بمتابعة الخريت بن راشد، والوقوف على وجهته ومسلكه الذي سيسلكه؛ خوفاً من قيامهم بإفساد جماعة كثيرة وحرفهم عن جادة الصواب^(٢)، فوافقه أمير المؤمنين، لكنّه ألزمه بأن يكون تحرّكه ضمن تعليماته عليه السلام، فأمر زياد بن خصفة أن ينزل دير أبي موسى^(٣)، وأن يستقرّ به حتّى يأتيه أمر الإمام بالتحرك وتعب الخريت وجماعته.

والظاهر أن أمير المؤمنين عليه السلام كان يثق بعمّاله، وأنهم سوف يخبرونه عن تحركات الخريت حال مشاهدتهم له؛ لذلك، قال لزياد بن حفصة: «فإنهم إن كانوا خرجوا ظاهرين للناس في جماعة، فإنّ عمالي ستكتب إليّ بذلك»^(٤).

ثمّ كتب أمير المؤمنين عليه السلام كتاباً من نسخة واحدة، وأخرجه إلى عمّاله يخبرهم بهرب الخريت، وأنهم توجّهوا نحو البصرة^(٥). فكتب قرظة بن كعب الأنصاري^(٦) إلى الإمام عليّ عليه السلام كتاباً عن أمر الخريت وأتباعه، جاء فيه: «بسم الله الرحمن

(١) لم أعر على ترجمة له.

(٢) الطبريّ، تاريخ: ٨٨/٤؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ٧١٥/٢.

(٣) دير أبي موسى: وهو موضع يقع على مسافة فرسخين من الكوفة. ابن مزاحم المنقري، وقعة صفين: ص ١٣٤؛ ويُنظر: ابن أعثم الفتوح: ٥٥١/٢.

(٤) الطبريّ، تاريخ: ٨٩/٤؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ٧١٥/٢؛ ويُنظر: ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة: ١٣٠/٣.

(٥) الطبريّ، تاريخ: ٨٩/٤.

(٦) قرظة بن كعب الأنصاري: الخزرجيّ، أحد فقهاء الصحابة، وهو أحد الذين أرسلهم عمر بن الخطّاب ليعلموا الناس في الكوفة، توفيّ حدود سنة ٤٠ هـ. الصفدي، الوافي بالوفيات: ١٦٩/٢٤.

الرَّحِيم، أمَّا بعد، فَإِنِّي أَخْبَرُ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ أَنَّ خِيلاً مَرَّتْ بِنَا مِنْ قِبَلِ الْكُوفَةِ مَتَوَجِّهَةً نَحْوَ نَفَرٍ^(١)، وَأَنَّ رَجُلًا مِنْ دِهَاقِينَ^(٢) أَسْفَلَ الْفِرَاتِ قَدْ صَلَّى يَقَالُ لَهُ: زِدَانُ فَرُوحَ، أَقْبَلْ مِنْ قِبَلِ أَخْوَالِهِ بِنَاحِيَةِ نَفَرٍ، فَعَرَضُوا لَهُ، فَقَالُوا: أَمْسَلِمَ أَنْتَ أَمْ كَافِرٌ؟ فَقَالَ: بَلْ أَنَا مُسْلِمٌ، قَالُوا: فَمَا تَقُولُ فِي عَلِيٍّ؟ قَالَ: أَقُولُ فِيهِ خَيْرًا، أَقُولُ: إِنَّهُ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ، وَسَيِّدُ الْبَشَرِ، فَقَالُوا لَهُ: كَفَرْتَ يَا عَدُوَّ اللَّهِ، ثُمَّ حَمَلَتْ عَلَيْهِ عَصَابَةٌ مِنْهُمْ فَقَطَّعُوهُ، وَوَجَدُوا مَعَهُ رَجُلًا مِنْ أَهْلِ الذِّمَّةِ، فَقَالُوا: مَا أَنْتَ؟ قَالَ: رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ الذِّمَّةِ، قَالُوا: أَمَّا هَذَا، فَلَا سَبِيلَ عَلَيْهِ...»^(٣).

فَلَمَّا أَصْبَحَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عليه السلام عَلَى مَعْرِفَةِ بَتَحَرُّكِ الْخَرِّيتِ وَأَتْبَاعِهِ وَمَا صَدَرَ مِنْهُمْ مِنْ أَفْعَالٍ تَجَاهَ الْمُسْلِمِ الَّذِي قَتَلُوهُ، وَعَلَى مَا أَفْشَوْا مِنَ الدَّمَارِ وَالْفُسَادِ فِي دِيَارِ الْمُسْلِمِينَ، كَتَبَ إِلَى زِيَادِ بْنِ خَصْفَةَ، الَّذِي كَانَ يَتَنَظَّرُ أَمْرَ الْإِمَامِ عليه السلام بِتَعَقُّبِ الْخَوَارِجِ: «إِتَّبِعْ آثَارَهُمْ، وَسَلِّ عَنْهُمْ»^(٤). فَتَعَقَّبَهُمْ زِيَادُ بْنُ خَصْفَةَ، فَلَحَقَهُمْ بِالْمَذَارِ مِنْ نَاحِيَةِ الْبَصْرَةِ يَرْتَاخُونَ مِنْ عَنَاءِ الطَّرِيقِ وَمَشَقَّتِهِ، ثُمَّ تَنَادَوْا فِيمَا بَيْنَهُمْ، وَكَانُوا فِي الْعِدَّةِ وَالْعَدَدِ نَفْسَهُمَا، فَتَدَاعَوْا فِيمَا بَيْنَهُمْ، وَوَقَعَ الْقِتَالُ بَيْنَ الطَّرَفَيْنِ، وَكَانَ قِتَالًا شَدِيدًا، وَلَمْ يَتِمَّكَنْ طَرَفٌ مِنَ الطَّرَفَيْنِ مِنْ أَنْ يَحْقُقَ الظَّفَرَ، حَتَّى حَجَزَ اللَّيْلُ فِيمَا بَيْنَهُمْ، فَخَرَجَ الْخَرِيتُ بِأَتْبَاعِهِ نَحْوَ نَاحِيَةِ الْأَهْوَازِ^(٥).

(١) نَفَرٌ: قَرْيَةٌ مِنْ أَعْمَالِ الْبَصْرَةِ، وَقِيلَ: مِنْ أَعْمَالِ كَسْكَرَ، ثُمَّ دَخَلَتْ فِي أَعْمَالِ الْبَصْرَةِ، وَقِيلَ: إِنَّمَا مِنْ أَعْمَالِ الْكُوفَةِ. يَاقُوتُ الْحَمَوِيُّ، مَعْجَمُ الْبُلْدَانِ: ٢٩٥/٥.

(٢) دِهَاقِينَ: الدَّهْقَانُ: الْقَوِيُّ عَلَى التَّصَرُّفِ مَعَ حَدَّةٍ، وَهُمْ كِبَارُ الْفَرَسِ وَحُكَّامُهُمْ. ابْنُ مَنْظُورٍ، لِسَانُ الْعَرَبِ: ١٦٤/١٣.

(٣) الطَّبْرِيُّ، تَارِيخٌ: ٨٩/٤؛ وَيُنْظَرُ: الْبَلَاذِرِيُّ، أَنْسَابُ الْأَشْرَافِ: ١٧٧/٣-١٧٨.

(٤) الطَّبْرِيُّ، تَارِيخٌ: ٩٠/٤؛ ابْنُ الْأَثِيرِ، الْكَامِلُ فِي التَّارِيخِ: ٧١٥/٢.

(٥) الْبَلَاذِرِيُّ، أَنْسَابُ الْأَشْرَافِ: ١٧٩/٣؛ الطَّبْرِيُّ، تَارِيخٌ: ٩٢/٤.

ويبدو أنَّ الحزبيّ تمكّن من اجتذاب أنصار جدد لحزبه، فعزّز أتباعه، وكثّر عددهم، وأصبح تواجدهم بتلك الناحية خطيراً؛ إذ يُروى أنّه قد اجتمع معه كثير من العرب، ونصارى كانوا تحت الجزية، فأمر العربَ بِإمساك صدقاتهم، والنصارى بِإمساك الجزية، وكان هناك نصارى أسلموا، فلمّا رأوا الاختلاف بين أهل الدّين الإسلاميّ، ارتدّوا وأعانوا الحزبيّ^(١).

لقد وجد أهل الدّمة أنَّ أهل الدّين الإسلاميّ قد اختلفوا فيما بينهم، وأنّ كلّ طرف يرى أنّه صاحب الحقّ والرأي الصّحيح، فراودتهم الشّكوك حول قضية الجزية ودفعها، فمن قبل كانوا يدفعونها للحاكم الشرعيّ، أمّا الآن، فهم يرون ما وقع فيه المسلمون من حيص وبيص وارتباك، وأنّ الحزبيّ يأمرهم بعدم دفعها، فالتزموا برأيه، وأذعنوا لأوامره.

وبهذا، يكون الحزبيّ قد نجح في التأثير على أهل تلك الناحية، فأصبحوا لا يميّزون بين الحقّ والباطل، علاوة على كونهم وجدوا الفرصة للتخلّص من دفع الجزية للمسلمين.

كانت التطوّرات التي حدثت بناحية الأهواز ممّا لا يطيق الإمام عليّ عليه السلام وأصحابه الصّبر عليه، فاتخذوا التدابير اللازمة والفعّالة من أجل إعادة الصورة الحقيقيّة التي شوّوها الحزبيّ بن راشد بتلك الناحية من بلاد المسلمين، فجّهز عليه السلام معقل بن قيس^(٢) بألفين من أهل الكوفة^(٣)، ثمّ كتب إلى ابن عبّاس عامله على

(١) ابن الأثير، أسد الغابة: ٢/ ١١٠؛ ابن حجر، الإصابة: ٢/ ٢٣٥؛ محمّد الريشهريّ، موسوعة الإمام عليّ بن أبي طالب عليه السلام: ٦/ ٣٩١.

(٢) لم أعثر على ترجمة له.

(٣) البلاذريّ، أنساب الأشراف: ٣/ ١٧٩؛ الطبريّ، تاريخ: ٤/ ٩٣؛ ابن الأثير، الكامل في

البصرة: «أما بعد، فابعث رجلاً من قبلك، صلياً شجاعاً معروفاً بالصَّلاح، في ألْفِي رجل من أهل البصرة، فليتبّع معقل بن قيس، فإذا خرج من أرض البصرة، فهو أمير أصحابه حتّى يلتقي معقلاً، فإذا لقيه، فمعقل أمير الفريقين، فليسمع منه، وليطّعه ولا يخالفه»^(١).

فما كان من ابن عبّاس بعد وصول أوامر أمير المؤمنين عليه السلام إلّا أن يختار خالد ابن معدان الطائي البصريّ لهذه المهمّة الخطيرة^(٢)، وكان من أهل الصَّلاح والدين والبأس والنجدة^(٣).

وكان أمير المؤمنين عليه السلام قد أوصى معقلاً بتقوى الله، وأن لا يبغى على أهل القبلة، ولا يظلم أهل الذمّة، ولا يتكبر^(٤).

بعدما خرج معقل من الكوفة ولحقه أهل البصرة وأجمعوا أمر قيادتهم له، طلبوا الخريّت وشدّدوا الخناق عليه، حتّى وقع القتال بين الطرفين، فتمكّن معقل من زحزحة الخريّت وفتح تلك البلاد التي استولى عليها الخوارج، فهرب قائدهم ببعض أصحابه نحو ساحل بحر عمان^(٥)، فتركه معقل، وكتب إلى الإمام عليّ عليه السلام بذلك النصر، فكتب إليه الإمام عليّ عليه السلام بأن يلاحق الخريّت حتّى يقتله أو ينفيه؛

التاريخ: ٧١٦ / ٢؛ ويُنظر: ابن كثير، البداية والنهاية: ٣٥١ / ٧.

(١) الطبريّ، تاريخ: ٩٣ / ٤؛ ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة: ٩٥ / ٣؛ محمّد باقر المحموديّ، نهج السعادة ١٨١ / ٥.

(٢) لم أعر على ترجمة له.

(٣) الطبريّ، تاريخ: ٩٤ / ٤؛ ويُنظر: البلاذريّ، أنساب الأشراف: ١٧٩ / ٣.

(٤) الطبريّ، تاريخ: ٩٤ / ٤؛ المجلسيّ، بحار الأنوار: ٤١١ / ٣٣.

(٥) اليعقوبيّ، تاريخ: ١٣٥ / ٢.

خوفاً من أن يفسد الناس^(١).

ويبدو أن الخريّيت كان قد عمل على اعتماد المكر في سبيل الحصول على مؤيديه وزيادة أنصاره هناك، فقد روي أنّه قال للخوارج الذين كانوا معه: «إني أرى رأيكم، فإنّ عليّاً لن ينبغي له أن يحكّم الرّجال في أمر الله، وقال للآخرين مندداً لهم: إنّ عليّاً حكم حكماً ورضي به، فخلعه حكمه الذي ارتضاه لنفسه، فقد رضيتُ أنا من قضائه وحكمه ما ارتضاه لنفسه»^(٢).

إنّ الخريّيت هنا يناقض أقواله بنفسه؛ فهو يحاول أن يكون منسجماً مع كلّ صاحب رأي، ثمّ إنّّه يحاول أن يشدّ حماس أصحابه من الخوارج ويذكّرهم بأمرهم الذي خرجوا من أجله ضدّ سلطة الإمام عليّ عليه السلام، وقال سرّاً لمن يرى رأي عثمان: «أنا والله على رأيكم، قد والله قُتل عثمانُ مظلوماً، فأرضى كلّ صنف منهم، وأراهم أنّه معهم، وقال لمن منع الصدقة: شدّوا أيديكم على صدقاتكم، وصلوا بها أرحامكم، وعودوا بها إن شئتم على فقرائكم»^(٣).

ولم يكتف بهذا، بل زاد في دعايته هناك أنّ النصاريّ الذين أسلموا ورجعوا إلى نصرانيّتهم لا يسمح لهم عليّ بذلك، ولا يقبل منهم قولاً ولا عذراً ولا توبة، بل حكمه فيهم ضرب رقابهم بمجرّد التمكنّ منهم^(٤)، فأدّت الأعياب الخريّيت هذه إلى زيادة أنصاره، فاجتمع إليه ناس كثيرون.

إنّ أعمال الخريّيت وأفعاله هذه تدلّ على أنّه رجل سياسة ودهاء ومكر، لا رجل

(١) الطبريّ، تاريخ: ٩٥ / ٤؛ محمّد باقر المحموديّ، نهج السّعادة: ١٨٤ / ٥.

(٢) الطبريّ، تاريخ: ٩٦ / ٤؛ ويُنظر: الثّقفيّ، الغارات: ٣٥٥ / ١.

(٣) الثّقفيّ، الغارات: ٣٥٥ / ١؛ الطبريّ، تاريخ: ٩٦ / ٤.

(٤) الثّقفيّ، الغارات: ٣٥٦ / ١؛ الطبريّ، تاريخ: ٩٦ / ٤.

دين وتشريع وعقيدة ومنهج إلهي، فتراه يغيّر آراءه وأفكاره بما ينسجم مع كلّ فئة يجتمع بها، فهو رجل متلونّ منافق، متغيّر المواقف، يتبنّى آراء كلّ جماعة يلتقي بها من أجل هدفٍ واحدٍ، هو جذب الناس والجهال إلى جانبه، فيكثّر بهم عدده وعدّته، مع غُصّ النظر عن الآراء المتناقضة فيما بينهم، فهو لم يكن رجلاً عقائدياً ملتزماً بمبادئه، إذا كانت له مبادئ، أكثر من كونه رجل سياسة.

لهذا، لم يلتزم الخزّيت بصفاء الرّوح، ولم يكن يحافظ على أهداف الدّين الإسلاميّ، ولم تكن دعوته التي اختارها من أجل واجب الفرد تجاه الله؛ إذ تلزمه بعض قضايا الإسلام أن يتحرّك في سبيل التّغيير، كالتصادم مع السّلطة الجائرة، فأفعاله هذه تناقض بعض الآراء المزعومة التي قيلت في الخوارج، من أنّهم ينظرون إلى صفاء التقوى الإسلاميّة، ويجاهدون في سبيل الله وحده، ويأمرون بالمعروف، وينهون عن المنكر، وأنهم يمتازون بشدّتهم في تقديم الدّين على أيّ اعتبار آخر، وتصلّبهم بحيث لا يقبلون أدنى تساهل في أمر الدّين^(١).

أمّا مصير الخزّيت بن راشد وبني ناجية والناس الذين تجمّعوا حولهم، فقد حاصرهم معقل بن قيس وأصحابه، ثمّ قرأ كتاباً كان معه من الإمام عليّ عليه السلام على مسامعهم، وكشف لهم حقيقة الإمام عليّ عليه السلام، وكيفية تعامله مع من ارتدّ عن الإسلام والنصارى وغيرهم: «فإني أدعوكم إلى كتاب الله، وسنّة نبيّه، والعمل بالحقّ وبما أمر الله في الكتاب، فمن رجع إلى أهله منكم، وكفّ يده واعتزل هذا الهالك الحارب، الذي جاء يُحارب الله ورسوله والمسلمين، وسعى في الأرض فساداً، فله الأمان على ماله ودمه، ومن تابعه على حربنا والخروج عن طاعتنا،

(١) فلهاوزن، الخوارج والشيعة: ص ٣٢-٣٣.

استعنا الله عليه، وجعلنا الله بيننا وبينه، وكفى بالله نصيراً»^(١).

ثم أخرج معقل بن قيس راية أمان، فنصبها، وقال: مَنْ أتاها من الناس، فهو آمن، إلّا الخزّيت وأصحابه الذين حاربونا وبدأونا أوّل مرّة^(٢)، أي: إنّهُ استثنى الخزّيت وأتباعه الثلاثمائة من بني ناجية، الذين أعلنوا خروجهم من الكوفة، وقتلوا الناس بغير ذنب.

تفرّق عن الخزّيت جُلّ مَنْ كان معه، ولم يكن الخزّيت يستسلم لحقيقة الأمر الذي انكشف لأتباعه، بل أصرّ على تكذيبه قول معقل بن قيس، وزاد في غيّه، فقال لمن معه: «امنعوا حريمكم، وقاتلوا عن نسائكم وأولادكم، فوالله، لئن ظهروا عليكم، ليقتلونكم وليسبينكم»، فردّ عليه أحد أتباعه: «هذا والله ما جتته علينا يداك ولسانك»^(٣).

وهذا يعني أنّ الاختلاف دبّ بين أصحاب الخزّيت في نهاية المطاف، فحمل عليهم معقل وأتباعه، فتمكّنوا من قتل الخزّيت وجماعته التي خرجت معه من الكوفة أوّل أمرهم.

أمّا النّصارى والذين ارتدّوا، فقد أخذ البيعة منهم على العدول عن الأمر الذي لزموه مع الخزّيت، فرجعوا إلى الدّين الإسلاميّ، وأدّوا الصّدقات التي لزمتهم، وكتب معقل إلى أمير المؤمنين عليه السلام يخبره بما كان من أمره ونهاية الخزّيت^(٤).

(١) الطبريّ، تاريخ: ٩٧ / ٤.

(٢) البلاذريّ، أنساب الأشراف: ٣ / ١٨٠؛ الطبريّ، تاريخ: ٩٧ / ٤؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ٧١٨ / ٢.

(٣) الطبريّ، تاريخ: ٩٨ / ٤؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ٧١٩ / ٢.

(٤) للتفصيل راجع: الطبريّ، تاريخ: ٩٩ / ٤.

وبهذا يكون الخَزَّيْتِ وبنو ناجية من أخطر خوارج البصرة، قد التزموا بأنَّ مبدأ التحكيم كان ضعفاً أمام الحقِّ، فدانوا الإمام عليّاً عليه السلام وخرجوا على سلطته، لكنَّ الشيء الملفت للنظر، هو عدم توجَّههم إلى البصرة ليُعلنوا فيها معارضتهم لحكم أمير المؤمنين عليٍّ عليه السلام، مع أنَّها مدينتهم وموطن أهلهم، بل اتَّجهوا نحو بلاد فارس، ما يعكس أنَّ البصرة في تلك الفترة كانت خاضعة لسيطرة الإمام عليٍّ عليه السلام عن طريق واليه عبد الله بن عبَّاس، وأنَّ البصرة لم ترحَّب بدعوة هؤلاء الخوارج، فبقوا معزولين عن أهلها.

المبحث الثاني

خوارج البصرة زمن الدولة الأموية

بعدما تسلّم الأمويّون زمام الحكم سنة (٤١هـ / ٦٦١م)، لم يمض على حكمهم سوى شهور حتّى وجدنا المشاكل بدأت تعمّ أرجاء الدولة العربيّة الإسلاميّة؛ لأسباب انبثقت عن سياسة الأمويّين في التعامل مع النّاس؛ إذ قرّبوا أحزابهم ومَن والاهم، وأطلقوا لهم كلّ ما يرغبون به من متطلّبات الحياة الرّغيدة، وفي المقابل، حرموا سائر النّاس وأصحاب الحقّ ممّن عدّوهم بعيدين عن خطّهم وتأييدهم، وبذلك أحيّا الأمويّون العصبيّات القبليّة من جديد، فظهر النزاع بين القبائل العربيّة بعد أن كانت حدّته قد خفت، أو اختفت في عهد الرّسول الأكرم ﷺ.

ومع هذه السّياسة الجائرة، ثارت الأحزاب هنا وهناك، وظلّوا طول الحكم الأمويّ في صراع مستمرّ مع الحكّام، يشنّون عليهم هجمات، وإن كانت ضعيفة مقابل جيوش الأمويّين، إلّا أنّهم عبّروا عن عقيدتهم التي توصّلوا إليها عن قناعة الفكر، فأربكوا نظام الدولة التي بقيت تعاني من كثرة ثورات الخوارج، التي حاولت الإطاحة بالأنظمة التي تكوّنت من أجل خدمة الأمويّين في الأمصار العربيّة الإسلاميّة، حتّى لقد أصبحت ثوراتهم وانتفاضاتهم أشبه بالظاهرة المستمرّة مع استمرار الزمان، والمنتشرة في المكان ضدّ الأمويّين^(١).

وكان الخوارج من أعنف الأحزاب الثائرة، فلم يتركوا فرصة إلّا وانقضّوا من

(١) د. محمّد عمارة، الإسلام وفلسفة الحكم: ص ١٥١.

خلالها على الأمويين، إلّا أنّ ثوراتهم وحركاتهم لم تحقّق لهم أهدافهم التي كانوا يتطلّعون إلى تحقيقها، وظلّوا يقدّمون أرواحهم في سبيل تحقيق هذه الأهداف، فتحملوا ألواناً شتى من الشقاء والعذاب^(١).

لقد تبلورت عقيدة الخوارج السَّياسِيَّة والدينيَّة في العصر الأمويّ، وانقسموا هم أنفسهم إلى فرق، فمنهم: المعتدلون، ومنهم: الغلاة والمتشدّدون^(٢)، فهم لم يستطيعوا أن يسكتوا على انتهاكات الحُكّام والولاة الأمويين، فنادوا بمعارضتهم الأساليب التي عرّضت الناس إلى القهر والحرمان وانتهاك الحقوق، فتمكّن الخوارج من نشر فرقهم على طول الأرض الإسلاميَّة، وقد تغلّبوا على أرض وكور واسعة^(٣).

أمّا الخوارج في البصرة أيّام الأمويين، فقد كانوا أشدّ خطراً، وكانوا متنوّعين، فكان منهم قليل التطرّف، والبعض الآخر متطرّفون قليلو المبالاة بالمبادئ، في غريزتهم ميلٌ إلى سفك الدماء^(٤).

وكان أوّل مَنْ أعلن خروجه ضدّ السّلطة الأمويّة في البصرة سهم بن غالب الهجيميّ في أيّام معاوية سنة (٤١هـ)^(٥)، وكان من المستبصرين في رأيه، أي: كان

(١) د. نبيل خليل أبو حاتم، الفرق الإسلاميّة فكريّاً وشعراً: ص ٤٣.

(٢) د. محمّد ماهر حمادة، الوثائق السَّياسِيَّة والإداريّة العائدة للعصر الأمويّ: ص ٢٦.

(٣) د. عبد الله سلوم السامرائي، الغلو والفرق الغالية: ص ١١٥.

(٤) فلهاوزن، تاريخ الدولة العربيّة: ص ١٢٢.

(٥) الطبريّ، تاريخ: ٤ / ١٣٠؛ ابن عبد البر، الاستيعاب: ٢ / ٨٠٩؛ ابن الأثير، الكامل في

التاريخ: ٣ / ١٦؛ الصفدي، الوافي بالوفيات: ١٦ / ٣٥٤؛ ابن خلدون، تاريخ: ٣ / ١٤٢؛

فلهاوزن، الخوارج والشيعة: ص ٥٠؛ د. محمّد عمارة، الإسلام وفلسفة الحكم: ص ١٥١.

عارفاً بأمور دينه وعمله^(١)، ومتأماً الطريق الذي سلكه، دون أن يميل إلى رأي غيره.

وكان -أيضاً- أول من وصف أهل القبلة بالكفر، ولم تكن الخوارج قبله تقطع بالشهادة بالكفر والإيمان^(٢)، وكان الذي خرج معه سهم الخطيم الباهلي، واسمه يزيد بن مالك، وإنما قيل له: الخطيم لضربة ضُرب بها على وجهه^(٣).

وكانوا في سبعين رجلاً، وكان خروجهم ضدّ الوالي عبد الله بن عامر والي البصرة حينئذٍ لمعاوية بن أبي سفيان، فنزلوا بين الجسرين^(٤) في البصرة^(٥)، وصلى بهم الغداة سهم، فمرّ بهم عبادة بن قرص الليثي^(٦) ومعه ابنه وابن أخته، فأنكروهم، فقالوا: من أنتم؟ فقالوا: قوم مسلمون، قالوا: كذبتهم، فقال عبادة: سبحان الله، إقبلوا ما

(١) يُنظر: أبو هلال العسكري، الفروق اللغوية: ص ١٠٢.

(٢) البلاذري، أنساب الأشراف: ١٧٩/٥.

(٣) البلاذري، أنساب الأشراف: ١٧٩/٥؛ الطبري، تاريخ: ١٣٠/٤؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ١٦/٣.

(٤) الجسرين: يوجد في البصرة جسران بتلك الفترة، الجسر الأصغر، مرّ ذكره في الفصل الأول ص ٤٤، هامش (١)، أمّا الجسر الآخر، فهو الجسر الأكبر، ويُدعى الجسر العظيم، كان ممتدّاً على دجلة، يقع في شرق الجسر الأصغر، وقد عسكر عنده المهلب بن أبي صفرة ومصعب ابن الزبير، وكذا أقام أبو جعفر المنصور عندما زار البصرة سنة ١٤٢ هـ، وأصبح مكان إقامة أبي جعفر يسمّى (عسكر أبي جعفر). صالح أحمد العلي، خطط البصرة: ص ١٥٨.

(٥) البلاذري، أنساب الأشراف: ١٧٩/٥.

(٦) عبادة بن قرص الليثي: بن عروة بن بحير بن مالك بن قيس بن عامر بن ليث بن بكر ابن عبد مناة بن كنانة، عاداه في أهل البصرة، روي عنه أبو قتادة العدوي. ابن عبد البر، الاستيعاب: ٨٠٩/٢؛ وضبط ابن الأثير (قرص) ب (قرط)، ولم يُصحّحه ابن عبد البر، يُنظر: ابن الأثير، أسد الغابة: ١٠٧/٣.

قَبْلَ النَّبِيِّ ﷺ مَنِّي، قالوا: وما قبل منك؟ قال: كَذَّبْتُهُ وَقَاتَلْتُهُ، ثُمَّ أَتَيْتُهُ، فَقُلْتُ: أَشْهَدُ أَلَّا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَنَّكَ رَسُولُ اللَّهِ، فَقَبِلَ ذَلِكَ، قالوا: أَنْتَ كَافِرٌ، فَقَتَلُوهُ، وَقَتَلُوا ابْنَهُ، وَابْنَ أُخْتِهِ^(١).

أَمَّا الطَّبْرِيُّ، فَيَذْكُرُ أَنَّ سَهْمًا وَالْخَطِيمَ وَجَدَا عِبَادَةَ بْنَ قَرْصِ اللَّيْثِيِّ يَصِلِّيَ عِنْدَ الْجَسْرِ، فَأَنْكَرُوهُ، وَقَتَلُوهُ^(٢).

إِنَّ هَؤُلَاءِ الْخَوَارِجَ حَسَبَ الرِّوَايَةِ السَّابِقَةِ كَانُوا قَدْ خَرَجُوا مِنْ أَجْلِ اسْتِعْرَاضِ النَّاسِ وَقَتْلِ الْمُسْلِمِينَ الْأَبْرِيَاءِ! وَهَمَّ بِهِذِهِ الصِّفَةِ يَكُونُونَ بَعِيدِينَ عَنْ أَمْرِ السُّلْطَةِ وَالتَّغْيِيرِ الَّذِي زَعَمُوا أَنَّهُمْ خَرَجُوا مِنْ أَجْلِهِ! فَالرِّوَايَاتُ التَّارِيخِيَّةُ لَمْ تَبَيِّنْ لَنَا أَسْبَابَ خُرُوجِ سَهْمِ الْهَجِيمِيِّ وَالْخَطِيمِ الْبَاهِلِيِّ، بَلْ صَوَّرَتْهُمَا عَلَى أَسَاسِ أَنَّهُمَا خَرَجَا عَلَى سَفْكِ الدِّمَاءِ وَنَشْرِ الْفَوْضَى دَاخِلَ الْبَصْرَةِ، وَبِذَلِكَ فَهَمَّ يَتَبَنَّى الْفِكْرَةَ الَّتِي يَلْتَزِمُونَهَا لِأَوَّلِ وَهْلَةٍ، وَلَا يَهْمُهُمْ رَأْيُ غَيْرِهِمْ، بَلْ يَرُونَ أَنََّّهُمُ الْأَصْحَحُ، وَمِنْ خَالَفَهُمْ مَخْطِئٌ تَجِبُ مَعَاقِبَتُهُ.

وَعَلَى هَذَا الْأَسَاسِ، نَجِدُهُمْ قَدْ فَتَكُوا بِعُبَادَةَ بْنِ قَرْصِ اللَّيْثِيِّ وَابْنَهُ وَابْنَ أُخْتِهِ، لِمُخَالَفَتِهِمْ فِي الرَّأْيِ، وَرَبَّمَا كَانَ عِبَادُ أَحَدِ أَمْرَاءِ مُعَاوِيَةَ، أَوْ قَادَتِهِ الْعَسْكَرِيِّينَ، وَقَدْ ذَكَرَ الْمُؤَرِّخُونَ أَنَّهُ كَانَ عَائِدًا مِنْ غَزْوٍ، مِنْ دُونِ أَنْ يَذْكُرُوا ذَلِكَ الْغَزْوُ^(٣).

لَرَبَّمَا ظَنَّ الْخَوَارِجَ عِنْدَمَا شَاهَدُوا عُبَادَةَ بْنَ قَرْصِ اللَّيْثِيِّ وَمَنْ مَعَهُ يَمُرُّ بِهِمْ وَمَعَهُ سِلَاحُهُ أَنَّهُ كَانَ يَتَعَقَّبُهُمْ، فَقَتَلُوهُ، وَالَّذِي يَرَجِّحُ هَذَا الْقَوْلَ، قَوْلُ عُبَادَةَ لِلْخَوَارِجِ أَنَّهُ كَذَّبَ النَّبِيَّ ﷺ وَقَاتَلَهُ، ثُمَّ صَدَّقَهُ وَأَمَّنَ بِرِسَالَتِهِ، فَعَفَى عَنْهُ، وَعَلَيْهِمْ

(١) الْبَلَاذِرِيُّ، أَنْسَابُ الْأَشْرَافِ: ٥ / ١٧٩.

(٢) تَارِيخُ الطَّبْرِيِّ: ٤ / ١٣٠؛ وَيُنْظَرُ: ابْنُ الْأَثِيرِ، الْكَامِلُ فِي التَّارِيخِ: ٣ / ١٦.

(٣) ابْنُ الْأَثِيرِ، الْكَامِلُ فِي التَّارِيخِ: ٣ / ١٦؛ وَيُنْظَرُ: ابْنُ عَبْدِ الْبَرِّ، الْاِسْتِعَابُ: ٢ / ٨٠٩.

أن يصدّقوه ويعفوا عنه^(١).

ثم يروى أن عبد الله بن عامر خرج إليهم بنفسه، فقاتلهم وقتل منهم جماعة، وبقي سهم والخطيم، فعرض عليهما الأمان، فقبلوه، فأمنّهم، فرجعوا عن أمرهم^(٢). بعدها كتب عبد الله بن عامر إلى معاوية: «قد جعلتُ لهم ذمّتك. فكتب إليه معاوية: لو كنت قتلته، كانت ذمّة خاشفتُ^(٣) فيها»^(٤).

وبهذا الأمان الذي أعطاه ابن عامر لهؤلاء الخوارج، عادوا إلى أهلهم، واستقرّوا في البصرة، ولكنّهما بمرور الزمن عادا إلى الخروج من جديد ضدّ السّلطة الأمويّة، فعندما تولّى زياد بن أبيه أمر البصرة سنة (٤٥هـ / ٦٦٥م)، هرب سهم والخطيم نحو الأهواز خوفاً من بطش زياد أن ينقض ذلك الأمان الذي حصلوا عليه من عبد الله بن عامر أيّام ولايته على البصرة.

ويبدو أنّ سهماً كان قد دعا للثورة ضدّ الدّولة الأمويّة في الأهواز؛ إذ اجتمع إليه جماعة^(٥) كانت كافية لتجاسره بالعودة إلى البصرة، فأقبل نحوها، فأخذ قوماً، فقالوا: نحن يهود، فخلّاهم، وأخذ سعداً مولى قدامة بن مظعون الجحمي^(٦)،

(١) يُنظر: البلاذريّ، أنساب الأشراف: ١٧٩/٥.

(٢) د. فاطمة قدوره، تطوّر تاريخ العرب: ص ١٨٩.

(٣) خاشفتُ: سارعتُ إلى إغفارها. ابن قتيبة، غريب الحديث: ١٤١/٢؛ الزمخشريّ، الفايق في غريب الحديث: ٣٢٢/١.

(٤) ابن قتيبة، الإمامة والسّياسة: ١٤١/٢؛ الزمخشريّ، الفايق في غريب الحديث: ٣٢٢/١؛ ابن الأثير، النّهاية في غريب الحديث: ٣٥/٢.

(٥) البلاذريّ، أنساب الأشراف: ١٨٠/٥؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ١٦/٣.

(٦) قدامة بن مظعون الجحميّ: يكنى أبا عمرو، أمّه امرأة من بني جمح، وهو خال عبد الله وحفصة ابني عمر بن الخطّاب، هاجر إلى الحبشة، ثمّ شهد بدرّاً وجميع المشاهد، واستعمله

فقتله^(١).

وبهذا يكون هذه المرّة قد مال إلى استعراض الناس وسفك الدِّماء بغير حقّ، ويبدو أنّ سفك الدِّماء هذا قد أثر على حركة سهم الهجيميّ؛ فعندما قدم على أصحابه وقومه في البصرة، يطلب منهم إعانته على زياد بن أبيه، تفرّقوا عنه، فلم يتمكّن من مواصلة أمره، فاستخفى، ثمّ حاول أن يطلب الأمان لنفسه، ورجا أن يسوغ له عند ابن زياد كما ساغ عند ابن عامر من قبل، لكنّ ابن زياد لم يؤمنه، وبحث عنه فدلّ عليه، فأخذه، فقتله، وصلبه على باب داره^(٢)، وفي حادثة قتله قال رجل من الخوارج:

فَإِنْ تَكُنِ الْأَحْزَابُ بِأَوْوَابِصْلِهِ فَلَا يُبْعَدَنَّ اللَّهُ سَهْمَ بْنَ غَالِبٍ^(٣).

أمّا الخطيم الباهليّ، فلم يقتله زياد بن أبيه، بل سيّره ونفاه إلى البحرين^(٤)، وهذا يعني أنّ زياداً حاول أن يتنوّع في سياسته مع الخوارج بإرسال الخطيم إلى هناك، فضلاً عن ذلك، فإنّ الأمور داخل البصرة كانت متوتّرة بعض الشيء، ما جعل

عمر بن الخطّاب على البحرين، مات سنة ٣٦هـ، وله من العمر ٦٨هـ. ابن سعد، الطبقات الكبرى: ٣/ ٤٠١؛ ابن عبد البرّ، الاستيعاب: ٣/ ١٢٧٧.

(١) خليفة بن خيّاط، تاريخ: ص ١٥٣؛ ابن عبد البرّ، الاستيعاب: ٢/ ٦١٢؛ ابن حجر، الإصابة: ٣/ ٧٩.

(٢) البلاذريّ، أنساب الأشراف: ٥/ ١٨٠؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ٣/ ٤١٧؛ فلهاوزن، الخوارج والشيعة: ص ٥٠؛ رمزيّة عبد الوهّاب الخيرو، إدارة العراق في عهد زياد: ص ٢٤٣.

(٣) البلاذريّ، أنساب الأشراف: ٥/ ١٨٠؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ٣/ ١٧.

(٤) البلاذريّ، أنساب الأشراف: ٥/ ١٨٠؛ رمزيّة عبد الوهّاب الخيرو، إدارة العراق في عهد زياد: ص ٢٤٢.

واليها يفرّق قادة الاضطراب، فما إن هدأت الحياة السياسيّة في البصرة، حتّى وجدنا أنّ زياداً قد أذن للخطيم بالعودة إلى البصرة، وأمره أن يقيم في منزله دون تحرّك، وهذا الأمر ناتج عن تخوّف زياد بن أبيه من الخطيم؛ خشيةً من أن يخرج ويحرّض النّاس على الخروج ضدّ السّلطة الأمويّة، حتّى أنّ أمر إرجاعه إلى البصرة جاء عن أسباب احترازيّة؛ لأنّ تواجدّه بالبحرين ربّما كان سيفتح بمرور الزمن جبهة جديدة ضدّ السّلطة الأمويّة هناك، فأمر بإرجاعه للبصرة من أجل أن يكون تحت المراقبة ليس إلّا؛ إذ أمر زياد بن أبيه مسلم بن عمرو أبا قتيبة الأمير المشهور بأن يتفقّده في حالة غيابه عن منزله، فلمّا غاب الخطيم عن منزله ليلة، أخبر زياد بن أبيه بذلك، فأمر بقتله، وأُلقي في باهلة، فحملته امرأة يقال لها: عمرة، فدفتته، وأخذ زياد امرأتين أرادتا الخروج مع الخطيم، يقال لهما: أراكة، وأمّ سريع، فقتلهما^(١).

وبذلك، تمكّن زياد من القضاء على خطر هؤلاء؛ إذ استطاع إسكات صوته بعد أن جرّد السيّف ليشمل الرّجال والنّساء دون استثناء، وبهذا، يكون هؤلاء الخوارج قد مثّلوا معارضة سياسيّة ضدّ الدّولة الأمويّة، ولكنّ عملهم جاء بشكل انفراديّ، فاقصر على مجموعة أشخاص داخل البصرة فقط، دون أن يدعوا سائر أهل الأمصار، كالكوفة مثلاً للمشاركة في عمليّة المعارضة التي التزموها مبدأً يُبيح لهم الدّفاع عن معتقداتهم.

وفي سنة (٤٣هـ / ٦٦٣م)، خرج المستورد بن غفلة الخارجي^(٢) في الكوفة، وقد

(١) البلاذريّ، أنساب الأشراف: ٣/ ١٨٠؛ الطبريّ، تاريخ: ٤/ ١٧٢؛ فلهاوزن، الخوارج والشيعة: ص ٥١.

(٢) المستورد بن غفلة الخارجي: من تيم الرّباب، من كبار الخطباء الدّهاة، من الإباضيّة، خرج على الإمام عليّ بن أبي طالب (عليه السلام) في النخيلة بعد معركة النهروان في جماعة من أهل الكوفة،

اجتمع حوله أتباع كثيرون، ولما علم المغيرة بن شعبة -والي الكوفة حينئذٍ لمعاوية- تشدّد تجاههم، فطلبهم، فهربوا من مصرهم حتّى نزلوا المذار من أرض البصرة^(١)، فأصبح خطرهم يهدّد الوالي عبد الله بن عامر، الذي ارتبك أمره عندما سمع بنزولهم في أرض البصرة، ثمّ سأل عن المغيرة بن شعبة، وكيفية تعامله معهم، فقليل له: إنّ المغيرة اختار رجلاً من أصحاب الإمام عليّ عليه السلام كان المستورد قد قاتلهم مع الإمام عليه السلام يوم النهروان، فرأى عبد الله بن عامر أن يبعث رجلاً لقتالهم من أهل البصرة من شيعة أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب عليه السلام، فاختار شريك بن الأعور الحارثيّ الهمدانيّ، وقال له: «أخرج إلى هذه المارقة»^(٢).

انتخب شريك ثلاثة آلاف رجل من الناس، وتوجّه نحو المستورد بن غفلة وأصحابه، وكان هدفه في توجّهه هذا إخراج الخوارج عن أرض البصرة، أو قتالهم إن لم يخرجوا^(٣).

والظاهر أنّ النّاس في البصرة كانت قد كرهت أمر الخوارج؛ إذ كلّما خرجت خارجة منهم بدأت عملها في استعراض النّاس وقتل البعض منهم، فيسود الشّغب والاضطرابات، وتقع الفرقة بين صفوف المسلمين. ويذكر أنّ شريك بن الأعور الحارثيّ عندما أمره عبد الله بن عامر بأن يخرج

فسار إليهم الإمام عليّ عليه السلام، فقاتلهم، ونجا المستورد، فاستتر في الكوفة إلى أيّام المغيرة بن شعبة سنة ٤٢هـ، فنار هناك، وقُتل. الزُّركلي، الأعلام: ٧/ ٢١٥.

(١) الطبريّ، تاريخ: ٤/ ١٤٨.

(٢) الطبريّ، تاريخ: ٤/ ١٤٨؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ٣/ ٣١.

(٣) الطبريّ، تاريخ: ٤/ ١٤٨؛ ويُنظر: ابن خلدون، تاريخ: ٣/ ١٤٣؛ فلهاوزن، الخوارج والشيعة: ص ٤٨.

إلى أعداء الله بمن يستحلّ قتالهم من أهل البصرة، ظنّ أنّه إنّما يعني بقوله ذلك أن يختار شيعة الإمام عليّ عليه السلام لهذه المهمة، ولكنّ ابن عامر كره أن يسمّيهم بذلك، وعليه، فقد ألحّ شريك على فرسان ربيعة الذين كانوا شيعة للإمام عليّ عليه السلام، فأجابه العظماء منهم^(١).

وبهذا، يكون عبد الله بن عامر قد حاول أن يُثير حماس شيعة البصرة ضدّ أعدائهم الذين نزلوا أرضهم؛ لأنّ المستورد بن غفلة كان أحد الذين حاربوا أمير المؤمنين الإمام عليّ عليه السلام يوم صفّين، وهذا يعني أنّ اختلافهم مع الإمام عليّ عليه السلام في تلك الفترة كان لا يزال مستمرّاً، وأنّهم لم يرجعوا عن أفكارهم المنحرفة التي حاربوه من أجلها.

ولما علم المستورد بقدوم جيش أهل البصرة لحربهم، كرّر راجعاً إلى الكوفة، وهو يقول لأصحابه: «قتال أهل مصر واحد أهون علينا من قتال أهل المصريين»^(٢). فما كان من جيش أهل البصرة إلّا أن كره بأن يقوم بملاحقة المستورد وأتباعه عندما خرجوا من البصرة؛ فشريك استشارهم في مسألة مشاركة أهل الكوفة في القضاء على المستورد، لكنّ فرسان البصرة رفضوا ذلك، وقالوا: إنّما أقبلنا نحوهم لتنفيهم عن أرضنا، ونمنعهم من دخولها.

ثمّ إنّ أهل البصرة خافوا على مصرهم من وقوع حادثة مشابهة لحادثة أهل الكوفة، وقرّروا أنّ الأجدر بهم هو البقاء لحراسة مدينتهم، فقال بيهس الجرمي^(٣)

(١) الطبريّ، تاريخ: ٤/ ١٤٨.

(٢) الطبريّ، تاريخ: ٤/ ١٥٢.

(٣) بيهس الجرمي: لم أعثر على ترجمة له. وقيل: «البارز: فرس بيهس الجرمي». الفيروزآبادي، القاموس المحيط: ٢/ ١٦٦؛ الزبيدي، تاج العروس: ٨/ ١١.

-أحد فرسان أهل البصرة المتواجدين مع شريك بن الأعور حينئذٍ - لشريك: «أما بلغك أنَّ الأكراد قد كفروا بجبال فارس؟ قال: قد بلغني، قال [بيهس]: فتأمرنا أن نطلق معك نحمي بلاد أهل الكوفة ونقاتل عدوهم، ونترك بلادنا... ولعمري لو أنا أطعناك في اتباعهم فاتَّبعتهم، كنتَ قد اجترأتَ على أميرك، وفعلتَ ما كان ينبغي لك أن تطلع فيه رأيهُ، ما كان ليحتملها لك»^(١). وهذا يعني أنَّ الحياة السَّياسِيَّة في تلك الفترة أخذت منحىً جديداً؛ إذ يكون أهل المصر هم المسؤولون عن استقرار أوضاعهم السَّياسِيَّة في الحالات الطارئة، وليس من شأنهم التدخُّل في أمور الأمصار الأخرى؛ لأنَّها تُدار بوالٍ آخر هو المسؤول عن إدارة مصره، إلَّا في حالة الاستعانة التي تطلب منهم، أو الأوامر التي تصدر عن السَُّلطة الحاكمة، فعندها، يكون موقفهم مغايراً لما قلنا تماماً.

إنَّ هذا الخبر الذي ذكرناه يكون آخر الأحداث التي وقعت في البصرة من جانب الخوارج زمن الوالي عبد الله بن عامر بن كريز.

أمَّا العهد الذي شهدته البصرة بعد عزل ابن عامر عنها، فكان ذا اضطراب سياسيٍّ مستمرٍّ، فتولَّى أمر البصرة زياد بن أبيه، والشيء الذي أثار حفيظة الخوارج في البصرة أيام زياد، هو شدَّة التي عُرِف بها، فقد أخذ يُعاقب كلَّ مَنْ وجده ذا أثرٍ فعَّالٍ داخل المصر ضدَّ السَُّلطة الأمويَّة، فكانت أفعاله هذه قد دفعت بعض أهل البصرة إلى الوقوف ضدَّها قدر الإمكان، وعدَّها انتهاكاً لدين الله، يوجب النهوض ضدَّ الحكومة من أجل تغيير واقعهم الذي أصبح رهينة بيد الوالي الأموي.

(١) الطبري، تاريخ: ٤/ ١٥٤.

لم تكن الخوارج بالبصرة تخشى سيف زياد بن أبيه، بل كان كلُّ همِّهم إثارة حفيظته، وتعكير ولايته، وتحديه بما عزموا عليه من إرادة.

تبدأ مرحلة التحدي هذه منذ عام (٤٧هـ / ٦٦٧م)، فقد كان زياد قد فرض سيطرته بشكل كامل على البصرة، فولّى شيبان بن عبد الله السعديّ صاحب مقبرة شيبان حراسة المسجد وباب عثمان^(١)، وكان شيبان شديداً على الخوارج، فتسلّلوا إليه وهو على باب داره، فقتلوه وهو متّكئ.

وكان رئيس الشرطة عباد بن حصين^(٢)، فخرج إليهم بشر بن عتبة التميمي^(٣) في الشرط، فقاتل الخوارج وقتلهم، وفي ذلك يقول الفرزدق:

لَعَمْرُكَ مَا لَيْثٌ بِخَفَانٍ خَادِرٍ بِأَشْجَعٍ مِنْ بَشْرِ بْنِ عُتْبَةَ مُقَدِّمًا
أَبَاءَ بِشِيَانَ الثَّوُورِ وَقَدْ رَأَى بَنِي فَاتِكٍ هَابُوا الْوَشِيحَ الْمُقَوَّمَا^(٤).

ولم يحقق هؤلاء الخوارج النجاح في عملهم هذا، بل نجدهم كمن سبقهم؛ إذ أضيفوا إلى عدد القتلى الذين سقطوا أثناء خروجهم ضدّ السّلطة.

وكان زياد بن أبيه أخذ يُعاقب الخوارج بالطريقة التي قتلوا بها شيبان بن عبد الله؛ إذ يُروى أنّ زياداً أخذ رجلاً من الخوارج، فقال: «أُقتلوه متّكئاً كما قُتل شيبان متّكئاً»^(٥).

والظاهر أنّ زياداً كان يحاول كسب رضا الخوارج في بعض الأحيان في سبيل

(١) يُنظر ملحق رقم (٢).

(٢) البلاذريّ، أنساب الأشراف: ١٨١ / ٥.

(٣) لم أعثر على ترجمة له.

(٤) ديوان: ص ٥١٩؛ البلاذريّ، أنساب الأشراف: ١٨١ / ٥.

(٥) البلاذريّ، أنساب الأشراف: ١٨١ / ٥؛ ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة: ٦٥ / ٥.

ترويضه، والتخفيف من أعدادهم التي لا تكاد تنتهي؛ إذ كان يبعث إلى الرّجل من الخوارج فيعطيه ويكسوه، ويقول له: «ما أراه منعك من إتياننا إلّا الخلّة والرّجالة»^(١). وهذا النصّ يكشف لنا أنّ الجانب الاقتصاديّ قد أثر في بعض الأهالي، فانخرطوا مع الخوارج في سبيل تحقيق مبتغاهم.

وفي سنة (٥٠هـ / ٦٧٠م)^(٢) شهدت البصرة أقوى حركة للخوارج في عهد زياد ابن أبيه، تلك التي مثّلها كلّ من: قريب بن مرّة الأزديّ، وزحاف الطائيّ، وهما أبناء خالة، وكانا عابدين مجتهدين من أهل البصرة، خرجا في سبعين رجلاً، وأرادوا أن يولّوا زحافاً أو قريباً زعامة أمرهم، فلم يفرق لهم الرأي أيّهما أفضل من صاحبه^(٣)، وقيل: اختلف الناس أيّهما الرّئيس^(٤).

وقد استغلّ قريب وزحاف تواجد زياد بن أبيه في الكوفة ونيابة سمرة بن جندب البصرة حالة غيابه^(٥)، فخرجا ليلاً، فنزلا في بني يشكر، ثمّ أتيا بني ضبيعة، فقتلوا رجلاً منهم يقال له: حكاك^(٦)، ثمّ قويت شوكتهم، فبدأوا يستعرضون الناس

(١) البلاذريّ، أنساب الأشراف: ٥ / ١٨١؛ والخلّة: الحاجة والفقر. الجوهريّ، الصّحاح: ٤ / ١٦٨٧؛ ابن سلام، غريب الحديث: ٤ / ٦٣.

(٢) الطبريّ، تاريخ: ٤ / ١٧٦؛ وذكر بعض المؤرّخين أنّ خروجهم كان ضمن أحداث سنة ٥٣هـ. للتفصيل راجع: خليفة بن خيّاط، تاريخ: ص ١٦٧؛ الذهبيّ، تاريخ الإسلام: ٤ / ١٥٤؛ ولم يحدّد يعقوبيّ فترة خروجهم بالسّنة. تاريخ: ٢ / ١٦١.

(٣) البلاذريّ، أنساب الأشراف: ٥ / ١٨٣.

(٤) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة: ٤ / ١٣٥.

(٥) الطبريّ، تاريخ: ٤ / ١٧٦؛ أمّا يعقوبيّ، فجعل خروجهم في ولاية عبيد الله بن أبي بكر. تاريخ: ٢ / ١٦١.

(٦) البلاذريّ، أنساب الأشراف: ٥ / ١٨٣؛ الطبريّ، تاريخ: ٤ / ١٧٦؛ وذكره خليفة بن

والشُّرط، فقتلوا جمعاً كبيراً من النَّاس^(١).

بعدها تفرَّق الخوارج إلى فرق، فرقة أقامت في مسجد الأزد، وانطلقت فرقة منهم إلى بني عليّ بن سودٍ من بطون الأزد، وفرقة ذهبت إلى مسجد المعاول^(٢).

وبهذا الانتشار من قبل الخوارج، كانوا يدبِّرون خطّة عسكريّة تهدف إلى إثارة الفوضى الكبيرة من نواحي البصرة، ثمّ سقوطها بيد الخوارج.

وإنّ انتشار فرق الخوارج باتجاهات مختلفة، كان سيؤدّي إلى إضعاف أمر الشّركة في التصديّ لهم، بل ربّما يسبّب هذا الانتشار إرباك سلطة الوالي داخل البصرة، فتكون المدينة لقمة سائغة في فم الخوارج.

فضلاً عن هذا، فإنّ الخوارج لم يقصدوا الوالي وأتباعه ومؤيديه في حملتهم هذه فقط، بل جرّدوا سيوفهم حتّى على الناس العزل؛ إذ يروى أنّهم أتوا مسجد بني قطيعة، فأخذوا بأبوابه، حتّى هرب الناس ووثبوا الجدار، وصعد رجل إلى منارة المسجد، فنادى: «يا خيل الله، اركبي»، فأنزله وقاتلوه^(٣).

وبلغ أبا بلال مرداس بن أدية -الذي سيأتي الحديث عنه لاحقاً- خبر هؤلاء الخوارج واستعراضهم النَّاس، فقال: «قريب لا قرّبه الله من الخير، وزحاف لا

خيّاط باسم (صكبان)، تاريخ: ص ١٨٦؛ أمّا المبرّد، فسماه (رؤبة الضبعي)، الكامل في اللّغة: ص ٦١٦.

(١) اليعقوبيّ، تاريخ: ١٦١/٢؛ ويُنظر: رمزيّة عبد الوهّاب الخيرو، إدارة العراق في عهد زياد: ص ٢٤٣؛ د. أحمد عوض أبو الشّباب، الخوارج: ص ١٤٦.

(٢) المعاول: بطن من الأزد، وهم بنو معولة بن شمس. ابن حزم، جمهرة أنساب العرب: ص ٣٨٤؛ وذكره الطبريّ تحت اسم (مسجد المعادل). تاريخ: ١٧٦/٤.

(٣) البلاذريّ، أنساب الأشراف: ١٨٣/٥؛ الذهبيّ، تاريخ الإسلام: ١٥٤/٤.

عفا الله عنه، ركبها عشواء مظلمة [يُريد: استعراض النَّاس]»^(١).

ثم أخذوا يتجولون بين قبائل البصرة وبطونها، لا يمرّون بقبيلة إلا قتلوا من وجدوه، لكنهم اصطدموا ببني عليّ بن سود؛ إذ كانوا يملكون الفرسان والمقاتلين الأشداء، وكان فيهم مائة يُحِيدُونَ الرَّمِي، فرموا الخوارج رمياً شديداً، أدّى إلى أن صاح الخوارج: يا بني عليّ، البقية، لا رماء بيننا، فقال رجل من بني عليّ:

لا شيءَ للقومِ سوى السَّهَامِ مَشْهُودَةً فِي غَلَسِ الظَّلَامِ^(٢).

ويبدو أن قريب بن مرّة الأزديّ قد حاول أن يبارز أحد الذين كانوا يناضلونه ويشدّدون عليه الخناق، فصاح: هل في القوم عبد الله بن أوس الطاحي؟^(٣)، فقالوا: نعم. فقال قريب: فهلمّ إلى البراز، فتمكّن عبد الله بن أوس من قتل قريب واحتراز رأسه^(٤).

وبهذا، كانت نهاية هؤلاء الخوارج بمقتل قريب، ثم أقبل زياد بن أبيه من الكوفة، وأخذ يؤنّب أهل البصرة، فقال لهم: «يا معشر طاحية، لولا أنّكم قد أصبتم في القوم، لبعثت بكم إلى السّجن»^(٥).

لقد ألقى زياد باللّوم على أهل البصرة، وحملهم المسؤوليّة كافّة في الحفاظ على استقرار حياتهم السّياسيّة ومحاربة الخوارج، في الوقت نفسه، حاول أن يتشدّد أكثر

(١) المبرّد، الكامل في اللّغة: ص ٦١٦.

(٢) المبرّد، الكامل في اللّغة: ص ٦١٧؛ ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة: ٤ / ١٣٥.

(٣) لم أعر على ترجمة له.

(٤) خليفة بن خياط، تاريخ: ص ١٦٨؛ الطبريّ، تاريخ: ٤ / ١٧٧.

(٥) طاحية: الجمع العظيم، والمرتفع والمنبسط، والذي قد ملأ كلّ شيء كثرة. الفيروز آبادي،

القاموس المحيط: ٤ / ٣٥٦.

في مثل هذه المواقف؛ خشيةً من تعاطف أهل البصرة مع الخوارج ضده. والظاهر أنَّ أهل البصرة الذين اشتركوا في قتال هؤلاء الخوارج واكتسحوا خطرهم، أرادوا الحصول على مكافأة زياد بن أبيه على عملهم هذا، فادّعى بنو عليّ قتلهم، وادّعى بنو راسبٍ (وهم الذين اشتركوا مع بني عليّ في رمي الخوارج بالسّهام) قتلهم، ثمّ مالوا إلى التحكيم في ذلك، فقالوا: الحَكَمُ بيننا وبينهم النّبل، فوجدوا نبلَ بني عليّ في القتلى أكثر من بني راسب^(١).

وبعد هذه الأحداث التي شهدتها البصرة، غدا الناس إلى زياد بن أبيه، فقال: «ألا ينهى كلُّ قوم سفهاءهم، يامعشر الأزد، لولا أنّكم أطفأتم هذه النّار، لقلت: إنّكم أرثتموها»^(٢).

وفي روايةٍ أخرى أنّ زياداً صار إلى دار الإمارة، ثمّ قال: «يا أهل البصرة، ما هذا الذي قد اشملمتم عليه؟! إنّي أُعطي الله عهداً: لا يخرج عليّ خارجيٌّ بعدها فأدع من حيّه وقبيلته أحداً، فاكفوني بوائقكم. فقام خطباءُ البصرة فتكلّموا واعتذروا»^(٣).

وفي أخرى: «يا أهل البصرة، والله، لتكفّني هؤلاء، أو لأبدأنّ بكم، والله، لئن أفلتَ منهم رجلٌ لا تأخذون العام من عطائكم درهماً»^(٤).

إنّ هذه الروايات المختلفة التي أشارت إلى قول زياد بن أبيه، إنّما هي مقاطع من خطبته التي ألقاها في دار الإمارة، فنقل المؤرّخون بعض أجزاءها في كتبهم،

(١) خليفة بن خيَّاط، تاريخ: ص ١٦٨؛ الذهبي، تاريخ الإسلام: ١٥٤ / ٤.

(٢) المبرّد، الكامل في اللّغة: ص ٦١٧.

(٣) اليعقوبي، تاريخ: ١٦١ / ٢.

(٤) الطبريّ، تاريخ: ١٧٧ / ٤؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ٦١ / ٣.

فجاءت مختلفة بين مصدرٍ وآخر.

وما يُثير الانتباه في خطبة زياد هذه، هو ما يظهر منها من أنّه كان قد ضاق ذرعاً بهجمات الخوارج، وأنّهم أصبحوا يشكّلون خطراً كبيراً على سلطته بالبصرة، وبهذا، فهو لا يستطيع أن يضعَ حدّاً لثوراتهم إلّا بمساعدة أهل البصرة أنفسهم، فجعلهم المسؤولين عن أيّ خارجيّ يخرج من بين قومه، وفي حالة حدوث ذلك، ستكون عقوبة زياد شاملة لهم جميعاً دون استثناء، فخاف البصريّون من ذلك، «فكانت القبائل إذا أحسّت بخارجيّة فيهم، شدّتهم وثاقهم، وأتت بهم زياداً»^(١). كانت هذه الطريقة إحدى دواهي زياد بن أبيه في التعامل مع المواقف المحرجة. وكان زياد قد قام بطلب كلّ من (قريب وزخّاف)، وناس من أصحابهم، ليكونوا عبّرة لمن اعتبر في البصرة، فجاءت جارية إلى قومٍ من الخوارج، فقالت: «سلام الله ورحمته عليكم، طَبِّئْمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ»^(٢).

وروي أنّ زياد بن أبيه قام بتهجير جماعة من الأزد إلى ولاية مصر، واتّهمهم بممّالة الخوارج حين خرجوا في البصرة، وهي خارجة قريب وزخّاف^(٣). وقيل: إنّ خارجة خرجت ضدّ زياد بن أبيه، وأخرجوا معهم امرأة، فظفر بها، فقتلها، ثمّ عراها، فلم تخرج النّساء بعد ذلك على زياد، وكنّ إذا دُعِينَ إلى الخروج، قلن: لولا التعرية لسارعنا»^(٤).

(١) المبرّد، الكامل في اللّغة: ص ٦١٧.

(٢) البلاذريّ، أنساب الأشراف: ٥ / ١٨٤. وقولها: «طَبِّئْمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ». مقتبس من القرآن الكريم، من سورة الزّمر، آية (٧٣).

(٣) جابر رزاق غازي، سياسة النفي والتهجير في الدّولة الإسلاميّة: ص ١٤٠.

(٤) المبرّد، الكامل في اللّغة: ص ٦١٧.

وبذلك يكون زياد قد استحدث صلب النساء وتعريتهنّ والتمثيل بهنّ، وبهذا استخدم أبشع الطرق في تعذيب النساء، دون أن يستثنيهنّ من التعذيب والبطش والتمثيل، أو يتعاطف مع ضعفهنّ، وهذا يعني أنّ المرأة البصريّة أخذت تشارك الرّجل في الحياة السّياسيّة، فهي تشارك زوجها، أو أخيها، أو أبيها في الخروج ضدّ السّلطة الحاكمة، وكذا أخذت تؤدّي دوراً بارزاً في هذه العمليّة، رفعت شعار المعارضة، لا تخشى السّيف إذا احتزّ رأسها.

وبموت زياد بن أبيه، يكون قد سلّم مهمّة تعذيب الخوارج والتنكيل بهم إلى ابنه عبيد الله، الذي لم يكن أقلّ دهاءً من أبيه، بل زاد عليه في استحقار الخوارج وملاحقتهم بصورة مستمرّة، دون أن يُظهر رحمة أو شفقة على بعض العناصر التي خرجت بالبصرة، بل حاربهم بصورة متواصلة دون أن يترك أيّ خلل يمكن للخوارج استغلاله ضدّ السّلطة الأمويّة.

وقد اشتدّ عبيد الله بن زياد في طلب الخوارج والتشديد في أمرهم، فكان يجبس الخوارج تارةً، ويقتلهم تارة أخرى، وكان أكثر الأحيان يقتلهم ولا يتغافل عن أحدٍ منهم، ولكنّه قام بإطلاق سراح بعضهم أيضاً، عندما وجدهم في سجون أبيه^(١).

ويبدو أنّه قام بعمله هذا من أجل مهادنة هؤلاء وكسب ودّهم للوالي المتساهل تجاههم، لكنّه لم يفلح بهذا الأمر، فاتّجه إلى طريقة مغايرة تجاه تعامله مع الخوارج؛ إذ يُروى أنّ قوماً من الخوارج كانوا يجتمعون إلى شخص يدعى (جدار)، فيتحدّثون عنده، ويعيرون السّلطان، فأخذهم عبيد الله بن زياد فحبسهم، ثمّ دعا

(١) المبرّد، الكامل في اللّغة: ص ٦٢٥؛ فلهاوزن، الخوارج والشيعة: ص ٥٢.

بهم، فعرض عليهم أن يقاتل بعضهم بعضاً، ومَن ينجُ من ميدان القتال الذي أعدّه لهم، فإنّه سوف يُطلق سراحه^(١).

والظاهر أنّ الهدف من هذا العمل الذي أقدم عليه ابن زياد كان أن تقتل الخوارج بعضها بعضاً، فيكون قد تخلص من شرّ بعضهم، أمّا الذي ينجو من هذا العرض الدمويّ، فإنّه يُطلق سراحه، فيكون عُرضة لأهل المقتول وطلبهم بدم قتيْلهم؛ إذ يُروى أنّ الذين خلّى سبيلهم ابن زياد اعترض عليهم أصحابهم، وقالوا لهم: قتلتم إخوانكم^(٢).

وبهذا، يكون عبيد الله بن زياد قد حاول أن يطيح بالخوارج من خلال إشعال نار الفتنة فيما بينهم، لكن تبريرات الخوارج لأفعالهم كانت حاضرة في كلّ خطوة يخطونها؛ إذ كان هؤلاء الذين قتلوا أخوانهم يقولون: «أكرهنا، وقد يُكره الرّجل على الكفر وهو مطمئنٌّ بالإيمان»^(٣). وهذا يعني أنّهم أُجبروا على قتال بعضهم دون إرادتهم.

ويُروى أنّ حجيراً الباهليّ^(٤) أتى الحيّ الذي سكنه، وقد أصابه نضح دم من دماء الخوارج المقتولين، فقبل له: ما هذا؟ فقال: قتل الأمير اليوم هؤلاء الكلاب، فأصابني من دمائهم، فأتاه عقبة بن الورد الباهليّ^(٥)، وكان يرى رأي الخوارج،

(١) البلاذريّ، أنساب الأشراف: ١٨٦/٥ د. أحمد عوض أبو الشباب، الخوارج: ص ١٥١.

(٢) البلاذريّ، أنساب الأشراف: ١٨٦/٥.

(٣) البلاذريّ، أنساب الأشراف: ١٨٦/٥.

(٤) حجير الباهليّ: هو أبو سويد بن حجير، راوية ثقة. يُنظر: البخاريّ، التاريخ الكبير:

١٩٢/٧؛ العجليّ، معرفة الثقات: ٢/٢١٨؛ الذهبيّ، سير أعلام النبلاء: ٨/١٩٥.

(٥) لم أعر على ترجمة له.

فحكم وقتل حجيراً في منزله، ثم أخذ عقبه فقتله^(١).

وندِم طَوَّاف بن علاق الذي كان أحد الخوارج الذين نجو من القتل وبعض أصحابه، فكانوا ييكون، وعرضوا الديات على أولياء المقتولين، فأبوا ذلك، عندها، بحث طَوَّاف وأصحابه عن توبة، فلقوا الهثاثة بن ثور السدوسي^(٢)، فقالوا له: يا بن عم، أما ترى لنا من توبة؟ قال: ما أجد لك إلا آية من كتاب الله قوله: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا ثُمَّ جَاهَدُوا وَصَبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾^(٣). فدعا طَوَّاف أتباعه إلى الخروج، وأن يفتكوا بابن زياد، وكان ذلك سنة (٥٨هـ / ٦٧٧م)^(٤). فخرجوا في سبعين رجلاً من عبد القيس، فسعى بهم رجل من أصحابهم، فأخبر ابن زياد بتحركاتهم ضده، فبلغ طَوَّافاً ذلك، فقال: «إنا مأخوذون، فعجلوا الخروج، فخرجوا من ليلتهم»^(٥).

ثم انتدب ابن زياد الشرطة، فأتوهم وواقعوهم، فهزموا الشرطة، ثم تكاثر الناس عليهم، فقاتلوا وقتلوا، وبقي طَوَّاف في سته من أصحابه، فرماه الشرطة بالسهم حتى قتله، فأمر ابن زياد، فطلب، وجاء إليه عند المساء ابن لأخيه يهس وبعض آل علاف، فاحتملوه ودفنوه، فقال شاعرهم:

يَا رَبَّ هَبْ لِي التَّقَى وَالصَّدْقَ فِي ثَبَتٍ وَانْكَفِ الْمُهَمَّ فَأَنْتَ الرَّازِقُ الْكَافِي
حَتَّى أَبِيعَ الَّتِي تَفْنَى بِأَخْرَةٍ تَبْقَى عَلَى دِينِ مِرْدَاسٍ وَطَوَّافٍ

(١) البلاذري، أنساب الأشراف: ١٨٦/٥.

(٢) لم أشر له ترجمة له.

(٣) سورة النحل، آية (١١٠).

(٤) البلاذري، أنساب الأشراف: ١٨٧/٥؛ فلهاوزن، الخوارج و الشيعة: ص ٥٢.

(٥) البلاذري، أنساب الأشراف: ١٨٧/٥.

وَكَهْمَسِ وَأَبَى الشَّعْثَاءِ إِذْ نَفَرُوا إِلَى إِلَهِ ذَوِي أَخْبَابٍ زَحَّافٍ^(١).
ولم يكن عبيد الله أقلَّ شأنًا في ملاحقة النساء والبطش بهنَّ من أبيه؛ إذ لاحق إحدى مجتهدات خوارج البصرة، وهي البلجاء^(٢)، امرأةً من بني حرام بن يربوع ابن حنظلة بن مالك بن زيد مناة بن تميم، من رهط سجاح التي كانت تتنبأ، وكان مرداس بن حدير أبو بلال، أحد بني حنظلة تعظَّمه الخوارج، وكان مجتهداً، فلقبه غيلان بن خرشة الضَّبِّيُّ، فأخبره بما يُريد عبيد الله بن زياد من البلجاء، وأنه يُريد قتلها، فمضى إليها أبو بلال، فقال لها: «إِنَّ اللَّهَ قَدْ وَسَّعَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ فِي التَّقِيَّةِ [حفظ النفس بما يُستطاع من مكروهه] فاستتري؛ فَإِنَّ هَذَا الْمُسْرِفَ عَلَى نَفْسِهِ الْجَبَّارَ الْعَنِيدَ قَدْ ذَكَرَكَ، قَالَتْ: إِنْ يَأْخُذْنِي، فَهُوَ أَشَقَى بِي، فَأَمَّا أَنَا، فَمَا أَحَبُّ أَنْ يَعْنَتْ إِنْسَانٌ بِسَبِيٍّ»^(٣). فوجَّه إليها عبيد الله بن زياد، فأُتي بها، فقطع يديها ورجليها، ورمى بها فِي السُّوقِ^(٤).

ويُروى عن المدائني، قال: «أتى عبيد الله بن زياد بامرأة من الخوارج، فقطع رجلها، وقال لها: كيف ترين؟ فقالت: إِنَّ فِي الْفِكْرِ فِي هَوْلِ الْمُطَّلَعِ لَشَغْلًا عَنْ حَدِيدَتِكُمْ هَذِهِ، ثُمَّ قَطَعَ رَجُلَهَا الْأُخْرَى، وَجَذَبَهَا، فَوَضَعَتْ يَدَهَا عَلَى فَرْجِهَا،

(١) البلاذري، أنساب الأشراف: ١٨٧/٥؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ١١٠/٣.
(٢) وقيل: البشجاء: البلاذري، أنساب الأشراف: ١٨٩/٥؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ١١١/٣.

(٣) المبرِّد، الكامل في اللغة: ص ٦١٨؛ ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة: ٨٣/٥؛ ويُنظر: ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ١١١/٣.

(٤) المبرِّد، الكامل في اللغة: ص ٦١٨؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ١١١/٣؛ فلهاوزن، الخوارج والشيعة: ص ٥٣.

فقال: لتسترينه! فقالت: لكن أمك سميّة لم تكن تستره»^(١). ولربّما كانت هذه المرأة هي البلجاء نفسها.

وهناك من ذهب إلى أنّ البلجاء كانت في زمن زياد بن أبيه والد عبيد الله، وأنّه هو الذي قام بتعريتها وقتلها^(٢)، وقد اعتمد في نقل ذلك الخبر عن المبرّد في كتابه (الكامل في اللغة والأدب)، وعندما رجعنا إلى المصدر المذكور، وجدنا أنّ المبرّد نسب خبر البلجاء إلى زمن عبيد الله بن زياد، وفي الوقت نفسه، ذكر في موضع آخر من كتابه هذا أنّ زياد بن أبيه قام بتجريد ثياب إحدى النسوة في البصرة دون أن يذكر اسمها^(٣).

ولربّما كان أمر تعرية النسوة اللاتي ينتمين إلى الخوارج وقتلهنّ بالبصرة في زمن زياد بن أبيه وابنه عبيد الله قد أصبح من الكثرة بحيث نجد المبرّد لم يذكر أسماءهنّ. وفي سنة (٥٨هـ / ٦٧٧م) اشتدّ عبيد الله بن زياد على الخوارج، فقتل منهم صبراً جماعة كثيرة، وفي حروبه ضدّهم قتل جماعة أخرى، وملاً بهم السجون^(٤)، ومن الذين قُتلوا صبراً عروة بن أدية أخو أبي بلال مرداس بن أدية؛ إذ يروى أنّ عبيد الله ابن زياد خرج في رهانٍ له، فلمّا جلس ينظر الخيل التي راهنَ عليها، اجتمع الناس وفيهم عروة بن أدية، فأقبل على ابن زياد، فقال له: خمسُ كنّ في الأمم قبلنا فقد صرنَ فينا، ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ* وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ* وَإِذَا

(١) ابن طيفور، بلاغات النساء: ص ١٤٠.

(٢) أحمد عوض أبو الشباب، الخوارج: ص ١٤٦.

(٣) للتفصيل راجع: المبرّد، الكامل في اللغة: ص ٦١٧.

(٤) الطبريّ، تاريخ: ٤ / ٢٣١؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ٣ / ١١١.

بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ^(١).

وكان ابن زياد يسمع كلام عروة بن أدية بدون أن يردّ عليه أو يخاصمه؛ إذ ظنَّ أنَّ عروة لم يتجرأ على ذلك إلَّا ومعه جماعة من أصحابه، فقام وركب دابَّته، وترك رهانه^(٢).

ولم يترك عبيد الله بن زياد أمر عروة بن أدية وحديثه الخشن ضده في ساعة لهوه، بل طلبه وأودعه السَّجَن، وبقي في حبسه، ثمَّ إنَّ عبيد الله ذهب إلى الكوفة وترك عبيد الله بن أبي بكرة خليفة له على البصرة، وكان هذا يُطلق سراح كلِّ أحد من الخوارج إذا كفله كفيل إلى أن يقدم عبيد الله بن زياد البصرة، فيرجعون إلى السَّجَن، وكان عروة بن أدية قد كفله عبيد الله بن أبي بكرة، فإذا قدم ابن زياد البصرة وطلب الخوارج، أتوا، ومَن لم يأت، قتل كفيله، فطلب من عبيد الله بن أبي بكرة أن يأتي بعروة بن أدية، فقال: لا أقدر عليه، فقال ابن زياد: إذا والله أقتلك فإنَّك كفيله، ثمَّ أخذ عبيد الله بن أبي بكرة يطلب عروة حتَّى دُلَّ عليه، فتمكَّن منه، وقدم به إلى ابن زياد، وتركه بين يديه يحاوره^(٣)، ثمَّ أخذ عروة، فقطع يديه ورجليه وصلبه على باب داره، فقال لأهله: «أنظروا هؤلاء الموكَّلين بي، فأحسنوا إليهم، فإنَّهم أضيافكم»^(٤).

ويبدو أنَّ فترة عبيد الله بن زياد التي قضاها في البصرة، كانت من أنشط فترات الخوارج، لكنَّ نشاطهم هذا اصطدم بشخصية ابن زياد الذي لم يكن يملُّ أو

(١) سورة الشعراء، الآيات (١٢٨-١٣٠).

(٢) الطبري، تاريخ: ٤ / ٢٣١-٢٣٢؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ٥١٨ / ٣.

(٣) المبرِّد، الكامل في اللغة: ص ٦٢٤-٦٢٥؛ الطبري، تاريخ: ٤ / ٢٣٢.

(٤) ابن قتيبة، عيون الأخبار: ص ٢٣٧.

يكلّ من ملاحقتهم والبطش بهم، فسَلَطَ شرطته على كلّ خارجيّ، حتّى أنّه إذا علم بخبر أحدهم، قتله أو حبسه، وكان يقول: «أقمع النفاق قبل أن ينجم [أي: يطلع]»^(١).

لقد كان للخوارج أثر كبير في التأثير على المجتمع البصريّ وحياته السّياسيّة، وكان لهم القدرة على إقناع النّاس؛ إذ إنّهم كانوا من المفوّهين المتكلّمين الخطباء، حتّى أنّ عبيد الله بن زياد كان يقول بحقّهم: «لَكَلَامٌ هَؤُلَاءِ أَسْرَعُ إِلَى الْقُلُوبِ مِنَ النَّارِ إِلَى الْيَرَاعِ»^(٢).

وبهذا يكون ابن زياد قد قضى أيّاماً عصيبة في البصرة أيّام ولايته عليها من قبل معاوية وابنة يزيد؛ لأنّ الخوارج كانت تتحدّى سلطته هناك؛ إذ كانوا كلّما قُتل رجل منهم قتلوا رجلاً من الشّرطة، حتّى تحيّر ابن زياد في أمرهم وكيفيّة التعامل معهم، وكان يقول: «ما أدري ما أصنع بهؤلاء؟! كلّما أمرتُ بقتل رجلٍ منهم، فتكوا بقاتله»^(٣).

ثمّ خرج أبو بلال مرداس بن أدية أخو عروة بن أدية، ويعدّ أبو بلال من زعماء الإباضيّة ومؤسّسي مذهبهم^(٤)، وكان قد شهد صفين مع عليّ بن أبي طالب (عليه السلام)، وأنكر التحكيم، وشهد النهروان، ونجا في من نجا، ثمّ وقع في حبس ابن زياد، وعندما خرج من الحبس، ورأى جدّ ابن زياد في طلب الخوارج دون أن يتركهم، دعا قومه فأجابوه، وقد قال في قصيدة له:

(١) المبرّد، الكامل في اللّغة: ص ٦١٩.

(٢) المبرّد، الكامل في اللّغة: ص ٦١٩؛ واليراع: القصب. الجوهريّ، الصّحاح: ٣/ ١٣١٠.

(٣) المبرّد، الكامل في اللّغة: ص ٦١٩.

(٤) محمّد صالح ناصر، منهج الدّعوة الإباضيّة: ص ٨١.

وَقَدْ أَظْهَرَ الْجَوْرَ الْوَلَاةُ وَأَجْمَعُوا عَلَى ظُلْمِ أَهْلِ الْحَقِّ بِالْغَدْرِ وَالْكُفْرِ
وَفِيكَ إِلَهِي إِنْ أَرَدْتَ مَغِيرٌ لِكُلِّ الَّذِي يَأْتِي إِلَيْنَا بَنُو صَخْرٍ^(١).
ثُمَّ قَالَ لِأَصْحَابِهِ: «إِنَّهُ وَاللَّهِ مَا يَسْعُنَا الْمَقَامُ بَيْنَ هَؤُلَاءِ الظَّالِمِينَ، تَجْرِي عَلَيْنَا
أَحْكَامُهُمْ، مَجَانِبِينَ لِلْعَدْلِ، مُفَارِقِينَ لِلْفَصْلِ، وَاللَّهِ، إِنَّ الصَّبْرَ عَلَى هَذَا لَعَظِيمٌ،
وَإِنَّ تَجْرِيدَ السَّيْفِ وَإِخَافَةَ السَّبِيلِ لَعَظِيمٌ، وَلَكِنَّا نَنْتَبِذُ عَنْهُمْ، وَلَا نَجَرِّدُ سَيْفًا، وَلَا
نُقَاتِلُ إِلَّا مَنْ قَاتَلَنَا»^(٢).

وِيرَى أَحَدُ الْبَاحِثِينَ أَنَّ أَبَا بِلَالٍ كَانَ قَدْ أَنْكَرَ الْعَنْفَ طَرِيقَةً وَمِنْهَجًا؛ اقْتِنَاعًا
مِنْهُ بِأَنَّ ذَلِكَ لَيْسَ مِنْ طَبِيعَةِ الدِّينِ الْإِسْلَامِيِّ السَّمْحِ، ثُمَّ لِأَنَّهُ اتَّعَظَ مِنَ الْمَصِيرِ
الدَّامِي الْخَطِيرِ الَّذِي آلَتْ إِلَيْهِ مَعْرَكَةُ النَّهْرَوَانِ، فَكَانَ يَأْمُرُ أَتْبَاعَهُ بِعَدَمِ اسْتِعْرَاضِ
الْمُسْلِمِينَ بِالسَّيْفِ، وَأَلَّا يَقَاتِلُوا أَحَدًا مِنْ مَخَالِفِهِمْ، إِلَّا إِذَا تَعَرَّضُوا لِعَدُوَانٍ أَوْ
وَاجَهُوا قِتَالًا^(٣).

ثُمَّ إِنَّ أَبَا بِلَالٍ خَرَجَ نَاقِمًا عَلَى جَوْرِ الْوَلَاةِ وَظُلْمِهِمْ لِأَهْلِ الْحَقِّ، وَقَتْلِهِمُ الْمُسْتَمِرَّ
عَلَى الشَّبْهَةِ، فَالطَّرِيقَةَ الَّتِي سَلَكَهَا كَانَتْ تَحْتَمُّ عَلَيْهِ أَنْ لَا يَسْتَخْدِمَ السَّيْفَ، وَإِلَّا،
مَا كَانَ يَخْتَلِفُ عَنِ الْوَلَاةِ الْأُمُويِّينَ أَنْفُسَهُمْ.

ثُمَّ خَرَجَ مِنَ الْبَصْرَةِ بِأَرْبَعِينَ رَجُلًا^(٤)، وَكَانَ مِنْ بَيْنِهِمْ حُرَيْثُ بْنُ حَجَلٍ^(٥)،

(١) الْبِلَازِرِيُّ، أَنْسَابُ الْأَشْرَافِ: ١٩٠ / ٥.

(٢) الْمُبَرِّدُ، الْكَامِلُ فِي اللُّغَةِ: ص ٦١٩؛ وَيُنْظَرُ: الْبِلَازِرِيُّ، أَنْسَابُ الْأَشْرَافِ: ١٩٠ / ٥.

(٣) مُحَمَّدٌ صَالِحٌ نَاصِرٌ، مِنْهَجُ الدَّعْوَةِ الْإِبَاضِيَّةِ: ص ٨٤.

(٤) خَلِيفَةُ بْنُ خَيْطٍ، تَارِيخٌ: ص ١٩٦؛ يَاقُوتُ الْحَمُويُّ، مَعْجَمُ الْبُلْدَانِ: ١ / ٥٣؛ ابْنُ الْأَثِيرِ،
الْكَامِلُ فِي التَّارِيخِ: ٣ / ١١١؛ وَقِيلَ: «فِي ثَلَاثِينَ رَجُلًا». الْبِلَازِرِيُّ، أَنْسَابُ الْأَشْرَافِ:

١٩٠ / ٥؛ الْمُبَرِّدُ، الْكَامِلُ فِي اللُّغَةِ: ص ٦١٩.

(٥) لَمْ أَعْثُرْ عَلَى تَرْجُمَةٍ لَهُ.

وكَهَمَسَ بن الطَّلَق الصَّرِيمِي^(١)، وولَّوا أمرهم أبا بلال مرداس^(٢). فلما تحرَّكوا، لقوا عبد الله بن رباح الأنصاري^(٣)، وكان صديقاً لأبي بلال، فتحدَّث إليهم، وخوَّفهم من أمر السلطان وجوره، فكان مرداس يردُّ عليه بأنَّه لم يخرج من أجل تجريد السيف وإخافة النَّاس، بل «أهرب بديني وأديان أصحابي من أحكام هؤلاء الجورَة»^(٤). فقال له عبد الله بن رباح: «أنا معكم منكر لما تنكرون، فإذا جرَّدتم السَّيف، فلا أنا ولا أنتم»^(٥).

لم يكن مرداس كَمَن سبقه ممَّن يقوم باعتراض النَّاس وتجريد السَّيف لرقاب مخالفيه، بل خرج - كما يرى - للحفاظ على دينه من جور عبيد الله بن زياد، وهذا ما جاء في بعض أشعاره؛ إذ يقول:

أَبْعَدُ ابْنِ وَهْبٍ ذِي النَّزَاهَةِ وَالتُّقَى وَمَنْ خَاضَ فِي تِلْكَ الْحُرُوبِ الْمَهَالِكَا
أُحِبُّ بَقَاءً أَوْ أَرْجِي سَلَامَةً وَقَدْ قَتَلُوا زَيْدَ بْنَ حَصْنٍ وَمَالِكَا!

(١) كَهَمَسَ بن الطَّلَق الصَّرِيمِي: من شجعان الخوارج، وكان يُضرب المثل برجال كَهَمَسَ، فقليل بحمَّهم:

وَكُنَّا حَسْبِنَاهُمْ فَوَارِسَ كَهَمَسٍ حَيَوَا بَعْدَمَا مَاتُوا مِنَ الدَّهْرِ أَعْصَرَاً
الزُّرْكَلِي، الأعلام: ٢٣٥ / ٥.

(٢) المبرِّد، الكامل في اللغة: ص ٦٢٠؛ رضي الدِّين الاسترَّابادي، شرح شافية ابن الحاجب: ٣٦٥ / ٤.

(٣) عبد الله بن رباح الأنصاري: أبو خالد المدني، سكن البصرة، راوية ثقة، وله أحاديث، وكان رجلاً جليلاً، شارك إلى جنب المهلب بن أبي صفرة في قتال الأزارقة، توفيَّ حدود سنة ٩٠هـ. ابن حجر، تهذيب التهذيب: ١٨١ / ٥؛ ويُنظر: ابن سعد، الطبقات الكبرى: ٢١٢ / ٧.

(٤) المبرِّد، الكامل في اللغة: ص ٦٢٠.

(٥) البلاذري، أنساب الأشراف: ١٩١ / ٥؛ ويُنظر: ثابت إسماعيل الراوي، العراق في العصر الأموي: ص ٢٣٠.

فياربَّ سلِّم نيتي وبصيرتي وهب لي التقي حتّى أُلقي أولئكا^(١).
ثمَّ خرجوا من البصرة حتّى نزلوا (أسك) بين رامهرمز وأرجان، فمرَّ به مال
يُحمل إلى ابن زياد من بلاد فارس، فغضب حامله، حتّى أخذ منهم بقدر أعطيات
جماعته، وأفرج عن الباقي، فقال له أصحابه: علام تُفرج عن الباقي؟! فقال: إنَّهم
يصلُّون، ومَن صلَّى إلى القبلة لا أشاقَّه^(٢). ولما علم ابن زياد بخروج مرداس وما
كان من أمره، انتدب لهم جيشاً تحت قيادة عبد الله بن حصن الثعلبيّ، فتمكَّن
مرداس وأصحابه من هزيمة الجيش وقتل قائده^(٣).

ثمَّ ندب ابن زياد أسلمَ بنَ زرعة الكلابيّ^(٤) سنة (٦٠هـ / ٦٧٩م)^(٥)، فالتقى
أسلم بأصحاب مرداس، وكان أسلم يقول لأبي بلال: «اتَّقوا الله وارجعوا،
فقالوا: تردُّوننا إلى ابن زياد الفاسق، الذي أخذ دية المسلم أربع مرَّات؟!». ^(٦)
وبعد هذا الحديث، وقع القتال بين الطرفين، فشَدَّ الخوارج على أسلم وأصحابه
شدةً رجل واحدٍ، فهزموهم حتّى قدموا البصرة، فغضب ابن زياد على ابن زرعة،
وقال له: هزمك أربعون رجلاً وأنت في ألفين؟! ما عندك خير، فقال ابن أسلم:
لئن يذمُّني ابنُ زياد وأنا حيٌّ، أحبُّ إليَّ من أن يمدحني وأنا ميت، إنِّي لقيت ناساً

(١) المبرِّد، الكامل في اللغة: ص ٦٢٠.

(٢) ياقوت الحمويّ، معجم البلدان: ١/ ٥٣؛ ويُنظر: الذهبيّ، تاريخ الإسلام: ٥/ ٣١.

(٣) خليفة بن خيَّاط، تاريخ: ص ١٩٦؛ الذهبيّ، تاريخ الإسلام: ٥/ ٣٠.

(٤) أسلم بن زرعة الكلابيّ: بصريّ، روى عن أبي موسى الأشعريّ، ولَّاه زياد بن أبيه خراج
خراسان. يُنظر: البخاريّ، التاريخ الكبير: ٢/ ٢٤؛ ابن حَبَّان، الثقات: ٤/ ٤٥؛ ابن عساكر،
تاريخ دمشق: ٢١/ ٢٢٤.

(٥) البلاذريّ، أنساب الأشراف: ٥/ ١٩١.

(٦) البلاذريّ، أنساب الأشراف: ٥/ ١٩١.

ليسوا كالنّاس^(١).

إنّ قول أسلم يدلّ على أنّ مرداساً وأتباعه كانوا شديدي القتال متمرسين فيه، ولو واجههم، لكانوا قتلوه، على الرّغم من عددهم القليل، إلّا أنّهم تمكّنوا من التغلّب على أعداد كبيرة.

ويبدو أنّ الخوارج استخدموا أسلوب الغارات وحرب العصابات ضدّ الجيش، نظراً إلى ما كانوا يتمتّعون به من سرعة فرسانهم؛ إذ كانوا يتحرّكون فجأة لا يتوقّعهم أحد، فيكتسحون البلاد^(٢).

وربّما أفراد الجيش الذي قاتلهم غير جادّين في القتال؛ لأنّ العدد الصّغير الذي عُرِف به الخوارج ليس له القدرة على مواجهة ألفي جندي مسلّح ميدانياً.

وقد افتخر الخوارج بذلك الانتصار، فقال شاعرهم:

أَلْفَا مُؤْمِنٍ مِنْكُمْ زَعَمْتُمْ وَيَقْتُلُهُمْ بِأَسْكَ أَرْبَعُونَ
كَذَبْتُمْ لَيْسَ ذَاكَ كَمَا زَعَمْتُمْ وَلَكِنَّ الْخَوَارِجَ مُؤْمِنُونَ
هُمْ الْفِتَّةُ الْقَلِيلَةُ قَدْ عَلِمْتُمْ عَلَى الْفِتَّةِ الْكَثِيرَةِ يُنْصَرُونَ^(٣).

ثمّ وجّه إليهم عبيد الله بن زياد عبّاد بن أخضر المازنيّ، وأخضر زوج أمّه نُسب إليه، أمّا عبّاد، فهو: ابن علقمة بن عبّاد بن جعفيّ بن حزابة بن صعيّر بن خزاعيّ

(١) البلاذريّ، أنساب الأشراف: ٥ / ١٩١؛ ويُنظر: المبرّد، الكامل في اللّغة: ص ٦٢١.

(٢) أحمد الشّتاوي، دائرة المعارف الإسلاميّة: ٨ / ٤٧٢.

(٣) الدّينوريّ، الأخبار الطّوال: ص ٢٦٩؛ الطبريّ، تاريخ: ٤ / ٢٣٢؛ البكريّ، معجم ما استعجم: ١ / ٩٢؛ ياقوت الحمويّ، معجم البلدان: ١ / ٥٤؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ:

٣ / ١١٢؛ ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة: ٥ / ٨٧.

ابن مازن بن مالك بن عمرو بن تميم^(١)، فسار إليهم عبّاد في أربعة آلاف، فالتقاهم في دار أبجرّد، وهو موضع في أرض فارس، فدعا أبا بلال وأصحابه إلى طاعة عبيد الله بن زياد، فرفض ذلك مرداس وأتباعه، فوقع القتال بينهم، وكانوا حسب ما يروى قد تقاتلوا يوم الجمعة، فلمّا حان وقت الصّلاة، دعا مرداس بن أدية عبّاد ابن أخضر أن يكفّ الطرفان عن القتال حتّى يفرغوا للصّلاة، فوافقه، وتحاجزوا، ويقال: إنّ عبّاداً وأصحابه قطعوا صلاتهم، ثمّ شدّوا على مرداس وأتباعه وهم بين قائم وراكع وساجد، ولم ينش أحدٌ منهم عن صلاته، حتّى أتوا عليهم، وأخذوا برأس أبي بلال مرداس بن أدية^(٢).

إلا أنّ حركة الخوارج لم تنته بمقتل مرداس، بل كان شأنه شأن مَنْ سبقه من الخوارج الذين قُتلوا بسيف الولاة، أن أصبح رمزاً للجهاد والتضحية لدى الخوارج، وتأسّفوا على مقتله، حتّى قال شاعرهم:

يا عَيْنُ بَكِّي لمرداسٍ ومصرعه	ياربَّ مرداسٍ اجعلني كمرداسٍ
تركتني هائماً أبكي لمرزتي	في منزلٍ موحشٍ من بعدِ إيناسٍ
أنكرتُ بعدك مَنْ قد كنتُ أعرفه	ما النَّاسُ بعدَكَ يا مرداسُ بالنَّاسِ
أما شربت بكأس دار أوّلها	على القرونِ فذاقوا جرعةَ الكاسِ
فكلَّ مَنْ لم يذقها شاربٌ عجلاً	منها بأنفاسٍ وردٍ بعدَ أنفاسٍ ^(٣) .

ويبدو أنّ أتباع مرداس بن أدية الذين بقوا بالبصرة لم يكونوا ليرضوا بما أصاب

(١) البلاذري، أنساب الأشراف: ١٩٢/٥.

(٢) البلاذري، أنساب الأشراف: ١٩٢/٥؛ المبرّد، الكامل في اللغة: ص ٦٢٢؛ رضي الدّين

الاسترآبادي، شرح شافية ابن الحاجب: ٣٦٦/٤.

(٣) المبرّد، الكامل في اللغة: ص ٦٢٣.

مرداساً، وكذا لم يقبلوا بترك عبّاد بن أخضر المازنيّ لينجو بفعلته تلك، بل أرادوا محاسبته على ما ارتكب من جرمٍ بحقّ أتباعهم؛ إذ يروى أنّ جماعة من الخوارج قعدوا لعبّاد في يوم الجمعة عند مسجد بني كليب بالبصرة^(١)، فخرج على بغلة له وابنه رديفه، فقام إليه رجلٌ منهم، فسأله عن مسألة قتل رجلٍ بغير حقّ، فأخبرهم عبّاد برفع قضيتّه إلى السلطان، فأخبروه أنّ السلطان لا يعدّي عليه لمكانه منه وعظيم جاهه عنده، ثمّ حكم الخوارج بعبّاد وخطوه بأسيا ففهم، فرمى ابنه، فنجّا، وقُتل هو، بعدها صاح الناس بمقتل عبّاد، فتكاثروا على الخوارج فقتلوه^(٢).

وبهذا، يكون هؤلاء الخوارج قد تبرّأوا من مخالفيهم وممن يقف حائلاً بين آرائهم ومعتقداتهم، وعدّوا البقاء والعيش والتعامل مع السلطان الجائر ومَن يوافق على أحكامه الجائرة ممّا لا يتفق مع الدّين الإسلاميّ؛ لذلك، طالب مرداس أتباعه بالرحيل عن البصرة، معتبرين ساكنيها والباقيين فيها كفّاراً.

بقي الخوارج في البصرة يترقّبون أوضاع النّاس وما يئديه الوالي تجاههم، فلم يكونوا راضين عن الأوضاع، وبقوا يترقّبون الفرصة المناسبة التي تجعلهم يعلنون خروجهم ضدّ السّلطة، فقد أصبحوا يجتمعون بعيداً عن أعينها، ويتذكّرون أصحابهم الذين سبقوهم في محاربتها.

وكان من بين هؤلاء خالد بن عبّاد السّدوسيّ، وكان من عبّاد الخوارج ومجتهدهم، وهو من بني عمرو بن سدوس الشيبانيّ بن ذهل بن ثعلبة^(٣)، وقد

(١) لم يتيسّر لنا تحديد موقعه في البصرة. يُنظر: صالح أحمد العلي، خطط البصرة: ص ٢٥٣.

(٢) المبرّد، الكامل في اللّغة: ص ٦٢٣-٦٢٤؛ ويُنظر: البلاذريّ، أنساب الأشراف: ١٩٤/٥؛ فلهاوزن، الخوارج والشيعة: ص ٥٤.

(٣) البلاذريّ، أنساب الأشراف: ٤١٨/٥.

رُوي أَنَّ عبيد الله بن زياد أخذ خالد بن عبّاد في أيّام معاوية أو يزيد بن معاوية فحبسه، ثُمَّ قِيلَ لعبيد الله بن زياد: إِنَّ خالد بن عبّاد ليس مِنَ الَّذِينَ يرون رأي الخوارج، فأطلق سراحه، وضمّنه صهرٌ له، وتعهّد بإبقائه في بيته، فتفقّده ليلة فلم يجده ببيته، فأخبر ابن زياد بذلك، فأَتى به ابن زياد وسأله عن مبيته تلك اللَّيْلَة التي قضّاها خارج بيته، فأخبره أَنَّهُ كان مع إخوان له يذكرون الله والقرآن، فطلب ابن زياد من خالد أَنْ يدلّه على مكانهم، فأبى خالد، وخشيَ على جماعته من القتل، فقال له عبيد الله بن زياد: «إِلْعَن أَهْلَ النُّهْرانِ، قال: إِنَّ كانوا أعداء الله، فلعنهم الله، قال: فتولّى معاوية، أو قال: يزيد بن معاوية، قال [خالد بن عبّاد]: إِنَّ كان مؤمناً وليّاً لله، فأنا وليٌّ له. فلم يزدَه على هذا»^(١).

ثُمَّ أخرجَه ابن زياد إلى السُّوق، وأمر الشَّرطة بأن يقتلوه، فلم يقدم أحد على قتله، وجعلوا يتفادون منه، فمرّ به المثلّم بن مسروح الباهلي^(٢)، وكان في الشَّرط، فشدّ عليه، فقتله.

والظاهر أَنَّ عبيد الله بن زياد أخذ يقتل الخوارج في السُّوق أمام أعين المارّة من أجل تخويف النَّاس، وإبلاغهم بأنّهم سوف يُلاقون مصير الخوارج نفسه فيما إذا فكّروا في الانخراط في صفوفهم.

ثُمَّ إِنَّ الشَّرطة التي رفضت أَنْ تقتل خالد بن عبّاد كانت تخشى من الخوارج الَّذِينَ لم يتركوا كُلّ مَنْ يقوم بقتل أحد أتباعهم، فوضعوا عيونهم على المثلّم بن

(١) البلاذريّ، أنساب الأشراف: ٥ / ٤١٨؛ ويُنظر: المبرّد، الكامل في اللّغة: ص ٦٣٤.

(٢) لم أعر على ترجمة له.

مسروح، وقيل: إنه كان مغرمًا باللقاح^(١)، يتتبعها فيشتريها^(٢)، فدسوا إليه رجلاً يخبره بأن عنده لقاحه يريد بيعها، وأنه سوف يتساهل في ثمنها، فمضى معه يمشي والمثلث على فرسه، حتى دخلا دار الرجل وفيها الخوارج، فوثبوا عليه، فقتلوه ودفنوه في ناحية الدار، وجعلوا دراهم كانت معه في بطنه، وحكوا أثر دمه^(٣).

ثم اتهم الباهليّون - وهم عشيرة المثلث بن مسروح - بني سدوس بقتله، واستعدوا عليهم بآبن زياد، الذي أخذ بدوره الدية من بني سدوس أربع ديات من أعطياتهم، فكان أبو الأسود الدؤليّ، يقول: ما قتل المثلث إلا الطمع^(٤).

ومن غير شك أن عبيد الله بن زياد كان قد حاول أن ينوع في تعامله مع الخوارج، فمرة يخرجهم من السجن عسى أن يجد في خروجهم إصلاحاً لوضعهم الاجتماعيّ عندما يلتقون بأهلهم، فلا يعودون إلى أمرهم مرة أخرى.

ومرة يأخذ بالتشدد في طلبهم وزجهم في سجنونه، وقتلهم - وخاصة الزعماء منهم - في الأسواق في مرأى العامة من الناس.

إلا أنه على الرغم من جميع الأساليب التي انتهجها في تعامله مع الخوارج لم يفلح في ذلك، وبقي في صراع مستمرّ معهم جميع أيام ولايته على البصرة.

ويروى أنه لما قُتل عروة بن أدية، قال أبو الوازع الراسبيّ^(٥) لبني الماحوز: إنّي

(١) اللقاح: وهي من الإبل والخيّل. ابن منظور، لسان العرب: ٥٧٩ / ٢.

(٢) البلاذريّ، أنساب الأشراف: ٥ / ٤١٨؛ المبرّد، الكامل في اللغة: ص ٦٣٤.

(٣) البلاذريّ، أنساب الأشراف: ٥ / ٤١٨؛ المبرّد، الكامل في اللغة: ص ٦٣٤.

(٤) البلاذريّ، أنساب الأشراف: ٥ / ٤١٩.

(٥) أبو الوازع الراسبيّ: روي عنه عن أبي برزة الأسلميّ، قال: يارسول الله، دُلّني على عمل يُدخلني الجنّة أو انتفع به، قال: اعزل الأذى عن طريق المسلمين. أحمد بن حنبل، المسند:

٤ / ٤٢٣؛ مسلم، الصحيح: ٨ / ٣٥؛ ابن ماجه، السنن: ٢ / ١٢١٤.

شار فاشروا ودعوا المضاجع، فطالما نمتم، وغفلتم عن أهل البغي، حتّى صيرهم ذلك إلى تتبّعكم، يقتلونكم في مضاجعكم قتل الكلاب في مريضها^(١)، ثمّ قال:

سَأَشْرِي وَلَا أَبْغِي سِوَى اللَّهِ صَاحِبًا وَأَبْيَضَ كَالْمِخْرَاقِ عَضْبِ الْمَضَارِبِ
فَقَدْ ظَهَرَ الْجَوْرُ الْمَبِيزُ وَأَجْمَعْتُ عَلَى ذَاكَ أَقْوَامٌ كَثِيرُ التَّكَاذِبِ^(٢).

ثمّ اشترى أبو الوازع سيفاً، وأتى به صيقلاً، كان يشتم الخوارج ويدلّ عليهم، فقال له: اشحذ لي سيفي هذا، فشحذه، ثمّ أخذه، فهزّه، وحكّم، وقتل به الصّيقل، فهرب النّاس عنه، ثمّ أخذ في بني يشكر يحكّم النّاس حتّى قُتل، ثمّ أمر به ابن زياد، فصُلب في بني يشكر^(٣).

وبهذا، يكون أبو الوازع قد انضمّ إلى عدد الخوارج الذين صُلبوا في البصرة، التي أصبحت منطلق الخوارج ضدّ الدّولة الأمويّة في عهد زياد بن أبيه وابنه عبيد الله؛ نتيجة لأفعالهما التي امتازت بالقسوة والشّدّة والبطش.

ويرى بعض الباحثين أنّ «نجاح حركة الخوارج بالبصرة يرجع إلى الفراغ العقائديّ في البصرة؛ إذ ليس فيها على العموم عقيدة سائدة تقف في مواجهة الخوارج»^(٤).

ونحن لا نتفق مع هذا الرّأي أبداً؛ لأنّ قبائل أهل البصرة نفسها كانت هي من

(١) مريضها: أي: راض الدّابة يروضها روضاً، وطأها وذلّلها، أو علّمها السّير. ابن منظور، لسان العرب: ٧/ ١٦٤.

(٢) البلاذريّ، أنساب الأشراف: ٥/ ٤٢١.

(٣) البلاذريّ، أنساب الأشراف: ٥/ ٤٢١.

(٤) محمّد رضا الدّجيلي، فرقة الأزارقة: ص ٣٦.

يقوم بالقبض على الخوارج وإحضارهم إلى زياد بن أبيه^(١)، وهذا يعني أن بعض أهل البصرة قد تعاونوا مع السلطة في سبيل القضاء على حركة الخوارج. وإن أهل البصرة قد تعرّضوا إلى أحكام تعسّفية من قبل الولاة الأمويين أيام معاوية وابنه يزيد، فوجد أهل البصرة في الخوارج فرصة تُبعدهم بعض الوقت عن الأحكام الجائرة؛ لأنّ السلطة الأموية داخل البصرة بقيادة الوالي سوف تركّز جهودها في محاربة الخوارج والقضاء عليهم، فتبتعد بعض الشيء عن محاسبة عامة الناس داخل المصر حتّى تنجح في مهمّتها الجديدة.

وكذلك لم تكن البصرة موالية لجهة معيّنة، أو ذات عقيدة ميّالة إلى مذهبٍ ما، بل نجد الاختلاف واضحاً، والقبائل منقسمة فيما بينها في ولائها لهذا الحزب أو ذاك، فأصبحت مختلطة الميول والأهواء، وكلّ من يرغب في إعلان تمرد أو عصيان ضدّ السلطة الحاكمة في أيّ فترة، نجده يتوجّه إلى أرض البصرة مباشرة من أجل بثّ نحلته، كما هو الحال عندما قدم الناكثون من أهل المدينة، وقيام معركة الجمل التي كشفت عن اختلاف ميول وأهواء أهل البصرة، وإن كان الأكثرية من جانب الإمام عليّ^(٢)، وكذا تقدّمت محاولة معاوية الفاشلة أيام الإمام عليّ^(٣) في بثّ نحلته بين أهل البصرة عن طريق ابن الحضرمي، وأعادها زمن الإمام الحسن^(٤)، ففشل، فضلاً عن عدم استقرار الحياة السياسيّة في البصرة طول أيام الأمويين، كلّ ذلك يكشف عن تمسّك أهلها بعقائدهم دون التأثير بعقيدة الحكّام.

(١) أنظر كيف خرج أهل البصرة لصدّ الخوارج وعدم السّاح لهم بدخول البصرة، ص ٤٠٩
٤١٠ من هذا الفصل، وللتفصيل أكثر راجع: الطبريّ، تاريخ: ١٧٧/٤؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ٣/ ٣١.

(٢) يُنظر: عبد المنعم ماجد، التاريخ السياسيّ للدولة العربيّة: ص ٢٦٣.

خوارجُ البصرة أيامَ عبد الملك بن مروان

أمَّا البصرة وعلاقتها بالخوارج أيامَ عبد الملك بن مروان، فلم تكن كما كانت عليه أيامَ معاوية وابنه يزيد، بل أصبحت البصرة تحت ضغط هجمات الأزارقة الذين سيأتي الحديث عنهم في المبحث اللاحق، فأصبحت بالبصرة حاجة إلى منقذ يحميها من هجمات أولئك الخوارج الذين عسكروا في بلاد فارس.

لقد كانت البصرة تؤدِّي دورها العسكري في القضاء على تحركات الخوارج أيامَ عبد الملك بن مروان؛ إذ يُذكر أنَّ أحد الخوارج أعلن في سنة (٧٣هـ / ٦٩٢م) تمرده ضدَّ السَّيطرة في البحرين، وهو المسمَّى بأبي فديك^(١)؛ إذ وجَّه عبد الملك بن مروان عمرَ بن عبيد الله بن معمر لقتال هذا الخارجي.

وتذكر الروايات أنَّ عمرَ بن عبيد الله بن معمر انتدب معه عشرين ألف مقاتل، عشرة آلاف من أهل الكوفة، وعشرة آلاف من أهل البصرة، وسار بهم إلى البحرين، فتمكَّنوا من قتل أبي فديك^(٢).

إنَّ المبالغة في عدد الجيش الذي سار إلى البحرين أمر واضح جدًّا، إلَّا أنَّ العدد المذكور مع هذا يعكس لنا مدى خطورة موقف أبي فديك في تلك الناحية من الدَّولة العربيَّة الإسلاميَّة، واهتمام السَّيطرة الأمويَّة بالتخلُّص منه، وأنَّه ربَّما كان له أتباع ومؤيِّدون عملت الدولة على التخلُّص منهم، مع أنَّ المصادر لم تُشر

(١) أبو فديك: هو عبد الله بن ثور بن سلمة، من بني سعد بن قيس، من بكر بن وائل، تحوَّل سنة (٧١هـ) إلى البحرين، وتمرد على سلطة آل الزبير، فوجَّه إليه مصعبُ بن الزبير عبد الرَّحمن بن الإسكاف، فالتقى به، فانهزم عبد الرَّحمن وأهل البصرة. خليفة بن خياط، تاريخ: ص ٢٠٥؛ ويُنظر: ابن قتيبة، المعارف: ص ٤٢٠؛ البغدادي، خزنة الأدب: ٥٠ / ٤.

(٢) يُنظر: الطبري، تاريخ: ٥ / ٣٤؛ محمود بهجت سنان، البحرين درة الخليج العربي: ص ٦٣.

إلى ذلك، وإلا، فكيف يمكن إرسال عشرين ألف مقاتل من أجل القضاء على خارجي واحد؟! إنه أمر غير مقبول البتة، ولكن الروايات التي سنذكرها لاحقاً تبين لنا مدى انتشار الفكر الخارجي بالبحرين.

وكذلك اشترك أهل البصرة في القضاء على ثورة شبيب الخارجي^(١)، التي أربكت كيان الدولة الأموية سنة (٧٦هـ / ٦٩٥م)؛ إذ أمر عبد الملك بن مروان عامله على العراق -آنذاك- الحجاج بن يوسف الثقفي بأن يبعث رجلاً شجاعاً شريفاً من أهل البصرة في أربعة آلاف مقاتل ليلتحق بالجبهة العسكرية التي تواجه شبيباً بالكوفة^(٢)، فكانت البصرة مشغولة بصده هجمات الخوارج التي بدأت تظهر في مختلف جهات الدولة ضد سلطة الشام.

وفي سنة (٧٥هـ / ٦٩٤م) خرج داود بن النعمان^(٣)، وهو أحد بني أنمار بن وديعة بن لكيز بن أفصى بن دعمي بن جديلة بن أسد بن ربيعة، عابد مجتهد، وكان يقول لأصحابه: «إني ملئت الدنيا والمقام في دار الكفر مع الظلمة الكفرة، وقد انقطع العذر»^(٤)، فقال له أصحابه: ما يمنعك من الخروج؟ قال: مكان أبي بهذه البلاد! حيث كان داود بن النعمان يسكن البحرين^(٥).

أما مكانة أبيه، فلم يذكر المؤرخون ما إذا كان يمثل واجهة اجتماعية أم أنه كان

(١) هو شبيب بن يزيد بن أبي نعيم الشيباني، رأس الخوارج بالجزيرة، وفارس زمانه، بعث الحجاج خمسة قواد للقضاء عليه، فقتلهم واحداً تلو الآخر، ثم سار إلى الكوفة، فمات غرقاً بالماء سنة (٧٧هـ). الذهبي، سير أعلام النبلاء: ١٤٦/٤ - ١٤٧.

(٢) الطبري، تاريخ: ١٠٢/٥؛ ابن كثير، البداية والنهاية: ٢٥/٩.

(٣) خليفة بن خياط، تاريخ: ص ٢٠٨.

(٤) البلاذري، أنساب الأشراف: ٥٥/٨.

(٥) خليفة بن خياط، تاريخ: ص ٢٠٩.

له مكانة إدارية.

ثم يروى أَنَّهُ حَجَّ ورجع إلى أصحابه، وقال لهم: أخرجوا بنا إلى البصرة؛ فإنَّ لنا بها أخواناً، فأجابه أربعون رجلاً، وبلغ أباه خبر خروجه، فاعترضه، وذكره بعاقبة خروجه، فربَّما يُفسد عليه أمر دينه، فأجابه بأنَّ أمر الله أكرم من أن يضلَّ طالبه، ثمَّ عرض عليه أبوه أموالاً كثيرة على أن يترك أمر خروجه، فردَّ عليه: ﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يَنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾^(١). ثمَّ قال له أبوه: يا بني، إني أصرم نخل أربعة آلاف جريب، فقال لأبيه: يا أبت، إنَّ في حائطك بعوضاً، وأنا أريد حائطاً لا بعوض فيه^(٢).

إنَّ حديث داود مع أبيه المتقدِّم يكشف عن مدى تصميمه على أمر خروجه، وأنَّه لا تراجع عنده عنه، ولا اكتراث له بالمساعي التي قدَّما أبوه في سبيل إطفاء نائرة خروجه، فمسألة تصميمه على الخروج والذهاب إلى البصرة، يدلُّ على أَنَّهُ على علاقة ببعض أهل البصرة، وأنَّهم يدبِّرون الأمر في سبيل التمرّد ضدَّ السُّلطة الأمويَّة، ولعلَّه يدلُّ على تنظيم سرِّي مسبق قد جرى بين داود بن النعمان وبعض أهل البصرة، فلمَّا حان وقت إعلان تحرّكهم، رفض كلَّ مساعي أبيه أو قبول اقتراحاته.

ثمَّ أخرج معه أخته وأربعون رجلاً، فقدم البصرة، فأقام بها، والتقى بأنصاره، فجَهَّزهم، وبعدما تمكَّن من تحقيق مآربه داخل البصرة، خرج إلى موقع^(٣) سنة

(١) سورة التوبة، آية (٣٤).

(٢) البلاذري، أنساب الأشراف: ٥٥ / ٨.

(٣) موقع: ماء بناحية البصرة. ياقوت الحموي، معجم البلدان: ٢٢٦ / ٥.

(٨٦هـ / ٧٠٥م)^(١). فوجه الحكم بن أيوب عباد بن حصين في خيل، فقتل داود، وفي ذلك يقول الشاعر:

ألا فاذكروا داود إذ باع نفسه وجاد بها يبغي الجنان العوالي^(٢).

وفي رواية أخرى أن الحكم بن أيوب كان غائباً عن البصرة، وخليفته عليها عبد الملك بن المهلب، فوجه إليهم عبد الملك عبد الله بن كرمان الجهضمي^(٣)، فالتقوا، فقال داود لأخته: تقدّمي؛ فإنّي أخاف أن تبقي بعدي فتُسبين، فتقدّمت، وُقُلت، وقُتل أصحابه، وبقي داود وحده، فأحاطوا به وقتلوه^(٤).

وكذلك خرج رجل من عبد القيس، يقال له: أبو معبد الشني، قدم من ناحية البحرين، وكان خروجه بموقع، فُقُتل هو وأصحابه^(٥).

وعلى هذا، يمكن القول بأن الخوارج كانت مستمرة في عملية خروجها ضدّ السلطة الأموية بين الحين والآخر، لكنّ أخبارهم جاءت مقتضبة بدون تفصيل وتوسّع، حتّى قال المبرّد عنهم: «أخبار الخوارج كثيرة وطويلة، وليس كتابنا هذا مفرداً لهم، ولكنّا نذكر من أمورهم ما فيه معنى وأدب، أو شعر مستطرف، أو كلام من خطبة معروفة مختارة»^(٦).

(١) البلاذري، أنساب الأشراف: ٥٦ / ٨؛ عبد الرحمن عبد الكريم النّجم، البحرين في صدر الإسلام وأثرها في حركة الخوارج: ص ١٣٦.

(٢) خليفة بن خياط، تاريخ: ص ٢٠٩.

(٣) لم أشر على ترجمة له.

(٤) البلاذري، أنساب الأشراف: ٥٦ / ٨.

(٥) البلاذري، أنساب الأشراف: ٤٣ / ٨. عبد الرحمن عبد الكريم النّجم، البحرين في صدر الإسلام وأثرها في حركة الخوارج: ص ١٣٦.

(٦) الكامل في اللغة: ص ٦١٦.

خوارج البصرة أيام سليمان بن عبد الملك

وفي أيام سليمان بن عبد الملك خرج داود بن عقبة العبدي^(١) سنة (٩٠هـ / ٧٠٩م)، وكان من عبّاد الخوارج والمجتهدين، فطُلب بالبصرة، وكان كبيراً، فتواري عند رجلٍ كان على رأيه، وبقي عنده فترة من الزّمن، ثم أعلن خروجه ضدّ السّلطة الأمويّة، وكان مروان بن المهلب والياً على البصرة، فوجّه إليه خيلاً، فقتل داود وأصحابه بموقع^(٢).

وأما الخوارج في البصرة فيما تبقى من زمن الدّولة الأمويّة، فالأخبار عنهم غير واضحة، وجاءت متناثرة هنا وهناك، ففي زمن الوليد بن عبد الملك خرج زياد الأعسم، من بني عصر بن عوف بن عمر بن عبد القيس، وكان يأتي المسجد الذي يصليّ فيه الأزارقة من أصحابه، ويقال: إنّه كان إباضياً، ثم قُتل^(٣).

خوارج البصرة أيام هشام بن عبد الملك

وفي زمن هشام بن عبد الملك خرج تسعة عشر رجلاً وامرأة في ناحية موقع، فقتلوا^(٤).

ويُستفاد من هذه الأخبار أنّ الخوارج بقيت مستمرّة في خروجها ضدّ السّلطة الأمويّة داخل البصرة.

خوارج البصرة أيام مروان بن محمّد

(١) لم أعثر على ترجمة له.

(٢) البلاذري، أنساب الأشراف: ١١٩ / ٨.

(٣) البلاذري، أنساب الأشراف: ٩٥-٩٦ / ٨.

(٤) عبد المجيد محمّد صالح الكبيسي، عصر هشام بن عبد الملك: ص ٢٤٥.

وفي آخر أيام الدولة الأموية زمن مروان بن محمد بن مروان، نجد أن بعض الخوارج من أهل البصرة قد غيَّروا من طريقة نشاطهم ضدَّ السلطة الأموية؛ إذ لم يتَّخذوا من البصرة مكاناً لانطلاق نهجهم المعارض وإعلان العصيان، بل ذهبوا خارجها، وهذا التوجُّه ناتج عن الخوارج أنفسهم، فقد أحسُّوا أن بقاءهم في مناطق سكناهم أمر لا يقدِّم لهم الشيء الكثير في طريق قتالهم، وعليهم أن يتمكَّنوا من الحصول على مساندة فعلية من قبل بعض الأمصار الإسلامية الأخرى من أجل تقوية شكيمتهم، فعمدوا إلى تشكيل سلطة مرادفة لسلطة الأمويين، ولكن، هذه المرَّة في اليمن.

وكان من أبرز خوارج البصرة في تلك الفترة أبو حمزة الخارجي^(١)، الذي كان في يخرج إلى مكة كلَّ عام، يدعو الناس إلى خلاف مروان وآل مروان، فكان خروجه في إحدى السنوات قد جذب إليه اهتمام رأس الخوارج باليمن عبد الله بن يحيى الكندي الملقَّب بطالب الحق^(٢)؛ إذ التقى الأخير سنة (١٢٨هـ / ٧٤٥م) بأبي حمزة

(١) أبو حمزة الخارجي: هو المختار بن سليمان بن مالك، الأزدي، السلمي، البصري، ثائر فتاك، من الخطباء والقادة، من بني سليمة بن مالك، ولد بالبصرة، وأخذ بمذهب الإباضية، وكان يدعو النَّاس إلى الخروج ضدَّ آل مروان، قُتل سنة ١٣٠هـ في مكة. يُنظر: أبو الفرج الأصفهاني، الأغاني: ٢٣/ ١٦٤، ابن الأثير، اللُّباب في تهذيب الأنساب: ٢/ ١٣٤؛ الزُّركلي، الأعلام: ١٩٢/ ٧.

(٢) عبد الله بن يحيى الكندي الأعور (طالب الحق): أحد بني عمرو بن كنانة، كان من حضرموت، وكان مجتهداً عابداً، فرأى باليمن جوراً وظلماً ظاهراً، وعنفاً شديداً، وسيرة قبيحة، فقاد حملة ضدَّ الأمويين، وفرض سيطرته على صنعاء، وجبى الأموال، وجَهَّز عشرة آلاف مقاتل للاستيلاء على مكة. الصفدي، الوافي بالوفيات: ١٧/ ٣٥٩-٣٦٠؛ الذهبي، تاريخ الإسلام: ٢٤/ ٨.

فقال له: «يا رجل، أسمعُ كلاماً حسناً، وأراك تدعو إلى الحقِّ، فانطلق معي، فإنِّي رجل مطاع في قومي»^(١). فكان هذا اللقاء بين الاثنين قد ولَّد علاقة فيما بينهما، خاصَّةً وأتَّهما على رأي الإباضيَّة^(٢).

ولما أراد طالب الحقِّ أن يُعلن خروجه ضدَّ السَّيطرة الأمويَّة، كتب إلى خوارج أهل البصرة، فلبَّوا دعوته، وعلى رأسهم أبو حمزة الخارجي^(٣)، ثمَّ تمكَّن طالب الحقِّ من السَّيطرة على صنعاء بمَن قدم عليه من الخوارج، فنصبوه رئيساً لهم. ثمَّ حاولوا أن يفرضوا سيطرتهم على مكَّة؛ حتَّى يتمكَّنوا من خلالها أن يوجَّهوا دعوتهم إلى أنحاء الدَّولة الإسلاميَّة كافَّة؛ إذ يُروى أنَّ طالب الحقِّ وجَّه أبا حمزة في موسم الحجِّ على رأس تسعمائة رجل^(٤)، وفي روايةٍ أخرى أنَّ ذلك كان في تمام سنة (١٢٩هـ / ٧٤٦م)، فلم يدرِ الناس بعرفة إلَّا وقد طلعت رايات سود على رؤوس الرِّماح، وكان عددهم سبعمائة^(٥). ففزع النَّاس من أمرهم، ثمَّ أخبروا النَّاس أنَّهم مخالفين لمروان وآل مروان ويتبرَّأون منهم.

وكان عامل الأمويِّين على مكَّة عبد الواحد بن سليمان بن عبد الملك بن

(١) الأصفهاني، الأغاني: ٢٣ / ١٦٤؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ٤ / ٣٥٣.

(٢) الإباضيَّة: أصحاب عبد الله بن إباح، وهو من بني مرَّة بن عبيد من بني تميم، رهط الأحنف بن قيس، وهو الذي خرج في أيَّام مروان بن محمَّد، فأصبح الخوارج الذين يرون رأيه يُسمَّون بالإباضيَّة نسبةً إليه. الشهرستاني، الملل والنحل: ١ / ١٣٤؛ ويُنظر: ابن قتيبة، المعارف: ص ٦٢٢؛ نشوان الحميري، الحور العين: ص ١٧٣.

(٣) البلاذري، أنساب الأشراف: ٨ / ٢٨٥؛ ويُنظر: خليفة بن خيَّاط، تاريخ: ص ٣٠٨.

(٤) البلاذري، أنساب الأشراف: ٨ / ٢٨٥.

(٥) الطبري، تاريخ: ٦ / ٤١.

مروان^(١)، فراسل الخوارج على أن يتركوا الأمر حتى يُنهي الناس حجَّهم، فلما أنهى الناس الشوط الأخير من أشواط الحج، خلا الوالي الأمويّ مَكَّةَ لأبي حمزة ولحق بالمدينة المنورة، وفي ذلك يقول أحد الشعراء:

زَارَ الْحَجِيجَ عَصَابَةٌ قَدْ خَالَفُوا دِينَ الْإِلَهِ فَفَرَّ عَبْدُ الْوَاحِدِ
تَرَكَ الْحَلَائِلَ وَالْإِمَارَةَ هَارِبًا وَمَضَى يُخَبِّطُ كَالْبَعِيرِ الشَّارِدِ
لَوْ كَانَ وَالِدُهُ تَنْصَلَ عِرْقُهُ لَصَفَتْ مُضَارِبُهُ بِعِرْقِ الْوَالِدِ^(٢).

وبعد سيطرة أبي حمزة على مَكَّةَ، قصد المدينة لإتمام سيطرته على تلك الناحية المهمة من الدولة الإسلامية، فجهَّز عبد الواحد بن سليمان جيشاً لصدِّهم، فالتقوا بجماعة أبي حمزة بموضع القديد^(٣) في صفر سنة (١٣٠هـ/ ٧٤٧م)، فقتل جيش عبد الواحد، وقيل: لم ينبج إلا واحد، فقالت نائحتهم:

مَا لِلزَّمانِ وَمَالِيهِ أَفْنَتْ قُدَيْدُ رِجَالِيهِ
فَلَأَبْكِيَنَّ سَرِيرَةً وَلَأَبْكِيَنَّ عِلَانِيَةً^(٤).

لقد حاول أبو حمزة الخارجي أن يحصل على ثقة الناس، فخطب في أهل مَكَّةَ عند دخولها مستعرضاً سيرة الخلفاء الراشدين والحكّام الأمويين واحداً تلو الآخر، وكان أبو حمزة قد أظهر عيوب كل خليفة أو حاكم أمام الناس في خطبته

(١) عبد الواحد بن سليمان بن عبد الملك بن مروان: أمير مروانيّ أمويّ، ولي إمرة مَكَّةَ والمدينة سنة ١٢٩هـ، لمروان بن محمد، قتله العباسيون عندما ظفروا بالأمويين سنة ١٣٢هـ. الزركلي، الأعلام: ١٧٥/٤.

(٢) الطبري، تاريخ: ٦/ ٤١-٤٢؛ أبو الفرج الأصفهاني، الأغاني: ٢٣/ ١٦٤-١٦٥.

(٣) القديد: موضع قرب مَكَّةَ، ويقال: إنها قرية كثيرة المياه والبساتين. يُنظر: البكري، معجم ما استعجم: ٣/ ١٠٥٤؛ ياقوت الحمويّ، معجم البلدان: ٤/ ٤١٣.

(٤) المسعودي، التنبيه والإشراف: ص ٢٨٢؛ ويُنظر: اليعقوبي، تاريخ: ٢/ ٢٣٦.

تلك^(١).

والشيء الذي ميَّز أبا حمزة وأتباعه، هو أنَّهم لم يتعرَّضوا للنَّاس، ولم يقتلوا على الشُّبهة، بل سلَّطوا سيوفهم على الولاة الأمويين، وكانوا يهدفون إلى تصفية العمَّال التابعين للدولة الأمويَّة من أجل إخضاع البلدان التي وقعت في قبضتهم إلى نفوذهم، فهم يرغبون في إقامة دولة الحقِّ بدل دولة الجور والفساد حسب ادِّعائهم.

ولكنَّ سلطة محمد بن مروان لم تكن منهارة تماماً أمام هؤلاء الخوارج، بل لم يتركهم الأمويون يسيطرون على بلاد الحجاز، فانتدب لهم أربعة آلاف فارس، واستعمل عليهم عبد الملك بن محمد بن عطية السَّعدي^(٢)، وأمره أن يقاتل الخوارج، فالتقى ابن عطية بالخوارج بوادي القرى^(٣)، فقال أبو حمزة لأصحابه: لا تقاتلونهم حتَّى تختبروهم. فصاحوا بهم: ما تقولون في القرآن والعمل به؟ فقال ابن عطية: نضعه في جوف الجوالق^(٤)، فقال أبو حمزة: ما تقولون في مال اليتيم؟ قال ابن عطية: نأكل ماله ونفجُرُ بأمِّه، وأشياء أخرى سألوه عنها، فلمَّا

(١) يُنظر الخطبة: الجاحظ، البيان والتبيين: ٢/ ٨٣-٨٤؛ ابن قتيبة، عيون الأخبار: ص ٣٧٩-٣٨٠؛ البلاذري، أنساب الأشراف: ٨/ ٢٩٠-٢٩٤.

(٢) عبد الملك بن محمد بن عطية، السَّعدي: أحد قوَّاد مروان بن محمد، حارب الحروريَّة في الحجاز، وقضى عليهم، وأراد قتل عبد الله بن الحسن بن أبي طالب وابنيه محمد وإبراهيم، وقيل: إنَّ حديثه ليس بقائم. يُنظر: أبو الفرج الأصفهاني، مقاتل الطالبين: ص ١٧٤؛ الذهبي، ميزان الاعتدال: ٢/ ٦٦٠.

(٣) وادي القرى: واد بين الشَّام والمدينة، فيه قرى كثيرة. ياقوت الحموي، معجم البلدان: ٤/ ٣٣٨.

(٤) الجوالق: وعاء كبير يستخدمه العرب. الجوهري، الصَّحاح: ٤/ ١٤٥٤.

سمعوا كلامه، صاحوا: ويحك يا ابن عطية، فقاتلوا، وانهزم أصحاب أبي حمزة، ثم تعقبهم ابن عطية، فقتلهم^(١).

وبذلك أنهى دورهم في الحجاز، ولكنه لم يكتفِ بذلك، بل سار إلى صنعاء، فلقيه طالب الحق، فاقتتلا قتالاً شديداً، فقتل طالب الحق، وأكثر من كان معه باليمن^(٢).

وبهذا يكون هؤلاء الخوارج الإباضية -ومن بينهم إباضية أهل البصرة- مختلفين عن غيرهم؛ إذ لم يكن شأنهم القتل وسفك الدماء بقدر تحقيق ما عزموا عليه من تحقيق أهدافهم في القضاء على الجور والفساد في الدولة، والعمل بتعاليم الدين الإسلامي حسب زعمهم، فكانت نهايتهم مرتبطة بزوال الدولة الأموية.

(١) يُنظر: الطبري، تاريخ: ٦/ ٦١؛ أبو الفرج الأصفهاني، الأغاني: ٢٣/ ١٧٧؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ٤/ ٣٨٥.

(٢) اليعقوبي، تاريخ: ٢/ ٢٣٦؛ المسعودي، التنبيه والإشراف: ص ٢٨٣.

المبحث الثالث

أهل البصرة والخوارج الأزارقة

إنَّ نشأة فرقة الأزارقة وبعض فرق الخوارج الأخر ترتبط بالعامل السَّياسي للدولة العربيَّة الإسلاميَّة؛ إذ كان سبب انبثاق هذه الفرقة مرتبطاً بأحداث المدينة المنورة في أيام يزيد بن معاوية، خصوصاً إنَّ هذه الأحداث جاءت بعد مقتل الإمام الحسين عليه السلام وأصحابه في كربلاء، لتكون الشرارة التي ألهبت الموقف وفجّرت مخزون الغضب في النفوس^(١)؛ فإنَّه عندما ولَّى يزيدُ عثمانَ بن محمَّد بن أبي سفيان^(٢) المدينة، خرج وفدٌ من أهلها إلى دمشق ليلتقوا بيزيد، ويتأكّدوا من حقيقته، وما قيل عنه من أنَّه شاربٌ للخمر، ولاعبٌ بالكلاب، ويعزف عنده القيان، فلما أصبحوا أمام الأمر الواقع، ووقفوا على حقيقة يزيد، رجعوا إلى المدينة، وأظهروا شتمه وعيبه، وقالوا لأهل المدينة: «إنَّا خلعناه»^(٣)، فطردوا عمَّال

(١) إبراهيم بيضون، ملامح التيارات السَّياسِيَّة في القرن الأوَّل الهجريّ: ص ١٩٢.

(٢) هو عثمان بن محمَّد بن صخر بن حرب بن أميَّة بن عبد شمس بن عبد مناف، القرشيّ، الأمويّ، ولي إمرة المدينة ليزيد بن معاوية، وكان بدمشق عند هلاك معاوية، وهو الذي قال لما خرج الإمام الحسين عليه السلام عن المدينة ولم يبايع: إركبوا كلَّ بعير بين السَّماء والأرض، فاطلبوه. ابن عساكر، تاريخ دمشق: ٢٢/٤٠؛ ويُنظر: البري، الجوهرة في نسب الإمام عليٍّ وآله: ص ٤٢.

(٣) ابن سعد، الطبقات الكبرى: ٦٦/٥؛ ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق: ٤٢٩/٢٧؛ الذهبيّ، تاريخ الإسلام: ٢٧/٥؛ مرتضى العسكريّ، معالم المدرستين: ١٨٢/٣.

يزيد عن المدينة، وأتبعوهم يرمونهم بالحجارة^(١)، فلما انتهى الخبر إلى يزيد، وجّه مسلم بن عقبة المري^(٢) إلى المدينة في اثني عشر ألف مقاتل^(٣)، فأوقع بأهلها وقعة الحرّة المعروفة^(٤).

ثم توجه الجيش الأمويّ نحو مكّة من أجل القضاء على عبد الله بن الزبير، فاجتمعت الخوارج، فتذكروا ما أنزل الله عليهم من الكتاب، وفرض عليهم من الجهاد، فخرجوا إلى ابن الزبير، فسّر بمقدمهم، ونبأهم أنّه على رأيهم، وأعطاهم الرضا من غير توقّف، فقاتلوا معه الجيش الأمويّ حتّى وصل إليهم نأ نعي يزيد ابن معاوية، فوضعت الحرب أوزارها، وانصرف أهل الشام عن مكّة.

ثم إنّ الخوارج التقوا بعد ذلك، فرأوا أنّ من الواجب عليهم أن يدخلوا على عبد الله بن الزبير ليعرفوا ما إذا كان على رأيهم أم لا، فاتفقوا على الذهاب إليه

(١) اليعقوبيّ، تاريخ: ١٧٤ / ٢.

(٢) مسلم بن عقبة بن رباح، المريّ، قائد من الدّهاة القساة في العصر الأمويّ، أدرك النّبيّ ﷺ، وشهد صفين مع معاوية، وولاه يزيد بن معاوية قيادة الجيش الذي أرسله للانتقام من أهل المدينة بعدما أخرجوا عامله عنها، فغزاها وأذاها وأسرف فيها قتلاً ونهباً، فسماه أهل الحجاز مُسْرِفاً، ثمّ توجه إلى مكّة لحرب عبد الله بن الزبير، فمات في الطريق بمكان يسمّى المشلل. محمّد ابن حبيب، المحبّر: ص ٤٨٢؛ الزركليّ، الأعلام: ٢٢٢ / ٧.

(٣) الطبريّ، تاريخ: ٣٧١ / ٤؛ وفي رواية (خمسة آلاف مقاتل). اليعقوبيّ، تاريخ: ١٧٥ / ٢؛ وفي أخرى (أربعة آلاف مقاتل). المسعوديّ، التنبيه والإشراف: ص ٢٦٣.

(٤) وقعة الحرّة: حدثت أيام يزيد بن معاوية سنة ٦٣ هـ، عندما قدم جيش الشام بقيادة مسلم بن عقبة المدينة، ونزلوا حرّة واقم التي تقع شرق المدينة، فخرج أهل المدينة لمحاربتهم، لكنهم لم يتمكّنوا من صدّه، ودخل جنده المدينة، فنهبوا الأموال، وسبوا الدّرّيّة، واستباحوا الفروج، وأحضرُوا سكّان المدينة لمبايعة مسلم بن عقبة على أنّهم خول (عبيد) ليزيد بن معاوية. يُنظر: ابن قتيبة، الإمامة والسّياسة: ١٤ / ٢؛ اليعقوبيّ، تاريخ: ١٧٥ / ٢؛ الطبريّ، تاريخ: ٣٧٢ / ٤.

ومعرفة حقيقة أمره، وكانوا يقولون : «فإن برئ من [عثمان بن عفان] كان وليكم، وإن أبي، كان عدوكم»^(١). فالتقوا به وأخبروه عما يدور في أذهانهم، فقالوا له: «خبرنا مقالتك في عثمان»^(٢)، فنظر عبد الله بن الزبير إلى أتباعه، فوجدهم قلة، فاحتال على الخوارج خشيةً من بطشهم إذا ما خالفهم، فأخبرهم أنهم أتوه حين أراد القيام، فواعدهم على لقائه في الليل، فلما جاءوه في الليل، وجدوه قد جمع أتباعه من حوله، وألبسهم دروعهم، وعليهم السَّلاح، وأوقف جماعة منهم على رأسه قائمين بأيديهم العمدة، فعلم الخوارج أنَّ عبد الله بن الزبير مخالف لهم في رأيه، فانصرفوا عنه^(٣).

ثم اختلف الخوارج فيما بينهم، وكان سبب اختلافهم ذاك أنَّ نافع بن الأزرق رأس الأزارقة اختلف مع نجدة بن عامر^(٤)؛ إذ إنَّ نافعاً قال : التقيّة لا تحلّ، والقعود عن الجهاد كفر، وخالفه نجدة، فقال : التقيّة جائزة، وقال : القعود جائز، والجهاد إذا أمكن أفضل^(٥).

وعلى أثر هذا الاختلاف في الرّأي تفرّقت الخوارج، فأقبل نافع بن الأزرق

(١) الطبريّ، تاريخ: ٤/ ٤٣٧؛ ويُنظر: خليفة بن خياط، تاريخ: ص ١٩٤.

(٢) أبو مخنف، مقتل الحسين: ص ٢٦٣؛ الطبريّ، تاريخ: ٤/ ٤٣٧.

(٣) المبرّد، الكامل في اللّغة: ص ٦٣٨؛ الطبريّ، تاريخ: ٤/ ٤٣٨.

(٤) نجدة بن عامر الحنفيّ: وقيل: ابن عامر بن عاصم الحروريّ، من رؤوس الخوارج، نُسبت إليه النّجدات، خرج من البيامة مع عسكره يريد اللّحوق بالأزارقة، فاستقبله أبو فديك، فأرجعه عن رأيه، بعدها خالف الأزارقة في آرائهم، قيل: اختلف عليه أصحابه، فقتلوه سنة ٦٩هـ. الشهرستانيّ، الملل والنحل: ١/ ١٢٢؛ الذهبيّ، تاريخ الإسلام: ٥/ ٢٦٠.

(٥) أبو حاتم الرّازي، الزّينة: ص ٢٨٥.

الحنظليّ، وعبد الله بن صفّار، السّعديّ^(١)، وعبد الله بن إياض^(٢)، وحنظلة بن بيهس^(٣)، وبنو الماحوز عبد الله، وعبيد الله، والزّبير من بني سليط بن يربوع حتّى أتوا البصرة^(٤)، وصارت طائفة منهم إلى اليمامة، فوثبوا بها، ثمّ جعلوا أمرهم إلى نجدة بن عامر الحنفيّ.

ثمّ وقع الاختلاف من جديد بين الخوارج الذين قدموا البصرة؛ إذ خرج نافع ابن الأزرق بجماعته، ورأى أنّ من تخلف عنه فلا نجاة له؛ وكان تخلف عنه عبد الله بن صفّار، وعبد الله بن إياض ورجال معهما على رأيهما^(٥).

ثمّ تبرّأ نافع وأتباعه ممّن رفض الخروج معه، فكتب إلى عبد الله بن صفّار وعبد الله بن إياض والنّاس الذين قبلهما، وبعث إليهم بالكتاب، فقرأ الكتاب عبد الله

(١) عبد الله بن صفّار السّعديّ: رئيس فرقة الخوارج الصّفريّة، التي نُسبت إليه، فيما يقال على غير قياس. الزّركليّ، الأعلام: ٩٣/٤؛ وقيل: الصّفريّة أصحاب زياد بن الأصفر. للتفصيل راجع: الشهرستانيّ، الملل والنحل: ١/١٣٧؛ ويُنظر: نشوان الحميريّ، الحور العين: ص ١٧٧؛ البغداديّ، خزنة الأدب: ٣٥١/٥.

(٢) عبد الله بن إياض، المقاعسيّ، المرّيّ، رأس الإياضيّة، وإليه نسبتهم، اضطرب المؤرّخون في سيرته وتاريخ وفاته، وكان معاصراً لمعاوية، وعاش إلى آخر أيام عبد الملك بن مروان، عدّته من التابعين. كان كثيراً ما يُبدي النصائح لعبد الملك بن مروان، توفّي حدود سنة ٨٦هـ. ابن قتيبة، المعارف: ص ٦٢٢؛ الشهرستانيّ، الملل والنحل: ١/١٣٤.

(٣) حنظلة بن بيهس: هذا الاسم ذكره الطبريّ في تاريخه، أمّا صاحب فرقة الخوارج البيهسيّة، فهو بيهس بن الهصيم بن جابر، الضّبيّ. يُنظر: ابن قتيبة، الإمامة والسّياسة: ص ٦٢٢؛ المبرّد، الكامل في اللّغة: ص ٦٤٣.

(٤) الطبريّ، تاريخ: ٤/٤٣٨؛ ويُنظر: ثابت إسماعيل الراوي، العراق في العصر الأمويّ: ص ٢٣١.

(٥) الطبريّ، تاريخ: ٤/٤٣٩.

ابن إِبَاضٍ، فَاتَّهَمَ نَافِعَ بْنَ الْأَزْرَقِ بِالْكَذِبِ، وَلَمَّا قَرَأَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ صَفَّارِ الْكِتَابَ، بَرِئَ مِنْ نَافِعٍ وَابْنِ إِبَاضٍ؛ إِذْ قَالَ بِحَقِّهِمْ: « بَرِئَ اللَّهُ مِنْكَ، يَعْنِي: ابْنُ إِبَاضٍ، فَقَدْ قَصَرْتَ، وَبَرِئَ اللَّهُ مِنْ ابْنِ الْأَزْرَقِ؛ فَقَدْ غَلَا، فَبَرِئَ اللَّهُ مِنْكَ وَمِنْهُ »^(١). فَتَفَرَّقَ الْقَوْمُ كُلًّا عَلَى شَاكِلَتِهِ، وَقَالَ أَحَدُ الْخَوَارِجِ:

فَارَقْتُ نَجْدَةَ وَالَّذِينَ تَزَرَّقُوا وَابْنَ الزَّبِيرِ وَشِيعَةَ الْكَذَّابِ
وَالصُّفْرَ اللَّوْنِ الَّذِينَ تَخَيَّرُوا دِينًا بِلَا ثِقَةٍ وَلَا بِكِتَابٍ^(٢).

لِذَلِكَ قِيلَ: إِنَّ أَصْلَ فَرْقِ الْخَوَارِجِ: الْأَزْرَاقَةُ، وَالْإِبَاضِيَّةُ، وَالنَّجْدِيَّةُ، وَالصُّفْرِيَّةُ، وَسَائِرُهَا مُتَفَرِّعٌ مِنْ هَذِهِ الْفِرَقِ، وَقِيلَ: سَائِرُهَا مُتَفَرِّعٌ مِنَ الصُّفْرِيَّةِ^(٣). بَعْدَ هَذَا الْإِفْتِرَاقِ الَّذِي حَدَثَ فِي فَرْقِ الْخَوَارِجِ، أَخَذَ كُلُّ مِنْهُمْ يَعْمَلُ بِرَأْيِهِ وَيُوجِّهُ أَتْبَاعَهُ، وَمِنْ بَيْنِهِمْ نَافِعُ بْنُ الْأَزْرَقِ، الَّذِي اشْتَدَّتْ شَوْكَتُهُ بِالْبَصْرَةِ، ثُمَّ انْتَدَبَ جَمَاعَةٌ وَخَرَجَ مِنَ الْبَصْرَةِ أَيَّامَ انْشِغَالِ النَّاسِ بِحُرُوبِهِمْ بَعْدَ هَلَاكِ يَزِيدَ بْنِ مَعَاوِيَةَ فِي الْبَصْرَةِ، فَتَوَجَّهَ نَحْوَ الْأَهْوَازِ، فَغَلَبُوا عَلَيْهَا وَعَلَى كُورِهَا، وَمَا وَرَاءَهَا مِنْ بِلْدَانِ فَارَسٍ وَكِرْمَانَ فِي أَيَّامِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الزَّبِيرِ، وَقَتَلُوا عَمَلَهُ بِتِلْكَ النُّوَاحِي^(٤). وَأَمَّا بِدَايَةِ تَحَرُّكِ نَافِعِ بْنِ الْأَزْرَقِ وَأَصْحَابِهِ فِي سَبِيلِ مِبَادَتِهِمُ الَّتِي التَزَمُوا بِهَا، فَيُرْوَى أَنَّ مَوْلَى لِبْنِي هَاشِمٍ جَاءَ إِلَى نَافِعِ بْنِ الْأَزْرَقِ، فَقَالَ لَهُ: «إِنَّ أَطْفَالَ الْمُشْرِكِينَ

(١) الطَّبْرِيُّ، تَارِيخُ: ٤ / ٤٤٠.

(٢) أَبُو حَاتِمِ الرَّازِيِّ، الزَّيْنَةُ: ص ٢٨٣.

(٣) نَشْوَانُ الْحَمِيرِيِّ، الْخُورُ الْعَيْنِ: ص ١٧٨.

(٤) الشَّهْرِسْتَانِيُّ، الْمُلُكُ وَالنَّحْلُ: ١ / ١١٨؛ وَيُنْظَرُ: ابْنُ أَعْثَمٍ، الْفَتْوحُ: ٦ / ١٧٧؛ السَّمْعَانِيُّ، الْأَنْسَابُ: ١ / ١٢٢؛ الْإِيْمِيُّ، الْمَوَاقِفُ: ٣ / ٦٩٢؛ حُسَيْنُ الشَّكْرِيِّ، نَشْوءُ الْفِرَقِ وَالْمَذَاهِبِ الْإِسْلَامِيَّةِ: ص ١١٦.

في النار، وإن من خالفنا مشرك، فدماء هؤلاء الأطفال لنا حلال، قال نافع: كفرت وأحللت بنفسيك، قال له: إن لم آتَكَ بهذا من كتاب الله، فاقتلني، فتلا قوله تعالى: ﴿وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا * إِنَّكَ إِن تَذَرُهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا﴾^(١)، فهذا أمر الكافرين وأمر أطفالهم، فشهد نافع أنهم جميعاً في النار، ورأى قتلهم، وقال: الدار دار كفرٍ إلا من أظهر إيمانه، ولا يحل أكل ذبائحهم، ولا تناكحهم، ولا توارثهم، ومتى جاء منهم جاء، فعلينا أن نمتحنه، وهم ككفار العرب، لا نقبل منهم إلا الإسلام أو السيف، والعدة بمنزلتهم، والتقية لا تحل^(٢).

بعدها بدأ نافع بن الأزرق يميل نحو التطرف في آرائه، معتقداً أنه على الحق، وأن من خالفه مشرك عليه أن يعلن منهجه بشكل صريح وأمام الجميع، فكتب إلى المحممة من أهل البصرة، وجاء في كتابه: «بسم الله الرحمن الرحيم، أما بعد، فإن الله اصطفى لكم الدين فلا تموتنَّ إلا وأنتم مسلمون، والله، إنكم لتعلمون أن الشريعة واحدة، والدين واحد، ففيم المقام بين أظهر الكفار، ترون الظلم ليلاً ونهاراً، وقد ندبكم الله إلى الجهاد، فقال: ﴿وَأَقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ كُلَّ﴾^(٣)، ولم يجعل لكم في التخلف عُذراً في حالٍ من الحال، فقال: ﴿انْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا﴾^(٤)، وإنما عُذر الضعفاء والمرضى والذين لا يجدون ما يُنفقون، ومن كانت لإقامته علة. ثم فضل عليهم مع ذلك المجاهدين، فقال: ﴿لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ

(١) سورة نوح، الآيتان (٢٦-٢٧).

(٢) المبرّد، الكامل في اللغة: ص ٦٤٠.

(٣) سورة التوبة، آية (٣٦).

(٤) سورة التوبة، آية (٤١).

أُولَى الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ؟^(١)، فلا تغترّوا، ولا تطمئنّوا إلى الدُّنْيَا؛ فَإِنَّهَا غَرَارَةٌ مَكَّارَةٌ، لَذَّتْهَا نَافِذَةٌ، حُفَّتْ بِالشَّهَوَاتِ اغْتِرَارًا، وَأَظْهَرَتْ حَبْرَةً^(٢)، وَأَضْمَرَتْ عِبْرَةً، فَلَيْسَ أَكَلُ مِنْهَا أَكْلَةً تَسْرُهُ، وَلَا شَارِبٌ شَرْبَةً تَوْنُقُهُ^(٣)، إِلَّا دَنَا بِهَا دَرَجَةً إِلَى أَجَلِهِ، وَتَبَاعَدَ بِهَا مَسَافَةً مِنْ أَمَلِهِ، وَإِنَّمَا جَعَلَهَا اللَّهُ دَارًا لِمَنْ تَزُودُ مِنْهَا إِلَى النَّعِيمِ الْمَقِيمِ، وَالْعَيْشِ السَّلِيمِ، فَلَنْ يَرْضَى بِهَا حَازِمٌ دَارًا، وَلَا حَلِيمٌ بِهَا قَرَارًا، فَاتَّقُوا اللَّهَ، ﴿وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى﴾^(٤)، وَالسَّلَامَ عَلَى مَنْ اتَّبَعَ الْهُدَى^(٥).

إِنَّ هَذَا الْكِتَابَ الَّذِي بَعَثَهُ نَافِعُ بْنُ الْأَزْرَقِ لَخَوَارِجِ الْبَصْرَةِ وَغَيْرِهِمْ، يُشِيرُ بِوَضُوحٍ إِلَى أَهْدَافِهِ الَّتِي تَبَنَّاها، فَبَيَّنَّها لَهُمْ، وَأَلْزَمَهُمُ بِالْجِهَادِ إِلَى جَانِبِهِ؛ لِأَنَّ الدِّينَ وَاحِدٌ، وَالْجِهَادَ وَاحِدٌ، فَلَيْسَ لَهُمُ الْحَقُّ فِي مَجَاوِرَةِ الظَّالِمِينَ وَالْمُخَالَفِينَ لَهُ، بَلْ عَلَيْهِمُ الْإِلْتِحَاقُ بِصُفُوفِ جَيْشِهِ الَّذِي بَدَأَ يَتَجَمَّعُ بِالْأَهْوَازِ، وَلَمْ يُعْذِرْ مَنْ لَمْ يُخْرِجْ إِلَيْهِ إِلَّا لِعُذْرِ فِي حَالٍ مِنَ الْأَحْوَالِ يَقْبَلُهَا ابْنُ الْأَزْرَقِ، وَفَضَّلَ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ.

لَقَدْ تَرَكَ هَذَا الْكِتَابُ أَثْرَهُ عَلَى بَعْضِ أَهْلِ الْبَصْرَةِ الَّذِينَ يَرُونَ رَأْيَ الْخَوَارِجِ؛ فَخَرَجُوا مِنْ مِصْرِهِمْ، وَلَحَقُوا بِابْنِ الْأَزْرَقِ، إِلَّا الْقَلِيلَ مِنْهُمْ مِمَّنْ لَمْ يَشَأْ الْخُرُوجَ، كَعَبْدِ اللَّهِ بْنِ صَفَّارٍ، وَعَبْدِ اللَّهِ بْنِ إِبَاضٍ، وَرِجَالٍ عَلَى رَأْيِهِمْ^(٦)، فَهَؤُلَاءِ قَدْ انشَقَّوا عَنْ سَائِرِ الْخَوَارِجِ، فَكُلُّ يَرَى رَأْيَهُ، مَعَ غَضِّ النَّظَرِ عَنْ سَائِرِ الْآخَرِينَ، فَكَانَ

(١) سورة النساء آية (٩٥).

(٢) أي: النعمة وسعة العيش.

(٣) أي: تعجبه.

(٤) سورة البقرة، آية (١٩٧).

(٥) المبرّد، الكامل في اللغة: ص ٦٤٣؛ ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة: ٤ / ٣٣٤-٣٣٥؛

محمد ماهر حمادة، الوثائق السياسية والإدارية العائدة للعصر الأموي: ص ٢٨٤.

(٦) الطبري، تاريخ: ٤ / ٤٣٩.

نافع بن الأزرق يرى أن ولاية مَنْ تخلف عنه مما لا ينبغي، وأن مَنْ تخلف عنه لا نجاة له، فقال للذين قدموا عليه من أهل البصرة وأصحابه الذين كانوا معه: «إن الله قد أكرمكم بمخرجكم، بصركم ما عمي عنه غيركم، أستم تعلمون أنكم إنما خرجتم تطلبون شريعته وأمره؟! فأمره لكم قائد، والكتاب لكم إمام، وإنا نتبعون سننه وأثره»^(١).

كان ابن الأزرق يحاول أن يثبت جماعته على طاعته وعدم التفرق عنه؛ إذ إن الخوارج في البصرة كانوا قد اختلفوا فيما بينهم بالنسبة إلى كتاب نافع الذي ذكرناه، وهذا يعني أن الخوارج أصبحوا أحزاباً كلٌّ قَدْ مال إلى صاحبه، فنجد عبد الله بن صفار قد اختلف مع عبد الله بن إباح، فلما قرأ ابن إباح كتاب نافع، قال: «قاتله الله، أي رأيي، أي صدق نافع بن الأزرق، لو كان القوم مشركين، كان أصوب الناس رأياً وحكماً فيما يشر به، وكانت سيرته كسيرة النبي ﷺ في المشركين، ولكنه قد كذب وكذبنا فيما يقول إن القوم كفار بالنعم والأحكام، وهم براء من الشرك، ولا يحل لنا إلا دماؤهم، وما سوى ذلك من أمواهم فهو علينا حرام»^(٢). فقال ابن صفار لابن إباح: «برئ الله منك؛ فقد قصرت، وبرئ الله منك ومنه»^(٣).

فالاختلاف الظاهر فيما بينهم إنما كان في مسألة التكفير، وأن القوم ممن خالفهم كفار أم مسلمون، فافترت الخوارج فرقا، كل يرى على شاكلته. ثم إن نافع بن الأزرق لما افترت آراء الخوارج ومذاهبهم في أصول مقاتلتهم، وما تبناه نافع من قتل الذين أحل قتلهم، كان شاكاً في رأيه، لا يعرف فيما إذا كان

(١) الطبري، تاريخ: ٤/ ٤٣٩.

(٢) الطبري، تاريخ: ٤/ ٤٤٠؛ وينظر: المبرد، الكامل في اللغة: ص ٦٤٣.

(٣) أبو مخنف، مقتل الحسين: ص ٢٧٨؛ الطبري، تاريخ: ٤/ ٤٤٠.

يسير في الطريق الصَّحيح، أم أنَّ الحقَّ مع مخالفه؛ إذ يُروى أنَّ امرأته، قالت له: «إِنَّ كُنْتَ قد كُفِرْتَ بعد إيمانك وشككتَ فيه، فدَعْ نَحْلَتَكَ ودَعَوَتَكَ، وَإِنْ كُنْتَ قد خَرَجْتَ مِنَ الْكُفْرِ إِلَى الْإِيمَانِ، فاقتل الْكُفَّارَ حَيْثُ لَقَيْتَهُمْ، وَأَتَخُنْ فِي النِّسَاءِ وَالصَّبِيَّانَ»، فقبل قولها، واستعرض النَّاسَ، وبسط سيفه^(١).

وإذا صَحَّتْ هذه الرَّوَايةُ، وما تقدَّم من رواية المبرِّد في المولى الهاشميِّ في قتل أطفال المسلمين، فإنَّ من الواضح أنَّ نافعاً لم يكن بالمستوى المطلوب من الناحية العلميَّة، المستوى القائم على الحجَّة والمناقشة والاجتهاد في دفع آراء الخوارج التي كانت ترجعُ إليه، فالمولى الهاشميُّ هو مَنْ نطق بالرَّأي الذي تبناه ابن الأزرق في ما بعد، ثمَّ بعد تعدُّد الآراء وافتراق الخوارج، نجد أنَّ نافعاً قد شكَّك في مسيرة جهاده كما يزعم وتحمَّسه للآراء التي رفعها شعاراً لحزبه، وكاد الأمر ينتهي عند هذه النقطة، لولا تدخُّل امرأته! فهذا يعني أنَّ نافع بن الأزرق لم يجتهد بالآراء التي التزمها، بل تأثَّر بها من الذين أبدوا آراءهم حولها، فأصبح أداة تنفيذ لآراء الآخرين، ثمَّ وجدها مناسبة لبداية مشواره في مجاهدة مخالفه.

ثمَّ اشتدَّ نافع بن الأزرق على مخالفه في الأهواز؛ إذ استعرض النَّاسَ، وقتل الأطفال، وكان يُخبر النَّاسَ الذين يقدم عليهم إذا أُجيبَت مقالته وأصبحوا ممَّن يرى رأيه بجباية الخراج، وفشا عُمَّاله في السَّواد، فارتاع لذلك أهل البصرة^(٢)؛ لأنَّ أكثر أهل البصرة كانوا قد خالفوه عندما عرض عليهم أمره في الكتاب الذي أرسله إليهم أوَّل مرَّة، وهذا يعني أنَّ الأزارقة قادمون لتسوية خلافهم مع

(١) أبو الفرج الأصفهاني، الأغاني: ٣٨٦/٦؛ رضي الدِّين الاسترَّابادي، شرح شافية ابن الحاجب: ٥٠٢/٤.

(٢) المبرِّد، الكامل في اللُّغة: ص ٦٤٤.

الذين رفضوا الانصياع لمقاتلتهم وتأبيدها، وهي قول نافع في البراءة من الكفار، والاستعراض، واستحلال الأمانة، وقتل الأطفال^(١).

وعليه، فإن شوكة نافع بن الأزرق كانت قد اشتدت على أهل البصرة بسبب ضعفهم تلك الفترة؛ على أثر ما وقع من اختلاف بين الأزرد وربيعة وتميم، فقاد نافع جموعه وتوجّه نحو البصرة^(٢)، وكانت البصرة حينئذٍ قد خضعت لنفوذ عبد الله بن الزبير، الذي أبقى عبد الله بن الحارث الملقّب بـ(بّة) على ولايتها، ولم يكن ابن الزبير يهتم لقضية الأزارقة الذين انشقوا عن السلطة، بل كلّ ما التزمه تجاههم على رأي أحد الباحثين هو أنّ قتال الزبيريين للأزارقة لم يكن للقضاء عليهم واستئصالهم، وإنّما كان للمحافظة على مدينة البصرة من خطرهم، وإبعادهم عن منطقة فارس الغنيّة، فكان موقفهم دفاعياً فقط، فلم يقوموا بأيّ هجوم عليهم، وإنّما كان الأزارقة هم البادئون بالهجوم دائماً^(٣).

وعليه، قدم والي البصرة جيشه من أجل التصدي لهجوم الأزارقة؛ إذ اجتمع أهل البصرة إلى الأحنف بن قيس، فشكوا إليه خطر الخوارج، فقالوا: «ليس بيننا وبين العدو إلا ليلتان»^(٤). وهذا يعني لأهل البصرة مواجهة الخطر المحدث بهم، أمّا الانضمام إلى الأزارقة أو يتعرّضون لأفعالهم الشنيعة التي أظهروها في الأهواز، الأمر الذي بيّنه الأحنف عندما خاطب أهل البصرة، بقوله: «إنّ فعلهم في مصركم [إن ظفروا به] كفعلتهم في سوادكم، فجدّوا في جهاد عدوكم»،

(١) للتفصيل راجع: ابن حزم، الفصل في الملل: ٤/ ٧٢؛ الإيجي، المواقف: ٣/ ٦٩٢.

(٢) للتفصيل راجع: ابن حزم، الفصل في الملل: ٤/ ٧٢؛ الإيجي، المواقف: ٣/ ٦٩٢.

(٣) الطبري، تاريخ: ٤/ ٤٧٧.

(٤) محمّد رضا حسن الدجيلي، فرقة الأزارقة: ص ٥٤.

فاجتمع إليه عشرة آلاف مقاتل^(١).

ثم سألوا والي البصرة (بَّنة) أن يؤمِّر عليهم قائداً، فاختر مسلم بن عبيس بن كريز بن ربيعة^(٢)، فخرج ابن عبيس بأهل البصرة، وحاول أن يحيط أتباعه بالخطر التام من قتال الأزارقة، حتَّى قال لهم : «إني ما خرجتُ لامتيار [أي: جلب] ذهب ولا فضة، وإني لأحارب قوماً إن ظفرتُ بهم، فما وراءهم إلا سيوفهم ورماحهم»^(٣).

ثم تمكَّن جيش البصرة من طرد الأزارقة الذين عسكروا عند الجسر الأكبر، وأخرجوهم عن أرض البصرة، حتَّى نزلوا أرض دولاب إحدى قرى الأهواز، بعدها استعدَّ النَّاسُ لبعضهم^(٤).

والأسلوب الذي اتَّبعه الخوارج الأزارقة مع جيش البصرة هو أنَّهم لم يقاتلوه! بل جعلوه يستدرجهم في مطاردتهم حتَّى وصلوا موضع دولاب! ما يعني أنَّ الأزارقة كانوا على علم بأنَّ أهل البصرة سوف يجمعون شملهم ويصدّون خطر الأزارقة الذي بات يداهمهم، فمن المحتمل أنَّ الأزارقة استخدموا طريقة عسكريَّة للإطاحة بجيش أهل البصرة من خلال استدراجهم إلى موضع دولاب، ومن بعدها الوقوف عند تلك الأرض وإعلان القتال، وربَّما قام الخوارج بترك

(١) المبرِّد، الكامل في اللِّغة: ص ٦٤٤؛ أبو الفرج الأصفهاني، الأغاني: ٦ / ٣٨٦.

(٢) مسلم بن عبيس بن كريز بن ربيعة: من ولد حبيب بن عبد شمس، وكان قائد عسكر أهل البصرة يوم دولاب، قتله الخوارج. ابن حزم، جمهرة أنساب العرب: ص ٧٥.

(٣) المبرِّد، الكامل في اللِّغة: ص ٦٤٤-٦٤٥؛ ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة: ٤ / ١٤٠؛

رضيَّ الدِّين الاسترَّابادي، شرح شافية ابن الحاجب: ٤ / ٥٠٢.

(٤) الطبري، تاريخ: ٤ / ٤٧٧.

خطوط دفاعية عند تلك الأرض، أو أنهم كمنوا لمباغطة ومفاجأة جيش أهل البصرة والإيقاع به هناك، فليس من السهل على مقاتلي الأزارقة الإطاحة بمقاتلي أهل البصرة.

وعليه، فلولا أن الأزارقة قد خشوا أن يصطدموا بقوة أهل البصرة، لما تركوا موضعهم الذي عسكروا عنده أول الأمر عند جسر البصرة الكبير؛ إذ إنهم كانوا قد أصبحوا قاب قوسين أو أدنى من دخول المدينة، فكان الجدير بهم قتال أهل البصرة على أرضهم، ليشددوا الخناق على المدينة ودخولها، دون الرجوع إلى الخلف.

ثم اصطف الفريقان فاقتتلوا قتالاً شديداً لم يُرَ قتالٌ قط أشد منه^(١)، فقتل مسلم بن عبيس أمير أهل البصرة، وقتل نافع بن الأزرق رأس الخوارج، فأمر أهل البصرة عليهم الحجاج بن باب الحميري^(٢)، وجعلت الخوارج عبد الله بن الماحوز^(٣) أميراً للأزارقة، ثم عادوا إلى القتال، وكان شديداً متكافئاً بين الطرفين، فقتل أمير البصرة الحجاج بن باب الحميري، وكذا قتل أمير الخوارج عبد الله ابن الماحوز، فتولّى أمر أهل البصرة ربيعة الأجدم التميمي^(٤)، وأمرت الخوارج الأزارقة عبيد الله بن الماحوز^(٥)، ثم عادوا فاقتتلوا حتى أمسوا، وقد كره بعضهم

(١) المبرّد، الكامل في اللغة: ص ٦٤٤-٦٤٥؛ ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة: ٤/ ١٤٠؛ رضي الدين الاسترآبادي، شرح شافية ابن الحاجب: ٤/ ٥٠٢.

(٢) الطبري، تاريخ: ٤/ ٤٧٧.

(٣) المبرّد، الكامل في اللغة: ص ٦٤٥؛ الطبري، تاريخ: ٤/ ٤٧٧؛ أبو الفرج الأصفهاني، الأغاني: ٦/ ٣٨٦؛ ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة: ٤/ ٣٣٥.

(٤) لم أعثر على ترجمة له.

(٥) عبيد الله بن الماحوز: أحد رؤساء خوارج الأزارقة بعد نافع بن الأزرق، قتله المهلب بن

بعضاً، وملّوا القتال، فبينما هم على ذلك، حتّى جاء الدّعم للخوارج الأزارقة؛ إذ جاءت لهم سرّية لم تكن شهدت القتال، فحملت على أهل البصرة، فقتل ربيعةُ الأجدم، وأخذ راية أهل البصرة حارثة بن بدر الغدّاني^(١)، فقاتل الأزارقة، ثمّ تفرّق عنه النّاس، فانسحب من ساحة القتال، حتّى نزلوا منزلاً بالأهواز^(٢)، وبلغ أهل البصرة انكسار جيشهم الذي خرج لحرب الخوارج الأزارقة، فهالهم ذلك وأفزَعهم^(٣).

ويُفهم من الرّوايات التاريخية أنّ أهل البصرة لم يستسلموا للمعركة الأولى التي جرت بينهم وبين الأزارقة؛ إذ يروي الدّينوري أنّ الخوف كان قد استولى على أهل البصرة بعد مقتل مسلم بن عبيس، فاخترأوا عثمان بن معمر القرشي^(٤)، وانتدب معه زهاء عشرة آلاف رجل من أبطالهم، فسار بهم في طلب الخوارج، فلحق بفارس، فاقتتلوا، فقتل عثمان وانهزم أصحابه^(٥).

ومع اشتداد الأمر على أهل البصرة، جاء تدخّل عبد الله بن الزبير في تغيير والي البصرة؛ إذ عزل عبد الله بن الحارث وولّى مكانه عبد الله بن أبي ربيعة المعروف بالقُبَاع^(٦).

أبي صفرة قرب الأهواز. ابن قتيبة، المعارف: ص ٦٢٢.

(١) حارثة بن بدر الغدّاني بن حصين بن قطن بن مالك التميمي، أدرك النّبي ﷺ، وله أخبار في الفتوح، مات سنة ٦٤هـ، عندما عبر نهر تيري فارّاً من الأزارقة. ابن حجر، الإصابة: ١٣٨ / ٢.

(٢) الطبري، تاريخ: ٤ / ٤٧٧.

(٣) المبرّد، الكامل في اللّغة: ص ٦٥٢.

(٤) لم أعثر على ترجمة له.

(٥) الأخبار الطّوال: ص ٢٧٠.

(٦) الطبري، تاريخ: ٤ / ٤٧٨.

أمّا المبرّد، فقد ذهب إلى أنّ (بنة) قد قعدَ عن قتال الخوارج، وكتب أهل البصرة إلى عبد الله بن الزبير الذي بدوره كتب إلى أنس بن مالك أن يصلي بالناس، فصلّى بهم أربعين يوماً، ثمّ ولي عمر بن عبيد الله بن معمر^(١) أمر البصرة.

ثمّ إنّ عمراً هذا ولّى أخاه عثمان بن عبيد الله^(٢) محاربة الأزارقة، فخرج إليهم في اثني عشر ألفاً، ثمّ قُتل عثمان بن عبيد الله على أثر قتاله للأزارقة، فرجع حارثة بن بدر بالجيش الذي كان تحت إمرة عثمان، فعبّر بهم دجلاً^(٣).

إنّ رواية المبرّد تتكلّم عن الحملة الثانية التي خرج بها أهل البصرة لصدّ الخوارج الأزارقة، إلّا أنّ الأحداث لما كانت قد وقعت في السنة نفسها، أعني: سنة (٦٥هـ)، وقع الخلط الواضح بين المؤرّخين في نقل الحدث الصّحيح الذي جاء مطابقاً للأحداث حسب سيرها في تلك الفترة.

ويبدو أنّ عثمان بن عبيد الله بن معمر هو من قاد جيش البصرة لقتال الأزارقة بعد اعتزال (بنة) عن أمر البصرة وحرّبا القائمة آنذاك، فلزم بيته^(٤).

(١) عمر بن عبيد الله بن معمر: القرشيّ التميميّ، أحد أجواد العرب وأنجادهم، وهو الذي قتل أبا فديك الخارجي، كان عمر بن عبيد الله يلي أمر الولايات، وشهد مع عبد الرحمن بن سمرة فتح كابل، يقال: إنّّه مات همّاً على ابن أخيه عندما قيل له: إنّ الحجاج ضرب عنقه، وكان عمره ستين سنة. ابن عبد البر، الاستيعاب: ٣/ ١٠١٤.

(٢) عثمان بن عبيد الله بن معمر: أخو عمر بن عبيد الله، نعتة المهلب بن أبي صفرة بالعجل المفرط، وكان مع أخيه في العراق، واشترك معه في حرب الأزارقة، وقتل وهو يقاتل. الزركلي، الأعلام: ٤/ ٢٠٩.

(٣) الكامل في اللّغة: ص ٦٥٢. ونهر دجيل يقع في الأهواز. الإدريسي، نزهة المشتاق: ٣٩٣/١.

(٤) البلاذري، أنساب الأشراف: ٧/ ١٥٥؛ ويُنظر: فلهاوزن، الخوارج والشيعة: ص ٦٤.

وكان حارثة بن بدر من بقايا الحملة الأولى التي وجَّهت من أهل البصرة تحت قيادة مسلم بن عيسى، ولما قُتِلَ قَوَادِ الحملة في قتالهم الأزارقة، استلم راية أهل البصرة، فاتَّبعه النَّاسُ الَّذِينَ أَصْبَحَتْ بِهِمْ حَاجَةٌ إِلَى قَائِدٍ يُدِيرُ أُمُورَهُمُ الْمَضْطَرِبَةَ فِي الْأَهْوَازِ، وَلَكِنَّ حَارِثَةَ اخْتَلَفَ مَعَ قَائِدِ الْهَيْلَةِ الثَّانِيَةِ الَّتِي جَاءَتْ مِنَ الْبَصْرَةِ لِمَتَابَعَةِ قِتَالِ الْخَوَارِجِ الْأَزَارِقَةِ فِي بِلَادِ فَارَسَ، وَهُوَ عِثْمَانُ بْنُ عُبَيْدِ اللَّهِ؛ وَكَانَ سَبَبُ الْإِخْتِلَافِ كَيْفِيَّةَ قِتَالِهِمُ الْأَزَارِقَةَ؛ فَقَدْ طَلَبَ حَارِثَةَ مِنْ عِثْمَانَ أَنْ يَتَرَيَّثَ فِي شَنِّْ الْهَجُومِ ضِدَّ الْأَزَارِقَةِ؛ بِصِفَتِهِ عَارِفًا بِطُرُقِ قِتَالِهِمْ أَكْثَرَ مِنْ عِثْمَانَ، إِلَّا أَنَّ الْآخِرَ لَمْ يَقْبَلْ رَأْيَ حَارِثَةَ، الَّذِي كَانَ يَقُولُ لِعِثْمَانَ بْنِ عُبَيْدِ اللَّهِ: «أَنَا أَعْلَمُ بِهِؤُلَاءِ مِنْكَ، فَقَالَ عِثْمَانُ: أَنْتَ بَغِيرُ الْحَرْبِ أَعْلَمُ [إِذَا كَانَ حَارِثَةُ مَعْرُوفًا بِالشَّرَابِ]»^(١)، فَغَضِبَ حَارِثَةَ وَاعْتَزَلَ بِجَمَاعَتِهِ جَيْشَ عِثْمَانَ، فَكَانَ مَصِيرُ الْهَيْلَةِ الثَّانِيَةِ كَسَابِقَتِهَا؛ إِذْ قُتِلَ قَائِدُهَا، وَبَقِيَ النَّاسُ بِدُونِ قَائِدٍ، فَتَبَعُوا رَايَةَ حَارِثَةَ بْنِ بَدْرِ، الَّذِي بَقِيَ يَقَاوِمُ الْأَزَارِقَةَ فِي نَهْرِ تِيرِي^(٢)، حَتَّى عُزِلَ عُبَيْدُ اللَّهِ بْنُ مَعْمَرٍ مِنْ قَبْلِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الزُّبَيْرِ، وَوَلَّى مَكَانَهُ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي رَبِيعَةَ الْمَلْقَبُ بِالْقُبَاعِ سَنَةَ (٦٦هـ / ٦٨٥م)، وَكَانَ حَارِثَةُ بِنَهْرِ تِيرِي، فَكَتَبَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ الزُّبَيْرِ إِلَى الْقُبَاعِ بِأَنْ يُؤَيِّ حَارِثَةَ قِتَالَ الْأَزَارِقَةِ، فَهَمَّ أَنْ يَفْعَلَ، ثُمَّ أَنْشَدَ فِي حَارِثَةَ شِعْرًا، فَقَالَ:

أَلَمْ تَرَ أَنَّ حَارِثَةَ بْنَ بَدْرِ يُصَلِّي وَهُوَ أَكْفَرُ مِنْ حَمَارٍ
وَأَنَّ الْمَالَ يَعْرِفُ مَنْ وَعَاهُ وَيَعْرِفُكَ الْبَغَايَا وَالْغَفَارُ^(٣).

(١) البلاذري، أنساب الأشراف: ١٥٦/٧.

(٢) نهر تيري: مدينة صالحة القدر عامرة بالديار والأسواق، كثيرة الخيرات والأرزاق، وهي من أرض فارس. الإدريسي، نزهة المشتاق: ٣٩٨/١.

(٣) البلاذري، أنساب الأشراف: ١٥٧/٧. وفي عجز البيت الثاني إقواء.

فكتب القُبَاع إلى حارثة أن اشخص إلى مصرك فإنِّي مولٌّ هذا الأمرَ غيرك، فرفض حارثة أن يترك قتال الأزارقة، فرفضه أصحابه، فبقي في عصبية من القوم، ثم قال: كرنبوا ودولبوا، وحيثُ شئتم فاذهبوا^(١).

وكان مصير حارثة أن علمت الخوارج بحالته التي أصبحت ممّا يرثى له، فهجموا عليه، ويُقال: إنّه أتى دجلاً فركب سفينة، ولحق به قوم من بني تميم، فرسبت السفينة، فغرقوا جميعاً^(٢).

إلا أنّ الشّيء الذي لم يتّضح لنا، هو موقف حارثة بن بدر، وسبب إصراره على استمراره في قتال الأزارقة، على الرُّغم من أمر الوالي الذي ألزمه بترك قتالهم. وبقي القُبَاع يُحادث أهل البصرة في مَنْ يوليّ أمر قتال الأزارقة، فقال الأحنف ابن قيس للقُبَاع وللناس عامّة: لا والله، ما لهذا الأمر غير المهلب بن أبي صفرة. وكان المهلب قد أقبل من قبل عبد الله بن الزبير، وقد ولّاه ولاية خراسان، فخرج إليه أشراف أهل البصرة، فكلموه بأن يتولّى قتال الخوارج، فردّ المهلب على أهل البصرة بأنّه لا يفعل هذا؛ محتجّاً عليهم بأنّ أميره عبد الله بن الزبير قد عهد إليه ولاية خراسان، وهو يلتزم بما أمر به أميره.

ويُروى أنّ أهل البصرة احتالوا على المهلب حينها بأن زوّروا كتاباً كتبوه له

(١) البلاذريّ، أنساب الأشراف: ٧ / ١٧٥؛ أمّا الطبريّ، فقد روى أنّ حارثة بن بدر الغدّانيّ، لما بلغه خبر المهلب قد أمّر على قتال الأزارقة، قال لمن معه من النّاس:

كَرْنِبُوا وَدَوْلِبُوا وَحَيْثُ شِئْتُمْ فَاذْهَبُوا
قَدْ أُمِّرَ الْمَهْلَبُ

تاريخ: ٤ / ٤٧٩.

(٢) البلاذريّ، أنساب الأشراف: ٧ / ١٥٧.

عن لسان ابن الزبير، جاء فيه : «بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، من عبد الله بن الزبير إلى المهلب بن أبي صفرة. سلامٌ عليك، فَإِنِّي أَحْمَدُ إِلَيْكَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ. أَمَّا بَعْدُ، فَإِنَّ حَارِثَةَ بْنَ عَبْدِ اللَّهِ كَتَبَ إِلَيَّ أَنَّ الْأَزَارِقَةَ الْمَارِقَةَ أَصَابُوا جَنْدًا لِلْمُسْلِمِينَ كَانَ عَدَدُهُمْ كَثِيرًا وَأَشْرَافُهُمْ كَثِيرًا، وَذَكَرَ أَنَّهُمْ قَدْ أَقْبَلُوا نَحْوَ الْبَصْرَةِ، وَقَدْ كُنْتُ وَجَّهْتُكَ إِلَى خِرَاسَانَ، وَكُتِبَتْ لَكَ عَلَيْهَا عَهْدًا، وَقَدْ رَأَيْتُ حَيْثُ ذُكِرَ أَمْرُ هَذِهِ الْخَوَارِجِ أَنْ تَكُونَ أَنْتَ تَلِي قِتَالَهُمْ، فَقَدْ رَجَوْتُ أَنْ يَكُونَ مِيمُونًا طَائِرُكَ، مَبَارَكًا عَلَى أَهْلِ مِصْرِكَ، وَالْأَجْرُ فِي ذَلِكَ أَفْضَلُ مِنَ الْمَسِيرِ إِلَى خِرَاسَانَ، فَيَسِرْ إِلَيْهِمْ رَاشِدًا، فَقَاتِلْ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكَ، وَدَافِعْ عَنْ حَقِّكَ وَحَقِّ أَهْلِ مِصْرِكَ، فَإِنَّهُ لَنْ يَفُوتَكَ مِنْ سُلْطَانِنَا خِرَاسَانَ وَلَا غَيْرَ خِرَاسَانَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ، وَالسَّلَامُ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَةُ اللَّهِ»^(١).

وفي روايةٍ أُخْرَى أَنَّ الْأَحْنَفَ بْنَ قَيْسٍ طَلَبَ مِنَ الْقُبَاعِ أَنْ يَكْتُبَ إِلَى عَبْدِ اللَّهِ ابْنِ الزَّبِيرِ فَيَسْأَلُهُ أَنْ يَكْتُبَ لِلْمُهَلَّبِ بِأَنْ يَخْلَفَ عَلَى خِرَاسَانَ مَنْ يَنْوُبُ عَنْهُ عَمَلُهُ، لِيَتَوَلَّى هُوَ حَرْبَ الْأَزَارِقَةِ، وَبِذَلِكَ كَتَبَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ الزَّبِيرِ إِلَى الْمُهَلَّبِ بِأَنْ يَقْدَمَ عَلَى أَهْلِ الْبَصْرَةِ^(٢).

وَإِذَا كَانَ أَهْلُ الْبَصْرَةِ قَدْ زَوَّروا الْكِتَابَ الَّذِي أَرْسَلُوهُ إِلَى الْمُهَلَّبِ بْنِ أَبِي صَفْرَةَ، فَإِنَّ هَذَا يَعْنِي أَنَّ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ الزَّبِيرِ لَمْ يَكُنْ يَهْتَمُّ لِأَمْرِ أَهْلِ الْبَصْرَةِ، وَلَا بِالْخَطَرِ الَّذِي كَانَ قَدْ أَحْدَقَ بِهِمْ، فَقَامَ أَهْلُ الْبَصْرَةِ بِالتَّخْطِيطِ لَصَدِّ هَجَمَاتِ الْأَزَارِقَةِ بَعْدَ النِّجَاحِ الْعَسْكَرِيِّ الَّذِي حَقَّقَهُ الْخَوَارِجُ فِي مَعَارِكِهِمْ ضِدَّ أَهْلِ الْبَصْرَةِ. ثُمَّ إِنَّ الْمُهَلَّبَ وَافَقَ عَلَى أَنْ يَقُودَ أَهْلُ الْبَصْرَةِ فِي قِتَالِ الْخَوَارِجِ الْأَزَارِقَةِ،

(١) الطبري، تاريخ: ٤ / ٤٧٨.

(٢) الدِّينُورِيُّ، الْأَخْبَارُ الطَّوَالُ: ص ٢٧١.

ولكنّه اشترط عليهم أن يجعلوا له ما غلب عليه من البلاد التي سوف يطهرها من العدو^(١)؛ إذ روي أنّ المهلب قال: «وليّ فيء كلّ بلد أظفر به»^(٢). فردّ عليه الأحنف: «ليس ذاك لك ولا لنا، إنّما هو فيء المسلمين، فإنّ سلبتهم إيّاه، كنت عليهم كعدوّهم، ولكنّ لك أن تُعطي أصحابك من فيء كلّ بلد تغلب عليه ما شئت»^(٣).

إنّ هذا الكلام يكشف عن أنّ المهلب كان يحاول أن يخصّص رواتب لجيشه الذي يخرج معه، فطلب كلّ فيء البلاد التي يظفر بها، فعارضه الأحنف؛ لأنّ طلبه هذا سوف يحرم المسلمين من الحصول على أعطيّاتهم، وعلى المهلب أن يقوم بتحديد المبالغ التي يراها مناسبة لجنده، فلمّا حاول المهلب تجهيز مقاتليه، وجد عجزاً في بيت مال البصرة يحول دون إتمام عمليّة التجهيز؛ إذ وجد أنّ بيت مال المسلمين لم يكن فيه إلّا مائتا ألف درهم^(٤).

ولما وجد المهلب الوضع كما تقدّم، عمل على تلافي ذلك عن طريق عقد صفقات تجاريّة مع التجار؛ إذ عرض أمره على تجار البصرة، فقال: «إنّ تجارتكم منذ حولٍ قد كسدت عليكم بانقطاع موادّ الأهواز وفارس عنكم، فهلّمّ فبايعوني واخرجوا معي، أوفكم إن شاء الله حقوقكم، فتاجروه، فأخذ من المال ما يصلح به عسكريه»^(٥).

(١) الطبريّ، تاريخ: ٤ / ٤٧٨.

(٢) الطبريّ، تاريخ: ٤ / ٤٧٨.

(٣) المبرّد، الكامل في اللّغة: ص ٦٥٥.

(٤) المبرّد، الكامل في اللّغة: ص ٦٥٥.

(٥) المبرّد، الكامل في اللّغة: ص ٦٥٥.

وهكذا، تمكَّن المهلب من تجاوز الظروف الصَّعبة التي كانت تواجهه في تشكيل جيش قويٍّ مناسب لمواجهة جيش الأزارقة، فاختار من فرسان النَّاس ووجوهم وذوي الشَّرَف^(١)، واستطاع طرد الأزارقة عن أرض البصرة مرحلة بعد مرحلة، حتَّى انتهوا إلى منزل من منازل الأهواز يقال له: (سَلَى وسَلْبَرِي)، فأقاموا به^(٢). ولم يترك المهلب عسكره مكشوفاً أمام هجمات الخوارج عندما كان في الأهواز، بل اتخذ التدابير اللازمة لحمايتهم؛ إذ خندق بعسكره «ووضع المسالِح، وأذكى العيون، وأقام الأحراس»^(٣).

وكانت الخوارج إذا أرادوا استغلال اللَّيْلِ في شَنِّ الهجوم على معسكر المهلب، وجدوا أمره محكماً، فلم يتمكنوا من قتل أيِّ إنسانٍ من معسكر أهل البصرة، فلم يقاتلهم إنسان قطَّ كان أشدَّ عليهم ولا أغيظ لقلوبهم مثل المهلب^(٤). فارتفع الخطر عن البصرة منذ تولَّى المهلب أمر قتال الأزارقة^(٥)، وفي ذلك يقول الشَّاعر:

إِنَّ الْعِرَاقَ وَأَهْلَهُ لَمْ يَخْبُرُوا مِثْلَ الْمَهْلَبِ فِي الْحُرُوبِ فَسَلَّمُوا
أَمْضَى وَأَيْمُنُ فِي اللَّقَاءِ نَقِيَّةً وَأَقْلُ تَهْلِيلًا إِذَا مَا أَحْجَمُوا^(٦).

ولمَّا فرض المهلب بن أبي صفرة سيطرته على كور دجلة، أقام أربعين يوماً يجبي الخراج، فتمكَّن من إعطاء التجَّار وأصحاب الأموال أموالهم التي أخذها منهم

(١) الطبري، تاريخ: ٤/ ٤٧٨؛ ويُنظر: د. نافع توفيق العبودي، آل المهلب بن أبي صفرة: ص ٥٨.

(٢) الطبري، تاريخ: ٤/ ٤٧٩.

(٣) الطبري، تاريخ: ٤/ ٤٧٩.

(٤) الطبري، تاريخ: ٤/ ٤٧٩؛ ويُنظر: د. عليٍّ محمد محمد الصَّلاحي، الدَّولة الأمويَّة: ١/ ٧٩٦.

(٥) شارل بللا، الجاحظ: ص ٢٨٦.

(٦) المبرِّد، الكامل في اللُّغة: ص ٦٥٦.

في تجهيز جيشه^(١).

وعلى هذا، فقد كانت الإجراءات التي اتخذها المهلب قد انصبت في مصلحته؛ إذ اكتسب بذلك ثقة الناس، وأزاح الرعب الذي جثم على قلوب أهل البصرة من خطر الخوارج الأزارقة، فأسرع إليه الناس رغبة في مجاهدتهم^(٢).

ثم تمكن المهلب من هزيمة هؤلاء الخوارج وزحزحتهم عن نواحي البصرة والأهواز إلى ناحية أصبهان وكرمان في سنة (٦٦هـ / ٦٨٥م)^(٣). ويروى أن المهلب استخدم وضع الحديث يشد به أمر المسلمين ويضعف من أمر الخوارج، وفي ذلك يقول الشاعر:

أنت الفتى كل الفتى لو كنت تصدق ما تقول^(٤).

وإذا صحت رواية وضع الحديث من قبل المهلب بن أبي صفرة، فإن هذا يعني أنه قام بالكذب على رسول الله ﷺ؛ إذ إنه ينسب الحديث إليه من أجل الحصول على تأييد آرائه وخططه التي اتبعها في قتال الخوارج الأزارقة، بلحاظ أن المسلمين يتبعون حديث رسول الله بوصفه سنة سنّها لهم ﷺ.

ثم إن وضع الحديث يتنافى مع أخلاق المؤمنين في اتباع الحق والتزامه مبدأ يطابق أفعالهم تجاه الرسول ﷺ.

(١) المبرّد، الكامل في اللغة: ص ٦٥٦.

(٢) المبرّد، الكامل في اللغة: ص ٦٥٦.

(٣) الطبري، تاريخ: ٤ / ٤٨٣.

(٤) المبرّد، الكامل في اللغة: ص ٦٥٩؛ ابن عساكر، تاريخ دمشق: ٤٥ / ١١٧؛ ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة: ٤ / ١٥٠؛ ابن خلّكان، وفيات الأعيان: ٥ / ٣٥٧؛ د. عامر النجار، الخوارج: ص ٦٤.

فضلاً عن ذلك، فإنَّ صُنْعَ الحديث وتزويره شوّه تاريخ الخوارج؛ بسبب كثرة الأحاديث الموضوعة التي تنسب إليهم، حتّى أنَّ المؤرّخين الأوائل الذين تناولوا تاريخ الخوارج لم يتحقّقوا ممّا كتبه عنهم، بل نسبوا كلّ صالحٍ وطالحٍ إلى الخوارج، حتّى أصبح تاريخهم مشكوكاً فيه لا يعوّل عليه؛ لذا، فما نُسب من آراء وأفكار ومقولات إلى الخوارج قد لا تكون لهم بحقّ، ولكنَّ أعداءهم وضعوها ونسبوها إليهم بالشكل الذي وصلت إلينا.

وبقي المهلب في حربه مع الخوارج الأزارقة بين كرٍّ وفرٍّ، وكان يكتب لأهل البصرة بانتصاراته ضدّهم، فيكتبون إليه يهنّئونه بذلك^(١).

ثمَّ عُزل القُبَاع عن ولاية البصرة، ووُليّ مصعب بن الزبير عليها، فلمّا أراد الخروج لقتال المختار بن أبي عبيدة الثقفيّ، كتب إلى المهلب بأن يقدم عليه ليشاركه في قتال المختار، فاستخلف المهلب ابنه المغيرة، وأمر النَّاس بطاعته ولزوم أمره، وكتب مصعب إلى المغيرة بن المهلب: «إنَّك وإن لم تكن كأبيك، فإنَّك كافٍ لما وليّتك، فشمر وأتزر وجدّ واجتهد»^(٢).

ولما انتهى مصعب من أمر المختار والجزيرة الفراتيّة وآذربيجان وأرمينية^(٣)، ولىّ حرب الأزارقة عمر بن عبيد الله بن معمر، الذي تمكّن من تحقيق بعض الانتصارات على الخوارج في عدّة مناسبات^(٤).

(١) للتفصيل، راجع: المبرّد، الكامل في اللّغة: ص ٦٦٤-٦٦٥.

(٢) المبرّد، الكامل في اللّغة: ص ٦٦٧.

(٣) الطبريّ، تاريخ: ٥٧٧/٤.

(٤) المبرّد، الكامل في اللّغة: ص ٦٦٨-٦٦٩.

ثم ولّى الخوارج أمرهم إلى قطري بن الفجاءة^(١)، الذي أقام في كرمان، فاجتمعت إليه جموع كثيرة، وأكل الأرض، وجبى الأموال، وقوي حاله، ثم أقبل حتى سيطر على أرض أصبهان، ثم تمكّن من السيطرة على أرض الأهواز والإقامة فيها، فلما علم مصعب بن الزبير بعودة خطر الأزارقة لمدينة البصرة، بعث إلى المهلب بن أبي صفرة بأن يخرج لقتالهم، فجاء المهلب حتى قدم البصرة، وانتخب الناس، ثم توجه نحو الأزارقة، فالتقوا بسولاف^(٢)، فاقتتلوا بها لمدة ثمانية أشهر، وكان قتالاً شديداً لم يتمكّن أحد الطرفين من تحقيق الانتصار على حساب الآخر فيه^(٣).

وفي سنة (٧٢هـ/ ٦٩١م) قُتل مصعب بن الزبير، وبلغ الخوارج الأزارقة خبر قتله قبل أن يصل أصحاب المهلب، فنادى الخوارج المهلب وأصحابه: ألا تخبروننا ما قولكم في مصعب؟ فقالوا: إمام هدى، وهو وليّنا في الدنيا والآخرة، ثم سألوهم: وما قولكم في عبد الملك بن مروان؟ قالوا: ذلك ابن اللعين، نحن إلى الله منه نتبرأ، وقالوا للخوارج: نحن له أعداء كعداوتنا لكم.

فلما تبين لأصحاب المهلب مقتل مصعب بن الزبير، وما وقع من مبايعة الناس

(١) قطري بن الفجاءة: الخارجي، من بني حرقوص بن مازن بن مالك بن عمرو بن تميم، وكان يكنى أبا نعام، بقي عشرين سنة يقاتل ويسلم عليه بخلافة الخوارج، فوجه إليه الحجاج جيشاً بعد جيش، وكان آخرها بقيادة سفيان بن الأبرد الكلبي، فتمكّن من قتل قطري، ولم يكن لقطري عقب، وذكره ابن النديم ضمن الخطباء. ابن قتيبة، المعارف: ص ٤١١؛ ويُنظر: ابن النديم، الفهرست: ص ١٣٩؛ ابن خلّكان، وفيات الأعيان: ٩٣/٤.

(٢) سولاف: قرية في غرب دجيل من أرض خوزستان. ياقوت الحموي، معجم البلدان:

(٣) الطبري، تاريخ: ٥٨٦/٤؛ ابن كثير، البداية والنهاية: ٣٥٧/٨.

لعبد الملك بن مروان، أتهم الخوارج، فقالوا لهم: ما تقولون في مصعب؟ فقالوا: يا أعداء الله، لا نخبركم ما قولنا فيه.

ثم ردّ أصحاب المهلب على الخوارج الأزارقة بأنّ عبد الملك إمامنا وخليفتنا، فاحتجّت الأزارقة على أصحاب المهلب؛ لأنّهم كانوا بالأمس يتبرّأون منه واليوم يتولّونه وأنّه خليفتهم^(١).

من هذه المناظرة التي جرت بين أصحاب المهلب والأزارقة، تظهر محاولة الخوارج في شق صفوف جيش المهلب ونشر الخلاف بينهم، مستغلّين الولاء الذي نادى به أصحاب المهلب أوّل الأمر لمصعب بن الزبير، ثمّ احتجّوا عليهم عندما بايعوا عبد الملك بأنّهم كانوا فيما سبق قد تبرّأوا منه! وهذا يعني أنّ الأزارقة حاولت أن تكسب خطأ أتباع المهلب لقلب المعطيات لمصلحتهم، فهم ربّما كانوا يأملون أن بمقدورهم التأثير في أتباعه.

إلا أنّ الأساليب المتقدّمة لم يكتب لها تحقيق مكاسب سياسيّة بالتحريض ضدّ سلطة عبد الملك، بل فاجأ أتباع المهلب الخوارج بأنّهم يتمسّكون بإمرة الحاكم الجديد وموالاته، فضاعت جهود الأزارقة وأصبحت هباء منثوراً.

لم يكن عهد عبد الملك أفضل من سابقه من حيث أمن البصرة، بل ظلّت مهدّدة بخطر الأزارقة بين الحين والآخر، وكان الولاة الذين تولّوا أمر البصرة قد ولّوا قتال الأزارقة أمراء غير المهلب، كما فعل ذلك خالد بن عبد الله بن خالد بن أسيد؛ الذي غضب منه عبد الملك بن مروان بسبب عدم توليته المهلب حرب الأزارقة، قائلاً له: «قَبَّحَ اللهُ رَأْيَكَ»^(٢)، فأعيد المهلب إلى حرب الخوارج الأزارقة، فتمكّن

(١) المبرّد، الكامل في اللّغة: ص ٦٧٦؛ الطبريّ، تاريخ: ١٦/٥.

(٢) الطبريّ، تاريخ: ١٨/٥.

من دحرهم، فسمّوه من أجل ذلك بالسّاحر؛ لأنّهم كانوا يدبّرون الأمر فيجدونه قد سبق إلى نقض تدبيرهم^(١).

وقد بقي المهلب على قتال الأزارقة حتّى وفاة بشر بن مروان وتولية الحجاج بن يوسف الثقفيّ أمر العراق، ويبدو أنّ الحجاج لم يكن كمّن سبقه من ولاية العراق، بل وجد سرّ نجاح المسلمين في قتال الخوارج في تواجد المهلب على قيادة الجيش الذي تولّى قتالهم، فكتب إلى المهلب: «أمّا بعد، فإنّ بشراً [ابن مروان] استكره نفسه عليك، وأراك غناءً عنك، وأنا أريك حاجتي إليك، فأرني الجدّ في قتال عدوّك، ومَنْ خفته على المعصية ممّن قبلك، فاقتله، فإنّي قاتل مَن قبلي، ومَنْ كان عندي من وليّ من هرب عنك، فأعلمني مكانه، فإنّي أرى أن آخذ الوليّ بالوليّ، والسّميّ بالسّميّ»^(٢).

وكان ردّ المهلب على كتاب الحجاج: « ليس قبلي إلّا مطيع، وإنّ النّاس إذا خافوا العقوبة، كبّروا الذّنب، وإذا أمنوا العقوبة، صغّروا الذّنب، وإذا يؤسّوا من العفو أكفّروهم ذلك، فهب لي هؤلاء الذي سمّيتهم عصاة، فإنّهم فرسان أبطال أرجو أن يقتل الله بهمّ العدو، وأكثرهم نادماً على ذنبه»^(٣).

والظاهر من كتاب المهلب المتقدّم للحجاج تخطيط المهلب وكيفية استغلال النّاس إلى جانبه دون أن يتّجهوا إلى جهات مختلفة، أو ينخرطوا إلى صفوف الخوارج، فالعقوبة التي يتعرّض لها النّاس من لدن الحجاج ربّما يؤوّلها النّاس بكفر الحجاج بسبب الذنوب التي يقترفها، وهذا يؤدّي في النهاية إلى إرباك

(١) المبرّد، الكامل في اللّغة: ص ٦٧٧.

(٢) المبرّد، الكامل في اللّغة: ص ٦٨٦.

(٣) المبرّد، الكامل في اللّغة: ص ٦٨٦.

الحياة السَّيَاسِيَّةُ فِي البَصْرَةِ، فحاول المهلَّب استغلال العصاة بأفضل ما يمكن له، والحقيقة أنَّ المهلَّب رغب في الاستفادة من العصاة بدل أن يتعرَّضوا للقتل من قبل الحجاج، الذي صرَّح بأنَّه سوف يقتلهم في حال عصيان أوامره.

وفي سنة (٧٧هـ/٦٩٦م) وقع الاختلاف بين الخوارج الأزارقة، ليكون هذا الاختلاف نقطة تحوُّل في تاريخهم لصالح المسلمين؛ إذ يُروى أنَّ رجلاً من الخوارج يسمَّى (المقطر) من بني ضبيعة كان عاملاً لقطري بن الفجاءة زعيم الأزارقة على ناحية من كerman في بلاد فارس، فخرج في سرية لهم، فقتل رجلاً من الخوارج ينتمي إليهم، وكان الرجل ذا بأس، فوثب الخوارج إلى قطري، فذكروا له أمر عامله، وقالوا: أمكنَّا من الضبيِّ نقتله بصاحبنا، لكنَّه لم يوافقهم على ما عزموا عليه، راداً عليهم بأنَّه تأوَّل فأخطأ في التأويل، ولا يرى أن يقتلوه، فوقع الاختلاف بينهم في قتل الرجل وعدمه، فولَّوا عبد ربَّه الكبير^(١)، وخلعوا قطرياً، ومالت جماعة أخرى من الخوارج إلى مبايعة قطري بن الفجاءة، فوقع القتال بين الخوارج، واستمرَّ شهراً^(٢).

كتب المهلَّب إلى الحجاج بوقوع ذلك الاختلاف، فكان الحجاج بدوره يطلب من المهلَّب الهجوم على معسكر الخوارج وهم مشغولون في قتال بعضهم بعضاً، لكنَّ المهلَّب لم يمثل لكتاب الحجاج، بل ردَّ عليه بأنَّ مهاجمتهم في ساعة اختلافهم وقتالهم سوف يوحد من صفوفهم ضدَّ الخطر المشترك المتمثِّل بجيش المهلَّب، ولكنَّه سوف يتركهم حتَّى يُضعفهم القتال، وتكثر قتلاهم.

(١) عبد ربَّه الكبير: كان بائع رمان، وهو أحد موالى قيس بن ثعلبة. ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة: ٢٠٤ / ٤.

(٢) الطبري، تاريخ: ١٢٢ / ٥؛ ويُنظر: اليعقوبي، تاريخ: ١٩٢ / ٢.

وكان رأي المهلب هو الرأي الصائب، فكف عنه الحجاج^(١). فبقي يراقب التطورات التي وقعت في معسكر الخوارج، فلما تفرقوا، وخرج قطري بن الفجاءة تاركاً معسكرهم نحو طبرستان^(٢)، وباع عامتهم عبد ربّه الكبير، نهض إليهم المهلب، فقاتلهم، وانتصر عليهم، واستولى على عسكرهم^(٣). ولما تمكّن المهلب من القضاء على خطر الأزارقة نهائياً، قدم على الحجاج، فأجلسه إلى جانبه، وأظهر إكرامه وبرّه، وقال بحقه: «يا أهل العراق، أنتم عبيد المهلب»^(٤).

وبهذا، يكون الفضل في القضاء على الخوارج الأزارقة للمهلب أولاً، ولانقسامهم واختلافهم وتفرقهم ثانياً، فيكون المهلب بن أبي صفرة قد استغرق في قتال الأزارقة، تسع عشرة سنة^(٥) من حياته، دون أن يملّ أو يكلّ، بل كان الرجل المناسب لجميع المواقف والشدائد، ليس في البصرة فحسب، بل في أقطار الدولة العربيّة الإسلاميّة عامّة آنذاك، وإن كان قد استخدم بعض الطرق غير الشرعيّة أثناء سنيّ قتاله تلك، كوضع الحديث مثلاً كما مرّ.

وبنهاية الأزارقة، تكون فرقهم قد عاشت فترة من الزمن ليست بالقصيرة، ولكنّها كرّست جهودها في سبيل القتال، دون اللجوء في حالات كثيرة إلى استخدام آرائهم الفكريّة ضدّ مخالفيهم.

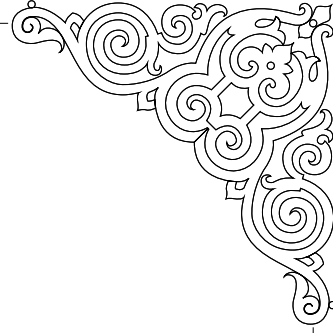
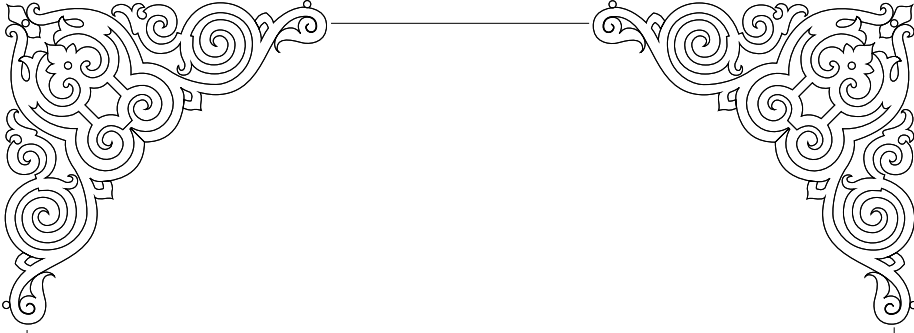
(١) الطبريّ، تاريخ: ١٢٢/٥.

(٢) كورة كبيرة من كور فارس.

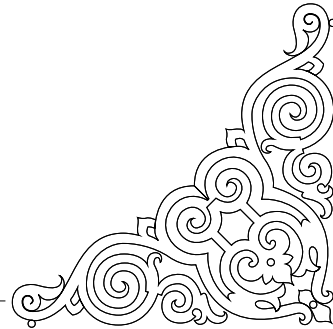
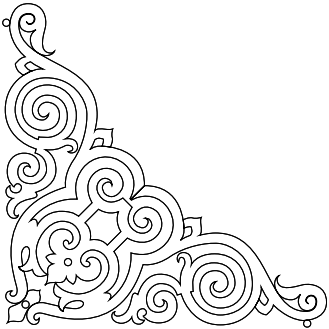
(٣) الطبريّ، تاريخ: ١٢٢/٥.

(٤) المبرّد، الكامل في اللّغة: ص ٧٠٧.

(٥) الشّهريّ، الملل والنحل: ١/ ١٢٠؛ السّمعانيّ، الأنساب: ١/ ١٢٢.



الخاتمة



الخاتمة

من خلال سير هذا البحث، قدّمنا دراسة عن واقع البصرة السّياسي للفترة بين (١٤-١٣٢هـ)، وقد اعتمدنا في أسلوب هذه الدّراسة على مطابقة بعض الأحداث السّياسيّة مع فترتها الزمانيّة، وألزمنا هذه الطريقة التحليل، ومناقشة الرّوايات التاريخيّة، والرّدّ على بعض آراء الباحثين والكتّاب، تلك التي لم تتلاءم مع فتراتها، ولم تتسق مع أسبابها.

إنّ النتائج التي توصّلنا إليها عبارة عن حقائق تاريخيّة تتعلّق بواقع البصرة السّياسي، فالمدينة لما لها من دور كبير وأثر فعّال أيّام الدّولة الإسلاميّة إلى وقتنا الحاضر، حاولت كلّ سلطة وصلت إلى عرش الدّولة بسط سيطرتها على الأمصار الأساسيّة المهمّة في الدّولة، فكانت البصرة في مقدّمة تلك الأمصار.

وقد بدأ الأثر السّياسي الملحوظ لأهل البصرة بخروجهم على سلطة عثمان بن عفّان، ثمّ شهدت مدينتهم أوّل انقلاب عسكريّ مدبّر ضدّ سلطة الدّولة حينئذٍ، لتكون بعدها من أخطر مدن الدّولة، التي يجب على الحكّام أن يسيطروا سيطرتهم عليها بصورة كاملة فيما إذا أرادوا النجاح في المجال السّياسي.

وكان معاوية بن أبي سفيان خير مثال على ذلك عندما حاول أن يثير بعض البصريّين الذين يتعاطفون مع الأمويّين ضدّ سلطة الإمام عليّ عليه السلام وخلافته الحقّة، المحاولة التي باءت بالفشل؛ بعد أن كان أهل البصرة مازالوا يعيشون في ظلّ ما خلّفته حرب الجمل من مواقف وإفرازات ونتائج، ويتذكّرون الواقع المرير

الذي أحاط بمدينتهم.

ونتيجة لوجود بعض مَنْ عمل في خدمة السَّطَّة الحاكمة، الذين عملوا على إرضاء سلاطينهم وأهوائهم، أخذت البصرة حصَّتها من ذلك الإرضاء؛ فعمل البعض على تسخير أعلامهم في سبيل التحريف والتشويه؛ من أجل تحقيق بعض المكاسب الاجتماعيَّة لأهداف سياسيَّة، فبعدها وجدوا أنَّ للبصرة دوراً كبيراً في المجال السَّيَاسِي، أرادوا أن يجعلوها موالية راضخة للحكَّام، خاصَّةً في الفترة الأمويَّة، فادَّعوا أنَّ البصرة عثمانِيَّة تدين بالكفِّ لعثمان، ولكنَّ الواقع التاريخي والأحداث التي شهدتها المدينة وبالأخصَّص أيام الأمويين، كشفت لنا أنَّها على النقيض من ذلك، وأنَّها أقرب إلى الاعتدال، وتميل في بعض المواقف إلى العلويين؛ انتقاماً من سلطنة الأمويين التي فتكت بالبصريين، وحطَّمت آمالهم.

لذلك، وجدنا أهل البصرة يستغلُّون مواقف الضَّعف والانهيار التي تدبَّ في جسد الدَّولة أحياناً في الإعلان برفض السَّطَّة الأمويَّة، واختيار شخصيَّة علويَّة تُدير أمورهم، كما في الأيام الأولى من سلطنة معاوية، وكذلك في الفترة التي أعقبت هلاك يزيد بن معاوية.

ولما كان تاريخ الدولة الأمويَّة حافلاً بالصَّراع السَّيَاسِي بين البيتين الأمويِّ والعلويِّ، اتُّهمت البصرةُ ببعدها عن نصره العلويين، كما هو واضح من حديث عدم بكاء أهل البصرة على الإمام الحسين بن عليِّ بن أبي طالب (عليه السلام) المنسوب إلى أهل البيت (عليهم السلام)، فكانت الشبهات والمطاعن تلاحق أهل البصرة لتزييف تاريخهم، أو بالأحرى: ليكون تاريخهم يناسب بعض الأفراد والشخصيَّات التي كانت وراء حركات التزييف والتحريف والوضع تلك.

وقد أثبتَ البحث أنَّ أهل البصرة قد تحمَّلوا عبء الأمراء والولاة الأمويين

وأخطائهم، وممارساتهم القمعية على طول أيام دولتهم، فالوالي كان يرغب بتحقيق أهداف حكومته، وإخضاع الناس لطاعتهم، وفي المقابل، كان للناس بعض الرغبات والطموحات التي لا تلائم تخطيط الحكومة المركزية وأهوائها، الاختلاف الذي كان يؤدي لا محالة إلى ظهور الصراعات السياسية على شكل ثورات وحركات مسلحة عنيفة.

ولما كان تاريخ الإسلام حافلاً بالثورات، كانت البصرة جزءاً من ذلك التاريخ؛ فكانت نهضة الإمام الحسين عليه السلام الخطوة الممهدة للتحرك ضد الظلم واستئصال أصله وجذوره وأساسه، وهذا واضح من خلال ما شهده العراق من مظالم الحجاج، الذي حاول أن يسيّر الناس حسب ما تمليه عليه رغباته ونظراته التعسفية، فثار أهل البصرة ضده؛ من أجل استعادة حقوقهم المسلوبة، خاصة بعدما أعلن الحجاج أنه سوف يقلل من أعطياتهم التي كانت عليها أيام عبد الله بن الزبير.

عندها، قاد ابن الجارود أهل البصرة ضد الحجاج، لكن ثورته تلك لم تحقق أهدافها بسبب قوة الدولة وسيطرتها على مثل تلك المواقف.

وكذا وصل بنا البحث إلى نتيجة أن أهل البصرة كانوا يساندون كل تحرك ثوري ضد السلطة الأموية الظالمة، حتى شهدت البصرة أخطر الثورات التي كادت تطيح بنظام الحجاج وإدارته للعراق، لولا تدخل جيش الشام لإنقاذ النفوذ الأموي بالمنطقة.

وقد تكرر تعاطف أهل البصرة مع الحس الثوري؛ فحسب ما وضعنا أيدينا عليه من مستندات ومعطيات، وجدناهم يتعاطفون مع يزيد بن المهلب عندما فر من سجنه وأعلن الثورة في العراق على يزيد بن عبد الملك، مستهدفاً بذلك إزالة

ملك بني أمية.

وكان للخوارج سمتهم البارزة وبصمتهم الواضحة في تاريخ البصرة السِّياسي في تلك الفترة، فقد كانت المدينة إحدى أهمّ نقاط انطلاق الخوارج ضدّ الدولة العربيّة الإسلاميّة منذ عهد الإمام عليٍّ عليه السلام، وحتى نهاية الدولة الأمويّة.

وكانت نظرة الخوارج إلى الأحداث التي يتعاملون معها متفاوتة بين جماعة وأخرى، وبين فترةٍ وأخرى وعهدٍ وآخر؛ فربّما كان بعضهم محقّاً في إعلان خروجه ضدّ سلطة الدولة، ولكنّ هؤلاء القلّة القليلة من بينهم، وهم الذين التزموا بتعاليم الدِّين الإسلاميّ، وجعلوها نصب أعينهم، وهم يُقارعون الطغاة والمستبدّين، ولكن؛ لكثرة المطاعن التي لحقتهم من قبل مخالفيهم؛ ولأنّنا لا نثق ببعض تلك المطاعن بعد قوّة احتمال وضع المستندات وتزويرها، فقد جعل ذلك تاريخهم غائماً بعيداً عن الصّورة الحقيقيّة التي يمكن للباحث الوقوف عليها بشكلٍ دقيقٍ قريبٍ إلى الحقيقة والواقع.

ختاماً؛ لا بدّ من التّنبية على أنّ دراسة الحياة السِّياسيّة في البصرة وفق المنهج الذي حاولنا اتّباعه، وعدم الانحراف عنه في جميع مفاصل البحث وثناياه، يجعلنا ننظر إلى تاريخ الدولة الإسلاميّة، وكأنّه كتلة واحدة لا تتجزّأ أمام التّسميات والحدود الطبعيّة الفاصلة بين مصرٍ وآخر، وهذا ما يربط تاريخ المدن بالأحداث والتّيّارات السِّياسيّة والعقائد من جهة، وبالّدوافع الذاتيّة والمطامع الفرديّة من جهةٍ أخرى.

مُلحقان

ملحق رقم (١)

أسماء كبار موظفي البصرة من عام (١٤) إلى (١٣٢) هـ

الخليفة	عامل العراق	والي البصرة (الأمير والسنة)	كبار الموظفين في عهد الوالي	المصادر
١- عمر بن الخطاب	---	عتبة بن غزوان (١٤-١٦ هـ)	القاضي: أبو مريم الحنفي، كعب بن سور. كاتب الديوان: عبد الله ابن خلف، الخزاعي، أبو طلحة الطلحات. كاتب الخراج: الحجاج ابن علاط.	- خليفة بن خياط، تاريخ: ص ١١١. - ابن سعد، الطبقات الكبرى: ١٤٩/٧. - ابن قتيبة، المعارف: ص ٤١٩. الطبري، تاريخ: ٢٤/٥. أبو يوسف، الخراج: ص ١٣٥.
		المغيرة بن شعبة (١٦ هـ)	(العمال أنفسهم في زمن عتبة بن غزوان).	خليفة بن خياط، تاريخ: ص ١١١.
		أبو موسى الأشعري (١٦-٢٨ هـ)	(العمال أنفسهم زمن المغيرة بن شعبة)	خليفة بن خياط، تاريخ: ص ١١١؛ الطبري، تاريخ: ٣٠٤/٣.
٢- عثمان بن عفان		أبو موسى الأشعري لأربع سنوات	القاضي: كعب بن سور.	خليفة بن خياط، تاريخ: ص ١٣٤.
		عبد الله بن عامر بن كريز (٢٨-٣٥ هـ)	القاضي: كعب بن سور.	خليفة بن خياط، تاريخ: ص ١٣٤.

الخليفة	عامل العراق	والي البصرة (الأمير والسَّنة)	كبار الموظَّفين في عهد الوالي	المصادر
٣- الإمام عليّ بن أبي طالب عليه السلام		عثمان بن حنيف (٣٥هـ)	القاضي: أبو الأسود الدؤليّ.	خليفة بن خياط، تاريخ: ص ١٥٢؛ زمباور، معجم الأنساب و الأسر الحاكمة في التاريخ الإسلامي: ص ٦٢.
		عبد الله بن عباس (٣٦-٤٠هـ)	القاضي: أبو الأسود الدؤليّ، وعبد الله بن فضالة اللّيثي. صاحب الخراج: زياد بن أبيه.	الطبري، تاريخ: ٤/ ١١٩؛ وكيع، أخبار القضاة: ١/ ٢٨٨.
٤- الإمام الحسن بن عليّ بن أبي طالب عليه السلام		عبد الله بن عباس (٤٠هـ)	القاضي: أبو الأسود الدؤليّ.	
		حمران بن أبان (٤١هـ) لم يخضع حمران بن أبان إلى سلطة معاوية، وإنَّما بايعه أهل البصرة.		الطبري، تاريخ: ٤/ ١٢٧.

الخليفة	عامل العراق	والي البصرة (الأمير والسنة)	كبار الموظفين في عهد الوالي	المصادر
٥ - معاوية بن أبي سفيان	---	بسر بن أرطاة، الفرزاري (ولياً عسكرياً لمعاوية على البصرة لمدة ستة أشهر)		الطبري، تاريخ: ٤/ ١٢٨.
		عبد الله بن عامر بن كريز (٤٢ - ٤٤هـ)	القاضي: عميرة بن يثربي الضبي صاحب الشرطة: حبيب بن شهاب، الشامي	خليفة بن خياط، تاريخ: ص ١٧٢؛ الطبري، تاريخ: ٤/ ١٦٤.
		الحارث بن عبد الله، الأزدي (٤٥هـ) (بقي على ولاية البصرة أربعة أشهر)	صاحب الشرطة: عبد الله بن عمرو بن غيلان، الثقفي.	الطبري، تاريخ: ٤/ ١٦٤؛ ابن الغملاس، ولاية البصرة ومتسلموها: ص ٦.
		زياد بن أبيه (٤٥ - ٥٣هـ)	القاضي: عمران بن الحصين، الخزاعي؛ عبد الله بن فضالة، الليثي؛ زرارة بن أوفي، الجرشي.	الطبري، تاريخ: ٤/ ١٦٩؛ زمباور، معجم الأنساب والأسر الحاكمة في التاريخ الإسلامي: ص ٦٢.
			صاحب الشرطة: سمرة بن جندب عبد الله بن حصن.	الطبري، تاريخ: ٤/ ١٦٨ - ٢١٣. خليفة بن خياط، تاريخ: ص ١٥٩.

الخليفة	عامل العراق	والي البصرة (الأمير والسَّنة)	كبار الموظفين في عهد الوالي	المصادر
			عبد بن حصن. كاتب الخراج: زاذان فروخ. كاتب الرِّسائل: عبد الرحمن بن أبي بكرة؛ جبير بن حيّة. حاجب زياد: مهران مولاة .	البلاذريّ، أنساب الأشراف: ١٨١ / ٥. خليفة بن خياط، تاريخ: ص ١٥٩. خليفة بن خياط، تاريخ: ص ١٥٩.
		سمرة بن جندب (٥٣-٥٤هـ) (بقي على ولاية البصرة لمدة ثمانية عشر شهراً) .	صاحب السَّرتبة: عبد الله بن حصن.	الطبريّ، تاريخ: ٢١٧ / ٤.
		عبد الله بن عمرو بن غيلان (٥٤هـ).	صاحب السَّرتبة: عبد الله بن حصن. القاضي: زرارة بن أوفي، الجرشيّ.	الطبريّ، تاريخ: ٤ / ٢١٩؛ ابن عبد البرّ، الاستيعاب: ٣ / ١١٩٧؛ ابن حجر، الإصابة: ٤ / ٥٥٤.

الخليفة	عامل العراق	والي البصرة (الأمير والسنة)	كبار الموظفين في عهد الوالي	المصادر
		عبيد الله بن زياد (٥٥-٦٠هـ).	القاضي: زرارة بن أوفي، الجرشي؛ شريح القاضي؛ ابن أذينة، العبدى. صاحب الشرطة: عبد الله بن حصن. كاتب الخراج: زاذان فروخ. كاتب الرسائل: عبد الرحمن بن أبي بكر؛ وجير بن حية. الحاجب: مهران مولاه.	خليفة بن خياط، تاريخ: ص ١٧٢؛ ابن الغملاس، ولاية البصرة ومتسلموها: ص ٨. الطبري، تاريخ: ٤/ ٢٢٣. خليفة بن خياط، تاريخ: ص ١٥٩.
٦- يزيد بن معاوية بن أبي سفيان.		عبيد الله بن زياد (٦٠-٦٣هـ).	القاضي: عبد الرحمن بن أذينة، العبدى؛ هشام بن هبيرة.	خليفة بن خياط، تاريخ: ص ١٩٦؛ الطبري، تاريخ: ٤/ ٢٣٧. الطبري، تاريخ: ٤/ ٢٢٣.
		عبد الله بن الحارث بن نوفل بية (٦٤هـ). (انتخبه أهل البصرة بعد هلاك يزيد بن معاوية)	صاحب الشرطة: عبد الله بن حصن. القاضي: زرارة بن أوفي، الجرشي.	الدّينوري، الأخبار الطّوال: ص ٢٨٣؛ ابن عبد البر، الاستيعاب: ٣/ ٨٨٦؛ الذهبي، سير أعلام النبلاء: ٤/ ١٨١.
			صاحب الشرطة: هميان بن عدي، السّدوسي	الطبري، تاريخ: ٤/ ٣٩٤؛ ابن كثير، البداية والنهاية: ٨/ ٢٦١.

الخليفة	عامل العراق	والي البصرة (الأمير والسَّنة)	كبار الموظَّفين في عهد الوالي	المصادر
٧- عبد الله بن الزَّبير	---	الحارث بن عبد الله بن أبي ربيعة المخزومي، القُبَاع (٦٥هـ).	القاضي: هشام بن هيرة.	الطبري، تاريخ: ٤/ ٤٨٤.
		مصعب بن الزبير (٦٦هـ). (وكان مصعب في أيام غيابه يستخلف على البصرة عبد الله بن عبيد الله بن معمر).	القاضي: هشام بن هيرة؛ عبد الله بن عبيد الله بن معمر.	وكيع، أخبار القضاة: ٣٠١ / ١.
		حمزة بن عبد الله ابن الزبير (٦٧هـ).	القاضي: هشام بن هيرة.	ياقوت الحموي، معجم البلدان: ١٤٧ / ٢. الطبري، تاريخ: ٥٧٧ / ٤.
		مصعب بن الزبير (٦٩-٧١هـ).	القاضي: هشام بن هيرة. صاحب الشرطة: مطرف بن سيدان، الباهلي.	الطبري، تاريخ: ٤/ ٥٩٦. البلاذري، فتوح البلدان: ٤٧١ / ٢. الطبري، تاريخ: ١٣ / ٥.
		حمران بن أبان (٧١هـ). غلب على البصرة مدَّة يسيرة.	صاحب شرطته: عبد الله بن الأَهم.	الطبري، تاريخ: ١٣ / ٥. الطبري، تاريخ: ٥/ ٣٥.

ملحق رقم (١) أسماء كبار موظفي البصرة من عام (١٤) إلى (١٣٢هـ) ٦٧١

الخليفة	عامل العراق	والي البصرة (الأمير والسنة)	كبار الموظفين في عهد الوالي	المصادر
٨- عبد الملك بن مروان	---	خالد بن عبد الله بن خالد بن أسيد (آخر سنة ٧٢-٧٣هـ).	القاضي: هشام بن هبيرة.	الطبري، تاريخ: ٥/ ٣٦.
	الحجاج بن يوسف الثقفي (٧٥هـ).	بشر بن مروان (٧٤هـ).	القاضي: هشام بن هبيرة. صاحب الشرطة: عبد الرحمن بن عبيد، التميمي	الطبري، تاريخ: ٥/ ١٣٦، ٤٥. خليفة بن خياط، تاريخ: ص ٢٣٩.
		الحكم بن أيوب، الثقفي (٧٥-٨٥هـ).	القاضي: زرارة بن أوفي، موسى بن أنس. أصحاب الشرطة: عامر بن مسمع، يزيد بن عمير، الأسدي، عمر بن يزيد بن عمير.	ابن قتيبة، عيون الأخبار: ص ٢٣.

الخليفة	عامل العراق	والي البصرة (الأمير والسَّنة)	كبار الموظَّفين في عهد الوالي	المصادر
٩- عبد الرَّحْمَنِ بن مُحَمَّد بن الأشعث (٨١-٨٢هـ). استولى على البصرة، ولم يكن خليفة للمسلمين وإنَّما كان مركزه بالبصرة أشبه بالخليفة).	---	عبد الله بن إسحاق بن الأشعث عبد الرَّحْمَنِ بن عبَّاس بن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب (٨٢هـ)، وبقي خمسة ليالٍ على البصرة أيَّام ثورة ابن الأشعث.		خليفة بن خياط، تاريخ: ص ٢٢٧؛ ابن عساكر، تاريخ دمشق: ٤/١٥. الطبري، تاريخ: ٥/١٣٥.
= عبد الملك بن مروان.	الحجاج بن يوسف، الثقفي.	الحكم بن أيُّوب، الثقفي (٧٥-٨٦هـ).	القاضي: هشام بن هبيرة؛ عبد الرَّحْمَنِ بن أذينة؛ النظر بن أنس؛ موسى بن أنس. أصحاب الشرطة: عبد الرَّحْمَنِ بن عبيد، السَّعديّ؛ عامر بن مسمع.	خليفة بن خياط، تاريخ: ص ٢٣٩. خليفة بن خياط، تاريخ: ص ٢٢٩. الزُّركلي، الأعلام: ٣٣٠/٧. خليفة بن خياط، تاريخ: ص ٢٢٩.

الخليفة	عامل العراق	والي البصرة (الأمير والسنة)	كبار الموظفين في عهد الوالي	المصادر
١٠ - الوليد بن عبد الملك.	الحجاج بن يوسف، الثقفي.	الجراح بن عبد الله الحكمي (بقي والياً على البصرة حتى موت الحجاج والوليد بن عبد الملك).	القاضي: عبد الله بن أذينة؛ عبد الرحمن بن أذينة. الخراج: يزيد بن أبي مسلم.	خليفة بن خياط، تاريخ: ص ٢٤١؛ الطبري، تاريخ: ٥/ ٢٢١. الطبري، تاريخ: ٥/ ٢٦٤.
١١ - سليمان بن عبد الملك.	يزيد بن المهلب	يزيد بن أبي كبشة (٥٩هـ). سفيان بن عبد الله، الكندي (٩٦هـ).	القاضي: عبد الرحمن بن أذينة. صاحب الشرطة: عثمان بن الحكم بن ثعلبة، الهنائي. الخراج: صالح بن عبد الرحمن.	الطبري، تاريخ: ٥/ ٢٨٦. خليفة بن خياط، تاريخ: ص ٢٤٧. ابن كثير، البداية والنهاية: ٩/ ١٩٢.
سليمان بن عبد الملك	يزيد بن المهلب	عبد الله بن هلال، الكلابي (٩٧هـ).	القاضي: عبد الرحمن بن أذينة	الطبري، تاريخ: ٥/ ٢٨٩.
١٢ - عمر بن عبد العزيز	---	عدي بن أرطاة، الفزاري (٩٩-١٠١هـ). (١٠١هـ) غلب على البصرة يزيد بن المهلب بن أبي صفرة. أبو عيسى بن شبيب، المازني (١٠٢هـ).	القاضي: الحسن بن أبي الحسن، البصري؛ إياس بن معاوية بن قرّة، المزني. صاحب الشرطة: مروان بن المهلب.	خليفة بن خياط، تاريخ: ص ٢٥٢؛ الطبري، تاريخ: ٥/ ٣١٠. الطبري، تاريخ: ٥/ ٣٣٧. خليفة بن خياط، تاريخ: ص ٢٦٠.

الخليفة	عامل العراق	والي البصرة (الأمير والسَّنة)	كبار الموظفين في عهد الوالي	المصادر
١٣ - يزيد بن عبد الملك	عديّ بن أرطاة الفزاريّ، عمر بن هبيرة	عبد الملك بن بشر بن مروان (١٠٢هـ). مسلمة بن عبد الملك أيام ثورة آل المهلب في البصرة، ثمّ ضمّت الكوفة لمسلمة، فولّى على البصرة عبد الرّحمن بن سليم، الكلبيّ.	القاضي: عبد الملك بن أبي يعلى. القاضي: النظر بن أنس مالك؛ موسى بن أنس بن مالك. صاحب الشرطة: عمر بن يزيد، التميميّ. الكاتب: رجل من أهل الشّام يدعى (عثمان)، و سعد بن عطية.	الطبريّ، تاريخ: ٥ / ٣٥٩. الطبريّ، تاريخ: ٥ / ٣٥٠. خليفة بن خياط، تاريخ: ص ٢٦٢.
١٤ - هشام بن عبد الملك .	خالد بن عبد الله، القسريّ.	سعيد بن عمرو الحرشيّ؛ حسن بن عبد الرّحمن بن مسعود، الفزاريّ من أهل دمشق؛ فراس بن سمي، الفزاريّ، للفترة (١٠٣-١٠٥هـ). أبان بن ضبارة بن عفير بن سيف ذي وزن، من أهل حمص (١٠٦هـ) عقبة بن عبد الأعلى (١٠٧-١٠٨هـ).	القاضي: موسى بن أنسي؛ ثمامة بن عبد الله بن أنس. صلاة البصرة: عقبة بن عبد الأعلى. صاحب الشرطة: مالك بن المنذر بن الجارود؛ بلال بن أبي بردة. كاتب الرّسائل: داود بن سعيد الكاتب. كاتب الخراج: الحجاج بن عمير. كاتب التجويز: هارون بن مياس (*).	خليفة بن خياط، تاريخ: ص ٢٨٣. الطبريّ، تاريخ: ٥ / ٣٧٨. الطبريّ، تاريخ: ٥ / ٣٨٧، ٣٩٧؛ ابن خلدون، تاريخ: ٣ / ١٣٩. خليفة بن خياط، تاريخ: ص ٢٧٦؛ ابن عساكر، تاريخ دمشق: ١٢ / ١٠٠.

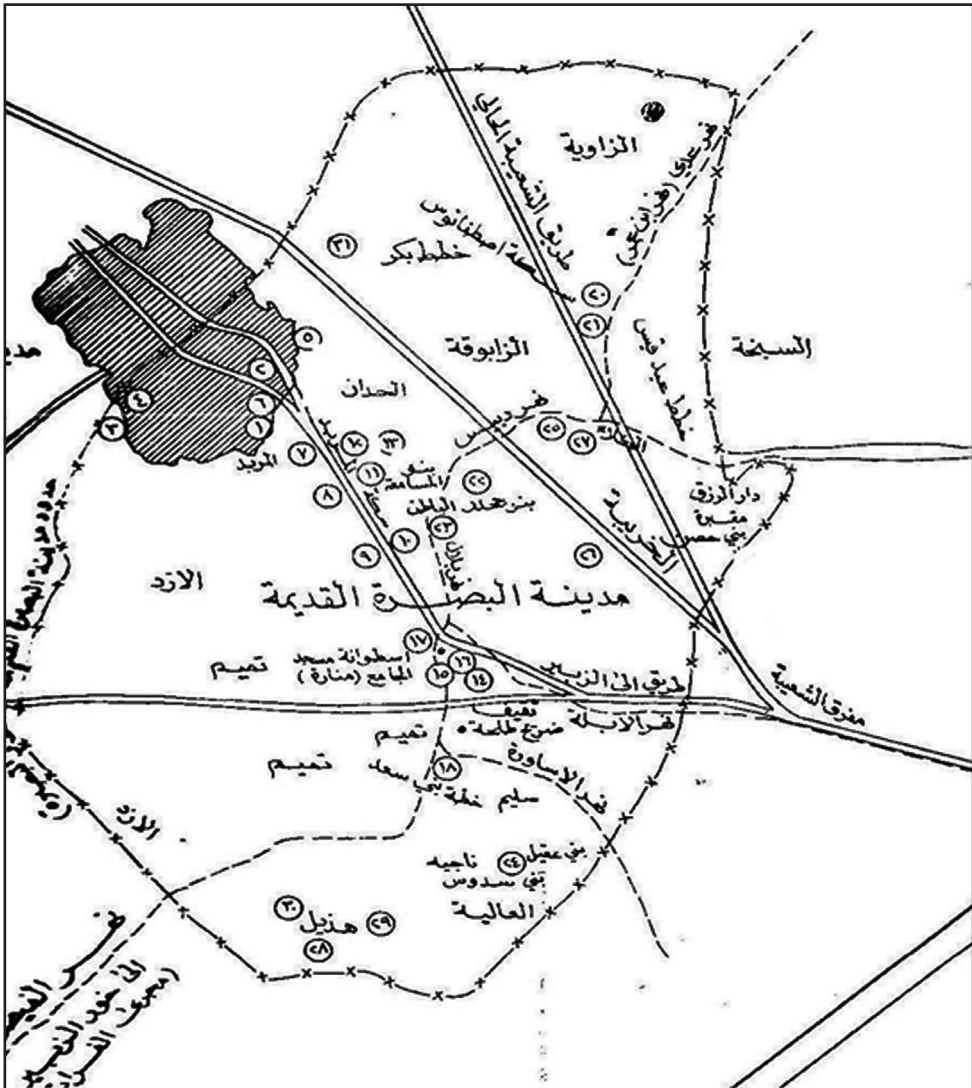
ملحق رقم (١) أسماء كبار موظفي البصرة من عام (١٤) إلى (١٣٢هـ) ٦٧٥

(*) كاتب التجويز: لأوّل مرّة توجد هذه الوظيفة في هذه الفترة، وربّما هي وظيفة الحاجب نفسها. خليفة بن خيّاط، تاريخ: ص ٢٧٦.

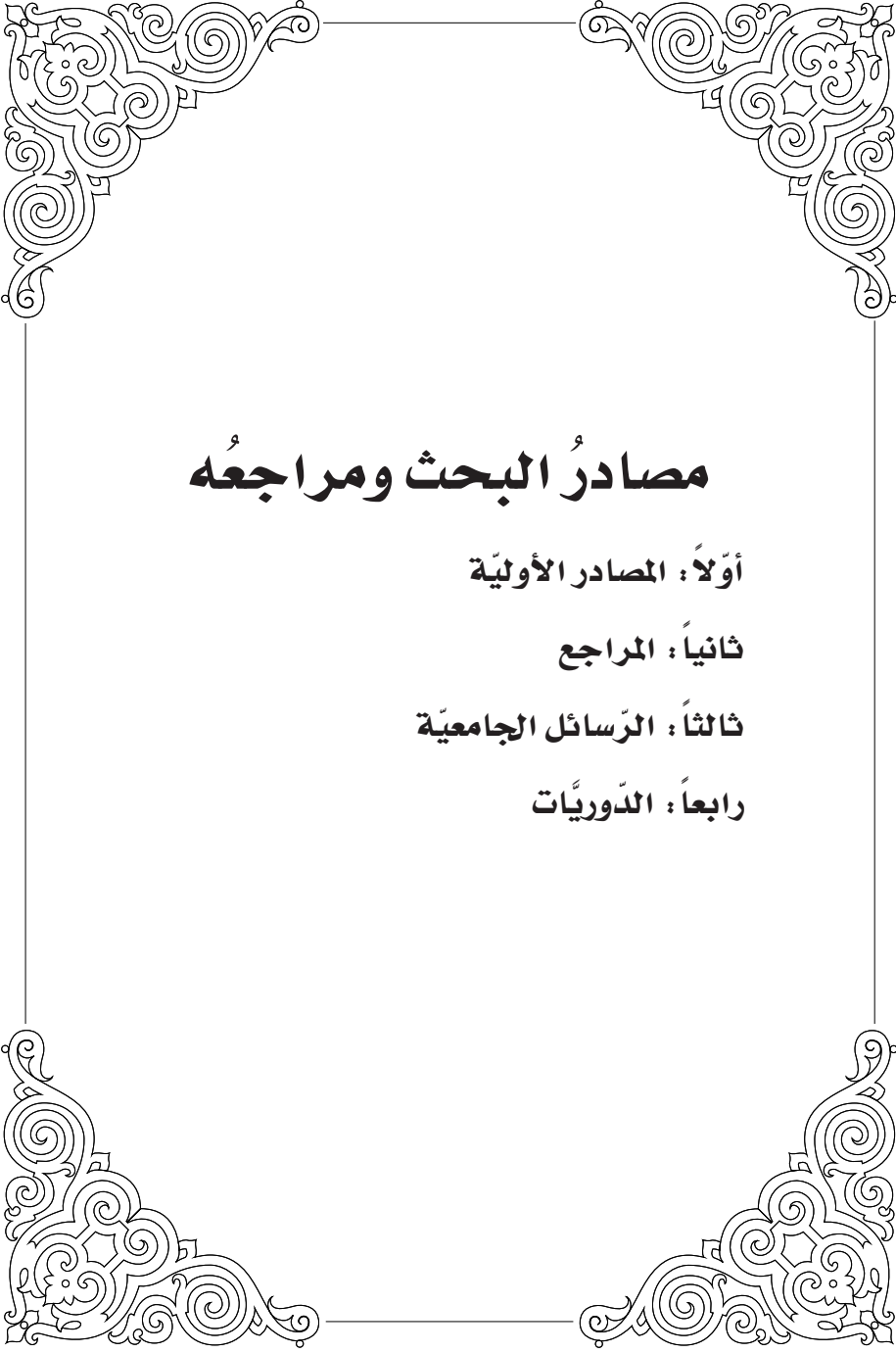
الخليفة	عامل العراق	والي البصرة (الأمير والسّنة)	كبار الموظّفين في عهد الوالي	المصادر
هشام بن عبد الملك.	خالد بن عبد الله، القسريّ	بلال بن أبي بردة (١١٠-١١٩هـ).	الصّلاة و الشّركة والأحداث و القضاء بالبصرة جُعِلت إلى بلال بن أبي بردة.	الطبري، تاريخ: ٥/ ٤٠٧.
	يوسف بن عمر، الثّقفيّ	كثير بن عبد الله، السّلمي (١٢٠-١٢٥هـ).	القاضي: ثمامة بن أنس بن مالك؛ بلال بن أبي بردة؛ عبد الله بن أبي بردة؛ عبد الله بن بريدة، الأسلمي؛ عامر بن عبيدة، الباهليّ.	البلاذري، فتوح البلدان: ٢/ ٤٤٩؛ ابن عساكر، تاريخ دمشق: ٥/ ٤٠.
١٥- الوليد بن يزيد بن عبد الملك.	عبد الله بن عمر بن عبد العزيز	محمّد بن القاسم بن محمّد، الثّقفيّ (١٢٦هـ).	القاضي: عامر بن عبيدة، الباهليّ. كاتب الخراج: روزبهان. كاتب الرّسائل: الحكم بن النعمان.	خليفة بن خيّاط، تاريخ: ص ٢٩٢؛ الطبري، تاريخ: ٥/ ٤٨١؛ وكيع، أخبار القضاة: ٢/ ٤٢. خليفة بن خيّاط، تاريخ: ص ٣٠٥.
١٦- يزيد بن الوليد بن عبد الملك (خمسة أشهر من سنة ١٢٦هـ).	منصور بن جمهور			خليفة بن خيّاط، تاريخ: ص ٢٩٤؛ ابن قتيبة، المعارف: ص ٣٦٧.

الخليفة	عامل العراق	والي البصرة (الأمير والسَّنة)	كبار الموظفين في عهد الوالي	المصادر
١٧ - مروان بن محمد	يزيد بن عمر بن هبيرة.	عباد بن منصور؛ سلم بن قتيبة بن مسلم، الباهليّ؛ محمّد بن جعفر، الهاشمي. (١٢٩-١٣٢هـ).	القضاة: عباد بن منصور؛ معاوية بن عمر الغلابيّ؛ عامر بن عبيدة الباهليّ. صاحب الشرطة: سلم بن قتيبة، وابن رألان؛ المسور بن عباد بن عمر بن الحصين، الحبطيّ.	خليفة بن خياط، تاريخ: ص ٣٢٩، ٣٣٠. البلاذريّ، أنساب الأشراف: ٨ / ٢٣٥.

خارطة متصورة للبصرة في القرن الأول من الهجرة



- ١- سوق الدُّبَّاغين.
- ٢- قصر زربي.
- ٣- الجبان
- المقبرة الرئيسية).
- ٤- قصر عيسى بن سلمان.
- ٥- قصر حمزة بن المغيرة بن المهلب.
- ٦- دار بني بشير.
- ٧- مسجد بني قيس.
- ٨- دار عفان القيسي.
- ٩- سوق البزازين بشار بن برد.
- ١٠- باب عثمان.
- ١١- سكة بني عامر.
- ١٢- دار عمر بن حبيب.
- ١٣- دار العقار.
- ١٤- الدهناء.
- ١٥- دار الأمانة.
- ١٦- دار نافع بن عبد الله بن أبي.
- ١٧- دار الأحنف بن قيس.
- ١٨- دار فيصل مولى زياد.
- ١٩- قصر أنس بن مالك.
- ٢٠- القصر الأبيض لعبيد الله بن زياد.
- ٢١- قصر المسيرين.
- ٢٢- باب عبد الله الاصبهاني.
- ٢٣- دار مالك بن مسمع.
- ٢٤- دار بشار بن برد.
- ٢٥- قصر الزيت.
- ٢٦- قصر عيسى.
- ٢٧- دار الزبير.
- ٢٨- دار الحبش.
- ٢٩- مسجد أبي بصر الهذل.
- ٣٠- دار عمرو بن مهران.
- ٣١- قصر أوس.



مصادرُ البحث ومراجعُه

أولاً: المصادر الأولية

ثانياً: المراجع

ثالثاً: الرسائل الجامعية

رابعاً: الدوريات

مصادرُ البحث ومراجعُه

- القرآن الكريم.

أولاً: المصادر الأولى

- ابن الأثير، عزّ الدين، أبو الحسن، عليّ بن أبي الكرم، محمّد بن محمّد بن عبد الكريم بن عبد الواحد، الشَّيبانيّ (ت ٦٣٠هـ / ١٢٣٣م).

١- أسد الغابة في معرفة الصّحابة، (نشر دار الكتاب العربيّ، بيروت، د.ت).

٢- الكامل في التاريخ، تح: د. عمر عبد السّلام تدميريّ، (مط، دار الكتاب العربيّ، بيروت ٢٠٠٦م).

٣- اللّباب في تهذيب الأنساب، (مط، دار صادر، بيروت، د.ت).

- ابن الأثير، مجد الدّين، أبو السّعادات، المبارك بن محمّد، الجزريّ (ت ٦٠٦هـ / ١٢١٠م).

٤- النهاية في غريب الحديث، تح: طاهر أحمد الزاوي، محمود الطناحي، (مط، مؤسّسة إسماعيليان، ط ٤، قم، ١٩٤٥م).

- الأربليّ، أبو الحسن، عليّ بن عيسى بن الفتح (ت ٦٩٣هـ / ١٢٩٤م).

٥- كشف الغمّة في معرفة الأئمّة، (مط دار الأضواء، ط ٢، بيروت، ١٩٨٥م).

- أحمد بن محمّد بن سلامة، أبو جعفر بن سلامة بن عبد الملك، الأزديّ (ت ٣٢١هـ / ٩٣٣م).

- ٦- شرح معاني الآثار، (مط، دار الكتب العلميَّة، ط ٣، ١٩٩٦م).
- ابن إدريس الحلِّي، الشَّيخُ الفقيه أبو جعفر، محمَّد بن منصور بن أحمد (ت ٥٩٨هـ / ١٢٠٢م).
- ٧- السَّرائر، تح: لجنة التحقيق، (مط، جامعة المدرِّسين، ط ٢، قم، ١٩٩٠م).
- الإدريسي، محمَّد بن محمَّد بن عبد الله بن إدريس، الحسيني، الطالبِّي (ت ١١٦٥هـ / ١١٦٥م).
- ٨- نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، (مط، عالم الكتب، ط ١، بيروت ١٩٨٩م).
- الإسكافي، أبو جعفر، محمَّد بن عبد الله، المعتزلي (ت ٢٢٠هـ / ٨٣٥م).
- ٩- المعيار والموازنة، تح: محمَّد باقر المحمودي (ط ١، ١٩٨١م).
- الأصفهاني، أبو الفرج، علي بن الحسين (ت ٣٥٦هـ / ٩٦٧م).
- ١٠- الأغاني، تح: دار إحياء التُّراث العربي (ط ٢، بيروت، ١٩٩٨م).
- ١١- مقاتل الطالبيين، تح: أحمد صقر (مطبعة عترة، ط ١، ٢٠٠٥م).
- ابن أعثم، أبو محمَّد، الكوفي (ت ٣١٤هـ / ٩٢٦م).
- ١٢- الفتوح، تح: علي شيري (مط، دار الأضواء، ط ١، بيروت، ١٩٩١م).
- الأيجي، عبد الرَّحمن بن أحمد بن عبد الغفَّار (ت ٧٥٦هـ / ١٣٥٥م).
- ١٣- المواقف، تح: عبد الرَّحمن عميرة (مط، دار الجليل، ط ١، بيروت ١٩٩٧م).
- بحر العلوم، السيّد مهدي (ت ١٢١٢هـ / ١٧٩٧م).
- ١٤- رجال السيّد بحر العلوم، الفوائد الرَّجاليَّة، (مط، أفتات، ط ١، طهران ١٩٤٤م).
- البحراني، الشَّيخ عبد الله (ت ١١٣٠هـ / ١٧١٨م).

١٥ - العوالم، الإمام الحسين عليه السلام، تح: مدرسة الإمام المهدي عليه السلام (مط، أمير، ط ١ - قم ١٩٧٨ م).

- البحراني، هاشم بن سليمان (١١٠٧ هـ / ١٦٩٥ م).

١٦ - مدينة معاجز الأئمة الاثني عشر ودلائل الحجج على البشر، تح: عزّة الله المولائي الهمداني (مط، بهمن، ط ١، قم، ٢٠٠٥ م).

- البخاري، أبو عبد الله، محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة، الجعفي (ت ٢٥٦ هـ / ٨٧٠ م).

١٧ - التاريخ الكبير، (نشر المكتبة الإسلامية، ديار بكرى - تركيا، د.ت).

١٨ - صحيح البخاري، (مط، دار الطباعة، إسطنبول، ١٩٨١ م).

- ابن البرّاج، القاضي عبد العزيز، الطبرسي (ت ٤٨١ هـ / ١٠٨٨ م).

١٩ - المهدّب، تح: الشيخ السبحاني، (نشر جماعة المدرّسين، قم، ١٩٨٦ م).

- البرّي، محمد بن أبي بكر، الأنصاري (توفي في القرن السابع الهجري).

٢٠ - الجوهرة في نسب الإمام علي وآله، تح: د. محمد التونجي، (مط، مؤسّسة

الأعلمي، ط ١، بيروت، ١٩٨٢ م).

- ابن البطريق، يحيى بن الحسن، الأسدي، الحلي (ت ٦٠٠ هـ / ١٢٠٤ م).

٢١ - عمدة عيون صحاح الأخبار في مناقب إمام الأبرار، (نشر مؤسّسة النشر

الإسلامي، قم، ١٩٨٧ م).

- البغدادي، عبد القادر بن عمر (ت ١٠٩٣ هـ / ١٦٨٢ م).

٢٢ - خزانة الأدب، تح: محمد نبيل طريفي، إميل بديع يعقوب، (مط، دار

الكتب العلميّة، ط ١، بيروت، ١٩٩٨ م).

٦٨٤ الحياةُ السَّيَاسِيَّةُ فِي البَصْرَةِ مِنْ (١٤هـ إِلَى ١٣٢هـ) / (٦٣٤م إِلَى ٧٤٩م)

- البكريّ، أبو عبيد الله بن عبد العزيز، الأندلسيّ (ت ٤٨٧هـ / ١٠٩٤م).
٢٣- معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع، تح: مصطفى السَّقا، (ط ٣، ١٩٨٣م).

- البلاذريّ، أحمد بن يحيى بن جابر (ت ٢٧٩هـ / ٨٩٢م).
٢٤- أنساب الأشراف، تح: د. سهيل زكار، د. رياض زركلي، (ط ١، بيروت ١٩٩٧م).

٢٥- فتوح البلدان، تح: د. صلاح الدّين المنجد، (مط، لجنة البيان العربيّ القاهرة، ١٩٥٩م).

- الثَّقَفِيّ، أبو إسحاق، إبراهيم بن محمّد، الكوفيّ (ت ٢٨٣هـ / ٨٩٦م).
٢٦- الغارات، تح: جلال الدّين الحسنيّ الأرمويّ، (مط، بهمن ١٩٧٥م).
- الجاحظ، أبو عثمان، عمرو بن بحر بن محبوب (ت ٢٥٥هـ / ٨٦٨م).
٢٧- البيان والتبيين، (مكتبة الهلال، بيروت، د. ت).
٢٨- الحيوان، تح: إبراهيم شمس الدّين (مط، مؤسّسة الأعلميّ، ط ١، بيروت، ٢٠٠٣م).

٢٩- رسائل الجاحظ، تعليق: محمّد باسل عيون السّود، (ط ١، بيروت ٢٠٠٠م).

٣٠- العثمانيّة، تح: عبد السّلام محمّد هارون، (مط، دار الكتاب العربيّ، مصر، ١٩٥٥م).

- جرير، ابن عطية، الخنفيّ (ت ١١٤هـ / ٧٣٢م).
٣١- ديوان جرير، (دار صادر، بيروت، ١٩٩١م).
- ابن الجعد، عليّ بن الجعد بن عبيد، الجوهريّ (ت ٢٣٠هـ / ٨٤٥م).

٣٢- مسند ابن الجعد، برواية وجمع: أبي القاسم، عبد الله بن محمد، البغويّ (ت ٣١٧هـ)، تح: عامر أحمد حيدر، (مط، دار الكتب العلميّة، ط ٢، بيروت، ١٩٩٧م).

- الجهشياريّ، أبو عبد الله، محمد بن عبدوس (ت ٣٣١هـ / ٩٤٢م).

٣٣- الوزراء و الكتاب، تح: مصطفى السّقا، إبراهيم الأبياريّ، (مط، مصطفى البابي، ط ١، القاهرة، ١٩٥٧م).

- ابن الجوزيّ، أبو الفرج، عبد الرحمن بن عليّ، القرشيّ (ت ٥٩٧هـ / ١٢٠٠م).

٣٤- الموضوعات، تح: عبد الرحمن محمد عثمان (ط ١، ١٩٦٨م).

- الجوهريّ، إسماعيل بن حمّاد (ت ٣٩٣هـ / ١٠٠٣م).

٣٥- الصّحاح تاج اللّغة وصّاح العربيّة، (مط، دار العلم للملايين، ط ٤، بيروت، ١٩٨٧م).

- أبو حاتم الرّازيّ، أحمد بن حمدان (ت ٣٢٢هـ / ٩٣٤م).

٣٦- الزّينة في الكلمات الإسلاميّة، (منشور ضمن كتاب الغلوّ والفرق الغالية لعبد الله بن سلّوم السّامرائيّ، مط، الدّار العربيّة، ط ٣ بغداد، ١٩٨٢م).

- ابن حاتم العامليّ، جمال الدّين، يوسف بن حاتم بن فوز بن مهّد، الشّاميّ، المشغريّ (ت ٦٦٤هـ / ١٢٦٦م).

٣٧- الدّرّ النّظيم، (نشر مؤسّسة النشر الإسلاميّ التابعة لجماعة المدرّسين، قم، د.ت).

- الحاكم الحسكانيّ، عبيد الله بن أحمد الحذاء، الحنفيّ، النيسابوريّ، (من أعلام القرن الخامس الهجريّ).

٣٨- شواهد التنزيل لقواعد التفصيل، تح: محمد باقر المحموديّ، (ط ١،

طهران، ١٩٩١م).

- الحاكم النيسابوري، مُحَمَّد بن مُحَمَّد (ت ٤٠٥هـ / ١٠١٥م).

٣٩- المستدرك على الصَّحِيحِينَ، إشراف: د. يوسف عبد الرَّحْمَنِ، المرعشي، (مط، دار المعارف، بيروت، ١٩٨٦م).

- ابن حَبَّان، أَبِي حَاتِم، مُحَمَّد بن أَحْمَد، البستي (ت ٣٥٤هـ / ٩٦٥م).

٤٠- الثَّقَات، (مط، مجلس دائرة المعارف العثمانية، ط ١، الهند، ١٩٧٣م).

٤١- مشاهير علماء الأمصار وأعلام فقهاء الأقطار، تح: مرزوق علي إبراهيم، (مط، دار الوفاء، ط ١، ١٩٩١م).

- ابن حبيب، مُحَمَّد، البغدادي (ت ٢٤٥هـ / ٨٥٩م).

٤٢- المحبَّر، (مط، الدَّائِرَةُ، ١٩٦١م).

٤٣- المنَمَّق في أخبار قريش، تصحيح وتعليق: خورشيد أحمد فاروق، (د.ت.ط.).

- ابن حجر، شهاب الدِّين، العسقلاني (ت ٨٥٢هـ / ١٤٤٩م).

٤٤- الإِصَابَةُ فِي تَمْيِيزِ الصَّحَابَةِ، تح: عادل أحمد عبد الموجود، علي مُحَمَّد معوض، (ط ١، ١٩٩٥م).

٤٥- تهذيب التهذيب، (ط ١، ١٩٨٤م).

٤٦- فتح الباري شرح صحيح البخاري، (مط، دار المعرفة، ط ٢، بيروت، د.ت.).

- ابن أبي الحديد، عزَّ الدِّين، أبو حامد، عبد الحميد بن هبة الله، المدائني (ت ٦٥٦هـ / ١٢٥٨م).

٤٧- شرح نهج البلاغة، تح: مُحَمَّد أبو الفضل إبراهيم، (نشر دار إحياء التُّراث

- العربيّ، عيسى البابي الحلبيّ وشركاءه، ط ١، ١٩٧٨ م).
- الحربيّ، أبو إسحاق، إبراهيم بن إسحاق (ت ٢٨٥هـ / ٨٩٨ م).
- ٤٨- غريب الحديث، تح: د. سليمان بن إبراهيم بن محمد العاير، (مط، مركز البحث العلميّ، وإحياء التّراث العربيّ، ط ١، جدّة، ١٩٨٥ م).
- ابن حزم، أبو محمّد، عليّ بن أحمد، الظاهريّ (ت ٤٥٦هـ / ١٠٦٤ م).
- ٤٩- الإحكام في أصول الأحكام، تح: أحمد شاكر، (مط، العاصمة، القاهرة، د.ت).
- ٥٠- جمهرة أنساب العرب، تح: عبد السّلام هارون، (مط، دار المعارف- مصر، ١٩٦٢ م).
- ٥١- الفصل في الملل والأهواء والنحل، (مط، التمدّن، ط ١، ١٩٠٨ م).
- ٥٢- المحلّي، (مط، دار الفكر، د.ت).
- أبو الحسين زكريا، أحمد بن فارس (ت ٣٩٥هـ / ١٠٠٤ م).
- ٥٣- معجم مقاييس اللّغة، تح: عبد السّلام هارون، (مط، مكتبة الإعلام الإسلاميّ، ١٩٨٤ م).
- الحلّي، الحسن بن سليمان (ت ٨٣٠هـ / ١٤٢٧ م).
- ٥٤- مختصر البصائر، تح: مشتاق المظفرّ (د. ت. ط).
- ابن حمزة الطوسيّ، عماد الدّين، أبو جعفر، محمّد بن عليّ (ت ٥٦٠هـ / ١١٦٥ م).
- ٥٥- الثاقب في المناقب، تح: نبيل رضا علون (مط، الصّدر، ط ٢، قم، ١٩٩٢ م).
- الحمويّ، أبو عبد الله، ياقوت الرّوميّ، البغداديّ (ت ٦٢٦هـ / ١٢٢٩ م).
- ٥٦- معجم البلدان، (دار إحياء التّراث العربيّ، بيروت).

- ابن حنبل، الإمام أحمد (ت ٢٤١هـ / ٨٥٥م).
- ٥٧- المسند، (مط اليمنية، مصر، د.ت).
- الحويزي، عبد علي بن جمعة العروسي (ت ١١١٢هـ / ١٧٠٠م).
- ٥٨- تفسير نور الثقلين، تح: هاشم الرسولي المحلاتي، (مط، مؤسسة إسماعيليان، ط ٤، ١٩٩٢م).
- الخطيب البغدادي، أبو بكر، أحمد بن علي (ت ٤٦٣هـ / ١٠٧٠م).
- ٥٩- تاريخ بغداد، تح: مصطفى عبد القادر عطا، (مط، دار الكتب العلمية، ط ١، بيروت، ١٩٩٧م).
- ابن خلاد الرامهرمزي، القاضي أبو الحسن بن عبد الرحمن (ت ٥٧٦هـ / ١١٨٠م).
- ٦٠- أمثال الحديث، تح: أحمد عبد الفتاح تمام، (مط، مؤسسة الكتاب الثقافية، ط ١، بيروت، ١٩٨٩م).
- ابن خلكان، أحمد بن محمد بن إبراهيم، الشافعي (ت ٦٨١هـ / ١٢٨٢م).
- ٦١- وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تح: إحسان عباس، (مط، دار الثقافة بيروت، د.ت).
- خليفة، ابن خياط، العصفري (ت ٢٤٠هـ / ٨٥٤م).
- ٦٢- تاريخ خليفة بن خياط، تح: د. سهيل زكار، (مط، دار الفكر، بيروت، ١٩٩٤م).
- ٦٣- طبقات خليفة بن خياط، تح: د. سهيل زكار، (مط، دار الفكر، بيروت، ١٩٩٤م).
- الخوارزمي، الموفق بن أحمد بن محمد، المكي (ت ٥٦٨هـ / ١١٧٣م).

٦٤- المناقب، تح: مالك المحمودي، (مط، مؤسّسة النشر الإسلامي، ط ٢- قم، ١٩٩٤م).

- الدّارمي، أبو محمّد، عبد الله بن الرّحمن بن الفضل بن بهرام (ت ٢٥٥هـ / ٨٦٨م).

٦٥- سنن الدّارمي، (مط، الاعتدال، دمشق، ١٩٤٩م).

- ابن داود، أبو بكر، تقيّ الدّين، الحسن بن عليّ، الحلبيّ (ت ٧٠٧هـ / ١٣٠٧م).

٦٦- رجال ابن داود، تح: محمّد صادق آل بحر العلوم، (مط، الحيدريّة- النجف الأشرف، ١٩٧٢م).

- أبو داود، سليمان بن الأشعث، السّجستانيّ (ت ٢٧٥هـ / ٨٨٨م).

٦٧- سنن أبي داود، تح: سعيد محمّد اللّحّام (ط ١، ١٩٩٠م).

- ابن دريد، أبو بكر، محمّد بن الحسن، الأزديّ (ت ٣٢١هـ / ٩٣٢م).

٦٨- الاشتقاق، تح: عبد السّلام محمّد هارون، (مط، دار الميسرة، ط ٢، بيروت، ١٩٨٠م).

- ابن الدّمشقيّ، محمّد بن أحمد، الباعونيّ، الشّافعيّ (ت ٨٧١هـ / ١٤٦٧م).

٦٩- جواهر المطالب في مناقب الإمام الجليل عليّ بن أبي طالب، تح: محمّد باقر المحمودي، (مط، باسدار إسلام، ط ١، قم، ١٩٩٦م).

- الدّميريّ، كمال الدّين، محمّد بن موسى بن عيسى (ت ٨٠٨هـ / ١٤٠٥م).

٧٠- حياة الحيوان الكبرى، تصحيح: عبد اللّطيف سامر بيتية، (مط، البقيع، ط ١، قم، ٢٠٠٥م).

- ابن أبي الدنيا، عبد الله بن محمّد بن عبيد بن سفيان بن قيس، القرشيّ، البغداديّ (ت ٢٨١هـ / ٨٩٤م).

٧١- مكارم الأخلاق، تح: مجدي السيّد إبراهيم، (مط، مكتبة القرآن،

القاهرة، د.ت).

- الدِّينوريّ، أحمد بن داود (ت ٢٨٢هـ / ٨٩٥م).

٧٢- الأخبار الطَّوال، تح: عبد المنعم عامر، (ط ١، ١٩٦٠م).

- الذَّهبيّ، شمس الدِّين، محمّد بن أحمد بن عثمان (ت ٧٤٨هـ / ١٣٤٨م).

٧٣- تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، تح: د. عمر عبد السَّلام

تدمري (دار الكتاب العربيّ، ط ١، بيروت، ١٩٨٧م).

٧٤- تذكرة الحفاظ، (نشر دار إحياء التَّراث العربيّ، بيروت، د.ت).

٧٥- سير أعلام النبلاء، تح: نعيم العرقوسيّ، مأمون صاغرجي، (مؤسَّسة

الرَّسالة، ط ٩، بيروت، ١٩٩٣م).

٧٦- العبر في خبر مَنْ غبر، (ط ١، بيروت، ١٩٩٧م).

٧٧- ميزان الاعتدال، تح: عليّ محمّد البجاوي، (ط ١، ١٩٦٢م).

- الرَّاзиّ، محمّد بن أبي بكر بن عبد القادر (ت ٧٢١هـ / ١٣٢١م).

٧٨- مختار الصَّحاح، تح: أحمد شمس الدِّين، (مط، دار الكتب العلميّة، ط ١،

بيروت، ١٩٩٥م).

- الرَّاзиّ، أبو محمّد، عبد الرَّحمن بن أبي حاتم محمّد بن إدريس بن المنذر،

التميميّ، الحنظليّ (ت ٣٢٧هـ / ٩٣٨م).

٧٩- الجرح والتعديل، (مط، مجلس دائرة المعارف العثمانيّة، ط ١، الهند،

١٩٥١م).

- الرَّاغب الأصفهانيّ، أبو القاسم، الحسين بن محمّد (ت ٥٠٢هـ / ١١٠٩م).

٨٠- المفردات في غريب القرآن (ط ٢، ١٩٨٤م).

- ابن راهويه، أبو إسحاق بن إبراهيم بن مخلّد، الحنظليّ، المروزيّ

(ت٢٣٨هـ / ٨٥٢م).

٨١- مسند إسحاق بن راهويه، تح: د. عبد الغفور عبد الحق حسين برد، البلوسيّ، (مط، مكتبة الإيمان، ط١، المدينة المنورة، ١٩٩٢م).

- رضيّ الدين الاستراباذيّ، محمّد بن الحسن، النحويّ (ت٦٨٦هـ / ١٢٨٧م).

٨٢- شرح شافية ابن الحاجب، تح: محمّد نور الحسن، محمّد الزفزاف، محمّد محيي الدين عبد الحميد (بيروت، ١٩٧٥م).

- الزبيديّ، محمّد مرتضى، الحسنّيّ، الواسطيّ، الحنفيّ (ت١٢٠٥هـ / ١٧٩٠م).

٨٣- تاج العروس من جواهر القاموس، (مكتبة الحياة، بيروت، د.ت).

- الزبير بن بكار (ت٢٥٦هـ / ٨٧٠م).

٨٤- الأخبار الموقّعات، تح: د. سامي مكّي العاني، (مط، أمير، ط١، قم،

١٩٩٦م).

- الزمخشريّ، جار الله محمود عمر (ت٥٨٣هـ / ١١٨٧م).

٨٥- الفايق في غريب الحديث، (ط١، بيروت، ١٩٩٧م).

- زيد بن عليّ، ابن الحسن بن عليّ بن أبي طالب (ت١٢٢هـ / ٧٤٠م).

٨٦- مسند زيد بن عليّ، (منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، د.ت).

- ابن سعد، محمّد بن منيع، الزهريّ (ت٢٣٠هـ / ٨٤٥م).

٨٧- الطبقات الكبرى، (مط، دار صادر، بيروت، د.ت).

- ابن سلام، أبو عبيد، القاسم (ت٢٢٤هـ / ٨٣٩م).

٨٨- الأموال، تح: خليل محمّد هراس، (مط، دار الشرق، ط١، ١٩٦٨م).

- سليم بن قيس، الهلاليّ (ت٧٦هـ / ٦٩٥م).

٨٩- كتاب سليم، تح: محمّد باقر الأنصاريّ، (نشر مؤسسة الهادي، قم،

٦٩٢ الحياةُ السَّياسِيَّةُ في البصرة من (١٤هـ إلى ١٣٢هـ) / (٦٣٤م إلى ٧٤٩م)

(٢٠٠٠م).

- السَّمعانيّ، أبو سعد، عبد الكريم بن محمّد بن منصور، التميميّ
(ت ٥٦٢هـ / ١١٦٧م).

٩٠- الأنساب، تعليق: عبد الله عمر، الباروديّ، (مط، دار الجنان، ط ١
بيروت، ١٩٨٨م).

- السيوطيّ، جلال الدّين، عبد الرّحمن بن أبي بكر (ت ٩١١هـ / ١٥٠٦م).
٩١- إسعاف المبطّأ برجال الموت، تح: موفّق فوزي جبر، (مط، دار الهجرة،
ط ١، بيروت، ١٩٩٠م).

- ابن شاذان، الفضل (ت ٢٦٠هـ / ٨٧٤م).

٩٢- الإيضاح، تح: جلال الدّين، الحسينيّ (سنة الطبع، ١٩٨١م).

٩٣- الجامع الصّغير، (دار الفكر، ط ١، بيروت، ١٩٩١م).

- الشّافعيّ، أبو عبد الله، محمّد بن إدريس (ت ٢٠٤هـ / ٨٢٠م).

٩٤- كتاب الأمّ، (دار الفكر، ط ٢، ١٩٨٣م).

- ابن شبة، أبو زيد، عمر النّميريّ، البصريّ (ت ٢٦٢هـ / ٨٧٦م).

٩٥- تاريخ المدينة المنوّرة، تح: فهيم محمّد شلتوت، (مط، قدس، قم، ١٩٩٠م).

- الشّريف الرّضيّ، أبو الحسن، محمّد بن الحسين بن موسى (ت ٤٠٦هـ

/ ١٠١٥م).

٩٦- نهج البلاغة، تح: محمّد عبده، (مط، دار المعارف، بيروت، د.ت).

- الشّريف المرتضى، عليّ بن الحسين بن موسى (ت ٤٣٦هـ / ١٠٤٥م).

٩٧- أمالي السيّد المرتضى، تح: محمّد بدر الدّين، النّعمانيّ، الحلبيّ، (مط، مكتبة

آية الله العظمى المرعشي النجفيّ، ط ١، قم، د.ت).

- ٩٨- الشّافي في الإمامة، (مط، مؤسّسة إسماعيليان، ط٢، قم، ١٩٩٠م).
- ابن شعبة الحرّانيّ، أبو محمّد، الحسن بن عليّ بن الحسين (ق ٤هـ).
- ٩٩- تحف العقول، تح: عليّ أكبر غفاري، (ط٢، إيران، ١٩٨٤م).
- ابن شهر آشوب المازندرانيّ، بشر الدّين، أبو عبد الله، محمّد بن عليّ بن أبي نصر، السّرويّ (ت ٥٨٨هـ / ١١٩٢م).
- ١٠٠- مناقب آل أبي طالب، تح: لجنة من أساتذة النّجف الأشرف، (مط، الحيدريّة- النجف الأشرف، ١٩٩٦م).
- الشّهرستانيّ، أبو الفتح، محمّد بن عبد الكريم بن أبي بكر أحمد (ت ٥٤٨هـ / ١١٥٤م).
- ١٠١- الملل و النّحل، تح: محمّد سيّد كيلاني، (مط، دار المعرفة- بيروت، د.ت).
- ابن الصّبّاغ المالكيّ، عليّ بن محمّد بن أحمد (ت ٨٥٥هـ / ١٤٥١م).
- ١٠٢- الفصول المهمّة في معرفة الأئمّة، جزآن، تح: سامي الغرويّ، (مط، السّرور، ط١- ٢٠٠٢م).
- الصّدوق، أبو جعفر، محمّد بن عليّ بن الحسين بن موسى بن بابويه، القميّ (ت ٣٨١هـ / ٩٣٠م).
- ١٠٣- الخصال، تح: عليّ أكبر غفاري، (منشورات جماعة المدرّسين، قم ١٩٨٣م).
- ١٠٤- علل الشّرائع، تح: محمّد صادق بحر العلوم، (مط، الحيدريّة- النجف، ١٩٦٦م).
- ١٠٥- كمال الدّين وتمام النّعمة، تح: عليّ أكبر غفاري، (نشر مؤسّسة النّشر

٦٩٤ الحياةُ السَّيَاسِيَّةُ فِي البَصْرَةِ مِنْ (١٤هـ إلى ١٣٢هـ) / (٦٣٤م إلى ٧٤٩م)

الإسلاميِّ، قم، ١٩٨٥م).

١٠٦ - معاني الأخبار، تح: عليّ أكبر غفاري، (مط، انتشارات إسلامي

١٩٩٩م).

- أبو الصَّلاح الحلبيِّ، تقيّ بن نجم (ت ٤٤٧هـ / ١٠٥٥م).

١٠٧ - تقريب المعارف، تح: فارس تبريزيان الحسّون، (١٩٩٧م).

- الضَّبيّ، سيف بن عمر (ت ٢٠٠هـ / ٨١٥م).

١٠٨ - الفتنة ووقعة الجمل، تح: أحمد راتب عرموش، (مط، دار النفائس،

ط١ - بيروت، ١٩٩١م).

- ابن طاووس، رضيّ الدّين، أبو القاسم، عليّ بن موسى بن جعفر بن محمّد

(ت ٦٦٤هـ / ١٢٦٦م).

١٠٩ - كشف المحجّة لثمرة المهجة، (مط، الحيدريّة النجف الأشرف، د.ت).

١١٠ - اللّهُوف في قتلى الطّفوف، (مط، مهر، ط١، إيران، ١٩٩٧م).

- الطبرانيّ، أبو القاسم، سليمان بن أحمد (ت ٣٦٠هـ / ٩٧١م).

١١١ - المعجم الكبير، تح: حمدي عبد المجيد، السّلفيّ، (مط، دار إحياء التّراث

العربيّ، ط٢، د.ت).

- الطبرسيّ، الشّيخ رضيّ الدّين، أبو نصر، الحسن بن الفضل (ت ٥٤٨هـ

/ ١١٥٣م).

١١٢ - إعلام الوريّ بأعلام الهدى، تح: مؤسّسة أهل البيت لإحياء التّراث

العربيّ، (مط، ستارة، ط١، قم، ١٩٩٧م).

١١٣ - مجمع البيان، تح: لجنة من العلماء المحقّقين الأخصائيّين، (ط١،

بيروت، ١٩٨٥م).

- ١١٤ - مكارم الأخلاق، (منشورات الشريف الرضي، ط ٦، ١٩٧٢ م).
- الطبرسي، الفقيه، أبو منصور، أحمد بن علي بن أبي طالب (توفي نحو ٥٦٠ هـ / ١١٦٥ م).
١١٥ - الاحتجاج، تعليق: محمد باقر الموسوي، الخراساني، (مط، كميا، ط ٢ - قم، ٢٠٠٧ م).
- الطبري، الإمامي، محمد بن جرير بن رستم، (توفي أول ق ٤ هـ).
١١٦ - المسترشد في إمامة أمير المؤمنين (عليه السلام)، تح: أحمد المحمودي، (مط، سلمان الفارسي، ط ١ - قم، ١٩٩٥ م).
- الطبري، أبو جعفر، محمد بن جرير (٣١٠ هـ / ٩٢٢ م).
١١٧ - تاريخ الطبري، تح: نخبة من العلماء الأجلاء، (مط، الاستقامة القاهرة، ١٩٣٩ م).
١١٨ - جامع البيان في تأويل آي القرآن، تقديم وضبط: خليل الميس، صدقي جميل العطار، (دار الفكر للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٩٥ م).
- الطريحي، الشيخ فخر الدين (ت ١٠٨٥ هـ / ١٦٧٤ م).
١١٩ - مجمع البحرين، تح: أحمد الحسيني، (ط ٢، ١٩٨٨ م).
- الطوسي، الشيخ أبو جعفر، محمد بن الحسن بن علي (ت ٤٦٠ هـ / ١٠٦٧ م).
١٢٠ - اختيار معرفة الرجال، تح: مهدي الرجائي، (مط، بعث، قم، ١٩٨٤ م).
١٢١ - الأمالي، تح: قسم الدراسات الإسلامية، مؤسسة البعثة، (ط ١، قم، ١٩٩٤ م).
١٢٢ - المبسوط في فقه الإمامية، تح: محمد تقي الكشفي، (مط، الحيدرية -

٦٩٦ الحياةُ السَّيَّاسِيَّةُ فِي البَصْرَةِ مِنْ (١٤هـ إِلَى ١٣٢هـ) / (٦٣٤م إِلَى ٧٤٩م)

طهران، ١٩٦٧م).

١٢٣ - رجال الطوسي، تح: جواد القيومي، (ط١، قم، ١٩٩٥م).

١٢٤ - الفهرست، تح: جواد القيومي، (مط، مؤسّسة النشر الإسلامي، ط١

١٩٩٧م).

- ابن طيفور، أبو الفضل بن أبي طاهر (ت ٢٨٠هـ / ٨٩٣م).

١٢٥ - بلاغات النساء، (منشورات بصيرتي، قم، د.ت).

- ابن عابدين، محمد أمين (ت ١٢٣٢هـ / ١٨١٧م).

١٢٦ - حاشية ردّ المحتار، إشراف: مكتب البحوث والدراسات، (مط،

الفكر، بيروت، ١٩٩٥م).

- العاملي، أبو محمد، علي بن يونس، النباطي، البياضي (ت ٨٧٧هـ / ١٤٧٣م).

١٢٧ - الصّراط المستقيم إلى مستحقّي التقديم، تح: محمد باقر البهودي،

(مط، الحيدريّة، ط١، ١٩٦٣م).

- العبّاس بن بكّار (ت ٢٢٢هـ / ٨٣٧م).

١٢٨ - أخبار الوافدين من الرّجال من أهل البصرة والكوفة على معاوية بن

أبي سفيان، تح: سكيّنة الشّهائي، (مط، مؤسّسة الرّسالة، ط١، بيروت، ١٩٨٤م).

- عبد الله بن عديّ، أبو أحمد (ت ٣٦٥هـ / ٩٧٦م).

١٢٩ - الكامل في ضعفاء الرّجال، تح: د. سهيل زكّار، (مط، دار الفكر، ط٣،

بيروت، ١٩٨٩م).

- عبد الله بن قدامة، أبو محمد، عبد الله بن أحمد بن محمد (ت ٦٢٠هـ / ١٢٢٣م).

١٣٠ - المغني، (مط، المنار، مصر، د.ت).

- ابن عبد البرّ، يوسف بن عبد الله بن محمد، النّمرّي، الأندلسي (ت ٤٦٣هـ /

١٠٧٠م).

١٣١- الاستيعاب في معرفة الأصحاب، تح: عليّ محمّد البجاوي، (مط، دار الجليل، ط١، بيروت، ١٩٩٢م).

١٣٢- الاستذكار، تح: سالم محمّد عطا، محمّد عليّ معوض، (مط، دار الكتب العلميّة، ط١، بيروت، ٢٠٠٠م).

١٣٣- التمهيد، تح: مصطفى أحمد العلوي، محمّد البكريّ، (مط، المغرب ١٩٦٨م).

- عبد الغني المقدسيّ، الحافظ أبو سعيد (ت ٤٠٩هـ / ١٠١٩م).

١٣٤- المتوارين الذين اختفوا خوفاً من الحجاج بن يوسف، ضبط نصّه: مشهور حسن محمود سلمان، (مط، دار القلم، ط١، دمشق، ١٩٨٠م).

- ابن عساكر، أبو القاسم، عليّ بن الحسن بن هبة الله بن عبد الله، الشافعيّ (ت ٥٧١هـ / ١١٧٥م).

١٣٥- تاريخ مدينة دمشق، تح: عليّ شيري، (مط، دار الفكر، ط١، بيروت، ١٩٩٢م).

- العسكريّ، أبو أحمد، الحسن بن عبد الله بن سعيد (ت ٣٨٢هـ / ٩٩٢م).

١٣٦- تصحيّفات المحدثين، تح: محمود أحمد ميرة (ط١، القاهرة، ١٩٨٢م).

- العقيليّ، أبو جعفر، محمّد بن عمرو بن موسى بن حمّاد، المكيّ (ت ٣٢٢هـ / ٩٣٤م).

١٣٧- ضعفاء العقيليّ، تح: د. عبد المعطى أمين قلّعجي، (مط، دار الكتب العلميّة، ط٣، بيروت، ١٩٩٨م).

- العلامة الحلّيّ، الحسن بن يوسف بن المطهر (ت ٧٢٦هـ / ١٣٢٦م).

٦٩٨ الحياةُ السَّيَاسِيَّةُ فِي البَصْرَةِ مِنْ (١٤هـ إِلَى ١٣٢هـ) / (٦٣٤م إِلَى ٧٤٩م)

١٣٨ - خلاصة الأقوال، تح: جواد القيومي، (مط، مؤسّسة النشر الإسلامي، ط١، ١٩٩٧م).

١٣٩ - مختلف الشيعة، تح: لجنة التأليف، (مط، مؤسّسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرّسين، ط١، قم، ١٩٩٣م).

١٤٠ - منهاج الكرامة في معرفة الأئمة، تح: عبد الرّحيم مبارك، (مط، الهادي، ط١، قم، ١٩٩٩م).

- العماد الطبري، أبو جعفر، محمّد بن أبي القاسم (ت ٥٢٥هـ / ٥٨٨م).
١٤١ - بشارة المصطفى ﷺ لشيعة المرتضى ﷺ، تح: جواد القيومي الأصفهاني، (مط، مؤسّسة النشر الإسلامي، ط١، قم، ١٤٢٠هـ).

- العياشي، أبو النّضر، محمّد بن مسعود، السمرقندي (ت ٣٢٠هـ / ٩٣٢م).
١٤٢ - تفسير العياشي، تح: الحاج هاشم، الرّسولي، المحلّاتي، (مط، المكتبة العلميّة الإسلاميّة، طهران، د.ت).

- العيني، محمود بن أحمد بن موسى، الحنفي (ت ٨٥٥هـ / ١٤٥١م).
١٤٣ - عمدة القارئ في شرح البخاري، (مط، دار إحياء التّراث العربيّ، بيروت، د.ت).

- أبو الفتح الكراجكي، محمّد بن عليّ (ت ٤٤٩هـ / ١٠٥٧م).
١٤٤ - كنز الفوائد، (مط، غدیر، ط٢، د.ت).

- فخر الدّين الرّازي، محمّد بن عمر بن الحسين (ت ٦٠٦هـ / ١٢٠٩م).
١٤٥ - المحصول في علم أصول الفقه، تح: د. طه جابر فيّاض العلوني، (مط، مؤسّسة الرّسالة، ط٢، بيروت، د.ت).

- الفراهيدي، أبو عبد الرّحمن، الخليل بن أحمد (ت ١٧٥هـ / ٧٩١م).

١٤٦- كتاب العين، تح: د. مهدي المخزومي، د. إبراهيم السامرائي، (مؤسسة دار الهجرة، ط ٢، ١٩٨٩ م).

- الفرزدق، همام بن غالب بن صعصعة، المجاشعي (ت ١١٠ هـ / ٧٢٨ م).
١٤٧- ديوان الفرزدق، شرحه وضبطه: علي فريس، (مط، مؤسسة الأعلمي، ط ١، بيروت، ١٩٩٦ م).

- الفيروز آبادي، محمد بن يعقوب بن محمد بن إبراهيم بن عمر (ت ٨١٧ هـ / ١٤١٥ م).

١٤٨- القاموس المحيط، (دار العلم، بيروت، د.ت).
- القاضي نعمان، أبو حنيفة بن محمد، التميمي، المغربي (ت ٣٦٣ هـ / ٩٧٤ م).
١٤٩- دعائم الإسلام، تح: آصف بن علي أصغر فيضي، (دار المعارف، القاهرة، ٢٠٠٣ م).

١٥٠- شرح الأخبار في فضائل الأئمة الأطهار، تح: محمد، الحسيني، الجلاي، (مط، مؤسسة النشر الإسلامي، قم، د.ت).

- ابن قتيبة الدينوري، عبد الله بن مسلم (ت ٢٧٦ هـ / ٨٨٩ م).
١٥١- الإمامة والسياسة، تح: علي شيري، (مط، شريعت، ط ١، ٢٠٠٤ م).
١٥٢- عيون الأخبار، (دار الفكر، ط ١، بيروت، ٢٠٠٣ م).
١٥٣- غريب الحديث، تح: د. عبد الله الجبوري، (مط، دار الكتب العلمية، ط ١، بيروت، ١٩٨٨ م).

١٥٤- المعارف، تح: د. ثروت عكاشة، (مط، دار المعارف- القاهرة، د.ت).
- القرطبي، أبو عبد الله، محمد بن أحمد، الأنصاري (ت ٦٧١ هـ / ١٢٧٢ م).
١٥٥- الجامع لأحكام القرآن، (مط، دار إحياء التراث العربي، بيروت،

١٩٨٥م).

- القزويني، زكريّا بن محمّد بن محمود (ت ٦٨٢هـ / ١٢٨٣م).

١٥٦- آثار البلاد وأخبار العباد، (مط، دار صادر، بيروت، د.ت).

- القمي، أبو الحسن، عليّ بن إبراهيم (ت ٣٢٩هـ / ٩٤١م).

١٥٧- تفسير القمي، تصحيح: طيّب الجزائري، (مط، نجف، قم، د.ت).

- ابن قولويه، أبو القاسم، جعفر بن محمّد، القمي (ت ٣٦٧هـ / ٩٧٨م).

١٥٨- كامل الزيارات، تح: جواد القيومي، (مط، مؤسّسة النشر الإسلامي،

ط ١- قم، ١٩٩٧م).

- ابن كثير، أبو الفداء، إسماعيل، الدمشقي (ت ٧٧٤هـ / ١٣٧٣م).

١٥٩- البداية والنهاية، (مط، دار إحياء التراث العربي، ط ١، بيروت،

١٩٨٨م).

- الكحلاني، محمّد بن إسماعيل (ت ١١٨٢هـ / ١٧٦٨م).

١٦٠- سُبُل السّلام، تح: محمّد بن عبد العزيز، الخولي، (مط، مصطفى البابي

الحلبي وأولاده، ط ٤، مصر، ١٩٩٩م).

- الكليني، أبو جعفر، محمّد بن يعقوب بن إسحاق، الرّازي (ت ٣٢٩هـ / ٩٤١م).

١٦١- الأصول من الكافي، تح: عليّ أكبر غفاري، (مط، حيدري، ط ٣،

طهران، ١٩٦٨م).

- الكوفي، محمّد بن سليمان (توفي بعد ٣٠٠هـ / ٩١٣م).

١٦٢- مناقب الإمام أمير المؤمنين عليه السلام، تح: محمّد باقر المحمودي، (مط،

النهضة، ط ١، قم، ١٩٩٢م).

- ابن ماجّة، الحافظ أبو عبد الله، محمّد بن يزيد، القزويني (ت ٢٧٥هـ / ٨٨٨م).

١٦٣ - سنن ابن ماجة، تح: محمد فؤاد عبد الباقي، (مط، دار الفكر، ط ١ بيروت ١٩٩٠م).

- المازندراني، محمد صالح (ت ١٠٨١هـ / ١٦٧٠م).

١٦٤ - شرح أصول الكافي، ضبط وتصحيح وتعليق: عليّ عاشور، الميرزا أبو الحسن الشّعرانيّ، (مط، دار إحياء التّراث العربيّ، ط ١، بيروت، ٢٠٠١م).

- ابن ماکولا، عليّ بن هبة الله (ت ٤٧٥هـ / ١٠٢٨م).

١٦٥ - إكمال الكمال، (دار إحياء التّراث العربيّ، بيروت، د.ت).

- المباركفوريّ، أبو العلا، محمد عبد الرّحمن بن عبد الرّحيم (ت ١٢٨٢هـ / ١٨٦٥م).

١٦٦ - تحفة الأحوذّي بشرح جامع الترمذّي، (ط ١، بيروت، ١٩٩٠م).

- المبرّد، أبو العبّاس، محمد بن يزيد (ت ٢٨٥هـ / ٨٨٨م).

١٦٧ - الكامل في اللّغة والأدب، (مط، دار إحياء التّراث العربيّ، ط ١، بيروت، ١٩٩٠م).

- المتّقّي الهنديّ، علاء الدّين (ت ٩٧٥هـ / ١٥٦٧م).

١٦٨ - كنز العمّال، ضبط وتصحيح: بكري حيّان، صفوة السّقا، (مؤسّسة الرّسالة، بيروت، ١٩٨٩م).

- المجلسيّ، العلّامة محمد باقر (ت ١١١١هـ / ١٧٠٠م).

١٦٩ - بحار الأنوار، (مط، مؤسّسة الوفاء، ط ٢، بيروت، ١٩٨٣م).

- محبّ الدّين الطبريّ، أحمد بن عبد الله (ت ٦٩٤هـ / ١٢٩٥م).

١٧٠ - ذخائر العقبى في مناقب ذوي القربى، (القاهرة، ١٩٥٥م).

- أبو المحاسن، شمس الدّين، محمد بن عليّ بن حمزة، الحسينيّ، الشّافعيّ

(ت ١٣٦٤هـ / ١٣٦٤م).

١٧١ - مَنْ له رواية في مسند أحمد، تح: د. عبد المعطي أمين قلعجي، (ط ١ - كراتشي، د. ت.).

- المحقّق الحليّ، نجم الدّين، أبو القاسم، جعفر بن الحسن (ت ٦٧٦هـ / ١٢٧٧م).

١٧٢ - المعتر في شرح المختصر، تح: عدّة من آفاضل، (مط، مدرسة الإمام أمير المؤمنين عليه السلام، قم، ١٩٨٦م).

- أبو مخنف، لوط بن يحيى بن سعيد بن مسلم، الغامديّ (ت ١٥٧هـ / ٧٧٤م).

١٧٣ - مقتل الحسين عليه السلام، تح: الحاج ميرزا حسن غفاريّ، (مط، العلميّة، قم، ١٩٧٨م).

- المدنيّ، ضامن بن شدقم بن عليّ، الحسينيّ (ت ١٠٨٢هـ / ١٦٧٢م).

١٧٤ - الجمل، تح: تحسين آل شبيب، الموسويّ، (مط، محمّد، ط ١، ٢٠٠٢م).

- المرزبانيّ، أبو عبد الله، محمّد بن عمران، الخراسانيّ (ت ٣٨٤هـ / ٩٩٤م).

١٧٥ - مختصر أخبار الشّيعّة وأخبار السيّد الحميريّ، تح: د. محمّد هادي الأمينيّ، (مط، الرّابعة، بيروت، ١٩٩٣م).

- المزّيّ، جمال الدّين، أبو الحجاج يوسف (ت ٧٤٢هـ / ١٣٤١م).

١٧٦ - تهذيب الكمال، تح: د. بشّار عوّاد معروف، (ط ٤، بيروت، ١٩٨٦م).

- مسلم بن الحجاج، النيسابوريّ (ت ٢٦١هـ / ٨٧٥م).

١٧٧ - صحيح مسلم، (نشر دار الفكر، بيروت، د. ت.).

- المسعوديّ، عليّ بن الحسين بن عليّ (ت ٣٤٦هـ / ٩٥٧م).

١٧٨ - التنبيه والأشرف، (دار صعب، بيروت، د. ت.).

١٧٩ - مروج الذهب ومعادن الجوهر، (مط، شريعت، ط ١، ٢٠٠٢م).

- المشهديّ، أبو عبد الله، محمّد بن جعفر (ت ٦١٠هـ / ١٢١٣م).
- ١٨٠ - المزار، تح: جواد القيوميّ الأصفهانيّ، (مط، مؤسّسة النشر الإسلاميّ، ط ١، قم، ١٩٩٩م).
- ابن معصوم، صدر الدّين، عليّ خان، المدنيّ، الشيرازيّ (ت ١١٢٠هـ / ١٧٠٩م).
- ١٨١ - الدّرجات الرّفيعة في طبقات الشّيعة، (ط ٢، قم، ١٩٧٨م).
- المفيد، محمّد بن محمّد بن النّعمان، العكبريّ، البغداديّ (ت ٤١٣هـ / ١٠٢٢م).
- ١٨٢ - الإرشاد في معرفة حجج الله على العباد، (مط، السّرور، ط ١، إيران، ٢٠٠٧م).
- ١٨٣ - الأمالي، تح: حسين الأستاذلي، عليّ أكبر غفاريّ، (ط ٢، ١٩٩٤م).
- ١٨٤ - الجمل، (نشر مكتبة الدّوريّ، قم، د.ت)
- ١٨٥ - الكافّة في إبطال توبة الخاطئة، تح: عليّ أكبر زماني نزاد، (مط، دار المفيد، ط ٢، بيروت، ١٩٩٤م).
- ١٨٦ - الفصول المختارة، تح: عليّ مير شريعتي، (مط، دار المفيد، ط ٢، بيروت، ١٩٩٤م).
- المقدسيّ، شمس الدّين، أبو عبد الله، محمّد بن أحمد بن أبي بكر (توفيّ نحو ٣٨٠هـ / ٩٩٠م).
- ١٨٧ - أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، (مط، بريل، ط ٢، لندن، ١٩٠٩م).
- المقرزيّ، تقّي الدّين، أحمد بن عليّ بن عبد القادر بن محمّد (ت ٨٤٥هـ / ١٤٤١م).
- ١٨٨ - إمتاعُ الأسماع بما للنبيّ ﷺ من الأحوال والأموال والحفدة والمتاع، (دار الكتب العلميّة، ط ١، بيروت، ٢٠٠٢م).

٧٠٤ الحياةُ السَّيَّاسِيَّةُ فِي البَصْرَةِ مِنْ (١٤هـ إلى ١٣٢هـ) / (٦٣٤م إلى ٧٤٩م)

- ابن منظور، أبو الفضل، جمال الدين، محمد بن مكرم، الإفريقي، المصري
(ت ٧١١هـ / ١٣١١م).

١٨٩ - لسان العرب، (مط، دار إحياء التراث العربي، ط ١، قم، ١٩٨٥م).

- مؤلف مجهول (توفي في ق ٣هـ).

١٩٠ - أخبار الدولة العباسية، تح: د. عبد العزيز الدوري، د. عبد الجبار

المطليبي، (مط، دار صادر، بيروت، د.ت).

- ابن ميثم البحراني، كمال الدين بن علي (ت ٦٧٩هـ / ١٢٨١م).

١٩١ - شرح مائة كلمة لأمر المؤمنين عليه السلام، تعليق وتصحيح: مير جلال

الحسيني، الأرموي، (منشورات جماعة المدرسين في الحوزة العلمية، قم، د.ت).

- الميداني، أحمد بن أحمد بن إبراهيم، النيسابوري (ت ٥١٨هـ / ١١٢٤م).

١٩٢ - مجمع الأمثال، تح: د. قصي الحسين، (مط، الهلال، ط ١، بيروت،

٢٠٠٣م).

- ناصر خسرو (ت ٤٨١هـ / ١٠٨٨م).

١٩٣ - سفرنامه، تح: د. يحيى الخشاب، (ط ٣، بيروت، ١٩٨٣م).

- ابن النديم، أبو الفرج، محمد بن أبي يعقوب إسحاق، المعروف بـ (الوراق)

(ت ٤٣٨هـ / ١٠٤٧م).

١٩٤ - الفهرست، تح: رضا تجدد، (مط، مهر، طهران، ١٩٧١م).

- النسائي، الإمام أبي عبد الرحمن أحمد بن شعيب (ت ٣٠٣هـ / ٩١٥م).

١٩٥ - سنن النسائي، (نشر دار الفكر، بيروت، ط ١، ١٩٣٠م).

- نشوان الحميري، أبو سعيد بن سعيد (ت ٥٧٣هـ / ١١٧٧م).

١٩٦ - الحور العين، تح: كمال مصطفى، (القاهرة، د.ت).

- النوبختي، أبو محمد، الحسن بن موسى (من أعلام ق ٣هـ).
- ١٩٧- فرق الشيعة، صححه وعلّق عليه: محمد صادق آل بحر العلوم، (مط، الحيدريّة- النجف الأشرف، د.ت).
- هاشم البحراني (ت ١١٠٧هـ / ١٦٩٥م).
- ١٩٨- حلية الأبرار في أحوال محمد وآله الأطهار عليهم السلام، تح: غلام رضا، (مط، بهمن، ط ١، قم، ١٩٩٠م).
- ابن هشام، أبو محمد، عبد الملك بن هشام بن أيوب، الحميري (ت ٢١٨هـ / ٨٣٣م).
- ١٩٩- السيرة النبوية، تح: محمد محيي الدين عبد الحميد، (مط، المدني، القاهرة، ١٩٦٣م).
- أبو هلال، الحسن بن عبد الله بن سهل بن سعد بن يحيى بن مهران، العسكري (توفي بعد ٣٩٥هـ / ١٠٠٥م).
- ٢٠٠- معجم الفروق اللغوية، تح: مؤسسة النشر الإسلامي، (مط، جماعة المدرّسين في الحوزة العلمية، ط ١، قم، ١٩٩٢م).
- وكيع، محمد بن خلف بن حيّان (ت ٣٠٦هـ / ٩١٨م).
- ٢٠١- أخبار القضاة، (مط، عالم الكتب، بيروت، د.ت).
- اليعقوبي، أحمد بن إسحاق أبي يعقوب بن جعفر بن وهب بن واضح (ت ٢٩٢هـ / ٩٠٤م).
- ٢٠٢- البلدان، (مط، بريل-ليدن، ١٨٩٣م).
- ٢٠٣- تاريخ اليعقوبي، (مط، شريعت، ط ٢، قم، د.ت).
- أبو يوسف، القاضي يعقوب بن إبراهيم (ت ١٨٢هـ / ٧٩٧م).

٧٠٦ الحياةُ السَّياسِيَّةُ في البصرة من (١٤هـ إلى ١٣٢هـ) / (٦٣٤م إلى ٧٤٩م)

٢٠٤ - كتاب الخراج، (مط، السَّلفِيَّة، القاهرة، ١٩٤٥م).

ثانيًا: المراجع

- الأحمَد، سامي سعيد.

٢٠٥ - تاريخ الخليج العربي من أقدم الأزمنة حتَّى التحرير العربيّ، (مط، جامعة البصرة، ١٩٨٥م).

- الأفغانيّ، سعيد.

٢٠٦ - عائشة والسَّياسة، (مط، لجنة التَّأليف و الترجمة و النشر، ط ٢، القاهرة، ١٩٥٧م).

- الأمين، حسن.

٢٠٧ - دائرة المعارف الإسلاميَّة الشَّيعيَّة، (دار التعارف للمطبوعات، ط ٥، ١٩٩٦م).

- الأمين، محسن.

٢٠٨ - أعيان الشَّيعَة، تح: حسن الأمين، (مط، دار المعارف، بيروت، ١٩٨٣م).

٢٠٩ - لواعج الأشجان في مقتل الحسين عليه السلام، (مط، العرفان، صيدا، ١٩٤٩م).

- أيُّوب، سعيد.

٢١٠ - معالم الفتن، (مط، شريعت، ط ٢، قم، ٢٠٠٠م).

- باش أعيان، عبد القادر.

٢١١ - البصرة في أدوارها التَّاريخيَّة، (مط، دار البصريّ، بغداد، ١٩٦١م).

- بحر العلوم، محمّد.
٢١٢- لمحات من الصّراع السّياسيّ في الإسلام (العهد الأمويّ)، (مط، دار
الزّهراء، ط ١، بيروت، ٢٠٠٧م).
- البدريّ، سامي.
٢١٣- المدخل إلى دراسة مصادر السّيرة النّبويّة والتاريخ الإسلاميّ، (مط،
برهان، ط ٢، بغداد، ٢٠٠٧م).
- البراقيّ، حسين أحمد النجفيّ.
٢١٤- تاريخ الكوفة، تح: ماجد بن أحمد العطية، (مط، شريعت، ط ١،
٢٠٠٤م).
- البغداديّ، إسماعيل باشا.
٢١٥- هديّة العارفين، أسماء المؤلّفين وآثار المصنّفين، (مط، البهية، استانبول،
١٩٥١م).
- بللا، شارل.
٢١٦- الجاحظ في البصرة وبغداد وسامراء، ترجمة: د. إبراهيم الكيلانيّ، (مط،
دار الفكر، ط ١، دمشق ١٩٨٥م).
- بيضون، إبراهيم.
٢١٧- الحجاز و الدّولة الإسلاميّة، (مط، دار النهضة العربيّة، ط ٢، بيروت،
١٩٩٥م).
- ٢١٨- ملامح التّيارات السّياسيّة في القرن الأوّل الهجريّ، (مط، دار النهضة،
بيروت، ١٩٧٩م).
- ٢١٩- التّوابون، (بيروت، ١٩٧٤م).

٧٠٨ الحياةُ السَّيَاسِيَّةُ فِي البَصْرَةِ مِنْ (١٤هـ إلى ١٣٢هـ) / (٦٣٤م إلى ٧٤٩م)

- بِيضُون، لَبِيب.

٢٢٠- موسوعة كربلاء، (مط، سليمان نزاده، ط ١، قم، ٢٠٠٦م).

- التستري، محمد تقى.

٢٢١- قاموس الرجال، تح: مؤسّسة النشر الإسلامي، (مط، مؤسّسة النشر

الإسلامي، ط ١، قم، ٢٠٠٢م).

- التَّيجَانِي، مُحَمَّد السَّامَوِيّ.

٢٢٢- لأكون مع الصّادقين، (دون معلومات).

- جرداق، جورج.

٢٢٣- الإمام عليّ صوت العدالة الإنسانيّة، اختصار، تح: حسن حميد السّنيّد،

(مط، ليل، ط ١، ٢٠٠٤م).

٢٢٤- روائع نهج البلاغة، (مط، باقري، ط ٢، ١٩٩٧م).

- جودة، جمال.

٢٢٥- الأوضاع الاجتماعيّة والاقتصاديّة للموالي في صدر الإسلام، (مط، دار

البشير، الأردن، ١٩٨٩م).

- الحائري، محمد مهدي.

٢٢٦- شجرة طوبى (مط، الحيدريّة، ط ٥، النجف الأشرف، ١٩٦٦م).

- الحاج، محمد حسين.

٢٢٧- حقوق آل البيت عليهم السلام، تح: المحقّق جعفر السّبحانيّ، (مط، مهر، ط ١،

١٩٩٥م).

- حرفوش، عبد القادر فيّاض.

٢٢٨- قبيلة تميم في الجاهليّة والإسلام، (مط، دار الشّام، ط ١، دمشق،

٢٠٠٢م).

- حسن، ناجي.

٢٢٩- القبائل العربيّة في المشرق خلال العصر الأمويّ، (مط، منيمنة، ط ١،

بيروت، ١٩٨٠م).

- الحسنيّ، هاشم معروف.

٢٣٠- الانتفاضات الشيعيّة عبر التاريخ، (بيروت، د.ت).

- حسين، الدّكتور طه.

٢٣١- الفتنة الكبرى، (مط، دار المعارف، ط ١٢، القاهرة، د.ت).

- حسين، عبد الرزّاق عبّاس.

٢٣٢- نشأة مدن العراق وتطوّرها، (مط، الإرشاد، ط ٢، بغداد، ١٩٧٧م).

- الحكيم، محمّد تقي.

٢٣٣- عبد الله بن عبّاس، (مط، ستارة، ط ١، قم، ٢٠٠١م).

- أبو حلتّم، الدّكتور نبيل خليل

٢٣٤- الفرق الإسلاميّة فكراً وشعراً، (دار الثقافة، ط ١، بيروت، ١٩٩٠م).

- حمادة، لمياء.

٢٣٥- أخيراً أشرقَت الرّوح، (ط ١، ٢٠٠٠م).

- حمادة، محمّد ماهر.

٢٣٦- الوثائق السّياسيّة والإداريّة العائدة للعصر الأمويّ، (مط، دار النفائس،

ط ١، بيروت، ١٩٧٤م).

- حمور، عرفان محمّد.

٢٣٧- أسواق العرب، (مط، دار الشّورى، ط ١، بيروت، ١٩٧٩م).

- حيدر، أسد.
- ٢٣٨- مع الحسين في نهضته، (مط، دار التعارف، ط٣، سوريا، ١٩٧٩م).
- خالد، محمد خالد
- ٢٣٩- أبناء الرسول في كربلاء، (ط٥، ١٩٨٦م).
- الخليلي، جواد جعفر.
- ٢٤٠- شرح القصيدة الرائية تتمّة التريّة، (مط، الإرشاد، ط١، بيروت، ٢٠٠١م).
- ٢٤١- محاكمات الخلفاء وأتباعهم، (مط، الإرشاد، ط١، بيروت، ٢٠٠١م).
- الخوئي، أبو القاسم الموسويّ.
- ٢٤٢- معجم رجال الحديث وتفصيل طبقات الرواة، تح: لجنة التحقيق (ط٥، ١٩٩٣م).
- داود، حامد حفني.
- ٢٤٣- نظرات في الكتب الخالدة، تح: مرتضى الرضويّ، (مط، دار العلم، ط١، القاهرة، ١٩٧٩م).
- داود، نبيلة عبد المنعم.
- ٢٤٤- نشأة الشيعة الإمامية، (ط١، بيروت، ١٩٩٤م).
- الدجيلي، محمد رضا حسن.
- ٢٤٥- فرقة الأزارقة، (مط، النعمان، النجف الأشرف، ١٩٧٣م).
- الراوي، ثابت إسماعيل.
- ٢٤٦- العراق في العصر الأمويّ من الناحية السّياسيّة والاجتماعيّة، (مط، النعمان، ط٢، النجف الأشرف، ١٩٧٠م).

- الرَّجَا، حسين.

٢٤٧- دفاع عن وحي الشريعة ضمن دائرة السُّنَّة والشَّيعة، (ط١، بيروت، ٢٠٠٠م).

- الرئيس، محمد ضياء الدين.

٢٤٨- الخراج والنظم الماليَّة للدولة الإسلاميَّة، (ط٤، القاهرة، ١٩٧٧م).

- الريشهري، محمد.

٢٤٩- القيادة في الإسلام، (مط، دار الحديث، ط١، قم، د.ت).

٢٥٠- موسوعة الإمام علي بن أبي طالب (عليه السلام) في الكتاب والسُّنَّة والتاريخ، تح: مركز بحوث دار الحديث، (مط، دار الحديث، ط٢، بيروت، ٢٠٠٥م).

٢٥١- موسوعة العقائد الإسلاميَّة، تح: مركز بحوث دار الحديث، (مط، دار الحديث، ط١، بيروت، ٢٠٠٥م).

٢٥٢- ميزان الحكمة، تح: دار الحديث، (مط، دار الحديث، ط١، د.ت).

- زامباور.

٢٥٣- معجم الأنساب والأُسرات الحاكمة في التاريخ الإسلامي، أخرجه: د. زكي محمد حسن، حسن أحمد محمود، (مط، جامعة فؤاد الأولى، ١٩٥١م).

- الزبيدي، عبد الرضا.

٢٥٤- الرسائل السياسيَّة بين الإمام علي ومعاوية، (مط، أمير، ط١، قم، ٢٠٠٠م).

- الزركلي، خير الدين.

٢٥٥- الأعلام، (ط٥، بيروت، ١٩٨٠م).

- زيدان، جرجي.

٧١٢..... الحياةُ السَّياسِيَّةُ في البصرةِ من (١٤هـ إلى ١٣٢هـ) / (٦٣٤م إلى ٧٤٩م)

٢٥٦- تاريخ التمدّن الإسلاميّ، (مطبعة درا المكتبة، بيروت، د.ت).

- أبو زهرة، محمّد.

٢٥٧- تاريخ المذاهب الإسلاميّة، (مط، دار الفكر، د.ت).

- السَّاعديّ، حسين.

٢٥٨- المعلّى بن خنيس شهادته ووثاقته ومسنده، (مط، دار الحديث، ط ١،

قم، ٢٠٠٥م).

- السَّامرائيّ، الدّكتور عبد الله سلّوم.

٢٥٩- الغلو والفرق الغالية في الحضارة الإسلاميّة، (مط، دار الحديث، ط ٢،

بغداد، ١٩٨٢م).

- السَّبحاني، جعفر.

٢٦٠- رسائل ومقالات، (نشر مؤسّسة الإمام الصّادق، قم، د.ت).

٢٦١- الزيدية في موكب التاريخ، (مط، دار الأضواء، ط ١، بيروت،

١٩٩٧م).

- سر كيس، يعقوب.

٢٦٢- مباحث عراقية في الجغرافية والتاريخ والآثار وخطط بغداد/ القسم

الثالث، تعليق: معن حمدان عليّ، (مط، دار الحرّية، بغداد، ١٩٨٠م).

- السَّماويّ، محمّد طاهر.

٢٦٣- إبصار العين في أنصار الحسين، تح: محمّد جعفر الطبيسيّ، (مط، حرس

الثورة الإسلاميّة، ط ١، ١٩٩٩م).

- سنان، محمود بهجت.

- ٢٦٤- البحرين دُرّة الخليج العربيّ، (ط١، ١٩٦٣م).
- الشّبلنجيّ، مؤمن بن حسين بن مؤمن (توفيّ بعد ١٣٠٨هـ / ١٨٩١م).
- ٢٦٥- نور الأبصار في مناقب آل النبيّ المختار، تح: سامي الغريّيّ، (ط١، قم، ٢٠٠٤م).
- الشّاكريّ، حسين.
- ٢٦٦- شهداء أهل البيت عليهم السلام / مسلم بن عقيل، (مط، ستاره، ط١، قم، ٢٠٠٠م).
- ٢٦٧- من أعلام الصّحابة و التابعين، (مط، ستاره، ط٢، قم، ١٩٩٨م).
- الشّامي، فاطمة قدّوره.
- ٢٦٨- تطوّر تاريخ العرب السّياسيّ والحضاريّ من العصر الجاهليّ إلى العصر الأمويّ، (مط، دار النهضة العربيّة، ط١، بيروت، ١٩٩٧م).
- الشّاهروديّ، عليّ النّمازيّ.
- ٢٦٩- مستدرّكات علم رجال الحديث، (مط، الحيدريّة، ط١، طهران، ١٩٩٤م).
- ٢٧٠- مستدرّك سفينة البحار، تح: حسن بن عليّ النّمازيّ، (نشر مؤسّسة النشر الإسلاميّ لجامعة المدرّسين، قم، د. ت. ط).
- الشّروانيّ، المولى حيدر عليّ بن محمّد.
- ٢٧١- مناقب أهل البيت، تح: محمود حسّون، (مط، منشورات إسلاميّة، ١٩٩٤م).
- شمس الدّين، محمّد مهديّ.
- ٢٧٢- أنصار الحسين عليه السلام، (ط٢، ١٩٨١م).

٧١٤..... الحياةُ السَّياسِيَّةُ في البصرة من (١٤هـ إلى ١٣٢هـ) / (٦٣٤م إلى ٧٤٩م)

٢٧٣- دراسات في نهج البلاغة، (مط، دار الزَّهراء، ط ٢، بيروت، ١٩٧٢م).

- الشنتاوي، أحمد، إبراهيم خورشيد، عبد الحميد يونس.

٢٧٤- دائرة المعارف الإسلاميَّة، مراجعة د. محمَّد مهدي علّام، (دون

معلومات).

- الشَّيخلي، محمَّد رؤوف السَّيِّد طه.

٢٧٥- تاريخ البصرة القديمة وضواحيها سنة (١٤) للهجرة، وما بعدها،

(مط، البصرة، ط ١، ١٩٧٢م).

- الشيرازي، محمَّد الموسوي.

٢٧٦- الفرقة الناجية، تح: فاضل الفراتي، (مط، دار الأمين، ط ٢، بيروت

٢٠٠٤م).

- الشيرازي، ناصر مكارم.

٢٧٧- الأمل في تفسير كتاب الله المنزل، (قم، الحوزة العلميَّة، ١٩٨٤م).

- الصَّلابي، عليّ محمَّد محمَّد.

٢٧٨- الدَّولة الأمويَّة عوامل الازدهار وتدعيات الانهيار، (مط، الصَّراط،

ط ١، بيروت، ٢٠٠٦م).

- الطبرسي، ميرزا حسين النوي.

٢٧٩- مستدرك الوسائل ومستنبط المسائل، تح: مؤسَّسة آل البيت عليه السلام

لإحياء التَّراث، (ط ٢، بيروت، ١٩٨٨م).

- الطَّبسي، نجم الدِّين.

٢٨٠- النفي والتغريب في مصادر التشريع الإسلامي، (مط، مؤسَّسة الهادي،

ط ١، قم، ١٩٩٦م).

- طه، عبد الواحد ذنون.
- ٢٨١- العراق في عهد الحجاج بن يوسف، الثقفي، (مط، مطابع جامعة الموصل، ١٩٨٥م).
- العاملي.
- ٢٨٢- الانتصار، (مط، دار السيرة، ط ١، بيروت، ٢٠٠٢م).
- العبودي، نافع توفيق.
- ٢٨٣- آل المهلب بن أبي صفرة ودورهم في التاريخ حتى منتصف القرن الرابع الهجري، (مط، المتنبي، ط ١، بغداد، ١٩٧٩م).
- العبيدي، محمود عبد الله الإبراهيم.
- ٢٨٤- بنو شيخان ودورهم في التاريخ العربي والإسلامي، (مط، دار الحرية، بغداد، ١٩٨٤م).
- العسكري، مرتضى.
- ٢٨٥- أحاديث أم المؤمنين عائشة، (مط، النهضة، ط ١، ١٩٩٧م).
- ٢٨٦- خمسون ومائة صحابي مختلف، (دار التوحيد، طهران، ١٩٩٤م).
- ٢٨٧- عبد الله بن سبأ وأساطير أخرى، (ط ٦، ١٩٩٢م).
- العسكري، نجم الدين الشريف.
- ٢٨٨- أبو طالب حامي الرسول (مط، الآداب، ط ٤، النجف الأشرف، د.ت).
- عطوي، عليّ نجيب.
- ٢٨٩- الكميت بن زيد الأسدي بين العقيدة والسياسة، (مط، دار الأضواء، ط ١، بيروت، ١٩٨٨م).

٧١٦ الحياةُ السَّياسِيَّةُ في البصرة من (١١٤هـ إلى ١٣٢هـ) / (٦٣٤م إلى ٧٤٩م)

- العقَّاد، عبَّاس محمود.

٢٩٠- موسوعة أعمال عبَّاس محمود العقَّاد، العبقريَّات الإسلاميَّة، (ط٢، بيروت، ١٩٩١م).

- عقيل، محمَّد.

٢٩١- النصائح الكافية لمن يتولَّى معاوية، (مط، دار الثقافة، ط١، قم، ١٩٩٢م).

- عليّ، جاسم صكبان.

٢٩٢- موسوعة البصرة الحضاريَّة/ الموسوعة التاريخيَّة، البصرة في العصر الأمويّ، (مط، التعليم العالي في البصرة، ١٩٨٩م).

- عليّ، جواد.

٢٩٣- المفصَّل في تاريخ العرب قبل الإسلام، (دار الجيل، بيروت، د.ت).

- عليّ خان، عبد الله.

٢٩٤- التديّن في السِّياسة والعمل السِّياسيّ، (مط، دار البيان العربيّ، ط١، بيروت، ١٩٩٠م).

- العليّ، صالح أحمد.

٢٩٥- امتدادات العرب في صدر الإسلام، (مط، مؤسَّسة الرِّسالة، ط٢- بيروت، ١٩٨٣م).

٢٩٦- التنظيمات الاجتماعيَّة والاقتصاديَّة في البصرة في القرن الأوَّل الهجريّ، (مط، الطليعات، ط٢، بيروت، ١٩٦٩م).

٢٩٧- خطط البصرة ومنطقتها، (مط، المجمع العلميّ العراقيّ، بغداد، ١٩٨٦م).

- العليّ، يوسف ناصر.
- ٢٩٨- تاريخ البصرة قبل الإسلام، (كرّاس خاصّ صادر عن مركز دراسات البصرة بمناسبة يوم الجامعة، نيسان، ٢٠٠٥م).
- عمارة، محمّد.
- ٢٩٩- الإسلام وفلسفة الحكم، (ط٢، بيروت، ١٩٧٩م).
- العميد، هاني.
- ٣٠٠- صورة البصرة في بخلاء الجاحظ، (مط، دار الشؤون الثقافية العامّة، ط١، بغداد، ١٩٩٠م).
- ابن الغملاس.
- ٣٠١- ولاية البصرة ومتسلّموها من (١٤ إلى ١٣٣٣هـ)، (مط، دار البصريّ بغداد، ١٩٦٢م).
- الفراجي، عدنان عليّ.
- ٣٠٢- حركات المعارضة للخلافة الأمويّة (٩٦-١٠٥هـ)، (مط، الإشعاع بغداد، ١٩٩٠م).
- فلسفي، محمّد تقّي.
- ٣٠٣- الطّفل بين الوراثة و التربية، تح: فاضل الحسينيّ الميلانيّ، (مط، الأوحّد، ط٢، قم، ٢٠٠٥م).
- فلهاوزن، يوليوس.
- ٣٠٤- تاريخ الدّولة العربيّة من ظهور الإسلام إلى نهاية الدّولة الأمويّة، ترجمة: محمّد عبد الهادي أبو ريّدة، (مط، الأميريّة، القاهرة، د.ت).
- ٣٠٥- الخوارج والشّيعة، ترجمة د. عبد الرّحمن بدوي، (ط٥، القاهرة،

٧١٨..... الحياةُ السَّياسِيَّةُ في البصرة من (١٤هـ إلى ١٣٢هـ) / (٦٣٤م إلى ٧٤٩م)

١٩٩٨م).

- فوزي، فاروق عمر.

٣٠٦- تاريخ العراق في عصر الخلافة العربيَّة الإسلاميَّة، (١١-٦٥٦هـ / ٦٢٢

-١٢٥٨م)، (مط، مكتبة النهضة، ط ١، بغداد، ١٩٨٨م).

٣٠٧- العباسيون الأوائل، (مط، جامعة بغداد، ط ٢، ١٩٧٧م).

- فيصل، شكري.

٣٠٨- المجتمعات الإسلاميَّة في القرن الأوَّل، (مط، دار العلم للملايين،

ط ٤، بغداد، ١٩٧٨م).

- قاسم، عون الشريف.

٣٠٩- شعر البصرة في العصر الأمويّ، (مط، دار القلم، بيروت، د.ت).

- القرشيّ، باقر شريف.

٣١٠- حياة الإمام الحسين عليه السلام، (مط، الآداب، ط ١، النجف الأشرف،

١٩٩٥م).

٣١١- النظام السَّياسي في الإسلام، (مط، دار التعارف، ط ٢، بيروت،

١٩٧٨م).

- الكاتب، محمّد طارق.

٣١٢- شطّ العرب وشطّ البصرة والتاريخ، (مط، مصلحة الموانئ العراقيَّة،

ط ١، البصرة، ١٩٧١م).

- الكبسيّ، عبد المجيد محمّد صالح.

٣١٣- عصر هشام بن عبد الملك (١٠٥-١٢٥هـ)، (مط، سلمان العظمي،

بغداد، ١٩٧٥ م).

- كَحّالة، الدّكتور عمر رضا.

٣١٤- معجم قبائل العرب القديمة والحديثة، (مط، دار العلم للملايين، ط٢، بيروت، ١٩٦٨ م).

- كريم، فارس حسّون.

٣١٥- الرّوض النّضير في معنى حديث الغدير، (مط، دانش، ط١، ١٩٩٩ م).

- الكورانيّ، عليّ.

٣١٦- جواهر التاريخ، (مط، شريعت، ط١، قم، ٢٠٠٤ م).

٣١٧- معجم أحاديث المهديّ ﷺ، (مط، بهمن، ط١، ١٩٩١ م).

- كي لسترنج.

٣١٨- بلدان الخلافة الشّرقية، نقله إلى العربيّة: بشير فرنسيس، كوركيس عوّاد، (مط، نهضت، ط١، ١٩٩٣ م).

- لجنة التّأليف.

٣١٩- أعلام الهداية، (مط، ليلي، ط١، قم، ٢٠٠٢ م).

- لجنة الحديث في معهد باقر العلوم.

٣٢٠- موسوعة شهادة المعصومين، (ط١، قم، ٢٠٠٠ م).

٣٢١- موسوعة كلمات الإمام الحسين ﷺ، (مط، الآثار، ط١، قم، ٢٠٠٣ م).

- اللّاري، مجتبيّ الموسويّ.

٣٢٢- دراسة في أسس الإسلام، ترجمة: كمال السيّد، (مط، الهادي، ط٢، قم،

٢٠٠٥ م).

- اللّيثي، سميرة مختار.

٧٢٠..... الحياةُ السَّياسِيَّةُ في البصرة من (١٤هـ إلى ١٣٢هـ) / (٦٣٤م إلى ٧٤٩م)

٣٢٣- جهاد الشيعة في العصر العباسي الأول، (مط، دار الجليل، ط ٢، بيروت ١٩٧٨م).

- ماجد، عبد المنعم.

٣٢٤- التاريخ السياسي للدولة العربية، (عصر الجاهلية والنبوة والخلفاء الراشدين)، (مط، مكتبة الإنجلو، ط ٤، القاهرة، ١٩٦٧م).

- ماسينيون، الميسو لويس فردنياند.

٣٢٥- خطط الكوفة وشرح خريطتها، تح: كامل سلمان الجبوري، (مط، الغري الحديثة، ط ١، النجف الأشرف، ١٩٧٩م).

- مشكور، محمد جواد.

٣٢٦- موسوعة الفرق الإسلامية، تعريب: علي هاشم، (ط ١، بيروت، ١٩٩٥م).

- المالكي، حسن فرحان.

٣٢٧- نحو إنقاذ التاريخ الإسلامي، (الرياض، ١٩٩٨م).

- المامقاني، عبد الله بن الحسن بن عبد الله بن محمد باقر، النجفي (ت ١٣٥١هـ / ١٩٣٣م).

٣٢٨- تنقيح المقال في علم الرجال، (مط، المرتضوية، ط الحجرية، النجف الأشرف، ١٩٨٣هـ).

- المبارك، عبد الحسين، عبد الجبار ناجي.

٣٢٩- من مشاهير أعلام البصرة، (مط، جامعة البصرة، سلسلة منشورات مركز الخليج العربي، ١٩٨٣م).

- مجمع الكنائس الشرقية.

٣٣٠- قاموس الكتاب المقدّس، (نشر مكتبة المشغل، بيروت، رابطة الكنائس الإنجيليّة في الشرق الأوسط، ط٦، ١٩٨١م).

- مجموعة من الأساتذة.

٣٣١- الأمصار والحياة الاقتصاديّة في صدر الإسلام، (بيروت، د. ت. ط).

- المحموديّ، محمّد باقر.

٣٣٢- نهج السّعادة في مستدرك نهج البلاغة، (مط، النعمان، ط١، النجف الأشرف، ١٩٦٦م).

- مرتضى، جعفر.

٣٣٣- حياة الإمام الرّضا عليه السلام، (نشر دار التبليغ الإسلاميّ، ١٩٧٨م).

- المرعشيّ، شهاب الدّين النجفيّ.

٣٣٤- شرح إحقاق الحقّ، تح: محمود المرعشيّ، (مط، حافظ، ط١، قم، ١٩٩٨م).

- مركز المصطفى للدراسات الإسلاميّة.

٣٣٥- العقائد الإسلاميّة، (ط١، قم، ١٩٩٩م).

- مصطفى، شاكر.

٣٣٦- المدن في الإسلام حتّى العصر العثمانيّ، (مط، ذات السلاسل، ط١، ١٩٨٨م).

- المغربيّ، إدريس الحسينيّ.

٣٣٧- لقد شيّعني الحسين، (مط، مهر، ط١، ١٩٩٥م).

- المنتظري، الشّيخ.

٣٣٨- دراسات في ولاية الفقيه وفقه الدّولة الإسلاميّة، (ط١، قم، ١٩٨٩م).

٧٢٢ الحياةُ السِّياسِيَّةُ في البصرة من (١٤هـ إلى ١٣٢هـ) / (٦٣٤م إلى ٧٤٩م)

- المنصوريّ، نزار عبد المحسن.

٣٣٩- النصرَة لشيعة البصرة، (مط، القلم، ط ١، قم، ٢٠٠٣م).

- منفرد، عليّ نظري.

٣٤٠- قصّة كربلاء، مراجعة وتعريب: محمّد البدريّ، (مط، القلم، ط ١، قم،

٢٠٠٦م).

- مهتّا، الدكتور محمّد نصر.

٣٤١- الفتوحات الإسلاميّة والعلاقات السِّياسِيَّة في آسيا، (مط، أطلس،

القاهرة، ١٩٩٠م).

- الموسويّ، عبد الحسين شرف الدّين.

٣٤٢- الفصول المهمّة في تأليف الأئمّة، (مط، مؤسّسة البعثة، ط ١، طهران،

د.ت).

٣٤٣- المجالس الفاخرة في مآتم العترة الطاهرة، (مط، عترة، ط ١، قم،

٢٠٠١م).

- الموسويّ، مصطفى عبّاس.

٣٤٤- العوامل التاريخيّة لنشأة وتطوّر المدن العربيّة الإسلاميّة، (مط، دار

الرّشيد، ١٩٨٢م).

- الميانجيّ، عليّ الأحمديّ.

٣٤٥- مواقف الشيعة، (مط، مؤسّسة النشر الإسلاميّ، ط ١، قم، ١٩٩٦م).

- الميرجهانيّ، عبد الفاني حسن الطباطبائيّ.

٣٤٦- مصباح البلاغة في مشكاة الصّياغة، (سنة الطبع، ١٩٦٩م).

- الميلانيّ، عليّ الحسينيّ.

٣٤٧- دراسات في منهاج السنّة لمعرفة ابن تيمية، (مط، ياران، ط ١، ١٩٩٩ م).

٣٤٨- نفحات الأزهار في عقبات الأنوار، (مط، مهر، ط ١، ١٩٩٤ م).

- ناجي، عبد الجبار.

٣٤٩- إسهامات مؤرّخي البصرة في الكتابة التاريخية حتّى القرن الرابع

الهجري، (مط، دار الشؤون الثقافية العامة، ط ١، بغداد، ١٩٩٠ م).

٣٥٠- دراسات في تاريخ المدن العربيّة الإسلاميّة، (مط، جامعة البصرة،

١٩٨٦ م).

- ناصر، الدكتور محمّد صالح.

٣٥١- منهج الدّعوة عند الإباضيّة، (مط، النهضة، ط ٢، سلطنة عُمان،

٢٠٠٢ م).

- النّجار، عامر.

٣٥٢- الخوارج عقيدة وفكراً وفلسفة، (مط، دار المعارف، ط ٤، القاهرة،

١٩٩٤ م).

- النجم، عبد الرّحمن عبد الكريم.

٣٥٣- البحرين في صدر الإسلام وأثرها في حركة الخوارج، (مط، دار الحرّيّة

بغداد، ١٩٧٣ م).

- النجم، مهدي عبد الحسين.

٣٥٤- ثورات العلويّين وأثرها في نشوء المذاهب الإسلاميّة، (مط، مؤسّسة

البلاغة، ط ١، بيروت، ٢٠٠٣ م).

- النجمي، محمّد صادق.

٣٥٥- أضواء على الصّحيحين، ترجمة: يحيى كمال البحراني، (مط، باسدار

٧٢٤ الحياةُ السَّياسِيَّةُ في البصرة من (١٤هـ إلى ١٣٢هـ) / (٦٣٤م إلى ٧٤٩م)

إسلام، ط١، قم، ١٩٩٩م).

- نخبة من الباحثين.

٣٥٦- حضارة العراق (مط، دار الحرّية، بغداد، ١٩٨٥م).

- النصّ، إحسان.

٣٥٧- العصبيّة العربيّة وأثرها في الشّعْر الجاهليّ، (دار اليقظة العربيّة، بيروت،

د.ت).

- النصر الله، جواد كاظم.

٣٥٨- شرح نهج البلاغة، لابن أبي الحديد المعتزليّ رؤية اعتزاليّة عن الإمام

عليّ (عليه السلام)، (ط١، طهران، ٢٠٠٤م).

- النقديّ، جعفر.

٣٥٩- الأنوار العلويّة، (مط، الحيدريّة، ط٢، النجف الأشرف، ١٩٦٢م).

- الهاشميّ، عليّ بن الحسين.

٣٦٠- ثمرات الأعواد، (مط، شريعت، ط٢، ٢٠٠٦م).

- الهمدانيّ، أحمد الرّحمانيّ.

٣٦١- الإمام عليّ بن أبي طالب (عليه السلام)، (مط، أفست فتاحي، ط١، تهران،

١٩٩٧م).

- الوردانيّ، صالح.

٣٦٢- السّيف والسّياسة في الإسلام، (ط١، ١٩٩٦م).

- آل ياسين، راضي.

٣٦٣- صلح الحسن (عليه السلام)، (مط، أمير، ط١، قم، ١٩٩٤م).

- يعقوب، أحمد حسين.

٣٦٤- كربلاء الثورة والمأساة، (ط١، ١٩٩٧م).

- يعقوب، أميل بديع.

٣٦٥- موسوعة أمثال العرب، (دار الجيل، بيروت، د. ت).

ثالثاً: الرسائل الجامعية

- الخيرو، رمزية عبد الوهاب.

٣٦٦- إدارة العراق في عهد زياد، (رسالة ماجستير غير منشورة، مقدّمة إلى

كلية الآداب / جامعة بغداد، ١٩٧٥م).

- الدّرّاجي، هاشم داخل حسين.

٣٦٧- عقوبة النفي في الدولة العربية الإسلامية حتى نهاية التسلط التركي

(٣٣٤هـ / ٩٤٥م)، (أطروحة دكتوراه غير منشورة، مقدّمة إلى كلية الآداب /

جامعة البصرة، ٢٠٠٧م).

- الزوّار، منعم عبد الرّحيم حميد.

٣٦٨- الفكر السّياسي عند الخوارج، (رسالة ماجستير غير منشورة، مقدّمة

إلى كلية الآداب / جامعة البصرة، ٢٠٠٠م).

- السّوداني، رباب جبار.

٣٦٩- جبهة البصرة، (رسالة ماجستير غير منشورة، مقدّمة إلى كلية الآداب /

جامعة البصرة، ١٩٨٩م).

- الفراجي، عدنان عليّ كرموش.

٣٧٠- الخلافة الأموية (٩٦-١٠٥هـ)، دراسة في التاريخ السّياسي والإداري،

(رسالة ماجستير غير منشورة، مقدّمة إلى كلية الآداب / جامعة بغداد، ١٩٨٧م).

٧٢٦ الحياةُ السَّيَّاسِيَّةُ فِي البَصْرَةِ مِنْ (١٤هـ إلى ١٣٢هـ) / (٦٣٤م إلى ٧٤٩م)

- كاظم، شاكر مجيد.

٣٧١- التنشئة الاجتماعية عند العرب قبل الإسلام، (أطروحة دكتوراه غير منشورة، مقدّمة إلى كليّة الآداب / جامعة البصرة، ٢٠٠٢م).

- محسن، إبراهيم جدّوع.

٣٧٢- إمارة البطائح العربيّة، (رسالة ماجستير غير منشورة، مقدّمة إلى كليّة الآداب / جامعة بغداد، ١٩٨٦م).

- المياحيّ، شكري ناصر عبد الحسن.

٣٧٣- الإمام عليّ بن أبي طالب عليه السلام دراسة في فكره العسكريّ، (أطروحة دكتوراه غير منشورة، مقدّمة إلى كليّة الآداب / جامعة البصرة، ٢٠٠٥م).

- إلياس، عبد الوهّاب خضر.

٣٧٤- نظام العطاء الإسلاميّ، (١٥-٢١٨هـ / ٦٣٦-٨٣٣م)، (رسالة ماجستير غير منشورة، مقدّمة إلى كليّة الآداب / جامعة الموصل، ١٩٧٣م).

رابعاً: الدّوريات

- الألوسيّ، محمود شكري.

٣٧٥- عقوبات العرب في جاهليّتها وحدود المعاصي التي يرتكبها بعضهم، تح: محمّد بهجت الأثري، مجلّة المجمع العلميّ العراقيّ، (مج ٣٥، ج ٢، بغداد ١٩٨٤م).

- الحجّاج، محسن مشكل.

٣٧٦- موقف أهل البصرة من واقعة الطفّ، مجلّة رسالة الرّافدين، (مط، الإرشاد الحديث، ع ٢، السّنة الأولى، بغداد، آذار، ٢٠٠٥م).

- الحسيني، محمد رضا.
٣٧٧- تسمية مَنْ قُتل مع الإمام الحسين عليه السلام، مجلّة تراثنا، (مط، مهر، ع٢، قم، ١٩٨٦م).
- حمادي، محمد جاسم.
٣٧٨- ولاية عبد الله بن عامر للبصرة وإصلاحاته الاقتصادية فيها، مجلّة المؤرّخ العربيّ، (ع٢١، ١٩٨٢م).
- الخرام آبادي، محمد عليّ الحائريّ.
٣٧٩- مقتل أمير المؤمنين عليه السلام، مجلّة تراثنا، (مط، مهر، ع٢، السّنة الرّابعة، قم، ١٩٨٩م).
- خطاب، محمود شيث.
٣٨٠- الأحنف بن قيس، التميمي، مجلّة المجمع العلميّ العراقيّ، (مط، المجمع العلميّ العراقيّ، مج١١، ١٩٦٤م).
- ٣٨١- المهلب بن أبي صفرة، الأزديّ، مجلّة كليّة الآداب، (مط، العاني، ع٦، بغداد، نيسان، ١٩٦٤م).
- محمود، هادي حسين.
٣٨٢- البصرة في عهد الوالي زياد بن أبيه، مجلّة المورد، (مط، دار الحرّية، مج٥، ع٤، بغداد، ١٩٧٦م).
- النصر الله، جواد كاظم.
٣٨٣- ولاية ابن عبّاس في عهد الإمام عليّ والإمام الحسن عليهما السلام، مجلّة رسالة الرّافدين، (السّنة الأولى، ع٤، البصرة، ٢٠٠٦م).
- الهاشمي، سلمى عبد الحميد حسين.

٧٢٨ الحياةُ السِّياسِيَّةُ في البصرةِ من (١٤هـ إلى ١٣٢هـ) / (٦٣٤م إلى ٧٤٩م)

٣٨٤- وفادةُ أبناءِ البصرةِ إلى بلاطِ الخلافةِ في القرنينِ الأوَّل والثاني للهجرة،
مجلةُ دِيالى، (ع١٢، ٢٠٠٢م).

فهرس المحتويات

الإهداء.....	٧
مقدمة المركز.....	٩
المقدمة وتحليل المصادر.....	١٣
الفصل الأول: البصرة قبل (٣٦هـ)	٤١
المبحث الأول: البصرة قبل الفتح الإسلامي.....	٤٣
المبحث الثاني: البصرة في عهد حكومة عمر وعثمان.....	٧١
المبحث الثالث: موقف أهل البصرة من مقتل عثمان.....	١٠٧
المبحث الرابع: ميول أهل البصرة.....	١٢٤
الفصل الثاني: البصرة في عهد الإمام علي بن أبي طالب (عليه السلام)	١٤٧
المبحث الأول: عائشة وأهل البصرة ومعركة الجمل الأصغر.....	١٤٩
المبحث الثاني: الصراع السياسي بين الإمام علي (عليه السلام) وأهل الجمل في البصرة...٢٠٦	
المبحث الثالث: البصرة زمن ولاية عبد الله بن عباس.....	٢٤٧
المبحث الخامس: البصرة في عهد الإمام الحسن (عليه السلام).....	٢٩٦
الفصل الثالث: البصرة في العصر الأموي	٣٠٩
المبحث الأول: البصرة في العهد السفيني.....	٣١١
المبحث الثاني: أوضاع البصرة بعد هلاك يزيد بن معاوية.....	٣٧٣
المبحث الثالث: سيطرة عبد الله بن الزبير على البصرة.....	٣٩٦

٧٣٠..... الحياةُ السَّيَاسِيَّةُ فِي البَصْرَةِ مِنْ (١٤هـ إلى ١٣٢هـ) / (٦٣٤م إلى ٧٤٩م)

المبحث الرابع: البصرة في العهد المرواني..... ٤٢١

الفصلُ الرَّابِعُ: البصرة والثَّورات المناهضة للدولة الأمويَّة ٤٦٥

المبحث الأوَّل: البصرة ونهضة الإمام الحسين عليه السلام..... ٤٦٧

المبحث الثاني: البصرة وثورة ابن الجارود..... ٤٩٦

المبحث الثالث: البصرة وثورة عبد الرَّحْمَنِ بن مُحَمَّد بن الأشعث..... ٥٠٨

المبحث الرابع: البصرة وثورة يزيد بن المهلَّب..... ٥٢٧

الفصلُ الخامسُ: البصرةُ والخوارج ٥٤٧

المبحث الأوَّل: خوارجُ البصرة زمن الإمام عليٍّ عليه السلام..... ٥٤٩

المبحث الثاني: خوارجُ البصرة زمن الدولة الأمويَّة..... ٥٨٧

المبحث الثالث: أهلُ البصرة والخوارج الأزارقة..... ٦٣٠

الخاتمة..... ٦٥٧

مُلحقان..... ٦٦٣

مصادرُ البحث ومراجعُهُ..... ٦٧٩

فهرست المحتويات..... ٧٢٩